

جامــعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الانسانية

قســم التاريــخ

مشــرق البحــر المتوســط في عصــر المماليــك

"دراسة سياسية اقتصادية في تاريخ المنطقة من معركة عين جالوت إلى الغزو التيموري

٦٥٨-٨٠٨هـ/١٢٦٠-١٤٠٥م"

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

أنس عبدالله المحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

إهـــــــــــــداء.......

إلى الأُمّي؛ معلم البشرية.....

إلى اليتيم الذي أحيا قلوب الملايين....

سيدي محمد رسول الله ﷺ

إلى الغائبَيْن الحاضرَيْن....

أبي ويامن رحمهما الله

إلى من أعطت بكل صدق، ولم تبتغِ من وراء ذلك مطمعاً...

أمي الغالية أدامها الله

إلى رفاق مسيرة العمل والأمل....

أخوتي الأعزاء أدامهم الله

تنويـــه

لا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أتوجه بجزيل الشكر إلى جامعة دمشق التي أوفدتني، والتي أتمنى لها موقعاً مرموقاً بين جامعات العالم، كما أخص بفائق التقدير والاحترام الأستاذ الدكتور سهيل زكار، الذي تجاوز بعطائه وكرمه عطاء أيّ مشرف، فكان له فضل اقتراح هذا الموضوع، والاشراف عليه، وتقديم كل مايلزم لإتمامه، وكان لي شرف التلمذة على يده.

المحتوى

دلالة الرموز والمختصرات
ت = توفي
تح = تحقيق
تر = ترجمة
ج = جزء
(د.ت) = دون تاريخ النشر
(د.م) = دون مكان النشر
ص = صفحة
ط = طبعة
ق = قسم
م = ميلادي
مج = مجلد
هـ = هجري

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أسهم الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط – ولا يزال – بشكل كبير في التفاعلات الحضارية، والتحولات السياسية والاقتصادية في العالم أجمع منذ فجر التاريخ، ويعود السبب في ذلك لما تحتله هذه المنطقة من موقع جغرافي استراتيجي، إذ تتوسط قارات العالم القديم، إضافة إلى ما امتلكته من قوة بشرية واقتصادية كبيرة، ومن بُعد حضاري عميق، مكنها من أن تشغل دوراً محورياً على مسرح الأحداث العالمية.

فمنذ فجر التاريخ كان مشرق البحر المتوسط مهداً للحضارات العالمية التي انطلقت على أيدي أجدادنا العرب، من فينيقيين وغيرهم، لتصل إلى جميع بلدان البحر المتوسط؛ فعلى سبيل المثال أظهرت الحفريات الأثرية أن جل مدن الأندلس قد جاء تأسيسها للمرة الأولى على أيدي الفينيقيين الذين انطلقوا من مهدهم في مشرق البحر المتوسط، ومن بعد الفينيقيين تعاقبت القوى العالمية على حكم مشرق البحر المتوسط، فعلى التوالي قدم إلى المنطقة كل من المصريين، ثم الآشوريين، ثم الكلدانيين، ثم الفرس، ثم اليونان، ثم الرومان إلى أن عادت السيطرة العربية عليها مع قدوم المسلمين.

ومع نشاط حركة الفتوح الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي أخذت المنطقة بُعداً استراتيجياً أكثر من ذي قبل، ولا سيما عندما غدت مركز العالم في العصر الأموي، وقاعدة لانطلاق الحملات ضد الإمبراطورية البيزنطية براً وبحراً.

لذلك أدرك الغرب الأوربي أن مشرق البحر المتوسط هو المدخل إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه، وبالسيطرة عليه يفقد العالم الإسلامي أهم أسس عظمته، ومن ثم يسهل التحكم فيه سياسياً واقتصادياً، بعد أن يسيطروا على طرق التجارة العالمية التي كانت خطوطها تبدأ وتنتهي في مشرق البحر المتوسط وأسواقه، لهذا السبب ولغيره بدأت الحملات الصليبية المكثفة على المنطقة في نهاية القرن الخامس

الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إذ انتهت إلى احتلال ساحل بلاد الشام بشكل شبه كامل مع أجزاء من سواحل آسيا الصغرى التي اتخذها الصليبيون نقطة انطلاق لهم نحو دمشق وحلب ومصر.

وتزامن وجود الصليبيين في المنطقة مع ظهور قوة جديدة في شرق آسيا؛ هي قبائل المغول التي توحدت لتشكل قوة ضاربة قادمة من الشرق تطوي الأرض طياً حتى وصلت إلى هذه المنطقة، فهم أدركوا أهميتها كمنفذ لهم على البحر المتوسط، وعلموا أن من يسيطر على هذا الجزء من العالم يمتلك موقعاً استراتيجياً يمكنه من التحكم بأمن العالم واقتصاده، - هذا المفهوم تكامل أيضاً فيما بعد مع الدولة العثمانية، ثم مع روسيا القيصرية ومحاولاتها المتكررة للوصول إلى المياه الدافئة (البحر المتوسط)، لذلك لقيت التصدي العنيف من قبل الإنكليز والفرنسيين (حليفا العثمانيين)، اللذين أدركوا مدى خطورة وصول قوة عظمى إلى هذه المنطقة، فقاموا فيما بعد باحتلالها، وزرع الكيان الصهيوني فيها كرأس جسر لهم نحو الجزء الشرقي من العالم، فالمنطقة في هذه الأيام تشهد ما شهدته منذ ثمانية قرون - .

ومن القوى الجديدة التي ظهرت أيضاً على مسرح الأحداث آنذاك؛ دولة إرمينية الصغرى في كيليكيا، التي تحالفت مع المغول؛ وقبل ذلك مع الصليبيين لتحمي نفسها ككيان قائم في جزء استراتيجي ومهم، أما الإمبراطورية البيزنطية فقد انحسرت سيطرتها عن المنطقة لتصبح أشبه بإمبراطورية مدينة القسطنطينية، وبدأت الإمارات التركمانية تَرِثُ ملكها، ولعل أهمها إمارة بني عثمان.

هكذا أصبحت المنطقة التي تشكل سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى والسواحل المصرية (المعروفة باسم ليفانت = لبنان) منطقة متميزة متداخلة الصراعات، والأحداث تتفاعل وتحدث تغيرات هنا وهناك، وقد وصلت إلى ذروة التعقد، لذا بات من الضرورة دراسة تلك التطورات فيها، فوقع الاختيار على مرحلة ما بعد الحملة السابعة التي شهدت قيام سلطنة المماليك، واستمرت حتى بداية الغزو التيموري الذي أحدث تغيرات كبرى وفاصلة في المنطقة (٦٥٨-٨٠٨هـ/١٢٦٠-١٤٠٥م).

والسؤال: لماذا هذه المدة بالتحديد؟

بدأت بعد معركة عين جالوت مرحلة جديدة من تاريخ المنطقة، نسفت كل الثوابت السياسية التي كانت سائدة من قبل، وقدمت للعالم قوة جديدة هي المماليك، هذه القوة التي تمكنت بعد قرن من

ظهورها من إخضاع مشرق البحر المتوسط بأكمله لسيطرتها، واستمرت الأوضاع على ما هي عليه حتى اجتياح تيمورلنك للمنطقة، فقد غيّر اجتياحه كل الملامح السياسية فيها، وبدأت بعده حالة جديدة، تخلخلت فيها موازين القوى، ولم تعد كما كانت من قبل، لذلك فالهدف الذي تسعى إليه هذه الأطروحة هو دراسة الحالة الأولى؛ أي المتغيرات السياسية والاقتصادية في المنطقة من معركة عين جالوت حتى الغزو التيموري.

فالبحث يتناول منطقة قائمة بذاتها متداخلة الأحداث؛ متفاعلة، وهو من الأبحاث الشائكة والمعقدة، ولا سيما أن أطراف النزاع فيه عديدة، ومتداخلة مع بعضها بعضاً، ومسرح الأحداث فيها واسع وفسيح؛ إذ يشمل الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والزمن الذي نبحث فيه شهد تحولات عديدة من احتلال، وتحرير، وظهور قوى جديدة.

وتأتي أهمية هذا الموضوع أيضاً في أنه يكشف جذور كثير من الظواهر السياسية والاقتصادية التي ورثها عالمنا المعاصر عن العصور الإسلامية المتأخرة، فالمنطقة التي شهدت الحروب والصراعات، هي ذاتها تشهد اليوم صراعات وأحلاف سياسية واقتصادية بين قوى عديدة لأهداف متقاربة.

ومن غير شك أن نجد مصادر كُثُر تؤرخ لتلك الحقبة؛ لأن الحركة التأريخية عند المسلمين بلغت ذروتها في العصر المملوكي مع المؤرخين العظام أمثال النويري، وابن خلدون، والمقريزي، والقلقشندي....إلخ، فمسألة المصادر، وتوفر المادة العلمية لم تكن تشكل عائقاً أمام البحث، وإنما جاءت المصاعب من غزارة الأحداث، وتشابكها، وكثرة الأطراف التي قد تشترك في حدث واحد، من هنا جاءت الحاجة إلى ترتيب هذه الأحداث، وايجاد الرابط بينها، والمسبب لها، وكيف تم التعامل مع كل حدث من قبل الأطراف المتعددة.

ولهذا السبب قسمت الأطروحة إلى فصول، وتطرق كل فصل من فصول هذه الدراسة إلى علاقة المماليك – بحكم أنهم الأقوى — مع طرف من هذه الأطراف، فبعد المقدمة، ودراسة المصادر والمراجع، والتمهيد الذي جُعل للتعريف بالمنطقة والقوى الموزعة فيها آنذاك، تناول الفصل الأول العلاقة بين المغول والمماليك، والمواجهات التي تمت بينهم من معركة عين جالوت حتى عقد الصلح بينهم سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، ولطول هذه الحقبة التاريخية وُزِّعَ البحث على فقرات قُسمت حسب عهود السلاطين المماليك

الذين تصدوا للمغول، ولم يقتصر الحديث على المواجهات فقط، بل تم التعرض لمحاولات التحالف المغولي مع الغرب الأوربي، والمحاولات المخفقة لعقد الصلح مع المماليك.

أما الفصل الثاني فتناول الحديث عن العمليات العسكرية التي قام بها المماليك ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام، وقُسم هذا الفصل أيضاً إلى فقرات اعتماداً على الأعمال العسكرية لكل سلطان مملوكي حتى تحرير عكا، وتم التعرض فيه لعمليات القرصنة الأوربية ضد السواحل المملوكية، بينما اقتصر الفصل الثالث على علاقة المماليك مع الطرف الثالث؛ أي إرمينية الصغرى، فتحدث عن نشأة هذه المملكة، ودورها في مشرق البحر المتوسط إبّانَ حقبة البحث، وعلاقاتها مع جيرانها، وأشار إلى نشاطها القوي مع المغول للسيطرة على المنطقة، وإلى الحملات المملوكية المجردة عليها إلى أن تمت إزالتها عن الوجود.

وخُصص الفصل الرابع للحديث عن المتغيرات الدولية في المنطقة في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الهجري، ولعل أهم تلك المتغيرات قيام سلطنة المماليك الثانية، وما رافقها من اضطرابات في بلاد الشام، غير أن الشيء الأكثر أهمية هو الهجوم المغولي على المنطقة بقيادة تيمورلنك، هذا الاجتياح الغاشم لبلاد الشام ثم لآسيا الصغرى، وما نتج عنه من نتائج بدأت تتغير معها ملامح الشرق الأوسط من جديد، فمع اجتياح تيمورلنك انتهت مرحلة من تاريخ المنطقة كان الاستقرار عنوانها الأساسي، وكان المماليك فيها القوة الرئيسية، لتبدأ بعد ذلك السلطنة المملوكية بالتراجع في ظل مرحلة سادها النزاع والصراع بين الطوائف المملوكية.

ولم تقتصر هذه الدراسة على الجانب السياسي فقط، بل تعدته إلى الجانب الاقتصادي، الذي لم يُعرض بمعناه الواسع، لأن ذلك يشكل بحد ذاته ميداناً فسيحاً، لذلك اقتصر على الاقتصاد السياسي؛ أي أثر الاقتصاد في السياسة الدولية آنذاك، وذلك من خلال التَعَرُف على أهم القوى الاقتصادية، وعلاقتها مع القوى العسكرية، هذا ما تناوله الفصل الخامس الذي تم الحديث فيه أيضاً عن الطرق والمراكز التجارية، والهدف من ذلك الإشارة إلى أهمية القوة التي تهيمن على هذه الطرق والمنافذ، كما تمت الإشارة إلى أهم السلع المتداولة في التجارة، من مراكز إنتاجها، إلى طرق نقلها، وتصريفها، وتعرض البحث بشكل مقتضب إلى القوى التجارية؛ ولاسيما البندقية وجنوى، ولعلاقتها بقوى المنطقة، والامتيازات الممنوحة لها هناك.

فقد حرصت هذه الجمهوريات التجارية أشد الحرص على إقامة أوثق العلاقات التجارية مع قوى المنطقة، في الوقت الذي كان فيه سعي دائم من قبرص لتفرض نفسها كقوة متحكمة بالنشاط التجاري، أحياناً عن طريق السيطرة على بعض موانئ آسيا الصغرى وجعلها محطات لها؛ ولاسيما آياس، وأحياناً بالغارات المدمرة على الشواطئ الشامية والمصرية، مثلما فعل بطرس الأول ملك قبرص عندما أغار على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م.

أما الخاتمة فكانت مقتصرة على عرض أهم النتائج التي تم التوصل إليها خلال البحث، وذُيلت هذه الخاتمة بجريدة للمصادر والمراجع التي بُني عليها هذا البحث.

دراسة المصادر

اعتمدت الدراسة على العديد من المصادر كان أهمها على الإطلاق فيما تعلق بقيام دولة المماليك كتابين، الأول: الذيل على الروضتين لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: ٦٦٥هـ /١٢٦٧م)، فقد عاصر قيام دولة المماليك، وكان قد صنف في تاريخ الحروب الصليبية كتاب الروضتين، ووضع للروضتين ذيلاً ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين، كما دون بعض أخبار الحوادث التي عاصرها وعلى هذا يمكن اعتبار مواده شبه وثائقية، وهي عظيمة الأهمية لا يمكن الاستغناء عنها.

والكتاب الثاني هو: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لمؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، وتأتي أهميته كونه معاصراً لكثير من الأحداث التي دَوّنها، وخاصة ما ساد بين أبناء البيت الأيوبي من خلافات وعداء وحروب، ويذكر أنه استقى معلومات الأحداث التي لم يكن شاهد عيان فيها من رجال كانوا يحتلون مكانة مهمة في العصر الأيوبي، ولا يمكن الاستغناء عنه في الحديث عن قيام الدولة المملوكية والصراع مع بنو أيوب في بلاد الشام.

ويأتي على رأس مؤرخي عصر المماليك القاضي محيي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، كان من أهم الشخصيات الأدبية والإدارية في عصر المماليك، فقد عاصر قيام السلطنة المملوكية، وكان من شهود عين جالوت، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء في القاهرة عندما تولى السلطنة السلطان الظاهر بيبرس، واستمر في منصبه هذا في أيام المنصور قلاوون، ثمّ في أيام ابنه الأشرف خليل.

دَوّن ابن عبد الظاهر ثلاث مؤلفات تتضمن سيرة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة في كتب منفردة، هي على التوالي: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية.

هذه الكتب باستثناء الروض الزاهر ما وصلنا منها كان ناقصاً، إلا أن ما جاء في هذه الكتب يُعد على درجة عالية من الأهمية، فهي غنية بالأحداث، إذ دَوّن فيها صاحبها بشكل أساسي الأعمال التي استهدفت تصفية الوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام، والتصدي للخطر المغولي، وإن أي باحث يكتب عن عصر المماليك لا يمكنه الاستغناء عن هذه الكتب.

وقام الحسن بن عمر بن حبيب (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، بعمل مشابه لعمل ابن عبد الظاهر عندما أقدم على التصنيف بالتأريخ الخاص لعدد من الحكام، فكان كتابه تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حيث أَرَّخَ فيه لحكم المنصور قلاوون وأولاده، ولكن من المآخذ على هذا الكتاب أنه غلب عليه الطابع الأدبي والتصنع والاختصار.

من المصادر الوثائقية التي اعتمدت عليها الأطروحة الجزء التاسع من كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لبيبرس الدوادار (ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، كان بيبرس هذا مملوكاً اشتراه الناصر قلاوون سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وهو من بلاد الخطا، مما يرجح أن يكون أصله مغولياً.

تحرر بيبرس من الرق وتدرج في المناصب وخاصة بعد اعتلاء قلاوون لعرش السلطنة، وعمل في خدمة كل من المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد، ولم يتورط في أعمال العصيان، وفي أيام الناصر محمد أصبح دواداراً له، وكلفه بديوان الإنشاء مما زاد في اطلاعه وثقافته، وفي تلك الأيام كتب كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة الذي جاء في ١١جزء، وقيل أكثر من ذلك، لم يصل منها سوى الرابع والخامس والسادس والتاسع، وهذا الأخير هو أهمها على الإطلاق لأنه كان معاصراً لأحداثه، مشاهداً لمعظمها، ولهذا فإن معلوماته التي دونها في هذا الجزء معلومات وثائقية، وخاصة ما تعلق بالمعارك وعمليات التحرير في الساحل الشامي، لأنه بحكم اختصاصه العسكري، وموقعه في الدولة كان على اطلاع بتفاصيل دقيقة، فرواها بطريقة جعلت كتابه من أهم مصادر تلك الحقبة، وقد اختصر في كتابه (مختار الأخبار) الأحداث التي عاصرها، أي أحداث سلطنة المماليك، كما وضع كتاب آخر أسماه التحفة الملوكية، بدأه بسلطنة أيبك وجاءت مواده مشابه لمواد زبدة الفكرة مع شيء من التأنق في الكلام، وقد تم الاعتماد على مواده بشكل كبير في ثنايا الأطروحة.

ويحتوي كتاب ذيل مرآة الزمان لقطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونيني البعلبكي (ت: ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) على مواد غنية جداً حول المرحلة المبكرة من العصر المملوكي، ولاسيما حول أحوال بلاد الشام بشكل عام، وعلى الرغم من أن هذه المواد قد عُرضت بشكل مشوش بعض الشيء،

فإن ما ورد خلال أخبار الحوليات وفي ثنايا تراجم الوفيات ثمين جدا تمت الإفادة منه في عدة أماكن من الدراسة.

ومن الكتب المهمة كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء إسماعيل بن علي، (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، فعندما استولى المماليك على بلاد الشام قاموا بتصفية الممالك الأيوبية باستثناء مملكة حماه، التي عاشت مدة طويلة، فاشتهر من حكامها آنذاك أبو الفداء المذكور، وكان لهذا شهرته الواسعة بالتاريخ والجغرافيا، ففي علم التاريخ كان لكتابه هذا أهمية خاصة تأتي من خلال مشاركته في بعض أحداثه، إلا أنه في جزء كبير منه كان مُختصراً لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وبعد وفاة أبي الفداء جاء ابن الوردي، عمر بن مظفر المعري، (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، فاختصر كتاب أبي الفداء وأكمله بعنوان تتمة المختصر في أخبار البشر.

ويُعد كتاب البداية والنهاية لابن كثير عماد الدين إسماعيل (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، من أشهر كتب تاريخ الإسلام العامة وأهمها، ذلك أن ابن كثير عاش في دمشق في عصر المماليك وشهد الكثير من أحداثها، ونقل عمن تقدمه من المؤرخين.

ظهر في العصر المملوكي مؤرخين أوقفوا أعمالهم على حادث معين، وكان أشهرهم النويري صاحب كتاب: الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، الذي أوقفه للتأريخ لحادثة اجتياح القبارصة للإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، شكل كتاب النويري أوفى مصدر عن حملة بطرس الأول على الإسكندرية، المؤرخ أصله من مدينة نويرة في صعيد مصر، نشأ وتوفي في الإسكندرية، وعمل فيها بنسخ الكتب مما زاد في ثقافته، وكان مقيماً فيها أثناء اجتياحها من قبل القبارصة، توفي حسب تقدير المؤرخين سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، بدأ بتأليف كتابه بعد الوقعة بخمسة أشهر، أورد فيه تفاصيل مهمة لم تتوفر عند غيره، ومما يؤخذ عليه خروجه عن سياق الكلام أثناء حديثه عن الوقعة، لكنه يبقى الأهم عن هذه الحملة وعن العمليات الأخرى التي قام بها القبارصة ضد الشواطئ المملوكية.

ويعد ابن الفرات المصري ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت: ٨٠٧ هـ /١٤٠٥م) من أعظم المؤرخين المصريين في العصر المملوكي، ذلك بأنه أودع بكتابه تاريخ الدول والملوك مواد ثمينة تعلقت بكثير

من الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها بلاد الشام، ولاسيما أثناء التصدي للغزو المغولي وخلال أعمال التحرير وتصفية الوجود الصليبي في الساحل، وقد جرى اعتماد تاريخ ابن الفرات والإفادة منه في أماكن متعددة من الدراسة.

وكان ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) من المؤرخين الذين أمضوا شطراً من حياتهم في مصر والشام أيضا، وابن خلدون أشهر من أن يعرّف، وشهرته نابعة مما جاء في مقدمة كتابه في التاريخ بعنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

والذي يهمنا هنا هو ما أورده حول قيام دولة المماليك الثانية تحت حكم الشراكسة، واجتياح تيمورلنك لبلاد الشام، فابن خلدون كان داخل دمشق لدى حصار تيمور لها، وقد اجتمع بتيمور وتحدث عن اجتماعه به في كتاب آخر من كتبه هو التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، وقد تمت العودة إلى كتابي ابن خلدون والإفادة منهما في أماكن عدة من الدراسة.

وكان ابن خلدون صاحب مدرسة تاريخية واسعة التأثير، وكان ممن تأثر به بشكل كبير المقريزي مؤرخ مصر الإسلامية، ونظراً للمكانة الكبيرة لهذا المؤرخ، ولكونه قدم أهم ما صنف بأخبار الدولة المملوكية يستحق أن نقف عنده أكثر من سواه ونوليه المزيد من العناية.

المقريزي هو تقي الدين أحمد بن علي، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م من أسرة تنتمي بالأصل إلى بعلبك، وكانت تقطن في حي من أحيائها عُرف باسم حي المقارزة، زالت الآن معالمه ولم يعد أحد يعرفه.

حصل المقريزي على ثقافة عالية والتحق بعدد من الوظائف السامية، كما قام بزيارة عدد من بلدان العرب خاصة مكة ودمشق حيث أقام في كل منهما فترة طويلة، وقد انتهت حياته بالقاهرة سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م.

وكان المقريزي غزير الإنتاج وخاصة في ميدان التاريخ، ويمكن تصنيف إنتاجه في هذا الباب إلى قسمين: المؤلفات الكبيرة، والرسائل الصغيرة، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع

التاريخ الإسلامي العام، أو على تاريخ مصر الإسلامية عبر عدة مراحل أولها منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام حكم الخلافة الفاطمية، وثانيهما تاريخ هذه الخلافة حتى سقوطها، وثالثهما– هو ما يهمنا – منذ نهاية العصر الفاطمي وحتى أيامه في العصر المملوكي.

أما الرسائل الصغيرة فقد عالج فيها المقريزي عدداً من المواضيع المهمة للغاية، ارتبط معظمها بمشاكل العصر المملوكي، وفي هذه الرسائل تظهر أصالة المقريزي وعبقريته العظيمة.

لسنا بحاجة للحديث عن مصنفات المقريزي الكبيرة باستثناء كتابه السلوك، وقد أوقف المقريزي هذا الكتاب على التاريخ المملوكي مقدما له بأخبار الأيوبيين، ويعد هذا الكتاب العملاق المصدر الأساسي الذي لا يستغنى عنه في التاريخ المملوكي، ولحسن الحظ تم نشره الآن كاملا في اثني عشر مجلداً كبيراً، وكانت الإفادة منه في ثنايا هذه الدراسة كبيرة جداً.

وما دمنا بصدد الحديث عن المقريزي من المفيد أن نشير إلى كتابه الذي وضعه حول خطط القاهرة بعنوان المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لأنه أساسي في التاريخ العمراني لهذه المدينة ولأصولها الإسلامية.

وفي بلاد الشام كان ابن قاضي شهبة أبو بكر أحمد الأسدي الدمشقي (٧٧٩– ٨٥١ هـ / ١٣٧٧– ١٤٤٨ م) أعظم مؤرخيها أيام المقريزي، وقد كتب تاريخاً كبيراً ذيّل به على تاريخ ابن كثير البداية والنهاية، ثم اختصر هذا التاريخ، وكان حجم هذا المختصر كبيرا نشر منه محققاً الجزء الثالث، وفي هذا الكتاب معلومات شامية غنية تعزز ما أورده المقريزي وتزيد في كثير من الحالات والتفاصيل وقد تمت الإفادة منها خلال الدراسة، ولا سيما فيما تعلق باحتلال دمشق من قبل تيمورلنك، لأن ابن قاضي شعبة كان موجود في دمشق آنذاك وعمره أكثر من عشرين عام.

وكان من كبار مؤرخي هذا العصر أيضاً ابن حجر العسقلاني، وهو أحمد بن علي بن حجر الشافعي العسقلاني الأصل، المصري المولد، القاهري الدار والنشأة (ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وقد اختلف ابن حجر إلى المعلمين والشيوخ وعني بالدرجة الأولى بدراسة الحديث ورجاله، ودرس الفقه واللغة والحساب و نال قسطاً وافياً من علوم عصره.

كان ابن حجر غزير الإنتاج جيّده، وكان الحديث ورجاله ميدان عمله الأساسي، ومع الحديث كتب في التاريخ والتراجم، وكتابه إنباء الغمر بأبناء العمر أهم كتبه التاريخية.

فابن حجر تولى عدداً من المناصب العالية، وكانت له صلات شخصية ببعض السلاطين كما كان من أصحاب الرحلة في تتبع الأخبار داخل مصر وخارجها في الشام والحجاز واليمن، وأتاح له هذا كله ما لم يتح لغيره فاطلع على معلومات عجز معاصروه عن الوصول إليها، وقد أودع هذا كله في كتابه إنباء الغمر وكتب التراجم، وكان كتاب إنباء الغمر أهم مصادر هذه الأطروحة.

ومن كتب ذلك العصر كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الذي صنفه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، توفي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، وهو من أصل تركي، وكان والده قائداً أعلى (أتابك) للعسكر المصري، مما أتاح له فرصة الاطلاع على تفاصيل عصره السياسية والإدارية، وكانت الإفادة من هذا الكتاب كبيرة.

واستمرت حركة التاريخ نشطة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وأهم المؤرخين الذين تمت الإفادة من مصنفاتهم هم: علي بن داود الصيرفي المعروف بالخطيب الجوهري (-٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) ومحمد بن أحمد بن إياس (- ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م).

صنف ابن الصيرفي كتاب نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان وصنف ابن اياس بدائع الزهور في وقائع الدهور، وهذه الكتب مفيدة جداً في التاريخ لأواخر العصر المملوكي.

وظهر في العصر المملوكي مؤلفات مهمة تناولت مواضيع وعلوم عديدة من الأدب والتاريخ والديانات والإدارة، منها كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري؛ أحمد ابن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين، وعُرف بالنويري نسبةً إلى نويرة، وهي قرية من قرى بني سويف في صعيد مصر، توفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٣١م.

نال النويري ثقافة جيدة لأنه كان يعمل بالوراقة، وكان ينسخ الكتب بخط يده ويبيعها، ويأتي على رأس الموسوعيين، فقد نال شهرته من خلال كتابه نهاية الأرب، مطبوع منه حالياً ٣٣ مجلداً، تحتوي على معلومات ثمينة عن تاريخ المماليك ، وهناك كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وهو من

المؤلفات الضخمة والشاملة ألفه ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد كاتب السر في الديار المصرية، توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م، وهذا الكتاب موسوعي تناول معارف وعلوم عديدة من الأدب والديانات والتاريخ والآثار، ويقدم معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية وعن الأقليات الدينية وعلاقتها مع الدولة، وكان العمري على اطلاع على هذه الأمور بوصفه أحد رجال الدولة في عصر المماليك حيث عمل في ديوان الإنشاء، وتم الاستفادة فيما قدمه من معلومات.

وعلى نمط هذا الكتاب هناك كتاب قيم هو صبح الأعشى في صناعة الإنشا لمؤلفه أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، توفي سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م، وهذا الكتاب من الكتب الرائعة، وقد اعتمد مؤلفه في كتابته بشكل رئيس على كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري، وكتاب ابن فضل الله هذا من الكتب القديمة والفريدة من نوعها، يقدم معلومات قيمة عن النيابات مع وصف موجز لأعمال كل نيابة وأهم الوظائف الإدارية فيها، وقد زاد القلقشندي في صبح الأعشى على ابن فضل الله في التعريف بالمصطلح بتقديم معلومات جغرافية واقتصادية وإدارية مهمة، كما أنه لا غنى لأي باحث في ذلك العصر عن النصوص الوثائقية الواردة فيه، وعن تعريفاته بمصطلحات ذلك العصر.

ويحتوي كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لغرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري، توفي سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م معلومات إدارية عالية الأهمية حول نيابات السلطنة المملوكية، فهو يقدم معلومات نادرة عن مراكز البريد وغيرها من الإدارات، وتأتي أهمية معلومات ابن شاهين من كونه كان مطلعاً على تفاصيل الأمور، وذلك بسبب تقلده لمناصب رفيعة منها أتابكية العسكر في صفد.

وتحتوي كتب الجغرافيا على معلومات قيمة لا يمكن أن تستغني عنها أيَّة دراسة أكاديمية في التاريخ الإسلامي، ومن أهمها كتاب معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي، توفي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م، وسمي بالحموي نسبة إلى مولاه الذي اشتراه، وشغله مولاه بالأسفار في شتى أصقاع الأرض، وقد حصل في أسفاره هذه على معلومات كثيرة جمعها وأودعها في كتابه معجم البلدان والذي أتمه بمساعدة جمال الدين القفطي، والمعلومات التي يقدمها عن جغرافية البلاد وطبيعتها وعن شعبها، هي معلومات فريدة من نوعها. ويشابهه كتاب تقويم البلدان لمؤلفه أبي الفداء إسماعيل وهو من أهم كتب الجغرافيين العرب ومن أشهرها.

وفي هذا السياق من المفيد الإشارة إلى عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، أبو عبدالله الأنصاري الحلبي الذي عاصر قيام دولة المماليك، فقد ولد في حلب سنة ٦١٣ هـ / ١٢٧١ م وعاش فيها حتى كان الغزو المغولي، فهرب منها وتوجه إلى مصر والتحق بخدمة السلطان الظاهر بيبرس، وظل في مصر حتى توفي سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م .

كان ابن شداد مؤرخا وجغرافيا وصنف عدة كتب أهمها كتاب الأعلاق الخطيرة، ونظرا لغلبة الطابع الجغرافي عليه سيتم تناوله بين الكتب الجغرافية، وسنشير هنا إلى كتابه الذي أرخ به لحياة السلطان الظاهر بيبرس وعصره، فهذا الكتاب أهم مصدر في بابه حوى من تفاصيل الأخبار ودقتها ما لا نجده عند غيره، لكن لسوء الحظ إن ما وصلنا منه يشكل قطعة صغيرة من آخر الكتاب، وتحتوي هذه القطعة على مواد ثمينة استثمرت في مكانها خلال الدراسة.

ومن الضروري التعرض في هذه الدراسة لأهم المصادر الأجنبية التي تم الركون إليها، وأهمها:

- المصادر الأرمنية:

من المصادر الأرمنية المهمة كتاب الأمير الأرمني سمباط، هذا الأمير هو أخاً للملك هيثوم الأول، وقائداً لجيوشه، عمل في خدمته وخدمة ابنه الملك ليون الثاني، بالإضافة إلى أنه قائداً عسكرياً كان سفيراً ورجل سياسة، سفر إلى المغول في إيران، وتوفي سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م.

اعتمد في تاريخه على ما جاء عند متى الرهاوي وغريغوري الراهب، بالإضافة إلى ما شاهده وعاصره، وقد توقف تاريخه عند أحداث سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٤م، ويمثل تاريخه وجهة النظر الرسمية لمملكة إرمينية الصغرى، وتأتي أهمية تاريخه من المادة الإخبارية التي قدمها عن هذه الدولة، وعلى ما عاصره من أحداث ولا سيما بعد اجتياح هولاكو لبغداد ثم هزيمة جيوشه في عين جالوت.

كان سمباط واسع الثقافة، وكتابه هذا كان واحداً من كتابين أرمنيين تم الاعتماد عليهما، الثاني هو لغريغوري أوف أكانك، أوقفه على التأريخ للمغول حتى أيام أبغا خان (٦٦٣-٦٨١هـ/١٢٦٥-١٢٨٢م)، وسماه تاريخ أمة الرماة، ومعلوماته مهمة جداً، وكون هذين الكتابين ركن أساسي لكثير من الأحداث التي تم تناولها في هذا البحث، ولا سيما في ما تعلق بالعلاقات المغولية الأرمنية.

- المصادر الصليبية:

أهمها على الإطلاق الجزء الثالث من كتاب أعمال القبارصة (Gestes des chipirois) للفارس الداوي الصوري جيرارد أوف مونتريل، ويشكل هذا الكتاب أهم الروايات حول الأيام الأخيرة للصليبيين في بلاد الشام، وهو شاهد عيان على تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وعلى العديد من الحوادث، ويتفق في كثير من رواياته مع المؤرخين المسلمين المعاصرين.

عمل هذا المؤرخ في خدمة الأميرة مرغريت لوزينان صاحبة إنطاكية، ولما تزوجت من جون أوف مونتفورت واستقرت في صور استقر معها هناك، وهذا سبب نسبته إلى صور، ثم عمل بعد عام ١٢٨٢م في خدمة مقدم الداوية وليم بيجو (١٢٧٣-١٢٩١م) وهذا سبب نسبته إلى الداوية، مع أنه لم يكن أحد أفرادها.

كان هذا المؤرخ مقرب جداً من وليم بيجو بشكل سمح له الاطلاع على تفاصيل دقيقة، فمثلاً عندما ذهب وفد إلى المنصور قلاوون لتحريضه على تحرير عكا كان يعلم الشخصين الذي تألف منهما الوفد، ولأن الأمر خطير رفض الإفصاح عنهم، ومرة أخرى أفصح عن اسم الجاسوس الشخصي لوليم بيجو الموجود في مصر، وكان أحد الأمراء الكبار، فمعرفته بهذه التفاصيل تزيد في أهمية نصه وترفعه إلى درجة الوثائقية.

بالإضافة إلى هذا فإن المؤرخ أجاد اللغة العربية وقام بترجمة الرسائل المرسلة من المماليك إلى الصليبيين كما حدث سنة ١٢٨٩م عندما ترجم رسالة الأشرف خليل إلى وليم بيجو.

وفي كتابه رواية واضحة عن حياة الصليبيين وما ساد بينهم من تنافس في الساحل الشامي، وقد تم الاعتماد عليه بشكل كبير إلى حد أنه شكل المرتكز الأساسي في العديد من الأحداث التي جرت تناولها في ثنايا الأطروحة ولا سيما حصار عكا.

يأتي كتاب غليوم دي ماخوت المسمى بـ (الاستيلاء على الإسكندرية)، في مرتبة ثانية بعد كتاب الإلمام للنويري في الحديث عن الحملة القبرصية، هذا المؤرخ فرنسي الأصل من مقاطعة شمبانيا، توفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م وكان عمره حوالي ٩٢ سنة، أوقف كتابه للتأريخ لحياة الملك بطرس الأول

وخاصة حملته على الإسكندرية، وهو عبارة عن ديوان شعري يتألف تقريباً من تسعة ألاف بيت من الشعر يبدأ بمولد بطرس سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٢٩م وينهيه بتاريخ وفاته سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م.

اتسمت روايته بالغموض بالنسبة للحملة، فهو لم يكن شاهداً عليها بل استقاها من شهود آخرين.

قدّم المؤرخ القبرصي ماكارياس في كتابه المسمى (مرويات تتعلق بأرض قبرص الحلوة) مادة جيدة عن تاريخ قبرص وأعمالها التجارية والحربية.

هذا المؤرخ من عائلة قبرصية نبيلة، ولد حوالي ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م وتوفي حوالي سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٨٥م، أرخ في كتابه بشكل مفصل لأربع ملوك من آل لوزينان هم: بطرس الأول والثاني وجيمس الأول وابنه يانوس، وتحدث بشكل موجز عن الملك جون الثاني.

شكل هذا الكتاب مصدر أساسي لحملة بطرس الأول على الإسكندرية وللغارات التي شنها الجنوية والقبارصة على موانئ المماليك في أواخر القرن الرابع عشر، كما تحدث بشكل مفصل عن الاحتلال الجنوي لقبرص، ومعلوماته ترقى إلى درجة الوثائقية بحكم أنه كان مقرباً من الأسرة الحاكمة في قبرص.

- المصادر المغولية:

من أهم المصادر المغولية التي تم الركون إليها كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني.

هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني، ولد في همذان سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، لم يقتصر في إبداعه على التأريخ، بل كان طبيباً بارعاً بشكل رشحه لأن يعمل كطبيب في بلاط أبغا خان، وترقى في المناصب حتى أصبح وزيراً في عهد السلطان غازان خان، واستمر في مهنته هذه في عهد أولجايتو وأبو سعيد، ولما اعتلى أبو سعيد الحكم كثرت الدسائس ضد الهمذاني بشكل أدت إلى أن أصدر أبو سعيد أمراً بقتله سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م.

كان رشيد الدين موسوعياً أحاط بمعارف وعلوم عديدة، لكن شهرته كمؤرخ كانت تأتي في المقدمة ولا سيما من خلال كتابه جامع التواريخ الذي جعله أشهر مؤرخي الفرس في الدولة الإيلخانية.

مكانة رشيد الدين في الدولة الإيلخانية مكنته من الإطلاع على تفاصيل دقيقة، ووثائق مكتوبة، مما رفع قيمة مادته، ولكن أهم ما ضمنه في كتابه هي المعلومات التي كان معاصراً أو مشاهداً لها، وقد وصفها وصف المثقف الخبير بشؤون الحياة.

لم يعتمد في كتابه طريقة الحوليات، بل أرخ حسب الموضوعات، وتناول كل دولة وفقاً لترتيبها التاريخي، مما يسهل على الباحث الحصول على المعلومات بيسر وسهولة، وامتاز بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة، والبعد عن التعقيد والغموض، وكانت الفائدة منه في هذه الأطروحة عظيمة جداً، إذ شكل أساس تم الاعتماد عليه في كثير من الأحداث.

- المصادر السريانية:

تمثلت إلى حدٍ ما بكتابي ابن العبري تاريخ مختصر الدول وتاريخ الزمان، أبو الفرج غريغورس الملطي، المتوفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، نشأ في ملطية ودرس السريانية والعربية واليونانية، كما درس اللاهوت والطب والفلسفة، ولما غزا المغول بلاد الجزيرة هرب مع أسرته إلى أنطاكية، وبتأثير من المصائب التزم الزهد والرهبنة.

عُين أسقفاً في كنائس متعددة، واستقر به المطاف مفرياناً على المشرق، أي شمال العراق مابين النهرين والعراق العجمي، وكان على علاقة طيبة مع المغول، توفي في مراغة من أعمال أذربيجان، وله ما يزيد على الثلاثين كتاب، أهمها كتاب تاريخ مختصر الدول، كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية، بدأه بخلق آدم وأنهاه بدولة المغول، واحتل التاريخ العربي والإسلامي ثلثي الكتاب تقريباً، لم يعتمد التأريخ بطريقة الحوليات، ولكن توالي الملوك، وتاريخ الزمان مشابه جداً للمختصر، وما يؤخذ عليهما غلبة طابع الاختصار في تفصيل الأحداث، ولكن لم يقلل ذلك من شأنه كوثيقة مهمة عن أحداث عصره ولا سيما ما تعلق بالمغول.

تمهيد

أوضاع مشرق البحر المتوسط قبيل عصر المماليك:

يُراد بمصطلح مشرق البحر المتوسط؛ الحوض الشرقي لهذا البحر، والذي كان مقسماً في بداية عصر المماليك بين ثلاث قوى؛ هي: سلطنة بني أيوب في مصر والمناطق الداخلية من بلاد الشام، والصليبيون في ساحل بلاد الشام، ومملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا.

١- مصر:

حُكمت مصر من قِبَل بني أيوب بشكل فعلي منذ إزالة الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، واستمر حكمهم لها حوالي ثمانين سنة حتى ورثهم مماليكهم.

قبيل انتقال الحكم للمماليك كانت مصر تُحكم من قِبَلْ الملك الصالح نجم الدين أيوب منذ سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، الذي امتد حكمه إلى بلاد الشام على إثر معركة خاضها سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م ضد حكام دمشق، وحمص، والكرك، من بني أيوب، وحلفائهم الصليبيين، كتب له النصر فيها، وعلى اثر انتصاره هذا امتد حكمه حتى شمل دمشق والقدس وغزة وأجزاء من فلسطين،[1] وفي سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م سيطر على بعلبك وأصبحت ضمن أملاكه، ثم سيطر سنة٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م على الكرك والشوبك.[2]

وكما هو معلوم توفي الصالح أيوب رحمه الله أثناء التصدي للحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع، وبعد طرد الحملة هذه انتقل حكم مصر بشكل فعلي وكامل إلى المماليك بعد مقتل السلطان توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب على أيديهم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

كان توران شاه هذا حاكماً لحصن كيفا،[3] وبعد وفاة والده قَدِمَ إلى مصر لحكمها، بناءً على مكاتبة من أمراء مصر، فوصلها وحكمها في أواخر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م، ويحكى أنه كان سيء

---

[1] أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل، ت٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، تح: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢/٢٤٠، ٢٧٦-٢٧٧، ٢٧٨-٢٧٩.

[2] أبو الفداء: المختصر، ٢/٢٨٠-٢٨١، ٢٨٥.

[3] حصن كيفا: بلدة وقلعة مشرفة على دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر، الحموي (ياقوت بن عبدالله الحموي، ت: ٦٢١هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، مادة حصن.

السيرة، وأبعد رجال الدولة، وأعرض عن مماليك أبيه وأهل الحل والعقد، واختص بجماعته الذين أتوا معه، فولاهم الوظائف السلطانية، وأخذ يتوعد المماليك الذين كانوا قادة الجيش وأصحاب الفضل في طرد الصليبيين من دمياط؛ فنفرت قلوب المماليك منه، واتفقوا على قتله، وفعلاً تم ذلك في محرم سنة ٦٤٨هـ/ نيسان ١٢٥٠م، فكانت مدة حكمه إحدى وسبعين يوماً، وبمقتله انتهى حكم بني أيوب بمصر بعد أن دام إحدى وثمانون سنة، وكان عدد ملوكهم ثمانية.[(١)]

وكان الوضع في مصر حتى اعتلاء قطز للسلطنة على الشكل الأتي:

بعد مقتل توران شاه تم تنصيب شجر الدر زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب بشكل رسمي حاكمة على مصر؛ وإن كانت قبل قدوم توران شاه هي المتحكمة والمسيرة للسلطنة فعلياً، ولكن الأمور لم تستتب لها، وخاصة بعد شكاية دار الخلافة من تنصيب امرأة، فرأى المماليك ضرورة قيام رجل بمهام السلطنة تجتمع عليه الكلمة، فتم اختيار عز الدين أيبك التركماني للسلطنة، ولقَّبوه بالملك المعز.[(٢)]

لم يتمتع عز الدين أيبك بالقبول من قبل المواليين لبني أيوب، فقام المماليك — من أجل تهدئة الوضع — بسلطنة ولد من بني أيوب هو الأشرف موسى وكان له من العمر ست سنوات، واتفقوا على أن يكون له اسم المُلك، وهم يدبرون الأمر ويأكلون الدنيا باسمه، وتم ذلك، وكان المسيّر لأمور مصر الأمير أيبك، وينافسه في ذلك الأمير فارس الدين أقطاي الذي تعاظم أمره، وأطاعه معظم المماليك البحرية؛ مما أثار مخاوف المعز أيبك؛ فأقدم على اغتياله، وَخَلْع الملك الأشرف موسى، وإعلان نفسه سلطاناً، ثم تزوج من شجر الدر سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، وحدث على إثر مقتل أقطاي أن هرب رفاقه من القاهرة إلى بلاد الشام، وكان أبرزهم الأمراء بيبرس البندقداري، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي، وغيرهم...، فذهب بعضهم إلى الكرك، وذهب بعضهم الآخر إلى دمشق، وتوزع قسم منهم في البلقاء

---

(١) ابن واصل الحموي (جمال الدين محمد بن سالم، ت: ٦٩٧هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ٢٠٠٤م، ١٢٧/٦-١٢٩. المقريزي (أحمد بن علي، ت: ٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧م، ٣٥٨/١-٣٦١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب: ١٤٠/٦. ابن أيبك الدواداري (عبد الله بن أيبك، ت: بعد ٧٣٦هـ): الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، وهو الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٨٧١م، ص١٢.

والغور..الخ، وحاولوا جاهدين إغراء الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بالزحف إلى مصر فاستجاب لهم، ولكن لم يكن من أمره شيء.[1]

وعزم السلطان المعز أيبك في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م على الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فكان ذلك سبباً كافياً لقتله على يد زوجته شجر الدر التي قُتلت بعده على يد مماليكه.

وبعد مقتل المعز أيبك بويع ابنه علي بالسلطنة وتلقب بالمنصور، وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، وأمام تعاظم خطر المغول الذين احتلوا كل بلاد الشام تقريباً وجد الأمير قطز – نائب السلطنة آنذاك– سبيلاً لعزل المنصور علي؛ لأنه لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة، وبناءً عليه قام أواخر سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م بالقبض على المنصور علي وأمه، واعتقلهما في برج القلعة ونصَّب نفسه سلطاناً، وتلقَّب بالملك المظفر قطز، فكانت مدة حكم المنصور علي سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.[2]

٢- بلاد الشام:

كانت بلاد الشام موزعة بين الأيوبيين الذين حكموا المناطق الداخلية، والصليبيين الذين انحصر وجودهم على الساحل من ساحل أنطاكية شمالاً حتى يافا جنوباً، ومع قيام الحكم المملوكي في مصر حدثت في بلاد الشام تحولات مهمة، **فدمشق** كانت محكومة من قِبَل الأمير جمال الدين بن يغمور الذي كان نائباً عن الصالح نجم الدين أيوب في مصر، ولما آلَ الأمر في مصر لشجر الدر رفض هو

---

[1] المقريزي: السلوك: ٣٦٩/١، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩١. ابن واصل: مفرج الكروب: ١٤١/٦، ١٧٨–١٨٢. أبو الفداء: المختصر: ٢٩٠/٢، ٢٩٧. ابن أيبك الدوادار: الدرة الزكية، ص٢٤. أبو شامة (محمد بن عبد الرحمن المقدسي، ت٦٦٥هـ): الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٢٠/ ٣٧٢.

[2] المقريزي: السلوك: ٤٠٢/١–٤٠٥، ٤١٧. ابن واصل: مفرج الكروب: ١٩٤/٦، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٦١–٢٦٣. النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت: ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٩، تح: محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ٤٦٨. أما عن جهود قطز لتوحيد الجبهة الإسلامية وتعبئة القوى أمام المغول فسيتم الحديث عنها بالتفصيل مطلع الفصل القادم.

والمماليك القيمرية[1] الموجودين في دمشق آنذاك إعلان الطاعة لها، وقام الأمراء القيمرية بمراسلة الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب حلب وحثوه على السير إلى دمشق لحكمها، وفعلاً تم له ذلك، ودخلها في ربيع الآخر٦٤٨هـ/ تموز ١٢٥٠م، وأصبحت دمشق وحلب تحت حكمه.[2]

وفي **غزة** تمرد الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الذي كان يحكم أيضاً بالنيابة عن الملك الصالح في مصر، فنهب أموال غزة، واستولى على قلعة الصُبيبة بجوار بانياس الجولان جنوب دمشق، أما في **الكرك والشوبك** فقد ثار حاكمها بدر الدين لؤلؤ الصوابي، وبادر إلى إخراج الملك المغيث عمر بن الملك العادل، الذي كان في سجن الكرك منذ أيام توران شاه، وسَلَّمَهُ حكم الكرك والشوبك، وبذلك خرجت عن تبعيتها لحكام مصر،[3] أما **حماه** فكانت محكومة منذ سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م من قبل الملك المنصور محمد بن المظفر محمود.[4]

وظل بنو أيوب يطالبون بحكم مصر على أنها من حقهم، فهم الورثة الشرعيون، وفي سبيل ذلك تعددت المحاولات الأيوبية للسيطرة على مصر، ففي رمضان سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م سار الناصر يوسف بعد أن استولى على دمشق باتجاه مصر للسيطرة عليها، وقد رافقه في حملته هذه قادة بني أيوب وأمراؤهم، والتقى العسكر الشامي مع العسكر المصري على مقربة من العباسية، وكان النصر للعسكر المصري.[5]

وفي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٠م خرج الناصر صلاح الدين بعسكره مرة ثانية لضرب المماليك، فنزل على تل العجول قرب غزة، أما الجيش المصري فقد عسكر في الصالحية، غير أنه لم يحدث اشتباك بينهم،

---

[1] نسبةً للأمير الكردي ناصر الدين الحسين بن علي القيمري (ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، صاحب القيمرية الجوانية في دمشق، وباني المدرسة القيمرية هناك، هو الذي سَلَّمَ دمشق للملك الناصر صاحب حلب بعد مقتل تورانشاه، ولما اعتلى الظاهر بيبرس السلطنة جعله مقدم العسكر في الساحل، ويُنسب إلى قيمر ببلاد الأكراد. انظر، خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢/٢٤٦-٢٤٧.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/١٣٧. المقريزي: السلوك، ١/٣٦٦-٣٦٧. أبو الفداء: المختصر، ٢/٢٨٩.

[3] أبو الفداء: المختصر: ٢/٢٨٩. المقريزي: السلوك: ١/٣٦٦.

[4] أبو الفداء: المختصر: ٢/٢٧٧-٢٧٨.

[5] أبو الفداء: المختصر: ٢/٢٩١. المقريزي: السلوك: ١/٣٧٦. ابن واصل: مفرج الكروب: ٦/١٥٩-١٦٢.

واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن عُقِدَ الصلح على يد الشيخ عبدالله البادرائي رسول الخليفة العباسي مطلع سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، على أن يكون للمماليك ديار مصر وغزة والقدس، وتؤول بقية بلاد الشام لبني أيوب.[١]

٣- الصليبيون:

توقف بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي الأعمال العسكرية ضد الصليبيين بشكل شبه كامل، في حين تمكن الصليبيون من استرداد بعض المناطق الساحلية، وفي مطلع العصر المملوكي كانوا يحكمون — كما سلف القول – المنطقة الساحلية الممتدة من أنطاكية في الشمال حتى يافا في الجنوب، مع بعض المناطق الداخلية مثل صفد، والمنطقة القائمة بينها وبين عكا، بالإضافة إلى حصن الأكراد في الشمال، وبعض المناطق المجاورة له.

وكانت الأراضي التي استولى عليها الصليبيون موزعة على ثلاث إمارات، مملكة القدس ومقرها في عكا، وكانت تسيطر على المناطق الجنوبية، وفي الوسط كونتية طرابلس، وفي الشمال إمارة إنطاكية، وطرابلس وأنطاكية كانتا عشية العصر المملوكي تحكمان من قبل بيت واحد، وهم النورمانديون حكام إنطاكية.

إلى جانب هذه السلطات الثلاث كانت هناك الرهبانيات العسكرية الدينية أمثال الداوية الإسبتارية والتيوتون، وقد سيطر هؤلاء على عدد من القلاع المهمة المتقدمة تجاه الأراضي الإسلامية، وقد شغلوا دوراً كبيراً في الحروب الصليبية من قبل المماليك ومن بعدهم.

ولم تكن العلاقة بين السلطات الصليبية جيدة، بل كان التنافس والتحالفات قائمة بين أمرائهم، وقد تطورت إلى حد الاقتتال أكثر من مرة، كما حدث في حرب القديس سابا بين الجنوية والبنادقة سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، فقد انقسم الصليبيون على إثرها إلى حزبين، وقف كل حزب إلى جانب طرف من الأطراف، وقد استنزفت هذه الحرب – التي استمرت حوالي عام – قواهم، وعلى الرغم من عقد الصلح

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب: ١٦٨/٦، ١٧٥. المقريزي: السلوك: ٣٨٣/١.

بين الأطراف المتنازعة بعد توسط البابا وعدد من الأمراء، إلا أن هذا لم يوقف التنافس والصراع بينهم،[1] وقد حاول الملك لويس التاسع أثناء وجوده في بلاد الشام عقب إخفاق حملته على مصر الإصلاحُ بين القوى الصليبية الموجودة في الشرق.

ولم يكن هناك في المقابل قوة في الشرق تهدد الصليبيين في ظل ضعف الأيوبيين، وتمزقهم وحروبهم الداخلية، ومع ظهور المماليك وحكمهم لمصر، ثم لبلاد الشام إثر مطاردة المغول، بات على الصليبيين الاستعداد لمواجهة دولة موحدة تحيط بهم من الشرق والجنوب، وتعمل بشكل منظم على اقتلاعهم من المنطقة.

٤- مملكة إرمينية الصغرى:

أُنشئت على السواحل الشمالية الشرقية من البحر المتوسط إمارة على يد المهجرين الأرمن إلى هذه المنطقة منذ عشرات السنين، وتطورت هذه الإمارة إلى أن أصبحت مملكة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي تسيطر على مساحات واسعة من الأراضي التي كانت محط نزاع بين المسلمين والبيزنطيين نظراً لأهميتها الاستراتيجية، وقد شغلت هذه المملكة دوراً مهماً في تاريخ المنطقة.[2]

على الرغم من وجود هذه الكيانات، وتوزعها في مناطق مختلفة، وتنافسها، إلا أنها كانت متداخلة تحكمها المصالح الخاصة والعامة، مما جعل مشرق البحر المتوسط كياناً قائماً بذاته سياسياً واقتصادياً، ولهذا جرى تناوله من هذا المنطلق.

---

[1] الفارس الداوي الصوري (جيرارد أوف مونتريل): أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٨م، ص ٢٨-٤١. هرقل: تتمة تاريخ هرقل لتاريخ وليم الصوري، تر: سهيل زكار، الجزء ٥٨ من الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم يُنشر بعد، ص ١٩٩٦.

[2] في مطلع الفصل الثالث قُدمت دراسة وافية عن تأسيس هذه المملكة، وأهميتها، وعلاقاتها مع جيرانها في المنطقة.

الفصل الأول:

نشاط المغول في مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك حتى قبيل الغزو التيموري

أولاً: معركة عين جالوت

ثانياً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس "٦٥٨-٦٧٧هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٦م"

ثالثاً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون"٦٧٩-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م"

رابعاً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل"٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م"

خامساً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الناصر محمد بن قلاوون"سلطنته الثانية والثالثة "٦٩٨-٧٤١هـ/ ١٢٩٩-١٣٤١م"

توطئة:

تمكن المغول في مدة وجيزة من إخضاع معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف آنذاك لسلطانهم، فتوغلوا في أراضيه يقتلون، ويفتكون، ويهتكون، ويحطمون العروش، وقد تم الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي على مرحلتين، الأولى في عهد جنكيز خان مؤسس إمبراطورية المغول، الذي كان هجومه على العالم الإسلامي جزءاً من استراتيجيته في السيطرة على العالم بأسره، وسيطر جنكيز خان على معظم أراضي الدولة الخوارزمية الإسلامية التي كانت تحكم بلاد ما وراء النهر، وخوارزم، وأجزاء من خراسان وشرق إيران، وكانت المرحلة الثانية على يد هولاكو حفيد جنكيز خان الذي استولى على إيران، والعراق، وبلاد الشام، ووصل إلى حدود مصر الشرقية عند غزة.

رافقت هذا الاجتياح عمليات إبادة وحشية للشعوب الإسلامية في تلك الأقاليم، بكل حقد وسادية، وبدون تمييز، وبشكل يصعب على الإنسان تصوره، وكفى بوصف المؤرخ ابن الأثير لهذا الاجتياح – مع اعتراف ابن الأثير بعجزه عن وصف ما حدث بشكل كامل – لتوضيح قليلاً مما حدث، ومما قاله في هذا الشأن: "لقد بقيتُ عدة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتل بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون

الحوامل وقتلوا الأجنّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شرها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح".[1]

بعد هذا الوصف تحدث ابن الأثير عن البلدان التي استولوا عليها في بلاد ما وراء النهر وخراسان وروسيا ثم قال:" هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحد إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل، وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه، ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتلِ بها أحد من الأمم منها، هؤلاء التتر قبّحهم الله أقبلوا من المشرق، فعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها".[2]

لا بد بالإضافة إلى هذا النص المهم من ذكر القليل عن حياة المغول؛ ويمكن القول إن منغوليا التي تمتد بين سيبيريا شمالاً والتبت جنوباً، وبين منشوريا شرقاً وتركستان غرباً هي الموطن الأصلي للمغول، وهذه يمكن تقسيمها إلى قسمين؛ الشمالي الغربي منها يتكون من مرتفعات وجبال بينها هضاب ووديان، والجنوبي الشرقي أو ما عرف بصحراء غوبي (شامو) يتكون من سهل متسع تغطيه الحصباء والصخور مع وجود بعض الأنهار والبحيرات، والمناخ هناك قاسٍ؛ ففي فصل الشتاء الذي يمتد

---

[1] ابن الأثير(علي بن أبي الكرم محمد، ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ٩/ ٣٢٩-٣٣٠.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٢٩-٣٣٠.

على معظم أيام السنة الذي قد تصل فيه الحرارة إلى ٥٨ درجة تحت الصفر، وفي فصل الصيف قد تصل الحرارة إلى ٦٠ درجة، كما أن الرياح هناك شديدة.[١]

والمنطقة فقيرة بالنباتات، وغالبا ما كانت النباتات التي تنمو في صحراء غوبي تشكل مراعي للخيول والأغنام، هذا المناخ فرض على معظم المغول حياة البداوة، وإن اشتغل قليل منهم بالصيد والزراعة، فقد كانت عندهم قدرة عالية على تحمل البرد والحر والجوع،[٢] كما ساد بينهم النظام القبلي بكل صفاته، وكانت طاعتهم لسيدهم مطلقة، فقد ورد عند القلقشندي في هذا الشأن: "وأما حالهم في طاعة ملكهم، فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا لجاه، بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أمير في غاية القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنباً توجب عقوبته وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل".[٣] وأما عن شجاعتهم فقد تحدث ابن الأثير على لسان أحد المغوليين عن ذلك فقال:" إن قيل إن التتر يُقتلون فصدقوا وإن قيل إنهم ينهزمون فلا تصدقوا".[٤]

أما ديانة المغول فهي الديانة الشامانية Shamanisun، والمغول طبقاً لهذه الديانة يعبدون كل شيء عظيم يعجزون عن إدراكه مثل الشمس والقمر والبرق ....[٥]

---

(1) Howorth،H.H:A History of the Mongols(From The 9th Century London 1880-1888).part 1. P.10-13، 16-17.

رينيه غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م، ص١-٥.

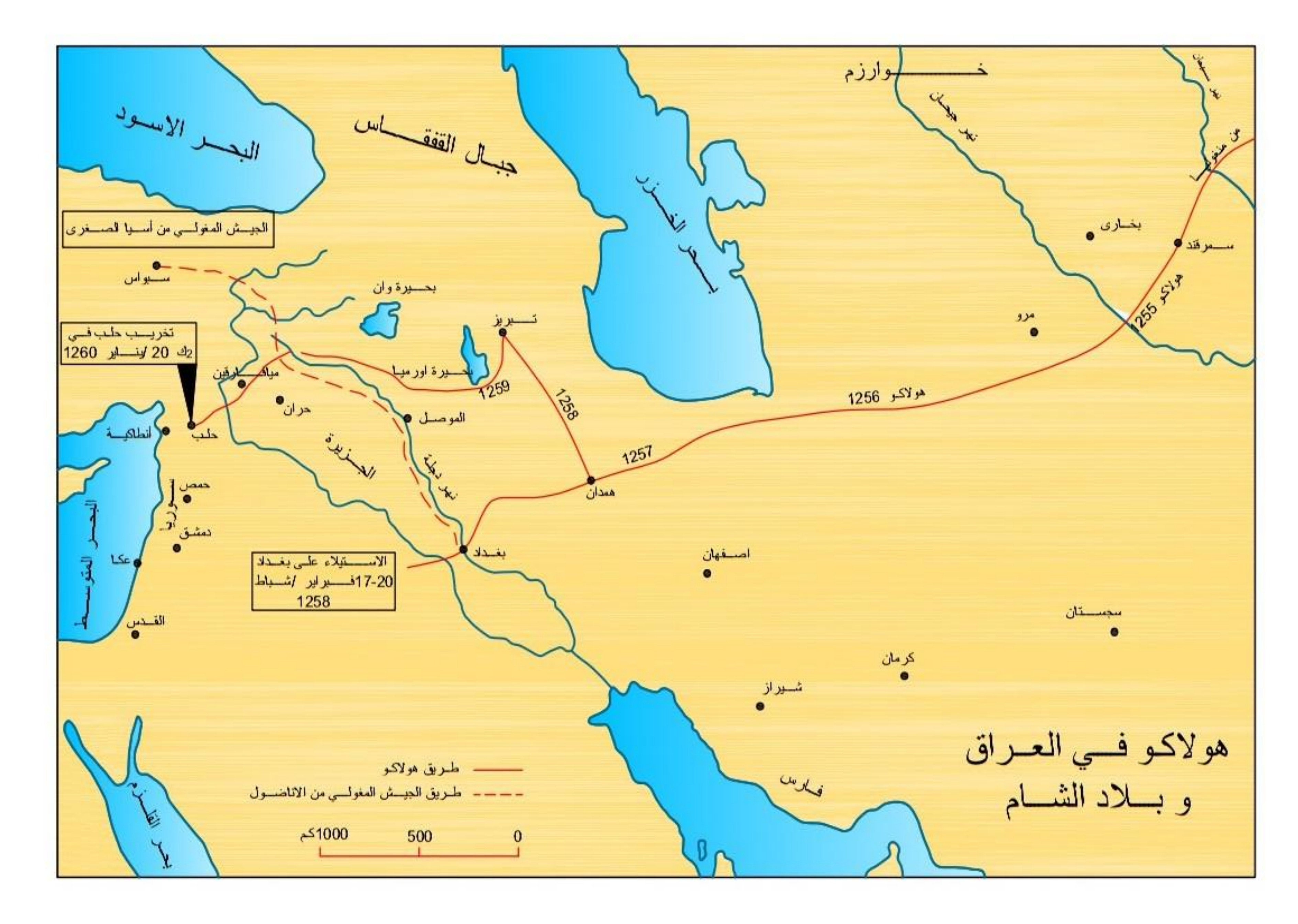
مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م، ص٧٣-٧٥.

(٢) رينيه غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، ص٣-٤.

(٣) القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندى، ت: ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣١٦/٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،٣٤٢/٩.

(5) Mirce Eliade: Shamanism, Archaic Techniques of Ecstasy, Translated from the French by Willard. R. Trask, Londom, 1951.



هولاكو في العراق
و بلاد الشام
البحر الأسود
جبال القفقاس
خوارزم
نهر جيحان
من منغوليا
بحر الخزر
الجيش المغولي من آسيا الصغرى
سيواس
بحيرة وان
تبريز
بحيرة اورميا
تخريب حلب في 20 /يناير 1260
ميافارقين
حران
الموصل
حلب
أنطاكية
سوريا
حمص
دمشق
عكا
القدس
البحر المتوسط
الجزيرة
نهر دجلة
بغداد
الاستيلاء على بغداد 17-20 فبراير /شباط 1258
همدان
اصفهان
شيراز
كرمان
سجستان
فارس
مرو
بخارى
سمرقند
هولاكو 1255
هولاكو 1256
1257
1258
1259
طريق هولاكو
طريق الجيش المغولي من الاناضول
0
500
1000كم

أولاً: معركة عين جالوت:

وصلت هذه الجحافل مع حلفائها من الأرمن والكرج إلى بلاد الشام بعد أن قضوا على كل قوة حاولت الصمود في وجههم، وبسقوط المدن الثلاثة الكبيرة، بغداد، وحلب، ودمشق، -كما يقول أحد المؤرخين- "تراءى كأن الإسلام في غرب آسيا حان أجله".[١]

وإذا نظر المعاصر إلى هذا؛ مع ما كان يحدث في الأندلس وسواحل المغرب العربي، خُيِّلَ إليه أن الإسلام والمسلمين إلى زوال كامل، ولكن هذا ما لم، ولن، يحصل لأن الله وعد في كتابه الكريم **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**.[٢]

لهذا الأمر غيّرت معركة عين جالوت على أرض فلسطين المفاهيم، وقلبت الموازين، فكانت أول معركة يُهزم فيها المغول، وقد ترتب على هذه المعركة نتائج عديدة حفظت الإسلام والمسلمين والحضارة الإنسانية في حوض البحر المتوسط.

١- الأوضاع على الجبهة الإسلامية:

نتيجة للانتصارات المتتالية التي حققها المغول، واكتساح الأراضي الإسلامية، دبّ الرعب في سائر البلاد، وترك في صدور الناس أثراً عميقاً جعلهم يعتقدون بأن هذا العنصر الغريب لن تستطيع قوة على وجه الأرض إيقافه، وزاد هذا الشعور بعد سقوط بلاد الشام ووصولهم إلى مشارف مصر.

إلا أن الموقف في مصر كان مختلفاً تماماً، لأن كل شيء فيها ينبئ بأن هناك قوة جديدة وليدة، بدأت تظهر في مصر، وكانت تلك القوة هي المماليك -الذين أطاحوا بالصليبيين في فارسكور والمنصورة- وقد زادت أهميتهم بعد اعتلاء السلطان قطز لعرش السلطنة المملوكية في ذي القعدة ٦٥٧هـ/ تشرين الأول ١٢٥٩م.[٣]

---

[١] ستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٨م، ٣/ ٥٢٨.

[٢] سورة الحجر، الآية رقم ٩.

[٣] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٩. المقريزي: السلوك، ٤١٧/١. سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ط١، بيروت، ١٩٩٠م، ص٥٢٧-٥٢٨.

كانت مصر– كما سلفت الإشارة – تُحكم قبل قطز من قِبل صبي صغير؛ هو المنصور علي بن أيبك الذي استلم الحكم بعد مقتل أبيه، وله من العمر خمسة عشر عاماً، في حين كان قطز نائباً للسلطنة، وكان الشخصية الأبرز في مصر.

تطورت الأمور في بلاد الشام ومصر، ومهدت كلها لاعتلاء قطز عرش مصر، وذلك بعد أن بدأت المدن تتهاوى الواحدة تلو الأخرى أمام المغول، الذين وصلوا إلى حلب، وهرب معظم أهلها إلى دمشق،[1] وكانت هذه الأخيرة تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب؛ وهو حاكم حلب أيضاً، وهذا الحاكم كان قد اتصل من قبل بهولاكو، وعرض عليه التحالف ضد مماليك مصر،[2] لكنه فيما بعد أدرك خطأه وراسل ملوك مصر لتقديم المساعدة العسكرية له لكي يتصدى للمغول.[3]

وفعلاً وصلت رسالة الملك الناصر إلى القاهرة، وكان يحملها الصاحب كمال الدين عمر بن العديم، وعلى الفور عُقد اجتماع في القاهرة ضم القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم بأمر المغول، وخرج المجلس ببعض المقررات،[4] غير أن أهم شيء حدث في هذا المجلس هو إدراك العامة والخاصة أن هذا الصبي الذي يتربع على عرش السلطنة غير مناسب لتلك الظروف، ولاسيما أنه خلال الاجتماع لم يتفوه بكلمة واحدة، فهو لم يكن يمتلك المعرفة ولا الخبرة، عندئذ "لهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم"،[5] وأوجد هذا الأمر سبيلاً لقطز للقول — بعد أن جمع الأمراء — إنه "لابد من سلطان قاهر يقاتل العدو، والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة"،[6] هذا في الوقت الذي

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٢٦١، ٢٧٥. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٤٤. اليونيني (موسى بن محمد اليونيني، ت: ٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان، طبعة حيدر أباد، الهند، ١٩٥٤م، ١/٣٤٩.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٢٠٦، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٣، ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف، ت: ٧٨٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، ٧/٥٦، المقريزي: السلوك، ١/٤١٠–٤١١.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/٧٢، المقريزي: السلوك، ١/٤١٦، ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٢٦٢.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٢٦٢، المقريزي: السلوك، ١/٤١٦–٤١٧. وأهم المقررات التي خرج بها هذا الاجتماع هي فتوى ابن عبد السلام بجواز جمع الأموال من الرعية.

[5] ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ٧/٧٣.

[6] المقريزي: السلوك ١/٤١٧–٤١٨. ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ٧/٧٢–٧٣. ابن واصل: مفرج الكروب: ٦/٢٦٢–٢٦٣.

كثرت فيه مفاسد السلطان المنصور علي، وتدخل أمه في شؤون الإدارة،[1] هيأت كل هذه الأمور الظروف لتسلم قطز للسلطنة، إذ انتهز هذا الأخير فرصة خروج الأمراء للصيد؛ فقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر في ذي القعدة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م.[2]

أظهر السلطان قطز منذ البداية دهاء وحنكة لتفادي ردات الفعل على عملية الانقلاب هذه، وأظهر براعة في سبيل توحيد كلمة المسلمين أمام المغول، فداخلياً عندما نصّب نفسه سلطاناً على مصر بعد خلع المنصور علي، واجه معارضة من قبل بعض الأمراء؛ إذ أنكروا عليه عمله، ولكنه سوّغ موقفه، وطمأنهم بقوله: "وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم أقيموا بالسلطنة من شئتم"،[3] فهدأوا واطمأنت قلوبهم.

أما خارجياً فهناك الملك الناصر صاحب دمشق، وهناك الأمير بيبرس مع مماليكه البحرية، الذين هربوا –كما سلف الحديث– من مصر إلى بلاد الشام بعد مقتل فارس الدين أقطاي وانقلاب أيبك على البحرية سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، فالتجأوا إلى الناصر، ثم تغير عليهم الناصر فالتجئوا إلى المغيث عمر صاحب الكرك، ولما تغير عليهم هذا الأخير عاد بيبرس وبعض الأمراء إلى الناصر في دمشق، وظلوا في خدمته حتى قدوم التتار سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.[4]

هاتان القوتان لابد من ضمهما إلى القوة الأساسية في مصر، وتوحيدهم في جبهة واحدة.

- فبالنسبة للملك الناصر الذي كان على عداء مع مماليك مصر، لأنه كان يطمع في ضم مصر إلى مُلكه طالما رآها من ميراث الدولة الأيوبية، ولذلك قام بمهاجمة مصر،[5] وللغرض ذاته

---

[1] المقريزي: السلوك ٤١٧/١–٤١٨. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٨/٢٩. ابن واصل: مفرج الكروب: ١٩٤/٦، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٦١–٢٦٣.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٢/٦–٢٦٣، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٩. المقريزي: السلوك ٤١٧/١. أبو الفداء: المختصر، ٣٠٧/٢–٣٠٨.

[3] المقريزي: السلوك، ٤١٨/١.

[4] أبو الفداء: المختصر، ٢٩٧/٢–٣٠٠، ٣٠٩–٣١٤.

[5] ابن واصل: مفرج الكروب، ١٥٦/٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٦.

راح يراسل المغول ويعرض عليهم التحالف ضد مماليك مصر،[1] لكنه عندما أدرك مخاطر مراسلاته، وأن المغول قوم لا أمان لهم؛ تراجع عن موقفه وأسرع بمراسلة المماليك في مصر، فاغتنم قطز الفرصة بعد تسلمه السلطنة — وكان (ابن العديم) رسول الملك الناصر لا يزال موجوداً في القاهرة – ورد على رسالة الناصر برسالة أرسلها مع قاضي القضاة برهان الدين السنجاري، عرض فيها قطز استعداده لتقديم المساعدة للناصر؛ ونجدته،[2] فرحل الملك الناصر؛ ومعه الملك المنصور صاحب حماه من دمشق باتجاه مصر بناءً على ما جاء في هذه الرسالة، ، وعندما وصلا إلى قطية[3] عاد الملك الناصر ومعه بعض الأمراء إلى فلسطين، لأنه لم يأمن جانب السلطان قطز، في حين سار معظم العسكر مع الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر، و معهم نساء الناصر وأولاده، وفي فلسطين قبض التتار على الناصر وولده العزيز اللذين سُيرا إلى هولاكو في حلب، ولما عاد هولاكو من حلب إلى بلاده أخذهما معه ، وعندما علم هولاكو بخبر عين جالوت وهزيمة جنده قتلهما،[4] والشيء الذي يهم هنا هو توجه معظم العسكر الشامي إلى مصر بقيادة الملك المنصور، وانضمام هذا العسكر إلى جانب العسكر المصري في معركة عين جالوت.

- أما بالنسبة للأمير بيبرس البندقداري، الهارب من مصر مع مماليكه البحرية منذ أيام أيبك، فقد تنقل بين دمشق وحلب والكرك وغزة، وطال به الترحال بين هذه النيابات، وعندما اجتاح المغول حلب كان موجوداً بها، وتعرض لمطاردتهم، فأخذ فرس خشداشه سنقر الأشقر الذي وقع في أسر

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٥٦. ابن واصل: مفرج الكروب: ٢٠٦/٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٣.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٣/٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٣. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٠٨.

(3) قطية: قرية في طريق مصر قرب الفرما، الحموي: معجم البلدان، مادة قطية.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٨٠/٦، بيبرس الدوادار (بيبرس بن عبدالله المنصوري الدوادار، ت ٧٢٥هـ): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ٢٧/٩-٢٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٧/ص ٧٦-٧٧، اليونيني: ذيل مرآة الزمان،١/ ٣٥٠، بيبرس المنصوري (بيبرس بن عبدالله المنصوري الدوادار، ت: ٧٢٥هـ): مختار الأخبار، تح: عبدالحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص١١.

المغول، أما هو فقد تمكن من الفرار إلى دمشق،[1] ولما تيقن أن أمراء بني أيوب عاجزون عن مقاومة هذا الخطر اصطدم معهم، واتهمهم بأنهم "سبب هلاك المسلمين"،[2] ثم ترك دمشق ورجع إلى غزة، ومن هناك سيّر إلى السلطان قطز يطلب منه الأمان، فكتب إليه قطز كي يقدم إليه، ووعده الوعود الجميلة، وعندما وصل بيبرس ومماليكه البحرية إلى مصر في ربيع الأول ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، خرج السلطان قطز للقائه، وأنزله بدار الوزارة بالقاهرة تعظيماً له، وأقطعه قليوب وأعمالها.[3]

وبهذا العمل يكون السلطان المظفر قد نجح في الجولة الأولى؛ إذ تمكن من إيجاد تعاون وثيق بين مصر والشام، وتضمين معظم العساكر الشامية في جيشه.

كان هولاكو على رأس حملة ضخمة أُعدت بشكل مميز من قبل أخيه منكوخان الذي انتُخب خاناً أعظم للمغول في مجلس القوريلتاي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، فقد وضع تحت تصرف هولاكو قسماً كبيراً من الجيش المغولي، وزوده بألف رجل من خبراء إدارة آلات الحرب وقاذفات النفط التي جلبها من بلاد الخطا لهذه الغاية، واخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود المغول ليكونوا حرساً خاصاً لهولاكو، وزودهم بحاجتهم من المؤن والعتاد،[4] ثم أعطاه تعليمات مفصلة عن طبيعة مهمته،[5] وقد سار هذا الأخير حسب الخطة المرسومة له، ويمكن تتبع مسير حملته انطلاقاً من: قراقورم إلى إيران، وهناك قضى على قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، ومنها سار إلى همذان فسيطر عليها سنة

---

[1] سمباط (المؤرخ الأرمني): تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٦/ ٣٤٥، غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم يُنشر بعد، ص٤٢٧. في الفصل الثالث سيتم الحديث عن كيفية تحرير سنقر الأشقر من أسر المغول.

[2] المقريزي: السلوك ٤١٩/٢/١-٤٢٠.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٧/٦، أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٠٩، المقريزي: السلوك، ٤٢٠/١.

[4] غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص ٤١٧، ٤٢٤. ابن العبري (غريغوريوس الملطي، ت:١٢٦٨م): تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٩٢م، ص ٢٦٣. عباس إقبال: تاريخ المغول من حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م، ص١٩٣.
Howorth، H. H: A History of the Mongols. Part 1. P.193.

[5] رشيد الدين: (فضل الله الهمذاني): جامع التواريخ، تر: محمد صادق نشأة وفؤاد الصياد ومحمد هنداوي، وزارة الثقافة، القاهرة، (د. ت)،٢٣٦/١/٢-٢٣٧.

٦٥٥هـ/١٢٥٧م، ومنها إلى بغداد فسيطر عليها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ومنها سار إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين فسيطر عليها بعد حصار طويل، وفي الوقت نفسه سيطر على الرها وحران، ثم سار إلى البيرة فسيطر عليها سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، ومنها سار إلى حلب فسيطر عليه ودمرها، ومن حلب عاد إلى مراغة بسبب وفاة منكوخان، وحدوث منازعات على منصب الخان، بينما استمرت حملته في المسير بقيادة نائبه كتبغا الذي سار إلى دمشق فسيطر عليها سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، وفي طريقه احتل حماه، والمعرة، وحمص، وبعلبك، وغيرها وصولاً إلى الحدود المصرية في غزة.[١]

وفي أثناء وجود هولاكو في حلب أرسل برسالة إلى السلطان المظفر قطز تحتوي أصنافاً شتى من التهديد والوعيد، وطالبه بإعلان الخضوع لهولاكو وتسليم البلاد.[٢]

تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة، فجمع الأمراء لمشاورتهم في الأمر، وبعد أخذ ورد بينه وبين الأمراء، فوضوه بالأمر قائلين له: "مُر بما يقتضيه رأيك"، وعندما آل القول إليه، أعلن الجهاد ضد المغول، قائلاً: "إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإن ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق".[٣]

ولقطع أي تردد في الخروج لمواجهة المغول، أصدر السلطان أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش، وحثَّ الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وطالب الولاة "بازعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع "،[٤] بل ذهب إلى أكثر من ذلك فقام بالقبض

---

[١] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢٤٣/١/٢ وما بعد. ابن الفوطي: (كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي، ت: ٧٢٣هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٥١-١٦٦. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٣-٢٧٩. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣١/٣٦-٣٣٢. مصطفى بدر: محنة الإسلام، ص١٥٢ وما بعد.

[٢] المقريزي: السلوك ٤٢٧/٢/١-٤٢٨، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٧-٤٨. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٢/٢٩.

[٣] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣١٢/١/٢-٣١٣.

[٤] المقريزي: السلوك، ٤٢٩/١.

رسل هولاكو، وأمر بقتلهم، إذ وسّط[1] واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسّط آخر بظاهر باب زويلة، ووسّط الثالث ظاهر باب النصر، ووسّط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه.[2]

في الحقيقة عملية قتل الرسل هذه كانت لقطع الشك باليقين، وليقضي على ضعف الروح المعنوية التي لمسها عند بعض الأمراء خلال النقاش الذي دار بينهم،[3] وأن حالة الحرب مع المغول أصبحت حقيقة واقعة، فقام بتوسيط الرسل كل واحد في موقع مختلف من القاهرة لإعلان النفير العام، وتحريض الناس على الجهاد؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكون عملية قتل الرسل هذه بمثابة تهديد للتتار ليأخذوا بحسبانهم أن في مصر قوة تختلف عن تلك القوى التي تغلّب عليها المغول في مشرق العالم الإسلامي، وأنها غير آبهة بقوتهم وجبروتهم، وأنها خارج نطاق الرعب الذي فرضه المغول على أعدائهم بوحشيتهم، فكان ذلك بمثابة حرب نفسية.

وقد يكون قطز أقدم على قتل الرسل استعداءً للمغول ليجبرهم على قصد مصر، فهولاكو عندما عاد إلى قراقورم سحب معه قسم من الجيش – سيتم ذكر ذلك –، وأمر نائبه كتبغانوين بالبقاء مكانه حتى يعود إليه هولاكو، وربما ذلك لتقديره بأن ما تبقى من القوات مع كتبغا لا تؤهله لخوض معركة فاصلة مع الجيوش التي تجمعت في مصر، لكن قتل الرسل أثار غضب كتبغانوين بشكل جعله يقوم بحشد القوات المغولية ومن انضم إليها من الأرمن وسار بها قاصداً مصر مخالفاً بذلك أوامر هولاكو

---

[1] التوسيط قطع الشيء نصفين. انظر، الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت: ٦٦٦هـ): مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت – صيدا، ١٩٩٩م، ص ٣٣٨. وكان التوسيط من طرق الإعدام الشائعة آنذاك، إذ يُربط الرجل المحكوم عليه بالإعدام، ثم يُضرب بالسيف تحت السرة فينقسم إلى قسمين.

[2] المقريزي: السلوك، ٤٢٩/١. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٢/٢٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٨. وهذا الصبي الذي تركه قطز وجعله من مماليكه، حاول في عين جالوت قتل قطز غيلةً، لكن قُبض عليه وقتل، انظر، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٠/٩.

[3] انظر: رشيد الدين:جامع التواريخ ٣١٢/١/٢. فقد أورد تفاصيل النقاش الذي دار بين الأمراء في مصر بعد رسالة هولاكو.

القاضية بانتظاره حتى يعود،[1] وبذلك يكون السلطان قطز قد فرض على المغول المعركة في ظروف غير مناسبة لهم.

هنا بدأت عملية الاستعداد للحرب المقبلة، عملية جمع الجيوش، وجمع الأموال اللازمة لهذه الجيوش.

اجتمعت لدى السلطان قطز معظم الجيوش التي هربت أمام جحافل المغول، فقد سلف الحديث عن مسير العسكر الشامي تحت قيادة الملك المنصور إلى مصر، وكيف خضعت القوى في مصر لسلطان قطز في سبيل محاربة المغول، بالإضافة إلى هذه القوى؛ تحدث رشيد الدين الهمذاني عن جموع العساكر التي تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداءً من الدولة الخوارزمية، ومروراً ببغداد وشمال العراق وبلاد الشام، وكيف تجمع عدد كبير منهم في الأراضي المصرية؛ إذ استقبلهم المظفر قطز أحسن استقبال، وطيب خاطرهم، ومنحهم العطايا والأموال، واستقروا في مصر ليكونوا جزءاً مهماً من جيشه،[2] بالإضافة إلى هؤلاء العساكر، قام السلطان وأمر داعي الجهاد بالنداء في جميع الديار المصرية وأعلن النفير العام وأرسل خلف عربان مصر[3]، فاجتمع عنده من عساكر مصر ما يقارب أربعين ألفاً.[4]

هذا بالإضافة إلى أنه بدأ بمراسلة الأمراء الأيوبيين الذين انضووا تحت لواء المغول، طالباً منهم التخلي عن المغول، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص؛ إذ أرسل إليه كتاباً يُسَفِّهُ فيه رأيه على ما اعتمده من ميله إلى المغول، وتفضيلهم على المسلمين، ووعده أنه إذا ما ترك المغول ومال إليه "بشرط أن لا يقاتل معهم إذا كان بينه – أي قطز– وبينهم– أي المغول– مصافاً " أبقى على ما في يده من البلاد، ولم يطلب منه المشاركة إلى جانب المسلمين في المعركة، بل فقط الوقوف على الحياد، وذلك خوفاً

---

[1] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣٢/٣٦.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣١٠/١/٢– ٣١١. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/ ٤٧٢.

[3] أفضل المصادر التي تحدثت عن القبائل في مصر هو كتاب المقريزي: البيان والإعراب عمن في أرض مصر من الأعراب، وقد نشره رمضان البدر وأحمد قاسم ضمن مجموعة باسم رسائل المقريزي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٢٥–١٤٥.

[4] المقريزي: السلوك، ٤٢٩/٢/١.

عليه من المغول، فأجابه الأشرف إلى ذلك، فعندما طلب كتبغا من الأشرف المسير معه إلى عين جالوت اعتذر وتمارض.[١]

وقد رافق عملية التجيّيش هذه عملية جمع الأموال اللازمة لتجهيز القوات بما تحتاجه من العدة والعتاد، واعتمد في ذلك على شيخ الإسلام العز بن عبد السلام[٢]، الذي أصدر فتوى مفادها أنه: إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتالهم، وجاز للسلطان أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد، وتجهيز العساكر، ولكن جعل الإمام هذا العمل مشروطاً بشرط، وهو أن عملية جمع الأموال من الرعية تتم عندما لا يبقى في بيت المال شيء، ويقتصر الجندي على مركوبه وسلاحه، ويتساوى مع العامي، عندئذ يسوغ أخذ شيء من أموال الناس لدفع الأعداء.[٣]

وبناء على هذه الفتوى قرر السلطان قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من التُرَك الأهلية ثلث المال. [٤]

وعندما شعر السلطان بأن الحالة أصبحت تسمح بالمسير لملاقاة العدو، سار بنفسه إلى الصالحية خارج القاهرة ونزل بها، حتى تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من

---

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٢/٣١٢. العيني (بدر الدين محمود، ت: ٨٥٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، ط ٢٠١٠م ١/٢٤٤. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/٤٧٣.

[٢] عز الدين بن عبد السلام الدمشقي الشافعي، إمام عصره، ولد في دمشق سنة ٥٧٧هـ، وتوفي في القاهرة سنة ٦٦٠هـ، ولي خطابة دمشق، ثم عزل بعد أن هاجم على المنبر حاكمها الصلح إسماعيل لأنه تنازل عن صفد الشقيف للصليبيين، هاجر إلى القاهرة وهناك ولي القضاء والخطابة، ثم عُزل، انظر: الصفدي (خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ١٨/٣١٨-٣١٩. وللعز بن عبد السلام عدة كتب نشر معظمها إياد الطباع في دار الفكر، دمشق، وأهمها كتاب في الجهاد.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٢٦٢، المقريزي: السلوك، ١/٤١٦-٤١٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/٧٢-٧٣.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م ، ٣/ ٣٠٤ (سيشار إليه باسم الخطط). النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٣٠٥.

عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم في يوم الإثنين ١٥ شعبان ٦٥٨هـ/ تموز ١٢٦٠ م،[1] وهنا تكلم السلطان مع الأمراء في موضوع المسير لقتال المغول، فلمس تقاعساً من بعض الأمراء في شأن الجهاد، فقال لهم: "يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين".[2]

وبالطبع عكس هذا الخطاب الحالة النفسية المحطمة عند أمراء المسلمين إبان الإنذار المغولي، هذه الحالة أكدها المؤرخ أبو المحاسن بقوله: " كانت القلوب قد آيست من النُصرة على التتار، واجمعوا على حفظ مصر لا غير- أي بدون الخروج للتصدي للمغول- لكثرة عدوهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين "،[3] وكان المظفر قطز قد لمس ذلك في نفوسهم، وهذا ما يفسر قتله للرسل، ليظهر الشجاعة، والتصميم، وخاطبهم قائلاً:"أنا ألقى التتار بنفسي"، وهنا لم يَسَعْ بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة والمسير معه.[4]

٢- الأوضاع على الجبهة المغولية:

بدأت على الجهة المقابلة أحوال المغول- الذين استفادوا كثيراً من الأوضاع السيئة للبلاد الإسلامية – تتبدل بعد أن ترك هولاكو قيادة الجيوش لنائبه كتبغانوين وعاد يريد قراقورم؛ إذ قدم عليه وهو في حلب رُسل أخبروه بوفاة أخيه الخان الأعظم منكوخان سنة ٦٥٥هـ/ آب ١٢٥٧م، وأن هناك نزاعاً بين أخويه الآخرين قوبيلاي وأريق بوقا على ولاية العرش؛ إذ أعلن الأول نفسه خاناً في الصين، ونصب الثاني نفسه في منغوليا، وبات من الضروري على هولاكو الذي كان يؤيد مطالب قوبيلاي

---

[1] المقريزي: السلوك ٤٢٩/٢/١ . ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٩. والبعض يذكر أن المسير كان في بداية رمضان ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٧٨. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣١٥.

[2] المقريزي: السلوك ٤٢٩/٢/١ .

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٨/٧.

[4] المقريزي: السلوك ٤٢٩/١.

العودة إلى العاصمة،[1] وربما هناك سبب آخر استدعى قدوم هولاكو، وهو التهديد الذي بدأ يواجهه من خانات القبيلة الذهبية بزعامة بركة خان الذي أسلم وحمّل هولاكو مسؤولية قتل المسلمين والخليفة، وأعلن أنه سينتقم لدمائهم، وبدأ بالغارات على أراضي هولاكو.[2]

أحدثت مغادرة هولاكو تحولات خطيرة في بنية الجيش المغولي، فهولاكو —كما ورد من قبل – عندما عاد إلى فارس لم يعد بمفرده، بل عادت معه جموع من العساكر، ولم يترك لنائبه كتبغا من العسكر– على قول بيبرس الدوادار– إلا حوالي ١٢ ألف فارس، بعد أن هوّن عليه الناصر صاحب حلب ودمشق أمر مصر والمماليك،[3] بينما ذكر ابن العبري أن القوة التي أبقاها هولاكو مع كتبغا هي عشرة آلاف مقاتل،[4] أما المؤرخ الأرمني المعاصر سمباط فذكر أن هولاكو عندما عاد إلى الشرق اصطحب معه ابنه أبغا، وقام الأخير بسحب جيشه معه،[5] ولم يأتِ على ذكر تعداد العساكر المنسحبة أو الباقية، وعلى كل حال فإن الجيش المغولي الذي سار إلى دمشق لم يكن– من حيث العدد– كما كان من قبل.

أما بالنسبة لصليبيي بلاد الشام فمع أن بوهيمند السادس ملك أنطاكية، وهيثوم ملك الأرمن كانا يشاركان في عمليات الجيش المغولي على الأراضي الإسلامية،[6] وعلى الرغم من الميول الظاهرة عند هولاكو نحو المسيحيين، بشكل جعل أحد مؤرخي الأرمن يصفه بأنه صديق ودود للمسيحيين،[7] إلا أن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم، في الوقت الذي

---

(1) Howorth: A History of the Mongols. Part III, P.316.

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٢٨/٩. بارتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار إحسان، دمشق،١٩٨٢م ص٤٩.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢ /٣٣٢/١.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٧/٩–٢٨.

(4) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٠، رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٣٢/٣. وربما الصراع الذي حدث على منصب الخان والتهديد الذي بدر من قبل مغول القفجاق هو الذي دفع هولاكو إلى سحب معظم جيوشه معه.

(5) سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣٢/٣٦.

(6) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٢–٤٣.

(7) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٢١.

أدركوا فيه أن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة، بل يريدونهم تابعين للخان الكبير، لذا كان هؤلاء الصليبيون يؤثرون المسلمين ويفضلونهم على العنصر الغريب المتغطرس القادم من الصحارى النائية، هذا العنصر الذي كان سجله في شرق أوروبا مدعاةً للنفور،[1] وقد تطوّر هذا الشعور عندما هاجم أحد البارونات والمسمى جوليان الصيداوي (Julian de sidon) دورية مغولية، وقتل ابن أخ كتبغا، فسخط المغول وقرروا الانتقام، فهاجموا مدينة صيدا، وأنزلوا بها خسائر فادحة،[2] ولهذا السبب – ولغيره – التزم الصليبيون الحياد في معركة عين جالوت.

أما بالنسبة لعودة هولاكو إلى قراقورم، فقد كانت لها نتائج أثّرت سلباً على مجريات الأحداث؛ لأنه من الأفضل –كقاعدة عسكرية– أن يبقى القائد الذي كان قبل القتال ممارساً لقيادته؛ يبقى هو نفسه أثناء القتال؛ لأن المقاتلين اعتادوا على هذه الممارسة، ويكون القائد قد عرف المقاتلين بشكل جيد حتى يوزعهم في الأمكنة المناسبة، يُضاف إلى ذلك أن هذا الجيش، بقي بمفرده بدون جيش احتياطي، وبدون قاعدة قريبة يستطيع أن يطلب منها الإمدادات، ولاسيما أن قاعدة هذا الجيش البعيدة أيضاً مشغولة بالقتال الداخلي.[3]

يُستنتج من الكلام السابق أن جبهة المسلمين كانت جبهة موحدة، بينما كانت الجبهة المغولية تتعرض لعوامل الضعف والانقسام والتصدع، وهذا ما أشار إليه المؤرخ الأرمني غريغوري أوف أكانك عندما قال إن الجيش المغولي كان قُبيل معركة عين جالوت يعيش حالة عدم استعداد.[4]

٣– بدء المسير:

يستطيع المرء أن يُلاحظ في معركة عين جالوت حالة جديدة لم يألفها الجيش المغولي من قبل؛ وهي خروج الجيوش الإسلامية لقتاله، في حين أن المسلمين قبل ذلك التزموا مبدأ الدفاع والتحصّن داخل مدنهم، منتظرين الهجوم المغولي عليهم، متناسين أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، أما في معركة

---

[1] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٣٤/٣،٥١٣–٥٣٥.

[2] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٣–٤٤، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ٤١٠/٢٠. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/ ٥٢٩–٥٣٠.

[3] محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص ١١٦–١١٧.

[4] غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٢٥.

عين جالوت فقد اتبع المماليك استراتيجية جديدة، وهي منازلة العدو قبل وصوله إلى ديارهم، وبالتالي فرض مكان المعركة المناسب للمماليك، والذي كان له أثره في انتصارهم، أما إذا حلت بهم الهزيمة سيكون عندهم فرصة أخرى للتراجع، وإعادة تجميع قواهم من جديد، ومنذ ذلك الوقت دافع المصريون دائماً عن مصر في بلاد الشام.

تقع عين جالوت في سهل مرج ابن عامر في الجزء الجنوبي الشرقي منه في شمال فلسطين، يحدها من الشمال الشرقي الناصرة، ومن الجنوب جنين، ومن الجنوب الغربي الكرمل وجبال نابلس، ومن الشرق جبال فقوعة، ووادي جالوت، ومن الشمال الغربي تلال شفا عمرو، وهي قريبة من جبال الفقوعة، وتحيط بها الأنهار والوديان.[١]

وتكثر في المنطقة الينابيع والعيون الصالحة للشرب، مثل عين العاصي، وعين الجندي، وعين البادرية، وعين نصر، وعين موسى... الخ،[٢] وتحيط بها الجبال والتلال، أما بالنسبة للسهول فأهمها سهل مرج ابن عامر الذي يبلغ طوله حوالي ٤٠ كم شرقاً وغرباً بعرض ٢٠ كم شمالاً وجنوباً.[٣]

هذا السهل هو أوسع السهول الموجودة في فلسطين، وأغناها بالتربة والمياه، يميل هذا السهل من الجهة الجنوبية الشرقيةمن جنين، إذ يتدرج بالانخفاض البطيء باتجاه الشمال الغربي إلى منتصف السهل(إلى جنوب العفولة)، وبالمقابل يتدرج بالميل من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية حتى منتصف السهل أيضاً، وعندما تلتقي الميول تتجه نحو الغرب حتى تصل إلى العجرة، وتكثر في هذا السهل الطرقات والمدقات من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ويسهل فيها السير للراكب والراجل.

ومما لاشك فيه كان هذا السهل هو أنسب مكان للقتال، ولا سيما منطقة عين جالوت؛ لأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس، كما أن المنطقة الشرقية فيها وديان

---

[١] محمد محمد شراب:معجم بلدان فلسطين، دار المأمون، دمشق، ١٩٨٧م، ص٥٥٧. سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٢. محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص ٨١.

[٢] قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٩م،ص٥٥-٦٩.

[٣] موسوعة فلسطين الجغرافية، ص ١٨٨.

وأحجار كثيرة، وأخاديد تحد من الحركة، وتقيّد من المناورة، وبالنسبة لسهل بيسان فهو شديد الحرارة، وفيه من السباخ ما لا يؤمن الشروط المناسبة للقتال،(١) لذلك نجد أن اختيار مكان اللقاء كان موفقاً إلى حد ما، ناهيك عن أن الجيش، وإن لم يكن جيشاً عظيماً، ولكنه جيش محترف بكل ما تعنيه هذه الكلمة، سواء من حيث التسليح أم التدريب أم المقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي.(٢)

بدأ مسير الجيش المملوكي انطلاقاً من الصالحية باتجاه فلسطين، فكانت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس الذي تقدم الجيش بفرقة مهمتها استطلاع أخبار المغول، وتمهيد الطريق للقوات الرئيسية الزاحفة خلفه، فسار الأمير بيبرس حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ/ حزيران ١٢٦٠م، في الوقت الذي كان بيدرا قائد طليعة جيش المغول أيضاً يتقدم بقواته حتى وصل إلى غزة، وعندما رأى الطليعة الإسلامية بقيادة بيبرس أرسل إلى كتبغا الذي كان بالقرب من بعلبك يخبره بتحركات جيش المسلمين، ويطلب منه المدد، فرد عليه كتبغا يطلب منه الانتظار والثبات في مكانه حتى تأتيه النجدات، ولكن الأمير بيبرس لم يمهله، فبادره بالهجوم وهزمه، ثم طاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، وملك غزة بالقوة.(٣)

تعدُّ هذه المعركة أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول، فقد أفادت المسلمين كثيراً من الجانب المعنوي، وكانت دافعاً قوياً لهم للتوجه إلى عين جالوت ليتسنى لهم اللقاء بشكل أفضل، كما أفادت هذه المناوشة فائدة عظيمة، فقد قدمت للمماليك استطلاعاً قتالياً مباشراً، واختبار لقدرات العدو وأساليب قتاله،(٤) كما قدمت معلومات مموهة عن طبيعة الجيش المملوكي وتعداده وتحركاته وقطعه الرئيسية الموجودة مع قطز؛ الذي عرج – قبل الذهاب إلى عين جالوت– إلى عكا أولاً

(١) محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص ٨٨-٨٩.

(٢) سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٠.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٦٥/١-٣٦٦. المقريزي: السلوك ٤٢٩/٢/١-٤٣٠. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٩. رشيد الدين: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢. يذكر رشيد الدين أن قطز هو الذي هاجم بيدرا عند غزة، ولكن من خلال تسلسل الأحداث تبين صحة رواية المقريزي في أن بيبرس هو الذي هاجمه.

(٤) يشير ابن عبد الظاهر إلى أهمية المعلومات التي قدمها الظاهر بيبرس عن قوات التتر من خلال غاراته الاستطلاعية، أنظر: ابن عبد الظاهر (محي الدين، ت٦٩٢هـ): الروض في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م، ص ٦٤.

لاستطلاع موقف الصليبيين، طالباً منهم السماح للجيوش الإسلامية باجتياز الأراضي التي بحوزتهم والتزود بالمؤن؛ فوافقوا، وأكثر من ذلك؛ عرضوا عليه المساعدة ضد المغول لأنهم كانوا مستاءين من تصرفهم في صيدا،[1] لكنه اكتفى بأن أخذ منهم وعداً بالوقوف على الحياد "لا له ولا عليه"، ثم وجّه إليهم تحذيراً بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد إلحاق الأذى بالمسلمين، رجع إليهم وقاتلهم قبل أن يقاتل المغول،[2] لذلك "أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول".[3]

٤- الاشتباك:

قبل الخوض في تفاصيل معركة عين جالوت لا بد من الإشارة إلى أن الجيش المملوكي لم يشتبك من قبل في معركة مع الجيش المغولي؛ باستثناء اشتباك الأمير بيبرس سالف الذكر في غزة، غير أن هذا لا يعني بالضرورة أن الجيش المملوكي كان يجهل تماماً أساليب القتال المغولية، فالعساكر الشامية؛ وغيرها من العساكر الإسلامية التي فرت أمام المغول، وتجمعت في مصر -كما سلف الحديث-، كانت قد اشتبكت مع المغول في معارك سابقة، ومن الطبيعي أن تكون هذه العساكر قد قدمت معلومات مفيدة عن الفنون القتالية لدى المغول، زد على هذا أن ابن عبد الظاهر تحدث صراحةً عن أهمية المعلومات التي حصل عليها بيبرس في معركة غزة مع بيدرا، فقال:" وردت رسل الملك الظاهر ينذر الناس، ويعلمهم بقرب العدو، وينبه على عورات العدو، ويقللهم في أعينهم، ويجسرهم على انتهاز الفرصة، وكان ذلك أحد أسباب النصر"،[4] كما أن جواسيس المماليك كانوا ينقلون لهم أخبار المغول أول بأول،[5] والأهم من هذا كله أن السلطان قطز كان قد حصل قبل الاشتباك مع المغول على معلومات قيّمة من صارم الدين أزبك، وكان صارم الدين هذا مملوكاً للأشرف صاحب حمص، ثم دخل في خدمة هولاكو، فوثق

---

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٦

[2] المقريزي:السلوك ٤٣٠/١. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٦-٤٧.

[3] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٣٢/٣.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٦٤.

[5] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٣٢.

به هولاكو وقربه إليه، ولما غادر هولاكو حلب أوكل لهذا المملوك مهمة استشارية؛ وهي أن يقدم المعلومات لكتبغا وبيدرا، تلك المعلومات التي تساعدهم في دخول مصر، ثم أمره بالتوجه إلى كتبغا، فقال هذا المملوك: "لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية.... بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرّفهم بأن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، ... وكنت قلت في جملة كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا ذا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان".[١]

بعد أن أنهى السلطان قطز مفاوضاته مع الصليبيين توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي، فاجتاز الناصرة في طريقه إلى عين جالوت، الواقعة بين بيسان ونابلس،[٢] وكان كتبغا قد وصل إلى أرض المعركة " وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب "،[٣] وبدأ الأمير بيبرس يناوش المغول، فتارة يُقْدِم وتارة يُحْجِم، إلى أن وافاه السلطان في عين جالوت.[٤]

كان المصاف الأعظم في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ أيلول ١٢٦٠م، وكان اللقاء بعد طلوع الشمس، وتحدث صارم الدين عن تفاصيل ما قبل اللقاء، عند قدوم عساكر المسلمين، قائلاً: " فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا، وظللت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العُدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العُدد، فطلبني كتبغا وقد بُهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحُسن ما عليهم وجمالهم وهم منحدرون من

---

[١] وردت هذه الرواية في تاريخ قرطاي العزي الخازنداري، ونقلها الدكتور أحمد عبادي كاملة في كتابه: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، الملحق رقم ٣، ص ٢٥٦. كما أوردها ابن أيبك في كتابه الدرة الزكية،ص ٥٣-٥٧، مع اختلاف جوهري وهو عندما أرسل إلى المماليك طلب منهم أن يقووا الميمنة الإسلامية، أما في رواية الخازنداري طلب منهم أن يقووا الميسرة الإسلامية.

[٢] ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة عين.

[٣] رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/ ١/ ٣١٣.

[٤] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١/٣٦٦.

الجبل، وقال لي: يا صارم ! هذا رنك[1] من؟ قلت: سنقر الرومي، ثم ظهرت سناجق صُفر، قال: هذا رنك من؟، قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب[2] أولاً فأول وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات[3] والطبلخانات[4] وامتلأ الوادي والبر من العياط،[5] وغارت[6] الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غراً بمعرفة رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني هذا رنك من؟، فصرت أي شيء طلع على لساني قلته ".[7]

أما المسلمون فقد سيطر عليهم الخوف من التتار، فعندما قدم رسول صارم الدين إلى المماليك " وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً "،[8] وعندما التقى الجمعان في عين جالوت كان " في قلوب

---

[1] رنك: كلمة فارسية بمعنى اللون، وقد استعملت كشعار للوظائف، وكان من عادة كل أمير مملوكي كبيراً أو صغيراً أن يكون له رنك خاص به، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الأمير فعند ترقيته إلى مرتبة أعلى، أو على الوظيفة التي يؤثر أن يعرف بها من بين الوظائف التي شغلها، وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم وأملاكهم ومراكبهم، وحتى على السيوف والأقواس الخاصة بهم وبمماليكهم. القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ٦٣.

[2] طُلب: الفرقة من المماليك خاصة بأمير من الأمراء وجمعها أطلاب، وعدد عسكره ٧٠-٢٠٠فارس في ميدان القتال، ثم استخدم للدلالة على الكتيبة. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ١٩٩٠م، ص ١٠٨.

[3] الكوسات هي صنوجبات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي. القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/٤. ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهري): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بولس راويس، طبعة مصورة عن طبعة باريس، ١٨٩٤م، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص ١١٣.

[4] الطباخانة كلمة فارسية معناها بيت الطبل، أو الفرقة الموسيقية السلطانية، وكانت العادة أن تدق كل ليلة في القلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٧-٨. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٠٦.

[5] التَّعَيُّطُ: الجلَبَةُ والصِّياحُ، وعِيطِ، بالكسرِ: صوتُ الفِتْيانِ النَّزِقينَ إذا تَصايَحوا فِي اللَّعِبِ. انظر، الزبيدي (محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ت: ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ١٩/ ٤٩٩.

[6] في الأصل غابت والتصحيح هنا لاكتمال المعنى، وهذا يدل على المشاركة الشعبية في المعركة.

[7] انظر رواية صارم الدين أزبك عند العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ملحق ٣، ص ٢٦٧-٢٦٨.

[8] رواية صارم الدين أزبك، ص ٢٦٧ .

المسلمين وهم عظيم من التتار "،[1] بدأ القتال؛ وكان قتالاً شديداً لم يشاهد أحد مثله من قبل، فانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر، فحمل السلطان قطز بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة، حتى تحاربوا وتراجعوا و جبر ضعفها، واشتد القتال، والسلطان المظفر يشجع أصحابه ويُحَسن لهم الموت، ويكّر بهم كرّة بعد كرّة.[2]

وعندما رأى اضطراب عسكره، ألقى عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته "واإسلاماه"، فالتفت حوله القوات وحملوا على المغول حملة رجل واحد، فاختل توازن المغول، في الوقت الذي كان فيه الأمير بيبرس قد نصب كميناً للتتار في المنطقة، إذ عمد إلى إخفاء بعض قواته في الأحراش وبين الأشجار المحيطة بعين جالوت لتضليل العدو بطليعة المسلمين، إلى أن وصلوا إلى الكمين الذي أعده لهم الأمير بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسل المسلمين في قتال المغول إلى أن فتح الله عليهم بالنصر، وقُتل كتبغا.[3]

انهارت جموع المغول ولاذوا بالفرار، ثم إنهم عادوا وانتظموا مرة ثانية بالقرب من بيسان في مصاف أعظم من الأول، لاحتواء الهزيمة التي حلت بهم في عين جالوت، وكان هذا اللقاء أشد من سالفه في عين جالوت، تزلزل فيه المسلمون زلزالاً شديداً، ثم عاد السلطان قطز يصرخ بشكل سمعه معظم العسكر، وهو يقول: واإسلاماه، ثلاث مرات، "يا الله انصر عبدك قطز على التتار"،[4] فقويت عزائم المسلمين، وانتهى أمر هذه الواقعة التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة عدة مرات إلى نصر المسلمين وهزيمة المغول، فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب لينظر عاقبة المغول، فأقبل العسكر، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم.[5]

---

[1] المقريزي: السلوك، ٤٣٠/١

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧٩/٧.

[3] المقريزي: السلوك ٤٣٠/٢/١، رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣١٤/١/٢. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٤/٢٩. أبو الفداء: المختصر، ٣١٥/٢.

[4] المقريزي: السلوك، ٤٣٠/٢/١-٤٣١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧٩/٧، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٦٦/١.

[5] المقريزي: السلوك، ٤٣٠/٢/١-٤٣١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧٩/٧، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٦٦/١. وقد كتب الأديب المصري أحمد علي باكثير رواية واإسلاماه، وصف فيها تفاصيل المعركة بصورة أدبية رائعة.

ويذكر ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت، بل ساق خلف المغول الذين انسحبوا شمالاً عن طريق الساحل فأدركهم عند أفامية وقد تجمعوا ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة،[١] ويقول ابن تغري بردي إن المطاردة استمرت حتى حلب حيث تم تحرير الأسرى منهم،[٢] وقُتل قادة المغول الذين عُينوا حكاماً على المدن الشامية، وأُسرت نساءهم وأطفالهم،[٣] وعندما وصلت أخبار الهزيمة إلى هولاكو استبّد به الغضب، وأراد إرسال جيش آخر لمحاربة المماليك،[٤] غير أن الخلافات الحادة والحروب الأهلية التي وقعت بينه وبين أقاربه من حكام القبيلة الذهبية حالت دون تنفيذ رغبة هولاكو، فَعَدَل عن فكرته، وكل ما استطاع فعله هو قتل الملك الناصر صاحب حلب ودمشق، مع أمراء الشام الذين كانوا أسرى عنده. [٥]

٥- نتائج عين جالوت:

تأتي أهمية الوقائع بما تحدثه من تغييرات، وبما تخلفه من آثار، وتعد معركة عين جالوت من أهم أحداث التاريخ، ونقطة تحول كبرى فيه، فقد ترتب عليها نتائج بالغة الأهمية سياسياً وعسكرياً وحضارياً، على مستوى الغرب والشرق، وبرهنت أن الاحتراف العسكري المدعوم بالظهير الشعبي، والمستند على الإيمان، والمتحلي بالعبقرية يمكنه أن يهزم أي قوة مهما بلغ جبروتها.

في الحقيقة لا يمكن الحديث عن هذه المعركة دون التعرض للنتائج التي خلفتها، تلك النتائج التي أسهمت في تغيير ميزان القوى وتبديل أوضاع مشرق البحر المتوسط، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وقد تمثلت تلك النتائج بنقاط عديدة، أهمها:

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٦٥.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨٢/٧.

[٣] رشيدالدين: جامع التواريخ، ٣١٦/١/٢.

[٤] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣٢/٣٦.

[٥] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣١٧/١/٢، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص ١٦٦.

- **تحرير بلاد الشام من حكم المغول، ودخولها في وحدة شبه طوعية مع مصر تحت حكم المماليك:**

فباحتلال حلب ودمشق وبقية بلاد الشام من قبل المغول "انقضت المملكة الناصرية – نسبة للناصر يوسف صاحب حلب ودمشق الذي قتله هولاكو – وبانقضائها انقضت الدولة الأيوبية من البلاد الشامية، كما زالت من الديار المصرية"،[1] ولكن بعد معركة عين جالوت وانسحاب المغول شمالاً وقتل نوابهم في بلاد الشام- كما تقدم- حدث فراغ في السلطة في بلاد الشام؛ فملأه المماليك بحكم انتصارهم، وأصبح قطز سيد الموقف في بلاد الشام، وهكذا كما أن حكم المماليك لمصر جاء كنتيجة لغزو خارجي هو الحملة الصليبية السابعة، فإن حكمهم لبلاد الشام جاء أيضاً بالطريقة نفسها، نتيجة للغزو المغولي، فهذا الانتصار كان خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة التي تتلمس مختلف الوسائل لتدعيمها، ناهيك عن أنها بدأت تحتل مرتبة إجلال واحترام من قبل العالم الإسلامي، فمع قيام هذه السلطنة كان الناس يرفضون حكم المماليك، ولا يريدون إلا حاكماً حراً مولوداً على الفطرة،[2] وفي هذا النصر أثبت المماليك أنهم أهل للحكم، فتروي بعض المصادر أن المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول في اليمن حج بجيش كبير في السنة التالية للموقعة أي في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وفي الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر، فقال له أحد الأمراء: "هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين؟". فقال له: "أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتر بالأمس، وأقدم أعلامي لحضوري".[3]

فنصر عين جالوت كان سبب خلاص الشام من أيدي المغول، وتبعيتها للحكم المملوكي، إذ أقيمت الخطبة باسم قطز في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات،[4] وفي الثاني من شوال ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م دخل السلطان قطز دمشق، وأعلنت سائر بلاد الشام خضوعها له باستثناء إمارة

---

[1] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٧/٩. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٢/٢٩.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٣/٧.

[3] الخزرجي: (علي بن الحسن الخزرجي): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بيسوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ١٢٤/١.

[4] المقريزي: السلوك، ٤٣١/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٨٢-٨٣. أبو الفداء: المختصر، ٣١٦/٢-٣١٧.

الكرك التي كان يحكمها الملك المغيث الأيوبي، فبدأ بترتيب أمور الشام، وعيّن النواب على ولاياتها،[١] وبذلك يكون السلطان قطز "هو أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك".[٢]

- **كسر شوكة المغول، وتبدد أسطورة أن المغول قوم لا يُهزمون، وانعكاس ذلك نفسياً على الأمراء المماليك في حربهم ضد الصليبيين والمغول مستقبلاً:**

لقد كانت عين جالوت الحلقة الأولى في سلسلة من الوقائع بين المغول والمماليك؛ كان النصر في معظمها من نصيب المماليك، غير أن ذلك سُبق بتاريخ حافل من الانتصارات للمغول، فمنذ خروجهم على المسلمين (من سنة٦١٦حتى ٦٥٨هـ/ ١٢١٩-١٢٣٦٠م) ما لقيهم " عسكر إلا فلُّوه سوى وقائع كانت بينهم وبين جلال الدين بن خوارزم شاه، انتصف جلال الدين في بعضها، ثم كبسوه على باب آمد وبددوا جمعه "،[٣] وقد استغل المغول هذه الخرافة كعامل نفسي كان له أثره في إرهاب خصمهم ودفعه إلى الاستسلام، فمعظم القلاع التي سيطروا عليها خضعت لهم عن طريق المهادنة، ولم يقاومهم إلا القليل، وبلغ الخوف من المغول في نفوس معاصريهم درجة أصبح فيها الرجل الواحد منهم يدخل على القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم الواحد بعد الآخرد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده على ذلك الفارس،[٤] ومع نصر المماليك في عين جالوت تبدل هذا الاعتقاد.[٥]

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٩٣/٦ وما بعد. المقريزي: السلوك، ١/ ٤٣٣. أبو الفداء: المختصر، ٣١٥/٢-٣١٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨٣/٧-٨٤.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨٣/٧. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/ ٤٧٥-٤٧٧. أبو الفداء: المختصر، ٣١٦/٢.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٣/٦. النسوي (محمد بن أحمد): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تح: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٣٧٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧٤/٧.

[٤] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٣٧.

[5] Cambirdge: Medival History،Vols. IV.p.644.

- **انتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي والثقافي في العالم الإسلامي إلى مصر(القاهرة):**

مَنَحَ هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية عند المسلمين بعد أن أصبحت مقر الخلافة العباسية، ومقر أعظم قوة إسلامية آنذاك، كذلك فقد غدت مركز إشعاع فكري عند المسلمين، ولا سيما بعد دمار بغداد، وهجرة العلماء من المشرق إلى مصر.[١]

- **تحول موقف المسلين القتالي من الدفاع إلى الهجوم:**

كان نصر عين جالوت باعثاً لروح الجهاد الإسلامي، ولا سيما بعد تنامي قوة المسلمين تحت قيادة المماليك، فأوقفوا المد المغولي غرب الفرات وأسيا الصغرى، وقضوا على أحلامهم التوسعية في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى أتاح لهم هذا العمل تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، وقد تم لهم ذلك بعد ثلاثين عاماً من انتصارهم في عين جالوت .

---

[١] السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن، ت٩١١): حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة السلفية، د.ت، ٦٦/٢. زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٣.

ثانياً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس "٦٥٨-٦٧٧هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٦م":

عَقِبَ معركة عين جالوت قام السلطان المظفر قطز بمجموعة من الأعمال كان من شأنها إعادة الاستقرار إلى بلاد الشام، فنظَّمَ البلاد إدارياً، وعيّن عليها جملة من النواب، ولم يكن لبيبرس – القائد المغوار، وصاحب الدور الكبير في الحرب ضد المغول – نصيب من هذه النيابات، مع أن السلطان قطز كان قد وعده قبل معركة عين جالوت بمنحه ولاية حلب إذا تم النصر على المغول، إلا أنه تراجع عن وعده، وأعطاها للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل،[١] بل أكثر من ذلك بدأ السلطان قطز يظهر تكبراً في معاملته مع بيبرس، وتغيرت نيته تجاهه.[٢]

هنا بدأت الجفوة بينهما، ويجب ألا ننسى أنه كان هناك من قبل جفاء بين المماليك البحرية؛ وعلى رأسهم الآن بيبرس، والمماليك المعزية؛ وعلى رأسهم قطز، فقد شارك قطز في قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية أيام السلطان عز الدين أيبك،[٣] وقد تسبب هذا في تشتت البحرية في بلاد الشام مدة من الزمن ما برحوا ينتقلون فيها من منطقة إلى أخرى، يتلمسون رعاية ملك أو حاكم يكتريهم ويقدم لهم المساعدة،[٤] وقد ظهر هذا الجفاء واضحاً بعد عين جالوت، وتحدث اليونيني عنه فقال: " ولم تزل الضغائن والحقود تتراءى في صفحات العيون والخدود، وكل منهما يحترس من صاحبه بِجُنَّةِ الوداع، ويترقب فرصة تَقِفُ الروح من الجسد بانتهازها على ثنية الوداع ".[٥]

وربما كان هناك أسباب عديدة مجهولة دفعت بيبرس وبعض الأمراء لقتل قطز بالقرب من الصالحية أثناء مسيره إلى القاهرة، وحدث هذا في حوالي منتصف ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ/ تشرين الأول

---

[١] المقريزي: السلوك، ٤٣٥/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨٢/٧،١٠١. أبو الفداء: المختصر، ٣١٧/٢. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٦/٢٩-٤٧٧.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٦٨.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٥٣-٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب، ١٧٨/٦. المقريزي: السلوك، ٣٨٩/١-٣٩٠.

[٤] تقدم ذكر ذلك، وللمزيد انظر بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٢/٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ١٤١/٦، ١٧٨-١٨٢. أبو الفداء: المختصر، ٢٩٠/٢، ٢٨٧. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ٣٧٢/٢٠.

[٥] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٧٠/١.

١٢٦٠م،[1] بعد هذه الحادثة تسلطن مكانه بيبرس، وحمل لقب الظاهر، وبدأ يعمل على بسط سلطانه.

١- مناورات الظاهر بيبرس لتدعيم أركان السلطنة المملوكية:

عمل الظاهر بيبرس منذ بداية حكمه على إحاطة السلطنة المملوكية بمسوغات وعوامل البقاء والاعتراف بها، وإعطائها صفة شرعية الحكم، فتمكن من إرساء الدعائم والقواعد التي هيأت للسلاطين المماليك الاستمرارية من بعده، وفي سبيل ذلك واجه المشاكل والثورات والتمردات الداخلية والخارجية، إلا أنه تمكن بحنكته من استغلالها لصالحه؛ إذ أظهر من خلالها هيبة الدولة وقوة سلطانها داخلياً وخارجياً.

في بداية حكمه واجه الظاهر بيبرس معارضة الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي عُيِّنَ نائباً على دمشق من قبل المظفر قطز بعد معركة عين جالوت، وكان يشغل قبل ذلك أتابك العسكر أيام المنصور علي بن أيبك،[2] ولما تَسَلْطَنَ بيبرس رفض هذا الطاعة له، وجمع من حوله الأمراء وأعيان دمشق وألزمهم بالحلف له، وتلقب بالملك المجاهد في ذي الحجة سنة٦٥٨هـ/١٢٦٠م.[3]

راسل السلطان الظاهر في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م الأمراء الذين كانوا مع الحلبي في دمشق؛ فأجابوه وخرجوا عن طاعة الحلبي، وهربوا من دمشق، فلما لحق بهم الحلبي بمن بقي معه من الأجناد هزموه، فعاد إلى القلعة بدمشق فدخلها، ثم حمله الخوف على الهروب منها إلى بعلبك، فدخل دمشق

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٦٧-٦٨، أبو الفداء: المختصر، ٣١٧/٢، المقريزي: السلوك،٤٣٥/١، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٦١-٦٣. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/ ٤٧٧-٤٧٨.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب: ٢٩٦/٦. ابن طولون (محمد بن طولون الدمشقي، ت٨٥٣هـ: إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٤م، ص٤-٥.

[3] مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره بلوشيه في PATROLOGIA ORIENTALIS، T.XII. .٤١١-٤١٠/١

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠٣/٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/ ٣٠٠-٣٠١. المقريزي: السلوك، ٤٣٨/١.

الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، وأعلن فيها شعار الملك الظاهر،[1] واستقر البندقداري نائباً بها مدة شهرين، ثم عُزِلَ وعُيِّنَ مكانه الأمير طيبرس الوزيري،[2] أما الحلبي فقد لحقه العسكر وقبضوا عليه في بعلبك وأُرْسِلَ إلى السلطان في مصر، فعفا عنه ورسم له بخيل وبغال وجمال وقماش وغير ذلك.[3]

وتعرض السلطان الظاهر بيبرس أيضاً في بداية حكمه إلى محاولة استقلالية انفصالية من قبل بعض المماليك – العزيزية والناصرية – الذين كانوا موجودين في دمشق بكثرة، وعلى رأسهم الأمير بغدي الأشرفي، والأمير شمس الدين البرلي، كان البرلي قد ولّاه السلطان قطز أميراً على الساحل من غزة إلى الغور –على نهر الأردن–، أما سبب وجوده في دمشق هو أمر السلطان بيبرس له بمساعدة نائب دمشق الأمير علاء الدين البندقداري في قتال علم الدين الحلبي،[4] فعندما استتب الأمر في دمشق للظاهر بيبرس، وازداد خطر المغول على البيرة[5] وحلب، أراد أن ينظف الجبهة الداخلية لكي يتفرغ للمخاطر الخارجية، فأوعز للأمير أيدكين البندقداري نائب دمشق بالقبض على البرلي وبغدي وغيرهما من أمراء العزيزية والناصرية؛ فبادر أيدكين إلى اعتقال البغدي، مما أثار مخاوف العزيزية والناصرية، فالتفوا حول البرلي وهربوا من دمشق إلى حمص محاولين استمالة حاكمها الأشرف بن موسى بن شيركوه دون جدوى، فواصلوا سيرهم إلى حماه محاولين أيضاً استمالة الملك المنصور الأيوبي حاكم حماه، لكنه لم يصغ إليهم، فتابعوا مسيرهم إلى حلب التي كان يحكمها فخر الدين الحمصي، فسيطروا عليها بالحيلة، وخرج منها فخر الدين، وقام البرلي بجمع العرب والتركمان حوله ليشكل منهم قوة يستعين بها ضد السلطان بيبرس، وقد حدث ذلك كله سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م.[6]

---

[1] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٤١٩-٤٢٠. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٩١.

[2] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٤٢٠.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٩٦. ابن طولون: إعلام الورى، ص٥. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٤٢٠. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٩٢.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب: ٦/٢٩٥. أبو الفداء: المختصر: ٢/٣٢١. ابن عبد الظاهر: الروض، ص٩٧.

[5] البيرة بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة، الحموي: معجم البلدان، مادة بيروت.

[6] أبو الفداء: المختصر: ٢/٣٢١. ابن واصل: مفرج الكروب: ٦/٣١٠-٣١١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ٢/١١٩-١٢٢.

أدرك السلطان بيبرس خطر البرلي، وخوفاً من استفحال أمره قرر القضاء عليه فوجه إليه قوة تحت قيادة جمال الدين المحمدي انضم إليها في الطريق فخر الدين الحمصي - حاكم حلب الذي احتال عليه البرلي-، وقوة أخرى بقيادة سنجر الحلبي - بعد أن عفا عنه السلطان-، فلما علم البرلي بذلك أدرك أنه لا يستطيع المقاومة فهرب إلى البيرة؛ الثغر الحصين على نهر الفرات، وهناك أدرك أيضاً أنه ليس نداً للمغول، وبعد مناورات عديدة قرر الاستسلام للظاهر بيبرس، فاستقبله في القاهرة ٢ ذي الحجة ٦٦٠هـ/ ١٨ تشرين الأول ١٢٦٢م، فأكرم السلطان وفادته، ثم غادر القاهرة إلى البيرة، وهناك تغير عليه السلطان بيبرس وأمر بالقبض عليه في رجب سنة ٦٦١هـ/حزيران ١٢٦٣م.[(١)]

وسيراً على خطا تدعيم أركان السلطنة الناشئة قرر السلطان الظاهر القيام بعمل من شأنه إضفاء الشرعية على حكمه، وجعل دولة المماليك ممثلة للمسلمين وصاحبة الشأن في العالم الإسلامي، فأظهر اهتمامه بإحياء الخلافة العباسية، وحلَّ المشاكل الناجمة عن سقوط بغداد، فاعتراف الخليفة — الذي سيتم تنصيبه - بالسلطان كان من شأنه أن يضفي الشرعية على حكم المماليك، فالمسلمون كانوا يرون في الخلافة الإسلامية شعاراً يمثل الإسلام، لذلك كان على المماليك إحياء الخلافة الإسلامية ليكونوا بذلك حماة الإسلام والخلافة، فيزداد تقدير المسلمين لهم، فهم من أصل مملوكي، والنظرية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم حراً،[(٢)] ويروى أن المعاصرين للحكم المملوكي استاؤوا وتذمروا منهم بعد انقلابهم على ساداتهم الأيوبيين، فأهل مصر لم يرضوا بسلطان مَسَّهُ الرِّقَ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يُسمعونه ما يكره، حتى في وجهه إذا ركب ومرَّ بالطرقات، ويقولون: " لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة "،[(٣)] ولا سيما أن المماليك ظهروا بمظهر من اغتصب الحكم من ساداتهم الأيوبيين، فكان لزاماً عليهم محو هذه النظرة من ذاكرة معاصريهم، لذا نجد اهتمام السلطان بيبرس بإحياء الخلافة العباسية لكي تضفي الشرعية على حكمه، فقام بتقليد منصب الخلافة لرجل من

[(١)] أبو الفداء: المختصر: ٢/٣٢٢-٣٢٥. ابن أبي الفضائل: النهج السديد: ص٤٣٩، ٤٥٢ ويرد لديه أنه قدم الديار المصرية في ي القعدة سنة ٦٦٠هـ. ابن واصل: مفرج الكروب: ٦/٣١٩. المقريزي: السلوك: ١/٤٦٥-٤٦٦، ٤٧٥-٤٧٦. شافع بن علي: حسن المناقب السرية، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٠٦.

[(٢)] قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١١.

[(٣)] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٣.

بني العباس واسمه أبي القاسم أحمد، فبايعه السلطان ورجال الدين والدولة "على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها "،[1] ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله، ولما تمت له البيعة في رجب ٦٥٩هـ/ حزيران ١٢٦١م قام الخليفة المستنصر بالله وقلد السلطان الظاهر حكم " الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً"، وأوكل إليه "أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً".[2]

هكذا تم إحياء منصب الخلافة بعد أن بقي شاغراً ثلاث سنين ونصف منذ قتل الخليفة المستعصم بالله في صفر ٦٥٦هـ/ شباط ١٢٥٨م.

وعليه يكون السلطان الظاهر بيبرس قد دعّم سلطانه بتلك المظاهر الدينية التي قام بها في صورة إحياء الخلافة العباسية، ففي الحقيقة كانت سلطة الخليفة شكلية، والحكم كله بيد السلطان، ويؤكد أحد الباحثين أن أهم مظاهر السيادة التي تمتع بها الخلفاء العباسيون في مصر ثلاثة، وهي: السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً، وذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة،ونقش اسمه على السكة،[3] وبعد عهد السلطان الظاهر بيبرس لم يعد يسك اسم الخليفة على العملة مع أنها من شعائر الخلافة، وكان الدعاء في المساجد للخليفة ثم للسلطان باستثناء مسجد القلعة، فإن الدعاء فيه كان للسلطان ثم للخليفة، وما بقي للخلفاء في مصر هو لبس البردة ومسك القضيب[4].

هذا الإجراء الذي قام به السلطان أكسبه الصفة الشرعية في حكمه للبلاد الإسلامية، كما أوجد لهم المسوغ في وجودهم وبقائهم عندما أوكل إليهم أمر الجهاد والعمل على تطهير البلاد من الصليبيين والمغول، وهذا شرف عظيم في نظر المسلمين، فيكون بذلك قد قطع الطريق أمام بقايا

---

[1] المقريزي: السلوك: ٤٥/١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ١٤٣/٢. ابن واصل: مفرج الكروب: ٣١٢/٦-٣١٣. ابن عبد الظاهر: الروض، ص١٠٠-١٠١.

[2] ورد نص التقليد كاملاً عند: المقريزي: السلوك: ٤٥٣/١-٤٥٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ٩٩/٢-١٠٣. ابن عبد الظاهر: الروض، ص١٠٢-١٠٧. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٧/٩.

[3] علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص٢٠٧

[4] عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ١/ ٣٤.

الأيوبيين المطالبين بحكم البلاد، وصار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت حتى الحكم العثماني للبلاد يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامي، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان؛ لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق باعتبارهم المفوضين من قبل الخليفة بالسلطنة،[1] وترتب على عملية إحياء الخلافة وجعل القاهرة مقراً لها أن أصبحت القاهرة تشهد مرحلة جديدة من حياتها، غدت فيها مقر العالم الإسلامي، فتمتعت نتيجة ذلك بشهرة دينية وعلمية واسعة، وأصبحت مركز النشاط الإسلامي والديني والسياسي والعسكري والثقافي بدلاً من بغداد، فـ " الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت "،[2] فحين صارت مصر دار خلافة عظم أمرها، كما قام الظاهر بيبرس بفتح الجامع الأزهر سنة٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م، بعد أن كانت الجمعة معطلة فيه منذ أيام صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإلغاء الخلافة الفاطمية.[3]

وسيراً على خطا توحيد الحكم، ومن أجل تنظيف الجبهة الداخلية قبل الشروع بأي عمل عسكري خارجي؛ كان لزاماً على السلطان الظاهر بيبرس التخلص من المغيث عمر بن الملك العادل صاحب الكرك والشوبك، الحصنين المنيعين في جنوب فلسطين، وكان هو الأمير الوحيد بين الأمراء الأيوبيين الذين لم يسلّموا لبيبرس، وكان على علاقة سيئة معه؛ لأنه في ما مضى أثار غضب بيبرس عندما سلَّم بعض المماليك البحرية الذين كانوا عنده في الكرك إلى الملك الناصر صاحب دمشق في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م، فكما هو معروف بعد مقتل فارس الدين أقطاي سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م على يد المعز أيبك هرب أتباعه من البحرية إلى جهات عدة خارج مصر، وكان من بينهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، والأمير قلاوون، والأمير سنقر الأشقر، ولجأ هؤلاء إلى الناصر صاحب حلب ودمشق، فأجارهم ولما انقلب عليهم سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م لجأوا إلى المغيث عمر صاحب الكرك والشوبك، ثم قام هذا الأخير بتسليم بعضهم إلى الناصر على أثر تهديده له باجتياح الكرك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، في حين تمكن بعضهم من الفرار وعلى رأسهم الأمير بيبرس، وربما جعل هذا العمل

[1] ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٨٩.

[2] السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ٦٦.

[3] المقريزي: الخطط، ٣/ ٢١٣، ٢١٨-٢١٩. السلوك، ١/٥٥٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان،٢/٣٦٠.

بيبرس يحقد على المغيث عمر،[1] ولكن هذا غير كافٍ لأن يقوم بيبرس بحرب ضده، إلا أن السبب الأهم هو أهمية بلاد المغيث الإستراتيجية في مشروع أو مخطط بيبرس لطرد المغول والصليبيين من البلاد، فبلاد المغيث قريبة من مواقع العمل العسكري المقبل مع الصليبيين والمغول، وقربها من مصر يهدد استقرار السلطنة، ولاسيما أن المغيث حاول من قبل مهاجمة مصر؛ إلا أنه أخفق،[2] فبدأ بيبرس يفكر في السيطرة على الكرك والشوبك، أولاً للاستفادة من حصانتهما، وللتخلص ثانياً من المغيث عمر الذي كان شوكة في جانب بيبرس، فهو لن يتمكن من التفرغ لأعدائه ما دام المغيث ومملكته قائمين، ومن الحكمة ألا يدخل في معارك حربية ضد أعدائه في الشام أو غيرهم، ما دام مثل هذا العدو الخطير قائماً في مؤخرة جيشه.

بدأ السلطان بيبرس أعماله ضد مملكة المغيث بأن أرسل سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م قوة بقيادة الأمير بدر الدين الأيدمري تمكنت من أخذ الشوبك وتخليصها من يد المغيث،[3] ورداً على ذلك بدأ المغيث عمر بإرسال فرقة الشهرزورية[4] للإغارة على الشوبك وتخريبها؛ فأرسل السلطان قواته لمحاصرة الكرك، إلا أن المغيث كاتب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله يسأله الشفاعة عند بيبرس، فكان ذلك، وأوقف بيبرس نشاطه ضد المغيث مؤقتاً، وعفا عنه وأرسل إليه خلعة ومنشوراً وأنعم عليه،[5] وعندما رتب بيبرس أوضاعه مع الصليبيين في الشام ببعض المهادنات عاد يفكر في التخلص من المغيث عمر، وواتته الظروف في سنة٦٦١هـ/ ١٢٦٣م عندما وجد نفسه دون ارتباطات حربية مع الصليبيين، فبينما كان بيبرس في رحلة صيد في غزة قدمت عليه والدة المغيث تشفع لولدها، فأكرمها وأعادها وأرسل إلى

---

[1] للاستزادة انظر: المقريزي: السلوك: ٣٩٠/١-٣٩١، ٤٠٦، ٤١٤-٤١٥، ٤٢٠. ابن واصل: مفرج الكروب: ١٧٨/٦-١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٨، ٢٥٧-٢٦٠، ٢٦٧. أبو الفداء: المختصر: ٢٩٧/٢-٢٩٨، ٣٠٠-٣٠١، ٣٠٧.

[2] حاول ذلك سنة٦٥٥هـ بتحريض من البحرية. المقريزي: السلوك: ٤٠٦/١.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٢٦/٦. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٥١.

[4] الشهرزورية نسبة إلى مدينة شهرزور في كردستان، وهم أكراد هربوا من وجه الزحف المغولي ووصلوا إلى دمشق سنة٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فاستقبلهم الناصر وأراد أن يتقوى بهم، وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف، بعد ذلك تركوه وذهبوا إلى المغيث عمر الذي أكرمهم وأحسن إليهم وتقوى بهم. انظر: المقريزي: السلوك: ٤١١/١. الحموي: معجم البلدان، مادة شهرزور.

[5] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٢٧/٦-٣٢٨.

المغيث بالحضور ويغريه ويسوف له، ويؤكد له بأنه لن يمسه بأذى، تردد المغيث بالحضور، ثم عزم على السفر، ولما وصل إلى بيسان في فلسطين؛ حيث كان بيبرس هناك، فاستقبله أحسن استقبال، لكنه وعلى قول ابن واصل " خدعه أعظم خدعة، وأمد له في الأمل، وأتى بيوت الخداع من أبوابها "، فبعد هذا الاستقبال أمر باعتقاله على الفور في جمادى الأولى سنة ٦٦١هـ/ آذار ١٢٦٣م،[١] وعقد بعدها مجلساً حضره كبار العلماء وقاضي قضاة دمشق شمس الدين بن خلكان وأطلعهم على الرسائل المتبادلة بين المغيث وهولاكو، وفيها دعوة المغيث لهولاكو للقدوم إلى مصر لاحتلالها، ويعده بمساعدته بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل، فحصل بموجب ذلك على فتوى تجيز له قتل المغيث عمر، فأرسله مصفداً بالحديد إلى القاهرة حيث قتل فيها،[٢] وأرسل إلى الكرك قوة على رأسها الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير عز الدين الأستادار لاستلامها، وهكذا خضعت الكرك للسلطان بيبرس.[٣]

أَمَّنَتْ هذه الأعمالُ للسلطان الظاهر بيبرس صفاءَ الجبهة الداخلية وخلوها من المعارضين، وقد رافق ذلك حراك دبلوماسي خارجي من شأنه أن يَحُولَ دون اتفاق القوى المعادية له، فعقد سلسلة من الاتفاقيات والمحالفات مع ملوك صقلية، وإسبانية، والإمبراطورية البيزنطية، وبركة خان سلطان مغول القبجاق.

٢- عودة المغول وهجومهم على البيرة:

كانت جموع المغول قد تشتت عقب معركة عين جالوت، لكن ما أن سمعوا بمقتل قطز حتى بدأوا بلم شملهم؛ إذ توقعوا حدوث انقسامات داخل الدولة، وأن ذلك سيوفر لهم الفرصة لتغيير نتيجة معركة عين جالوت، فتمكن القائد بيدرا من جمع قوة كبيرة من المغول الموجودين في حران والجزيرة، وانضم إليهم من سَلِمَ من معركة عين جالوت، وزحف بهم على البيرة أواخر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.[٤]

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٥٨/٦. أبو الفداء: المختصر، ٣٢٧/٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٥٨. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٤٥٠.

[٢] أبو الفداء: المختصر،٣٢٩/٢. المقريزي: السلوك، ٤٨١/١-٤٨٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٦٠/٦.

[٣] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٥٨. مفضل بن أبي الفضائل، ١/ ٤٥١-٤٥٢. المقريزي: السلوك، ٤٨٢/١.

[٤] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٨٩/٢-٩٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٠٢/٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠٤/٧.

كان نائب حلب الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ قد سارع بتجهيز قوة صغيرة كي تتصدى للمغول بعد استنجاد صاحب البيرة به، ومع أن الأمراء في حلب أشاروا عليه ألا يتعرض للمغول بمثل هذه القوة، لأنها سوف تُباد، لكنه لم يصغِ لمشورتهم وأرسل فرقة بقيادة اأمير إسمه سابق الدين كانت الهزيمة من نصيبها، ولاذ قائد الفرقة مع من نجا بالفرار.[1]

كانت هزيمة هذه القوة – بالإضافة إلى أسباب أخرى – سبباً في عزل الملك السعيد عن حكم حلب من قبل الأمراء العزيزية والناصرية؛ واعتقاله، ثم عينوا بدلاً منه الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزي.[2]

والشيء المهم هنا أن هزيمة هذه القوة أمام البيرة شجعت المغول بقيادة بيدرا على المضي إلى حلب، فوصلوها في ذي الحجة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م وشرعوا بمهاجمتها، فانسحب الأمير حسام الدين لاجين مع عساكره إلى حماه، ودخل المغول حلب، وأخرجوا أهلها إلى ظاهر حلب، وهناك أفنوا غالبيتهم قتلاً.[3]

٣- موقعة حمص سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م:

اضطر الأمير حسام الدين لاجين إلى الانسحاب نحو حماه، وربما كان الهدف من ذلك استدراج المغول لمكان أفضل لمنازلتهم، وكان على حُكْمِ حماه آنذاك الملك المنصور محمد الأيوبي، وعندما وصل المغول إلى حماه قادمين من حلب انسحب الجوكندار مع الملك المنصور إلى حمص لإعطاء أنفسهم فرصة ثانية لحشد أكبر عدد ممكن من القوات الإسلامية، فوصلوا حمص وكان يحكمها الملك الأشرف موسى الأيوبي.[4]

---

[1] أبو الفداء: المختصر،٣١٩/٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٠٢/٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠٥/٧.

[2] مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٧٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠٦/٧.

[3] أبو الفداء: المختصر،٣١٩/٢، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٨٩/٢، العيني: عقد الجمان، ٢٦٧/١-٢٦٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠٥/٧.

[4] أبو الفداء: المختصر،٣١٩/٢، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٨٩/٢.

لم يدخل المغول حماه، بل ساروا إلى حمص بقوة يبلغ عددها ستة آلاف مقاتل، في حين كان قوة المسلمون تتألف من حوالي ألف وأربعمئة فارس، وعلى رأسهم حسام الدين لاجين نائب حلب، والملك المنصور نائب حماه، والأشرف نائب حمص.[١]

لم يكن الظاهر بيبرس في ذلك الوقت في وضع عسكري مناسب يُمَكِّنُهُ من إرسال قواته لصد الهجوم المغولي، وذلك بسبب نشوب بعض الثورات ضده، فكانت الثورة الأولى بقيادة الأمير سنجر الحلبي نائب دمشق الذي ثار لقتل قطز، وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد-كما تقدم- وخطب له على منابر دمشق في ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٠م، أما الثورة الثانية فكانت في مصر و تزعمها رجل شيعي عُرِفَ بالكوراني.[٢]

التقى الجمعان يوم الجمعة الخامس من محرم ٦٥٩هـ/كانون الأول ١٢٦٠م في معركة على مقربة من قبر خالد بن الوليد في حمص، فحمل المسلمون على التتار حملة رجل واحد، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب بيدرا قائد المغول في نفر من رجاله،[٣] ويقول ابن عبد الظاهر إن هذه الوقعة "أهلكت شجعان التتار"، ففيها قُتل "أبطالهم، وكماتهم، وحماتهم".[٤]

تفرقت جموع المغول بعد هذه الهزيمة، ولما عاد الملك المنصور إلى حماه حاولت قوة من المغول كانت قد تجمعت في سلمية مهاجمة حماه، فنازلوها يوماً واحداً ثم انسحبوا إلى أفاميا، وكان قد أقام في قلعتها الأمير سيف الدين الديبلي الأشرفي فأخذ يهاجم المغول حتى أجبرهم على ترك أفاميا.[٥]

---

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان،٢/٨٩-٩٠. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٦٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٣٠٤. ويضيف النويري أن زامل أمير العربان انضم إلى هؤلاء الأمراء. نهاية الأرب، ٣٠/٤٠.

[٢] المقريزي: السلوك، ١/ ٤٤٠، العيني: عقد الجمان، ٢/٢٧٠-٢٧١.

[٣] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٨٩-٩٠، أبوالفداء: المختصر، ٢/٣٢٠، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٧٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٣٠٥. ويذكر المقريزي أن المعركة حصلت قرب الرستن، السلوك:١/٤٤٢.

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٩٧.

[٥] أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٢٠، ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٣٠٧.

انسحب المغول من حماه وأفامية، وساروا إلى حلب، وفرضوا عليها حصاراً استمر حوالي أربعة أشهر، وما إن استتبت أحوال السلطنة للظاهر بيبرس وقضى على الثورات التي قامت ضده[1] حتى سارع بإرسال جيش كبير إلى حلب بقيادة فخر الدين الطنبا الحمصي، والأمير حسام الدين لاجين، والأمير حسام الدين العينتابي، وعندما وصل الجيش إلى غزة أرسل الصليبيون في عكا إلى المغول يخبرونهم بذلك، فأسرع الجيش المغولي بالإنسحاب من أمام حلب في أوائل جمادى الأولى سنة٦٥٩هـ/١٢٦١م حيث دخلها الجيش المملوكي.[2]

٤- الهجوم على الموصل: ٦٦٠هـ/١٢٦١م:

استأنف المغول نشاطهم على الحدود الشرقية بهجوم ناجح نفذوه ضد الموصل في أوائل المحرم سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، وكان حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ قد توفي، فخلفه ابنه الملك الصالح ركن الدين إسماعيل، وقد دخل هذا في علاقات جيدة مع الظاهر بيبرس؛ إذ توجه في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م إلى مصر لزيارته، هذا الأمر أغضب المغول، ودفع بهولاكو إلى إرسال جيش على رأسه قائد مسيحي اسمه صندغون وصل إلى الموصل وشرع في حصارها،[3] وبعد أن نصب عليها حوالي خمسة وعشرين منجنيقاً، بدأ القتال من الداخل والخارج " وضايقوها أشد مضايقة، ولم يكن فيها سلاح يقاتلون به، ولا قوت يمسك رَمَقَ مَنْ بها ".[4]

طلب الملك الصالح المساعدة من الأمير شمس الدين البرلي في حلب، فخرج الأخير لنجدته في ألف وخمسمئة مقاتل تقريباً، ولكنه هُزم عند جبل سنجار أمام عسكر المغول الذين ساروا إليه من الموصل بعشرة آلاف مقاتل، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٦٦٠هـ/آذار ١٢٦٢م.[5]

---

[1] أخمد بيبرس ثورة الكوراني في نهاية سنة٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وصلب زعماءها على باب زويلة، انظر، العيني: عقد الجمان، ٢/٢٧١.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٩٣. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٧١. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٤٢.

[3] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/١/٣٢٧. ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١١٤-١١٥.

[4] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ج٢/١٥٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٨٨. المقريزي: السلوك، ١/٤٦٠،٤٦٧،٤٧٥. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٩٤.

[5] اليونيني:ذيل مرآة الزمان، ٢/ ١٥٧. المقريزي: السلوك، ١/٤٧٥. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٨٨.

عاد صندغون إلى حصار الموصل ومعه الأسرى، ولإضعاف المقاومة من الداخل قام بإدخال هؤلاء الأسرى من الثقوب الموجودة في السور ليُعرفوا الملك الصالح بانهزام البرلي،[1] واستمر الحصار إلى أن خرج الملك الصالح إلى المغول في النصف من شعبان سنة ٦٦٠هـ/ حزيران ١٢٦٢م بعد إعطائه الأمان، فنكثوا بأيمانهم، وقبضوا عليه، ودخلوا المدينة في ٢٦ شعبان من السنة تلك، واستبيحت تسعة أيام، ثم رحلوا عنها ومعهم الملك الصالح، وفي طريقهم إلى ديارهم قتلوه.[2]

٥- جهود السلطان بيبرس لتقوية الجبهة الشرقية مع المغول:

أمام مخاطر المغول هذه، وبعد أن أصبح مركز الظاهر قوياً في الحكم، وخلا الجو من المنافسين له، شرع بوضع سياسة تهدف إلى التصدي للمغول، وطرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام، فكان الظاهر بيبرس يعلم تمام العلم أن الصراع مع المغول لم ينته بانتصار المماليك في عين جالوت وفي حمص، وأن الحرب ستستمر طويلاً، وتستلزم وجود قوة عسكرية ضخمة، وسياسة دولية حكيمة لإيجاد التوازنات في وقت كثر فيه أعداء المماليك من مغول، وأرمن، وصليبيين، مع بعض التهديدات الداخلية، وتهديدات قادمة من ممالك النوبة.

لذلك بدأ بيبرس ببناء قوة عسكرية ضخمة وصلت إلى أربعين ألف فارس، بعد أن كانت في أواخر عصر الأيوبيين لا تتجاوز العشرة آلاف مقاتل،[3] وبدأ بالاعتماد على مغول القفجاق في تدعيم قوته العسكرية، فقد وصلت أعداد كبيرة منهم، عرفوا باسم الوافدية، اهتم بهم الظاهر بيبرس، وأصبحوا من جملة المماليك السلطانية.[4]

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ١٥٩. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٩٧.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٥٩/٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٩٨-٩٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٨٩-٩٠. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣٣٠/١/٢.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١٩٧/٧. المقريزي: السلوك، ٤٧٥/١. كريستوفر ماريشال: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية (المائة الثانية)، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص٥٠.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٧-١٣٨، ١٧٨-١٨٠، ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٤٠/٦. النويري: نهاية الأرب، ٦٢/٣٠-٦٣، ٨٩-٩٠.

بات الآن على السلطان أن يتحرك دبلوماسياً وعسكرياً لكي يتفادى هجوماً مزدوجاً صليبياً مغولياً، لذلك قام بعملين: الأول: إرسال حملات عسكرية ضد الإمارات الصليبية في بلاد الشام لكسر شوكتها، وصرفها عن التحالف مع المغول، مستغلاً انشغال هولاكو بحروبه الداخلية، والثاني: القيام بسلسلة من التحالفات مع القوى العالمية والأوربية لضمان حيادها في حروبه المقبلة.

فيما يتعلق بالعمل الأول أو الخطوة الأولى، - سيتم الحديث عنها بالتفصيل لاحقاً- أرسل السلطان قواته سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م لمهاجمة أنطاكية لتأديب أميرها بوهيمند السادس على تعاونه مع المغول، ولثنيه عن التعاون معهم مستقبلاً، فأحرقت قواته ميناء السويدية قرب أنطاكية، وأغرقت مراكبه، وأسرت حوالي ٣٠٠ صليبي، غير القتلى، ثم قاد بيبرس بنفسه هجوماً كاسحاً على عكا في جمادى الآخرة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، فهدم أبراجها وقتل وأسر عدداً كبيراً من سكانها،[١] وأرسل سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م حملة إلى إرمينية الصغرى لشغلها بنفسها عن مساعدة المغول، فخربت بلادهم وعاثت فيها فساداً.[٢]

أما ما تعلق بالعمل الثاني وهو محالفة القوى الأوربية، فإن بيبرس لم يلق صعوبة في التحالف أو مهادنة تلك القوى، ويُرْجِعُ بعض المؤرخين السبب في ذلك إلى تعطل الطرق التجارية التي كانت تمر بالأراضي المغولية بسبب العمليات العسكرية هناك، لذا فإن تجارة شرق آسيا كانت تصل إلى أوربا عن طريق الموانئ المصرية، وعليه فإن الكثير من القوى الأوربية التي كانت تهتم بالتجارة، مثل البندقية، وجنوى، وبيزة، وغيرها، كان من صالحها أن تكون لها علاقة طيبة مع مصر،[٣] كما أنه تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، وصقلية، وقشتالة، والإمبراطورية الغربية المقدسة.[٤]

---

[١] المقريزي: السلوك، ١/ ٥٤٩. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٥٠. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٥٨. ابن عبد الظاهر: الروض، ١٥٩.

[٢] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٥-٢٨٦. ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٩-٢٧١. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٥١-٥٥٢.

[3] Michael Prowdin: The Mongolempire its riseond Legacytlonon، 1967.P.370-371.

[٤] انظر: العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص٢٠٢-٢٠٧.

وكان من شأن هذه التحركات الدبلوماسية أن تمنع قيام حلف صليبي مغولي، أما فيما يتعلق بالأعمال ضد المغول، فإن السلطان الظاهر بيبرس قام بخطوات مهمة كوسائل دفاعية على الجبهة الشرقية، فكعملية وقائية؛ ولحرمان المغول من إمكانية التعسكر في بلاد الشام، أصدر السلطان أوامرَ لنائب حلب سنة ٦٦٠/١٢٦٢م تقضي بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو وجيوشه أن تعسكر بها، وترعى عليها دوابهم أثناء هجومها على الشام، وتم إحراق تلك المروج، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد[١] إلى خلاط[٢]، وبهذا العمل يكون المغول قد حُرموا من أهم الطرق المؤدية إلى بلاد الشام،[٣] كما أقام السلطان في الجبهة الشرقية المواجهة للمغول عند الرحبة[٤] والبيرة وغيرها سلسلةً من المنارات التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة، وهذه المنارات هي عبارة عن أبراج للمراقبة على رؤوس الجبال يرابط فيها الحراس ليل نهار، فإذا رأوا عدواً مقبلاً قاموا بإشعال النار؛ إن كان ذلك في الليل، أو إثارة الدخان إن كان ذلك في النهار، وسرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية والدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي حتى تصل إلى العاصمة، وصار ما يستجد منها على الفرات صباحاً يصل إلى قلعة الجبل مساءً، وما يَسْتجُد مساءً يصل صباحاً،[٥] كما جدد القلاع على حدود الفرات ولاسيما قلعة البيرة التي شحنها بالمؤن والسلاح حتى تتحمل الحصار لمدة عشر سنوات لكي تظل شوكة في جانب المغول،[٦] كما شرع بتنظيم البريد، فأصبح جهازاً متطوراً ربط به جميع أنحاء المملكة، براً وجواً (الحمام

---

[١] مدينة حصينة مبنية بالحجارة من بلاد الجزيرة على نشز من الأرض، ودجلة محيطة بها من جوانبها إلا من جهة واحدة على شكل الهلال. انظر، القزويني (زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ت: ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ٤٩١.

[٢] مدينة كبيرة مشهورة قصبة بلاد أرمينية. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٢٤.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٦، النويري: نهاية الأرب، ٦٣/٣٠، المقريزي: السلوك، ٤٧٣/١، وقد تحدث العمري عن الطريقة التي تتم فيها إحراق المروج، انظر، التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٦١-٢٦٢.

[٤] الرحبة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات إلى الجنوب من قرقيسيا وتسمى رحبة مالك بن طوق. الحموي، معجم البلدان، مادة رحبة.

[٥] القلقشندي: صبح الأعشى، ١٦٣/١-١٦٤، وقد تحدث المقدسي والعمري عن طريقة عمل هذه المناور وعن أهميتها في مقاومة الأعداء، انظر: المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ص١٧٧، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠٠-٢٠١.

[٦] المقريزي: السلوك، ٥٢٥/١. ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٢٦.

الزاجل)، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل في القاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط، حتى صار البريد يصل من القاهرة إلى دمشق، وبالعكس في ثلاثة أيام،[1] فضلاً عن أن بيبرس كان لديه جهاز استخبارات على درجة عالية من الكفاءة، فكانت له عيون في الأردو مقر هولاكو، وفي سيس بأرمينيا الصغرى، وفي عكا، وجميعهم كانوا يوافون القاهرة بالأخبار أول بأول، فعندما أرسل هولاكو على سبيل المثال جاسوسين من قبله إلى القاهرة، أسرعت مصادر السلطان بيبرس في فارس وغيرها بموافاته باسميهما وصفاتهما حتى تم القبض عليهما بمجرد وصولهما إلى دمياط، فوجد معهما كتاباً من هولاكو إلى الأتابك في مصر يرغبه ويستميله ضد السلطان بيبرس.[2]

على أن أهم خطوة خطاها السلطان بيبرس في حربه ضد المغول، هي التحالف مع بركة خان القبيلة الذهبية، فقد قابل بيبرس تحالف مغول فارس مع الأرمن والكرج وصليبيي أنطاكية بتحالف مشابه؛ إن لم يكن أكثر فاعلية على الأرض، مع هذه القبائل المغولية.

فمن المعروف أن إمبراطورية جنكيز خان تفككت إلى أربعة أقسام، نتيجة المنازعات التي دبت بين خلفائه، وكان أحد أهم أقسامها ، مغول أو خانات القبيلة الذهبية، في جنوب روسيا "حوض الفولغا"، وبعد وفاة حاكمها باتو سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م؛ آَلَ حكم القبيلة إلى بركة خان، وهو أول حاكم مغولي مسلم[3] وكان من أشد المعارضين لاجتياح هولاكو لأراضي المسلمين وقضائه على الخلافة العباسية، إلا أنه لم يتمكن من منعه من الإقدام على ذلك.

في الحقيقة هناك عوامل عديدة وراء هذا التقارب المغولي – المملوكي، لعل أهمها:

- العامل الديني: وهو عامل مهم آنذاك في عصر كان الإيمان فيه أساس التحالفات والحروب.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى، ١٤/ ٤١٨-٤٣٧. المقريزي: السلوك، ٤٤٦/١-٤٤٧. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٤٣-٢٥٥.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٩٥-١٩٦.

[3] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٥٠.

■ العامل الاقتصادي: فشواطئ البحر الأسود التي أصبحت تحت سيطرة خانات القبيلة الذهبية، كانت تشكل المصدر الرئيس للعبيد الذين شكلوا عماد الجيش المملوكي[1].

■ أيضاً فقد جمعهم العداء المشترك لهولاكو، ومعلوم ما هو سبب العداء المملوكي لهولاكو، **أما عداء بركة لهولاكو فكان لأسباب عديدة أهمها:**

■ العامل الديني، فقد نقم بركة على هولاكو لما فعله بالمسلمين من مجازر، وقد توعده بالانتقام منه متى سنحت له الفرصة بذلك.[2]

■ تجاهل هولاكو حقَّ بركة من نصيبه في غنائم الحرب حسب القاعدة المغولية التي سنها جنكيز خان والتي تجعل قسماً من هذه الغنائم يذهب لبيت باتو، وبما أن بركة خان حل محل باتو في خانية القفجاق، فقد تَوَجَّبَ أن تذهب إليه هذه الحصة، لكن هولاكو تجاهل ذلك، ولم يرسل إليه شيئاً من غنائم الشام والعراق[3]، وعندما أرسل بركة إلى بلاط هولاكو السفراء مطالباً بنصيبه من الغنائم قام هولاكو بقتل السفراء مما زاد في حدة العداء والتنافس.[4]

■ ناهيك عن أن الإمبراطور منكو خان جعل أراضي القوقاز التابعة أصلاً للقبيلة الذهبية من نصيب هولاكو، مما عمق الكراهية بين الطرفين.[5]

■ وتصادم الطرفان مرة أخرى في القوريلتاي، عندما وقف هولاكو إلى جانب قوبيلاي وأيده في المطالبة بالخانية، في حين وقف بركة خان مع أريق برقا، ولما فاز قوبيلاي أصدر مرسوماً بإقرار هولاكو على البلاد التي فتحها من ضفاف جيحون حتى الديار المصرية، كما أرسل له ثلاثين ألف شاب من المغول دعماً له.[6]

---

[1] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٥٢-٥٣، ٩٤.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣٣٢/١/٢، جمال الدين سرور: دولة بيبرس، ص٩٢ هامش ٤.

[3] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٩٧/١-٤٩٨.

[4] D. Ayglon: The Great yeas of Chingiz Khan، in (Studio Islamica) Vol.XXX1V.P 147.

[5] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٥٠-٥١.

[6] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣٣٦/١/٢.

أمام هذه الأسباب من البديهي أن يكون بركة خان حليفاً لبيبرس؛ العدو اللدود لهولاكو، لذلك كثر بينهما تبادل الرسائل، وبدأ بيبرس يشجع بركة خان على قتال هولاكو حتى يشغل إيلخان فارس عن الهجوم على بلاد الشام، فأرسل له في بعض رسائله قائلاً: "وليس الإسلام قولاً باللسان، والجهاد أجد ما له من أركان، وقد توالت الأخبار بأن هلاون لأجل زوجته وكونها نصراينة أقام دين الصليب، وقدم مراعاة دين زوجته على دينك، وأسكنَّ الجاثليق الكافر مواطن الخلفاء إيثاراً لزوجته عليك"،[١] فرّد عليه بركة بإرسال وفد وصل إلى القاهرة في رجب ٦٦١هـ/١٢٦٣م يحمل رسالة مضمونها: "أنت تعلم أني محب لهذا الدين، وهولاكو قد تعدى على المسلمين، واستولى على بلادهم، وقد رأيت أن تقصده من جهتك، وأقصده من جهتي، ونصدمه صدمة واحدة، فنقتله أو نطرده عن البلاد، ومتى كانت واحدة من هاتين،أعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها".[٢]

وفعلاً أثمرت هذه الاتصالات واستفاد المماليك إلى حدٍّ ما من انشغال مغول ايران في حروبهم مع مغول القبيلة الذهبية، كما اهتم بركة خان ببث الفرقة بين المغول في آسيا الوسطى لكي يشد انتباه هولاكو إلى الشرق، ويستنفد طاقة كبيرة من قوته،[٣] وقد استمر التحالف في عهد خليفة بركة خان (منكو تيمور ١٢٦٧-١٢٨٠م) وخلفاء الظاهر بيبرس.

وتجب الإشارة إلى أن التعاون والتنسيق بين الطرفين لم يقتصر على العمل العسكري فقط، بل تعداه إلى الجوانب العلمية والثقافية أيضاً، وقد ظهر ذلك واضحاً في الآثار والأبنية والمساجد والطب......، فنتيجة هذه العلاقات "اكتسبت المعالم الحضارية على نهر الفولغا مظاهر إسلامية من حوض البحر المتوسط".[٤]

أمام هذه المشاكل لم يكن بإمكان هولاكو التدخل بعمل عسكري مباشر ضد الظاهر بيبرس، وربما ذلك دفعه لأن يطلب من ملك أرمينية الصغرى أثناء زيارته لهولاكو القيام بهجوم على حدود دولة

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٨٩، ١٣٩-١٤٠، المقريزي: السلوك، ٤٦٥/١.

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢ /١٩٥.

[٣] نادية مصطفى وآخرون: العلاقات الدولية في العصر المملوكي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ٢٦.

[٤] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٩٤-٩٥.

المماليك، وبالفعل قام الأخير بذلك، إلا أنه مُنِيَ بهزيمتين على يد الجيش المملوكي في بلاد الشام سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م.[١]

٦- الدولة الإيلخانية[٢]:

تجب الإشارة هنا – ولو بشكل سريع – إلى قضية مهمة هي قيام الدولة الإيلخانية في فارس، فمن المعروف أن النشاط المغولي ضد العالم الإسلامي بدأ سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م عندما أطلق جنكيزخان حملته الأولى ضد أراضي الخوارزميين، سيطر خلالها على مناطق مهمة مثل بخارى وسمرقند، وعلى الرغم من وفاته سنة٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م إلا أن خلفائه استمروا في إرسال الحملات للتوسع غرباً، فكان أهمها وأضخمها على الإطلاق تلك التي أرسلها منكوخان سنة٦٥١هـ/ ١٢٥٣م بقيادة شقيقه هولاكو، إذ أشرف منكو شخصياً على إعداد هذه الحملة، وأعطى أخيه هولاكو تعليمات مفصلة عن مهمته، وكلَّفه بإكمال السيطرة على العالم الإسلامي الممتد حتى البحر المتوسط، مع مصر.[٣]

وبالفعل نجح هولاكو إلى حد ما في تنفيذ مهمته – كما تقدم –، فوصلت قواته إلى غزة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، غير أنها في تلك السنة –كما سبق – تعرضت لهزيمة ساحقة على يد المماليك في معركة عين جالوت، وتمكن المماليك من رد المغول إلى ما بعد الفرات شرقاً، ومنذ ذلك الوقت شكّل نهر الفرات الحدود الشرقية للمغول، وهو الحد الفاصل بينهم وبين المماليك غرباً.

في الحقيقة كان الحكم المغولي في فارس– منذ أن بدأ توسعهم فيها أيام جنكيزخان حتى خضوعها بالكامل لهم مع العراق على يد هولاكو– حكماً مباشراً ويسير بآلية واحدة؛ يتم تحت إشراف الخان عن طريق قادة يُرسلون من منغوليا مباشرة لتولي مهام الحكم والإدارة وقيادة الجيش المقيم هناك،[٤] حتى هولاكو نفسه لم يكن مستقلاً عن قراقورم، بل كان نائباً عن أخيه منكوخان، فلم يضرب باسمه

---

[١] انظر الفصل الثالث، الحملة الإرمينية سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ م.

[٢] ايلخان تعني نائب الخان، لأن كلمة ايل أو ايلك تعني مطيع أو خادم، وهنا تأتي بمعنى نائب.

[٣] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢٣٤/١/٢، ٢٣٦-٢٣٧.

[٤] عباس اقبال: تاريخ المغول، ص ١٨٥

درهماً ولا ديناراً، بل كانت النقود تُضرب باسم الخان الأعظم منكو حتى أيام أراغون؛ حيث بدأ هذا بضرب السكة باسمه واسم الخان الأعظم، وعندما جاء غازان حذف اسم الخان من السكة، وأفردها باسمه.[١]

لكن بعد وفاة منكوخان واعتلاء قوبيلاي لمنصب الخانية بدأت الأمور تتغير، وبدأت فارس والعراق وأذربيجان وغيرها من المناطق الخاضعة لهولاكو تتمتع بنوع من الاستقلالية عن منغوليا؛ ولاسيما بعد أن قام قوبيلاي بإرسال تفويض لهولاكو بحكم المناطق الواقعة بين جيحون ومصر والشام،[٢] ولكنه ظل معترفاً بولاء اسمي لأخيه قوبيلاي.

بعد وفاة هولاكو سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٤٦م خلفه ابنه أبغا، وفي أيامه استقلت المناطق التي كانت تحت يد أبيه – من جيحون حتى الفرات – بشكل فعلي عن خانات المغول في قراقورم فيما عُرف بعد باسم الدولة الإيلخانية وعاصمتها تبريز، وإن ظلت الصلات بين الطرفين قائمة على شكل إرسال السفارات والهدايا، وحُكمت هذه الدولة من قبل أبناء هولاكو، واستمرت هذه الأسرة تحكم حوالي قرن من الزمان،[٣] وهي التي تولت مهمة محاربة المماليك بحكم مجاورتها لهم في بلاد الشام، ولم يعد للإمبراطورية المغولية في الصين ومنغوليا أي تدخل في الأعمال التوسعية لمغول فارس ضد المماليك، فالصراع المملوكي كان مع مغول فارس فقط.

وتحالف الإيلخانيون مع الأرمن والكرج، وبذلوا جهوداً حثيثة للتحالف مع الغرب الأوربي للقيام بحملة مشتركة ضد المماليك، لكن المحاولات كانت مفلسة، ورداً على ذلك تحالف المماليك مع مغول القبيلة الذهبية المعادين لمغول فارس – كما سلف الحديث-.

---

[١] ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد، ت: ٨٠٨ هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٦١م، ١١٢٤/٥-١١٢٥.

[٢] غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص ٤١٩-٤٢٠. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٢١٣.

[٣] عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٢١٧. فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، جامعة قطر، ١٩٨٧م، ص ٢٨-٢٩.

٧- رد الفعل المغولي والهجوم على البيرة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م:

وبالعودة للحديث عن الأحداث بين المغول والمماليك، كان لابد للنشاط المملوكي على أطراف العراق أن يثير ردة فعل عند المغول، وفعلاً، فقد تمثل ذلك بحصارهم للبيرة في ربيع الأول سنة٦٦٣هـ/١٢٦٤م، ومعهم سبعة عشر منجنيقاً.[١]

ويذكر ابن عبد الظاهر أن هجوم المغول على البيرة في ذلك الوقت جاء بناءً على نصيحة من الصليبيين؛ لأن العساكر الإسلامية لا يمكنها القيام بنشاط عسكري في فصل الربيع ما دامت خيلهم متفرقة في المراعي،[٢] وبالتالي يصعب جمعها وتجهيزها مباشرة.

فحاصر المغول البيرة، وكان من المقرر مشاركة الجيش الأرمني، وبالفعل فقد سار الملك هيثوم الأول إلى البيرة، ولكنه اضطر إلى العودة بعد أن علم بأنه رزق بحفيد.[٣]

وعندما علم السلطان بخبر المغول أرسل إلى بلاد الشام لتجهيز العساكر، وبلغ تعداد عساكر الشام وعساكر مصر التي خرجت لمواجهة المغول المحاصرين للبيرة حوالي اثني عشر ألف فارس؛ أربعة آلاف فارس من بلاد الشام، وثمانية آلاف من مصر، بالإضافة إلى هؤلاء فقد أمر السلطان كل من صاحب حماه وحلب بالتحرك بقواتهما باتجاه الفرات، كما أرسل جنوداً إلى أمير العرب عيسى بن مهنا وأمره أن يسير بها إلى حرّان، ثم خرج بنفسه على رأس القوات السلطانية في مطلع ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م.[٤]

ويدل حجم هذه الحملة على مدى اهتمام السلطان بالموقف، وتقديره لخطورة قيام اتفاق صليبي مغولي، بعد النصيحة الصليبية للمغول التي توحي بوجود حلف بينهم، لذا نجده تمركز مع جيشه بجوار مناطق الصليبيين، ولم يسر مع بقية القوات إلى البيرة، فوصل غزة في العشرين من ربيع الآخر، وفي السادس والعشرين منه ورد عليه كتاب من دمشق يقول إن المغول المقيمين على البيرة عندما شاهدوا

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٢١، ٢٢٣. المقريزي: السلوك، ٥٢٤/١. ابن أيبك، الدرة الزكية، ص١٠٧. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٧٣/١.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٢٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٧٣/١.

[٣] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤٠.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٢٦٢. ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٢٢. المقريزي: السلوك، ٥٢٣/١-٥٢٤. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٣١٨. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٤٧٤.

العساكر الإسلامية هربوا، ورموا مجانيقهم وغرّقوا مراكبهم،[1] ولما أدرك أنه لن يقاتل على جبهتين، استغل فرصة وجوده في بلاد الشام لتأديب الصليبيين، وقبل أن يلتفت للصليبيين، أمر بتقوية البيرة وتحصينها، "وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين"،[2] بعد ذلك شرع في مهاجمة المراكز الصليبية، فاسترد عدة قلاع وحصون مثل قيسارية وأرسوف، كما هاجم حيفا وعثليت.[3]

وبهذا العمل يكون السلطان قد نجح في إحباط خطة هولاكو، وقام بتأديب الصليبيين.

مات هولاكو في ربيع الآخر ٦٦٣هـ/ شباط ١٢٦٥م وخلفه ابنه أبغا خان الذي تم تتويجه في الثالث من رمضان ٦٦٣هـ/١٢٦٥م،[4] وقد ورث هذا عن أبيه صراعاته مع القبيلة الذهبية وبلاد ما وراء النهر،[5] وقد شغلته هذه الصراعات عن القيام بعمل عسكري مباشر أو اتخاذ موقف واضح ضد المماليك، وجل ما قام به التتار آنذاك؛هو غارات خاطفة ومفلسة من النتائج،[6] مما حدا بسلطنة المماليك لاستغلال هذه الفرصة — فرصة انشغال المغول بمشاكلهم الداخلية — بتسديد ضربات مميتة لصليبيي ساحل بلاد الشام، وللأرمن الذين تعاونوا مع المغول، وفعلاً فقد كثّف المماليك عملياتهم العسكرية ضد الصليبيين في الساحل الشامي ما بين ٦٦٤-٦٦٦هـ/١٢٦٥-١٢٦٧م، فحرروا عرقة، وصفد، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وأغاروا على طرابلس، وعكا، وحصن الأكراد، وأجبروا الصليبيين

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٢٣-٢٢٤. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٢٦٣. المقريزي: السلوك، ٥٢٤. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤٠. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٣١٨.

[2] المقريزي: السلوك،١/٥٢٥، ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٢٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٠٧. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٢٩.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٣٠، ٢٣٤-٢٣٥. النويري: نهاية الأرب، ٢٦٥/٣٠-٢٦٨.

[4] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣٤١/١/٢، ١١/٢/٢ .

[5] رشيد الدين: جامع التواريخ، ١٣/٢/٢ وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٤١٠، ٤٣٤-٤٣٥.

[6] منها على سبيل المثال هجومهم على الرحبة سنة٦٦٥هـ أثناء وجود السلطان في صفد، إلا أن أهالي الرحبة ردوهم خائبين.

على عقد المهادنات وتقديم التنازلات.[١]

لم تقتصر الأعمال العسكرية على الصليبيين، بل أرسل السلطان حملة كبيرة ضد إرمينية الصغرى سنة٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م بقيادة الملك المنصور صاحب حماه، أحدثت الخراب والدمار وأسرت أحد ولدي الملك الأرمني (ليون بن هيثوم الأول) وقتلت الثاني، وعلى إثرها اضطر هيثوم الأول إلى عقد معاهدة مع المماليك سنة٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م تنازل فيها عن كل القلاع الإسلامية التي كان قد تسلمها من المغول أثناء اجتياحهم لبلاد الشام، مقابل إطلاق سراح ابنه.[٢]

٨- محاولات عقد هدنة بين المغول والمماليك:

أمام سلسلة الانتصارات التي حققها المماليك، والتي جعلت منهم قوة عظمى في المنطقة، ظهرت رغبة عند خان مغول فارس- رغبة ممزوجة بالكِبْر- لعقد معاهدة مع السلطان بيبرس، ولعل السبب في ذلك أنهم أدركوا استحالة قيامهم بعمل عسكري ناجح ضده.

وتجدر الإشارة إلى أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس هو الذي بدأ بفكرة عقد هدنة بين الطرفين، فقد كتب في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م إلى السلطان الظاهر بيبرس يقترح عليه فكرة الصلح مع المغول؛ وَقَدَّمَ نفسه وسيطاً بينهم، إلا أن السلطان رفض التفاهم مع مغول فارس بقوله: "أما أبغا فما له إلا السيف وهو مطلوب منا بثار المسلمين".[٣]

ولم تقتصر محاولات التقريب بين الطرفين على الإمبراطور البيزنطي، بل إن الملك الأرمني هيثوم الأول، حاول أيضاً أن يكون وسيطاً للصلح بين الطرفين.[٤]

والسؤال هنا: ما هو السبب الذي جعل حكّام الأناضول يتبنون هذه القضية بحماسة ؟.

---

[١] انظر الفصل الثاني، حملتي سنة ٦٦٤هـ و ٦٦٦هـ.

[٢] انظر الفصل الثالث، حملة ٦٦٤هـ .

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض ص ٣٣٥.

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٣٣٩.

في الحقيقة كان استتباب الأمن بين المغول والمماليك يعود بالفائدة الكبيرة على الأرمن والبيزنطيين، فالإمبراطور البيزنطي كان حليف السلطان الظاهر بيبرس، وإذا عدنا إلى الأسباب التي قربت بينهم وجعلتهم حلفاء، لكان أهمها هو العداء المشترك للإمارات الصليبية الموجودة في بلاد الشام، وبالتالي فإسكات جبهة المغول كان من الممكن أن يوفر للمماليك فرصة العمل ضد صليبيي بلاد الشام، وإشغالهم عن الإمبراطورية البيزنطية بسلطنة المماليك، هذا أحد الاحتمالات، والاحتمال الآخر هو أن يكون أبغا نفسه قد كلف الإمبراطور البيزنطي بهذا العمل نظراً لظروفه الصعبة، فقد كان في حالة حرب على حدوده الشرقية والشمالية، فمن المفيد له ان يستتب الأمن مع المماليك على الحدود الغربية.

وعقد مثل هذه المعاهدة من شأنه أيضاً أن يخدم ملوك إرمينية الصغرى، حلفاء مغول فارس، فالأرمن تعرضوا لضربة قاسية من قبل بيبرس سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، بوصفهم حلفاء المغول، ووقعوا على إثرها هدنة مذلة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٨م، تنازلوا فيها عن عدد من الحصون، ناهيك عن شروط عديدة مُقيدة لهم،[1] لذا فإن عقد هدنة بين الطرفين تخلصهم من مشاكل عديدة، ويمكن أن يدخلوا بالصلح بما أنهم من طرف المغول.

وبدأت المراسلات بين الطرفين بإرسال خطاب من قبل أبغا إلى بيبرس عن طريق إرمينية الصغرى سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، مزج فيه اللين بالشدة والتهديد والفخر والتكبر، ثم ختمه بطلب عقد معاهدة بين الجانبين، وهذا يأتي – بحسب ما جاء في الرسالة – لصالح السلطان الظاهر لأن أبغا " تَمَلَّكَ جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل ".

فرد السلطان الظاهر على رسالة أبغا برسالة أقوى منها، وسخر منه عندما ذَكَّرَهُ بمصير كتبغا قائد المغول في عين جالوت، وجعل شرط الصلح استعادة جميع الأراضي التي احتلها المغول في العراق والجزيرة، و بلاد الروم، والشام.[2]

---

[1] انظر الفصل الثالث، حملة سنة ٦٦٤هـ.

[2] انظر نص المراسلات عند ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٤٠-٣٤٢. المقريزي: السلوك،١/٥٧٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٤٤-١٤٥.

وفي النهاية أخفقت هذه المراسلات، ولم يتم عقد هدنة بين الطرفين، ومن الطبيعي أن يحصل ذلك، لأن كل من الطرفين لم يكن متحمساً لمثل هذه الهدنة، ولا سيما أن مراسلاتهم امتلأت بالفخر والتعالي على بعضهم بعضاً، وإنكار كل منهم أهمية الطرف الآخر.

٩- توجه المغول بأنظارهم إلى الصليبيين بعد إخفاق المفاوضات مع المماليك:

أرسل أبغا سفارة إلى روما سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، - وكان قد سبقتها سفارة أخرى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦ ولم تحقق أي نتائج -، في وقت كانت فيه أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت إلى أوربا، واستعدادات لويس التاسع مع عدد من ملوك أوربا لإرسال حملة لنجدة الصليبيين في الشرق كانت في مراحلها النهائية، وقد حملت هذه السفارة أنباء تفيد وجود جيش مغولي على أُهبة الاستعداد لمهاجمة المماليك فور ظهور الجيوش الأوربية على السواحل،[١] لذا فإن جيمس الأول ملك أراغون قاد أسطوله إلى الشرق في سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وأرسل إلى أبغا أنه قادم إليه من جهة سيس[٢] عاصمة إرمينية الصغرى لشن هجوم مزدوج على المماليك.[٣]

فما كان من المغول - وبناءً على هذا الاتفاق - إلا أن أغاروا على الساجور[٤] بالقرب من حلب، وعلى مناطق أخرى، وأخذوا مواشي العربان، وكان ذلك في ربيع الأول ٦٦٨هـ/ تشرين الأول ١٢٦٩م، غير أنهم لما سمعوا بمسير السلطان إليهم سارعوا بالعودة إلى بلادهم،[٥] أما المساعدة الأوربية فقد أخفقت؛ لأن الأسطول تعرض لعاصفة بحرية أجبرت الملك جيمس الأول على العودة مع القسم

---

[١] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، ١٩٩٧م، ص ١١٢.

[٢] سيس أو سيسية بلغة أهلها: عاصمة أرمينية الصغرى، كانت إحدى مدن الثغور الشامية، تقع بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة، الحموي: معجم البلدان، مادة سيسية.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض، ٣٦٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٢٢. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٦٧-٥٦٨.
- Boyle، John Andrew: The LL Khans of Persia and the Christian West History Today, XXXIII. 1973, P.557.

[٤] نهر بجهات منبج، تقع عليه عينتاب وتل باشر. الحموي: معجم البلدان، مادة ساجور.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٦١. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٨٤. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/١٧٠-١٧١.

الأعظم من قواته، في حين تابع ما تبقى من القوات المسير إلى عكا بصحبة ولديه، فوصلوا إلى عكا، لكنهم لم يقوموا بأي عمل، وعادوا من حيث جاؤوا بعد أن شاهدوا ما حل بالصليبيين قرب عكا.[1]

أما حملة لويس التاسع التي هاجمت تونس بغية الوصول إلى مصر انطلاقاً منها؛ فقد أخفقت بسبب وفاة لويس التاسع، وانتشار الأمراض والأوبئة في صفوفها،[2] ولما علم إدوارد ولي عهد انكلترا – الذي كان قد اتفق مع لويس التاسع على المسير معاً إلى الشرق، وقد خرج بأسطوله من أجل ذلك – ما آلت إليه حملة لويس التاسع، عرج نحو الشرق، فوصل عكا في سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، وعلى الفور أرسل إلى أبغا خان مغول فارس يطالبه بالالتزام بتعهداته للقيام بهجوم مزدوج على المماليك.[3]

والتزاماً بتعهداته أرسل أبغا قائده صمغار مع قوات من الروم بلغ عددها حوالي عشرة آلاف فارس، فأغاروا على عينتاب، ووصلوا إلى عمق حارم في منتصف ربيع الأول من ذلك العام، وهناك قتلوا جماعة من الأهالي، ثم أرسلوا ألفاً وخمسمئة فارس للإغارة على البلاد الحلبية، ولكشف الطريق لهم.[4]

كان السلطان موجوداً في الشام؛ فأرسل إلى مصر بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي بثلاثة آلاف فارس، ولما وصلته القوات سار بها إلى حلب، في حين جرد الأمير شمس الدين أستاذ داره ومعه جماعة من العربان إلى مرعش،[5] وجرد الحاج طيبرس الوزيري، وعيسى بن مهنا إلى حران والرها، وبحركة السلطان هذه عاد المغول إلى ديارهم بعد أن قُتِلَ وأُسِرَ عدد منهم في حران.[6]

---

[1] انظر الفصل الثاني، حملة ولدي ملك أراغون.

[2] جوانفيل (جين): حياة القديس لويس، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٦/ ٢٦٢. مارينو سانوتو: الأسرار، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٨/١١١-١١٢. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٩٠.

[3] Howorth: A history of the Mongols. Part 3. P. 242-243.

عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٣.

[4] النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٧٨. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٦٤. ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٩٥، ثم أشار في صفحة ٣٩٦ إلى أن حركة التتار كانت بالاتفاق مع الصليبيين الذين أغاروا على قاقون في الوقت نفسه.

[5] مدينة بين ثغور بلاد الشام وبلاد الروم، لها ربض يعرف بالهارونية، الحموي: معجم البلدان مادة مرعش.

[6] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٩٥-٣٩٦. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٨٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٦٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٧٨/٢-٤٦٨. البرزالي (القاسم بن محمد ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٨م): المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ت. ٢٤٣/١.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٥٦/٧. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص١١٣.

أما الصليبيون في عكا – فتزامناً مع الهجوم المغولي — فقد أغاروا على قاقون الواقعة إلى الشرق من عكا، وعلى بعض المناطق المحيطة بهم في أواخر ربيع الآخر من ذلك العام، وهم أيضاً تعرضوا لهزيمة أجبرت إدوارد الأول على التخلي عن مشروعه الصليبي، وعقد هدنة مع الظاهر بيبرس والعودة إلى دياره بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال من قبل المماليك.[١]

١٠- عودة المفاوضات بين مغول فارس والمماليك:

وصل في شوال سنة ٦٧٠هـ/ أيار ١٢٧١م إلى السلطان بيبرس أثناء وجوده في دمشق، رسل قادمون من قبل صمغار قائد المغول المقيم في آسيا الصغرى، والبرواناه[٢] معين الدين وزير السلطان السلجوقي في بلاد الروم، وكانوا يحملون رسالة شفهية تُقَدِّمُ عرضاً من قبل صمغار والبرواناه يطلبون فيها الصلح، ويعرضون أنفسهم وسطاء بين السلطان وأبغا لتحقيق ذلك.[٣]

رحب السلطان بيبرس بهم، ثم شكَّل وفداً وأرسل معه رسالة إلى أبغا استجابة للعرض الذي قدمه صمغار والبرواناه، ولكن هذه الرسالة حملت تهديداً مبطناً، لم يكن من شأنه تحقيق الصلح، فالسلطان ذكر في الرسالة أن منكوتمر خان القفجاق يُلِحُّ عليه في الاشتراك بهجوم على أراضي إيلخانية فارس، وإلى أين ما وصلت خيل السلطان بيبرس فذلك مُلكه، وإلى أين ما وصلت خيل منكوتمر كان له أيضاً،[٤] وأكثر من ذلك؛ فهو يجعل شرط الصلح أن يُعيد أبغا جميع أراضي المسلمين التي تحت يده،[٥] وهذا أمر مستحيل.

---

[١] انظر الفصل الثاني، حملة إدوارد ولي عهد إنكلترا سنة ٦٦٩هـ.

[٢] لفظ فارسي معناه الحاجب، استخدم عند السلاجقة في آسيا الصغرى بمعنى الوزير الأكبر، انظر، دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٣٣. محمد قنديل البقلي: التعرف بصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص٦٤. ومعين الدين هذا هو وزير السلطان السلجوقي غياث الدين بن ركن الدين واسمه حسام الدين بيجار، انظر: ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن شداد، ت: ٦٨٤هـ): تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٩. البرزالي: المقتفي، ٣٤٧/١.

[٣] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٤. ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٩٩ . اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٧١/٢-٤٧٢.

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٠٠.

[٥] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٣٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٧٢/٢.

وتجدر هنا الإشارة إلى أن ما ورد عند ابن عبد الظاهر يدفع إلى الشك بوجود اتصالات سرية بين السلطان والبرواناه، فهو يذكر – أي ابن عبد الظاهر – أن السلطان حمّل الوفد المرسل إلى أبغا، والذي مرَّ ضمن أراضي آسيا الصغرى، – وبطريقة سرية – هديةً من قماش فاخر للبرواناه،[١] بل أكثر من ذلك إن البرواناه قُتِلَ سنة٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م من قبل أبغا – كما سيتضح – بعد أن انكشف ميله للسلطان الظاهر.[٢]

دعا أبغا كبار قادته للتشاور أمام الموقف الجديد، وبعدها أرسل سفراءه إلى القاهرة سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م لبدء المفاوضات من أجل الصلح، على أن يكون الأمير سنقر الأشقر هو الوسيط، لكن السفراء غيروا في كلامهم واقترحوا شروطاً يتعذر على السلطان قبولها، وهي أن يسير السلطان بنفسه، أو من يليه في المرتبة إلى فارس لعقد الصلح، فأجابهم السلطان بأن أبغا إذا قصد الصلح يمشي فيه هو أو أحد من أخوته،[٣] وفي النهاية أخفقت المفاوضات؛ وهي نتيجة طبيعية لمثل تلك مراسلات.

١١– موقعة البيرة وهزيمة المغول على الفرات سنة٦٧١هـ/١٢٧٢م(موقعة جِنْقُر)[٤]:

أدرك أبغا استحالة الصلح مع بيبرس، وبدأ يُعِدُّ العدة للهجوم على أراضي السلطنة، وفي الحقيقة تم ذلك قبل أن تعود رسله إليه، فرسله تم تسفيرهم من قبل السلطان في مطلع ربيع الأول، في حين أن الخبر وصل إلى السلطان بتحركات المغول في تاسع ربيع الأول من السنة نفسها،[٥] لأن عملية إرسال الرسل كانت للتضليل وكسب الوقت.

وصلت الأخبار بتحركات المغول في التاسع من ربيع الأول والسلطان في مصر، أما نزولهم على الرحبة فقد وصل خبره في الخامس جمادى من الأولى والسلطان آنذاك كان قد وصل إلى دمشق، فسار

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض،ص ٣٩٩.

[٢] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٨٣. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٠٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٨٦/٣. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٦٥/٢/٢.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٠٠–٤٠٤. المقريزي: السلوك، ٦٠٥/١.

[٤] سميت بهذا الاسم نسبة إلى جنقر قائد المغول آنذاك، انظر ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٦٩.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٠٤–٤٠٥.

إلى القصير جهة حمص، وهناك بَلَغَه أنهم تركوا الرحبة ونزلوا على البيرة،[1] وأنهم نصبوا عليها المجانيق، فسار إلى حمص، ومن هناك أخذ مراكب الصيادين ببحيرة قدس، وَحَمَلها على الجمال، ووصل بها إلى مَخَاضَةٍ على الفرات تعرف بمخاضة الحمام، بعد أن بلغه اجتماع المغول على شط الفرات الشرقي وتحصنهم هناك، وكانت عدتهم خمسة آلاف فارس من كبار المغول يتقدمهم جنقر،[2] فألقى المراكب التي حملها معه في الفرات، وأراد أن يعمل منها جسراً على الفرات لعبور قواته، إلا أن القوارب التي حملها؛ وعددها عشرة فقط كانت لا تفي بالغرض، وخوفاً من ضياع الفرصة، أمر قواته باقتحام الفرات، فكان الأمير قلاوون أول من خاضه،[3] فصدم التتار صدمة فرقهم بها ومزقهم، فألقت بقية القوات المملوكية نفسها في الفرات، وساقوا فيها عوماً الفارس إلى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة، ومجاديفهم رماحهم، وعليهم وعلى خيولهم الحديد، " فوقعوا على التتار، فاستلوا أرواحهم من جسومهم طعناً وضربا، أسروا منهم تقدير مائتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل "،[4] وقتل مقدمهم جنقر، وصلّى السلطان بمنزلة العدو ركعتين، وكان ذلك يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، ثم عاد السلطان بعسكره يوم الاثنين إلى الضفة الغربية للفرات، أما بالنسبة للمغول الذين نزلوا على البيرة بقيادة درباي، فعندما وصلهم خبر هذه الوقعة، رحلوا عنها بعد أن أشرفوا على أخذها، وتركوا ما عندهم من العتاد والمجانيق والأمتعة، " ونجوا بأنفسهم لا يلوي كبيرهم على صغيرهم "، فسار السلطان إليها ودخلها في الثاني والعشرين من الشهر نفسه جمادى الأولى ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م، فخلع على أهلها وأنعم عليهم.[5]

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر،ص ٥٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٣.

[2] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٦٩، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٥٥، ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٠٥، المقريزي: السلوك ٦٠٦/١.

[3] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٧٠. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٥٥.

[4] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٥٥- ٥٦.

[5] ابن عبد الظاهر:الروض، ٤٠٨، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٦، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٧٠-١٧١، المقريزي: السلوك ٦٠٧/١، اليونيني ذيل مرآة الزمان،٣/٣. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٣٣-٣٣٤. بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ٩/ ٨٨-٨٩. البرزالي: المقتفي، ٢٦٩/١.

١٢- المفاوضات بين السلطان الظاهر ومعين الدين البرواناه:

وكما هو معروف أن سلاجقة الروم كانوا خاضعين لمغول فارس، وقد ضاق ذرعاً الوزير السلجوقي معين الدين من تسلطهم وتدخلهم في شؤون بلاده، ولا سيما أجاي وصمغار ممثلي المغول في بلاده، فقرر التخلص من تسلطهم بالالتجاء إلى المماليك؛ لذا راسل السلطان سراً في سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م يعرض عليه تبعيته له إن خلّصه السلطان منهم، وأعطاه الحماية، فقبل السلطان هذا العرض، ووعده بالمسير في السنة القادمة لأن خيله متعبة، وعندما عادت رسل معين الدين إليه من عند السلطان وجدوا أجاي وصمغار قد تم سحبهم من قبل أبغا بناء على احتجاج "سري" كان قد قدمه معين الدين لأبغا من قبل، لذا فقد تلكأ معين الدين في إجابة السلطان بعد أن صلحت بلاده بخروج أجاي وصمغار.[١]

في السنة التالية؛ ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م وتحديداً في شهر شعبان/ آذار، تحرك السلطان بجيشه إلى بلاد الشام، وربما كانت وجهته آسيا الصغرى حسب ما وعد البرواناه، وقد تزامن ذلك مع سحب ممثلي التتار "صمغار وأجاي" من آسيا الصغرى، وهذا يعني بالنسبة للبرواناه غياب المسوغ لقدوم السلطان، فكتب البرواناه للسلطان بيبرس يقول له: " اقصد هذه السنة سيس، ففي السنة الآتية أملكك البلاد إن شاء الله "،[٢] فوجد السلطان الفرصة مناسبة لتسديد ضربة لمملكة إرمينية الصغرى، ولاسيما أن صاحبها خالف الاتفاق الذي كان بينه وبين الظاهر بيبرس في إرسال الهدايا وعدم تجديد الحصون، كما أنه منع وصول الأخبار الصحيحة عن تحركات المغول، وصارت قواته ترتدي زي المغول وتهاجم القوافل التجارية[٣]، فما كان من السلطان إلا أن هاجم إرمينية الصغرى تحت هذه الذريعة في رمضان ٦٧٣هـ/١٢٧٥م، فاستولى على: إياس، وأذنة، والمصيصة، وعاد بالكثير من الغنائم والأسرى،[٤]وبهذا العمل يكون السلطان قد سدد ضربة قوية للأرمن أخرجتهم مؤقتاً من دائرة الصراع المغولي المملوكي.

---

[١] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٧٨-٧٩. اليونيني: ذيل مرآةالزمان، ٣/ ٣٤.

[٢] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٠٦-١٠٧، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٧٧-١٧٨،

[٣] ابن عبد الظاهر:الروض،ص٤٣٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٣٧.

[٤] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٧٧-١٧٨، ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت: ٨٠٧هـ): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، بيروت، (د. ت)، ٧/ ٢٩-٣١، ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٣، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٣٨٩-٣٩٢.

ورد المغول على هذه الحملة المدمرة لإرمينية بهجوم على البيرة؛ إذ أرسل أبغا إلى البرواناه، وممثلي المغول في بلاد الروم، – وكان ممثل المغول آنذاك هو تقو نوين (أي تقو قائد الألف) الذي تم تعيينه بدلاً من آجاي وصمغار– بمحاصرة البيرة، فرحلوا قاصدين البيرة ونزلوا عليها في ٨ جمادى الآخرة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، وكانت عدة العساكر ثلاثون ألفاً، خمسة عشر ألف فقط من المغول، وما تبقى من عساكر الروم، ومن عساكر ماردين وميافارقين، بالإضافة إلى طوائف عديدة من عساكر الموصل، وشهرزور[١] والعراق.

نصبوا على البيرة ثلاثة وعشرين منجنيقاً، ولكن حصارهم لم يدم طويلاً؛ لأن " القلعة حصينة، وعساكر الملك الظاهر قريبة منها، وفيها ذخائر كثيرة " وعساكرهم وهنت، فكان أهل البيرة يخرجون على المغول في الليل ويهاجمونهم، فأحرقوا المنجنيقات، ونهبوا أثقالهم وفتكوا بعساكرهم، فقرروا الرحيل، وتم ذلك في يوم السبت ١٧ من الشهر نفسه بعد حصار دام تسعة أيام فقط.[٢]

١٣– معركة أبلستين[٣] ٦٧٥هـ/١٢٧٦م:

أ– المراسلات بين السلطان بيبرس و الوزير معين الدين والأمراء السلاجقة:

قبل حصار البيرة سالف الذكر سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، تم استدعاء البرواناة إلى الأردو[٤] من قبل أبغا مرتين، الأولى كانت عقب حملة المماليك على إرمينية الصغرى، والثانية كانت نتيجة وشاية من أجاي،[٥] الذي أعاده أبغا إلى مكانه في أسيا الصغرى سنة٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م.[٦]

---

[١] هي كويرة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، معناها بالفارسية المدينة، أهلها أكراد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة شهرزور، والمقصود هنا هو الأكراد. انظر، البرزالي: المقتفي، ٣٤٤/١.

[٢] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٥–١٢٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٤/٣–١١٥. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٤١/٧. البرزالي: المقتفي،٣٤٤/١، ٣٤٦. المقريزي: السلوك، ١/ ٦٢١. النويري: نهاية الأرب، ٢١٩/٣٠–٢٢٠. العيني: عقد الجمان، ٢/ ١٣٩–١٤٠. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٨٢.

[٣] أَبُلُسْتَيْنْ: مدينة ببلاد لروم اسمها حالياً ألبستان، وهي على مقربة من أفسوس، الحموي: معجم البلدان، مادة أبكن.

[٤] كلمة مغولية تعني المعسكر، وهي بناحية همذان. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٦.

[٥] سلف الكلام عنه على أنه أحد قادة المغول في آسيا الصغرى، وكان مع صمغار قد تسلطا على السلاجقة هناك، ونتيجة شكوى من البرواناه إلى أبغا تم سحبه من هناك سنة٦٧٢هـ ثم أُعيد إلى مكانه في السنة التالية.

[٦] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٢–١٢٣. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٢/٣–١١٣.

ولما عاد البرواناه إلى آسيا الصغرى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، جاءته مباشرة تعليمات من قبل أبغا بمهاجمة البيرة مع القائد تقو نوين، فتم الحصار –كما مر من قبل –، وحدث في أثناء الحصار أن أمسكت دورية من دوريات المغول؛ التي كانت تستطلع أخبار المماليك ثلاثة رسل من الظاهر بيبرس يحملون رسالة إلى البرواناه تتضمن: " أننا وقفنا على ما كتبت به إلينا، وها نحن على إثر رسلك، فكن على أُهبة فيما عزمت عليه من اجتماع الكلمة على العدو المخذول "، ولما أطلعوا البرواناة على هذه الرسالة أنكر علمه بذلك وقال: إنها مكيدة " من صاحب سيس يريد بها قتلي وما هذه منه بأولة "، فتظاهروا بتصديقه، وأرسلوا إلى أبغا بذلك دون أن يعلم البرواناة.[1]

أخفق حصار البيرة لأسباب تقدم ذكرها، ونتيجة لما استجد من أمور أثناء الحصار، فقد المغول ثقتهم بالوزير البرواناة، فأيقن هو والأمراء " أن لا مقام لهم في الروم مع التتر"،[2] فرأى أنه من الأفضل أن يسير قُدماً في مشروعه السالف، وهو التحالف مع المماليك واستدعاء السلطان بيبرس إلى بلاده للتخلص من المغول، فهو بهذا العمل على الأقل لا يخرج مفلساً من الطرفين.

وفور عودته إلى بلاده اجتمع معين الدين البرواناة مع الأمراء، وأخذ عليهم الأيمان أن يكونوا مع الملك الظاهر، و" أن يعادوا من عاداه، ويوالوا من والاه "،[3] وأرسلوا بذلك إلى السلطان مشترطين: مساعدة عسكرية لحمايتهم من المغول، وأن يبقى السلطان السلجوقي في مكانه حاكماً، وبالمقابل ما كان يُدفع من جزية للمغول يأخذه السلطان.[4]

في الحقيقة كان هذا العرض سخياً، إلا أن السلطان لم يورط نفسه برد سريع، بل أرجأ عملية التدخل العسكري إلى العام المقبل بحجة أن المياه آنذاك كانت قليلة في الآبار" وإذا انقضى الربيع يقع العزم على التوجه إن شاء الله ".[5]

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٥/٣. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٤٢/٧.

[2] ابن شداد: تارخ الملك الظاهر، ص ١٢٨. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٦/٣.

[3] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٨. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٦/٣.

[4] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٨. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١١٧/٣. البرزالي:المقتفي، ٣٤٧/١. وقد أشار رشيد الدين إلى هذه المراسلات، جامع التواريخ، ٦١/٢/٢. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ٨٢.

[5] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٩.

في هذا الوقت كتب أبغا إلى البرواناة يستدعيه للحضور إليه، فغدا موقف البرواناة حَرِجاً إذ لم يجد بُدّاً من المسير إلى أبغا، فسار إليه في ١١ ذي الحجة ٦٧٤هـ/ ٢٧ مايو ١٢٧٦م " يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ".[١]

وفي غياب البرواناة أثناء مسيره إلى أبغا كتب بعضُ أمراء السلاجقة إلى السلطان الظاهر يحثوه على القدوم إلى آسيا الصغرى، وكان ذلك باتفاق مسبق مع البرواناة، ليجد هذا الأخير العُذر بعدم إكمال مسيره إلى أبغا والعودة إلى آسيا الصغرى بحجة هجوم المماليك، فهو كان يخشى لقاء أبغا، وفعلاً وصلت رسل السلاجقة إلى السلطان الظاهر، فقام هذا الأخير بإرسال الأمير بكتوت في محرم ٦٧٥هـ/١٢٧٦م إلى آسيا الصغرى – ليستطلع الوضع هناك – ومعه رسائل إلى الأمراء السلاجقة يدعوهم فيها إلى طاعته والانقياد له، " فمن أطاعني حقن دمه وماله وربح الجنة، ومن عصاني فلا يلومن إلا نفسه "،[٢] وبالفعل وصل الأمير بكتوت إلى الأبلستين، وهناك اجتمع بعدد من أمراء السلاجقة الذين أبدوا له تحمسهم للوقوف إلى جانب السلطان ضد المغول.[٣]

وبعث بكتوت بالكتب إلى الأمراء السلاجقة، وكان هناك شبه إجماع على أن يكتبوا للسلطان بأنهم على أمره وأن " البلاد بلاده "،[٤] ولكن هؤلاء الأمراء ارتكبوا خطأً عندما قاموا في وجه المغول المقيمين هناك قبل أن يأمرهم السلطان، مما أدى إلى حدوث انقسامات، فأرسلوا إلى السلطان، وكان في حمص يستعجلوه في المسير، فكان رده: " أنتم استعجلتم في المباينة، كنت قد وعدت معين الدين أني في أواخر هذه السنة أطأ البلاد بعساكري، فإنها بمصر"، واعتذر عن المسير لقلة عساكره، ولامهم على

---

[١] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٤٢/٧-٤٣، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٨٨-١٨٩، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٥٣.

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٨٩،. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٦٥/٣. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٥٤.

[٣] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٥٤- ١٥٥، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٩٠، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٦٥/٧-٦٦. البرزالي: المقتفي، ٣٦٣/١.

[٤] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٥٧. البرزالي: المقتفي، ٣٦٣/١.

تصرفهم هذا ونصحهم بالتحصن في قلاعهم ريثما يذهب إلى مصر ويأتي بالعسكر في فصل الشتاء، " فإن آبار الشام في هذا الوقت قد غارت وقلّت مياهها".[1]

ثم سار السلطان إلى حلب، ومن هناك أرسلَ في ٢٥ صفر من تلك السنة الأمير سيف الدين بلبان الزيني بعسكر قليل حتى يأتي بالسلطان غياث الدين والأمراء الذين حلفوا له، لكن هذه القوة ما إن وصلت قلعة الحدث حتى عادت بسرعة بعد أن وردها الخبر بقدوم البرواناه ومعه منكوتمر أخو أبغا وثلاثون ألف فارس مغولي، وعندما علم السلطان بذلك انسحب على فوره من دمشق خوفاً من أن يعلم المغول بوجوده هناك مع قوة صغيرة فيهاجموا حلب، ودخل دمشق في ربيع الآخر ومنها توجه إلى مصر.[2]

وكان سبب قدوم هذه القوة أن البرواناة عندما سار إلى أبغا؛ أمر أحد أمرائه المقربين أن يكتب للظاهر بيبرس بالقدوم، ثم يكتب للبرواناة وهو في طريقه إلى أبغا بضرورة الرجوع بسبب هجوم المماليك، وهي حيلة من البرواناة؛ لأنه كان خائفاً من لقاء أبغا، ولما كتب هذا الأمير إلى البرواناة بهجوم المماليك المزعوم، سيّر هذا الأخير الكتب إلى أبغا، فأمره أبغا بالعودة وأمده بثلاثين ألف فارس.[3]

وصلت القوات المغولية إلى أراضي سلاجقة الروم، وهناك قام المغول بسلسلة من الاستجوابات مع الأمراء الذي راسلوا السلطان وأعلنوا ميلهم له، ومن خلال هذه التحقيقات تبين لهم ضلوع البرواناه في هذه المؤامرة.[4]

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٦٠-١٦١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٩٢-١٩٣. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣/١٦٩-١٧٠.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣/١٧٠. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/٦٧-٦٨. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٦١، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٩٤.

[3] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،٧/ ٤٢-٤٣.

[4] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ١٦٣- ١٦٤. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٩٥ -١٩٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣/١٧٠-١٧٣.

ب – استعدادات السلطان، والمسير إلى آسيا الصغرى:

أثار مسير هذه القوة المغولية مخاوف السلطان، واستباقاً لأي هجوم مغولي، قرر السلطان — بناءً على المراسلات المتقدمة مع الأمراء السلاجقة — استغلال الموقف ومهاجمة المغول، لذا عاد سريعاً إلى مصر فدخلها في ربيع الأول ٦٧٥هـ/ آب ١٢٧٦م، وفي الشتاء التالي — حسب الاتفاق – أصدر الأوامر للقوات بالقيام باستعراض عسكري، ومناورات استمرت ثلاثة أيام، شارك فيها بنفسه، ثم شرع في السفر إلى بلاد الروم بعد أن رتَّبَ الأمير آق سنقر الفارقي نائباً عنه في خدمة ولده السلطان الملك السعيد، وترك عنده من العساكر خمسة آلاف فارس لحفظ البلاد، فخرج من القلعة في ٢٠ رمضان ٦٧٥هـ/ شباط ١٢٧٧م، ودخل دمشق في ١٧ شوال/ آذار، ثم خرج منها في ٢٠ شوال إلى حلب، فوصلها في مستهل ذي القعدة، ومنها سار إلى حيلان[١] في ٢ ذي العقدة/ نيسان.[٢]

وخوفاً من هجوم مغولي قادم من جهة العراق أرسل السلطان أثناء وجوده في حلب نائبها الأمير نور الدين بن مجلّي إلى الفرات لحفظ معابره من هجمات المغول، وانضم إليه أمير العرب عيسى بن مهنا، وقد نجح هؤلاء فيما بعد بالتصدي لهجوم قام به عرب خفاجة الموالون للمغول بتكليف من أبغا، وغنموا منهم غنائم عديدة، أما السلطان فقد انطلق على رأس الجيش من حيلان في يوم الجمعة ٣ ذي القعدة باتجاه بلاد سلاجقة الروم متبعاً المسالك المؤدية إليها، وكان أول لقاء جمعهم مع التتار عندما اصطدم الأمير سنقر الأشقر بفرقته الاستطلاعية مع فرقة مغولية عدتها ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم كراي، فانهزموا أمامه، وأسر جماعة منهم، وذلك في التاسع من ذي القعدة يوم الخميس.[٣]

---

[١] حيلان قرية تقع شمالي حلب، تخرج منه عين تسقي حلب، الحموي: معجم البلدان، مادة حيلة.

[٢] المقريزي: السلوك ٦٢٦/١-٦٢٧، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٩٥، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٧٥/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١٦٦/٧-١٦٧. البرزالي: المقتفي، ٣٨٢/١.

[٣] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٩٨. اليونيني: ذيل مرآة الزمان،١٧٥/٣-١٧٦. المقريزي: السلوك، ٦٢٧/١-٦٢٨. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧٠-١٧١. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢٥٨/٢-٢٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٦٧/٧-١٦٨. البرزالي: المقتفي، ٣٨٢/١.

ج– بدء المعركة:

وصلت الأخبار للمغول، فبدأوا بجمع قواتهم وترتيبها، فاصطفوا على نهر جيحان، كان مقدم المغول تتاون، ومقدم سلاجقة الروم البرواناه، فلما أشرف السلطان بجيشه على صحراء أبلستين من أحد الجبال المجاورة وجد المغول قد رتبوا عساكرهم أحد عشر طُلُباً، في كل طُلُب أكثر من ألف فارس، في حين أنهم عزلوا عسكر الروم المسلمين، وذلك تحسباً من أن يكون بينهم وبين المماليك مراسلات فينضموا إليهم أثناء المعركة، وكان هنالك عسكر من الكُرج انتظموا في طُلب واحد.[١]

بدأ القتال عندما هجمت ميسرة المغول على سنجقية[٢] السلطان، ونجحت طائفة منهم باختراق السنجقية مهاجمين الميمنة، فلما رآهم السلطان أردفهم بنفسه، ثم التفت فرأى الميسرة قد تعرضت لهجوم عنيف من قبل ميمنة المغول وكادت أن تهلك فأشار إلى صاحب حماه أن يردف الميسرة، ثم حمل هو وجيشه حملة واحدة على المغول " فطحنوا التتار طحناً، وبدلوا فرحهم حزناً "،[٣] ثم ترجل المغول عن خيولهم وقاتلوا بكل شراسة، ولكن ذلك لم يُغنِ عن الهزيمة، وربح المماليك المعركة، وربحوا معها غنائم عظيمة.[٤]

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٥٨-٤٥٩. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧٢. المقريزي: السلوك ١/ ٦٢٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٦٨/٧.

[٢] السنجق: معناه الرمح، واستخدم بمعنى العلم أو الراية، وجمعه سناجق، وهي رايات صفر مطرزة بالذهب يحملها السنجقدار في موكب السلطان، والمقصود بها هنا الفرسان الذين يحملون رايات السلطان على رماح، ويكون عادة في الوسط، القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/٤٥٦، ٤٥٨. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٩٣.

[٣] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٩٩.

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض،ص ٤٥٩-٤٦٠.أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٤٠-٣٤١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣/١٧٦-١٧٧. المقريزي: السلوك، ١/٦٢٨-٦٢٩. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٧٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٩٥. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٥٠-٣٥٢. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٩٨-١٩٩. البرزالي: المقتفي، ١/٣٨٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١/١٦٨.
Howorth: History of the Mongols. Part 3. P.252-255.

نجا البرواناه بنفسه هارباً إلى قيصرية (قيصرى)[١]، فدخلها يوم الأحد ١٢ ذي القعدة، وطالب من فيها من المسلمين بالخروج خوفاً من انتقام المغول الفارين من المعركة، ثم سار إلى توقات[٢] التي تبعد عن قيصرية ثلاثة أيام أو أربعة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل؛ إذ توجه السلطان إلى قيصرية فدخلها في ١٧ ذي القعدة ٦٧٥هـ/ ٢٢ نيسان ١٢٧٧م، وهناك جلس على تخت آل سلجوق، وضربت السكة باسمه، وجعل الخطبة في مساجد قيصرية باسمه، وجلس مع الفقهاء والقضاة والقرّاء.[٣]

أرسل البرواناة إلى السلطان يهنئه بالجلوس على تخت السلاجقة، فأرسل إليه السلطان بالحضور ليوليه مكانه، فرّد عليه بطلب مهلة خمسة عشر يوماً، ويقول ابن شداد إن مراده من هذه المهلة هو أن يبقى السلطان في آسيا الصغرى حتى يدركه أبغا، فلما علم السلطان بذلك ترك قيصرية ورحل،[٤] فوصل دمشق في ٧ محرم ٦٧٦هـ/حزيران ١٢٧٧م، وقد لاقى في طريق العودة مصاعب جمّة، كما أنه لم يَنْسَ معاقبة الأرمن الذين أخفوا المغول الهاربين من المعركة.[٥]

وصلت أخبار الهزيمة إلى أبغا فأسرع بنفسه إلى ميدان المعركة، وهناك هاله ما رآه من كثرة القتلى من المغول، فبكى عليهم، وعزم على الزحف خلف الظاهر بيبرس وكلف جيشاً خفيفاً بذلك، لكنه ما لبث أن عدل عن أمره عندما علم بابتعاد السلطان وأنه أصبح في بلاده، فاقتنع برأي الأمراء المغول بأن

---

[١] قيسارية أو قيصرية مدينة تقع على نهر قارصو أحد فروع نهر قزل أرمك بآسيا الصغرى وهي تختلف عن قيسارية فلسطين، وهي كرسي مُلك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي: معجم البلدان، مادة قيسارية.

[٢] بلدة في أرض الروم بين سيواس وقونية، بينها وبين سيواس يومان، الحموي: معجم البلدان، مادة توقات.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٦٤-٤٦٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣/١٧٧-١٧٨، ١٨١. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧٤، ١٧٥-١٧٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٠١. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/٦٢. البرزالي: المقتفي، ١/ ٣٨٣. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٤١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/١٧٠، ١٧٣.

[٤] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/١٧٤.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٦٨-٤٧١. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧٧-١٧٩. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/٦٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/١٧٤. للاستزادة عن معركة الأبلستين انظر، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٥٧-٥٩. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٣٥٠-٣٥٣. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٨٥. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٢٥٩-٢٦٢.

يؤجل هجومه إلى فصل الخريف أو الشتاء،[1] ولكنه أرسل رسالة تهديد للسلطان جاء فيها: " إنكم تنقضون فجأة كاللصوص، وتطاردون فرساننا وطلائعنا، وتقتلون بعضهم، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا، فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام .. وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل ما لكم من أخضر ويابس لأن الله الأزلي قد وهب لجنكيز خان وذريته بلاد العالم وأدخل السراة المتمردين في ربقة طاعتنا، وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلاً على الإدبار".[2]

وبدافع الغضب والانتقام، وبعد أن رأى أبغا أن معظم القتلى من المغول وليس فيهم من سلاجقة الروم إلا القليل وتأكد من الخيانة، أباح أراضي سلاجقة الروم لجنوده، فعاثوا فيها قتلاً وسلباً، ورأى أن البرواناه قد غرر به عندما لم يخبره بحقيقه حجم جيش السلطان بيبرس وأمره، ولم يقبل عذره في أنه لم يكن يعرف ذلك وأمر بقتله،[3] ثم أجرى بعض التعديلات الإدارية هناك فأخضع بلاد سلاجقة الروم للحكم المغولي المباشر، وعين أخيه قونكقور حاكماً عاماً عليها ومعه قوة كبيرة لحفظ البلاد،[4] وبذلك تحولت سلطنة سلاجقة الروم من دولة مستقلة تتبع بشكل غير مباشر للمغول، إلى ولاية خاضعة مباشرة لهم.

بعد الفراغ من الحديث عن معركة الأبلستين لابد من الإجابة على سؤال مهم هو: ما هي الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس للإقدام على هذه المعركة خارج أراضيه، وهي عملية سابقة من نوعها، فلم يحدث أن قام الجيش المملوكي بمهاجمة الجيش المغولي في عقر داره، بل كان العكس دائماً؛ وكانت عمليات الجيش المملوكي عمليات دفاعية فقط؟.

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٦٢/٢/٢-٦٣. اليونيني: ذيل مرآة الزمان،١٨٥/٣-١٨٦. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٨١. أبو الفداء: المختصر، ٣٤١/٢.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٦٣/٢/٢- ٦٤ .

[3] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٨٦/٣. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٨١-١٨٤. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٠٦-٢٠٧. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٦٢/٢/٢-٦٥. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩٩/٩-١٠٠. أبو الفداء: المختصر، ٣٤١/٢. البرزالي: المقتفي، ١/ ٣٨٦.

[4] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٦٤/٢/٢ .

من ينظر إلى الخريطة الجغرافية آنذاك ولخط سير الحملات المغولية يتضح له: أن بلاد سلاجقة الروم شكلت المدخل الشمالي لبلاد الشام، وأن معظم الحملات المغولية في مسيرها لبلاد الشام؛ منذ حملة هولاكو سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، كانت تأتي من ناحية الشمال والشمال الشرقي، ومعظمها عبر أراضي سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما أن الانسحاب المغولي غالباً ما كان يتم نحو الشمال.

أكثر من ذلك؛ كانت أراضي سلاجقة الروم بمقدراتها العسكرية والاقتصادية تحت تصرف المغول، وسلاجقة الروم لم يكونوا أقل رغبة وحماساً من المماليك -بحكم وحدة الدين- في العمل معاً ضد المغول، وعندما سمحت الظروف بذلك لم يشأ الظاهر بيبرس إضاعتها.

وبالتالي فالسيطرة على أراضي سلاجقة الروم كانت تعني قطع الطريق على المغول، ونقل ميدان المعركة إلى الشمال خارج أراضي سلطنة المماليك، وحرمان المغول من المردود الاقتصادي الذي كانوا يحصلون عليه كجزية من سلاجقة الروم، ووضع عسكر سلاجقة الروم في الكفة المقابلة للمغول إلى جانب المماليك.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت السيطرة على أراضي سلاجقة الروم تُسرع في عملية القضاء على مملكة إرمينية الصغرى.

فأراضي سلاجقة الروم شكلت الحدود الشمالية والشرقية لإرمينية الصغرى، وكونت الجسر الذي يصلها مع مغول فارس، وغياب هذا الغطاء يؤدي إلى فقدان إرمينية الصغرى -بمقدراتها الضعيفة أمام المماليك - لخط الإمداد القادم من المغول شرقاً، وبالتالي تصبح في عزلة شبه كاملة بعد أن تم عزلها عن الصليبيين منذ حوالي عقد من الزمن عندما تم تحرير أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م.

وصحيح أن الظاهر بيبرس حقق انتصاراً ساحقاً على المغول في الأبلستين، إلا أنه لم يمتلك القدرة لتتويج انتصاره العسكري باستغلال سياسي، بل كانت النتائج عكسية، فهو انسحب فوراً إلى بلاد الشام، إذ لم تكن عنده القدرة على الاحتفاظ بهذه البلاد، فأحكم المغول قبضتهم على أراضي سلاجقة الروم أكثر من قبل بعد أن تنبهوا لأهميتها، كما قاموا بعمليات إبادة وحشية بحق أهلها المسلمين، فيذكر البرزالي أن ما قتل من أهلها في عمليات الانتقام التي قام بها أبغا بلغ حوالي مئة ألف، وقيل خمسمئة ألف من أهالي المنطقة الممتدة فيما بين قيصرية و أرزن الروم.[١]

---

[١] المقتفي، ٣٨٦/١.

ثالثاً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون" ٦٧٩–٦٨٩هـ/ ١٢٨٠–١٢٩٠م:

١– الأوضاع الداخلية في السلطنة بعد وفاة الظاهر بيبرس:

بعد وفاة الظاهر بيبرس بدمشق في المحرم سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م تولى السلطنة ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان في ٢٦ صفر ٦٧٦هـ/ ٣٠ تموز ١٢٧٧م،[١] استمر حكمه سنتين وشهرين وثمانية أيام، ولم تشهد مدة حكمه أحداثاً مهمة مع المغول، وتم عزله في ٧ربيع الأول ٦٧٨هـ/ ١٥ أيلول١٢٧٩م بعد أن تآمر عليه الأمراء المماليك وعلى رأسهم الأمير قلاوون، وبعد عزله تم نفيه إلى الكرك.[٢]

من الطبيعي أن يُعرض الحكم على الأمير قلاوون كونه أقوى أمراء المماليك، والأولى بتدبير المملكة، والأحق بتقلد أمورها،[٣] فشخصيته بدأت بالظهور منذ أيام الظاهر بيبرس حيث " ارتقت في دولة الظاهر مرتبته، وارتفعت درجته، وعظمت لديه منزلته، ووَقَرَ في نفس الظاهر أن الملك إليه صائر"،[٤] ولكن قلاوون قابل هذا العرض بالرفض؛ لأن الظروف لم تكن تسمح باعتلائه العرش، فادعى أنه لم يخلع الملك السعيد طمعاً بالسلطنة؛ بل "حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، ويستهينوا منها الأعيان والأكابر، ويضيعوا مصالح العساكر، والأولى ألا نُخْرِجَ الأمرُ من ذرية الملك الظاهر"،[٥] ولكن كما يبدو أن هذه كانت خطة من قلاوون لتمكين نفسه، فبعد أن خلع الملك السعيد قام بتمليك الأمير بدر الدين سلامش الابن الأصغر للظاهر بيبرس، ولقبه بالملك العادل

---

[١] النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٣٦٩–٣٧٠. ابن أيبك: كنز الدرر، ص٢٠٨. البرزالي: المقتفي، ٣٩٨/١،٣٩٣. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١٥٦/٣. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٠٣/٩؛ ويقول أنه استلم السلطة في شهر ربيع الأول. ابن تغري بردي: النجوم، ١٧٥/٧.

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٢٧. العيني: عقد الجمان، ٢٢٣/٢. البرزالي: المقتفي، ٤٥٣/١. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٦٧. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٤/٢. المقريزي: السلوك، ٦٥٤/١–٦٥٥.

[٣] العيني: عقد الجمان، ٢٢٣/٢.

[٤] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١١٩/٩.

[٥] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١١٦. المقريزي: السلوك، ٦٥٧/١.

سلامش،[1] فإذا كان الملك السعيد شاباً فتياً وغير قادر على إدارة الجيوش، فسلامش هذا كان طفلاً ليس له من العمر إلا سبع سنوات وأشهر، وعلى هذا فكلام قلاوون سالف الذكر متناقض مع فعله في تنصيب سلامش، غير أنه إذا علمنا أن قلاوون عين نفسه أتابكاً على العسكر ووصياً على سلامش، وأن النقود ضربت باسميهما معاً، وكذلك خطب لهما معاً على المنابر،[2] أدركنا أبعاد القضية في أن قلاوون عزل بركة ونَصَّبَ سلامش الأقل مقدرة على ضبط السلطنة وقيادتها، وبالتالي مسوغات عزل سلامش وتنصيب قلاوون تزداد، ويصبح الأمر ضرورياً مع عجز سلامش على إدارة الدولة، ناهيك عن أنه في تنصيب سلامش تم إسكات المماليك الظاهرية الذين كانوا آنذاك يشكلون معظم قادة عسكر الديار المصرية.[3]

وفي أثناء سلطنة سلامش لم يكن لهذا الأخير إلا الاسم، بينما كان قلاوون "يدير الأحوال، ويفرق الأموال، ويؤسس الممالك، ويمهد لنفسه المسالك"،[4] وكما يقول المقريزي كان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك،[5] فبدأ بعزل الأمراء الظاهرية، و"أحضر من كان من البحرية الصالحية منسياً، وقرب من كان منهم مبعداً مقصياً، فأعطاهم الإقطاعات وأمرّهم بالطبلخانات، وأرسل بعضهم إلى الجهات الشامية، واستنابهم في القلاع..، وجازى المماليك الظاهرية بسوء أفعالهم...، وقبض على أعيانهم..، فأودعوا السجون..، ولما أحكم تدبير الأمور.."، جمع الأمراء وقال لهم: "قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل، وأن لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير، لانتشار السمعة في البلاد وامتهان الحرمة في الحواضر والبوادي "، فاتفقت الأمراء على توليته،[6] وتم خلع الأمير سلامش قبل أن

---

[1] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٤٨/٧. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٤/٢. البرزالي: المقتفي، ٤٥٨/١. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ٢/ ٣١٠.

[2] النويري: نهاية الأرب، ٣٩٨/٣٠-٣٩٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ص١١٦-١١٧. ابن تغري بردي: النجوم، ٢٨٦/٧. المقريزي: السلوك، ٦٥٧/١-٦٥٨.

[3] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٤٧/٧. المقريزي: السلوك، ٦٥٧/١.

[4] النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٤٠٠.

[5] المقريزي: السلوك، ٦٥٨/١.

[6] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١١٦/٩-١١٧. المقريزي: السلوك، ٦٥٨/١. ابن تغري بردي: النجوم، ٢٨٧/٧-٢٨٨.

يمضي في الحكم ثلاثة أشهر، وتولى قلاوون الحكم في ٢٠ رجب ٦٧٨هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٢٧٩م وتلقب بالملك المنصور.[(١)]

بدء السلطان المنصور حكمه في مواجهة مجموعة من المشاكل الداخلية، أهمها تمرد الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، والذي حاول الانفصال ببلاد الشام عن مصر، فقد دعا أهل الشام إلى طاعته وتلقَّبَ بالملك الكامل، وخُطِبَ له على منبر الجامع الأموي، وكاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية، ولم يبقَ للملك المنصور قلاوون حكم إلا على الديار المصرية وأعمالها،[(٢)]

قام السلطان قلاوون بإرسال جيوشه بقيادة سنجر الحلبي – الذي تسلطن من قبل بدمشق عقب وفاة قطز– وغيره من الأمراء لمحاربة سنقر الأشقر؛ فانتصروا عليه قرب غزة، وفر الأشقر هارباً إلى الرملة، لكن هذه الهزيمة لم تفت بعضده، فقد استمال بعض الأمراء، وأتته النجدات من حمص، وحماه، وحلب، وبعض أمراء العربان (الأمير عيسى بن مهنا، والأمير ابن حجي)، ومع هذا فقد حلت به هزيمة أخرى في ظاهر دمشق على يد عساكر السلطان قلاوون بقيادة علم الدين سنجر الحلبي في ١٦ صفر ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م بعد أن تخلى عنه العسكر الحموي والحلبي والشامي، وانضموا إلى العسكر المصري، ففر إلى الرحبة شمال بلاد الشام وبعد أن عجز عن أخذها كتب من هناك يستنجد بالمغول ويحرض أبغا بن هولاكو إيلخان مغول فارس، ويُحَسِّنُ له الغارة على بلاد الشام،[(٣)]

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/١٥٠–١٥١. ابن أيبك: كنز الدرر، ص٢٣١–٢٣٢. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/٨–٩. النويري: نهاية الأرب، جزء ٣١، تح: الباز العريني، ص ٧. ابن تغري بردي: النجوم، ٧/٢٩٦. العيني: عقد الجمان، ٢/٢٤٢–٢٤٦. البرزالي: المقتفي، ١/٤٦٠. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٦٩–٧٠.

(٢) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن، ت٧٧٩هـ): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م، ١/٥٢. ابن تغري بردي: النجوم، ٧/٢٩٤. المقريزي: السلوك، ١/٦٧٢. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٤٥. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/١٢٢–١٢٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ٣١/١٧–٢٠. العيني: عقد الجمان، ٢/٢٤٦. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/٥٧–٥٨. المقريزي: السلوك، ١/٦٧٥–٦٧٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٣٦. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٨. البرزالي: المقتفي، ١/ ٤٧٤، ٤٧٧–٤٧٨.. ٦٧٥. ابن تغري بردي: النجوم، ٧/٢٩٥. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٤٥.اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٤٠–٤١. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٩٣. مختار الأخبار، ص٧١. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٧.

بعد مكاتبة أبغا عاد سنقر الأشقر إلى صهيون، لأنه أرسل إليها أهله وماله قبل التقائه مع العسكر المصري في المعركة الماضية،[1]وكانت من ضمن البلاد التي أطاعته.[2]

أما سبب عودته إلى صهيون فتذكر أحد المصادر أن علاء الدين الجويني حاكم بغداد من قِبَلْ أبغا بن هولاكو أرسل له يطلب منه الدخول في طاعة أبغا، إلا أن عيسى بن مهنا وغيره حذّره من دخول دار الكفر بعد أن مَنَّ عليه الله بالإسلام،[3] وتذكر مصادر أخرى أن سنقر الأشقر وعيسى بن مهنا لاذا بالفرار إلى صهيون بعد أن جرد إليهم السلطان قلاوون جيشاً بقيادة حسام الدين بن أطلس خان.[4]

٢- غارة المغول على أعمال حلب:

والمهم هنا هو أن مراسلات الأمير سنقر الأشقر وعيسى بن مهنا أمير العربان، إلى أبغا شجعته على انتهاز الفرصة والانتقام لهزائم المغول في عين جالوت والبيرة والأبلستين؛ ما دام الخلاف قائماً في السلطنة المملوكية،[5] وما دام هناك – حسب اعتقاده – من سيقف معه من أهل الشام وحكامها، فقام بإرسال قواته لمهاجمة بلاد الشام، وتم تقسيمها إلى ثلاث فرق؛ هاجمت هذه الفرق من محورين، الشمال والشرق، فمن جهة الشمال سارت فرقة بقيادة ثلاثة من أمراء المغول هم صمغار وتنجي وطرنجي، ومن الشرق سارت فرقتان، الأولى بقيادة بايدو بن طوغاي بن هولاكو وبصحبته حاكم

---

[1] المقريزي: السلوك، ٦٧٦/١. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٣٦-٢٣٧. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٧.

[2] يذكر ابن حبيب البلاد التي خرجت معه وهي: صهيون، وبُرزية، وبلاطُنس، والشُغر، وبكاس، وحصن عكار، وشيزر، وحمص، وأفامية. انظر، تذكرة النبيه، ٥٨/١. البرزالي: المقتفي،٤٨٣/١.

[3] ابن ايبك: الدرة الزكية، ص ٢٣٧. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣١٦/٢-٣١٧. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٧.

[4] العيني: عقد الجمان، ٢٤٦/٢، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،١٧٢/٧. المقريزي: السلوك، ١/ ٦٧٨.

[5] البرزالي: المقتفي، ٤٨٥/١. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٧- ١٩٨.

ماردين، والثانية بقيادة منكوتمر بن هولاكو وفيها معظم العسكر و" شرار المغول "، كما وصلت الأخبار بأن ملك إرمينية الصغرى خرج إليهم عن طريق الدربساك ليجتمع معهم.[١]

أمام هذا الهجوم المغولي الشرس وما أحدثه من خوف في بلاد الشام، حيث عزم سكانها على الرحيل إلى مصر،[٢] بدأت الاستعدادات للتصدي لهم على الشكل الآتي:

- من كان في دمشق من العساكر المصرية المجردة من قبل لقتال سنقر الأشقر تجمعوا تحت قيادة الأمير ركن الدين إياجي الحاجب، ومعهم العساكر الشامية والعساكر التي كانت تحاصر قلعة شيزر،[٣] الخاضعة آنذاك لحكم الأمير سنقر الأشقر.
- خرج من القاهرة بعض العسكر، ومقدمهم الأمير بدر الدين بكتاش النجمي، وقد اجتمع هؤلاء جميعاً في حماه.[٤]
- بدأت الكتب تتواتر إلى الأمير سنقر الأشقر حاملة "التعنيف والتخويف والترهيب والترغيب، فجنح إلى سلم الإسلام وأصاخ إلى التوبيخ والملام"،[٥] ثم نزلت عساكر من صهيون وشيزر وخيمت تحت قلاعها استعداداً لقتال المغول لكنها لم تجتمع بالمصريين.[٦]
- وبعد تواتر الأخبار بقدوم المغول، وميل سنقر الأشقر إلى الصلح ورجوعه عما كان عليه، خرج السلطان المنصور قلاوون بجيشه من مصر في أواخر جمادى الآخرة.[٧]

أما المغول ففي ٢١ جمادى الآخرة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م، هاجمت قواتهم أعمال حلب، وملكوا عينتاب، وبغراس، ودربساك، ثم دخلوا حلب، وقد خلت من العساكر الذين انسحبوا وتجمعوا في حماه،

---

[١] المقريزي: السلوك، ٦٨١/١، العيني: عقد الجمان، ٢٤٧/٢، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ١٨٥/٧. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٤٧. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٨. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٢٨/٩-١٢٩. Howorth: History of The Mongols، Part3، .P267.

[٢] البرزالي: المقتفي، ١/ ٤٨٥. ابن أيبك: الدرة الزكية، ٢٣٨.

[٣] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،١٨٥/٧، المقريزي: السلوك، ٦٨٢/١. وكان بعض العسكر يحاصر شيزر التابعة لسنقر الأشقر. البرزالي: المقتفي، ٤٨٤/١-٤٨٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٤٥.

[٤] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،١٨٥/٧، المقريزي: السلوك، ٦٨٢/١. البرزالي: المقتفي، ٤٨٥/١.

[٥] العيني: عقد الجمان، ٢٤٧/٢.

[٦] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ١٨٦. المقريزي: السلوك، ٦٨٢/١. البرزالي: المقتفي، ٤٨٥/١.

[٧] العيني: عقد الجمان، ٢٤٨/٢ . ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩٠/٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٣٩. البرزالي: المقتفي، ٤٨٧/١.

فلم يكن هناك مقاومة للمغول في حلب، فقتلوا ونهبوا وسبوا، وأحرقوا الجامع، والمدارس ودار السلطنة، ودور الأمراء، وبعد يومين من التخريب والقتل انسحبوا في ٢٣ جمادى الآخرة عائدين إلى بلادهم،[١] وكانت مشاركة الأرمن واضحة في هذه الحملة، وقد أخذ أهل سيس منبر الجامع معهم إلى بلادهم[٢].

أما سبب عودة المغول بهذه السرعة، هو ما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين واجتماعهم على قتال المغول، وبذلك تكون فرصة استغلال الانقسام قد سقطت وذهب المسوغ لهجومهم، وعندما انسحبوا عاد السلطان من غزة إلى مصر بعد سماعه بانسحابهم.[٣]

قد لا يكون صحيحاً ما يقال بأن السلطان قلاوون قد تنبه لخطر المغول بعد هذه الغارة، فهو لم يكن غافل عن هذا العدو، وقد أمضى معظم حياته العسكرية في قتالهم والتعامل معهم، بل يمكن القول أنه – وبصفته التلميذ النجيب للسلطان الظاهر بيبرس – أدرك خطورة القتال على جبهتين في آن واحد، ولاسيما بعد أن رأى استغلال صليبيي المرقب لهجوم المغول، إذ "تطرقوا إلى أذية المسلمين بأطراف تلك البلاد "،[٤] فعمد إلى اتباع سياسة سلفه في تحييد جبهة؛ والقتال على أخرى، وظهر ذلك عندما أَذِنَ لصاحب حصن الأكراد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي بعد انسحاب المغول بمهاجمة الصليبيين في قلعة المرقب، وإن كان الطباخي هذا قد أخفق في هجومه على المرقب،[٥] غير أن هذا لا يعني نهاية مشروع السلطان قلاوون، بل إنه بادر بنفسه بالهجوم على الصليبيين؛ إذ جهز جيشه وخرج في مستهل ذي الحجة ٦٧٩هـ /آذار ١٢٨١م، وما أن وصل إلى منزلة الروحاء في فلسطين حتى

---

[١] المقريزي: السلوك، ٦٨٢/١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،١٨٦/٧، العيني: عقد الجمان، ٢٥٤/٢، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٣٤/٩. البرزالي: المقتفي، ٤٨٦/١. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٩٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٥/٤.

[٢] ينفرد ابن أيبك الدواداري بذكر المعلومة، انظر: الدرة الزكية، ص ٢٣٨، في حين يذكر الذهبي في تاريخ دول الإسلام أن المغول أحرقوه، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، ت: ٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٩م، حوادث ٦٧١-٦٨٠، ص ٥٠

[٣] العيني: عقد الجمان، ٢٥٤/٢ . المقريزي: السلوك، ٦٨٣/١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،١٩٠/٣. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٣٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٣٤. البرزالي: المقتفي، ١/ ٤٨٦، ٤٩٠.

[٤] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٣٥/٩.

[٥] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ١٩٥.المقريزي: السلوك، ٦٨٤/١، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٣٥.ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٩.اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٥٢. ابن المغيزل (نور الدين علي بن عبد الرحيم، ت: ٦٩٦هـ): ذيل مفرج الكروب، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، طر، ٢٠٠٤م، ص٩٧. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣٢٠/٢-٣٢١.

تقاطرت عليه رسل الصليبيين من عكا وطرابلس يطلبون تجديد الهدنة التي عقدت من قبل مع الظاهر بيبرس والزيادة عليها، فوافق السلطان على عقد الهدنة مع أهل عكا لمدة إحدى عشر سنة تقريباً أولها ٢ محرم ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، وتوصل إلى مهادنة أخرى مع بوهيمند السادس صاحب طرابلس لمدة عشر سنين كوامل متواليات تبدأ بـ ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠هـ/١٢٨١م.[١]

أمنت هذه المهادنات للمنصور قلاوون له حرية التحرك ضد المغول في معركة حمص التي حدثت بعد الهدنة بسبعة أشهر، ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون هذه الهدنة غاية السلطان قلاوون، وهدفه من وراء هذا التحرك، وإنما قام بهذه المناورات العسكرية لإخافة الصليبيين، وإجبارهم على المبادرة لطلب الهدنة، كي لا يطلبها هو، فلم يعهد للمماليك أن طلبوا الهدنة من قبل من الصليبيين، وبذلك يظهروا بمظهر الضعيف، وما يرجح القول بأنها مناورة عسكرية أن الظروف لا تسمح له بحربهم ما دامت الحرب مع المغول قائمة، ومشكلة الأمير سنقر الأشقر لم تكن قد انتهت بعد، فهو ما زال يسيطر على عدد من القلاع الشامية.

لم يبق أمام السلطان إلا إنهاء مشكلة الأمير سنقر الأشقر التي كانت سبباً في طمع المغول ببلاد الشام وإغارتهم عليها، وفي هذه الرحلة كان المنصور قلاوون قد أرسل جيشاً بقيادة عز الدين أيبك الأفرم للقضاء على سنقر الأشقر، إلا أن هذا الأخير أرسل إلى السلطان يعرض عليه الصلح، وقد انتظم الصلح بينهم في صفر ٦٨٠هـ/ حزيران ١٢٨١م على أن يُعوض سنقر الأشقر؛ بعد تنازله عن شيزر، بـ الشغر، وبكاس[٢] – وكانتا قد أخذتا منه – ومعهما أفامية، وكفر طاب،[٣] وأنطاكية، وأن يقيم على

---

[١] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٣٧، ١٥٧. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/٢٠٤–٢٠٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٧/٣٠٠، العيني: عقد الجمان،٢/٢٦٢. البرزالي: المقتفي، ١/ ٥٠٤. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، وزارة الارشاد والثقافة، القاهرة، ١٩٦١م، ص٨٤. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/٨٤.

[٢] الشغر وبكاس: قلعتان قويتان حصينتان متقابلان على رأس جبلين يفصل بينهما وادٍ كالخندق، وهما من النواحي الغربية من أعمال حلب قرب أنطاكية وهما على جانب نهر العاصي. الحموي: معجم البلدان، مادة بكرد ومادة شغب. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١/٢/١٣٣. وهما في منتصف الطريق بين أنطاكية وأفامية، شمال شرق صهيون، أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص ٢٦٢. (حالياً جسر الشغور).

[٣] كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، الحموي: معجم البلدان، مادة كفرسوسية.

هذه الضياع؛ مع الضياع التي بيده وهي: صهيون،[1] وبلاطنس،[2] وبرزية،[3] واللاذقية وأن يكون أميراً على ستمئة فارس[4] إضافة إلى الذين عنده من الأمراء، وأقد أجابه السلطان إلى طلبه هذا، ورفض طلبه بنعته بلقب ملك، ونُعت بأمير،[5] وفيما بعد نقم السلطان عليه لأنه عندما قام السلطان بمنازلة حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م لم يأتِ سنقر الأشقر لمساندته، واكتفى بإرسال ابنه، فقام السلطان في سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م بإرسال جيش بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة لمحاربة الأشقر، فتم القتال بينهما إلى أن طلب الأشقر الأمان، فأمنه طرنطاي وصحبه إلى القاهرة، وهناك استقبله السلطان وأنعم عليه.[6]

٣- معركة حمص ٦٨٠هـ/١٢٨١م:

يُلاحظ مدى التشابه بين المصادر الإسلامية التي تتحدث عن معركة حمص، مع فوارق لا تذكر، وسبب ذلك يعود إلى أن منهل هذه الروايات ينحصر تقريباً في مصدرين، الأول ما رواه بيبرس الدوادار في كتابه " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة "، وهو أحد الأمراء الذين شاركوا في هذه المعركة، و الثاني: رواية الملك المنصور أبي الفداء صاحب حماه في كتابه المسمى " المختصر في أخبار البشر "، وأبو الفداء هو من أقرب المؤرخين زماناً ومكاناً للمعركة بعد الدوادار.

---

[1] صهيون: حصن من أعمال حمص فريب من الساحل ولكنه لايشرف على البحر، الحموي: معجم البدان، مادة صهيون.

[2] بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية وهو من أعمال حلب، الحموي معجم البدان، مادة بلاط.

[3] برزية: حصن قرب السواحل الشامية، مضرب المثل في الحصانة، الحموي معجم البدان، مادة برزية. تقع إلى الشمال الغربي من أفامية، وشرق صهيون، وجنوب الشغر وبكاس، أبو الفداء: تقويم البدان، ص٢٦١.

[4] المعروف أن مرتبة أمير مائة كانت أعلى المراتب في سلطنة المماليك، ينال صاحبها اقطاعاً يعيش عليه مئة فارس، وكلما زاد عدد الفرسان زاد اقطاع الأمير، وما قصده سنقر هنا هو أن يعطيه السلطان من الاقطاعات ما يساوي اقطاعات ستة من أكابر الأمراء. انظر تعقيب مصطفى زيادة في السلوك: ٦٨٧/١ حاشية ١. وكذلك تعقيب الباز العريني في نهاية الأرب، ٢٢/٣١، حاشية٥.

[5] النويري: نهاية الأرب، ٢١/٣١-٢٢. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٠٩/٧. المقريزي: السلوك، ٦٨٧/١. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٧/٢. البرزالي: المقتفي، ٥٠٦/١-٥٠٧. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٣٢٤. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ٩٨.

[6] النويري: نهاية الأرب، ٢٣/٣١-٢٤. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٤٩/٨. أبو الفداء: المختصر، ٣٥٧/٢.

وكما جاء في المصادر الإسلامية: وصلت الأخبار في جمادى الآخرة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بمسير المغول في جيش كبير إلى بلاد الشام، وأن هذا الجيش سار في قسمين، الأول كان بقيادة أبغا خان المغول، ومعه ثلاثة آلاف فارس ساروا قاصدين الرحبة، ويرافقه صاحب ماردين، ورابطوا هناك،[١] والقسم الثاني كان بقيادة منكوتمر الأخ الأصغر لأبغا، ومعه قوات المغول الرئيسية،[٢] وقد تباينت المصادر في تقديرها، فبعضهم ذكر مئة ألف جندي أو يزيدون[٣]، وبعضهم ذكر ثمانين ألف جندي، منهم خمسون ألف من المغول، والبقية من أجناس مختلفة من كُرُج، وروم، وأرمن، وفرنج،[٤]سار فيهم من عينتاب حتى وصل حماه، وأفسد نواحيها.[٥] وسبب الحملة على ما يذكر رشيد الدين هو: مهاجمة أهالي الشام لأراضي الروم التابعة للمغول واستيلائهم على القوافل والمحاصيل.[٦]

أما بالنسبة للسلطان فإن الكشافة الإسلامية التي توجهت للكشف عن تحركات المغول تمكنت من القبض على أحد قادتهم، وهم ما يزالون في عينتاب، وبعد معرفة ما عليه الجيش المغولي من عدد وعُدة بدأت الاستعدادات لمواجهة التتار.[٧]

---

[١] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٤١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٩١.أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٤٧. ابن حبيب: تذكرة النبيه،١ /٦٢. البرزالي: المقتفي، ١/ ٥١٦.

[٢] المقريزي: السلوك، ١/٦٩٠-٦٩١. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٤٧. رشيد الدين: جامع التواريخ، ٨٣/٢/٢.

[٣] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٩٠-٤٩١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٣٠٣/٧، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٤٣. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، دار الفكر، ١٩٨٦م، ٢٩٥/١٣.

[٤] المقريزي: السلوك، ٦٩٢/١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢١٣/٧، النويري: نهاية الأرب،٣١/٣١. العيني: عقد الجمان، ٢/ ٢٧١. الأرمن كانوا بقيادة ملكهم ليون، والكرج بقيادة ملكهم ديمتري الثاني، انظر،السلوك ٦٩٢/٣/١ حاشية ١. نهاية الأرب، ٣١/ ٣١ حاشية ١و٢.

[٥] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٩٣. النويري: نهاية الأرب، ٣٢/٣١. البرزالي: المقتفي، ١/ ٥١٦.

[٦] رشيد الدين: جامع التواريخ،٨٢/٢/٢.

[٧] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٤٠-١٤١. وورد عنه أن الذي قُبض عليه هو أمير آخور أبغا، وقال أن عددهم أكثر من ٨٠ ألف فارس، وانظر أيضاً، النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٣٠-٣١. المقريزي: السلوك، ٦٩١/١. البرزالي: المقتفي، ٥١٣/١.

فجمع السلطان الأمراء واستشارهم أين يكون الملتقى مع التتار، فتم الاتفاق على مرج حمص، مع أن رغبة السلطان كانت مرج دمشق،[١] ثم بدأ المسير؛ وانطلق السلطان في جمادى الآخرة ٦٨٠هـ/ تشرين الثاني ١٢٨١م على رأس القوات الإسلامية من دمشق إلى حمص، فنزلها في ١١ رجب/كانون الأول، وهناك شرع في مراسلة الأمير سنقر الأشقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء بحكم ما استقر بينهما من الصلح و اليمين، فنزل سنقر الأشقر من صهيون، وسار إلى السلطان وبرفقته جماعة من الأمراء الظاهرية، وكان قد سبقه إلى السلطان؛ المنصور صاحب حماه.[٢]

تكامل وصول القوات الإسلامية إلى حمص، وبدأ السلطان بترتيب قواته، وقسّمها إلى ميمنة وميسرة وقلب، معتمداً في توزيع قواته على ما ورده من معلومات، فقد انتهت إليه معلومات من نائب حماه حَصَلَ عليها هذا الأخير من أحد عساكر المغول الموالين للسلطان، أخبره فيها أن المغول ٨٠ ألف مقاتل، في القلب أربع وأربعون ألفاً، وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، فعليه أن يقوي ميسرة المسلمين، وأن يحترز على السناجق.[٣]

بدأ السلطان بترتيب قواته التي بلغت تقريباً ٥٠ ألف مقاتل،[٤] فضمت الميمنة المملوكية العسكر الشامي بشكل رئيسي، مع عربان البلاد الشامية، وكان على رأس الميمنة الأمير عيسى بن مهنا أمير العرب، ومعه الملك المنصور صاحب حماة وعدد من الأمراء.

أما الميسرة فقد ضمت قسماً من العسكر الشامي، وعسكر حصن الأكراد، والمماليك الظاهرية الذين كانوا مع سنقر الأشقر، والمماليك والأمراء الذين بايعوه من قبل، وكان المقدم عليهم سنقر الأشقر.

---

[١] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٨٩/٢، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٤٢.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٣٤٧/٢، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢١٤/٧، العيني: عقد الجمان،٢٧١/٢، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ٩٢. المقريزي: السلوك، ٦٩١/١. البرزالي: المقتفي، ٥١٧/١. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٧٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣/ ٢٩٤-٢٩٥.

[٣] المقريزي: السلوك، ٦٩٢/١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،٢١٥/٧، العيني: عقد الجمان: ٢٧٢/٢، النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٣٢.

[٤] ذكر ابن كثير وابن تغري بردي والبرزالي أن عسكر المغول كان تعداده ١٠٠ ألف مقاتل، وأن عسكر المسلمين كان على النصف من ذلك تقريباً، انظر: البداية والنهاية، ١٣/ ٢٩٥، النجوم الزاهرة، ٧/ ٣٠٣. المقتفي، ١/ ٥١٨.

أما الجاليش أو المقدمة؛ فقد ضمت الأمراء والعسكر المصري ومقدمهم نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي، أما السلطان فقد وقف تحت السناجق ومعه مماليكه[1].

قبل البدء في الحديث عن وقائع المعركة لابد من الإشارة إلى أن الجيش المغولي في مسيره إلى بلاد الشام اتبع الطريق التقليدي، وهو المسير من آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد الشام جنوباً، فأبغا نزل أولاً بين قيسارية والأبلستين، ومن هناك سار هو بفرقة بلغ قوامها ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة، في حين سار أخوه منكوتمر مع بقية الجيش إلى عينتاب ثم إلى أطراف حلب ثم إلى حمص مروراً بحماه،[2] وهنا يمكن عد قوة نفوذ عربان البادية الشامية مثل آل فضل، وآل مهنا، وآل مري، التابعين للسلطنة المملوكية أحد أهم العوامل التي جعلت المغول يعتمدون الطريق الشمالي.

كان الملتقى بوطأة حمص بالقرب من قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس ١٤ رجب٦٨٠هـ/كانون الأول ١٢٨١م، ويقول المقريزي إن المسلمين والمغول " لم يعتدّوا منذ عشرين سنة مثل هذه العدة، ولا جمعوا مثل جمعهم هذا "،[3] بدأت المعركة عندما صدمت ميسرة التتار ميمنة المسلمين صدمة عنيفة، إلا أن المسلمين ثبتوا، وكسروا ميسرة التتار كسرة شديدة انتهت بهم إلى قلب المغول، وكان به منكوتمر بن هولاكو " فانهزم طريداً وولى شريداً "، في الوقت نفسه انكسرت ميسرة المسلمين أمام ميمنة المغول، وانهزم من كان فيها، وساق في إثرهم التتار حتى حمص، وهناك قتلوا من أهلها خلق عظيم.

ونظراً لطول خط المواجهة لم يعلم كل طرف ما حلّ بصاحبه من نصر وهزيمة، فميسرة المسلمين المنهزمة ظنت أن الهزيمة نزلت بالجيش كله، لذا تفرقت في البلاد حتى وصل بعضهم إلى صفد وغزة، وميمنة المغول تطاردهم ظناً بأن النصر كان حليف الجيش المغولي، فنزلوا يرعون خيولهم في مروج حمص، لكن عندما أخبرتهم كشافتهم بحقيقة الأمر ركبوا خيولهم وولوا عائدين إلى أرض المعركة.

---

[1] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/١٤٢-١٤٣. وقد نقل عنه كل من: النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣٣-٣٤. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٢١٥-٢١٦. المقريزي: السلوك، ١/٦٩٢-٦٩٣. العيني: عقد الجمان، ٢/ ٢٧٢-٢٧٣. أما أبو الفداء فذكر أن الملك المنصور صاحب حماه كان هو مقدم الميمنة، المختصر، ٢/٣٤٧.

[2] المقريزي: السلوك، ١/ ٦٩٠-٦٩١. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣/ ٢٩٤.

[3] المقريزي: السلوك، ١/ ٦٩٣.

لم يبق في هذه الأثناء على أرض المعركة إلا السلطان بجمع قليل من قواته، فالميسرة المملوكية انكسرت وانهزمت، والميمنة تجني ثمرات النصر في مطاردتها للعدو المنهزم أمامها، فأخفى السلطان الأعلام والرايات، ولما مرت به ميمنة التتار عائدة من حمص وعاينوا السلطان واقفاً مع قواته وقد تكاثفت حوله؛ لم تُقدم عليه، بل طلبوا طريق الرستن مسرعين في عودتهم.

انتهت المعركة مع حلول المساء، وجرح منكوتمر، وقُتل جمع غفير من المغول، وحسب ما ذكره بيبرس الدوادار، فإن ما قتل منهم أثناء الهزيمة أكثر مما قتل أثناء اللقاء، فالبيرة أغلقت المعابر والمخائض على الفرات، فغرق معظم عسكرهم أثناء العبور من معابر ثانية، ولما اختبأ بعضهم في أزوار الفرات، أمر السلطان بحرقها، فهلك أكثرهم حرقاً، ناهيك عن فرقة سلكت طريق سلمية، فكان مصيرها الهلاك،[1] وبالنسبة للملك الأرمني الذي شارك بفعالية في المعركة، وكان ضمن المطاردين للميسرة المملوكية، في أثناء عودته إلى بلاده تعرض لكمين من قبل الأمير شجاع الدين السيناني، قُتل فيه معظم قواته وأُسر ما تبقى منهم، ولم يفلت إلا عدد قُدِّر بأقل من عشرون.[2]

أما أبغا فقد كان على الرحبة، وعندما وصلت لأهلها أخبار النصر ولى منهزماً إلى بغداد.[3]

هذا ما جاء بشكل عام في المصادر الإسلامية، وإلى حد ما المصادر المغولية تتوافق مع المصادر الإسلامية في أنّ نصراً عظيماً حققه السلطان في معركة حمص[4]، غير أن إحدى الوثائق الصليبية التي تم

---

[1] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٤٤-١٤٧. النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣٤-٣٦. العيني: عقد الجمان، ٢/٢٧٥-٢٨٠. اليونيني: ذيل مرآة الزمان،٤/ ٩٣-٩٤. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٤٧-٣٤٨. البرزالي: المقتفي، ١/٥١٨-٥١٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣/ ٢٩٥-٢٩٦. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٨-٢٨٩. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٣٢٤-٣٣٢. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/٢٢١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٣٠٢-٣٠٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٤٣-٢٤٤. وهذا الأخير روى عن والده الذي كان مشاركاً في المعركة.

[2] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٢٢١-٢٢٢. المقريزي: السلوك، ١/ ٦٩٨.

[3] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٤٧. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٤٨.

[4] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/٨٣-٨٤. ويعلل هزيمة المغول بأن منكوتمر كان طفلاً ولم يشاهد بعد المعارك الطاحنة.

نشرها مؤخراً تشير إلى أن السلطان لم يحقق نصراً حقيقياً، وإنما جاء نصره بالمصادفة.[1]

هذه الوثيقة هي رسالة كتبها شخص اسمه "جوزيف دي كانسي" أحد فرسان الإسبتارية المقيمين في عكا، كان معاصراً للمعركة، وربما كان شاهداً عليها، أرسلها إلى إدوارد الأول ملك انكلترا، ويتبين من نص الرسالة أن الملك عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات حول الأحداث التي تجري في الأراضي المقدسة، وفي هذه الرسالة شيء من التعاطف مع المغول، لا محبةً بهم، بل كراهية بالمماليك الذين أذاقوا الإسبتارية مرارة الهزيمة مرات عدة.

تبين من خلال دراسة نص الرسالة أنه لم يكن هناك أي مشكلة عند الصليبيين في تقديم المساعدة أو الاشتراك في المعركة إلى جانب المغول، لو أن المغول طلبوا منهم ذلك، أي لم يكن للهدنة التي عقدها السلطان معهم قبل أشهر أي قيمة، وكانت المشاركة الأرمنية والجورجية واضحة، فالرسالة تجعل لشجاعة ملك أرمينيا واستبساله الفضل الأكبر في كسرة ميسرة المسلمين وهزيمتها، بل ومطاردتها مع ملك جورجيا، وهذا ما لا تنكره المصادر الإسلامية، لكنها – أي المصادر الإسلامية – كلها تجمع على أن ميسرة التتار تلقت هزيمة منكرة من قبل ميمنة المماليك – كما تقدم الذكر–، وأن هذه الكسرة قصمت ظهر المغول وحسمت المعركة لصالح المسلمين، أما دي كانسي؛ صاحب هذه الرسالة يقول العكس بأن ميمنة المسلمين تعرضت هي الأخرى لهزيمة، ولكنها لم تكن بالدرجة نفسها التي كانت عليها هزيمة الميسرة، وذلك بفضل شجاعة السلطان وصموده.[2]

وحسب ما أورده، لم يتمكن أحد من الطرفين من حسم المعركة لصالحه، وحصد نتائجها، فبعد الضربة التي تلقاها الجيش الإسلامي بدأ المغول بجمع الأسلاب والغنائم، ولم يبق حول السلطان سوى ستمئة مقاتل ساق بهم نحو الغبار الذي أحدثه المغول من جمع الغنائم، ظناً أن هذا الغبار كان سببه تراجع المغول، وهناك تواجه مع منكوتمر الذي كان في ستين من رجاله، إذ كان قسم من جيشه يلاحق

---

[1] هذه الرسالة محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية في بريطانية، ضمن مجموعة تعرف باسم " الرسائل الملكية"، والرسالة تحت عنوان " أخباراً من سورية"، قام مؤخراً الدكتور سهيل زكار بترجمتها ونشرها ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم ينشر بعد، ص ٢٠ وما بعدها. وسيتم الإشارة لها بـ: دي كانسي، أخبار من سورية.

[2] دي كانسي: أخبار من سورية، ص ٢٣-٢٤.

المسلمين، والآخر مشغول بجمع الغنائم، فعرفه السلطان من خلال شاراته، وظن أن هذا كمين، أما منكوتمر فإنه تراجع بعد أن أدرك ضعف إمكاناته أمام إمكانات السلطان المملوكي، وعزز تراجعه هذا شكوك السلطان بأنه كمين، وأنه عاد لحثّ بقية الجيش على التقدم، فعاد السلطان مسرعاً، وَفَرَّقَ الليلُ بينهما، وعلى هذا يقرر دي كانسي أن المعركة لم تحسم لأي طرف، "ولكن بما أن السلطان كان الأخير بالتراجع، اعتقد الناس أن النصر كان من نصيبه"، بل أكثر من ذلك إن المسلمين – على قول دي كانسي– لم يتلقوا "ضربة بمثل هذه القسوة ولا هزموا مثل هذه الهزيمة"، وبالنسبة للملك الأرمني الذي كان يطارد ميسرة المماليك فيذكر دي كانسي أنه بعد عودته لساحة المعركة لم يجد أحداً فعاد إلى بلاده، ولم يذكر تعرضه لكمين كما تذكر المصادر الإسلامية، غير أنه يقول: إن تعبه وهلاك بعض جنوده كان بسبب مشقة الطريق القاحلة.[1]

إن هذه الرسالة على مكانة من الأهمية، ويمكن الاعتماد عليها في جوانب عدة، ولكن لا يمكن الإقرار بما تقوله بأن الهزيمة الحقيقية كانت من نصيب المماليك، فهذا الكلام مخالف تماماً لما ورد في المصادر الإسلامية، والمغولية، والأرمنية، والصليبية المعاصرة على حد سواء.

١- ففي المصادر الإسلامية المعاصرة يتحدث كل من بيبرس الدوادار، وأبو الفداء، واليونيني، والبرزالي، والنويري؛ وجميعهم كانوا معاصرين للمعركة – بل حتى بيبرس الدوادار كان أحد قادة المعركة — عن نصر عظيم حققه الجيش المملوكي.[2]

٢- بالنسبة للمصادر المغولية؛ فما أورده مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين المعاصر لهذه المعركة في كتابه جامع التواريخ عندما قال: "... وارتاع البعض وولوا الأدبار، فانهزم الجنود، وهلك من جيش المغول خلق كثير، فلما بلغ أباقا خان هذا الخبر غضب على الأمراء غضباً شديدا، وقال: سوف آمر بمعاقبة المقصرين في موسم الصيف عندما يعقد مجلس المغول (القوريلتاي)، وفي العام القادم سوف

---

[1] دي كانسي: أخبار من سورية، ص ٢٧-٢٨.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/١٤٠ وما بعد. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٨/٢. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٩٤/٤-٩٥. البرزالي: المقتفي، ١/ ٥١٨-٥١٩. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٣٠-٣٦.

أذهب بنفسي إلى الشام، وأتلافى هذا الأمر"،[1] لا يدع مجالاً للقول بهزيمة المماليك، وانتصار المغول مادام هم يقرون بعكس ذلك.

٣- ومن المصادر الأرمينة المعاصرة كتاب "خلاصة تواريخ الشرق" للراهب هيثوم، وهو حفيد الملك هيثوم الأول، فقد أقرَّ صاحبه فيه بالنصر المملوكي وهزيمة الجيوش المغولية والأرمنية.[2]

٤- أما فيما يتعلق بالمصادر الصليبية فأهمها على الإطلاق أعمال القبارصة للفارس الداوي الصوري الذي قدم في الجزء الثالث من كتابه هذا أكبر عمل وثائقي عن الأيام الأخيرة للصليبيين في بلاد الشام، وعبّر بما كتبه عن الانطباع العام الذي ساد الصليبيين عن معركة حمص، وهو إلى حد ما مشابه للرواية الإسلامية عندما يتحدث عن ضربة قاسية نزلت بالمسلمين في بداية المعركة، دفعتهم إلى التقهقر والتراجع إلى الخلف، وهو يريد بذلك الميسرة، ولكنه يعود فيقول إن المسلمين " تجمعوا من جديد، وانقضوا على التتار، وهزموهم، وصار منغو(منكوتمر) في وضع سيء جداً بلغ حداً أنه أُرْغِمَ على الهزيمة، وتخلى عن الميدان "، بل أكثر من ذلك، فإنه يتفق مع المصادر الإسلامية في أن ملك أرمينية الصغرى تعرض أثناء عودته لبلاده إلى كمين من قبل التركمان، لم يفلت منه إلا ثلاثون فقط من رجاله، وليس كما يدعي دي كانسي بأن الهلاك الذي لحق بالجيش الأرمني أثناء عودته كان سببه العطش والجوع.[3]

عاد السلطان إلى دمشق ودخلها في يوم الجمعة ٢٢ رجب ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م منهياً بذلك أعماله العسكرية ضد المغول.[4]

تتمثل أهم نتائج معركة حمص على الإطلاق في إسكات جبهة المغول مدة من الزمن قضوها في استرداد قوتهم، ناهيك عن المشاكل التي أحدثها إعلان الخان الجديد- أحمد تكودار- عن إسلامه،[5] هذا ما أعطى السلطان قلاوون فرصة ذهبية للعمل بحرية تامة ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام، وضد

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/٨٣-٨٤.

[2] زكار: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٢٢-٢٣.

[3] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٨.

[4] العيني: عقد الجمان، ٢/٢٨٣.

[5] انظر الصفحة التالية.

الأرمن في كيليكية، فكان تحرير طرابلس سنة ٦٨٨هـ /١٢٨٩م ثمرة هذه الأعمال، فلم يبق للصليبيين في ساحل الشام سوى عكا التي تولى فتحها ابنه الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، لتطوى بذلك صفحة الوجود الصليبي في بلاد الشام، لكن التهديد المغولي لم يتوقف حتى بعد تحول الدولة الإيلخانية في فارس إلى الإسلام مع غازان، فغازان بعد إسلامه قام باحتلال دمشق معلناً الحرب على المماليك باسم الإصلاح الإسلامي، إلا أنه من جهة ثانية تعاون مع الصليبيين في قبرص، ومع الأرمن في كيليكية، وأرسل إلى ملوك أوربا الغربية والبابوية يطلب التحالف معهم ضد المماليك أبناء دينه، بل أكثر من ذلك عرض تسليمهم الأماكن المقدسة في فلسطين، – كما سيتوضح لاحقاً–.

أعقب معركة حمص فتور على جبهة المغول، فلم يقع صدام يستحق الذكر بين المماليك والمغول في عهد السلطان قلاوون، وفي عهد ابنه الأشرف خليل، وجلّ ما قام به المغول للانتقام لما حل بهم في حمص هي مجموعة من السفارات تم إرسالها إلى الغرب الأوربي والبابوية أملاً في عقد تحالف عسكري ضد المماليك.[1]

توفي أبغا بن هولاكو خان مغول فارس في ذي الحجة ٦٨٠هـ/ آذار١٢٨٢م، وعلى قول ابن عبد الظاهر: فإنه مات هماً وكمداً عما ناله من خسارة في معركة حمص، تولى الحكم بعده أخوه تكودار (تكدار) في ربيع الأول ٦٨١هـ/ حزيران ١٢٨٣م، قام هذا الأخير باعتناق الإسلام بعد توليه الحكم وتلقب بالسلطان أحمد، ثم شرع في تحويل المغول إلى الإسلام، وإحلال الشريعة الإسلامية محل أحكام الياسا، وبدأ بتحويل المعابد والكنائس إلى مساجد، وخارجياً حاول التقرب من المماليك فقام بمراسلة السلطان قلاوون وعرض عليه رغبته في نبذ الخصومات ونشر الإسلام والمودة، فلم يرض قادة المغول عن سياسته هذه وبدأوا يتآمرون ضده، لذلك عندما أعلن أراغون بن أبغا ثورته على تكودار، سانده معظم القادة والأمراء حتى انتهت ثورته بالنصر وقتل السلطان تكودار، وجلس أرغون على العرش في جمادى الأولى ٦٨٣هـ/ آب ١٢٨٤م.[2]

---

[1] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٨ وما بعد.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ،٩٣/٢/٢ وما بعدها، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٣. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٩٠/١. المقريزي: السلوك، ٧١٤/١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ٣/٨-٤، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ٢٨٩ وما بعد. فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين، ص ١٢١ وما بعدها، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٦٧-١٧١، عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٢٣٦، ٢٣٨-٢٤٢.
Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.306-607.

آمن آراغون بفكرة التحالف مع الغرب الأوربي على أنها الوسيلة الوحيدة المتبقية لاقتلاع المماليك، لذلك كثرت سفاراته المترددة على أبواب البابا وملوك أوربا، والتي كانت تدعو إلى عمل عسكري سريع ومشترك ضد المماليك، فقد بلغ عدد سفاراته أربعاً خلال ثمانية أعوام، حتى أن آخر سفارتين التقيتا في روما،[١]وفكرة السفارات الأربع تقوم على العمل المشترك؛ بأن يقوم الصليبيون بالهجوم على مصر، ويقوم هو في الوقت نفسه بالهجوم على بلاد الشام ليتمكنوا من تحطيم المسلمين فيما بينهم "وذلك حتى يكون هناك سيدان فقط هما الخاقان قوبيلاي، والبابا "،[٢] وذهب في إغرائه للصليبيين بأن أعلن أنه سوف يُعمّد في القدس بمجرد الاستيلاء عليها.[٣]

باءت محاولات أراغون كلها بإخفاق ذريع؛ إذ كان من المفترض عليه أن يعرف بأن الغرب الأوربي اختلفت فيه الأوضاع تماماً عما كانت عليه قبل قرنين من الزمن، وأن البابا لم يعد قادراً على إلهاب مشاعرهم الصليبية، حتى أنه بات عاجزاً عن حل مشاكله الداخلية حتى يحمي ممتلكاته غير الشرعية في الشرق، لذا ما يمكن ملاحظته في هذه السفارات هو عبارة عن مشاريع عسكرية مقترحة من قبل أراغون للقضاء على المماليك والمسلمين، وبالمقابل ردود بابوية لا علاقة لها بالمقترحات، تطلب الدخول في الدين المسيحي تحت لواء البابوية.[٤]

ويمكن وصف محاولات أراغون هذه بأنها ذروة المحاولات المغولية للاستفادة من الغرب الأوربي في عمل عسكري مشترك ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر، لطالما حلمت بذلك البابوية؛ وطالبت المغول مراراً بتنفيذه، غير أنه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فعندما تحمس المغول لهذا المشروع، كانت البابوية والغرب الأوربي قد أصبحوا عاجزين عن المشاركة بمشاريع جديدة على أرض بلاد الشام،

---

(١) السفارة الثالثة والرابعة، كان على رأس السفارة الثالثة " بورسكاريللون" الجنوي، وقد التقى بالسفارة الرابعة في إيطاليا في كانون الأول ١٢٩٠م وأصبح أحد أعضائها . انظر: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا واثرها على العالم الإسلامي، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٩.

(3) Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.349.

(٤) للإطلاع على المراسلات ومضمونها بالتفصيل، انظر، عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص١١٩وما بعدها.

ثم طويت بعد ذلك صفحة العلاقات المغولية الصليبية بهذا الشأن مع غازان الذي حاول كثيراً مع الغرب الأوربي، لكنه لاقى المصير نفسه، وقد انتشر الإسلام بين مغول الإيلخانية.

إذاً انشغل المغول عن جبهة المماليك بقضية التحالف الأوربي، وطول الأمل، ناهيك عن المشاكل الداخلية كثورة نوروز بن أراغون آقا في خراسان ضد أراغون وغيرها،[١] لذا لم يشهد عهد السلطان قلاوون ومعاصره أرغون أعمالاً عسكرية تذكر على الجبهة المغولية سوى بعض الغارات التي قام بها المماليك على بعض نواحي نهر دجلة.[٢]

وقد استغل السلطان قلاوون أوضاع المغول خير استغلال للعمل على تصفية بقايا الصليبيين في بلاد الشام، لذا سارع للانتقام من أرمن كيليكية لاشتراكهم بمعركة حمص، فهاجم الحدود الجنوبية لإرمينية الصغرى في صفر سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وعاث في بلادهم خراباً،[٣] كما أجبرهم على عقد هدنة سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م مدتها عشر سنوات، التزم بموجبها الأرمن بدفع جزية سنوية مقدارها مليون درهم، ويطلقون سراح الأسرى المسلمين عندهم، ويتوقفون عن القيام بأي تحصينات عسكرية وإطلاق حرية التجار المسلمين في بلادهم.[٤]

ثم قام بمهاجمة الاسبتارية في حصن المرقب، واستولى عليه في ربيع الأول سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، عندئذ اضطر حاكم طرابلس الصليبي للتنازل عن حصن مرقية للمماليك تفادياً لخطرهم، كما طلب صليبيو صور عقد معاهدة سلام مع السلطان لمدة عشر سنوات مقابل تقديم نصف دخل صور، وعدم تجديد حصون المدينة، وتوَّجَ السلطان قلاوون أعماله العسكرية بتحرير طرابلس في ربيع الآخر ٦٨٨هـ/١٢٨٩م عندما قام أهلها بنقض الهدنة والقبض على مجموعة التجار المسلمين، واستولى بعد ذلك على جبلة، وبيروت، وغيرها من القلاع.[٥]

---

[١] رشيد الدين: جامع التواريخ، ١٤٩/٢/٢، ١٥٦.

[2] Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.327.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٣٠-٣٢.

[٤] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٩٢-٩٣.

[٥] انظر الفصل الثاني، تحرير حصن المرقب، وتحرير طرابلس.

ولمواجهة التحركات الدبلوماسية للمغول وتحسباً من أي اتفاق أوربي مغولي قام السلطان بتعزيز العلاقات مع خان القبيلة الذهبية " تدان منكو" الذي استلم الحكم بعد بركة خان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فتم تبادل الرسل والوفود بين الطرفين مؤكدين على وحدة الموقف بينهما،[١] وفي هذه الأثناء عزز السلطان علاقاته مع القوى المسيحية الأوربية، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م جدد الاتفاق الذي كان قائماً مع الإمبراطور البيزنطي،[٢] كما وقع في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م معاهدة تجاريه مع الجنوية[٣] الذين كان لهم النفوذ الأقوى في طرابلس، وكان قد عقد معاهدة تجارية أخرى مع ملك أراغون سنة ٦٨٩هـ/١٢٨٩م، أجاز بمقتضاها ملك أراغون تصدير الخشب والحديد إلى مصر،[٤] وكان ذلك ممنوع من قبل البابوية لكي لا تحصل مصر على المواد اللازمة لصنع السفن، ناهيك عن رسائل ووفود كل من ملك فرنسا وقشتاله وصقلية.[٥]

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٤٦، المقريزي: السلوك، ١/٧٠٨-٧١١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٧٧/٧، حياة ناصر الحجي: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حولية مجلة كلية الآداب بالكويت، الحولية الثانية، ١٩٨١م، ص ١٤.

[٢] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٢٠٤، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٢٩/٧.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٦٥-١٦٩.

[٤] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٥٦-١٦٤.

[5] Land Pooles(s): A History Of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P.281.

رابعاً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل"٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م":

توفي السلطان المنصور قلاوون أثناء استعداده للمسير لتحرير عكا، واعتلى عرش السلطنة من بعده ابنه الأشرف خليل الذي تابع السير باتجاه عكا، فتمكن من تحريرها في جمادى الآخرة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وتنظيف الساحل الشامي من الصليبيين، مُنهياً بهذه السلسلة من الفتوحات؛ وفي أول سنة من حكمه، عصرَ الحروب الصليبية في بلاد الشام الذي دام قرابة قرنين.[1]

استغل الأشرف خليل فرصة خلو المنطقة من الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا في قبرص بعد طردهم من الساحل الشامي، وانشغال المغول في مشاكلهم الداخلية ليسدد ضربة قوية لحلفائهم الأرمن عندما استولى على قلعة الروم الحصينة على شط الفرات سنة٦٩١هـ/١٢٩٢م، وأسماها قلعة المسلمين، وكانت تضم حامية إرمينية، وأخرى مغولية.[2]

- **أوضاع مغول فارس:**

كان المغول أضعف من أن ينتقموا من المماليك، فأرغون إيلخان مغول فارس كان قد توفي في ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ/آذار١٢٩١م، واعتلى العرش من بعده أخوه كيخاتو (٦٩٠-٦٩٤هـ/١٢٩١-١٢٩٥م)،[3] الذي لم يكن يتمتع بأهلية الحكم، فاستمر حكمه أربع سنوات عُرف فيها بإسرافه وتبذيره وولعه بالخمر والنساء،[4] في وقت عانت فيه دولته من عجز مالي ضخم، ناهيك عن الأوبئة والأمراض التي انتشرت في سنوات القحط التي عاصرت حكمه،[5] بشكل لم يحل دون وقوع ثورة ضده

---

(1) انظر الفصل الثاني، تحرير عكا.

(2) انظر الفصل الثالث، تحرير قلعة الروم.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/١٦٢- ١٦٩.

(4) Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.377.

فهمي: تاريخ دولة المغول في إيران، ص١٨٣.

(5) Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.369-370.

فهمي: تاريخ دولة المغول، ص١٨٣. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٢٥٦-٢٥٩.

على يد فريق من الأمراء بقيادة بايدو حفيد هولاكو انتهت بقتله في جمادى الأولى ٦٩٤هـ/ نيسان ١٢٩٥م، واعتلاء ابن عمه بايدو لعرش الإيلخانية.[١]

اعتلى بايدو العرش وكان قد اعتنق المسيحية،[٢] ولكنه لم يتمكن من الصمود أمام ثورة غازان بن أرغون، فبعد ثمانية أشهر من حكمه فقط ثار غازان، وانتصرت ثورته، وقُتِلَ بايدو أواخر سنة ٦٩٤هـ/تشرين الأول ١٢٩٥م وحلَّ غازان محل بايدو في حكم مغول فارس، وكان غازان قد اعتنق الإسلام قبل ثورته في شعبان سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م.[٣]

وبذلك انقضى عهد السلطان المنصور قلاوون وعهد السلطان الأشرف خليل، ولم تقع وقعة تذكر بين المغول والمماليك، وكما سلف تعاقب على حكم مغول فارس بعد أبغا حتى قدوم غازان أربعة حكام هم على التوالي: أحمد تكدار، وأراغون، وكيخاتو، ثم بايدو، لم يمارس أيَّ واحدٍ منهم نشاطاً عسكرياً على جبهة المماليك، وجلُّ أعمالهم تمثلت بغارة قامت بها جماعة من المغول على الرحبة سنة٦٩١هـ/١٢٩٢م للسلب، ردتهم قوات دمشق على أعقابهم، كما أن كيخاتو أرسل إلى السلطان الأشرف يتهدده ويتوعده ويطالبه بمدينة حلب على إثر تحرير قلعة الروم،[٤] ولكن مع قدوم غازان حدثت تغيرات خطيرة على الجبهة المغولية- المملوكية.

- **الأوضاع في السلطنة المملوكية، والصراعات التي أعقبت مقتل الأشرف خليل.**

في أقل من عشرة أعوام اعتلى عرش السلطنة المملوكية أربعة سلاطين، قتل اثنان منهم، وطرد الثالث، ونفي الرابع مؤقتاً إلى إمارة الكرك، والحديث هنا ليس بصدد أوضاع السلطنة الداخلية، غير أنه لا بد من التعرض لذلك بسطور قلية على سبيل الاستهلال والتوضيح.

---

[١] رشيد الدين: جامع التواريخ، ١٨٨/٢/٢ . البدليسي(شرف خان): شرفنامه، تر: محمد علي عوني، القاهرة، ١٩٦٢م، ٢/ ١٥.

[٢] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩١/٨.

[٣] رشيد الدين: جامع التواريخ (تارخ غازان خان)، تر: فؤاد الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٢١، ١٢٥-١٢٧، البدليسي: شرفنامه، ١٥/٢، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٥٦/٩-٢٥٧، فهمي: تاريخ دولة المغول في إيران، ص١٨٨-١٨٩. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٢٦١-٢٦٥.

[٤] المقريزي: السلوك، ٨٧٦/١.

تم اغتيال السلطان الأشرف خليل في ١٢ محرم ٦٩٣هـ/كانون أول ١٢٩٣م، بعد مؤامرة دبرها نائب السلطنة بيدرا مع مجموعة من الأمراء من بينهم الأمير لاجين المنصوري، نائب دمشق من قبل، والأمير قرا سنقر النائب السالف لحلب.[١]

لم ينجِ بيدرا بفعلته، فقد أخفقت محاولات تنصيبه سلطاناً وقُتل،[٢] واستقر الرأي على تسلطن محمد بن قلاوون ابن التسع سنوات، ولُقب بالملك الناصر، وكان ذلك في ١٦ محرم ٦٩٣هـ/كانون الأول ١٢٩٣م، وتم تنصيب الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزيراً ومدبراً للسلطنة.[٣]

وعلى أرض الواقع يمكن النظر إلى عملية تنصيب الناصر محمد على أنها إجراء مؤقت لإنهاء الأزمة التي أحدثها مقتل الأشرف خليل، فالناصر محمد كان غلاماً في التاسعة من عمره؛ وقيل في الثامنة من عمره، ولم تكن له شخصية مقنعة لأمراء عظام دوخوا المغول والصليبيين، وأكثر من ذلك فإن مبدأ الوراثة لم يكن آنذاك مبدأ يُعمل به، فالمماليك كأفراد يرون أنهم متساوون بالحقوق والواجبات، فجميعهم تم شراؤهم من أسواق الرقيق، وتنشأتهم بالطريقة نفسها، وعرش السلطنة مفتوح أمام الجميع، "والدنيا لمن غلب"، والأشرف خليل عندما خَلَفَ أبيه واستلم السلطنة، لم يكن ذلك عملاً بمبدأ الوراثة، وإنما عائدٌ إلى قوة شخصيته، ومهارته، بالإضافة إلى أنه كان نائب السلطنة، على هذا لم يكن للناصر محمد من السلطنة "إلا اسم الملك من غير زيادة على ذلك"،[٤] والصراع على السلطنة لم ينتهِ

---

[١] أبو الفداء: المختصر ٢/ ٣٦٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٤١/٨، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٦٧، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٤٧-٣٤٨. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٠٤-٤٠٥. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٣٤٦. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٥٩.

[٢] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٢٤٤-٢٤٥. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٦٨. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٦٦. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٦٣-٢٦٤. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٣٤٧.

[٣] المقريزي: السلوك،٧٩٤/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٤١/٨، أبو الفداء: المختصر، ٣٦٦/٢-٣٦٧، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٧٢/٨، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٦٩. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٦٧-٢٦٨. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٣٤٧. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ١٣٩.

[٤] المقريزي: السلوك،٧٩٤/١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩٢/٨-١٩٣.

بتمليكه، بل استمر على أشده بين نائب السلطنة كتبغا، والشجاعي وزير الدولة، وانتهت المعركة السياسية بمقتل الشجاعي في صفر ٦٩٣هـ/ كانون الثاني ١٢٩٤م.[١]

أما الآن فقد خلت الساحة أمام كتبغا، ولم يبقَ أمامه من منافس على السلطنة، وأسهل ما يمكنه فعله هو خلع الناصر محمد، وبعد تشجيع وإغراء من الأمير حسام الدين لاجين[٢] أقدم كتبغا على خلع الناصر محمد بعد أن أقنع القضاة والأمراء والخليفة العباسي بأن البلاد تحتاج إلى سلطان رشيد يخافه الجنود وتخشاه الرعية، وضرب لهم مثلاً على فساد حكم الناصر؛ الثورة التي قام بها المماليك الأشرفية،[٣] وما ترتب عليها من فوضى؛ إذ " انحرف ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه".[٤]

خُلِعَ السلطان محمد في ١١ محرم ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وحُجر عليه مع أمه في إحدى غرف القلعة (إلى أن تسلطن لاجين سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م فنفاه مع أمه إلى الكرك)، وبعد خلع الناصر محمد تسلطن كتبغا في اليوم نفسه، وتلقب بالملك العادل، وأصبح الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة،[٥] ودام حكم زين الدين كتبغا سنتين لم يشهد أي اصطدام على الجبهة الشرقية، وامتاز عهده بكثرة الأوبئة والأمراض والفقر والغلاء، وتناقص فيضان النيل، فوصف ابن الفرات سلطنته بأنها "سلطنة تعيسة، ووقت غير مناسب، لما اتفقت في أيامه من الأمور المؤلمة لساير الخلق والرعية في غالب مملكته

---

[١] المقريزي: السلوك، ١/١/٨٠١-٨٠٢. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٧٣ وما بعد. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٦٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٥٣.

[٢] كان هذا أحد مدبري عملية اغتيال الأشرف، وبواسطة من صديقه كتبغا تم العفو عنه من قبل الناصر محمد، وسيصبح –كما سيتبين سلطاناً– بعد تنكره لصديقه كتبغا. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٤٩/٨. البرزالي: المقتفي، ٣٤٧/٢.

[٣] قام المماليك الأشرفية، أي مماليك السلطان الأشرف خليل بثورة بالقاهرة بسبب العفو عن لاجين، انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٤٩/٨. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩١/٨، النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٨١.

[٤] المقريزي: السلوك، ١/٨٠٦. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩١/٨.

[٥] المقريزي: السلوك، ١/٨٠٦-٨٠٧. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩١/٨-١٩٣. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٢٥٣، ٢٦٤. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٢٢-٤٢٣. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٣٨١. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٠١. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٨٣.

بالديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية "،[1] ومن الطبيعي أن يكره الناس حكمه الذي اقترن بكل هذه النكبات، فتم خلعه على يد نائبه وصنيعته لاجين، إثر خلاف دار بينهما أثناء عودة الملك العادل كتبغا من دمشق في زيارة قام بها لبلاد الشام، وكان ذلك في منطقة العوجاء بفلسطين، وقيل في اللجون، وتمكن العادل من الفرار من دهليزه بعد أن قصده لاجين وبقية الأمراء لقتله، وعاد إلى دمشق، وبفلسطين اتفق الأمراء على تنصيب لاجين سلطاناً بشرط " أن يكون معهم كأحدهم وأن لا ينفرد برأي دونهم، وأن لا يبسط أيدي مماليكه فيهم، ولا يقدمهم عليهم "، وعلى ذلك أقسموا له على الولاء والطاعة، وتلقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين، وذلك في محرم ٦٩٦هـ/تشرين الثاني ١٢٩٦م، وخطب له على منابر الشام ومصر،[2] أما بالنسبة للعادل زين الدين كتبغا، فإنه لما تحقق عنده تسلطن لاجين، ووضح له عدم جدوى مقاومته، خلع نفسه واعترف بسلطنة لاجين، حيث قال: " الملك المنصور خشداشي، وأنا في خدمته وطاعته "،[3] ثم ولاه قلعة صرخد على ألا يكاتب أحداً، ولا يشاور أحداً، ولا يستفسر أحداً.[4]

كان لاجين في الأصل مملوك اشتراه المنصور قلاوون، وقربه منه، وزوجه من إحدى بناته، وأعطاه نيابة دمشق، فلما تسلطن الأشرف خليل عزله عن دمشق، وكان لهذا الأمر أثر في نفس لاجين أدى إلى اشتراكه في عملية اغتياله، كما تقدم، وسارت الأحداث إلى أن تسلطن لاجين، وسار في حكمه مسيرة حسنة في إصلاح أمور الرعية، لكنه لم يتحرر من سيطرة مماليكه ولا سيما منكوتمر، الذي كان مكروهاً ومرفوضاً من معظم الأمراء، فالأمراء عندما أقسموا لـ لاجين اشترطوا عليه ألا يستسلم لإرادة مماليكه، وجعلوه أساساً لملكه، ولم يكن ذلك إلا عن معرفة بطبيعة لاجين ومماليكه، وعلى أرض الواقع

---

[1] تاريخ ابن الفرات، ٨/ ١٩٣. وانظر أيضاً: ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٥٧-٣٦٥. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١٧٨/١. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٣٨١، ٣٩٠، ٤١٤، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٣، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٨٢.

[2] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/٢٢١-٢٢٣، المقريزي: السلوك،١/٣/٨٢٢-٨٢٣. أبو الفداء: المختصر،٢/٣٧١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٨/٦٤-٦٥. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/٤٣٢-٤٣٣.

[3] المقريزي: السلوك، ١/٨٢٤.

[4] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/٢٢٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٨/ ٦٦.

لم يلتزم لاجين بما أقسم، واستسلم كلياً لنائبه منكوتمر، وزاد الطين بلّة عندما اختاره نائباً للسلطنة؛ إذ بدأ منكوتمر يتصرف بشكل مستقل، ويسعى للتخلص من معارضيه وإزاحتهم عن طريقه بطرق شتى، فكلفهم بعمل خارجي؛ وهو غزو إرمينية الصغرى، كما حاول قتلهم، فأرسل إلى نائب حلب بلبان الطباخي يأمره بالتخلص من بعض أمراء الشام، مما أدى إلى فرار بعضهم إلى المغول، أما القضية التي كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير فهي قضية الأمير طغجي الذي عاد من الحجاز في صفر ٦٩٨هـ/١٢٩٩م إلى مصر، فما كان من منكوتمر إلى أن أمره بالرحيل إلى طرابلس ليتخلص منه، وعلى الرغم من توسط الأمراء له عند لاجين، وقبول الأخير بوساطتهم مبدأياً، إلا أنه تراجع وخضع لأمر منكوتمر، فما كان من الأمراء، بعد أن طفح الكيل، إلا أن تخلصوا من لاجين ومنكوتمر بقتلهم في ١٠ ربيع الآخر ٦٩٨هـ/١٢٩٩م. [1]

---

[1] انظر: النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣٥٧-٣٦٠. أبو الفداء: المختصر،٢/٣٧٠-٣٧٨، المقريزي: السلوك، ١/٨٣٣ مع حاشية ٤، ص٨٥٢ مع حاشية ٢، ص ٨٥٥-٨٥٧، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٤، ١٠٧-١٠٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،٨/ ٨٥-٨٦، ١٠١-١٠٢. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٥٧٣-٥٧٤.
Howorth: History of the Mongols، Part 3، P. 431-437.

خامساً: المواجهات العسكرية المملوكية – المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد الناصر محمد بن قلاوون، سلطنته الثانية والثالثة"٦٩٨-٧٤١هـ/ ١٢٩٩-١٣٤١م":

عصفت الفتنة في البلاد وانتهت بمقتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر كما تقدم، ليصبح عرش السلطنة شاغراً، بعد أن أخفقت محاولات الأمير كرجي – الذي قتل السلطان لاجين – في تنصيب نفسه، وانتشرت الفوضى، وقُتل الأمير كرجي بعد أن حاول تنصيب نفسه بقوة السلاح سلطاناً على مصر، واستقر الرأي بعد طول مشاورة على استدعاء الناصر محمد من منفاه في الكرك ليكون سلطاناً، ومرة أخرى كان للصراعات السياسية وتساوي الأطراف المتصارعة على الحكم سبباً في اختيار الناصر محمد سلطاناً على مصر، فهو كان بعيداً كل البعد مكاناً ونفوذاً عن حلبة الصراع السياسي في مصر، ولم يكن يتوقع العودة إلى السلطنة ثانية، لذلك لما ذهب الوفد من القاهرة إلى الكرك ليستدعيه لحكم مصر سُرَّ سروراً عظيماً، بل أمه ظنت أن يكون ذلك مكيدة، ثم جلس على العرش في ٦ جمادى الأولى ٦٩٨هـ/شباط ١٢٩٩م، ورتب الأمير سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير أستادار، والأمير حسام الدين أتابكاً.[1]

١- غزو غازان لبلاد الشام:

لم يكن السلطان الناصر يباشر أعماله حتى وردت الأخبار بعزم المغول على اجتياح بلاد الشام، وقد سلفت الإشارة إلى أن السياسة التي اتبعها السلطان لاجين باستسلامه الكلي لرغبات نائبه منكوتمر كان من أهم نتائجها هروب بعض كبار الأمراء، مثل الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين الألبكي، والأمير سيف الدين عزاز، والأمير قبجق نائب دمشق، وقد لجأ هؤلاء – بعد أن حاول منكوتمر التخلص منهم لكي يصفو له الجو–[2] إلى غازان الذي أحسن استقبالهم وأغدق عليهم الأموال والهبات،[3]وبالتالي أحسن استخدامهم.

---

[1] انظر: المقريزي: السلوك، ١/ ٨٦٥ وما بعد. النويري: نهاية الأرب، ٣٦٣/٣١ وما بعد. العيني: عقد الجمان، ٣٤٨/٣ ومابعد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١٥/٨-١١٦. ابن أيبك: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٦٠م، ص ٦-٧. البرزالي: المقتفي، ٢/ ٥٧٤-٥٧٥. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية. ص١٥٥.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩٦/٨، المقريزي: السلوك، ٨٥٣/١-٨٥٥، أبو الفداء: المختصر، ٣٧٤/٢، زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٤٧-٤٨. النويري: نهاية الأرب، ٣٥٢/٣١ وما بعد.

[3] المقريزي: السلوك، ٨٧١/١. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٤٤/٢-٤٤٥. النويري: نهاية الأرب، ٣٥٦/٣١. البرزالي: المقتفي،٢/ ٥٧٣-٥٧٤.

فقدوم هؤلاء – وهم من كبار الأمراء – شكل عاملاً مشجعاً لغازان للإقدام في تنفيذ خطته المبيتة سلفاً؛ وهي غزو بلاد الشام، ناهيك عن أن هؤلاء زينوا لغازان اقتحام بلاد الشام ووعدوه بالمساعدة، وعرّفوه بمكامن الضعف عند المماليك،[١] ليس هذا فقط؛ بل دربوا المغول على فنون القتال المملوكية.

وشروعاً في التنفيذ كان غازان قد أرسل قائده سلامش بن باجو على رأس جيش مكوّن من خمسة وعشرين ألف فارس إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى للانطلاق من هناك مع جيوش سلاجقة الروم إلى بلاد الشام عن طريق إرمينية الصغرى، على أن يسير غازان على رأس جيش مكون من سبعين ألف جندي إلى بلاد الشام من ناحية ديار بكر، ومن بعد عبور الفرات ومهاجمة البيرة والرحبة وقلعة المسلمين (قلعة الروم من قبل)، "يكون اجتماعهم على حلب، فإن التقاهم أحد إلتقوه، وإلا دخلوا البلاد الشامية".[٢]

وفعلاً وصل سلامش إلى بلاد الروم، وهناك راودته نفسه بالانفراد بحكمها والاستقلال عن سيده غازان، ولا سيما أنه على رأس جيش ضخم، فأعلن استقلاله وتملكه لبلاد الروم (آسيا الصغرى) وخلع على أمرائها، وانضم إليه حاكم الإمارة القرمانية، ثم أرسل إلى السلطان لاجين– قُبيل مقتله – يطلب المساعدة لقتال غازان.[٣]

غير أن المساعدة التي طلبها سلامش لم تصله، وربما يعود السبب في ذلك إلى سوء الأوضاع السياسية في القاهرة، أما بالنسبة لغازان، فعندما ثبت له خروج سلامش وتمرده، عدَل عن خطته في

---

[١] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٤٥، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧.

Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.434.

[٢] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٨، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٥٨-٤٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١٧/٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ٨٧٦/١، ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٨، النويري: نهاية الأرب، ٣٧٣/٣١.

مهاجمة بلاد الشام، وأراد تدارك أمر سلامش قبل استفحاله، فجهّز له جيشاً بلغ قرابة خمسة وثلاثين ألف فارس برئاسة بولاي، وعاد هو إلى تبريز.[(١)]

التقى بولاي مع سلامش في سيواس في رجب ٦٩٨هـ/ أيار ١٢٩٩م، وبعد أن انحاز إلى بولاي معظم عسكر المغول والروم والتركمان الذين كانوا مع سلامش؛ فرّ هذا الأخير هارباً إلى دمشق، فوصلها في ٥ شعبان ٦٩٨هـ/ حزيران ١٢٩٩م، وكان السلطان لاجين قد أمر بإرسال خمسة عشر ألف فارس لنجدة سلامش، لكنه بعد سماعه خبر هزيمة سلامش تراجع عن أوامره، أما سلامش فقد وصل مصر في ١٥ رمضان، وبعد إقامة استمرت ثمانية أيام في القاهرة عاد إلى دمشق، وقد زوده السلطان بقوة كي ترافقه إلى بلاد الروم ليحضر أهله ثم يعود، لكن بمجرد وصوله إلى إرمينية الصغرى خرج عليه التتار وقتلوه.[(٢)]

وهنا تجب الإشارة إلى أن هذا الهجوم المغولي الذي كان مقرراً على بلاد الشام رافقه هجوم صليبي بحري على ساحل بلاد الشام (بيروت) في العشر الأول من شعبان ٦٩٨هـ/١٢٩٩م لكن الهجوم أخفق بفعل الريح التي فرقتهم وأغرقت بعض سفنهم.[(٣)]

أ- وقعة وادي الخزندار، واحتلال دمشق ٦٩٩سنة هـ/١٢٩٩م:

تعددت الأسباب التي دعت غازان لمهاجمة بلاد الشام ولعل من أهمها:

- السياسة المغولية التي تعد التوسع غرباً باتجاه المتوسط ضرورة استراتيجية، وغازان – كغيره من خانات المغول – سار على سياسة الدولة المغولية.

[(١)] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٦٠-٤٦١. النويري: المصدر السالف، ٣٧٤/٣١. المقريزي: السلوك، ٨٧٧/١.

[(٢)] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٠-١١، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٤٦٢-٤٦٤، النويري: نهاية الأرب، ٣٧٤/٣١-٣٧٥. المقريزي: السلوك، ٨٧٧/١.
Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.427-428.

[(٣)] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص١٢، المقريزي: السلوك، ٨٧٥/١، وفي نهاية الأرب للنويري في العشر الآخر من شعبان، ٣١/ ٣٧٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١٧/٨.

■ مبادرة المماليك باتخاذ موقف عدائي من غازان عندما رحبوا بانشقاق سلامش وساعدوه ضد غازان، ولا سيما أن سلامش قام بنهب ماردين التابعة للمغول بعسكر حلب.[١]

■ وجود نخبة من أمراء المماليك عند غازان، على أمل أن يُحدث هذا انشقاقاً في صفوف العسكر المملوكي عند اللقاء.

■ كما أنه حانت الفرصة للانتقام من المماليك الذين أخذوا قلعة الروم التابعة للمغول والتي كانت محكومة من قبل الأرمن، جاعلين منها إحدى قلاعهم القوية.

■ وجد غازان في الاضطرابات السياسية التي تعيشها القاهرة آنذاك عاملاً مشجعاً على غزو الأراضي المملوكية.

■ ويضيف رشيد الدين سبباً آخر؛ وهو الغارات التي كان يشنها المماليك على ناحية الروم – آسيا الصغرى – وديار بكر، " فيقطعون الطريق، ويحرقون الغلات، ويشقون على المسلمين ".[٢]

كما أن غازان حاول زَجّ الأوربيين إلى جانبه في هذه الحرب، فقام بمراسلة ملك قبرص، ومقدمي الداوية والإسبتارية المقيمين بقبرص عن طريق سفيره إيسول البيزي (Isol of piza) ودعاهم للانضمام إلى حملته، لكن هؤلاء رفضوا طلبه،[٣] فاعتمد على حلفائه الطبيعيين: الأرمن والكرج، فساروا معاً إلى بلاد الشام، وكانت الاستعدادات قوية إذ جُهِزَ كل مقاتل في الجيش بمؤنة تكفيه لستة أشهر، وبلغ تعداد قوات غازان ما يقارب تسعين ألف.[٤]

بالمقابل قرر السلطان الناصر المسير إلى بلاد الشام لملاقاة المغول والتصدي لهم، وبالفعل حدث اللقاء بين الطرفين في السابع عشر من ربيع الأول في مجمع المروج في وادي الخزندار على مقربة من سلمية ما بين حمص وحماه شرقاً.[٥]

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٨٠-٣٨١. المقريزي: السلوك، ٨٧٨/١.

[٢] رشيد الدين: جامع التواريخ(تاريخ غازان)، ص ١٥٩. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧.

[٣] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٣٣.

[4] Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.435-436.

[٥] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٧٠، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢٢٠/١، العيني: عقد الجمان، ١٠/٤، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ١٥٧، المقريزي: السلوك، ١/ ٨٨٦. لكن النويري يذكر أن الوقعة كانت في ٢٨ ربيع الأول، نهاية الأرب: ٣٨٤/٣١. ويقع وادي الخزندار مابين السلمية والسعن.

بالنسبة لأوضاع الجيش المملوكي فقد كانت سيئة لأسباب عديدة أهمها: لم تكن استعدادات الجيش قوية، فذكر ابن أيبك أنه "م يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار، ولا كأنهم عندهم عدو، بل مُشمرين الذيول كانحدار السيول لملتقى العدو المخذول"،[١] ناهيك عما أحدثته طائفة الأوراتية من فتنة بين صفوف الجيش وأمرائه،[٢] وجاء مؤرخ المغول رشيد الدين على ذكرها بأنها " أنباء حسنة "، تفيد في وقوع الخلاف في العسكر المصري. [٣]

قبل اللقاء عمد المغول إلى حيلة كان لها أثر كبير في انتصارهم، فقد أشاعوا خبر عودتهم وانسحابهم بعد أن علموا ما عليه الجيش المملوكي من كثرة وقوة، وظنَّ المماليك أن ذلك حقيقة، وأن المغول عجزوا عن لقائهم،[٤] ويعلل رشيد الدين أن هذه المخادعة أقدم عليها غازان بعد علمه أن المماليك نزلوا في المكان الذي كان فيه اللقاء مع منكوتمر قبل بضعة أعوام (معركة حمص ٦٨٠هـ)، وهم بذلك اختاروا المكان الأفضل، وجعلوا المكان الرديء لجند غازان، فرأى أن المصلحة تقتضي بعدم المواجهة وهم على هذه الحال، فأفسد عليهم خطتهم بهذه الحيلة،[٥] ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الخبر–خبر انسحاب المغول– في استعدادات وحماسة الجيش المملوكي.

---

[١] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٥.

[٢] الأوراتية أو الأويراتية: طائفة مغولية سميت بذلك نسبة إلى قبيلة أويرات، قدمت إلى مصر أيام السلطان كتبغا سنة ٦٩٥هـ/ بسبب خلافات بين أمرائهم وغازان، لم يكونوا مسلمين، استقبلهم السلطان وأكرمهم وأقرّ أمرائهم، مما سبب مضايقات لباقي المماليك وللشعب، وأسكن معظمهم على ساحل بلاد الشام. انظر، النويري: نهاية الأرب، ٢٩٦/٣١–٢٩٩، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: ٢٠٥/٨. أما بالنسبة للفتنة التي أحدثوها فقد كانت في تل العجول بفلسطين عندما أقدم بعض أمرائهم على قتل السلطان والأميرين سلار، وبيبرس، لإعادة السلطنة للعادل كتبغا، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، وحكم على أمرائهم الذين شاركوا بالفتنة بالقتل. انظر: العيني: عقد الجمان، ٤٦٣/٣–٤٦٨، المقريزي: السلوك، ٨٨٣/١–٨٨٤، النويري: نهاية الأرب، ٣٨٣/٣١، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٦٨.

[٣] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٠.

[٤] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٦.

[٥] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٠.

كما أن المماليك ارتكبوا قبل اللقاء أخطاء فادحة، منها أنه نودي في الجنود برمي الرماح في الأرض، والاعتماد على الضرب بالسيوف، هذه الرماح التي رميت بالأرض عرقلت سير الخيول وأصابت حوافرها بضرر كبير.[١]

والجديد في المعركة هي خطة غازان التي كان لها أيضاً أثر عظيم في انتصار المغول وهزيمة المماليك، فالمتعارف عليه في المعارك آنذاك أنه عندما يبادر أحد الأطراف بالهجوم؛ يقوم الطرف الآخر بالتقدم لصد هذا الهجوم، وما حصل في وقعة الخزندار أن غازان أمر جيشه بعدم التقدم إذ ما بادر الجيش المملوكي بالهجوم، وذلك للتخفيف من حدة هجمة الفرسان وإضعاف الخيل، ولكي يُمكن رماته من رمي السهام فذلك أثبت لهم.[٢]

وبالفعل بادر المماليك بالهجوم، ولم يتحرك المغول، فلما شاهدوا ذلك فلّ عزمهم، حتى إن النفط الذي كان مع الزراقين في مقدمة الجيش نفد وانطفأ،[٣] وعندما تم اللقاء كانت سهام المغول قد فعلت فعلها في الجيش المملوكي.

على الرغم من اضطراب صفوف العسكر المملوكي غير أن المصادر تذكر أن ميسرة المماليك صدمت بعنف ميمنة المغول وقتلت منهم حوالي خمسة آلاف[٤] لكن الميمنة كُسرت أمام ميسرة المغول، وتمكن غازان – بعد أن عزم على الفرار– من تدارك انكسار ميمنته عندما أردفها بقوة مغولية لم تشارك في الصدمة الأولى، فدارت الدائرة على المماليك وولوا منهزمين،[٥] وبدأت عمليات المطاردة، وعندما

---

[١] العيني: عقد الجمان، ١١/٤. المقريزي: السلوك، ٨٨٦/١.

[٢] العيني: عقد الجمان، ١٣/٤-١٤، المقريزي: السلوك، ٨٨٧/١.

[٣] الزراقون جمع زراق، وهم الجنود الذين يحملون المزراق، والمزراق هو عود من الخشب مجوف بطول الرمح وفيه سنان، وفي جوفه ماء حارق (نفط)، ويكون قصد الزراق وجه الخصم أو الدابة. انظر: عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، القاهرة، (د. ت)، ٤٩/٢. وهنا كان تقدير الزراقون أن يلتقوا مع المغول في منتصف الطريق، فتم إشعال النفط حسب التقدير، ولكن على بعد المسافة وثبات العدو فرغ النفط وبردت الهمة. العيني: عقد الجمان، ١٤/٤.

[٤] المقريزي: السلوك، ٨٨٧/١.

[٥] النويري: نهاية الأرب، ٣٨٤/٣١-٣٨٥. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٥٧.

خيَّم الليل توقف المغول عن الملاحقة خوفاً من أن تكون هذه العملية مكيدة، وكان توقفهم – على قول ابن أيبك – لطفاً من رب العالمين.[1]

تشتتت فلول المماليك سالكة سبلاً مختلفة، وتوجه السلطان الناصر بمن معه إلى بعلبك التي أغلقت أبوابها في وجههم، فعرجوا إلى دمشق ودخلوها أول ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، ومنها ساروا إلى مصر فوصلوها في ١٢ ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م.[2]

وبعد هزيمة المماليك سار غازان إلى حمص فدخلها ونهب الخزائن السلطانية،[3] ومن هناك توجه إلى دمشق فدخلها في العاشر من ربيع الآخر، وكان قبل دخوله إلى دمشق قد اجتمع مع بعض علماء دمشق ووعدهم بالأمان لأهالي المدينة، كما دخل إلى دمشق قبله بثلاثة أيام أحد أمراء المغول اسمه إسماعيل التتري، قرأ في الجامع الأموي فرمان غازان الذي يذكر فيه أنه قدم لإنهاء عدوان المماليك، وإزالة الفساد، وإقامة العدل والسلام، وتوعد بعدم التعرض لدمشق وأهلها بسوء، ووعد بالأمان حتى لليهود، والصابئة، والنصارى.[4]

لم يلتزم غازان بوعوده، بل كَثُرَ السلب والنهب والاعتداء على الأهالي والقرى، حتى وصل أذاهم إلى القدس الشريف والخليل وغزة، وعانت دمشق منهم كثيراً، في حين استعصت عليهم قلعتها،

---

[1] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٧.

[2] العيني: عقد الجمان، ٢٥/٤، المقريزي: السلوك، ٨٨٨/١- ٨٩٦. ابن كثير: البداية والنهاية،٦/١٤-٧. النويري: نهاية الأرب، ٣٨٥/٣١-٣٨٦. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٢-١٦٣. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٨١. البرزالي: المقتفي، ٢٣/٣. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ١٥٧-١٥٨. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١١١. زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك، ٥٨-٥٩. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٧٠/٢.

[3] النويري: نهاية الأرب، ٣٨٦/٣١-٣٨٧.

[4] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٢٠-٢٣، العيني: عقد الجمان، ٣٠/٤، المقريزي: السلوك،١٠١١/١، زيتر سين: سلاطين المماليك، ص ٦٦، النويري: نهاية الأرب،٣٨٨/٣١. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٢٨.

ورفض الأمير علم الدين سنجر المعروف بأرجواش نائب القلعة تسليم القلعة، على الرغم من كثرة التوسلات والتهديدات، وقد أخفقت كل المحاولات المغولية العسكرية للاستيلاء عليها.[1]

ب- الموقف الأوربي من احتلال دمشق:

وعلى الرغم من إسلام غازان إلا أنه ظل مغولياً يحمل صفات أسلافه، فبادر إلى التحالف مع الغرب الأوربي جرياً على عادة من سبقه من حكام مغول فارس، ولكن الجديد في الأمر أنه مسلم، ويحكم دولة ذات أغلبية مسلمة، ويسعى لمحالفة دول صليبية ضد أبناء دينه، وكانت المبادرة قد بدأت من غازان عندما أرسل قبل احتلاله لدمشق —كما تقدم الحديث- رسالة إلى ملك قبرص ومقدمي الداوية والاسبتارية يعرض عليهم الانضمام إلى حملته، لكن عرضه هذا قوبل بالرفض على الرغم من تكراره.[2]

غير أنه لما نجح في احتلال بلاد الشام تبدل الموقف الأوربي كلياً، وبدا الأمل عند الصليبيين، فسارع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣م) إلى إرسال دعوات لأمراء أوربا والقادة ورجال الدين- الذين كانوا موجودين في عكا قبل سقوطها- بالرحيل إلى الأماكن المقدسة بعد أن استعادها حليفهم غازان؛ والذي وصلت سفارته إلى روما في صيف ١٣٠٠م تَعْرِضُ التحالف على الأوربيين.[3]

أما الرد العملي الأوربي الذي تُرْجِمَ على أرض الواقع؛ فقد اقتصر على رسالة أرسلها جيمس الثاني ملك أراغون (١٢٩١-١٣٢٦) مؤرخة في ١٨ أيار ١٣٠٠م – قبيل رحيل المغول عن الشام – تحمل عنوان "إلى الملك الأقوى والأعظم غازان ملك المغول، ملك ملوك كل الشرق"، يعرض فيها

---

[1] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/٢٢٠، العيني، عقد الجمان، ٤/٤١ وما بعد، المقريزي: السلوك، ١/٨٩٦. النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣٩٥ وما بعد. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/٤٧١، ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٨ وما بعد. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٢٩٨-٢٩٩. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٢٩-٣٣، ٤١-٤٤، ٦٣. لم يذكر مؤرخ المغول رشيد الدين عمليات السلب، بل على العكس تحدث عن الرعاية والعناية التي أولاها غازان للمدينة، حتى أنه عندما قام بعض الجنود (الأرمن والكرج) بعمليات سلب في الصالحية، عاقبهم غازان ورد الأسرى. انظر، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٤-١٦٥.

[2] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٣٣.

[3] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٣٤.

المساعدة فيما يحتاجه غازان من سفن، ومؤن، ومتطوعة، وخيل، مقابل إعطائه خُمس الأراضي المقدسة التي استولى عليها حديثاً، وما سيسيطر عليه مستقبلاً، والسماح لرعايا جيمس بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أي ضرائب ورسوم.[١]

ولم تتعدَّ هذه الوعود الأوربية؛ مع شروطها التعسفية، أن تكون حبراً على ورق، لأنه في الحقيقة لم يكن بمقدور ملوك أوربا تنفيذها، فمشاكلهم الداخلية أقوى من أن تسمح لهم بعمل خارجي.

ج- رحيل غازان وقواته عن بلاد الشام:

نهب غازان بلاد الشام، وقيل إن مجموع ما حمله إلى خزانته من دمشق فقط، يقارب ثلاثة ملايين وستمئة ألف درهم، وما حصل عليه أمراؤه قُدر بمليونين ومئتي ألف درهم، هذا فقط من الأموال، ناهيك عما سُلب من غلال وسلاح وخيول ودواب.....إلخ،[٢] وبعد مدة قرر غازان مغادرة بلاد الشام متوجهاً إلى بلاده،[٣] بعد أن ولى نيابة دمشق للأمير قبجق، ونيابة حماه وحمص وحلب للأمير بكتمر، ونيابة صفد وطرابلس والساحل للأمير إلبكي، وترك مع كل نائب قوة مغولية، وكلهم يخضعون لقطلوشاه مقدم التتار في بلاد الشام، وقد ترك معه ستين ألف مقاتل، على أنه سيعود إليه في الربيع القادم لمتابعة المسير إلى الديار المصرية.[٤]

---

[1] Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.488.

[٢] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ٢٢٠، البرزالي: المقتفي، ٣/ ٤٥-٤٦. المقريزي: السلوك، ١/ ٨٩٤. زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٧١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨/ ١٢٧. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٩٨. ويذكر أن ما حصل عليه الأمراء والشيوخ الذين كانوا معه يساوي مليونين ومائتي ألف درهم.

[٣] بالنسبة لتاريخ رحيله فهو إما ١٢ جمادى الأولى، البرزالي: المقتفي، ٣/ ٤٣. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٣١، النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٣٩٧. أو ١٥ جمادى الأولى، العيني: عقد الجمان ٤٥/ ٤٥، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٩٤.

[٤] البرزالي: المقتفي، ٣/ ٤٣، ٤٤، ٥٨، العيني: عقد الجمان، ٤/ ٤٥، المقريزي: السلوك، ١/ ٨٩٥، حاشية ٣. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٨١-٤٩٠. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٣١. النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٣٩٧-٣٩٨. زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٧٠.
Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.486.

وبعد رحيل غازان بعشرة أيام تقريباً (٢٣ جمادى الأولى/ ١٤ شباط ١٣٠٠م)، لحق به نائبه قطلوشاه بعد أن أخفق حصاره لقلعة دمشق، فأقنعه نائب الشام قبجق بتركها وأعطاه كمية كبيرة من الأموال – على سبيل الرشوة – جمعها له من الناس، ثم لحق به القائد بولاي في ١٢ رجب، وقد كان على رأس قوة مغولية صغيرة تتحرك في الأغوار لشن الغارات؛ إذ وصلوا بغاراتهم إلى غزة وقتلوا في جامعها خمسة عشر شخصاً من المسلمين،[1] فالتقى قطلوشاه مع غازان في الموصل في ١٥ رجب، وأخبره أن قبجق والي الشام وأتباعه خالفوه وخرجوا عن طاعته، لكن غازان لم يتمكن من العودة بسبب ما بلغه من تمرد بعض أمرائه.[2]

وبتكامل خروج التتار من بلاد الشام تنتهي حملة غازان الأولى، وقد أفلست من كل النتائج السياسية والعسكرية على الرغم من الانتصار الساحق الذي حققه في وادي الخزندار، إذ لم يسيطر على أي قلعة من القلاع الشامية، بل امتنعت عليه بجملتها اقتداءً بقلعة دمشق، ثم أقيمت الخطبة في يوم الجمعة باسم الناصر محمد في ١٧ رجب ٦٩٩هـ/نيسان ١٣٠٠م بعد انقطاع دام مئة يوم.[3]

وعقب هزيمة الخزندار عاد السلطان الناصر إلى مصر، وبدأ بجمع جيوشه وتجهيزها للمسير إلى بلاد الشام لطرد المغول، وواجه في سبيل ذلك مشاق عديدة تغلب عليها، ثم أذن للعساكر بالمسير، وبينما هو كذلك وصلته الأخبار – وهو بالصالحية – التي تفيد برحيل المغول من بلاد الشام، وبعد نقاش قُرِّرَ أن يعود السلطان إلى القاهرة، ويتابع الجيش مسيره إلى بلاد الشام بقيادة الأميرين: سلار وبيبرس الجاشنكير" لتدبير البلاد، وإصلاح ما استحكم بها من الفساد "،[4] وكانت الرسائل قد سُيرت

---

[1] النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣٩٩–٤٠١، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٢٩٩. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٦٨. المقريزي: السلوك، ١/٨٩٦.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٥.

[3] النويري: نهاية الأرب، ٣١/٤٠١، العيني: عقد الجمان٤/٤٧، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٠٦، ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٣٧، المقريزي: السلوك،١/٩٠٠. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٧٣. تاريخ سلاطين المماليك، ص٧٩.

[4] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٣٠٠. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٧٨، ٨٠.

إلى الأمراء الذين دخلوا في طاعة غازان، وهم قبجق، وبكتمر، وإلبكي، تسترضيهم وتحثهم على العودة إلى الخدمة والطاعة، فكان جوابهم بالموافقة.(١)

وصل الجيش المصري إلى دمشق في ١٠ شعبان ٦٩٩هـ/ أول مايو ١٣٠٠م، وأقام بها مدة، أجروا خلالها الكثير من الترتيبات الإدارية إلى أن استقرت أحوالها وعادت إلى سالف عهدها، ثم تركوها عائدين إلى مصر ٨ رمضان من السنة نفسها.(٢)

د- حملة غازان الثانية على بلاد الشام:

عَلِمَ غازان بخروج الشام من يده، وعودة قبجق وزملائه لخدمة السلطان الناصر، فاستشاط غضباً، وقرر العودة إلى بلاد الشام ومهاجمتها من جديد، فسار غازان باتجاه الشام في شتاء ٧٠٠هـ/١٣٠١م عابراً الفرات،(٣) وعندما تواترت الأخبار عن قدوم المغول سار السلطان بالعساكر إلى الشام في العشر الأوسط من صفر(٤) فوصل إلى غزة، وهناك توقف عن المسير لانقطاع الطرق بسبب المطر الغزير، " فلما عاين السلطان وأمراؤه تشدد الحال وما أوجبتها السيول و الأوحال من الأمحال ألجأهم ذلك إلى الترحال، فرحلوا عن المنزلة وعادوا إلى الديار المصرية، ووصل السلطان القلعة في العاشر من جمادى الأولى ".(٥)

وكان السلطان قبل عودته قد جرد الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار، والأمير يعقوب الشهرزوري بألفي فارس وأمرهم بالذهاب إلى دمشق،(٦) أما بالنسبة لغازان فقد وصلت عساكره إلى

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٣٠٠، النويري: نهاية الأرب،٤٠٤/٣١. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٣٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ٩٠١/٣/١-٩٠٢، العيني: عقد الجمان، ٧٩/٤، النويري: نهاية الأرب، ٤٠٤/٣١-٤٠٦، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة: ٣٠٠/٩-٣٠١. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٨٦.

(٣) العيني: عقد الجمان،١٢٢/٤، ١٢٦-١٢٨.

Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.454-455.

(٤) هذا على قول بيبرس الدوادار في زبدة الفكرة،٣٠٥/٩، وعلى قول ابن أبي الفضائل في النهج السديد (١٢ صفر)، ٥٣٩/٢. وفي نهاية الأرب للنويري (٣ صفر)،٤١٣/٣١.

(٥) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٠٦/٩. البرزالي: المقتفي، ١٣٢/٣. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٨٤. المقريزي: السلوك، ١/ ٩٠٨. بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨/ ١٣١.

(٦) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٤٠. المقريزي: السلوك، ١/ ٩٠٩.

حلب وأقامت فيها من ٢٥ ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة، أعملوا فيها الغارات على المناطق المجاورة، فوصلوا إلى شيزر وأنطاكية وأفامية وكفرطاب وسرمين والمعرة وجبل السماق وأنطاكية وهم ينهبون ويسلبون ويأسرون، وبِيْعَ الأسرى المسلمون بأسعار زهيدة؛ إذ اشترى ملك إرمينية الصغرى عدداً كبيراً منهم، وسُيِّرَ بعضهم بالمراكب إلى أوربا،[١] ولكن إقامة المغول في المنطقة لم تدم طويلاً لأنهم عانوا من الأمطار والثلوج مثلما عانى السلطان الناصر، وقد هلك الكثير من جيشه، فرجعوا إلى بلادهم "شبه المكسورين ".[٢]

أخفق غازان في حملته الثانية، غير أن ذلك لم يُثْنِهِ عن متابعة العمل لتحقيق مشروعه التوسعي في بلاد الشام، فعمد إلى اتباع سياسة جديدة تقوم على المراوغة لكسب الوقت، ولكسب عنصر المفاجأة، لذا قام بإرسال سفارة إلى المماليك تطلب عقد الصلح بين الطرفين.

وصلت رسله إلى القاهرة في الخامس من ذي الحجة ٧٠٠هـ/ آب ١٣٠١، ومعهم رسالة تفيض بعبارات الترغيب والترهيب، يُحَمّل فيها المماليك مسؤولية هجماته السالفة على بلاد الشام؛ لأن عساكرهم كانت قد هاجمت ماردين وبلادها في شهر رمضان،[٣] "فما كان منه إلا أن أخذته بالعباد شفقة لما حَلَّ بهم من الضعف والرعب"، فقام بمهاجمة بلاد الشام، وبعد هذه المقدمة دعا المماليك إلى الصلح إصلاحاً لأمور الرعية، ثم أنهى الرسالة بطلب الهدايا ،[٤] أما في نص الرسالة الذي أورده البدليسي فإن غازان طلب صراحةً إقامة الخطبة والسكة باسمه مع تقديم جزية سنوية، " وإلا فإن

---

[١] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٤١، النويري: نهاية الأرب، ٤١٥/٣١.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٣٢/٨. المقريزي: السلوك، ٩٠٨/١-٩٠٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٠٦/٩. البرزالي: المقتفي، ٣/ ١٣٥، ١٤٢،

[٢] النويري: نهاية الأرب، ٤١٥/٣١. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٦٨.

[٣] أشار رشيد الدين إلى أن سبب هجوم غازان على الشام أول مرة كان بسبب هجوم المماليك على ماردين، انظر، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص ١٥٩. وربما المقصود به هو هجوم سلامش – سالف الذكر – على ماردين مع العسكر الحلبي.

[٤] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٤٦-٥٤٧، ٥٤٩-٥٥٤، ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٥٢، ٥٣-٥٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٣٦/٨، مع بعض الاختلاف فيما جاء عند بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٠٧/٩-٣٠٩، النويري: نهاية الأرب، ٤٢٦/٣١-٤٣٠.

الويلات والمصائب التي صُبَّتْ على سكان بلاد الخوارزميين من قبل الجنكيزيين سَيُصَبُّ مثلها وأكثر على المصريين ".[1]

رفض السلطان الناصر طلبات غازان التي تحمل معنى الخضوع له، وردّ عليه برسالة أنكر فيها ادعاءاته ومسوغاته في الهجوم على بلاد الشام، وعاب عليه استعانته بالأرمن والكُرج على أبناء دينه، وأخبرْ بأنه إذا أراد الصلح فعلاً فعليه أن يرسل شيخاً من كبار دولته " يكون إذا قَطَعَ أمراً أو فَصَلَ حكماً عَوَّلْتُم عليه وانتهيتم إليه.. لنتكلم معه بما فيه الصلاح لذات البين"، وبالنسبة للهدايا التي طلبها؛ فمن الواجب عليه " أن يهدي إلينا من العراق أصنافه لنقابل الهدية بهدية أضعافها ونتحقق من صدق نيته ".[2]

في الحقيقة لم تكن رسالة غازان إلا مراوغة؛ لأنه في الوقت ذاته كان يُراسل ملوك أوربا للقيام بعمل مشترك ضد المماليك، فسفارته التي أرسلها بقيادة بوسكاريللو وصلت إلى البابا بونيفاس الثامن، وإلى إدوار الأول ملك إنكلترا في سنة ١٣٠٢م،[3] ولكنها لم تحصد أي نتائج، وذلك أمر طبيعي ما دامت أوربا تعاني من مشاكل داخلية تلهيها عن الأعمال الخارجية.[4]

ذ- موقعة عُرض سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م:

أخفقت محاولات الصلح، وهذا أمر طبيعي فهي لم تكن مبنية على أسس صادقة، ولا سيما أن عبارات الريبة والشك ملأت رسائلهم، وقد ثبت لدى المماليك مراوغة غازان عندما انتهت إليهم في

---

[1] البدلسي: شرفنامة، ١٩/٢.

[2] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٦٦-٧٠،ابن أبي الفضائل النهج السديد، ٥٧١/٢-٥٨١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤٢/٨-١٤٦، مع الاختلاف بعض الشيء فيما ذكر بيبرس الدوادار في زبدة الفكرة، ٩/ ٣١٢-٣١٨، ونهاية الأرب للنويري، ٤٣١/٣١-٤٤١.

[3] عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص١٣٦.

[4] من هذه المشاكل قضية اسكتلندا ومحاولات السيطرة عليها من قبل إدوارد، ومشكلة الملك الفرنسي مع البابا والتي نتج عنها نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينون الفرنسية.

Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.489.

صفر ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م أخبار مسيره إلى بلاد الشام،[١] فقد وصل إلى الرحبة و أراد منازلتها بنفسه، ثم عَدَلَ عنها بعد أن أخذ منها رهائن وعاد إلى بلاده[٢] تاركاً قوة عسكرية مؤلفة من اثني عشر تومان بقيادة نائبه قطلوشاه مع فرقة من الأرمن وأخرى من الجورجيين، والتومان أو الطومان هي فرقة عسكرية مؤلف من عشرة آلاف مقاتل[٣] وعلى هذا يكون تعداد العسكر المغولي ١٢٠ ألف مقاتل، لكن بيبرس الدوادار ذكر أنهم كانوا في هيئة اثني عشر تومان، وفي حقيقة الأمر كان تعدادهم تسعين ألف فارس،[٤] كما أرسل إلى حاكم دمشق عز الدين أيبك الأفرم يغريه بالدخول في طاعته وترك طاعة السلطان الناصر.[٥]

أسرع السلطان بتسيير قوة من القاهرة في رجب ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م على رأسها الأمير بيبرس الجاشنكير، ومعه عدد من الأمراء بينهم المؤرخ بيبرس الدوادار، وصلوا دمشق في منتصف شعبان /نيسان، في الوقت الذي اجتمعت فيه عساكر حمص وحماه وحلب وطرابلس وبعض العساكر الدمشقية في حماه عند نائبها العادل كتبغا.[٦]

اتفق ذلك مع قدوم قوة من عساكر المغول مؤلفة من خمسة آلاف فارس تقريباً أغاروا على القريتين،[٧] فتم تجريد قوة في ألف وخمسمئة فارس من العساكر المجتمعة في حماه، ومن بينهم المؤرخ أبو الفداء، تمكنوا من الإحاطة بالمغول والالتحام معهم في مكان قريب من عُرض[٨] في العاشر من شعبان

---

[١] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٨٣. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٦٦-٧٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤٦/٨.

[٢] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٢٥.

[٣] دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص ٤٨.

[٤] زبدة الفكرة ، ٣٢٦/٩، ٣٣١، أما ابن حبيب فيذكر أنهم كانوا في ثلاثة عشر تومان، تذكرة النبيه، ٢٤١/١

[٥] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٢٦/٩-٣٣٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٥٧/٨.

[٦] بيبرس الدوادار: زبدة الفكر، ٣٢٥/٩-٣٣١، المقريزي: السلوك، ٩٣٠/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٥٧/٨. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٨٧. البرزالي: المقتفي، ٢١٧/٣-٢١٨.

[٧] قرية من قرى حمص. الحموي، معجم البلدان، مادة قريتان.

[٨] بلدة من أعمال حلب بين تدمر والرصافة. الحموي، معجم البلدان، مادة عرض. ومن المفترض أن تكون المعركة هذه تمت أثناء إنسحاب المغول من القريتين.

/ أول نيسان، وهناك حاقت الهزيمة بالتتار، وولوا منهزمين فكان هذا النصر على قول أبو الفداء "عنوان النصر الثاني"[(١)] في شقحب.

ز- موقعة شقحب (مرج الصفر) ٧٠٢هـ/١٣٠٣م:

كتب الأمراء من الشام إلى الناصر محمد في مصر يخبرونه بالنصر الذي وقع في عُرض، ويستحثونه على الخروج بالعسكر المصري، وعندما وصله الكتاب سُرَّ بذلك، وأمر العساكر بالخروج سريعاً،[(٢)] وكان المغول الذين فروا إلى قطلوشاه قد أخبروه أن السلطان لم يخرج بعد من مصر، وأنه ليس بالشام سوى العسكر الشامي، فاتفقوا على اغتنام الفرصة و المسير لملاقاة الجيش الشامي ودخول دمشق قبل وصول السلطان، فوصلوا حماه في الثالث والعشرين من شعبان.[(٣)]

وسارت العساكر (عساكر حمص، وحماه، وحلب، وطرابلس التي اجتمعت من قبل في حماه عند نائبها زين الدين كتبغا) جنوباً باتجاه دمشق لكي تعطي نفسها فرصة أفضل للمواجهة، وتجتمع بالعسكر المصري المخيم بمرج راهط، فالتقت في القطيفة بكشافة الجيش المصري التي كانت بقيادة المؤرخ بيبرس الدوادار، وأخبروهم بقدوم التتار بقيادة قطلوشاه، ثم قرر الجميع التراجع قليلاً انتظاراً لقدوم السلطان الناصر مع بقية العسكر المصري، فانسحبوا باتجاه الكسوة حيث التقوا بالسلطان على عقبة شجورا[(٤)] في مستهل شهر رمضان المعظم ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، وهناك تم ترتيبهم ميمنة وميسرة وقلب.[(٥)]

---

(١) أبو الفداء: المختصر،٣٨٧/٢، المقريزي: السلوك،٩٣١/١، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٣٣٢/٩. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢٤٦/١. البرزالي: المقتفي، ٢١٧/٣. ويقول أن المسلمين كانوا في ١٥٠٠ فارس وكان المغول بقدرهم مرتين أو ثلاثة.

(٢) العيني: عقد الجمان، ٢٢٢/٤.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٣٣/٩. أبو الفداء: المختصر،٣٨٨/٢

(٤) هي ممر في الطريق بين دمشق والكسوة، المقريزي: السلوك، ٩٣٢/١. حاشية ١.

(٥) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٣٣٣/٩- ٣٣٤، المقريزي: السلوك،٩٣٢/١. أبو الفداء: المختصر،٣٨٨/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١٥٩/٨.

كان اللقاء بين المماليك والمغول عند شقحب بطرف مرج الصفر، تحت جبل غباغب في حوران، يوم السبت ثاني شهر رمضان ٧٠٢ هـ/نيسان ١٣٠٣م،[1] واستمرت المعركة ثلاثة أيام، بدأت عندما زحفت كراديس المغول بعد ظهر يوم السبت حاملين على الميمنة التي كان على رأسها الأمير حسام الدين الأستاذدار، الذي استشهد في ذلك اليوم، لكن الميمنة ثبتت بعد أن تم ردفها ببعض العساكر من الميسرة، في حين حققت ميسرة المماليك وقلبهم نصراً ساحقاً على المغول الذين لاذوا مع حلول المساء إلى أعلى جبل غباغب، في حين تمكن بولاي أحد مقدميهم من الفرار مع ما يقارب من عشرين ألف فارس.

أحاطت جيوش المماليك بالجبل، وعندما صعد قطلوشاه إلى الجبل ظن أن النصر كان حليفه، وأن بولاي الذي هرب إنما ساق خلف المماليك، وعندئذ علم من أحد الأسرى أن السلطان الناصر قدم من مصر، وأن العسكر المصري كان حاضراً في تلك الواقعة، ولما أصبح نهار الأحد ثاني أيام المعركة رأى المغول إحاطة المماليك بهم، فأيقنوا بالخذلان، وأرادوا التسلل بعد أن هلكت خيلهم عطشاً، ففرجت لهم العساكر ثغرة من رأس الميسرة بادروا بالفرار منها، ولم يبق منهم إلا فرقة مع (طيطق) أحد مقدميهم، يقدر عددهم بعشرين ألف فارس، "فحملت العساكر عليهم فصيروهم رميماً"، ولما كان يوم الإثنين ثالث شهر رمضان بدأت عمليات المطاردة، وقد هَلَكَ فيها خلقٌ عظيم من المغول، حتى أن قطلوشاه لم يعبر الفرات إلا في قليل من أصحابه.[2]

---

[1] أبو الفداء: المختصر،٣٨٨/٢. المقريزي: السلوك:، ٩٣٢/١.

[2] أهم مصدرعلى وقائع معركة شقحب هو زبدة الفكرة للأمير بيبرس الدوادار؛ أحد قادة ميسرة الجيش المملوكي في هذه المعركة . انظر، ٣٣٥/٩-٣٣٧، و التحفة الملوكية، ص ١٦٣-١٧٣. مختار الأخبار، ١٢٠-١٣٢.بالإضافة إلى نهاية الأرب للنويري، وهو شاهد عيان لهذه المعركة، ٢٩/٣٢، والمختصر لأبي الفداء؛ وقد شارك أيضاً بهذه الوقعة،٣٨٨/٢. وللاستزادة انظر، العيني: عقد الجمان،٢٣١/٤-٢٤٠. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢٤٦/١-٢٤٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١٦٠/٨-١٦٣. المقريزي : السلوك ٩٣٥/٣/١-٩٣٦، ٩٣٧. البرزالي: المقتفي، ٣/ ٢١٨-٢٢٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٥٩١/٣.

أما الناصر محمد فقد احتفل بانتصاره في دمشق طيلة شهر رمضان سنة ٧٠٢ هـ ثم عاد إلى القاهرة في شوال من تلك السنة ليستكمل الاحتفالات هناك.[١]

٢- السلطان محمد بن قلاوون وأولجايتو:

مُني جيش غازان بهزيمة ساحقة في معركة مرج الصفر – شقحب –، وتعد حملته هذه آخر الحملات المغولية الكبيرة المرسلة إلى بلاد الشام، كما تعد معركة مرج الصفر هذه آخر جولة في الصراع بين مغول فارس والمماليك، وقد انتهت بانتصار المماليك وتأكيد سيادتهم على مشرق البحر المتوسط حتى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

وساد الجبهة المملوكية – المغولية بعد ذلك هدوء نسبي؛ استمر حتى ظهور تيمورلنك في منطقة مشرق البحر المتوسط في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، هذا الرجل قلب ظهوره الموازين السياسية وتوزيع القوى في تلك المنطقة.

فقد توفي غازان في شوال ٧٠٣هـ/ أيار ١٣٠٤م، وعلى قول أبي الفداء: كانت وفاته كمداً على هزيمة المغول في مرج الصفر،[٢] فتولى الحكم من بعده أخوه أولجايتو خدابندا – خربندة –[٣] الذي بدأ هذا عهده بنشاط دبلوماسي واسع، فبعد توليه الحكم مباشرة قام بإطلاق سراح سفراء الناصر محمد الذين كانوا محتجزين عند غازان،[٤] وأرسل معهم إلى الناصر محمد يطلب إطلاق سراح أحد الأمراء

---

[١] المقريزي: السلوك، ١/٣/٩٣٨-٩٣٩.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٣٩٠/٢. البدليسي: شرفنامة، ١٩/٢. المقريزي: السلوك، ١/ ٩٥٤.

[٣] البدليسي: شرفنامة، ٢٠/٢. المقريزي: السلوك، ٩٥٤/١. لقب خدابندا معناه عبد الله، (خدا) معناها باللغة الفارسية (الله) و (بنده) معناها (غلام)، أما (خربندة) فمعناها (غلام الحمار) لأن (خر) باللغة الفارسية معناها (حمار)، وسبب هذا اللقب على قول البدليسي أن أولجايتو هذا هرب إلى شيراز وكرمان عندما اعتلى غازان الحكم، وهناك اختلط بالخربندكية والمكارين (الحمارين والبغالين) لمدة طويلة، فأطلق عليه لقب الخربندة. أنظر، البدليسي: شرفنامة، ٢٠/٢. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ١/ ١٤٣. أما أولجايتو فهو لقب اختاره بعد جلوسه على العرش وهو يعني المغفور له. انظر عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣٠٩.

[٤] كان السلطان الناصر محمد قد أرسل سفرائه إلى غازان للرد على سفارته، وعندما حلت الهزيمة بجيش غازان في مرج الصفر كان هؤلاء السفراء لا يزالون عنده فقام باحتجازهم. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٢٧-١٢٨.
Howorth: History of the Mongols. Part3. P.536-537.

المغول من أسر المماليك، كما طالب بالصلح وإخماد الفتنة، وقد قابل المماليك هذا العرض بترحاب وردوا عليه بالموافقة.[(١)]

ومع هذه المراسلات فإن أولجايتو- جرياً على عادة الخانات من قبله، وحرصاً على المحافظة على العلاقات الطيبة مع الغرب الأوربي – قام بإرسال سفارة إلى أوربا سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م قابل أعضاؤها ملك فرنسا، وملك انكلترا، والبابا، الذين استقبلوهم بترحاب، وحمّلوهم —كالعادة – وعوداً خيالية.[(٢)]

لم يشهد عهد أولجايتو أي نشاط عسكري مهم على الجبهة المملوكية، على غير عادة أسلافه، باستثناء حصاره المخفق للرحبة سنة٧١٢هـ/ ١٣١٣م، ويعود ذلك إلى توتر العلاقات على الجبهتين الشرقية والغربية لإيلخانية فارس.

أ- حصار الرحبة سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٣م:

هرب في سنة ٧١١هـ/ ١٣١٢م الأميرُ قرا سنقر نائب دمشق، والأمير جمال الدين الأفرم نائب طرابلس مع مجموعة من الأمراء إلى أولجايتو بسبب خلافات وقعت بينهم وبين الملك الناصر محمد، فاستقبلهم أولجايتو استقبالاً حسناً وأقطعهم الإقطاعات،[(٣)] وأخذ هؤلاء كالعادة يحسنون له مهاجمة بلاد الشام؛ لذلك سار قاصداً الرحبة بعد أن أخبره قرا سنقر أنه سيقنع صاحبها بتسليمه المدينة دون قتال،[(٤)] وشرع في حصارها مدة شهر، ثم نزل عنها بعد أن عجز عن اقتحامها وأخفقت مساعي قراسنقر بإقناع حاكمها بالتسليم،[(٥)] ذكر الدواداري نقلاً عن حاكم الرحبة أن أولجايتو هذا لم يكن

---

(١) ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ١٢٨. المقريزي: السلوك، ٦/٢. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣٠٩–٣١٠.

(٢) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٣٧–١٤٠.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٣٢/٢، ٣٧، ١٨٣. المقريزي: السلوك، ١١٥/١/٢.

(٤) ابن أيبك: الدر الفاخر، ٢٥١–٢٥٢.

(٥) أبو الفداء: المختصر، ٤١٣/٢. المقريزي: السلوك، ١١٥/١/٢. ابن أيبك: الدر الفاخر، ٢٥٩–٢٦٠. البدليسي: شرفنامه، ٢٣/٢. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣١٩–٣٢٠.
Howorth: history of the Mongols. Part 3. P566-567.

رجل حرب، بل همه الأكل والشرب والنساء والملاهي، ولولا تحريض قراسنقر ورفاقه لما تحرك وهاجم البيرة.[١]

ب- احتلال المماليك لملطية:

ردَّ الناصر محمد على هذا الهجوم باحتلال ملطية التابعة للغول سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، وعلى قول أبي الفداء فإن لملطيه هذه أهمية استراتيجية لأنها واقعة على الطريق إذا ما أرادت الغيارة المملوكية مهاجمة أراضي سلاجقة الروم، وحدث في إحدى المرات أن تعرَّضَ أهالي ملطية للغيارة المملوكية، فأسروا وقتلوا منهم عدداً، فجرد السلطان محمد حملة إليها بقيادة الأمير تنكز نائب دمشق وقتئذ، وكان المؤرخ أبو الفداء مشاركاً في الحملة على رأس العسكر الحموي، بدأ حصار ملطية في ٢٢محرم ٧١٥هـ/ ١٣١٥م وفي اليوم التالي سُلمت المدينة مقابل الأمان، لكن المماليك لم يحتفظوا بها طويلاً؛ إذ سرعان ما استردها الأمير المغولي جوبان.[٢]

٣- السلطان محمد بن قلاوون وأبوسعيد:

في شوال من سنة ٧١٦هـ/ كانون الأول ١٣١٦م توفي أولجايتو، فخلفه على عرش الإيلخانية ابنه أبوسعيد، وكان عمره آنذاك ١٢ سنة، مما أعطى مجالاً للأمراء الكبار للتسلط على الحكم والاستئثار به،[٣] فأسفر ذلك عن حروب أهلية وتمردات داخلية استمرت لسنوات،[٤] في ظل تهديدات المغول الجغطائيين من جهة الشرق، ومغول القبيلة الذهبية في الشمال،[٥] الذين دأبوا على مهاجمة أراضي الإيلخانية.

هذا في الوقت الذي غدت فيه السلطنة المملوكية في ظل حكم الناصر محمد دولة قوية مرهوبة الجانب أكثر من ذي قبل، وأكثر استقراراً، فرأى السلطان أبوسعيد أنه من الأفضل المحافظة على هدوء

---

[١] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٢٦١.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤١٨-٤٢٠. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٢٨٤-٢٨٥. المقريزي: السلوك، ٢/١/١٤٣-١٤٤.

[٣] البدليسي: شرفنامه، ٢/٢٥-٢٦. أبو الفداء: المختصر، ٢/٤٢٦-٤٢٧. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٣٢٧-٣٣٧.

[٤] عن هذه الثورات بالتفصيل، انظر، عباس إقبال: المغول في التاريخ، ص٣٢٧-٣٣٧.

[٥] عن هذه الحروب بالتفصيل، انظر، الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ٤٣١-٤٣٨.

الجبهة الغربية للتفرغ للأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية، فبدأ بمراسلة المماليك منذ السنة الثانية لتوليه الحكم، حيث وصل في سنة٧١٧هـ/ ١٣١٧م إلى السلطان الناصر محمد وفد من قِبَل أبوسعيد برئاسة المجد إسماعيل السلامي، ومعه عدد من أمراء المغول يحملون الهدايا ويعرضون مشروعاً للصلح،[١] استمرت المفاوضات حتى سنة٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م بدون نتائج، وحدث أثناء ذلك أن أرسل السلطان الناصر محمد ثلاثين فداوياً، وكلفهم بمهمة اغتيال الأمير قراسنقر اللاجئ عند أولجايتو، فانتشر الخبر أن هؤلاء أرسلوا لاغتيال أبي سعيد، وعلى الرغم من أن معظمهم تم القبض عليه وإعدامه، إلا أن أبو سعيد بقي مدة من الزمن محتجباً خوفاً منهم،[٢] ومن المفترض أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع الاتصالات بين الطرفين، لكن ربما الخوف دفع أباسعيد إلى إرسال المجد إسماعيل مرة ثانية سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م ليعرض عليه مشروع الصلح الذي يتضمن الشروط الآتية[٣]:

- الامتناع عن إرسال الفداوية إلى بلاد الإيلخانيين.
- عدم المطالبة بتسليم رعايا البلدين الذين يلجأون إلى البلد الآخر.
- كف السلطان عن إرسال العربان والتركمان لشن الغارات على أراضي الإيلخانية.
- توطيد العلاقات التجارية بن الطرفين، وحرية انتقال التجار مع بضائعهم.
- تسيير المحمل كل سنة من العراق إلى الحجاز وهو يحمل علميين أحدهما باسم سلطان مصر، والآخر باسم إيلخان فارس.
- ألا يطالب السلطان بالأمير قراسنقر.

وافق السلطان الناصر على هذه الشروط وتم توقيع الصلح بين الطرفين بشكل نهائي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م.[٤]

ومنذ ذلك الوقت زال الخطر المغولي على الجبهة الشرقية للمماليك، وتوقف نشاطهم حتى أواخر القرن الثامن الهجري عندما ظهر تيمورلنك واجتاح مشرق البحر المتوسط.

---

[١] المقريزي: السلوك، ١٧٥/٢.

[٢] المقريزي: السلوك، ٢٠٧/٢. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣٤٢. الصياد: الشرق الإسلامي، ص ٤٨٠-٤٨١. Howorth: History of the Mongols. Part 3. P. 600.

[٣] عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣٤٢. الصياد: الشرق الإسلامي، ص ٤٨٢.

[٤] المقريزي: السلوك، ٢٤٢/١/٢. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٣١٢-٣١٣.

في الحقيقة أصبحت دولة مغول فارس عاجزة عن أي عمل عسكري ضد السلطنة المملوكية، فقد توفي أبوسعيد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م،[١] وكان آخر الإيلخانات الكبار من أسرة هولاكو، فبعد وفاته أخذت إيلخانية فارس بالتدهور، وشهدت صراعات مريرة على منصب الإيلخان ولا سيما أن أباسعيد لم ينجب أبناءً ذكوراً،[٢] وانتقل الحكم من أسرة هولاكو إلى بيت جنكيز خان عندما نُصب (أرباجاون) من سلالة أريق بوقا أخ هولاكو حاكماً بدلاً من أبي سعيد، وفيما بعد تفككت الإيلخانية إلى عدة دويلات، وممالك مستقلة، استمرت حتى قضى عليها تيمورلنك أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.[٣]

المهم هنا هو أن هذه الدويلات انشغلت في مشاكلها الداخلية وصراعاتها ضد بعضها بعضاً ولم يكن لأيٍ منها نشاط توسعي في مشرق البحر المتوسط، بل على خلاف ذلك كانت كلها تنظر إلى السلطنة المملوكية على أنها دولة قوية، و غالباً ما طلبت هذه الدول المساعدة من المماليك في صراعاتهم ضد بعضهم بعضاً.

---

[١] البدليسي: شرفنامه، ٣٤/٢. ابن خلدون: العبر، ١١٦٣/٥.

[٢] البدليسي: شرفنامه، ٣٥/٢.

[٣] عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٣٦٠ وما بعد.

الفصل الثاني

العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبين في مشرق البحر المتوسط.

أولاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس "٦٥٨-٦٧٧هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٦م".

ثانياً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون" ٦٧٩-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م".

ثالثاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل"٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م".

رابعاً: القرصنة الصليبية في حوض مشرق البحر المتوسط في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

أولاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس ٦٥٨-٦٧٧هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٦م:

أ- المرحلة التمهيدية أو مرحلة المناوشات:

أضحت سلطنة المماليك بعد معركة عين جالوت هي القوة الحامية للمسلمين في الشرق الإسلامي، وغدا بيبرس الزعيم الذي أُنيطَ به حملُ لواء الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية، فقد جاء في كتاب تقليده للسلطنة من قبل الخليفة المستنصر بالله — بعد إعادة الخلافة العباسية – ما يلي: "ومما يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مُسْوَّدُ الصحائف مُبيضاً، .... وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء، ..... فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً، وأيِّد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً....".[١]

لهذا كان لِزاماً على بيبرس محاربة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، كما عليه التصدي للمغول الذين يعتدون على الحدود الشرقية والشمالية للدولة، وفي سبيل هذا سعى إلى تأمين الموقف الداخلي والخارجي للدولة –كما ذُكر من قبل –، ليبدأ في العمليات العسكرية.

بدأت العمليات العسكرية ضد الصليبيين في وقت مبكر من حكم السلطان الظاهر بيبرس على شكل غارات، ففي سنة٦٥٩هـ/ ١٢٦١م عندما خرج السلطان إلى دمشق – مع الخليفة العباسي الذي جُهز لاسترداد بغداد– قدمت عليه وهو في العوجا جنوب فلسطين وفود من الصليبيين يطلبون الصلح، وهم مندوبون عن: يافا، وبيرت، وعكا، وكان السلطان قد أرسل عسكره للإغارة على نواحي بعلبك، فسأله الصليبيون هناك رجوع العسكر والإمساك إلى حين تدبير الحال، وقد تم الاتفاق وعقد الصلح بين السلطان الظاهر وحكام عكا، ويافا، وبيروت؛ بأن تستقر الأحوال كما كانت عليه أواخر أيام الملك الناصر،[٢] كما نص الصلح على إطلاق الأسرى

---

[١] المقريزي: السلوك، ٤٥٦/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٤٠/٩.

[٢] أي الناصر يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب ودمشق الذي توفي في أسر هولاكو قتلاً سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بعد هزيمة المغول في عين جالوت، وليس الناصر صلاح الدين الأيوبي، فقد ورد عند ابن شافع قوله " وكتبت الهدن لهم على العادة في الأيام الناصرية بن العزيز ". انظر: حسن المناقب، ص ٩٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٧٩/٦-٢٨٠. وكان للناصر هذا معاهدة قديمة مع صاحب يافا.

الذين أُسروا من الطرفين خلال المدة من وفاة الناصر إلى عقد هذه الهدنة،[١] وهنا لا بد من ذكر الأسباب التي دفعت بيبرس لسحب عسكره من الإغارة على بعلبك، أولها ما حدث في بلاد الشام آنذاك من غلاء ونقص في المؤن والأعلاف التي تأتي بشكل رئيس من بلاد الفرنج، فعندما عُقدت الهدنة "أمنت السُبل، وكثر الجلب"،[٢] "وترددت التجار وسلكت السُفار"،[٣] وثانيها ما ذُكر سالفاً عن خطر المغيث عمر في الكرك، وحاجة السلطان الظاهر لتأمين الجبهة الداخلية أولاً.

ولكي يضع الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ، ويختبر مدى صدق الصليبيين، شرع في جمع الأسرى، ثم أنفذهم إلى بانياس (في الجولان) تمهيداً لمبادلتهم بالأسرى المسلمين كما تم الاتفاق، إلا أن الصليبيون- باستثناء صاحب يافا – أخذوا يماطلون؛ لأن الداوية والإسبتارية لم تكن لديهم الرغبة بتسليم هؤلاء الأسرى الذين كانوا من الحرفيين المهرة؛ فتسليمهم كان يعني خسارة المؤسسات الصليبية للأرباح التي تجنيها من خلال تسخيرهم،[٤] ثم بدأوا بالمطالبة بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضاً مطلبهم بأنكم "أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية من مرج عيون،[٥] وقايضتم صاحب تَبْنين[٦] بمواضع، والعِوض الآن في يده والمقايضة في أيديكم، فكيف تطلبون العوض مرّتين؟ وهذا لاسبيل إليه، فإن كنتم باقين على العهد فنحن لا نغيّر عهودنا، وإن كنتم تختارون غير ذلك فنحن بحمد الله لم يبقَ لنا عائق ولا عدو، ولا لنا شغل إلا الجهاد "،[٧] وعلى إثر إخفاق المفاوضات معهم قام السلطان بإعادة الأسرى إلى دمشق واستعملهم في البناء، وقام بإنفاذ الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم وعلى العرب الزبيدين الذين كانوا

---

[١] أي المأسورين خلال سنة أو أكثر. للاستزادة انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٧-١١٨. المقريزي: السلوك، ١/٤٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/٣٢٢-٣٢٣.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/ ٣٢٣.

[٣] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٤٤.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٩.

[٥] مكان على الساحل الشامي فيه أراضي للرعي. الحموي: معجم البلدان، مادة مرج. حالياً في الجنوب البناني بين صيدا وصور.

[٦] بلدة في جبال بني سنة المطلة على بانياس بين دمشق وصور. الحموي: معجم البلدان، مادة تبنين.

[٧] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٢٣/٦. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٩. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٤٧-٤٨، ٢٥٥.

يساعدونهم؛ وقد نفّذ هذا الأخير المهمة وعاد سالماً غانماً،[1] وهكذا بدأت العمليات العسكرية ولكن على شكل هجمات خفيفة.

الإغارة على أنطاكية:

يُلاحظ أن المفاوضات التي جرت في دمشق سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بين بيبرس وأمراء الصليبيين لم تشمل أملاك وأراضي بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، الذي كان قد تحالف مع المغول ضد المسلمين، وارتكب أعمال عدوانية في شمال بلاد الشام،[2] لذلك أرسل السلطان في منتصف ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م الأمير شمس الدين سنقر الرومي على رأس قوة عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي شهدتها بسبب وجود البرلي فيها — ومعلوم ما هو أهمية حلب بالنسبة لأي عمل عسكري سيتم ضد أنطاكية-، وفي أثناء وجود الأمير سنقر الرومي في حلب - بعد أن هدأت أحوالها - أمره السلطان بالتوجه إلى أنطاكية ومناوشتها، وقد انضم إليه في تنفيذ هذه المهمة كل من صاحب حماه وصاحب حمص؛ فنازلها وأخذ الميناء، وأحرق المراكب، وحاصر مدينة السويدية التابعة لها وأخذها عنوة، ثم عاد ومعه أكثر من ثلاثمئة أسير،[3] ويضيف صاحب أعمال القبارصة أن قوات المماليك فرضت الحصار على أنطاكية، ولكنها أُجْبرتْ على فَكِّ الحصار والانسحاب بعد قدوم مساعدة مغولية كان قد طلبها ملك إرمينية الصغرى.[4]

في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م تخلّص السلطان بيبرس من معارضة المغيث عمر، وقام باعتقاله وإرساله إلى القاهرة؛ وضم الكرك إلى حكمه- كما ورد آنفاً -، "ولما خلا بَالُ السلطان من هَمِّ الملك المغيث، توجه بكليته إلى الفرنج"[5] الذين شرعوا يحيدون عن الحق لِما رأوه من إحسان السلطان، وكثرت كتب النواب بالشكوى منهم، وأنهم اعتمدوا أمور توجب فسخ الهدنة،[6] فلما أتى السلطان إلى بلاد الشام في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م سار إلى

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٠. شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص٩٩. المقريزي: السلوك، ٤٦٤/١. النويري: نهاية الأرب، ٤٨/٣٠.

[2] الفصل الثالث يتناول الحديث عن أعمال بوهيمند وهيثوم الأول ملك الأرمن مع المغول.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٣٣. المقريزي: السلوك، ٤٧٢/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٥٣/٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٣٦/٦. مع اختلاف في تقدير عدد الأسرى.

[4] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٤٩.

[5] المقريزي: السلوك، ٤٨٣/١.

[6] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٦١/٦

وسط بلادهم، فورده رسول منهم يتزلف إلى السلطان ويهنئه بالسلامة، ويقول: "ما عرفنا بوصول السلطان"، فكتب إليهم: "من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان[1] من التتار، فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون، فأي شيء تعلمون...".[2]

وفي أثناء ذلك وصلت هدايا من أصحاب يافا وأرسوف، فأخذها السلطان تطميناً لقلوبهم، وأمر بألا يتعرض أحد لهم حتى ينتهي من أمر المغيث عمر، وفي اليوم الذي قبض فيه على المغيث عمر؛ أمر بإحضار رسلهم وقال لهم:"ما تقولون"؟، فقالوا: "نتمسك بالهدنة التي بيننا"– وكانوا قبل ذلك يكاتبونه بفسخ الهدنة والندم عليها –[3] فرد عليهم: "لِمَ ما كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان، وإنفاق الأموال التي لو جَرَتْ لكانت بحاراً"، ثم ذكر لهم أموراً توجب فسخ الهدنة منها: منعهم الجلب والميرة القاصدة بلاد الشام من عندهم، وعدم إطلاق الأسرى كما نصّت الهدنة، وبناءهم سوراً على ربض أرسوف؛ و كان من شروط الهدنة ألا يجددوا بناءً، وأخيراً قيام ملك قبرص بأسر الرسل الذين سيرهم السلطان إلى سلاجقة الروم عبر البحر، وقال لهم: "إذا كان صاحب جزيرة قبرص من أهل ملتكم، يخرق حرمتكم، ولا يفي بعهدكم، ولا يحفظ ذمامكم، ولا يقبل شفاعتكم، فأي حرمة تبقى لكم، وأي ذمام يوثق به منكم"، ثم أخبرهم أنهم لو أرادوا حقاً فكَّ الأسرى من عند صاحب قبرص "قمتم جميعكم عليه، وأحطتم على كل ما يتعلق به وأصحابه، واسترحتم من هذه الفضيحة..."، وأخيراً طالبهم بصفد والشقيف اللتين أخذهما الصليبيون من الملك الصالح إسماعيل[4]– فهم أخذوها منه على أن يساعدوه ضد السلطان نجم الدين أيوب حاكم مصر لكنهم خذلوه؛ بل وقفوا إلى جانب لويس التاسع ضد

---

[1] موقان: هي إحدى أقسام أذربيجان وأهلها من التركمان ويطلق عليها أهلها موغان، الحموي: معجم البلدان، مادة موقان.

[2] المقريزي: السلوك ٤٨٣/١ – ٤٨٤، ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص ١٥٢. النويري: نهاية الأرب، ص٢٥٦.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٦٢/٦-٣٦٣.

[4] تنازل الملك الصالح إسماعيل حاكم دمشق عن صفد والشقيف للصليبيين سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م ، فهاجمه الشيخ العز بن عبد السلام من على المنبر على فعلته هذه، فعزله عن الخطابة. ابن واصل: مفرج الكروب، تح: محمد حسنين ربيع، دار الكتب المصرية، ١٩٧٧م، ٣٠١/٥-٣٠٣. وتجب الإشارة إلى أنها من فتوح الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. ابن الأثير: الكامل ، ١٩٦/٩، ١٩٩.

مصر- قائلاً لهم "وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام، وطاعة ملكها ونصرته والخروج في خدمته، وإنفاق الأموال في نجدته، وقد صارت بحمد الله مملكة الشام وغيرها لي، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم، ولم يبقَ لي عدو أخافه، فردّوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك".[1]

وقد فوجئ الفرنج بهذا الطلب الأخير الخاص بصفد والشقيف، إلا أنهم حاولوا أن يكسبوا ودَّ السلطان فأكدوا له حرصهم على إبقاء الهدنة إذ قالوا: "نحن لا ننقض الهدنة، وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونحن نزيل شكوى النواب، ونخرج من جميع الدعاوي، ونفكُّ الأسرى ونستأنف الخدمة"، فرد عليهم: "كان هذا قبل خروجي من مصر، في هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر إلى هنا"، ثم أمر بطردهم.[2]

من الواضح أن السلطان بيبرس بعد أن تكبد هذه النفقات الباهظة في إعداد هذا الجيش الجرار وخروجه، لن يسمح للفرصة أن تمر دون أن يوجه ضربة قوية لعدوه، وكانت عكا كما يبدو هدفه الأول، إلا أنها — ومن المؤكد أنه يعلم — كانت قوية، ولن يتمكن من أخذها بسهولة، ولكن الهجوم المتكرر عليها عند كل فرصة مواتية، وتخريب البلاد حولها سوف يساهم في إضعافها تدريجياً، ويمهد لتحريرها، وكان أول عمل قام به هو إصدار أوامره إلى الأمير علاء الدين طيبرس بهدم كنيسة الناصرة؛ وهي أكبر مواطن العبادات عندهم،[3] مؤملاً من وراء ذلك أن يخرج الفرنج من عكا للدفاع عنها، فيكر عليهم، فسار إليها وهدمها، ولم يلقَ مقاومة تذكر منهم، إذ وجدوا أنه من الحكمة عدم خروجهم منها، ثم كلف الأمير بدر الدين الأيدمري بالإغارة على عكا، فنفذ ضدها غارتين غنم منهما الكثير، ثم عاد إلى مخيم السلطان قرب جبل الطور.[4]

لم يكتفِ السلطان بهذه الغارة، بل خرج في جمادى الآخرة ٦٦١هـ/أيار ١٢٦٣م بنفسه على رأس فريق من فرسانه إليها، وحاصرها من جهة البر، " فإذا الفرنج قد حفروا خندقاً حول تل الفضول، وجعلوا معاثر في الطريق ووقفوا صفوفاً على التل، فلما أشرف السلطان عليهم رَتَّبَ العسكر بنفسه، وشرع الجميع في ذكر الله

---

[1] وردت هذه المناقشة عند: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٥٢-١٥٦. المقريزي: السلوك، ٤٨٢/١-٤٨٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٦٣/٦-٣٦٥. النويري: نهاية الأرب، ٢٥٦/٣٠-٢٥٧.

[2] المصادر السابقة نفسها، مع الأجزاء والصفحات.

[3] أبو الفداء: المختصر، ٣٢٩/٢. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٥٧. المقريزي: السلوك، ٤٨٧/١.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٦٥/٦. المقريزي: السلوك، ٤٨٧/١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٥٧.

وتهليله وتكبيره، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم، وللوقت رُدِمَتِ الخنادقُ بأيدي غلمان العساكر، وبمن حضر من الفقراء والمجاهدين وصعد المسلمون فوق تل الفضول، وقد انهزم الفرنج إلى المدينة..." وامتدت الأيدي إلى ما حول عكا من الأبراج الصليبية، فهُدمت، وحُرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها، وتقدم الجيش حتى أبواب عكا وقتلوا وأسروا عدة من الفرنج في ساعة واحدة، والسلطان قائم على رأس التل يعمل الرأي في أخذ المدينة، والأمراء تحمل على الأبواب واحداً بعد واحد، ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج في الخنادق، وهلك منهم جماعة في الأبواب، وقد جرح أثناء ذلك نائب عكا، ثم عاد السلطان بعدما غنم وأسر،[١] وقد اكتفى السلطان بما قام به تجاه عكا، ثم عاد إلى القاهرة في ١٧ رجب ٦٦١هـ/ ٢٧ أيار١٢٦٣م بعد أن زار القدس وعين الأمير ناصر الدين القيمري نائباً للسلطنة بالفتوحات الساحلية.[٢]

بقي السلطان في القاهرة بقية سنة٦٦١ هـ/ ١٢٦٣م والسنة التي بعدها، وصرف وقته لمعالجة الأمور الداخلية لمملكته، إلا أنه لم يهمل الاستعداد للحملات الحربية المقبلة ضد أعدائه، فاهتم بصنع الأسلحة على نطاق واسع وإعدادها، ومتابعة الجند بالتدريبات الوافية،[٣] أما في بلاد الشام فالمناوشات لم تتوقف بين الصليبيين والمسلمين.[٤]

ب– مرحلة الحرب الشاملة وفتوحات الظاهر بيبرس:

كانت هذه الغارات السالفة الذكر مهمة جداً للحملات العسكرية الكبيرة التي استهدفت المدن والحصون المنيعة، وغالباً ما كانت هذه الغارات إما لقطع الإمدادات عن المنطقة التي تشكل هدفاً للحملة المقبلة، وإما لاستنزاف قوتها، وإما لجمع معلومات حولها، وإما لشغل العدو عن الوجهة الحقيقية، وَكَثُرَتْ هذه الغارات — كما سيتبين– في العمليات العسكرية المملوكية.

سلف التبيان أن الصليبيون شكلوا في الساحل الشامي سلسلة مترابطة امتدت من أنطاكية حتى يافا مقيمين في مجموعة من الحصون والقلاع الموزعة على هذا الساحل، لذا اقتضت الخطة العسكرية التي انتهجها السلطان

---

[١] المقريزي: السلوك، ٤٨٩/١. العيني: عقد الجمان، ٣٥٦/١. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٥٠. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٥٨/٩. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٥٩.

[٢] ابن عبدالظاهر:الروض، ص ١٦٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣٧١/٦.

[٣] ابن عبدالظاهر:الروض، ص ١٧٠ وما بعد.

[٤] المقريزي: السلوك، ٥١٣/١. شافع بن علي: حسن المناقب، ص ١٥٧.

بيبرس ضد الصليبيين —كما اتضح من خلال سير الأحداث — تفكيك هذا الترابط الصليبي الممتد من الشمال إلى الجنوب وحصره في كيانات وإمارات تفصل بينها مساحات من الأراضي الإسلامية المحررة، بشكل يجعل التعاون بين هذه الإمارات أمراً صعباً، ثم القضاء على كل كيان على حده — وسيتم توضيح ذلك بالخرائط – ، وقد وُفِقَ في ذلك، وتمهيداً لهذا المشروع أراد أن يؤمن خطوط المواصلات بين مصر والشام بتحرير جنوب فلسطين من الصليبيين بعد أن حرر الكرك وتخلص من المغيث عمر.

١- حملة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م إلى جنوب فلسطين:

استهدفت الأعمال العسكرية في جنوب فلسطين أمرين مهمين: الأول سلف ذكره وهو تأمين طرق المواصلات بين مصر والشام، والثاني هو تجريد عكا من ممتلكاتها إضعافاً لها وتمهيداً للقضاء عليها؛ لأنه من الصعب التوجه إليها مباشرة.

- **تحرير قيسارية، جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ آذار ١٢٦٥م:**

كان أول هجوم حربي منظم وهادف قام به الظاهر بيبرس ضد معاقل الصليبيين في الشام؛ هو هجومه على قيسارية سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، فمعظم وقته في السنوات الأولى من حكمه قضاه في تنظيم شؤون مملكته الناشئة، وكانت الأعمال الحربية التي قام بها حتى الآن إما دفاعاً، وإما غارات صغيرة تهدف إلى دراسة الموقف؛ وأرض المعركة المقبلة، لكي يقوم بتنظيم وتشكيل القوات بشكل مناسب.

إن خروج السلطان إلى بلاد الشام في هذه السنة لم يكن المقصود منه تحرير قيسارية؛ أو حتى العمل ضد الصليبيين، وإنما كان خروجه بسبب ما وصله من أخبار تفيد بأن المغول نزلوا على البيرة،[1] فأرسل على الفور إلى بلاد الشام لتجهيز أربعة آلاف فارس، في حين جهز ثمانية آلاف في مصر وأرسلهم إلى بلاد الشام على شكل دفعات، أما هو فقد خرج في مطلع شهر ربيع الآخر٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وأثناء وجوده في فلسطين في السادس والعشرين من هذا الشهر ورد عليه البريد من دمشق بأن المغول هربوا عندما شاهدوا العسكر قادماً عليهم صحبة الملك المنصور صاحب حماه، وأنهم تركوا المجانيق وغرّقوا مراكبهم، فكتب السلطان بذلك إلى القاهرة وغيرها،

---

[1] يشير ابن عبد الظاهر بأن الصليبيين نصحوا المغول بالهجوم في الربيع لأن خيل المسلمين تكون متفرقة في المراعي. انظر: الروض الزاهر، ص ٢٢٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٧٣/١.

وكتب بعمارة ما خرب من البيرة، وَحَمِلْ آلات القتال والأسلحة إليها من مصر والشام، وأن يُعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين، وأمر بتقديم المعونات إلى أهل البيرة.[1]

إذاً وصلت الأخبار إلى السلطان وهو في فلسطين، على رأس جيش جرَّار، فلم يشأ العودة دون أن يستفيد من هذه القوة التي جمعها على عجل، لذا قرر مهاجمة الصليبيين في المنطقة الساحلية، وهكذا تكون قد بدأت سلسلة الفتوحات انطلاقاً من قيسارية.

ولكن ما هو السبب الذي جعل السلطان الظاهر بيبرس يختار قيسارية دون غيرها؟.

يأتي السبب من أهمية مدينة قيسارية كأحد أهم معاقل الصليبيين في شرق البحر المتوسط، ولأن قيسارية كانت المفتاح لمدينتي أرسوف ويافا في الجنوب، وهي أعظمُ قوةٍ منهما، وبالتالي فالسيطرة على قيسارية تعني عزل هاتين المدينتيين تماماً عن عكا، وتحريرهما بعد تحرير قيسارية سيصبح أمراً سهلاً، وهذا ما يفسر توجه الظاهر بيبرس فور انتهائه من قيسارية إلى أرسوف وتحريرها، بينما اكتفى بتهديد صاحب يافا بعد أن جعلها مشلولة الحركة كما سيتبين.

بدأ التحرك ضد قيسارية، وكانت السِّرية أحد أهم ميزات السلطان الظاهر عندما كان ينوي التحرك ضد الصليبيين، وقد ضمن له هذا نجاحاً منقطع النظير في معظم أعماله، فهو عندما أراد مهاجمة قيسارية " ما أعلم أحد مغزاه، ولا فهم أين مرامه ومرماه"،[2] فقطع بجيشه نهر العوجا، وحط رحاله قريباً من غابة أرسوف مُظهراً التلهي بالصيد، وبسرية تامة، وتحت هذا التظاهر استطاع أن يقترب من هدفه الحقيقي عندما ساق في قوة عسكرية صغيرة إلى أرسوف ثم قيسارية فكشف منطقتهما، وعاد إلى الدهليز، بعد أن جمع المعلومات، وأصبح بإمكانه أن يقوم بمحاصرتهما عن خبرة واطلاع، وجلس مع الصناع يستحثهم، فعمل في يوم واحد أربعة منجنيقات كبار سوى الصغار، وكتب إلى القلاع الإسلامية القريبة بطلب المجانيق والصناع والحجارين، وبتكامل تجهيزاته تحرك الجيش في منتصف ليلة الأربعاء ٨ جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ شباط ١٢٦٥م، إلى أن وصل قريب من

---

[1] المقريزي: السلوك، ١/٥٢٣-٥٢٤. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢١-٢٢٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٠٧. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٢٩.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢٩.

عيون الأساور،[1] وعند حلول الظلام أمر الجيش بلباس آلة الحرب والاستعداد في أقصى درجاته، وبسرية تامة تحرك قبيل الفجر إلى قيسارية فوافاها على حين غفلة بُكْرةَ نهارِ يوم الخميس ٩ جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ شباط ١٢٦٥م، ويقال إن حاميتها فوجئت بذلك، فضرب حولها حصاراً من جهاتها البرية، ونصب المجانيق عليها وشرع في مهاجمتها.[2]

وليضمن السلطان عدم قيام الصليبيين في عكا بمساعدة قيسارية، قام بإنفاذ الأمير شهاب الدين القيمري على رأس قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلة الصليبيين فيها لمنعهم من تقديم أي مساعدة لقيسارية، فوصلوا بغاراتهم إلى أبوابها، وأسروا جماعة من الفرنج.[3]

اعتمدت قيسارية في الدفاع عن نفسها بشكل أساسي على أسوار البلدة المبنية من الحجارة المربعة المنحوتة بشكل خاص، بالإضافة إلى الخندق الذي كان يحيط بالسور من الخارج الذي شَكَّلَ خطاً دفاعياً أول ضد الحملات والغارات،[4] مع ذلك تمكن المهاجمون من تجاوز خنادق قيسارية واعتلاء أسوارها، وأُحرقت أبواب المدينة، واندفع المسلمون إلى داخلها في يوم الخميس نفسه، فما كان من الصليبيين إلا أن هربوا إلى قلعتها وتحصنوا بداخلها، وكانت القلعة قد بنيت على رعن شَكَّلَ السور الجنوبي للميناء،[5] وكانت هذه القلعة تعرف بالخضراء، وتمتاز بالحصانة والمنعة فضلاً عن وقوعها على حافة البحر، فزحف السلطان بقواته ونصب عليها المجانيق، واستخدم في هجومه الدبابات ذات العجلات، والزحافات، وبلغت مرحلة القتال ذروتها عندما خاض السلطان عباب البحر على رأس كوكبة من فرسانه لشل حركة الصليبيين، وتحت وطأة الحصار والرماية الشديدة اضطر الصليبيون إلى الهرب من القلعة باتجاه عكا بحراً، فدخلتها القوات الإسلامية في يوم الخميس منتصف جمادى

---

[1] منزلة قرب قيمون والرملة من أعمال فلسطين

[2] المقريزي: السلوك، ٥٢٦/١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢٩-٢٣٠. العيني: عقد الجمان، ٣٩٦/١. النويري: نهاية الأرب، ٢٦٦/٣٠. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٣.

[3] المقريزي: السلوك: ٥٢٧/١.

[4] مارشال: فن الحرب، ص ١٥١، ١٥٥.

[5] مارشال: فن الحرب، ص١٥١.

الأولى / آذار من السنة ذاتها، وأُذِّنَ عليها للصلاة فجر يوم الجمعة، وبعد هذا الفتح المؤَّزرِ شرعَ السلطان بهدم المدينة والقلعة بعد أن قسَّم المدينة على الأمراء والحلقة، وقد شارك بنفسه في عمليات الهدم.(١)

- **تحرير أرسوف، رجب ٦٦٣هـ/ نيسان ١٢٦٥م:**

أعقب الاستيلاء على قيسارية مجموعة من الغارات والأعمال العسكرية السريعة لهدم أو تخريب بعض المواقع تمهيداً للاستيلاء على أرسوف؛ ولتضليل الصليبيين عن معرفة وجهة العمل العسكري المقبل أرسل السلطان أثناء تهديم قيسارية تجريدة بقيادة الأميرين: سنقر الرومي، وسيف الدين المستعرب إلى قلعة للصليبيين عند الملوحة قرب دمشق حيث تمكنوا من تدميرها، كما أرسل إلى حيفا تجريدة ثانية في ٢٦جمادى الأولى / ١٦ آذار بقيادة كل من سنقر الألفي، وسنقر السلاح دار، وعز الدين الحموي، وعندما وصلوها هرب منها الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها، وفي أثناء ذلك انطلق السلطان بنفسه على رأس قوة عسكرية باتجاه عثليت، فأغار عليها، وأمر "بتشعيثها، وقطع أشجارها، فقطعت كلها، وخربت أبنيتها في يوم واحد"، ثم تركها إلى فرصة ثانية، وعاد إلى الدهليز بقيسارية، ليُكمل هدمها، لأن تخريب قيسارية كان قائماً آنذاك ولم ينتهِ.(٢)

وما أن انتهى السلطان الظاهر من تدمير قيسارية حتى تحرك بسرية تامة صوب أرسوف جنوباً، وذُكر من قبل أن السرية وإخفاء وجهة الحملة كانت من تدابير السلطان الظاهر بيبرس في حروبه، حتى لا يأخذ العدو احتياطاته، فوصل أرسوف ونازلها في ١ جمادى الآخرة ٦٦٣هـ/ ٢١ آذار ١٢٦٥م، وضرب حصاره عليها على امتداد جهاتها البرية، ونصب عليها المجانيق، ولا بد من الإشارة إلى أن أرسوف كانت ملكاً للاسبتارية بحق الشراء؛ ذلك أنهم كانوا قد اشتروها من صاحبها السير باليان أوف إبلين، وكانت القلعة مزودة بشكل جيد بالجنود،(٣) واستمر الحصار أربعين يوماً والسلطان ملازم العمل بيده في الحفر، وفي جر المنجنيقات، ورمي التراب ونقل

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٧٤/٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣١٨/٢. المقريزي: السلوك، ٥٢٧/١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٣٠-٢٣٣. العيني: عقد الجمان، ٣٩٧/١. النويري: نهاية الأرب، ٢٦٧/٣٠.ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٠٧.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٧٤/٩. المقريزي: السلوك، ٥٢٧/١-٥٢٨. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٣٤-٢٣٥. العيني: عقد الجمان، ٣٩٦/١.

(٣) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٥٤.

الأحجار، أسوة بغيره من الناس،[1] ولم يقتصر العمل على العسكر المملوكي، بل كان الحضور الشعبي كبيراً أثناء القتال والحصار، وتمثل بالعباد والزهاد والفقهاء الذين حضروا "إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم".[2]

ومع طول الحصار، واستمرار الضرب؛ انهارت المقاومة الصليبية في داخها، وفي الساعة الرابعة من يوم ٨ رجب / ٢٦ نيسان أمر السلطان بالهجوم العام عليها، فسقطت المدينة في يده في اليوم نفسه، فطلب الفرنج الذين تحصنوا داخل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم وأمر بجمع سيوفهم، كما أمر بنقل المصابين منهم إلى يافا.[3]

وأباح السلطان القلعة للناس، وكان فيها من الغلال والذخائر والمال الشيء الكثير، كما كان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض السلطان لشيء منها إلا ما اشتراه بماله، وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين، خلصوا تلك الساعة، وأخذت قيودهم وقيد بها الفرنج، ثم قام السلطان بتقسيم أبراج أرسوف على الأمراء لهدمها، وأمر أن يتولى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار، فهدمت بأيديهم.[4]

وبتحرير قيسارية وأرسوف بقيت يافا بمفردها في الجنوب منعزلة عن شقيقاتها في الشمال، يفصل بينهم مناطق إسلامية محررة تجعل الاتصال بينهم صعباً جداً، شلَّ هذا الأمر حركتها، لذا كتب السلطان إلى أمير يافا بعد تحرير قيسارية وأرسوف يهدده ويحذره قائلاً إن يافا لم تعد " تحتمل الهضيمة، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها تلة مرتفعة، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا ألفاً من المقاتلة لابِسَةً السلاح، وإذا هدموا جدار هدمنا أسوار، والسيف في يدِّ الضارب، والجوادُ عنانه في قبضة الراكب، ولنا يدٌ تقطعُ الأعناقَ، ويدٌ تصلُ الأرزاقَ، ومن تَحَرَّشَ فعن تجربة، ومن أراد شيئاً من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة".[5]

---

[1] المقريزي: السلوك، ٥٨/١-٥٢٩. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٤.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٣٨.

[3] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٧٤/٩-٧٥. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٥٥. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٣٥ وما بعد. العيني: عقد الجمان، ٣٩٧/١. شافع بن علي: حسن المناقب، ص١٨٣-١٨٥.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٤٣.المقريزي: السلوك ٥٣٠/١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٠٧. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٤-٥٥.

[5] ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٤٣.


البحـــر المتوســـط
بـــيروت
صـــيدا
دمشـق
صـور
نهر الليطـــاني
عكا
صـــفد
حيفـــا
ب . طبريـــة
عثليـــت
قيســـارية
أرسـوف
اللـــد
يافـــا
الرملـــة
القـــدس
عســـقلان
غزة
نهر الأردن
البحر الميت
1
2
3
4
5
أعمال الظاهر بيبرس العسكرية في جنوب فلسطين، حملة سنة 663هـ :
1- انعطاف مسير الحملة إلى قيسارية بعد أن كانت متجهة إلى البيرة.
2- سرية الأمير شهاب الدين القيمري المرسلة لمناوشة عكا وإشغالها عن تقديم المساعدة لقيسارية.
3- سرية الأميرين سنقر الأشقر وسنقر السلحدار لمناوشة حيفا بعد تحرير قيسارية وتضليل الصليبيين عن الوجهة الحقيقية للعملية التالية.
4- غارة السلطان بيبرس على عثليت للغاية ذاتها.
5- مسير الحملة بعد تحرير قيسارية إلى أرسوف لتحريرها.

لم يُقدِمِ السلطان على عمل عسكري في هذه الحملة ضد يافا؛ لأنها لم تعد تشكل خطراً، وهي في هدنة مع السلطان الظاهر، ناهيك عن أن حاكمها –كما تقدم– هو الوحيد الذي التزم بالهدنة وقام بتسليم الأسرى.

ورحل السلطان من أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ٢٣ رجب ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥م إلى غزة، ومنها سار إلى مصر، وأثناء عودته إلى مصر أخذ معه الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب ليزين موكبه أثناء دخوله القاهرة وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة.(١)

كانت هذه هي الأعمال الرئيسية التي قام بها السلطان الظاهر في الشام في هذا العام، وهي أعمال تمهيدية أمام الأعمال الكبرى التي قام بها في السنة التالية عندما عاد لمتابعة خطة الفتح والتحرير.

٢–حملة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م إلى جنوب فلسطين:

كانت هذه الحملة استمراراً للحملة الماضية، فقد بقي ميدان العمل جنوب فلسطين، وكان الهدف هذه المرة هو صفد، إلا أن السلطان استهل أعماله بمجموعة من الغارات على القلاع الصليبية، ولا بد من الإشارة إلى أنه غالباً ما كانت غارات الظاهر بيبرس جزءاً من حملة هجومية، فبالغارة على موقع حصين يضمن أن حاميته باتت مشغولة تماماً، وهذا يعني عزل موقع آخر سوف يجري حصاره وصرف الانتباه عنه، وفي هذه الحملة تم إرسال الغارات إلى جهات كثيرة، إلى حد بات فيه الصليبيون لا يمتلكون فكرة واضحة إلى أين يمكن توجيه الحملة الرئيسية، إضافة إلى ذلك؛ كانت أي محاولة تالية للتفريج عن صفد بعيدة جداً عن التأثير والفعالية.(٢)

– الغارات التي سبقت تحرير صفد:

خرج السلطان من مصر في ٣ شعبان ٦٦٤هـ/ ١٠ مايو ١٢٦٦م متوجهاً إلى الشام لاستئناف أعمال التحرير، وعندما وصل إلى غزة قام بتجريد قوة عسكرية على رأسها الأمير أيدغدي العزيزي، والأمير قلاوون إلى حمص لرد أي هجوم قد يشنه بوهيمند السادس – بغض النظر عن أن بوهيمند السادس كان قد هاجم حمص بمساعدة فرسان الداوية والإسبتارية في شهر صفر الماضي، إلا أنه ارتدَّ عنها مهزوماً بعد أن تصدى له نائبها الأمير

(١) المقريزي: السلوك: ١/ ٥٣٤. شافع بن علي: حسن المناقب، ص ١٩٧.

(٢) مارشال: فن الحرب، ص٣٠٠.

علم الدين سنجر الباشقردي[1] –، ثم توجه السلطان بنفسه إلى طرابلس للإغارة على بلادها الساحلية، وقد ركز السلطان – بأعماله هذه – على البلاد التي يمكن أن تقدم العون لصفد عندما يحاصرها، أما الأميران المذكوران فعندما وصلا إلى حمص ارتدا إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغاروا على معقل قريب منه "فأقاموا عليه يوماً واحداً، وأخذوه وأسروا به جماعة"،[2] وكان بقلعة حلبا[3] جماعة فهربوا وأخلوها، ودخل العسكر إليها وكسبوا منها شيئاً كثيراً، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلوهم وأخذوا نساءهم،[4] ولما شاهد أهل قلعة عرقة[5] ما جرى في حلبا تركوها ونجوا بأنفسهم، فخربت العساكر القلعتين المذكورتين، ثم نزلوا على حصن يعرف بالقليعات، وهو حصن عظيم، فتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان وهُدِمَ أيضاً. [6]

بالسيطرة على هذه القلاع الثلاث (حلبا، وعرقة، والقليعات) التي كانت تؤلف خط دفاع محكم يحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي، وكانت تشرف على المنفذ الذي يصل بين حمص وطرابلس، أصبح الطريق أمام القوات الإسلامية –بعد السيطرة عليها– مفتوحاً إلى طرابلس، وضُيق الخناق على طرابلس، وأُخرجت من دائرة إمكانية تقديم المساعدة لصفد، بل أكثر من ذلك؛ ربما جعلت هذه الغارات المكثفة على إمارة طرابلس حاكمها يفكر بأن الحملة هذه ضده، وربما استبعدت صفد أن تكون الحملة ضدها، هذا في الوقت الذي قام فيه السلطان بتجريد قوات جديدة للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول الساحل الشامي على النحو الآتي:

---

[1] شافع بن علي: حسن المناقب، ص٢١٤. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٢٨١–٢٨٢. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٦.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥١. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٢٨٣.

[3] حالياً تشكل إحدى مديريات محافظة طرابلس في جمهورية لبنان. انظر، محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣ م، ٣/ ٢٣١.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥١. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٢٨٣.

[5] عرقا أو عرقة، تقع شرق طرابلس مسافة أربع فراسخ. الحموي: معجم البلدان، مادة عرقة، ناصر خسرو (أبو معين الدين القبادياني، ت: ٤٨١هـ): سفر نامه، تر: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٤٧.

[6] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥١–٢٥٢. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١١٦. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٦. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٣٠.

- جرد الأمير علاء الدين البندقداري والأمير عز الدين أوغان إلى صور، فأغاروا على الصليبيين هناك فغنموا وأسروا منهم.
- بعث الأمير بدر الدين الأيدمري، والأمير بدر الدين بيسري إلى جهة حصن القرين.
- أرسل الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة.
- وأرسل الأمير ناصر الدين القيمري إلى عثليت.
- سار السلطان بنفسه بقسم من الجيش للإغارة على صور ثم على عكا.
- وتوجه الأمير إيتامش إلى صيدا.

هكذا يكون الهجوم قد شمل المنطقة من طرابلس شمالاً حتى أرسوف جنوباً، فكثرت الغنائم بأيدي الجنود حتى لم يوجد من يشتري البقر والجاموس، والسلطان آنذاك نازل على عكا حتى وافته العساكر، فتحرك باتجاه صفد في يوم الاثنين ٨ رمضان ٦٦٤ هـ/حزيران ١٢٦٦م.[١]

- **تحرير صفد ١٨ شوال ٦٦٤هـ/ ٢٣ تموز ١٢٦٦م:**

قبل أن يتحرك السلطان إلى صفد؛ وأثناء إقامته على عكا، أنفذ إلى صفد الأمير فخر الدين الشهابي في قوة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة، كما أرسل إلى قلعة الشقيف أميراً آخر تمكن من استمالة أهلها، لمنعهم من تقديم العون لصفد عند محاصرتها،[٢] وبدأت الجيوش المغيرة تتجمع حول صفد، بعد أن أنفذت غاراتها الفعالة ضد الصليبيين، فقد شعثوا المناطق، وأضعفوها بشكل يحول دون تقديم المساعدة لصفد، فتكامل حضور الجيش أمام صفد في ٨ رمضان ٦٦٤هـ/ ١٣ حزيران ١٢٦٦م، ثم شرع من فوره بضرب حصاره عليها، وكانت القلعة آنذاك تابعة للداوية، وهي محصنة بشكل جيد.[٣]

---

[١] المقريزي: السلوك، ٥٤٥/١. النويري: نهاية الأرب، ٣٨٤/٣٠-٣٨٥. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٥٣. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٣٧/٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٦٣.

[٢] شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٢٢٣.

kings the knights hospitallers in Holly Land، London، 1931، p 260

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٦٣-٦٤.

كانت صفد في الواقع قادرة على إعاقة وصول المسلمين إلى الأراضي الخصبة غربي الأردن، كما كانت قادرة على إعاقة تقدم القوات غرباً باتجاه المراكز الصليبية، وبالتالي فالسيطرة عليها لابد منه كضرورة استراتيجية، أوكخطوة أولية في سبيل التقدم نحو المراكز الصليبية الواقعة إلى الغرب منها مثل عكا، وحيفا، وعثليت، وصور.

وكانت في صفد قلعة حصينة جداً، وصفها العثماني قائلاً: "كان حصنها من أجلِّ حصون الإفرنج وأمنعها، وأشدها ضراً على المسلمين وأشنعها، وكان بها طائفة يُقال لها الداوية، نار موقدة وبلية، عزبان فرسان، معدودون للغارات على البلدان، تصل غاراته من جهة دمشق إلى داريا ومايليها، ومن جهة بيت المقدس إلى كركمة[١] ونواحيها".[٢]

كما قدم المؤرخ الصليبي المجهول صاحب رسالة (بناء قلعة صفد) وصفاً دقيقاً للقلعة، فبعد أن تحدث عن موقعها الاستراتيجي في منتصف الطريق بين دمشق وعكا في الجليل الأعلى، قال إنها كانت على قمة محاطة تماماً بالجبال، والهضاب، والجروف، والمنحدرات، وهذه تشكل دفاعات طبيعية للقلعة، ناهيك عن خط مزدوج من الأسوار، الأسوار الداخلية كان إرتفاعها حوالي ٤٤م، مع سبعة أبراج ارتفعت فوق السور هذا بأربعة أمتار، والأسوار الخارجية كان ارتفاعها حوالي ٢٢م، وبين السورين خندق طوله حوالي ٨٢٥م، وكان حجمها الكلي حوالي ٣٣٠×١٧٠م، وشحنت القلعة بكل ماتحتاجه من آلات الحرب، وكان فيها ١٧٠٠ مقاتل أيام السلم، يزدادون إلى ٢٢٠٠ في أوقات الحرب، ويذكر أنه من سمات الفخامة للقلعة أنه يمكن الدفاع عنها بقلة من العسكر، وأنه لا يمكن حصارها إلا بواسطة جيش كبير جداً.[٣]

- **أهمية صفد:**

كونت قلعة صفد خط دفاع أمامي للصليبيين في الساحل، ومنعت المسلمين من التوغل إلى عكا، فقبل بنائها كانت غارات "المسلمين والبدو والخوارزمية والتركمان" تصل إلى عكا،[٤] غير أن بناء القلعة — حوالي سنة

---

[١] ربما المقصود بها كفركما.

[٢] العثماني (محمد بن عبد الرحمن الحسيني، ت: ٧٨٠هـ): تاريخ صفد، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٩م، ص١٢٧.

[٣] مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد، تر: سهيل زكار، منشور ضمن كتاب تاريخ صفد، ص ٧١-٧٤.

[٤] مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد، ص ٧٥.

٦٤١هـ/١٢٤٣م- وضع حداً لهذه الغارات، ولم يعد بإمكان المسلمين عبور نهر الأردن بشكل مكشوف، والتوغل بعيداً ما لم يكن معهم جيش كبير، وأصبح تحرك الصليبيين ما بين صفد وعكا يتم بحرية كبيرة.

كما شكلت هذه القلعة نقطة انطلاق للغارات وعمليات الانقضاض الصليبية ضد الأراضي الإسلامية المجاورة حتى دمشق، وبسبب بناء هذه القلعة لم يعد بإمكان المسلمين زراعة الأراضي المجاورة ولا الرعي فيها، "ونتيجة لذلك سوف تتحول أراضيه – أي أراضي حاكم دمشق — إلى الدمار والخراب، وسوف يكون أيضاً مرغماً على تحمل نفقات كبيرة، وأن يستخدم الجنود المأجورين من أجل الدفاع عن دمشق والمناطق المحيطة بها".(١)

أضف إلى هذه الأضرار التي كانت تسببها قلعة صفد أن السلطان كان على يقين تام بأن تحرير عكا؛ وإلى حدٍّ ما طرابلس، أمر غير ممكن في ذلك الوقت، والوسيلة الأفضل هي تجريدهما من ممتلكاتهما، وتدمير خطوطهما الدفاعية، ثم إعمال الغارات عليهما لإضعافهما حتى تحين فرصة الانقضاض عليهم، فهو كان قد دخل عكا قبيل معركة عين جالوت،(٢) وشاهد عن كثب الدفاعات القوية لمدينة عكا، وفي هذا السياق تأتي أهمية تحرير صفد وإزالة الستار الشرقي عن عكا، وأكثر من ذلك جَعلُ صفد نيابةً مهمتُها متابعةُ العمل ضد الصليبيين لكي تتفرغ دمشق لأمر المغول.

وعند العودة إلى الحصار، فقد وصلت المجانيق من دمشق إلى صفد مفككة في ١٢ رمضان / ٢٦ حزيران، ولم تبدأ في الرمي حتى ٢٦ رمضان / ١ تموز، بعد تجميعها ونصبها، وبتكامل وصول القوات شرع السلطان بشنِّ هجومه الأول في ثاني يوم العيد ٢ شوال / ٧ تموز مستخدماً السهام والرماح المشتعلة بالنفط، هذا كان بعد قصف المدينة بالمجانيق، وقد وعد السلطان الحجارين أنه من أخذ أول حجر كان له مئة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة، وأمر حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته، فكان بين الفريقين قتال عظيم، وقاد السلطان بنفسه هجوماً على خندق الباشورة (سد ترابي) إلا أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، غير أنه أحدث فتحات في أسوارها، ونتيجة لكثرة الجرحى بين صفوف المقاتلين، نَصَبَ السلطان خيمةً فيها حكماء وجراحين وزودها بالطعام والشراب ، فصار من يُجرح يُجلب إليها.

---

(١) مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد،ص ٦٦-٦٨.

(٢) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٦.

وفي ٨ شوال / ١٣ تموز شنَّ السلطان هجوماً ثانياً، فلم يتمكن من اقتحام المدينة، ولكنه نجح في إقامة جسر على باب القلعة، ثم كرر الهجوم في ١١ شوال ١٦ تموز، وأخفق مرة أخرى، وتعود أسباب هذا الإخفاق المتكرر إلى منعة القلعة وقوتها، فقد جددت استحكاماتها من قبل فرسان الداوية قبل خمسة وعشرين سنة، كما أن الحامية فيها وفيرة العدد.

لم يزل السلطان مصراً على اقتحام المدينة مع هذه الصعاب، فقام في ١٤ شوال / ١٩ تموز بهجوم آخر اشتد القتال فيه واستمر طوال الليل حتى صباح ١٥ شوال، فتمكن على إثره من الاستيلاء على التحصينات الأولية ورفع أعلامه عليها، ودحر الصليبيين الذين اندفعوا إلى القلعة وتحصنوا بها،[١] واستمر السلطان يناصبهم الحصار ويناهزهم القتال، ثم عمد إلى حيلة توفر عليه عناء الحصار، إذ أعلن بأنه سيمنح العفو لكل السريان[٢] الموجودين في الداخل، وكانت هذه خطة ذكية من السلطان إذ أحدث انشقاقاً بينهم؛ وبدأت الاتهامات بالخيانة تُكال من الصليبيين للسريان، وأمام شدة الهجوم وضياع خطوط الدفاع الأولية؛ وفقدانهم الأمل بأي مساعدة، ناهيك عن الخلاف الذي دبَّ بينهم، قرروا الاستسلام وطلب الأمان،[٣] فاشترط عليهم " أن لا يستصحبوا سلاحاً، ولا لامة حرب، ولا شيئاً من الفضيات، ولا يتلفوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم، وأن يُفتشوا عند خروجهم، فإن وُجِدَ مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض العهد".[٤]

واستمرت المفاوضات حتى تم الاتفاق على هذه الشروط في يوم الجمعة ١٨ شوال / ٢٣ تموز، فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب، وطلعت الصناجق – الأعلام – وكانت ساعة مشهودة، ووقف السلطان راكباً على باب صفد ونزل الفرنج أولاً فأولاً، وصاروا جميعاً في يديه، وفي أثناء تفتيشهم وجد بأنهم قد نقضوا شروطه، إذ

---

[١] المقريزي: السلوك، ٥٤٦/١-٥٤٧. النويري: نهاية الأرب، ٢٨٥/٣٠-٢٨٧. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٥٨-٢٥٩.

[٢] والمقصود بالسريان هنا أي المسيحيين الشرقيين.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٦٤.

[٤] المقريزي: السلوك، ٥٤٧/١. العثماني: تاريخ صفد، ص ١٢٨. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٦٠-٢٦١. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٩٠/١-٤٩١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٣٧/٢. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٥٧.

اصطحبوا معهم أسلحة وبعض أسرى من المسلمين على أنهم نصارى، فأمر السلطان بضرب رقابهم، فضربت على تلة قريبة من صفد، وكانوا زهاء ألفي فارس.[1]

ولم يبق من الفرنج إلا شخصان، أحدهما الرسول؛ لأنه اختار أن يقيم عند السلطان ويسلم، فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعاً وقربه، والآخر تُرِكَ حتى يُخبر الفرنج بما شاهده.[2]

بينما تذكر بعض المصادر في هذا الصدد رواية تدل على أن جنود حامية صفد لم تُخِلَّ بالشروط، وأن السلطان لم يكن مرتبطاً معهم شخصياً بعهد أمان، فهو لم يحلف لأهل صفد، وإنما عندما جاء الوفد الصليبي أجلس مكانه الأمير كرمون آغا التتري، وأوقف الأمراء في خدمته، وحلف لهم كرمون وهم يظنونه السلطان، أما السلطان فقد فعل هذا؛ لأن في نيته الانتقام "لما أنكوا ولما فعلوا بالمسلمين"،[3] فلم يشأ أن يتقيد بيمين يحلفه.

ويذكر الفارس الداوي – وهو شاهد عيان– رواية قريبة جداً من الرواية الإسلامية، فيقول: إن الرسول الصليبي إلى السلطان، واسمه ليوكاساليير (Leocasalier)، كان على علم بالخديعة؛ لكنه لم يجرؤ على البوح بها، فهو عرف السلطان جيداً، لذلك فإن السلطان أطلعه على الحيلة؛ بأنه سوف يرسل بدلاً منه أميراً يشبهه يحلف لهم على الأمان "ثم يجعلهم بعد ذلك طعمة لسيفه، وإذا ما رغب ليو بالتعاون معه وتسهيل هذا العمل فإن السلطان سوف يعطيه جميع الأشياء الممتازة، لكنه إذا رفض فهو عندما سيستولي على القلعة سوف يقتله، ولكن بشكل شنيع خاص".

وأمام التهديد وافق الرسول، وفي اليوم التالي ذهب الأمير على أنه السلطان إلى أمام القلعة وحلف لهم، وظنوه أنه السلطان، وشعروا بالثقة، وفي اليوم التالي عندما بدأوا بالخروج اقتيدوا إلى خارج صفد، إلى رابية صغيرة، وهناك جرى إعدامهم بقطع رؤوسهم، أما الراهب ليو فإنه بقي عند السلطان وأسلم.[4]

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢١٦-٢٦٢. العثماني: تاريخ صفد، ص ١٢٨. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١١٧-١١٨. النويري، نهاية الأرب، ٢٨٩/٣. العيني، عقد الجمان، ٤٢٢/١.

[2] المقريزي: السلوك، ٥٤٨/١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٢.

[3] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١١٧-١١٨. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٣٨/٢. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٩٢/١. ويقول صاحب مرآة الجنان أنه أخذها خديعة. اليافعي (عبد الله بن أسعد اليمني المكي، ت:٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م، ج٤، ص١٦٢.

[4] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٦٤-٦٦.

وعندما علم أهل عكا بقتل هذا العدد في صفد، سيروا إلى السلطان يطلبون جثث القتلى قائلين له: "تَصدَّق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة بهم"، فترك السلطان رسولهم في خيمته، ثم أخذ كوكبة من الفرسان وساق في أول الليل إلى عكا فما أصبح إلا وهو على بابها، فلما فتح الصليبيون الباب وخرجوا لقضاء حوائجهم ساق عليهم فقتل منهم عدداً كبيراً، وعاد من فوره إلى صفد، فلما دخل إلى خيمته طلب رسول عكا، وأعاد إليه الرسالة قائلاً له: "عُدْ إليهم فقد عملنا عندهم شهداء، وكفيناكم مئونة النقل وكلفته".[1]

اتخذ السلطان الظاهر بيبرس من مدينة صفد بعد تحريرها مركزاً لنيابة جديدة من نيابات السلطنة في الشام — وكانت قبل ذلك إحدى معاقل رهبنة الفرسان الداوية — كما أمر بعمارتها وتحصينها، ونقل الذخائر والأسلحة إليها، وأقطع بلدها لمن رتبه لحفظها من الأجناد، وقَدَّم عليها الأمير علاء الدين كندغدي، وولى في قلعتها الأمير مجد الدين الطوري، وصير نيابته في بلدها إلى الأمير عز الدين أيبك العلائي، واستدعى السلطان الرجال لملاقاته بصفد، كما رتب فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه،[2] وبعد ذلك احتلت نيابة صفد مكاناً استراتيجياً في وسط بلاد الشام، واتسعت بحيث أصبحت تشمل المنطقة من البحر المتوسط غرباً، وحوض نهر الزهراني شمالاً، أما من الشرق فقد امتدت من طرف مرجعيون حتى نهر الحاصباني ثم مجرى نهر الأردن حتى جسر الصنبرة، في حين شكل طرف مرج ابن عامر الشمالي حدودها الجنوبية. [3]

امتلكت هذه النيابة إمكانيات اقتصادية عالية، بالإضافة إلى القوة العسكرية التي تم حشدها هناك، والتحصينات التي زودت بها المدينة، كل ذلك ساعدها على أن تؤدي دورها التي أقيمت من أجله في مواجهة عكا وبقية الممتلكات الصليبية في الساحل الشامي، لكي تتفرغ دمشق للتصدي للمغول.

---

[1] ابن أيبك الدوادار: الدرة الذكية، ص١١٨. العثماني: تاريخ صفد، ص ١٢٨. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ٤٩٣.

[2] المقريزي: السلوك، ٥٤٨/١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٤٣/٢. العثماني: تاريخ صفد، ص ١٣٠.

[3] العمري: التعريف بالمصطلح، ص ٢٣٦-٢٣٧. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٥٦-١٦٠.ابن شيخ الربوة: شيخ الربوة (محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى، ص ١٩٢-٢١٤. سهيل زكار: فلسطين في العصر المملوكي، ص٥٥٦-٥٥٧.

- **التحركات بعد تحرير صفد:**

زالت بتحرير صفد القوة الرئيسية للصليبيين في العمق الفلسطيني، وبات وجودهم محصوراً على الساحل في شريط أضيق من قبل، كما أن هذا العمل أتاح للظاهر التحرك بحرية أكبر في الداخل (غربي نهر الأردن)، فقام بتحرير طبرية وهونين وتبنين واللد والرملة، وعيَّن على هذه النواحي عمالاً،[١] ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى دمشق في ٢٧ شوال ٦٦٤هـ/ ١ آب ١٢٦٦م، وأمر الجيش بعدم دخولها؛ لأنه سيتوجه مباشرة إلى مملكة إرمينية الصغرى لتدميرها.[٢]

قرر السلطان في هذه الأثناء مهاجمة إرمينية الصغرى بسبب مواقفها العدائية من السلطنة المملوكية، منتهزاً فرصة انشغال حلفائها المغول في حروب عديدة، لذا جرَّد جيشاً بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون، والملك الأيوبي المنصور – صاحب حماة– ضد إرمينية، وجال الجنود إرمينية مدمرين ومخربين كثيراً من القرى، وآسرين عدداً من الناس، وكان ملك إرمينية آنذاك غائباً في زيارة للمغول بعد أن ترك في إرمينية ابنيه طوروس وليون، فقُتل طوروس، وأُسر ليون مع كثير من الناس، وعندما وصلت أخبار انتصاراتهم خرج السلطان إلى أفاميا لملاقاتهم، وعاد على رأسهم إلى دمشق، [٣] ومن دمشق عاد إلى مصر عبر طريق الكرك، وأثناء عودته كسرت فخذه عندما وقع عن فرسه أثناء الصيد، فحمل إلى القاهرة، وتعافى بعد مدة.[٤]

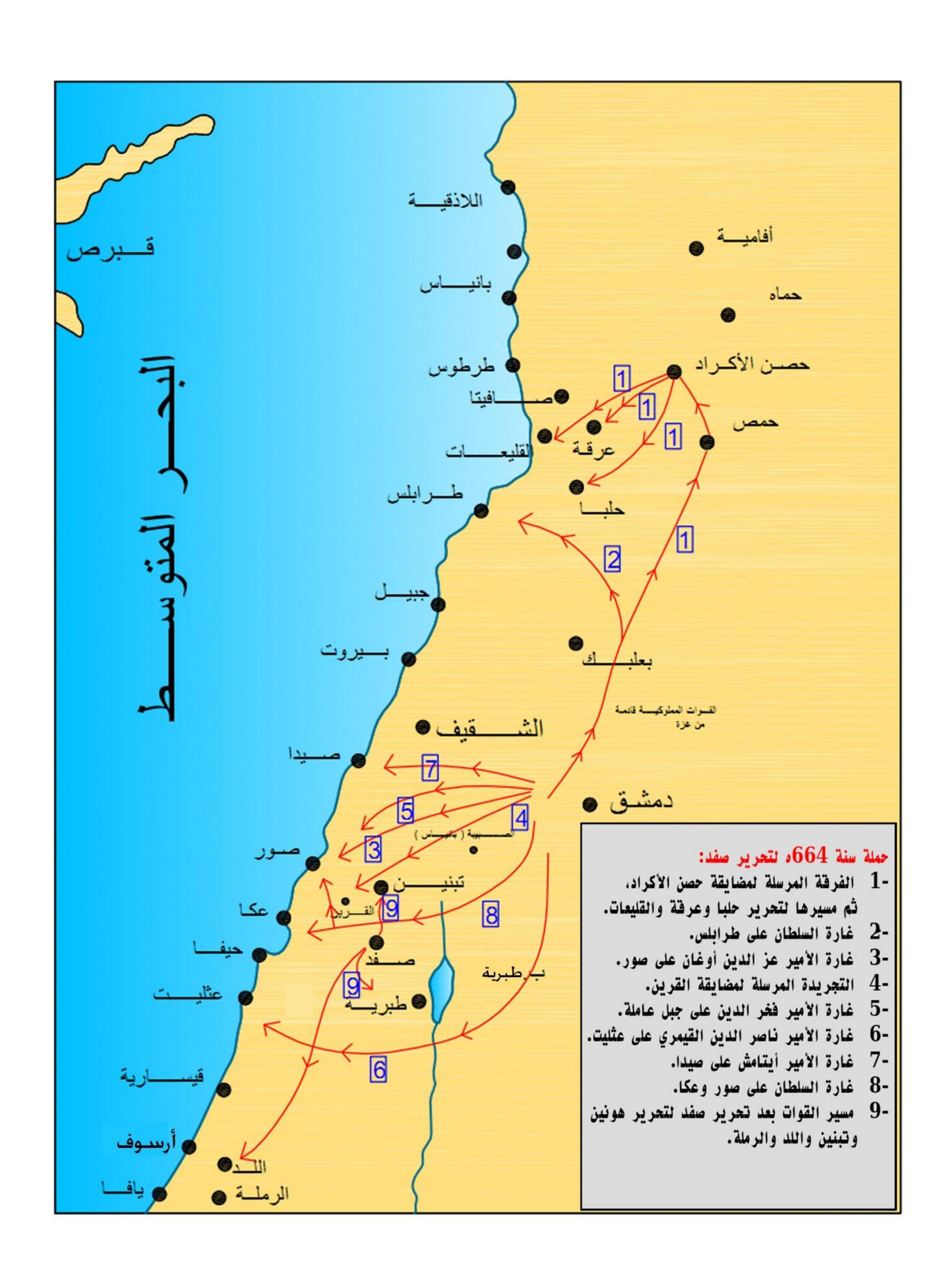
---

[١] المقريزي: السلوك، ١/٥٥٠.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١١٨. بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص٥٨.

[٣] انظر الفصل الثالث، حملة سنة ٦٦٤هـ.

[٤] المقريزي: السلوك، ١/٥٥٥. النويري: نهاية الأرب، ١٣٣/٣٠.


قــبرص
البحـــر المتوســـط
اللاذقيـــة
بانيـــاس
طرطوس
صـــــافيتا
القليعـــات
عرقــة
طـــرابلس
حلبـــا
جبيــل
بـــيروت
بعلبـــــك
الشـــــقيف
صـــيدا
صـــور
عكا
حيفـــا
عثليـــت
قيســـارية
أرسـوف
يافـــا
اللــد
الرملـــة
تبنيـــــن
القــــرين
صـــفد
طبريـــه
ب.طبرية
دمشــق
أفاميـــة
حماه
حصـن الأكـراد
حمص
القـوات المملوكيـــة قادمة
من غزة
حملة سنة 664ه لتحرير صفد:
1- الفرقة المرسلة لمضايقة حصن الأكراد، ثم مسيرها لتحرير حلبا وعرقة والقليعات.
2- غارة السلطان على طرابلس.
3- غارة الأمير عز الدين أوغان على صور.
4- التجريدة المرسلة لمضايقة القرين.
5- غارة الأمير فخر الدين على جبل عاملة.
6- غارة الأمير ناصر الدين القيمري على عثليت.
7- غارة الأمير أيتامش على صيدا.
8- غارة السلطان على صور وعكا.
9- مسير القوات بعد تحرير صفد لتحرير هونين وتبنين واللد والرملة.

٣-المهادنات مع القوى الصليبية سنة٦٦٥هـ/١٢٦٦-١٢٦٧م:

لم يقم السلطان في هذه السنة بأي عمل هجومي كاسح، فكان جلُّ عمله استغلال نصره العسكري السالف سياسياً، بالإضافة إلى إعادة بناء صفد، وإكمال تهديم المعاقل التي أخذها من الفرنج في منطقة الساحل، ليمنعهم من الاستفادة منها فيما لو استعادوا سيطرتهم عليها، أما صفد فكان لا بد من إعادة بنائها لأنها في داخل الشام، وتسيطر على أراضي الخليل، فإذا حُصِّنَتْ ووضعت فيها حامية قوية فسوف تحمي الناحية الجنوبية الشرقية من أراضي السلطان في الشام من هجمات الصليبيين، لهذا خرج السلطان من مصر على رأس قسم من جيشه في جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ/ شباط ١٢٦٧م، والهدف الرئيس هو إعمار صفد وقلعتها،[١] وكان قبل ذلك قد أمر ببناء قلعة قاقون قرب الرملة لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد اكتملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي وصل فيه إلى بلاد الشام جمادى الآخرة ٦٦٥هـ/ آذار ١٢٦٧م، وحوَّل كنيستها إلى جامع، وعَمُرَت بمن قطنها.[٢]

وعندما وصل السلطان إلى غزة وَرَدَ عليه رُسُلُ الصليبيين ومعهم الهدايا وجماعة من أسرى المسلمين، هديةً له تعبيراً عن حسن نواياهم، فقد كانوا راغبين في كسب وده، وموادعته، فكسا الأسرى وأطلق سراحهم وأحسن للرسل،[٣] وفي صفد عُقدت سلسلة من المعاهدات والهدن مع البيوت الصليبية المختلفة، لكن قبل هذه المعاهدات قام السلطان بغارات خاطفة على عكا رداً على غاراتهم على الشقيف ومشغرا، وكانت أول غارة في ٢ نيسان ١٢٦٧م، حيث وصل متنكراً وهو يرفع رايات الداوية والإسبتارية فقتل أكثر من خمسمئة صليبي، وأسر وخرب ورجع إلى صفد، وفي ١٦ نيسان ظهر للمرة الثانية أمام عكا، ومعه حوالي ثلاثة آلاف فارس نشرهم في سهل عكا، وكان قبل ذلك بيوم قد خرج الصليبيون للإغارة على بعض قرى المسلمين حول القرين، وفي أثناء عودتهم رآهم المسلمون فانقضوا عليهم وقتلوا حوالي أربعمئة فارس منهم، بالإضافة إلى عدد من الأسرى، ثم عاد السلطان

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص٢٨٠. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٣٧.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٧٥. المقريزي: السلوك، ٥٥٧/١. بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص٣٣.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٨٠.

من صفد إلى عكا مرة ثالثة، فدمر طاحون للاسبتار وأتلف البساتين والحدائق والكروم التي كانت حول عكا ثم عاد.[1]

أقلقت هذه الأعمال الصليبيين، فورد عليه أثناء إقامته في صفد رُسُلٌ من مختلف القوى الصليبية في بلاد الشام تلتمس الموادعة والهدنة لخشيتهم بأن يقوم السلطان بالانقضاض على معاقلهم بعد أن أفزعتهم تلك الانتصارات التي حققها في الأعوام الماضية.

وفي صفد عُقدت المعاهدات الآتية:

- عقد السلطان معاهدة مع رسل ملكة بيروت "ايزابيلا دي ابلين" وكان قد طردهم قبل عام؛ لأن أخاها كان قد غدر بتجار مسلمين يتاجرون مع قبرص، فأسرهم عندما لجأوا إلى ميناء بيروت، ولم ينتظم الصلح حتى تم التعهد بإطلاق التجار ورد أموالهم ومراكبهم.
- عقد معاهدة مع رسل أمير صور "فيليب دي مونتفرت"، بعد أن اعترف فيها أمير صور بحق السلطان في تبنين وهونين، كما تعهد بدفع غرامة قدرها ١٥ ألف دينار، تعويضاً عن غلام للسلطان كانوا قد قتلوه، كما قاموا بإطلاق أسرى مسلمين مغاربة عندهم، وكانت مدة الهدنة عشر سنوات.
- جدد الهدنة مع رسل الملك هيثوم الأول ملك إرمينية الصغرى؛ لكنه لم يطلق سراح ولده ليون المأسور في القاهرة.
- عقد الصلح مع الإسبتارية في حصني الأكراد والمرقب، وأبطل بموجبه ما كان يأخذه من الإسبتارية من قطيعة عن بلاد الدعوة – أي الدعوة الإسماعيلية– وحماه وشيزر وأفاميا وأبي قبيس، ومدة الهدنة أحد عشرة سنة تقريباً، وبشرط أن يكون فسخ الهدنة حقاً للسلطان متى شاء.
- اتفق مع الصليبيين على تقديم نصف صيدا للسلطان وهدم الشقيف.[2]

ولما انتهى السلطان من بناء صفد، وعقد هذه المهادنات عاد أدراجه إلى القاهرة في أوائل سنة٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م.

---

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٦٧ – ٧٠. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٨١-٢٨٢. العيني: عقد الجمان، ٢/٨-٩.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٨١-٣٨٤. العيني: عقد الجمان، ٢/٨-٩. المقريزي: السلوك، ١/٥٥٩.

في الحقيقة أسفرت رحلة السلطان هذه إلى بلاد الشام عن استراتيجية ذكية، وخطة محكمة قد وضعها السلطان الظاهر هدفت إلى خرق صفوف الصليبيين بعد أن دَبَّ الرعب بينهم وأظهر لهم مدى قوته، وبهذه المهادنات يكون قد ربط المعاقل التي لا يفكر بالاستيلاء عليها بمعاهدات تحول بينها وبين تقديم المساعدات للمعاقل التي تتصدر قائمة مخططاته العسكرية، وأكبر دليل على هذا أنه رفض تجديد المعاهدة مع يافا عندما قدمت عليه رُسُلُ صاحب يافا الجديد وهو في صفد، واحتج على أميرها وقال له: "الذي كان معي صلحاً قد مات"،[1] لأن يافا –كما سيتبين –كانت هي المعقل المستهدف بالدرجة الأولى، ولا سيما بعد أن أصبحت معقلاً وحيداً تحيط به المعاقل الإسلامية من كل جانب.

٤- حملة سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م:

- **تحرير يافا، جمادى الآخرة ٦٦٦هـ/ آذار ١٢٦٨م:**

كانت عسقلان حتى سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م آخر نقطة للصليبيين جنوباً، غير أنه حدث في هذه السنة أن حُررت عسقلان،[2] وغدت منذ ذلك الوقت يافا هي الموقع الأكثر حصانة للصليبيين جنوباً وهي آخر نقطة لهم، كما كانت قاعدة مهمة من أجل الإغارة على الأراضي الاسلامية.[3]

و بتحرير قيسارية وأرسوف قبل ثلاثة أعوام أصبحت يافا معزولة عن بقية الصليبيين، والخطر يتهددها من جميع الجهات، وقد عبَّر البابا أوربان الرابع عن قلقه على مستقبل يافا ضمن المحيط الإسلامي، فخصص لها جزءاً كبيراً من الضريبة السنوية التي كان يتم جمعها في أوربا من أجل الدفاع عن الشرق اللاتيني، وأمر بتقوية دفاعاتها، وترميم قلعتها، وجعلها جاهزة للدفاع عن نفسها.[4]

وكان الهدف الرئيسي لهذه الحملة هو تحرير أنطاكية، لكن على ما يبدو أراد السلطان أن يُنهي أعماله في جنوب فلسطين قبل أن ينقل المعركة إلى شمال بلاد الشام، ناهيك عن أن أهل يافا كانوا "يحملون الميرة إلى عكا، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا، وأقاموا في يافا حانة، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسباباً ليست

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٣.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ٥/ ٣٧٨. المقريزي: السلوك، ١/٣٢٨.

[3] ماريشال: فن الحرب، ص ٢١٠.

[4] ماريشال: فن الحرب، ص ١٢٠.

في هدنة"؛ لذلك عزم السلطان على تحريرها، فعندما خرج من القاهرة أرسل إلى نائب دمشق يأمره بتجهيز الجيش الشامي والخروج إلى قلعة الشقيف، ومحاصرتها ليشغلها عن تقديم المساعدة ليافا، ثُمَّ توجَّه هو إلى العوجا لمهاجمة مدينة يافا، وعند وجوده هناك وفدت عليه رُسُلُ صاحب يافا تطلب الهدنة، فأمر السلطان باعتقالهم، ثم شرع من فوره بحصارها، وفتحها عنوة في اليوم نفسه ٢٠ جمادى الآخرة / ٧ آذار فالتجأ أهلها إلى القلعة، فحاصرها السلطان إلى أن تسلمها صلحاً في اليوم المذكور، ودخل السلطان إلى المدينة بعد حصار دام اثنتي عشرة ساعة، وسمح لأهلها بالخروج وأعطاهم الأمان، وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، وركبوا البحر إلى عكا، ثم شرع في هدم المدينة، وجمع بعد ذلك الأخشاب والرخام وأرسلها بحراً إلى القاهرة لبناء الجامع الظاهري.[١]

- **تحرير الشقيف:**

كانت الشقيف (شقيف أرنون) عائدة للداوية،[٢] وهي من أحصن المعاقل وأحسنها،[٣] كانت القلعة قائمة على موقع مرتفع فوق نهر الليطاني وتتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع–حالياً جنوب لبنان–، وهذا الموقع محمي من الشرق بجرف جبلي شديد الانحدار ينزل إلى الليطاني مسافة تقدر ب٣٠٠م، أما على الجانب الغربي فالمنحدرات أكثر لطفاً – تنحدر إلى قرية عرمون– لذلك قويت الدفاعات من هذه الجهة، ومن الشمال القلعة محمية بحوض(خندق مائي) واسع منحوت بالصخر، بالإضافة إلى هذه القلعة كانت هناك قلعة صغيرة أسفل منها تتصل معهما بطريق صخري ضيق من جهة الشرق.[٤]

وكما ذكر من قبل، فالسلطان لما خرج من القاهرة أرسل إلى العسكر الشامي بالتوجه إلى الشقيف، فنقلوا المجانيق إليها، ثم أرسل إليها عسكراً مصرياً بقيادة الأمير بجكا العزيزي لمضايقتها، ولما فرغ السلطان من هدم يافا قصد

---

[١] مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٠٣-٥٠٤. ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر، ص٢٩٢-٢٩٣، المقريزي: السلوك، ٥٦٤/١ – ٥٦٥. ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر، ص١٢٤. العيني: عقد الجمان، ١٩/٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ٧٦. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ٦١-٦٢. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٣٤. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٤.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٧٦.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٥.

[٤] هيوج كندي: القلاع الصليبية، تر: سهيل زكار، مطبوع ولكنه لم ينشر بعد، ص ٦٦. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، تر: محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢م، ص ٨٠.

الشقيف، ونزل عليها في ١٩ رجب ٦٦٦هـ/ ٤ نيسان ١٢٦٨م بعد أن قَدِمَ عليه للمشاركة في الجهاد كالعادة عددٌ كبير من الفقهاء والفقراء، ورمى القلعة بالمجانيق في اليوم الثاني من وصوله.[1]

وكان أهل الشقيف قد أرسلوا إلى عكا يطلبون المساعدة عندما نزل عليهم العسكر، فسير أهل عكا جوابهم إلى الشقيف، ولحسن حظ السلطان وقع الرسول بين يديه، وقُرِئَتْ الرسالة، فكان مضمونها يحضهم على الصمود، وأن المسلمين غير قادرين على أخذها، فجدوا في أمركم، فجلب السلطان أحد التراجمة وأمره أن يكتب بلغتهم على لسان أهل عكا إلى مقدم الشقيف يحذره من الوزير المقيم عنده، وأرسل في الوقت ذاته كتاباً إلى الوزير نفسه يحذره من مقدم الشقيف، فدب الخلاف بينهم، وأخذت الفتنة تستعر في القلعة، في الوقت الذي شدد فيه السلطان الحصار عليها مستخدماً ستاً وعشرين منجنيقاً لقصفها، وعلى ما يبدو أنه كان في للمدينة قلعتان، أخلى الصليبيين إحداهما وأحرقوها، فسيطر عليها السلطان، وشدد حصاره على الثانية، ونتيجة لذلك "سألوا الأمان على نفوسهم، وأنهم يأخذون أسرى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال، فأجاب السلطان إلى ذلك".[2]

دخل السلطان القلعة ٢٩ رجب / ١٥ نيسان من السنة ذاتها، وأخرج النساء والأطفال إلى صور وسيَّر معهم من يحفظهم، في حين قيَّد الرجال وسلمهم للعسكر، ثم شرع في هدمها، إلا أنه عاد وولى الأمير سيف الدين بلبان الزيني عمارتها فيما بعد نظراً لأهميتها العسكرية.[3]

فتح الشقيف هذا أثار حفيظة ملكة بيروت، فخافت من المصير ذاته، لذا أرسلت إلى السلطان تفاوضه على استمرار الهدنة، ولكي تظهر مصداقيتهما، توقفت عن المماطلة في تسليم التجار وأموالهم، وأعادتهم إلى السلطان، عندئذ أقر السلطان استمرار الهدنة.[4]

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٦. ابن أيبك الدوادار: الدرة الزكية، ص١٢٥. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/٥٠٦ وفيه يذكر أن السلطان نزل عليها في ١٨ رجب. العيني: عقد الجمان، ٢/٢٠.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٥-٢٩٨. المقريزي: السلوك، ١/٥٦٥-٥٦٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٢٥-١٢٦. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٠٦-٥٠٧. العيني: عقد الجمان، ٢/٢٠-٢١.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٨-٢٩٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٢٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٣٧٦-٣٧٧. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٥. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٦٢. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٣٦.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٩.

- **تحرير أنطاكية، رمضان ٦٦٦هـ/ أيار ١٢٦٨م:**

عند تحرير يافا غدت جنوب بلاد الشام منطقة آمنة، وأصبح بإمكان الجيوش الإسلامية أن تتحرك بحرية بين مصر والشام، ويمكن عَدُّ تأمين الطرق بين مصر والشام من أهم أهداف العمليات العسكرية في جنوب بلاد الشام، ووِفْقَ الخطة التي سار عليها الظاهر بيبرس؛ وهي تجزئة الامتداد الصليبي إلى كيانات متباعدة تفصل بينها الأراضي الإسلامية المحررة، توجه السلطان إلى أنطاكية لتحريرها، ولعل السبب الأهم في التوجه إلى أنطاكية هو السبب الاقتصادي، ففي العام المنصرم جرد السلطان حملة إلى إرمينية الصغرى بعد أن رفضت طلبه بفتح معابر تجارية مع المماليك، فجرد ضدها حملة خربت مدنها،[(١)] لكنها لم تحقق مكاسب تجارية، ولما فشل في الاستيلاء على ميناء إياس، سَيَّر هذه الحملة للسيطرة على أنطاكية لكي يستخدم ميناء السويدية كبديل عن ميناء إياس.

كانت أنطاكية مع طرابلس تُحْكَمانِ من قبل بوهيمند السادس، وكان هذا الأخير يقيم آنذاك في طرابلس، وقد استخدم السلطان بيبرس التكتيك نفسه الذي استخدمه لتحرير صفد وقيسارية؛ إذ عمد إلى القيام بسلسلة من الغارات لاستنزاف قوى العدو وتدميرها ولتضليلهم عن وجهته الحقيقية،[(٢)] فبدأ بغارة ثقيلة ضد طرابلس، وخَيَّم بالقرب منها، ثم هاجم النواحي المحيطة بها، فكانت غارة مدمرة؛ إذ قطع الجنود الأشجار وأحرقوا البيوت والكنائس، واستولوا على برج كان قد عصي فيه جماعة من الصليبيين، فضرب رقابهم، وأسر عدداً منهم وغنم غنائم كثيرة، وكل ذلك وأمير طرابلس قابع في مدينته فزعاً لا يحرك ساكناً،[(٣)] ومن غير شك؛ فإن هذه الغارة صرفت بوهيمند السادس حاكم أنطاكية أيضاً عن إبداء أي اهتمام بأحوال أنطاكية ومقدراتها الدفاعية.[(٤)]

---

(١) انظر الفصل الثالث، حملة سنة ٦٦٤هـ.

(٢) شافع بن علي: حسن المناقب، ص٢٦٠-٢٦١.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/٥٦٦. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٤-٣٠٥. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ٥٠٧-٥٠٨. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٥. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٦٢. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٣٦. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٣٨٢. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤٦.

(٤) ماريشال: فن الحرب، ص ٣٠١.

ثم تحرك السلطان باتجاه حصن الأكراد، بعد أن وصلت أنباء ما حل بالصليبيين في تلك الغارات إلى مسامع حاكمهما، فخشي أن يصيبه ما أصاب سابقيه، فاستبق الأحداث وأرسل يعرض خدماته على السلطان، وأطلق سراح ثلاثمئة أسير مسلم كانوا في قبضته للتعبير عن تودده، فلم يتعرض السلطان لبلاده.[(١)]

وسار السلطان إلى حمص، وفيها أبطل الخمور والمنكرات، ثم تابع سيره إلى حماه ومنها إلى أفاميا، دون أن يطلع أحداً على وجهة سيره، وأثناء وجوده في حماه قام بتقسيم الجيش إلى ثلاث فرق لاجتياح المدينة على الشكل الآتي:

- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار، ووجهها إلى ميناء أنطاكية (السويدية)، ومهمة هذه الفرقة إعاقة المساعدات الصليبية التي قد ترسل عن طريق البحر، وهو أجراء مهم؛ لأن الأسطول المصري لا يمكنه الوصول إلى أنطاكية.
- فرقة بقيادة الأمير عز الدين أوغان وجهتها الدربساك، لأجل سدِّ الممرات بين إرمينية وأنطاكية ومنع أي مساعدة تأتي من إرمينية لأنطاكية أثناء الحصار.
- فرقة ثالثة بقيادة السلطان نفسه، وقد نزل بها أولاً على أفاميا، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها محاصراً في الأول من شهر رمضان سنة ٦٦٦هـ/ ١٥ أيار ١٢٦٨م، ثم وافته بعد ذلك الفرقتان السابقتان بعدما أحدثتاه من خراب، وتدمير، وقتل، في منطقتي السويدية والدربساك،[(٢)] ومن غير شك عزلت هذه الغارات أنطاكية بالكامل عن محيطها.

كانت أنطاكية آنذاك "مدينة عظيمة مشهورة، مسافة سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً"[(٣)]، أما قلعتها فلم تكن بتلك الحصانة، بل كانت متواضعة، فقد بنيت– وهي بالأصل بيزنطية– على نتوء جبلي على جبل يسمى جبل حبيب النجار، وكانت تشرف على المدينة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤٢/٧. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٦. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٠٨. المقريزي: السلوك ٥٦٦/١ – ٥٦٧. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٢٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٧. العيني: عقد الجمان، ٢١/٢-٢٢. المقريزي: السلوك، ٥٦٧/١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٨٢/٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٠، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٣) العيني: عقد الجمان، ٢١/٢.

البعيدة في الأسفل، وهي قائمة عند ذروة أسوار المدينة،[1] أما أميرها بوهيمند السادس فقد كان آنذاك في طرابلس، مركز إمارته الثاني، فتولى قيادة المدينة الكند اسطبل (سيمون مانسل)، وحدث أن كان سيمون هذا يقود جماعة من العسكر خارج المدينة لمنع المسلمين من مهاجمتها، فوقع في أسر القوات الإسلامية، فلما أحضر إلى السلطان، طلب من السلطان أن يطلق سراحه وفي المقابل يدخل المدينة ويحاول إقناع أهلها بالتسليم، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله، فسير كند اسطبل وأحضر ولده وجعله رهينة، ودخل البلد وتحدث وخرج معه جماعة من القسس والرهبان وأقاموا يترددون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة وخوف من صاحبهم الأمير بوهيمند،[2] وعندما رأى السلطان عدم جدوى التفاوض معهم شرع في مهاجمة المدينة، وركز في هجومه على نقطة من أسوارها بالقرب من القلعة قبالة منحدر جبل سيلبيوس، وذلك في محاولة لاقتحام المدينة منه، وأمام شدة الضربات انهارت المقاومة الصليبية، وتمكنت القوات الإسلامية من اعتلاء الأسوار من النقطة التي اختارها السلطان، وتدفقوا إلى داخل المدينة في يوم السبت ٤ رمضان / ١٨ أيار من السنة نفسها، فلاذ بالفرار من استطاع من سكانها إلى القلعة، وأحاط الأمراء بالأبواب لمنع المحاصَرين من الخروج من المدينة، "وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن رجل في المدينة وكان بها فوق المئة ألف نفر". [3]

ولجأ إلى القلعة حوالي ثمانية آلاف مقاتل صليبي سوى النساء والأطفال، ولما لم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم؛ أنفذوا إلى السلطان يطلبون "الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى"، فأمنهم على ذلك وتسلم القلعة منهم في اليوم التالي في ٥ رمضان ٦٦٦هـ/ ١٩ أيار ١٢٦٨م، وخرجوا وهم يرتدون اللباس الأبيض وسجدوا جميعاً قائلين: ارحمنا يرحمك الله، فرق لهم السلطان وأمر برفع السيف عنهم، ووجد السلطان أثناء تسلم القلعة جماعة من الأسرى المسلمين الحلبيين فأطلق سراحهم.[4]

---

[1] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ١١٢.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٨. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٥٨/٣.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٨. النويري: نهاية الأرب، ٣٠، ٣٠٧.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٨-٣٠٩. المقريزي: السلوك، ٥٦٧/١. ابن أيبك الدواداري: الدرة الزكية، ص١٢٦-١٢٧. العيني: عقد الجمان، ٢٢/٢-٢٣. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٠٨-٥٠٩، ٥١٣-٥١٤. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٨. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٦٢-٦٤. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٣٦-٣٧. أبو الفداء: المختصر،٣٣٤/٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٧٦. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٧.

وكانت الغنائم لا تحصى لدرجة أن "قسمت النقود بالطاسات"،[١] أما الأسرى فكانوا أكثر من أربعين ألف أسير،[٢] ووزع الغلمان على الناس، فلم يبق إنسان إلا وله غلام، ووزعت النساء والبنات، وكذلك الأطفال، فبيع الصغير بـ ١٢ درهماً، والجارية بخمسة دراهم،[٣] وبقي السلطان يومين، وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قواته، أما نصيبه منها فقد رصده لبناء الجامع الذي أمر بتشييده بالحسينية وصرفه لهذا العمل الجليل،[٤] ولم يسمح إلا لعدد قليل من أثرياء المدينة بافتداء أنفسهم بالمال، ومنهم الكند اسطبل "سيمون مانسيل"،[٥] وغادر المدينة بعد ما أمر بإحراق قلعتها.[٦]

كل هذا وأمير أنطاكية بوهيمند السادس قابعاً في طرابلس، فكتب إليه السلطان الظاهر يبشره بفتح أنطاكية ساخراً منه، ومحتقراً إياه، ومن جملة ما كتبه: "وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات". [٧]

على إثر هذا النصر دب الرعب في قلوب الصليبيين في الحصون المجاورة، فهرعوا يَسْتَجْدونَ الأمان من السلطان، فأمَّنهم؛ وأرسل قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بيليك الخازندار كي يستلم حصونهم، وهي (دير كوكش؛[٨]وهو من أمنع الحصون، وشقيف كفردبين،[٩] وشقيف كفر تلميس[١٠]) فتسلمها في ١١

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٤.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤٣/٧. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ٥٦٨/١. العيني: عقد الجمان، ٢٩/٢.

[٤] العييني: عقد الجمان: ٢٩/٢. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٤.

[٥] العيني: عقد الجمان، ٢٨/٢. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٥٩/٣.

[٦] العيني: عقد الجمان، ٢٩/٢.

[٧] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ٣١٢ – ٣١٣.

[٨] دير كوكش أو دركوش، حصن قرب أنطاكية من أعمال العواصم. الحموي: معجم البلدان، مادة دركوش. ويقول ابن شداد أنها من أعمال حارم بناه الصليبيون. ابن شداد(محمد بن إبراهيم) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ١/ ٢/ ٧١.

[٩] قلعة حصينة على العاصي، ابن شداد: الأعلاق، ١/ ٢/ ٧١. الحموي: معجم البلدان، مادة كفردبين.

[١٠] كفر تلميس أو بلميس، قلعة من أعمال حارم، ابن شداد: الأعلاق، ١/ ٢/ ٧١.

رمضان،[١] ولهذه الحصون أهمية عند السلطان، فقد "كانت شجا في حلقه، وغصة في صدره"،[٢] والسبب الكامن وراء استسلام هذه الحصون هو أنها أصبحت منعزلة تماماً بعد سقوط أنطاكية، وأصبح أمر القضاء عليها سهلاً جداً، وكانت من المناطق التي استولى عليها بوهيمند السادس صاحب أنطاكية وطرابلس عندما اجتاح المغول بلاد الشام، هذا ما أكده السلطان الظاهر في خطابه التهكمي السالق الذكر الذي أرسله إلى بوهيمند عشية تحرير أنطاكية.[٣]

ولما رأى الداوية في حصن بغراس[٤] ما حدث، اقتنعوا باستحالة الاحتفاظ بحصنهم، فتخلوا عنه، لذا أرسل السلطان في ١٣ رمضان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقي في قوة عسكرية استولى على الحصن من غير حرب، ووجد به كثيراً من المحاصيل والذخائر،[٥] كما تخلى الداوية عن حصن آخر هو حصن روج دي روسل (Roussel)، وهجروا منطقة أرسوز قرب تخوم إرمينية الصغرى. [٦]

وكان لهذين الحصنين (بغراس وروج دي روسل) الواقعين في ممرات الأمانوس أهمية عظيمة، فسلسلة الأمانوس وعرة جداً، وكثيفة الغابات في كثير من المناطق، والممرات القليلة الموجودة فيها هي التي تصل أنطاكية بإرمينية الصغرى، وبالتالي الإشراف على هذه الطرق والتحكم بها من خلال هذه القلاع له أهمية عظيمة في إنجاح أو إخفاق الحملات المملوكية المسيرة عبر الأمانوس إلى أنطاكية.

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٤ – ٣٢٥. المقريزي: السلوك، ٥٧٠/١. البرزالي: المقتفي، ١/ ١٧٨. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١٢٧. ابن المغيزل، ذيل مفرج الكروب، ص ٦٦.

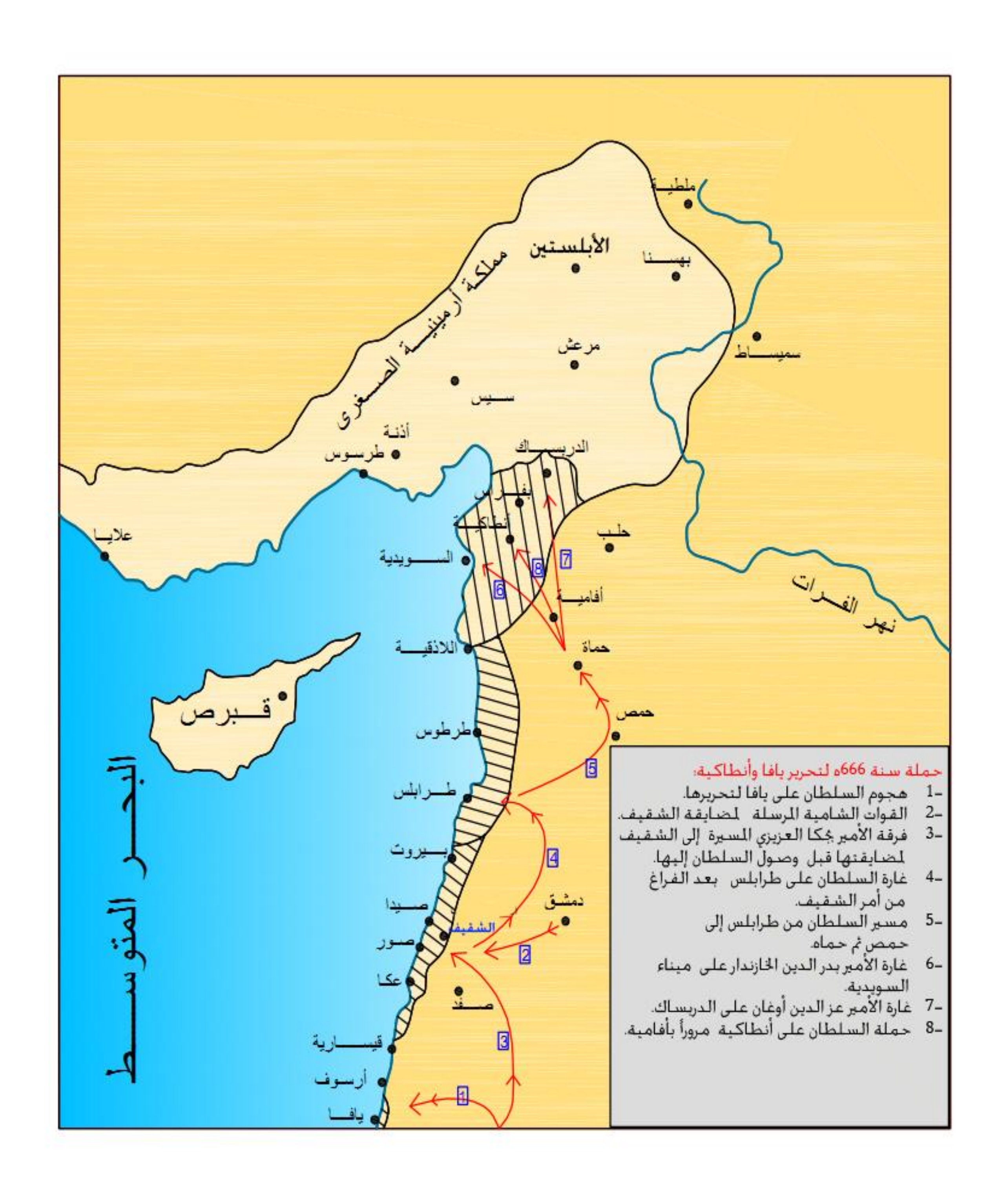
[٢] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٤.

[٣] العيني: عقد الجمان، ٢٧/٢. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣١٢.

[٤] مدينة على يمين القاصد من حلب إلى أنطاكية، الحموي: معجم البلدان، مادة بغداد. وحالياً تقع في لواء اسكندرون على السفوح الشرقية للأمانوس. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٥٨.

[٥] البرزالي: المقتفي، ١٨٧/١. ابن عبد الظاهر: الروض، ٣٢٥-٣٢٦. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ٦٤. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٣٤. العيني: عقد الجمان، ٢٩/٢.

[٦] ينفرد الفارس الداوي في ذكر هذا الحصن، راجع كتابه: أعمال القبارصة، ص٧٦. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٦٠/٣.


حملة سنة 666ه لتحرير يافا وأنطاكية:
1- هجوم السلطان على يافا لتحريرها.
2- القوات الشامية المرسلة لمضايقة الشقيف.
3- فرقة الأمير جكا العزيزي المسيرة إلى الشقيف لمضايقتها قبل وصول السلطان إليها.
4- غارة السلطان على طرابلس بعد الفراغ من أمر الشقيف.
5- مسير السلطان من طرابلس إلى حمص ثم حماه.
6- غارة الأمير بدر الدين الخازندار على ميناء السويدية.
7- غارة الأمير عز الدين أوغان على الدربساك.
8- حملة السلطان على أنطاكية مروراً بأفامية.
مملكة أرمينية الصغرى
الأبلستين
ملطية
بهسنا
مرعش
سميساط
سيس
أذنة
طرسوس
الدربساك
بغراس
أنطاكية
حلب
علايا
السويدية
أفامية
حماة
نهر الفرات
اللاذقية
قبرص
حمص
طرطوس
طرابلس
بيروت
صيدا
الشقيف
دمشق
صور
عكا
صفد
قيسارية
أرسوف
يافا
البحر المتوسط

وعلى أثر ذلك تخوف بطريرك قلعة القصير[1] من أن يقوم السلطان بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتمس الموادعة على أن يتنازل له عن نصف البلاد التي تحت حكمه، فسمح له بالبقاء فيها سبع سنوات على أن يكون تبعاً للسلطان، وكتب له هدنة بذلك. [2]

تبدلت أوضاع الصليبيين كلياً بعد هذه الحملة، فلم يبق بأيديهم سوى المنطقة الممتدة بين اللاذقية شمالاً وعثليت جنوباً، وباتت إرمينية الصغرى معزولة تماماً عن باقي الصليبيين، وأصبحت الطريق إليها مفتوحة أمام الحملات، وهذا ما مهد السبيل للقضاء عليها، إذ بدأت تشهد منذ ذلك الوقت حملات مكثفة من قبل المماليك، ولمدة قرن حتى تم القضاء عليها.

٥- حملة ملك أراغون ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م:

أمام الهزائم التي حلت بصليبيي الشرق، تحرك الأوربيون من جديد لتقديم المساعدات لهم أملاً في إنقاذ ما تبقى من معاقل صليبية، لذا خرج جيمس الأول ملك أراغون على رأس أسطول كبير من برشلونة لمساعدة صليبي الشرق، وكان قد أرسل إلى أبغا بن هولاكو خان مغول فارس بأنه قادم إليه من جهة سيس عاصمة مملكة إرمينية في سفن كثيرة لشن هجوم مشترك على السلطنة المملوكية، لكن هذا الأسطول تعرض لعاصفة أجبرت جيمس الأول على العودة إلى دياره مع القسم الأعظم من الأسطول، في حين تابع ولداه (فرناندو سانكز، وبدرو فرنانديز) المسير مع من تبقى من الأسطول إلى عكا،[3] في هذا الوقت كانت الأخبار قد وصلت إلى الصليبيين بخروج حملة لمساعدتهم، ففرحوا وخرجوا ليخيموا خارج المدينة وتوجه فريق منهم لمهاجمة جينين وصفد،[4] ولم يعلموا بخبر العاصفة وعودة معظم الأسطول، إلى أن وصل القائدان إلى عكا في محرم ٦٦٨هـ/ ديسمبر ١٢٦٩م.[5]

كان السلطان وقتذاك في الإسكندرية، فوصله خبر الحملة، والتحالف المغولي الصليبي، ثم ورد خبر هجوم المغول على الساجور قرب حلب، واستيلائهم على بعض مواشي الأعراب في تلك المنطقة، فركب من فوره،

---

[1] قلعة حصينة من قلاع حلب. ابن تغري بردي: النجوم، ١٤٣/٧، حاشية ٣.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٤٣. البرزالي: المقتفي، ١٨٧/١. أما في النهج السديد فيذكر ابن أبي الفضائل أن السلطان صالح أهل القصير على المناصفة، ١/ ٥١٤.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٦٢. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/ ٥٦٧.

[4] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٣٠/٢. المقريزي: السلوك، ٥٨٥/١.

[5] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٦٧/٣.

ووصل إلى دمشق في ٧ ربيع الآخر ٦٦٨هـ/ ٤ كانون الأول ١٢٦٩م وأثناء وجوده هناك وَرَدَهُ خبر هزيمةِ المغول.[١]

بانسحاب المغول انتهى التعاون الصليبي المغولي، أما الحملة القادمة من الغرب؛ فإنها لم تحرك ساكناً، إذ تعلم الأميران سريعاً من الدروس التي وقعت أمامهم، والذي حدث أن الصليبيون توهّموا بهذه العساكر التي قدمت إلى عكا، وأنهم قادرون فيها على مواجهة القوات الإسلامية خارج أسوار عكا، فخرجت الكتيبة الفرنسية[٢] الموجودة في عكا بغارة إلى القرين شمال عكا، وكان الجيش المملوكي يراقبهم، وعندما شعر قائد الكتيبة بالخطر آثر العودة، لكن نائبه أصر على البقاء، فوقع بالكمين الذي نصبه له المماليك، ودار قتال عنيف قُتل وأُسر فيه عدد كبير من الصليبيين،[٣] وقد وصل السلطان بعد انتهاء الاشتباك، وهذا الحدث كان على مرأى من ولدي جيمس اللذين ما لبثا أن عادا إلى أراغون دون أن يحققا شيئاً.

ولابد من الإشارة إلى نقطة مهمة هي أن حامية صفد والقوات التي كانت معسكرة في عين جالوت هي التي تصدت لهذه التجريدة الصليبية، وهذا يعني أن صفد أصبحت تمارس دورها كقاعدة متقدمة ضد المواقع الصليبية على الساحل، وغدت خطاً دفاعياً أولياً.

رجع السلطان إلى صفد ورؤوس القتلى مرفوعة على الرماح، ثم دخل دمشق في ٢٦ شوال ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م على هذه الحال، وخلع على الأمراء،[٤] وقصد السلطان الغارة على حصن المرقب؛ غير أن الأمطار والثلوج حالت دون ذلك، فرجع إلى حمص، وأقام فيها حوالي عشرين يوماً، وفي كل يوم يخرج إلى حصن الأكراد

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٦١-٣٦٢. العيني: عقد الجمان، ٥٧/٢. النويري: نهاية الأرب، ١٧٠/٣٠.

[٢] الكتيبة الفرنسية: كان القديس لويس قد رغب عند نهاية حملته أن يُسهم في الدفاع عن الأرض المقدسة، لذلك أرسل تجريدة من العساكر إلى هناك، على أنه من المفترض أن يجري الإنفاق عليها من خزينة فرنسا، بقيت هذه القوات في الشرق إلى سقوط عكا، وشغلت دوراً مهماً في كثير من الوقائع آنذاك، وكان قادتها من الشخصيات المهمة في الشرق اللاتيني. انظر: ماريشال: فن الحرب، ص ١١٦.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٦٣-٣٦٤. العيني: عقد الجمان، ٥٨/٢. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٣١/٢. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٦٧/٣.

[٤] المقريزي: السلوك، ١/ ٥٨٥.

ويعود، وفي إحدى المرات اشتبك مع الصليبيين، وقتل منهم جماعة،[1] ولعل الهدف من هذه الغارات كان الاستكشاف تمهيداً لتحريرها، ثم عاد إلى دمشق ودخلها في ١٨ جمادى الآخرة، وفي هذه الأثناء وردت عليه أخبار تفيد بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد خرج على رأس حملة صليبية جديدة متجهاً إلى الشرق، فعاد أدراجه إلى القاهرة، واهتم بالأمر كثيراً، وأمر بتحصين الثغور، وشحنها بالمقاتلين، ولا سيما الإسكندرية. [2]

بقي السلطان في مصر ستة أشهر تقريباً في حالة استعداد وترقب للحملة الصليبية، وأوقف لذلك نشاطه الحربي في الشام مؤقتاً، وأخيراً في محرم ٦٦٩هـ/ آب ١٢٧٠م وصلته الأخبار بأن القديس لويس نزل على تونس، وهزم حاكمها، ثم بلغه موت ملك فرنسا وانسحاب جيوشه.[3]

٦- حملة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م:

رأينا كيف أنهى المماليك الوجود الصليبي في جنوب فلسطين، ثم كيف نقلوا ميدان المعركة إلى الشمال وحرروا أنطاكية، ولهذا العمل الأخير —كما تقدم الحديث - فائدتان، الأولى عَزلُ إرمينية الصغرى تمهيداً للقضاء عليها، والثانية تقطيع أوصال الصليبيين على ساحل بلاد الشام، ولابد أن العمل المقبل سيكون ضد الإمارات الداخلية المتبقية؛ طرابلس وعكا.

أدرك السلطان صعوبة الانقضاض على هذه الإمارات بشكل مباشر، فعمد إلى الخطة التقليدية وهي تجريد هذه الإمارات من ممتلكاتها، وتعريضها لغارات تستنزف قواها العسكرية والاقتصادية، وحسب ما تبين فإن السلطان اختار إمارة طرابلس قبل عكا؛ لأنه دخل إلى عكا قبيل معركة عين جالوت،[4] وهناك اطلع عن كثب على تحصينات عكا المنيعة، فأرجأ العمل ضدها حتى يُنهي أمر بقية الإمارات والقلاع، ثم يتفرغ لعكا بعد أن تكون الغارات قد أضعفتها، وبذلك تكون قد فقدت المعين لها من باقي الصليبيين.

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٣١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٤٣. العيني: عقد الجمان، ٢/٥٩. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٠٤. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٤٤. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٦٨.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٠. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٣١-٤٣٢.

[3] جوانفيل: حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، ٣٦/ ٢٦٢. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٤.

[4] الفارس الداوي، أعمال القبارصة، ص ٤٦.

عَلِمَ السلطان الظاهر بما انتهت إليه حملة لويس التاسع على تونس، وأصبح بإمكانه متابعة أعماله التحريرية في بلاد الشام، فخرج إليها في جمادى الآخرة سنة ٦٦٩هـ/ كانون الأول ١٢٧٠م على رأس حملة كبيرة، وكالعادة موَّه عن أهدافه الحقيقية بسلسلة من الغارات، بدأها بمهاجمة المناطق المحيطة بطرابلس؛ إذ قتل وأسر عدداً من قواته وشعث المناطق المحيطة بها،[١] ثم وصل بغاراته إلى صافيتا، وفي صافيتا برجٌ شَكَّلَ البناء الرئيسي للداوية في كونتية طرابلس، وشغل بوضوح دوره كبيت للمحاربين الرهبان، يُعرف هذا بالبرج الأبيض، وهو أطول معقل صليبي لا يزال متبقي حتى الآن، وكان هذا البرج يتألف من حصنيين خارجي بيضاوي مساحته ١٠٠×١٦٥، وداخلي ربما كان مستطيل الشكل،[٢] والاستيلاء على هذا البرج يأتي كخطوة أولية لتجريد طرابلس من دفاعاتها.

حاصر السلطان هذا البرج وبعد أن أوشكت حاميته على الاستسلام ترك عليه بعض القوات، وسار باتجاه حصن الأكراد، وتمكنت هذه القوات من تحريره بالأمان، وكان به حوالي ٧٠٠ فارس داوي عدا النساء والأطفال، فعُفي عنهم، وساروا جميعاً إلى طرطوس.[٣]

تمكن في هذا الوقت السلطان من تحرير بعض القلاع المجاورة لحصن الأكراد مثل المجدل وتل خليفة، كما أرسل قواته لشن غارات على جبلة، واللاذقية، والمرقب، وعرقة، ومرقية، والقليعات، والمجدل، وطرسوس،[٤] وقد تسببت هذه الغارات بفوضى واضطراب في صفوف الصليبيين، كما أنها أضعفت المقاومة عندهم.[٥]

- **تحرير حصن الأكراد، ٢٤ شعبان ٦٦٩هـ/ ٧ نيسان ١٢٧١م:**

لم يبق أمام السلطان إلا التوجه لتحقيق الهدف الذي قدم من أجله، وهو حصن الأكراد، حصن الإسبتارية المشهور.

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٧٤-٣٧٥. العيني: عقد الجمان، ٢/ ٧٠. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٩٠.

[٢] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ٢٠٧-٢٠٨.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٥. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٩٠. ابن ابي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٣٢-٥٣٣.

[٤] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٤٤٤. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٥٢٨. البرزالي: المقتفين ١/ ٢٢٧. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ٧٠. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٥١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٥٠.

[٥] مارشال: فن الحرب، ص ٣٠١.

وحصن الأكراد قلعة موجودة حالياً في شعاب جبال اللاذقية في وادي النضارة، يقوم هذا الحصن في موقع ممتاز فوق ذروة مرتفعة حوالي ٣٠٠م، وتحيط به من جميع جهاته مدرجات متوسطة الانحدار.[١]

استخدم الصليبيون هذا الحصن من أجل الدفاع عن الجبهة الشرقية لكونتية طرابلس، ولإدارة عقاراتهم الكبيرة هناك، وقد تعرض لمحاولات عديدة لتحريره منذ أيام صلاح الدين، وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كان حصن الأكراد يشكل الحصن، أو المعقل الصليبي الوحيد المتوغل داخل الأراضي الإسلامية شرقاً.

وكانت الحامية الموجودة في داخله تتألف من حوالي ألفي مقاتل، تمكن هؤلاء من فرض السيطرة على المناطق المجاورة، وفرض الجزية أحياناً على المسلمين المجاورين لهم في أراضي حماه وحمص، ومنه انطلقت الغارات على المناطق المجاورة، وفي مطلع القرن الثالث عشر زاره ملك هنغارية ووصفه بـ "مفتاح الأراضي الصليبية".[٢]

توجّه السلطان إليه، وهناك اجتمع مع العساكر التي بثها للغارات على المناطق المجاورة، وبدأ حصاره في يوم الثلاثاء ١٩ رجب ٦٦٩هـ/ ٢١ شباط ١٢٧١م، وقدم لمساعدته صاحب حماه، وصاحب صهيون، وصاحب الدعوة الإسماعيلية نجم الدين، وفي آخر رجب تكامل نصب المجانيق حول الحصن.[٣]

جاء الهجوم المملوكي - على الأغلب - من الجهة الجنوبية،[٤] وكان للحصن ثلاثة أسوار، ركزت حولها المجانيق، وشرعت بقصفها حتى دمر السور الأول يوم الخمس ٢١ رجب/ ٥ آذار، والثاني يوم السبت ٧ شعبان / ٢١ آذار، والثالث يوم الأحد ١٥ شعبان / ٢٩ آذار، ودخلت العساكر البلد بالسيف.[٥]

---

[١] فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٧٦.

[٢] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ٢١٦-٢١٧.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٥-٣٧٦. المقريزي: السلوك، ٥٩١/١، بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص٧٠. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٥٢. ابن تغري بردي: النجوم، ١٥٠/٧-١٥١.

[٤] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ٢٢١.

[٥] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٤٥/٢. ابن أيبك: الدرة الزكية ، ص١٥٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة: ٧٨/٩، التحفة المملوكية، ص ٧٠. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٢٨. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٤٥. المقريزي: السلوك، ١/ ٥٩١. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٧٦. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/ ٥٣٢.

تمكن المماليك بهذا العمل من خرق الدفاعات الخارجية، فتراجعت الحامية إلى الدفاعات الداخلية، فأعمل السلطان الحيلة لإجبارهم على الاستسلام؛ إذ كتب "كتاباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة يأمرهم بالتسليم"، وقد نجحت هذه الحيلة، فطلبوا الأمان من السلطان، فأمنهم، وسمح لهم بالخروج، فتوجهوا إلى طرابلس، وتسلم المماليك الحصن في ٢٤ شعبان / ٧ نيسان، فأمر السلطان بعمارة البلد، وحوَّل الكنيسة إلى جامع، وأقام فيه الجمعة، وولّى فيها قاضياً ونائباً.[(١)]

صحيح أن الحيلة أدت دوراً أساسياً في تحرير الحصن، غير أن تحرير الحصن جاء بعد أن تمكن السلطان من خرق الدفاعات الخارجية، ونصب المجانيق وآلات الحصار في داخله، فبات سقوط هذا الحصن مسألة وقت ليس غير.

أثار سقوط حصن الأكراد الخوف عند صاحب طرطوس، فأرسل إلى السلطان طلباً لعقد الهدنة، وتعبيراً عن مصداقيته في ذلك بعث إليه بمفاتيح مدينته، فصالحه السلطان على:

- استرجاع "بلده" وجميع ما أخذه الداوية من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية (أيام الناصر صاحب حلب ودمشق).
- ترك جميع ما للداوية من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- يكون للسلطان نصف محاصيل أنطرطوس.
- يعين السلطان نائباً عنه في أنطرطوس.

تم عقد الهدنة، وعقدت هدنة أخرى مشابهة مع صاحب المرقب، وهو مقدم بيت الإسبتارية، بعد أن طلب ذلك بنفسه من السلطان، **فأجابه السلطان إلى طلبه وعقد معه الصلح على:**[(٢)]

[(١)] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٧٦-٣٧٧. ابن تغري بردي: النجوم، ١٥٠/٧-١٥١. المقريزي: السلوك، ٥٩١/١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٥٢. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ٥٢٨/١-٥٢٩. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٥.

[(٢)] عن هذا الصلح والذي قبله راجع: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٤٨/٢. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٥٣١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٨-٣٧٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٧٨/٩. العيني: عقد الجمان، ٧٢/٢. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٢٨، ٢٣٠.

- استرجاع جميع ما أخذه الإسبتار من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية.
- ترك جميع ما للإسبتار من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان والاسبتار.
- عدم تجديد أي عمارة بحصن المرقب.

فتم توقيع الهدنة مع الداوية والإسبتارية في مستهل رمضان من تلك السنة ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

• تحرير حصن عكار[١] ٢٩ رمضان ٦٦٩هـ/ ١٢ أيار ١٢٧٢م

أراد السلطان أن يتابع السير في مخططه لتحطيم الدفاعات الشرقية لكونتية طرابلس، فبعد تحرير حصن الأكراد توجه فوراً إلى حصن عكار القائم على بعد ٢٥ميلاً إلى الشمال الشرقي من طرابلس، هذا الحصن الذي شَكَّلَ خط الدفاع الأمامي بوجه المسلمين عن طرابلس.

أقيمت قلعة عكار على جرف جبلي في النهاية الشمالية لجبال لبنان (جبل عكار) على جانب فتحة حمص طرابلس، وأقوى نقطة دفاع في هذا الحصن هي برج مساحته ١٣متر مربع، قائم فوق منحدرات تقع فوق صهريج ماء مصنوع يدوياً، وهذا الجرف فصل القلعة عن بقية الجبل، أما بقية التحصينات فكانت تساير الجرف.[٢]

وكان على المسلمين من هذا الحصن —كما يقول ابن عبد الظاهر - "مَضَرَّةٌ؛ لأنه في جبال صعبة المرتقى بعيدة المستقى، يهبط منه المتجرمة ويتحصنون به"،[٣] ويذكر النويري أن السبب الذي دفع السلطان لمهاجمته هو

---

[١] عكار: حصن مبني على جبل يسمى جبل عكار، وموقعه شمالي طرابلس، ويسمى هذا الحصن أيضاً باسم حصن ابن عكار.

[٢] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ١٠٠-١٠١. فينز: القلاع أيام الحروي الصليبية، ص ٦٠.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٩-٣٨٠.

قيام صاحب طرابلس بتجديد عمارته حديثاً،[1] فتوجه إليه السلطان بقواته في ١٧ رمضان ٦٦٩هـ/ ٢٩ نيسان١٢٧١م، ونصب عليه المجانيق بعد أن عانى الأمرين من صعوبات جَرِّها في هذه الشِعاب الجبلية،[2] ثم شرع في الهجوم يوم الإثنين ٢٢ رمضان، فاستبسل سكان الحصن بالمقاومة والدفاع عنه، فشدد السلطان من هجومه، "فلما رأى الذين فيه أمراً يعجزون عن احتماله وجيشاً لا طاقة لهم بقتاله، "طلبوا الأمان على أنفسهم من القتل، وأن يُمَكِّنَهم السلطان من التوجُّهِ سالمين إلى طرابلس، فأجابهم وسمح لهم بالرحيل في ٢٩ رمضان ٦٦٩هـ/ أيار ١٢٧١م، وبعد أن صلى السلطان في الحصن صلاة العيد، رحل عنه ونزل بمرج صافيتا، وكتب البشائر إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله عليه. [3]

وكتب إلى أمير طرابلس بوهيمند السادس يخبره بهذا الفتح تحطيماً لمعنوياته، وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولاكو زعيم مغول فارس، وقد جاء في هذا الكتاب: "قد علم القومص بيمند – بوهيمند – جعله الله ممن يَنْظرُ لنفسه، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار،... وكتابنا هذا يبشرك بأن عَلَمَنا الأصفر نُصِبَ مكانَ علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه (الله أكبر)، ومن بقي من رجالك أُطلقوا، ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا، ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح، وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى، .... يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده". [4]

وكان السلطان قد راسله قبل ذلك مشافهة على لسان رجل من فرقة الإسبتارية، برسالة يقول فيها: "أين تروح مني والله لا بد أن آخذ قلبك وأشويه، وأنت تنظر، وما ينفعك أبغا بن هلاوون"، فلما بلغته هذه الرسالة، أخذ يحترس على نفسه، ولم يعد يخرج للصيد خوفاً على نفسه من الإسماعيلية كي لا تغتاله بأمر من السلطان، وكان يحب الركوب للصيد، فامتنع عن ذلك، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، سيَّر إليه غزلان مذبوحة وضبعاً

---

[1] النويري: نهاية الأرب، ٣٢٩/٣٠.

[2] انظر نص الرسالة التي أرسلها السلطان إلى بوهيمند السابع صاحب طرابلس بعد فراغه من تحرير هذا الحصن. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٣٠-٣٣١.

[3] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٧٩/٩.اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٤٨/٢. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٠. البرزالي: المقتفي، ٢٣١/١. أبو الفداء: المختصر، ٣٣٧/٢. المقريزي: السلوك، ٥٢/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٥١-١٥٢.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٠-٣٨١. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٣٠-٣٣١.

حياً، وحمل ثلج ورسالة يقول فيها: "لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك". (١)

- **الهدنة مع طرابلس:**

كان السلطان قد أغار على طرابلس أكثر من مرة، مُحدثاً فيها الخراب والدمار، وزاد من ضعفها استيلاءُ السلطان على حصن الأكراد، وحصن عكار، وصافيتا، وحلبا، والقليعات، وبانياس وغيرها، مما جعل حاكمها قابعاً في مدينته "في حبس؛ بل في رَمَسٍ".(٢)

وبعد أن بعث له السلطان رسائل التهديد سار ونزل على طرابلس في الرابع من شوال لابساً عدة الحرب، هو وجميع العساكر، فأرسل له بوهيمند طالباً الصلح، ويتحدث ابن أيبك نقلاً عن والده الذي كان في الوفد المرسل من قبل السلطان إلى بوهيمند ليعرض عليهم شروط السلطان لعقد الصلح، تلك الشروط التي **تتلخص في:**

- أن يكون للسلطان نصف أعمال طرابلس، ويكون له فيها دار، ووكالة، وزكاة، ونائب، ومُشد،(٣) وديوان.
- أن يدفع صاحب طرابلس نفقات الجيش المملوكي من يوم خروجه.
- أن يعطي للسلطان مدينتي جبلة واللاذقية مع خراجهما من يوم خروجهما من يد الملك الناصر يوسف – صاحب حلب ودمشق– حتى تاريخه.(٤)

رفض بوهيمند هذه المطالب، وحصّن طرابلس، وقرر القتال، فرد عليه السلطان بنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها، ثم ترددت الرسل بين الطرفين وقدَّم بيبرس بعض التنازلات، وربما كان السبب في ذلك

---

(١) ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ١٥٧ – ١٥٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٣.

(٣) المشِدُ: رئيس الورشة أو رئيس الجند الذي يراقبهم ويشد همتهم على العمل، وتسمى وظيفته الشادّية. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٣٩.

(٤) هذا البند من النجوم الزاهرة، إذ لم يرد عند ابن أيبك في الدرة الزكية.

أنه سمع بقدوم حملة إنكليزية إلى عكا يقودها الأمير الإنكليزي إدوارد،[1] فضلاً عن قدوم الملك هيو الثالث ملك قبرص على رأس قوة بحرية أيضاً إلى عكا، فتم الاتفاق أخيراً على:

- أن تكون عرقة وجبيل[2] وأعمالها للأمير بوهيمند.
- أن تكون سواحل أنطرسوس، والمرقب، وبانياس، وبلاد هذه النواحي مناصفة بين السلطان وبين فرقتي الداوية والإسبتارية.
- أن تعود بارين – بعرين– وحمص القديمة للسلطان الظاهر بعد أن كانت لهم.
- كما نصَّ الاتفاق على أن تكون عرقة وأعمالها؛ وهي ست وخمسون قرية على شكل صدقة من السلطان لبوهيمند.

تردد بوهيمند في قبول ذلك، ثم قبله وعقد الاتفاق على أن مدة الهدنة عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة أيام،[3] بعد ذلك دفع السلطان ثلاثة آلاف دينار مصرية لفك أسرى المسلمين، ثم عاد إلى حصن الأكراد.[4]

استغل بوهيمند هذه الهدنة وذهب من فوره إلى أبغا بن هولاكو يطلب منه المساعدة للهجوم على المماليك، ويذكر له ما فتحه السلطان من القلاع والحصون، فأنَّبه أبغا، ورفض طلبه قائلاً: "أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفّرني عنه، وتملأ قلوب عساكري رعباً"، فعاد بوهيمند خائباً،[5] بينما توجه السلطان الظاهر إلى حصن العُلَيْقَةِ الواقع إلى الجنوب من صافيتا، فتسلمه في ١١ شوال / أيار من السنة ذاتها، وكان خاضعاً للإسماعيلية.[6]

---

[1] المقريزي: السلوك، ٥٩٢/١.

[2] عند ابن تغري بردي: عرقة وجبلة، وهذا المثبت في المتن من: النهج السديد، ص٥٣٦، والدرة الزكية، ص١٥٩.

[3] ابن أيبك: الدرة الذكية، ص١٥٨-١٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٥٢/٧. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤٥٠/٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٥٣٦.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٣.

[5] ابن أيبك: الدرة الذكية، ص١٦٠. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٥٣٧.

[6] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٤. المقريزي: السلوك، ٥٩٣/١.

- **الحملة على قبرص سنة٦٦٩هـ/١٢٧١م:**

بعد أن تسلم السلطان حصن العليقة توجه إلى دمشق، ومن هناك عزم المسير لتحرير حصن القرين المجاور لعكا وصفد، فانطلق إليه في منتصف شوال من ذلك العام، وليصرف نظر الصليبيين عن حصن القرين اختار مناوشة قبرص مستغلاً غياب ملكها هيو الثالث الذي قدم إلى عكا مؤخراً لتفقد شؤون مملكته،[١] فأرسل في ذلك الشهر إلى مصر "بتسفير الشواني[٢] لقصد قبرص وشغل أصحابها حتى نفارق عكا "،[٣] وبالتالي فإن حملة قبرص هذه لا تعدوا أن تكون غارة مهمتها السلب والنهب والتدمير وإجبار هيو على العودة إلى مقر مملكته.

تم تجهيز أسطول مؤلف من سبعة عشرة شينة، تولى قيادتها جمال الدين مكي بن حسون ومعه ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشرف الدين علوس بن أبي المحبة بن علوي رئيس دار الصناعة بدمياط وشهاب الدين إبراهيم بن عبد السلام رئيس دار الصناعة بالإسكندرية.[٤]

لجأ ابن حسون إلى الخديعة؛ إذ أقدم على طلاء السفن باللون الأسود، ورفع فوقها أعلاماً عليها صلبان، تشبهاً بالسفن الصليبية بغية الوصول إلى قبرص دون أن ينتبه إليهم القبارصة، فانطلقت السفن على هذه الشاكلة، وعندما وصلت السفن إلى ميناء ليماسول ليلاً، تقدم المركب الأول للدخول إلى الميناء فاصطدم بالصخور، بالإضافة إلى ذلك هبت عليهم ريحٌ عاتية أدت إلى تحطيم ١١ سفينة كانت تحمل ١٨٠٠ بحار وقعوا بالأسر، وعاد ما تبقى من الأسطول وعليه ناصر الدين، وابن حسون. [٥]

---

[١] البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٢٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٥٣.

[٢] الشيني، أو شاني، أو شينة، أو شونة: هي السفينة الحربية الكبيرة، كانت تعد أهم القطع الحربية في الأسطول الإسلامي، وهي من المراكب الحربية المستعملة في البحر المتوسط، وهناك أنواع متعددة للشواني، فمنها الغراب، والطريدة، والجفنة، والحراقة، وتحمل الشينة حوالي ١٥٠ مقاتل، إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر المماليك، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص ٢٢٩.

[٣] ابن عبدالظاهر: الروض، ٣٨٦.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/١٥٤. المقريزي: السلوك، ١/٥٩٣-٥٩٤.اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٥٣. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٦؛ ويقول أن السلطان كتب إلى مصر بذلك في شهر شوال، أثناء وجوده على طرابلس.

[٥] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٨٠. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٦. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/١٧٨. المقريزي: السلوك، ١/٥٩٣. ابن تغري بردي: النجوم، ٧/١٥٤. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٢٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٥٣-٤٥٤.

وقد أظهر هيو ملك قبرص الاعتزاز والفخر والشماتة بما حدث للسفن الإسلامية؛ إذ أرسل إلى السلطان بيبرس رسالة يقول فيها: " إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك بمن فيها "، فكان جواب السلطان: " قل له لا تفرح بهذا، فما أخذتها بسيفك، ولو سلمت كانت أخذت جزيرتك بحول الله وقوته، وقد أخذت في سفرتي هذه أربعة عشر حصناً، ولاشك أن العين لها حق ".[1]

لم يهمل السلطان في المقابل أمر الجهاد البحري، بل كتب إلى القاهرة بإنشاء عشرين شينة وإحضار خمس شينيات كانت بقوص جنوب مصر، لحماية البلاد من ناحية البحر الأحمر، وقد أكثر السلطان من الركوب في مصر لمباشرة عمل الشواني حتى تم بناء ضعفي ما انكسر.[2]

- **تحرير حصن القرين[3] ١٣ ذي القعدة ٦٦٩هـ/ ١٣ أيار ١٢٧١م:**

اكتفى السلطان بما أنزله في حملته هذه بكونتية طرابلس من ضربات مميتة، وبعد أن عقد معها هدنة قرر أن يُنْزِلَ بعكا ما أَنْزَلَهُ بطرابلس، فتوجَّه بعد أن تسلم قلعة العليقة من الإسماعيلية —كما سلف – نحو حصن القرين.

وقع حصن أو قلعة القرين (مونتفورت Montfort) على بعد حوالي ١٦ كم إلى الشمال الشرقي من عكا، كان هذا الحصن مُلكاً لفرسان التيوتون (الألمان)، وقد بُني في وقت متأخر (سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م) لكي يكون مقراً للصليبيين الألمان، ومع أربعينيات القرن الثالث عشر كانت القلعة تعمل كمركز إداري لفرسان التيوتون، وقد بني هذا الحصن على مستوى متواضع، إذ أُنشئ على حافة جرف صخري عند النهاية الشرقية للسلسلة الجبلية الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، وجرى الدفاع عنه بواسطة خندق محفور في الصخر يفصله عن الجبل المتاخم له، ويحميه برج قائم فوق قمة الصهريج، أما من الشمال والغرب فهناك سور،[4] بُني من الحجر

---

[1] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٦٢.

[2] ابن تغري بردي: النجوم، ١٥٤/٧ — ١٥٥. النويري: نهاية الأرب، ١٧٨/٣٠. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٩.

[3] حصن شمالي فلسطين فوق وادي القرن. محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص ٦٠٤-٦٠٥.

[4] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ١٩٤-١٩٦. فينز: القلاع ايام الحروب الصليبية، ص ٩٨.

الأصم، بين كل حجرين عمود حديد ملزوم بالرصاص،[1] وكان هذا الحصن آخر الحصون بصفد، وبعد فتح حصن الأكراد وعكار رأى السلطان ألا يترك هذه الحصون خلفه. [2]

وفي أثناء حصار السلطان للقرين وصله خبر الشواني المدمرة في جزيرة قبرص، ووصلته رسالة ملك قبرص الذي أظهر فيها الشماتة، فجد السلطان في حصار القرين، وشرع بمهاجمة الحصن وقصفه حتى استولى على ربضه، وتحت شدة القصف والضربات العنيفة طلب الصليبيون الأمان، فأمنهم وأرسلهم إلى عكا، ودخلت قواته إلى الحصن في ١٣ ذي القعدة ٦٦٩هـ/ ١٣ أيار ١٢٧١م، ثم أمر بهدمه، فأقاموا في هدمه اثني عشر يوماً، وفي حصاره خمسة عشر يوماً. [3]

وعندما قرأ السلطان رسالة ملك قبرص بخبر كسر الشواني، قال: " الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خذلت لي راية، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره "،[4] ولما فتح السلطان حصن القرين كتب إلى هيو الثالث ملك قبرص قائلاً: " إلى حضرة الملك أوك دلزنيال – هيو لوزينان– جعله الله ممن يُوَفِّ الحقَّ إلى أهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، ..... وقد كان قد عرَّفنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكل، واتكلنا، وأين مَن اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح!؟، وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح، وفي يوم ننشئ عدة قطائع، ولا تنشأ لكم من حصن قطعة، ونجهز مئة قُلُع[5] ولا يتجهَّز لكم في مئة سنة قلعة، وكل من أعطي مقذافاً قذف، وما كل من أعطي سيفاً أحسن الضرب به أو عرف.... فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة،

---

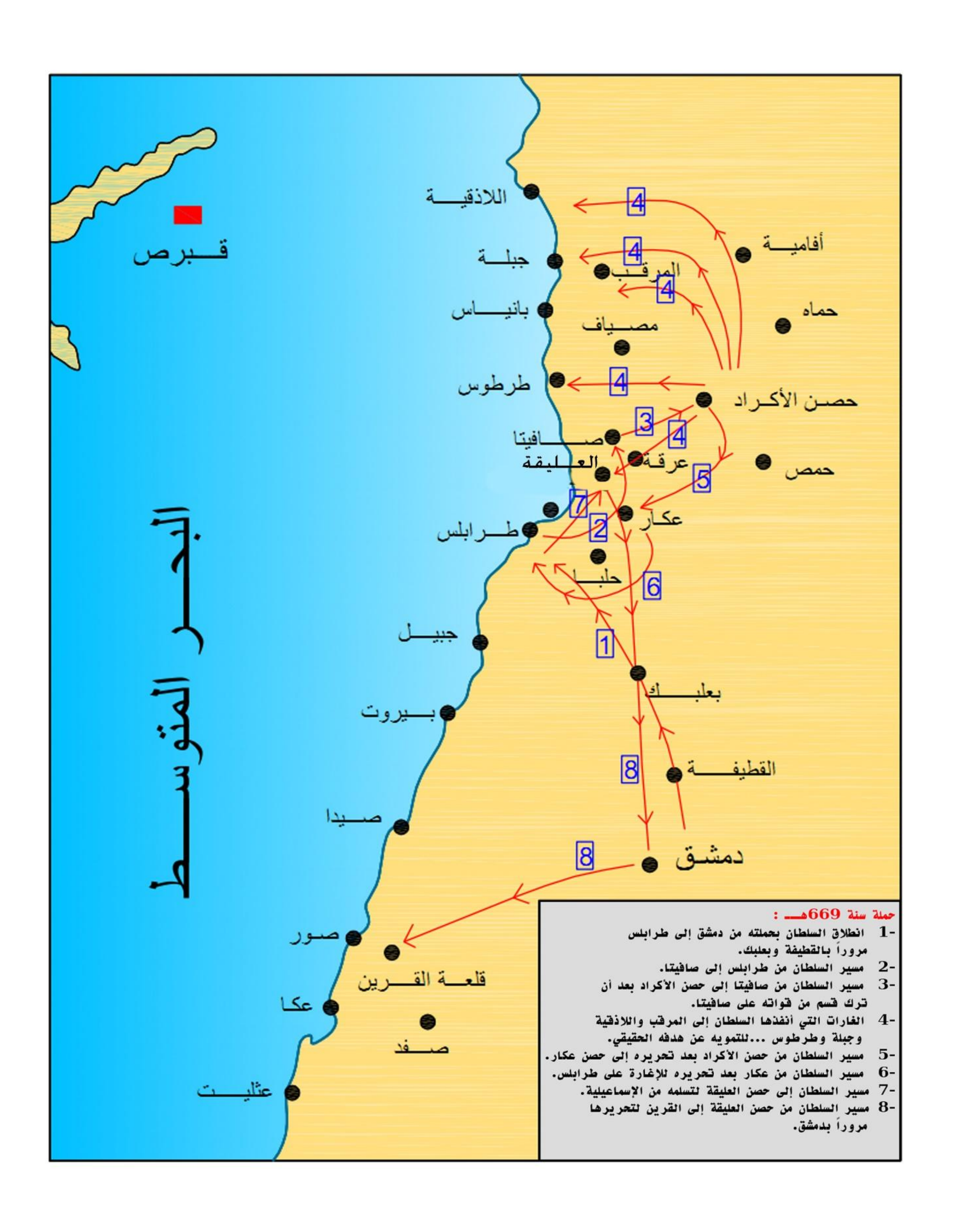
[1] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٦٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ١٥٣. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ١/٥٤٢-٥٤٣.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٥-٣٨٦.

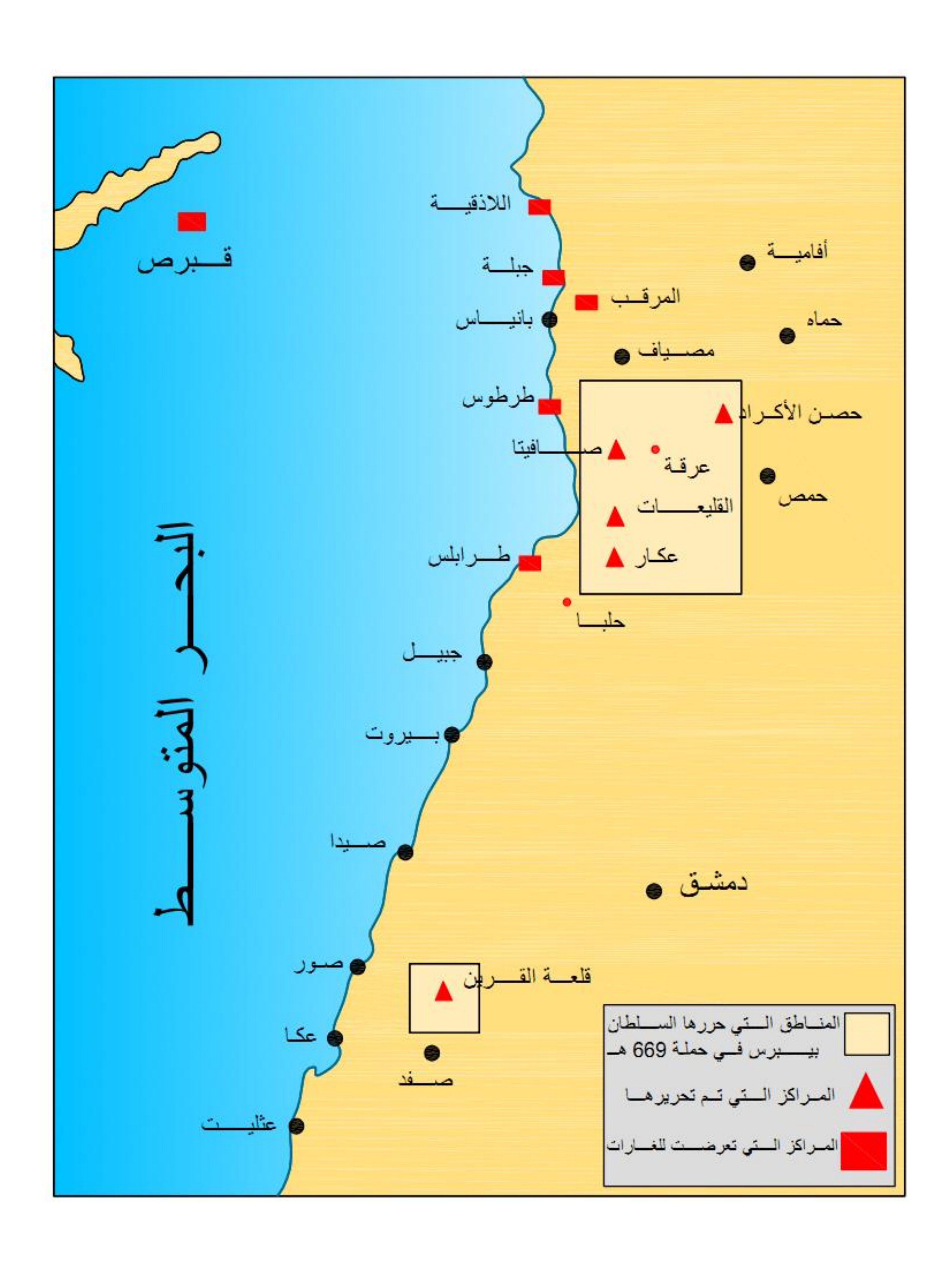
[3] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٦٢. مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص٥٤٢-٥٤٣. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٣٣-٢٣٤. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٥. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ٧٢. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٤٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٥٢-٤٥٣. المقريزي: السلوك، ١/٥٩٣.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٧. المقريزي: السلوك، ١/٥٩٤.

[5] القِلع: هو شراع السفينة، وجمعها: قُلُع. الأزهري الهروي (محمد بن أحمد، ت٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تح: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ١/١٦٦.



قبرص
البحر المتوسط
اللاذقية
أفامية
جبلة
المرقب
بانياس
حماه
مصياف
طرطوس
حصن الأكراد
صافيتا
عرقة
العليقة
حمص
عكار
طرابلس
حلبا
جبيل
بعلبك
بيروت
القطيفة
صيدا
دمشق
صور
قلعة القرين
عكا
صفد
عثليت
حملة سنة 669هـ :
1- انطلاق السلطان بحملته من دمشق إلى طرابلس مروراً بالقطيفة وبعلبك.
2- مسير السلطان من طرابلس إلى صافيتا.
3- مسير السلطان من صافيتا إلى حصن الأكراد بعد أن ترك قسم من قواته على صافيتا.
4- الغارات التي أنفذها السلطان إلى المرقب واللاذقية وجبلة وطرطوس ...للتمويه عن هدفه الحقيقي.
5- مسير السلطان من حصن الأكراد بعد تحريره إلى حصن عكار.
6- مسير السلطان من عكار بعد تحريره للإغارة على طرابلس.
7- مسير السلطان إلى حصن العليقة لتسلمه من الإسماعيلية.
8- مسير السلطان من حصن العليقة إلى القرين لتحريرها مروراً بدمشق.



البحر المتوسط
قبرص
اللاذقية
جبلة
المرقب
بانياس
طرطوس
صافيتا
عرقة
القليعات
عكار
طرابلس
حلبا
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
صفد
عثليت
قلعة القرين
دمشق
أفامية
حماه
مصياف
حصن الأكراد
حمص
المناطق التي حررها السلطان بيبرس في حملة 669 هـ
المراكز التي تم تحريرها
المراكز التي تعرضت للغارات

وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسب وكسبنا، فترى أينا أغنم، ولو أن في الملك سكوتاً، كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم".[١]

وقبل أن يغادر السلطان إلى القاهرة دارت مفاوضات بينه وبين صاحب صور، انتهت المفاوضات إلى توقيع اتفاقية بينهم تنص على أن يكون للصليبيين عشر مناطق فقط، وللسلطان خمس، يختارها هو من البلاد التابعة لصور، بينما تكون بقية البلاد مناصفة، فتم الاتفاق على هذا الأساس.[٢]

عاد السلطان إلى القاهرة فوصلها في ١٢ ذي الحجة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م وأقام بها حوالي شهر ونصف، ثم قرر العودة إلى دمشق لأسباب عديدة منها: وصول أخبار تفيد بأن عيسى بن مهنا — أمير العربان – وغيره من الأمراء تغيرت نياتهم وعزموا على الانضمام إلى المغول، فغادر مصر في ٢٧ محرم ٦٧٠هـ، ووصل دمشق في ١٣ صفر ٦٧٠هـ/ ٢٠ أيلول ١٢٧١م.[٣]

٧–الحملة الإنكليزية (حملة إدوارد ولي عهد إنكلترا إلى عكا): ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م:

كان من المفترض أن يقوم بهذه الحملة هنري الثالث ملك إنكلترا إيفاءً بنذره الصليبي، إلا أن إنكلترا آنذاك كانت تعاني من أزمات حادة، فوجدت البابوية بقاء هنري الثالث في المملكة لحفظ الاستقرار أفضل من توجهه إلى الأراضي المقدسة، يضاف إلى ذلك أنه أصبح رجلاً كهلاً،[٤] وفي سنة٦٦٦هـ/١٢٦٨م أرسل البابا مبعوثه لتحليل هنري من نذره الصليبي مشترطاً إرسال ابنه إيدموند مكانه، مستبعدين إرسال إدوارد؛ لأنه ولي العهد المرتقب للعرش الإنكليزي، والموقف السياسي يتطلب وجوده هناك إلا أن إصرار إدوارد على المسير نجح في النهاية، وأقنع البابا بالسماح له باتخاذ الصليب.[٥]

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٧–٣٨٨. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٨٠–٨١.

[٢] العيني: عقد الجمان، ٢/٨١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٩. المقريزي: السلوك، ١/٥٩٥.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٩، ٣٩١.

[4] Throop، p. A.: Criticism of the Crusade A study of public opinion and Crusade propaganda، Philadelphia، 1975، p. 81.

[5] Tyerman G: England and the Crusades 1095 – 1588 Chicago، 1988، p.124.

رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٧٣–٥٧٤.

بدأت الاستعدادات للحملة، وفي سنة٦٦٨هـ/١٢٦٩م سافر إدوارد إلى فرنسا للتشاور مع لويس التاسع حول موضوع الحملة، و تم الاتفاق على المسير معاً نحو الشرق في٦ محرم٦٦٩هـ/ ٢٥ آب ١٢٧٠م انطلاقاً من ميناء ايجس مور (Aigues Morte) الواقع غرب مرسيليا.[١]

سار إدوارد من إنكلترا في محرم ٦٦٩هـ/ آب ١٢٧٠م مع قوة صليبية صغيرة قوامها ألف رجل، وأسطول صغير مكون من ١٣ سفينة، ثم أردفته إمدادات قادمة من أخيه إيدموند دوق لانكستر مع قوة من بريطانيا، وإمدادات من الأراضي المنخفضة بقيادة رئيس أساقفة ليبج، إلا أنه فوجئ بمسير الملك الفرنسي إلى تونس، ثم علم بوفاته في محرم ٦٦٩هـ/ آب ١٢٧٠ أمام سواحل تونس؛ لذا توجه إلى صقلية، حيث أمضى فصل الشتاء هناك مع شارل أنجو– ملك صقلية، وزوج خالة إدوارد–، وأثناء وجوده في صقلية مع بعض الأمراء قرر هؤلاء تأجيل الحملة ثلاث سنوات، لكنه رفض التخلي عن نذره الصليبي، وقرر المسير على الرغم من عودة بعض الأمراء المرافقين له، بينما أبحر هو إلى عكا فوصلها في مطلع شوال ٦٦٩هـ/أيار ١٢٧١م.[٢]

وعندما وصل إلى سواحل عكا وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، فالتجار المسيحيون نشيطون في تبادلهم التجاري مع المماليك، ويمدونهم بالأخشاب والمعادن اللازمة لصناعة السفن، بالإضافة إلى مواد القار والقطران التي كانوا يستخدمونها في قتال الصليبيين، كما أن سفنهم كانت تنقل الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه المماليك في نظامهم وجيشهم، ولم تُجْدِ نفعاً صيحاتُ الاحتجاج من جانبه، ولا أسلحة الحرمان الكنسي من جانب البابا، حتى أن الحاكم البندقي في عكا رفض اعتراضات إدوارد وطالبه بالتغاضي عن ذلك.[٣]

أمام هذا الموقف المتفكك، والقوة الصغيرة التي ترافقه، أدرك استحالة القيام بهجوم شامل ضد المسلمين مما اضطره إلى اعتماد طريقة الغارات القصيرة الأمد.

---

(1) Tyermon, op. cit. p. 127

(2) Tyeman, England.. p 125، king: The king hts.P 268.Powicke, F.M: king Henry III and The Lord Edward vol II, Oxford, 1977, p597.

ستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٧٣/٣ – ٥٧٤. زينب عبد القوي: الانجليز والحروب الصليبية، دار عين، مصر، ١٩٩٦م، ص٢٠٤-٢١٢

(3) Powicke.Op. cit. vol II. P.604-605.

زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية، ص٢١٣. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٧٥/٣.

وجد إدوارد أن تحالفه مع المغول قد يُجدي نفعاً، لذا بادر بإرسال سفارة إلى أبغا في تبريز للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، ولسوء حظه فإن أبغا كان مشغولاً في حروبه مع مغول القفجاق، ومغول بخارى، وتحالفه مع إدوارد اقتصر على إرسال قوة صغيرة إلى شمال بلاد الشام عن طريق عينتاب بقيادة قائده صمغار قائد الجيوش المغولية في الأناضول، فقام هذا بغارة في ١٥ ربيع الأول ٦٦٩هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٢٧١م وصلوا بها إلى حارم، غير أنها سرعان ما عادت بمجرد تحرك السلطان بيبرس باتجاه حلب واستدعائه لقواته من مصر، وكانت هذه الغارة كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الإنجليزي.(١)

أما تحركات إدوارد فيمكن إجمالها بغارتين، الأولى كانت في أواخر سنة ٦٦٨هـ/ تموز ١٢٧١م شنها باتجاه قرية تبعد ثلاثة فراسخ عن عكا، وقد دمر القرية، وقتل بعض الرجال، وغنم منها، وبالمقابل مات عدد من رجاله بسبب الحر والتعب ولسع النحل.(٢)

أما الغارة الثانية فكانت في ربيع الثاني ٦٦٩هـ/تشرين الثاني ١٢٧١م، وتبدو أهميتها والآمال التي علقت عليها من حجم القوات المشاركة، فقد شارك فيها إلى جانب الفرسان الإنكليز كل من الداوية والإسبتارية وفرسان عكا وقبرص، وكانت بالاتفاق مع المغول على أن يتحركوا معاً؛ لكن المغول تراجعوا عندما تحرك السلطان إلى حلب، أما الصليبيين فقد هاجموا حصن قاقون، وحققوا نتائج أكثر من الغارة الأولى، وألحقوا أضراراً بالمسلمين، وغنموا غنائم كبيرة، وخوفاً من وصول العسكر إليهم عادوا مسرعين إلى عكا مع ما نهبوه، وفي هذه الغارة قتل أستاذ دار السلطان بيبرس وبعض الأمراء.(٣)

ثبت إخفاق التحالف المغولي الصليبي في أول تجربة له على أرض الواقع، ويعلق المؤرخ الإنكليزي (بويك powicke) على هذا التحالف بقوله: " إن حملة إدوارد لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة، ولم تكن مؤهلة بأي حال لاسترداد مدينة بيت المقدس، ولو أن أبغا كان حراً من خطر مغول التركستان، وانضم لحملة إدوارد

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٥-٣٩٦. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٨٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٦٥. البرزالي: المقتفي، ٢٤٣/١. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١٣. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٧٧/٣.

Powicke: op. cit. vol. II. P.601-602.

(٢) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ٨٦-٨٧.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٩٦. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٧.

بكل قواته، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التي جعلتهم لا يستفيدون من هذا التحالف، بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم المغولي"،[1] بينما وصفها مؤرخ آخر بأنها مجرد غارة.[2]

أما المقاومة التي أبداها السلطان فعندما علم بهجوم المغول على حارم أرسل إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف مقاتل، فوصل هذا إلى دمشق في ٤ ربيع الآخر، بينما سار السلطان إلى حلب، وجرد قوة إلى مرعش بقيادة الأمير شمس الدين أستاذ دار، وقوة إلى حران والرها بقيادة الحاج طيبرس الوزيري وعيسى بن مهنا، وقد نجح هؤلاء بقتل من كان موجوداً من المغول في حران، وتراجع المغول عند سماعهم بقدوم السلطان إلى حلب،[3] أما الفرنج الذين أغاروا على قاقون، فوصلهم الأمير آقوش الشمسي بعسكر عين جالوت، فانهزموا، ولحقهم حتى استرجع بعض الأسرى "وقتل من رجالاتهم وعرقب من خيلهم".[4]

قبل الفراغ من الحديث عن الحملة لابد من الإشارة إلى أهمية حصن قاقون، هذا الحصن الذي رسم السلطان بعمارته عندما احتاج لمكان لإسكان الناس فيه بعدما حرر قيسارية وأرسوف وهدمهما،[5] وشكل قاعدة متقدمة للمسلمين تجاه الأراضي الصليبية، وأدى وظائف إدارية ودفاعية مهمة، وكان لابد منه في التصدي لأي غارة تخرج من عثليت.[6]

أدرك إدوارد استحالة تحقيق النصر على القوات الإسلامية، فآثر اللجوء إلى مفاوضة السلطان الظاهر لعقد هدنة تكفل لفرنجة الشرق البقاء في الوضع الراهن، وقد توسط في ذلك شارل أنجو ملك صقلية الذي كان على علاقة طيبة مع السلطان، ولم يصل إدوارد إلى ما يرضيه في الهدنة، لذلك لم يشارك في التوقيع على الهدنة التي عقدت في قيسارية ومدتها إحدى عشرة سنة تقريباً أولها ٢١ رمضان ٦٧٠هـ/٢٢أيار ١٢٧٢م احتفظ بموجبها

---

[1] Powicke، F.M: king Henry III، vol، II، p. 603.

[2] مارشال: فن الحرب، ص ٢٧٠.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٥ – ٣٩٧. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٤٣-٢٤٤. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٤٦٧-٤٦٨. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٨٧. المقريزي: السلوك، ١/٦٠٠. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٧٣.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٥ – ٣٩٧. البرزالي: المقتفي، ١/ ٢٤٤. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٤٦٨. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ١٨٨. المقريزي: السلوك، ١/٦٠٠-٦٠١.

[5] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٧٥. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٣٣.

[6] مارشال: فن الحرب، ص ٣٠٥-٣٠٦.

الصليبيون في عكا بممتلكاتهم التي بقيت بأيديهم في الساحل من عكا إلى صيدا، وأن يسمح لهم باستخدام طريق الحج إلى الناصرة، كما كفلت لكونتية طرابلس الأمان.[١]

أما بالنسبة لإدوارد فقد عقد الهدنة على أمل العودة مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة أكبر، ولقد أدرك السلطان ما كان يريده إدوارد، فقرر التخلص منه، فاعتمد على والي الرملة غرس الدين بن شاور الذي أرسل أحد الحشيشية إلى عكا على أنه مسيحي شرقي، وطعنه بخنجر مسموم، إلا أن الطعنة لم تكن قاتلة، ولكن كانت كافية لثنيه عن عزمه، فغادر عكا فور شفائه، ولم يعد إليها ثانية، ولا سيما بعد أن أصبح ملكاً لإنكلترا في ٢٢ أيلول ١٢٧٢م،[٢] وكانت حملته هذه الأخيرة في العصور الوسطى.

٨- تطور الأوضاع بعد عقد الهدنة مع إدوارد:

ساد الهدوء بين الطرفين بعد هذه الاتفاقية، ولم يقم السلطان الظاهر بيبرس بأعمال عسكرية تُذكر ضد الصليبيين سوى استيلائه على حصن القصير، الذي يقع بين حارم وأنطاكية، وكان أهله أهلَ شر وفساد، وكان هذا الحصن مضرة على الفوعة،[٣] وعندما حرر السلطان أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م جاء إليه رسل من هذا الحصن يطلبون المصالحة فصالحهم على مناصفته ومناصفة القلاع المجاورة له،[٤] غير أنهم لم يلتزموا بالهدنة وأخلوا بها، وكانوا يتعاونون مع المغول، فعزم السلطان على أخذ الحصن وتم له ذلك في جمادى الأولى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥.[٥]

أما أوضاع الصليبيين فقد كانت غير مستقرة، وقد حاول الملك هيو الثالث ملك قبرص أثناء إقامته في عكا جاهداً لإزالة الخلافات المتجذرة بين الجماعات والهيئات الصليبية وإصلاح حال الفرنجة، إلا أن بذور الانحلال

---

[١] المقريزي: السلوك، ٦٠١/١. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٧٨/٣-٥٧٩.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٠١. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٨. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥٧٩./٣

Powicke، F.M: king Henry III، vol، II، p.603.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٤٣.

[٤] مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٥١٤.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٤٤. البرزالي: المقتفي، ٣٤٤/١. ابن تغري بردي: النجوم، ١٦٥/٧. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٢١.

كانت أقوى، حتى هو نفسه بدأ يفقد السيطرة على الأمور في عكا، وأخفق في تحقيق هدفه، ولا سيما عندما وقف مقدم الداوية (وليم بوجيه) في وجهه،[1] كما أنه فَقَدَ السيطرة على بيروت أكبر إقطاع له في الساحل الشامي عندما تزوجت أميرتها إيزابيلا من (هامو) أحد رفاق الأمير إدوارد، وقد كان (هامو) هذا لا يثق بـ هيو الثالث، لذا جعل زوجته إيزابيلا وإقطاعها (بيروت) في حماية السلطان الظاهر بيبرس، لذلك بعد أن توفي هامو سنة٦٧١هـ/١٢٧٣م حاول الملك هيو نقل إيزابيلا إلى قبرص ليختار لها زوجاً من عنده؛[2] إلا أن السلطان الظاهر اعترض على ذلك بحكم حمايته، وكتب إلى هيو قائلاً: "هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سَيَّرَتْ لي رسولاً، ولا بد من حضورها، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلا أنا أحق ببلادها".[3]

إزاء هذا التهديد وعدم تأييد المحكمة العليا في عكا لما قام به الملك هيو، أضحى لزاماً عليه أن يعيد الأميرة إلى بيروت، حيث استقر جنود المماليك حرساً لحمايتها،[4] وبتنا الآن أمام مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة بدأت فيها القوة الإسلامية تتحكم بشؤون الممالك الصليبية الداخلية، وبدأ الآن التحالف الصليبي، والاستنجاد الصليبي بالقوة الإسلامية ضد بعضهم البعض، بعد أن كان العكس قائماً منذ عقدين من الزمن.

غادر الملك هيو عائداً إلى قبرص سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م دون أن يعين نائباً عنه يرعى شؤون مملكته في بلاد الشام، وأرسل إلى البابا غريغوري العاشر يشرح له سوءَ الأوضاع في المشرق، وتَعَذُّرَ إصلاح الأوضاع،[5] ليجعل من ذلك مسوغاً لرحيله، فاستغل شارل أنجو ملك صقلية هذه الفرصة، وأعلن نفسه ملكاً لمملكة بيت المقدس كوريث للإمبراطور فردريك الثاني ملك صقلية، وقام بإرسال نائب عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وكانت الصدمة قوية على هيو الثالث الذي حاول استرداد مملكته الصليبية من جديد، فقصد صور على رأس قوة صليبية كبيرة سنة٦٧٨ هـ/١٢٧٩م، إلا أن محاولته باءت بالإخفاق، فارتد خاسراً بسبب

---

[1] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٨٩–٥٩٠.

[2] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٨٦.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٤٧.

[4] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٨٧.

[5] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٤.

وقوف فرسان الداوية في سبيله، وأعاد الكرة مرة أخرى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، فأخفق، وتوفي في صور سنة١٢٨٤م دون أن يحقق أهدافه.[1]

أما إمارة طرابلس فقد توفي حاكمها بوهيمند السادس سنة٦٧٤هـ/١٢٧٥م تاركاً ابناً قاصراً عمره ١٤ عاماً، عُرف باسم بوهيمند السابع ليخلفه على عرش الإمارة، وتم ذلك بعد خلافات حادة بين الصليبيين أنفسهم، بعد ذلك قام بوهيمند السابع وطلب من السلطان تجديد الهدنة التي عُقدت أيام والده، فوافق السلطان على أن يدفع الأمير بوهيمند السابع مبلغاً قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة، ويرد إليه عشرين أسيراً، فقبل بوهيمند ذلك، وعقدت الهدنة بينهما في محرم ٦٧٤ه/١٢٧٦م.[2]

---

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٤-٩٥، ١٠٢-١٠٣. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/٥٩١-٥٩٢.

[2] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٩. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٤٠.

ثانياً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون ٦٧٩-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م:

أعقبت وفاة الظاهر بيبرس بعض الفتن، فلم تتمكن أسرته من الاحتفاظ بالعرش، إذ تم خلع ابنه سلامش سنة٦٧٨هـ/١٢٧٩م بعد مدة قصيرة من خلع أخيه السعيد بركة، وتسلطن الأمير سيف الدين قلاوون الذي كان أتابكاً للعسكر في شهر رجب من ذلك العام، وقد نجح في تأسيس أسرة تعاقب سلاطينها على حكم السلطنة حتى سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م .

وسلف القول أن السلطان المنصور قلاوون واجه -كغيره من سلاطين المماليك - معارضة داخلية لحكمه، تمثلت بخروج سنقر الأشقر نائب دمشق، فقد عارض هذا الأمير مبايعة قلاوون وأعلن استقلاله، وتلقب بالملك الكامل،[1] وانضم إليه في التمرد بعض رؤساء القبائل مثل عيسى بن مهنا أمير العربان في البلاد الشرقية والشمالية، وأحمد بن حجي أمير العربان في البلاد القبلية، وأصبح تقريباً نصف المملكة بيده، وباتت الأمور خطيرة، فرأى السلطان قلاوون أن يتدارك الفتنة في مهدها قبل تطورها، فأرسل جيوشه بقياده الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين بكتاش الفخري اللذين تمكنا من إنزال الهزيمة بسنقر الأشقر وقواته في صفر ٦٧٩هـ/ حزيران ١٢٨٠م بعد أن تخلى عنه العسكر الحموي والحلبي، وخامر عليه أكثر أفراد العسكر الشامي؛ إذ تركوه وانضموا إلى العسكر المصري.[2]

سار الأمير سنقر الأشقر بعد هزيمته إلى الرحبة، وعندما امتنع أميرها موفق الدين خضر الرحبي عن تسليمها له، ويئس منه الأمير سنقر، كتب إلى أبغا بن هولاكو حاكم مغول فارس يحثه على قصد بلاد الشام ويحسن له ذلك، ويعده بالمناصرة، وكذلك فعل عيسى بن مهنا أمير العربان.[3]

---

[1] المقريزي: السلوك، ٦٧٠/١. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٥٢/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٢٢. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٦٢/٧.

[2] ابن حبيب: درة الأسلاك، ٥٧/١-٥٨.المقريزي: السلوك، ٦٧٦/١. النويري: نهاية الأرب، ١٧/٣١-١٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٣٦.

[3] النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٠. المقريزي: السلوك، ٦٧٧/١. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٣٧.

وبالفعل استغل أبغا بن هولاكو هذا العرض لتحقيق مراده؛ إذ دفع بقوة عسكرية إلى شمال بلاد الشام في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م احتلت عينتاب، وبغراس، ودربساك، وحلب لبعض الوقت، ثم انسحبت بعدما أحدثته فيها من تدمير وتخريب، وكان مما عجّل بانسحابها تراجع الأمير سنقر الأشقر عن موقفه، ووقوفه إلى جانب السلطان قلاوون- وقد تقدم في الفصل الأول الحديث بالتفصيل عن تمرد سنقر الأشقر-.[١]

من الجانب الصليبي حاول هؤلاء استغلال فرصة الاضطرابات التي واجهت السلطنة بسبب ثورة الأشقر، فكثر فسادهم، وامتد طمعهم إلى الأملاك الإسلامية؛ فجرّد السلطان قوة عسكرية بقيادة الأمير علاء الدين البندقداري إلى الساحل الشامي لحفظ البلاد من الصليبيين، كما أذن في أواخر سنة٦٧٩هـ/١٢٨١م إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الأكراد بمهاجمة فرقة الإسبتارية في المرقب بعد أن استأذنه في ذلك، وكانت هذه الفرقة قد تعدت على أملاك المسلمين مستغلة الفوضى التي حدثت، إلا أن الطباخي لم ينجح في هجومه، ونال الصليبيون من القوات الإسلامية قتلاً وأسراً ونهباً، ووصل عدد قتلى المسلمين في هذه الواقعة إلى مئتي فارس وراجل.[٢]

أمام هذا الموقف وجد السلطان أنه لا بد من إعادة حساباته، والسير على نهج السلطان الظاهر بتفريق أعدائه دبلوماسياً، بشكل يحول دون حدوث تعاون صليبي صليبي، أو صليبي مغولي، بل أكثر من ذلك محاولة الاستفادة منهم، ففي سنة٦٨٠هـ/ ١٢٨١م كان السلطان قد غادر القاهرة باتجاه فلسطين، وعندما نزل منزلة الروحاء بالقرب من حيفا وَرَدَ عليه رسل الإسبتار من عكا يطلبون منه تجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع السلطان بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م، وبعد مفاوضات عقد السلطان المنصور قلاوون هدنة معهم، وشملت الهدنة أيضاً قلعة المرقب وربض المرقب، وكانت مدتها إحدى عشرة سنة تقريباً أولها ١٢محرم ٦٨٠هـ/٣أيار١٢٨١م،[٣]

---

[١] ابن تغري بردي: النجوم، ٢٩٨/٧-٢٩٩. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٨٥/٧-١٨٦. العيني: عقد الجمان، ٢٥٤/٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٣٤/٩.

[٢] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٩٥/٧. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٣٥/٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ٢٣٩. البرزالي: المقتفي، ٤٩٨/١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٥٢/٤. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٦/٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٧.

[٣] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٣٧/٩، ١٥٧. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٠٤/٧-٢٠٥.

وفي وقت لاحق عقد السلطان هدنة أخرى مع بوهيمند السابع صاحب طرابلس لمدة عشر سنوات بدأت بـ ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠هـ/١٦تموز ١٢٨١م.[١]

تمكن السلطان بهذه الاتفاقيات من التفرغ كلياً للمغول وقتالهم، وبالفعل تمت هزيمة المغول في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وقد أدهش انتصاره في معركة حمص الصليبيين، فتقدمت الداوية في عكا، والساحل، وأنطرطوس بطلب عقد هدنة معه، فوافق على هذا الطلب وعقد معهم هدنة مدتها عشر سنين وعشرة أشهر تبدأ بـ ٥ محرم ٦٨١هـ/١٥نيسان ١٢٨٢م[٢]، وأعقبها في السنة التالية عقد هدنة أخرى عامة مع حكام صيدا، وعكا، وعثليث، وفرسان الداوية، والإسبتارية مدتها عشر سنين وعشر أشهر أولها ٥ ربيع الأول ٦٨٢هـ/ ٣ حزيران ١٢٨٣م،[٣] ولم تذكر صور، ولا بيروت في الهدنة.

وقبل البدء في الحديث عن العمليات قلاوون العسكرية ضد الصليبيين لابد من التذكير بأحوال الصليبيين في بلاد الشام والتي كانت قد تغيرت كلياً، فقد أتعبتهم حروب الظاهر بيبرس التي شنها ضدهم، كما أنهكتهم الصراعات الداخلية، ومعظم ما تبقى من الأراضي التي كانت تحت سيطرتهم؛ دخلت في مهادنات مع المماليك الذين شاطروهم منتجاتهم عن طريق المناصفات والمثالثات.

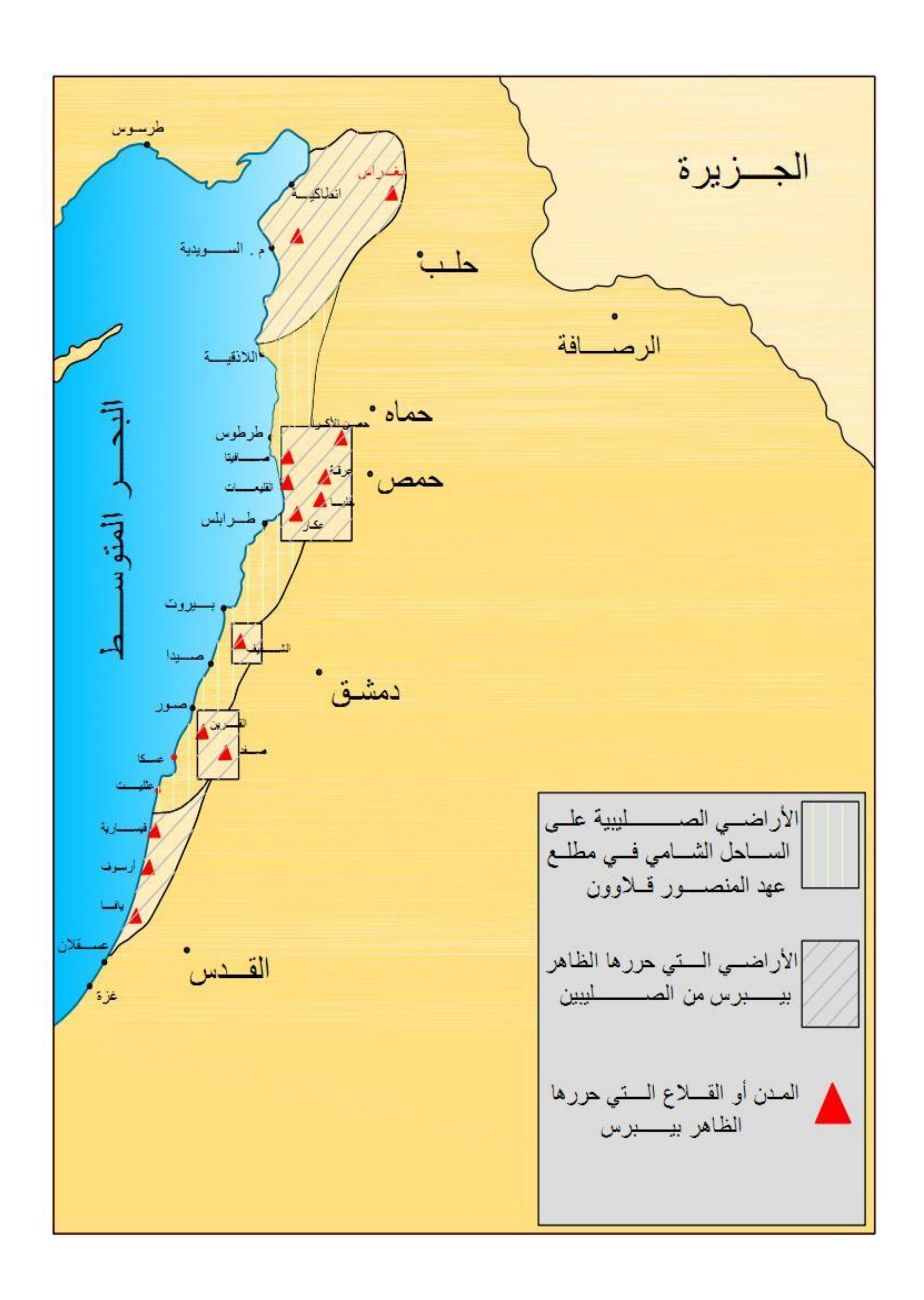
كما هو معلوم؛ بدأ الظاهر بيبرس حكمه والصليبيون يسيطرون على الساحل الشامي بالكامل من خليج إسكندرون حتى يافا، ويتصلون شمالاً مع مملكة إرمينية الصغرى عبر ممرات الأمانوس التي وقعت تحت سيطرتهم أيضاً، ولم يكن للمسلمين منفذٌ على البحر المتوسط في تلك المناطق، والموانئ والتجارة الشامية كلها في يد الصليبيين، وقد انتهى حكمه بعد أن فقد الصليبيون نصف أراضيهم تقريباً، وتقدم المسلمون على حسابهم تقدماً كبيراً، ويمكن إجمال أعماله واختصارها بثلاث خطوات:

---

[١] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٠٥/٧. المقريزي: السلوك، ٦٨٥/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٥٧/٩.

[٢] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٢٠.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٣٤-٤٣. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٦٢/٧-٢٧٠. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٧٨/٩.


الجـــزيرة
طرسوس
انطاكية
م . الســـويدية
حلب
الرصـــافة
اللاذقيـــة
حماه
البحـــر المتوســـط
طرطوس
صـــافيتا
القليعـــات
عكار
حمص
طـــرابلس
بـــيروت
صـــيدا
دمشـق
صــور
عــكا
قيســـارية
أرسوف
يافــا
عســقلان
غزة
القـــدس
الأراضـــي الصـــــــليبية علـــى الســـاحل الشـــامي فـــي مطلـــع عهد المنصـــور قـــلاوون
الأراضـــي الـــتي حررها الظاهر بيـــــبرس من الصـــــــليبين
المـدن أو القـــلاع الـــتي حررها الظاهر بيــــبرس

الخطوة الأولى: هدفت إلى تحرير جنوب فلسطين لتأمين حرية الحركة للقوات الإسلامية بين مصر والشام، وتمكنت حملتي ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م و٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م من تنفيذ هذه الخطوة عندما حررت أرسوف وقيسارية وصفد.

الخطوة الثانية: هدفت إلى تحرير الشمال الشامي لقطع الاتصالات بين الصليبيين والأرمن، وكانت حملة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨ كفيلة بتحقيق هذا الهدف، إذ تمكنت من تحرير أنطاكية وبغراس أحد ممرات الأمانوس، وقبل ذلك كانت قد حررت يافا وبات الصليبيون منحصرين بين اللاذقية وعثليت.

الخطوة الثالثة: هدفت إلى ضرب الصليبيين في الوسط، وتقطيع أوصالهم بتحرير طرابلس، ولهذه الغاية سارت حملة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، تمكنت من تحطيم الدفاعات الشرقية لكونتية طرابلس تمهيداً لاجتياحها، فحررت حصن الأكراد، وعكار، وصافيتا، والقرين،...لكن القدر لم يمهل السلطان بيبرس؛ إذ توفي قبل تحرير طرابلس، فتابع المهمة مكانه السلطان قلاوون.

١- تحرير حصن المرقب، ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م:

أخذ السلطان المنصور يتحيّن الفرص للانقضاض على معاقل الصليبيين بعد أن ضعفت جبهة المغول، فكان أول أعماله فتح حصن المرقب القريب من بانياس، وكان فيه الإسبتارية الذين زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم، وضايقوا أهل البلاد المجاورة، ولم يقفوا عند الأيمان التي حلفوها على الهدنة،[١] لذا لم يجد السلطان بُداً من تحرير هذا الحصن، فتحرك على رأس جيش من القاهرة إلى دمشق فوصلها في ٢٢ محرم ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وبعد استكمال تجهيزاته تحرك بسرية تامة من دمشق دون أن يعلم أحد بوجهته، وقد نازله في ١٠ صفر/٧ نيسان من السنة ذاتها، وبعد أن اكتمل حصاره ونصب المجانيق عليه، بدأ بقصفه من جميع الجهات.[٢]

يقع حصن المرقب فوق هضبة معزولة، شكلها مثلثي، وارتفاعها ٣٦٠م، وتشرف على البحر المتوسط، كانت ملكاً للإسبتارية بحق الشراء، وكوّنت مركزاً إداريا لأراضي واسعة تجمعت وتعاظمت لتشكل بالفعل إمارة مستقلة.

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٧٧. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٠٠.

[٢] المقريزي: السلوك، ١/٧٢٧-٧٢٨. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٦٨. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٨٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/٣١٤-٣١٥.

وتحكمت هذه القلعة بالطُرق الساحلية إلى الشمال والجنوب منها، وكان لها من القوة ما مكنها من فرض الجزية على جيرانها المسلمين حتى سقوط حصن الأكراد سنة٦٦٩هـ/١٢٧١م، عندما أصبح المسلمون على مقربة منها، وتقسم القلعة إلى قسمين؛ القلعة الأساسية، والربض، فصل بينهما خندق، والأسوار المدعمة باثني عشر برجاً تساير حافة الهضبة من جميع الجهات، وفي سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وصفها رحالة ألماني قائلاً: "هي القلعة الأقوى في جميع هذه البلاد، وهي تواجه عدداً كبيراً من القلاع، هي قلاع شيخ الجبل (الإسماعيلية) وقلاع سلطان حلب، وقد وضعت حداً لطغيانهم إلى حد أنها تستطيع أن تجمع جزية سنوية"،[١] أما ابن عبد الظاهر فوصف حصنها بأنه " أعجز الملوك ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه، فكيف النزول عليه".[٢]

أظهر الصليبيون إلى جانب هذه المنعة مقاومة شديدة فيه، غير أن هذا لم يثنِ عزم السلطان عن اقتحام الحصن، فشدد ضرباته حتى أجبر الصليبيين بداخله على الاستسلام، وطلب الأمان بعد أن تمكنت النقوب من أسوار القلعة، فأمَنَّهم السلطان، وسمح لهم بمغادرة الحصن ولهم أن يحملوا ما يشاؤون إلا السلاح، فغادروا الحصن بأموالهم الخاصة إلى طرطوس في حماية عسكرية من السلطان ثم اتجهوا إلى طرابلس، ودخل السلطان القلعة في ١٩ ربيع الأول/٢٥أيار من السنة ذاتها.[٣]

ونظراً لمنعة حصن المرقب وأهميته العسكرية، حرص السلطان على تسلمه سالماً دون تدمير، ورتب فيه ألف رجل من فرق الجيش، وعدداً من الأمراء أصحاب الطبلخانات، وخمسين من المماليك البحرية، فضلاً عن أربعمئة من أرباب الصنائع، كما زوده بأصناف عديدة من الأسلحة وأوقف على عمارته أوقافاً.[٤]

---

[١] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ٢٣٧-٢٤٠. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٧١.

[٢] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٧٧.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٧٩-٨٠. أبو الفداء: المختصر، ٣٥٥/٢. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٧/٧-١٨. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٠١. العيني: عقد الجمان، ٣٣٨/٢. البرزالي: المقتفي، ٦٣/٢.الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٧.

[٤] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٠-٨١.

٢- تدمير حصن مرقية:

بالقرب من المرقب، وتحديداً شمال طرطوس بعشرة أميال عند نبع عند نبع يسمى نبع حسان، وقعت قلعة مرقية التابعة للداوية التي كانت قد أُخليت على إثر فتح حصن الأكراد سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م، ثم عاد إليها صاحبها (بارثلميو) بعد وفاة الملك الظاهر سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وعمَّر قبالتها في البحر برجاً بين أنطرطوس والمرقب بمساعدة كونت طرابلس واسبتارية المرقب، وذكر ابن عبد الظاهر أن هذا البرج "داء دخيل، لا يحصل راحة ولا أمن بوجوده وبقائه"،[١] ويقول ابن أيبك أنه برج عظيم لا يُرام، لا يصله النشاب، ولا حجر المنجنيق.[٢]

وعندما أدرك السلطان عدم إمكانية حصاره لافتقاره (أي السلطان) إلى مراكب حربية في ذلك الوقت ليحاصره ويقطع الميرة عنه، لجأ إلى الحيلة للتخلص منه، فأرسل إلى أمير طرابلس يطلب منه هدم هذا الحصن؛ لأنه ساعد في بنائه، وإلا فإن السلطان سيجتاح إمارته إن لم ينفذ الهدم، ومما قال له: "إن العساكر قد تفرقت وما بقي إلا أنت، وهذا البرج أنت الذي عمرته في الحقيقة، ولولا إعانتك لما بني، وأنت المؤاخذ به، فإما أن يهدم، وإلا أخذنا قبالته من بلادك ما لا ينفعك في الدفع عنه صاحب مرقية، وتندم حيث لا ينفع الندم"،[٣] فلم يَسَعْ أمير طرابلس إلا الإذعان، فتوسط لدى صاحب هذا الحصن مقابل جملة من المال، كما عوضه بعدة ضياع من إمارته بدلاً منه، فهدمه مرغماً، وقد أرسل السلطان مئة حَجَّار للمشاركة في الهدم نكاية بالصليبيين، وهدم حصن مرقية "حجراً حجراً". [٤]

روع هذا الحدث جموع الصليبيين في بلاد الشام، فتسابقوا لعقد الاتفاقيات مع السلطان، فقد تقدمت أميرة بيروت بطلب لعقد الهدنة مع السلطان، فطالبها بدفع مبلغ تسعين ألف درهم مقابل ذلك، فتم الاتفاق على أن تدفع ثلاثين ألف درهم مباشرة، ويتم دفع ما تبقى في غضون ثلاثة أشهر،[٥] وتقدمت الأميرة مرغريب أميرة صور بطلب لعقد الهدنة، فوافقها السلطان المنصور مقابل تنازلها عن نصف دخل إمارتها السنوي، وتعهدها بعدم تجديد

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٧.

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٧١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣١٦/٧.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٩.

[٤] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٧١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣١٧/٧.

[٥] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٩-٩٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣١٦/٧.

تحصيناتها، وعلى هذا الأساس تم عقد الهدنة معها لمدة عشر سنين أولها ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤هـ/ ١٨تموز١٢٨٥م.[١]

- **عودة ملكية بيت المقدس إلى هنري الثاني ملك قبرص:**

توفي في كانون الثاني سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م الملك شارل أنجو الكبير، ملك صقلية، ولم يكن ابنه شارل الثاني ملك نابولي مهتماً بما يجري في المشرق، لذلك أرسل الإسبتارية في عكا إلى الملك هنري الثاني ملك قبرص- الذي جرى تتويجه سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م بعد وفاة أخيه جون الأول - ينصحونه باسترداد ملك أبيه في مملكة بيت المقدس "عكا"، لذلك أرسل هنري الثاني- التواق لاسترداد مملكة بيت المقدس- مبعوثاً عنه إلى عكا ليُجري مفاوضات مع مختلف الهيئات الصليبية للاعتراف به ملكاً على بيت المقدس، وكان يرغب هنري بالقدوم إلى صور، إلا أن علاقته السيئة بالداوية منعته من ذلك.

وصل المبعوث إلى عكا وأقام في مقر الإسبتارية في عكا، وتحدث عدة مرات مع مُقَّدم الداوية وليم أوف بيجو، وفي النهاية تمكنوا من الوصول إلى اتفاق لحل لخلافاتهم، وتم توقيع معاهدة بذلك، غير أن أودو بويليشين (Odo Poliechien) النائب عن ملك صقلية في مملكة بيت المقدس رفض أن يتخلى عن نيابته.

وفي السنة نفسها ٦٨٥هـ/١٢٨٦م وصل هنري الثاني ملك قبرص إلى عكا مع قوة كبيرة من الجنود، وأسطولاً من السفن الرائعة، ليضع حداً لرفض أودو بويليشين الذي شحن القلعة بالسلاح والرجال، وأنذرت الأحوال بوقوع صدام عنيف بين الطرفين لولا تدخل كل من مقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية، ومقدم التيوتون الذين رأوا أن المأساة وشيكة الوقوع، فذهبوا إلى ملك قبرص هنري الثاني وتحدثوا معه، ثم ذهبوا إلى أودو - نائب ملك صقلية- وتحدثوا معه أيضاً، وأخيراً اضطر أودو إلى الإذعان والموافقة، وجرى تتويج هنري ملكاً على القدس في كاتدرائية صور في ١٥ آب من ذلك العام، وبذلك عادت مملكة بيت المقدس إلى ملوك قبرص، وقبل أن يغادرها هنري الثاني إلى قبرص ترك خاله اللورد "بلدوين أوف إيبلين" نائباً عنه في عكا.[٢]

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٠٣.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القيارصة ص١٠٧-١١٠. وكان هذا شاهد عيان، وهو الذي كتب نص الاتفاق الذي حدث بين الداوية ومبعوث ملك قبرص. أيضاً راجع: رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٦٩/٣-٦٧١.

٣- تحرير اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م:

كانت اللاذقية تشكل الحدود الشمالية للصليبيين، ويأتي تحريرها تماشياً مع السياق الذي انتهجه السلطان قلاوون في تحرير المناطق الشمالية (المرقب ومرقية).

قبل تحرير اللاذقية أمر السلطان القوات المرسلة لهذه المهمة بقيادة نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي بالتوجه لإخضاع حصن صهيون حيث يقيم الأمير سنقر الأشقر، وكان هذا الأخير قد امتنع عن الحضور لمساعدة السلطان أثناء حصاره لحصن المرقب سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، واكتفى بإرسال ولده مما أغضب السلطان قلاوون الذي قام باحتجاز ولده، وحمله معه إلى مصر، ومما أثار حفيظة السلطان ضده أيضاً أنه كان يشنُّ الغارات على البلاد التي حوله، وخرج عما تم الاتفاق عليه وأبدى نوعاً من الشقاق لذلك توجب إخضاعه،[1] وبالفعل حاصر طَرُنْطاي الحصن ونصب عليه المجانيق، بعد أن امتنع الأشقر عن الخروج وتسليم الحصن، وعندما أشرف على أخذه عنوه، أرسل سنقر الأشقر في طلب الأمان، فحلف له طَرُنْطاي أنَّ السلطان لا يضمر له سوءاً، فنزل الأشقر إلى الأمير حسام الدين طرنطاي وسلمه الحصن، وقام هذا الأخير ورتب فيه نائباً من قبل السلطان في صفر سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م.[2]

يقع حصن صهيون إلى الشرق تماماً من اللاذقية ويمكن عد هذه العملية (إخراج سنقر الأشقر منه) عملية وقائية أراد السلطان من خلالها تأمين ظهر الجيش الذي سوف يهاجم اللاذقية؛ لأنه كما يبدو لم يكن يثق من إمكانية تقديم سنقر الأشقر المساعدة لهذا الجيش لو احتاجها.

ولما فرغ حسام الدين طرنطاي من أمر حصن صهيون، عدل إلى جهة اللاذقية ونقل إليها أدوات الحصار، وكان في المدينة برج حصين على حد قول ابن عبد الظاهر، فقد وصفه: "وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات، وآفة عليها من أكبر الآفات، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلب المسلمين، وذخيرة لأعداء الدين، وذلك أنه في وسط البحر، لا تسلك إليه طريق من بر ولا ينقب له سور"، ويضيف أبو الفداء أنه في البحر تحيط به المياه من

---

[1] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٤٨/٨. المقريزي: السلوك، ٧٣٤/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٠٧/٩.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٠٧/٩. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٤٨-١٥٠. المقريزي: السلوك، ٧٣٤/١-٧٣٥. أبو الفداء: المختصر، ٣٥٦/٢-٣٥٧. البرزالي: المقتفي، ١٠٣/٢. النويري: نهاية الأرب، ٢٣/٣١-٢٤.

جميع الجهات،[1] وفي هذه السنة سنحت الفرصة للسلطان عندما ضرب المنطقة زلزال في شهر صفر / آذار، فتهدم معظم البرج الذي في وسط البحر، وهذا من الأسباب التي سهلت فتحه.[2]

استطاع حسام الدين نصب المجانيق على أمكنة ضيقة جداً قبالته ووَسَّعَ الجسر الواصل إليه، وشرع في مهاجمته إلى أن تمكن من إحداث النقوب من جهة الأمكنة التي هدمتها الزلزلة، وكشفت المدينة من جهة البحر، فخاف من بداخلها ولم يقو على المقاومة، فطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير حسام الدين على أنفسهم وأموالهم على أن يخرجوا منه تاركين ما به من عدد وسلاح، فتركوه وتوجهوا إلى جهات عدة، وتسلمه الأمير حسام الدين في ٥ ربيع الأول/ ١٩ نيسان من السنة المذكورة.[3]

٤- تحرير طرابلس، ربيع الآخر ٦٨٨هـ/ نيسان ١٢٨٩م:

شغلت طرابلس مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية، فقد كانت مقر كونتيه، أسسها ريموند أوف سانت جايل؛ كونت تولوز، أو ريموند الصنجيلي حسب التسمية العربية، وكان هذا أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وظلت أسرته تتوارث حكم هذه الإمارة حتى سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م حيث انتقل حكم طرابلس إلى حكام أنطاكية النورماندين.[4]

تقع مدينة طرابلس على الساحل الشمالي لجمهورية لبنان حالياً، وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة هناك تلة عُرفت باسم تلة الحجاج، اختارها ريموند الصنجيلي هذا لبناء قلعة، استمرت بيد الصليبيين حتى تم تحريرها على يد المنصور قلاوون كما سيتبين، وما تزال حتى الآن القلعة تعرف باسم قلعة صنجيل، وحسب ما ذكره وليم الصوري؛ بنيت القلعة لغايات هجومية، وقد كانت محصنة بشكل جيد بموقعها الطبيعي ومهارة الذين شيدوها، استخدمها ريموند الصنجيلي مقراً وقاعدة للعمليات العسكرية التي قام بها في المنطقة، ولا سيما ضد مدينة

---

[1] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٥١. أبو الفداء: المختصر، ٣٥٧/٢.

[2] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٥١-١٥٢.

[3] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٥٢. أبو الفداء: المختصر، ٣٥٧/٢. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٨١/٣.

[4] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٩٥/٩.

طرابلس التي ظلت تقاوم حتى أيام ابنه برتراند سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م، وانطلاقاً من هذه القلعة فرض ريموند الصنجيلي سيادته على المناطق المجاورة، وأجبر سكان المنطقة على دفع الجزية له.[1]

بقيت مدينة طرابلس نفسها بمنأى عن هجمات الدولة المملوكية بحكم المهادنات التي عقدت مع أمرائها، وفي ظل هذه المهادنات كانت طرابلس آمنة من أي هجوم إسلامي، مما جعلها تزدحم بالصليبيين الذين وفدوا إليها من المعاقل الصليبية التي تم تحريرها، غير أن هذا لا يعني تخلي السلطنة المملوكية عن تحرير طرابلس، وطرد الصليبيين منها ومن بلاد الشام، لكنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، وإعادتها إلى حضن الدولة الإسلامية.

خلال ذلك كانت الغارات —كما سلف — لا تتوقف على أنحاء طرابلس بغية إضعافها وتشعيث الأراضي حولها، وكمقدمة لاقتحامها كان السلطان الظاهر قد جردها من دفاعاته الشرقية والشمالية عندما حرر حصن الأكراد، وعكار، وعرقة، والقليعات، وحلبا، وفي هذا الوقت بدأت ظروف طرابلس الداخلية تساعد على تحقيق المشروع المملوكي الهادف إلى تحريرها، فقد حدث في شعبان سنة ٦٨٦هـ/ تشرين الأول ١٢٨٧م أن مات الأمير بوهيمند السابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس، ولم يكن هناك ولد يخلفه،[2] لذلك فإن أخته لوسي - التي كانت قد تزوجت من نارجوت أوف توسي (Narjot of Toucy) أمير البحر السابق عند شارل أنجو- هي وريثه الشرعي، وهذه كانت غائبة عن المدينة، ولم يشأ قادة المدينة استدعاءها، فقام فرسان أنطاكية وطرابلس وعرضوا على أم الأمير المتوفى— وهي أخت ملك إرمينية الصغرى- تعيين حاكم لطرابلس، فأرادت تعيين أسقف طرطوس (السير بارثلميو الجبيلي Bartholomew of Jubail) المنبوذ من قبلهم، فعارضوا ذلك، وأسسوا في طرابلس قومونة، أي حكم بلد مستقل - مجلس بلدي- بزعامة بارثولوميو إيمبرياكو لحكم كونتية طرابلس، وهذا الأخير من أسرة حكام جبيل الأسرة الجنوية المشهورة (Embriacos)، فقام بمراسلة جمهورية جنوى للحصول

---

[1] وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار نوبليس، ط١، ١٩٩٠م، ٥١١/٣. جاك دي فتري (أسقف عكا وبطريرك القدس والنائب البابوي في فرنسا وألمانيا): تاريخ القدس، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ١٤٠/٣٤-١٤١.

[2] الفارس الداوي: أعمال القيارصة، ص١٢٢. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٢٨٧-٢٨١.

على الدعم منها مقابل الامتيازات، فأرسلت جنوى أحد أفراد أسرة زكار(Zaccaria) المشهورة، واسمه (بينيدتو) مع عدد من السفن.

وفي هذه الآونة وصل خبر وفاة بوهيمند السابع إلى أبوليا، فقام الأدميرال نارجوت بإرسال زوجته لوسي إلى عكا، وأخبرها بأن تعتمد على فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) الذين استقبلوها في إحدى قلاعهم خارج طرابلس، وقدموا لها كل دعم، في حين رفض أهالي طرابلس حكمها بسبب ما لاقوه من جور أيام حكم أخيها وأبيها، وجعلوا دخولها إلى طرابلس مشروطاً بأن تقسم على الحفاظ على هذه الكومونة ودعمها، وكانت الكومونة قد عقدت ميثاقاً مع جمهورية جنوى أصبحت بموجبه طرابلس تحت حماية جنوى، وقد حصلت جنوى مقابل ذلك على شوارع وأسواق عديدة في طرابلس، وكانت جنوى تتوق لعقد مثل هذه الاتفاقية نظراً للمكاسب التجارية التي ستحققها من طرابلس.

تعاطف أهل طرابلس مع لوسي، فكتبوا قائلين لها: إنها إذا ما رضيت بمطالبهم، وثبّتت ما أعطي إلى الجنويين، فسوف يستقبلونها، وأمام تهديدات زكاريا تنازلت لوسي، ثم عقد اجتماع في صور بين السيدة لوسي ومبعوث جنوى السيد زكاريا، وتم التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين، تضمن هذا الاتفاق موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس مقابل موافقتها على جميع ما حصلت عليه جنوى، وموافقتها على صلاحيات كومونة طرابلس المؤسسة حديثاً، ثم ذهب الجميع إلى طرابلس.[١]

نستنتج من هذا أن طرابلس خرجت من حكم النورمانديين ووقعت فعلياً تحت سيطرة جنوى ممثلة بمندوبها (بينيدتو زكاريا)، وقد حولتها إلى مركز لتجارتها، وهذا يعني أن طرابلس ورثت عداوات جنوى التقليدية المتمثلة ببقية الفئات التجارية كالبنادقة والبيازنة وغيرهم، ومن الطبيعي ألا يُرضي هذا الاتفاق كل الأطراف الصليبية، حتى أنه لم يُرضِ بارثولوميو ايمبرياكو، لذلك قام أحد هذه الأطراف بمراسلة السلطان يحذره، ويستدعيه لمهاجمة طرابلس، ويذكر ابن تغري بردي واليونيني أن بارثولوميو هذا هو الذي راسل السلطان قلاوون ودعاه لمهاجمة

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٢٢-١٢٦، وهو شاهد عيان على هذه الأحداث. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٨١/٣-٦٨٣.

طرابلس، على أن تكون المدينة مناصفة بينهما،[1] أما الفارس الداوي الذي كان شاهد عيان فذكر أنه يعرف الرسولين اللذين أُرسلا إلى السلطان، غير أنه رفض تسميتهم.[2]

على كل حال؛ فالذي قام بعملية المراسلة هو من أعداء جنوى؛ لأن كل التغيرات التي حدثت في طرابلس كانت لصالح الجنوية، وإن لم يكن بارثولوميو هو المراسل للسلطان، فلا يعدو أن يكون البنادقة أو البيازنة هم الذين راسلوا السلطان.

قابل هذان الشخصان المنصور قلاوون، وأظهرا له خطر وجود الجنوية في طرابلس على السلطنة المملوكية سياسياً وتجارياً، فطرابلس بإمكاناتها الذاتية من دون جنوى تستطيع أن تسلح عشر إلى خمس عشرة سفينة، أما الآن والجنويون في طرابلس فسوف يكونون قادرين على تسليح ثلاثين سفينة، وسوف يتحكمون بالبحر كما يشاؤون، ولهذا آثاره السلبية في التجارة المملوكية.[3]

هذا ما أثار مخاوف السلطان وجعله يتحين الفرص للانقضاض على طرابلس التي تربطه معها هدنة، وأثناء ذلك وصلته رسالة من الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام تفيد بأن الصليبيين بطرابلس نقضوا الهدنة، واعتدوا على التجار المسلمين، وقطعوا الطريق على المسافرين، وأسروا عدداً منهم في أواخر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، الأمر الذي أعطاه المسوغ لمهاجمة مدينة طرابلس، فشرع في تجهيز قواته وإعدادها وتحرك على رأس الجيش في منتصف المحرم٦٨٨هـ/ شباط١٢٨٩م.[4]

– المسير إلى طرابلس:

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مخطوطة جامعة ييل في أمريكا، تحت رقم H ١٣٩-١٤٠، ج١١، ورقة ٣-و. ابن تغري بردي: النجوم، ٣٢٠/٧-٣٢١.

[2] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٢٦.

[3] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٢٦.

[4] ربما تكون هذه حجة ولم يحصل أي اعتداء. راجع: المقريزي: السلوك، ٧٤٦/١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨٠/٨. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢١٤/٩. النويري: نهاية الأرب، ٤٦/٣١-٤٧.

كالعادة أخفى المماليك وجهة الحملة للاستفادة من عنصر المفاجأة، غير أن مُقَدَّم الداوية علم بنيّة السلطان قلاوون عن طريق الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير السلاح؛ الذي كان قد اعتاد على إخبار مقدم الداوية بالقضايا التي كانت تهم الصليبيين مقابل هدايا وأموال يرسلها إليه مقدم الداوية كل عام.[١]

قام هذا بإخبار أهل طرابلس فبدأت الاستعدادات للدفاع عن طرابلس، ووصلت المساعدات من قبرص، وعلى رأسها عموري أخو ملك قبرص، وشارك في الدفاع عنها كل من والداوية، والإسبتارية، والبيازنة، والبنادقة؛ على الرغم من العداء القائم بينهم، بالإضافة إلى عدد كبير من فرسان وسيرجندية ملك فرنسا، وكان هناك الكثير من شعب البلاد، وكانت المدينة مليئة بالرجال والفرسان.[٢]

كتب السلطان في هذا وقت إلى جميع النواب بالممالك الشامية والحصون الإسلامية يأمرهم بتجهيز العساكر والمجانيق، ثم وصلوا إلى مشارف طرابلس وبدأوا بمنازلتها في مستهل ربيع الأول ٦٨٨هـ/ ١٧آذار ١٢٨٩م، كان الحصار متركزاً بشكل كبير على الجهة الشرقية؛ لأن المدينة محاطة من بقية الجهات بالبحر"وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل".[٣]

ركزّ السلطان هجومه على الأماكن الضعيفة من المدينة، وبلغ عدد المجانيق حوالي تسعة عشر منجنيقاً، معظمها كان على الجهة الشرقية كما ذُكر،[٤] فهاجم برج الأسقف في الركن الجنوبي الشرقي، وقصفته آلات الحصار بشكل متواصل، حتى أنه تصدع تماماً، ومثل هذا برج الإسبتارية الحصين والممتد إلى البحر، وقد خُرق بشكل جيد حتى بات بإمكان حصان أن يمر من خلاله، وكان لدى السلطان عدد كبير من الرماة موزعين بشكل لم يسمح لأحد من رماة الصليبيين أن يتجرأ على إظهار نفسه ليرمي بالقوس، لأنه لو حاول فعل ذلك لأصيب على الفور.[٥]

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القيارصة ص١٢٧.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٢٧-١٢٨.

[٣] أبو الفداء: المختصر، ٣٥٨/٢.المقريزي: السلوك، ٧٤٦/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢١٤-٢١٥. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨٠/٨. النويري: نهاية الأرب، ٤٧/٣١. الفارس الداوي: أعمال القبارصة ص١٢٨.

[٤] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨٠/٨. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢١٥/٩. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص٢٨٩-٢٩٠.

[٥] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٢٨-١٢٩.

لذلك باتت المدينة في حالة سيئة كثيراً، وفي وسط هذا كله قام البنادقة –الذين كانوا هناك في غليونين– بالتجمع للهرب إلى إرمينية الصغرى بعد أن أوشكت المدينة على السقوط، وعندما رآهم بعض المدافعين سارعوا أيضاً إلى الفرار معهم، الأمر الذي أدى إلى إرباك المدافعين عن المدينة، ونتج عن ذلك مغادرة الأمير عموري للمدينة، ومعه عدد كبير من قادة الصليبيين هاربين إلى قبرص.[1]

استغل السلطان قلاوون هذا الخلل بعد أن أدرك أن من تبقى بالمدينة لا يقوى على الدفاع عنها، فضغط عليها بشدة، ووجدت قواته طريقاً إلى الداخل عبر السور الشرقي المهدم، واستولوا عليها في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨هـ/٢٦ نيسان ١٢٨٩م، فبادر الصليبيون بالهروب إلى جزيرة بمحاذاة طرابلس قريبة من الساحل، وتبعهم المسلمون فقتلوا وجرحوا وأسروا عدداً كبيراً منهم.[2]

كان المؤرخ أبو الفداء صاحب المختصر أحد المشاركين في حصار طرابلس مع أبيه وعمه الملك المظفر صاحب حماه، وبعد أخذ المدينة قال: "وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة، وفيها كنيسة سنطماس (القديس توماس) وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أُخِذتْ طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة، وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء والصغار، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب، عَبَرْتُ إليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى، بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى".[3]

وورد في بعض المصادر أنه لما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس أمر في البداية بالإبقاء عليها وإنزال الجيش فيها، ثم أشير عليه بأن هدمها أولى من بقائها ولا سيما بعد أن تهدمت أسوارها وأبراجها، وتصدعت معظم منازلها بفعل المجانيق أثناء الحصار، فوافق على هدمها، فهدمت، وأحرقت، ثم أمر السلطان ببناء مدينة جديدة بجوار النهر (نهر قاديشا) حول حصن صنجيل على تلة الحجاج بعيداً عن شاطئ البحر خوفاً من

---

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارص ص١٢٩. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٨٧/٣. التدمري، عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس، ص٥٨٥.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٣ و. الفارس الداوي: أعمال القبارصة ١٢٩. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨٠/٨؛ ويذكر اسم الجزيرة بـ "جزيرة النخلة"، وربما المقصود هو جزيرة أرواد. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢١٥/٩. ابن تغري بردي، النجوم، ٣٢١/٧.

[3] المختصر ٢٣/٤

تهديد الأساطيل الصليبية مستقبلاً،[1] ويبدو أن المدينة لم تدمر المدينة بالكامل، إذ بقيت هناك بعض الأبنية، فالجامع الكبير الموجود حالياً في طرابلس هو بالأصل الكاتدرائية التي بناها الصليبيون إذ تم تحويلها إلى مسجد وبني له مأذنة.

٥- تحرير أنفة والبترون وجبيل:

عندما تمت السيطرة على طرابلس أخلى الصليبيون أَنَفَة[2] الواقعة بين طرابلس وجبيل، وكان بها إحدى القلاع البارونية،[3] فأمر السلطان بتخريبها، كما أخلى الصليبيون حصن البترون الواقع جنوب طرابلس فاستلمته القوات الإسلامية.[4]

توجه الجيش بعد الفراغ من طرابلس إلى مدينة جبيل التي تقع عند النهاية الجنوبية لكونتية طرابلس، وهي عبارة عن ميناء قديم، استولى عليه ريموند الصنجيلي سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، وفيما بعد قام ابنه برتراند بتسليمه لأسرة إمبرياكو الجنوية (Embriacos)، وكان فيها قلعة حصينة، فاستولت عليها القوات الإسلامية، ثم قام السلطان بإقرار بارتولوميو إمبرياكو (صاحب جبيل) عليها على سبيل الإقطاع، وكان ذلك مشروطاً بتبعيته وخضوعه للسلطان، كما تعهد صاحبها بدفع معظم أموالها للسلطان قلاوون،[5] ويزيد هذا الإجراء من مصداقية

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٣ و. المقريزي: السلوك، ٧٤٧/١-٧٤٨. النويري: نهاية الأرب، ٤٨/٣١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢١٥. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٣٠. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص٢٨٩-٢٩٠.

[2] أَنَفَة: بلدة وحصن صغير على الساحل اللبناني، إلى الجنوب من طرابلس، شرق جبيل وبيروت. البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق، ت: ٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ١٢٦/١.

[3] هيوج كندي: القلاع الصليبية، ص ٩٩.

[4] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٣ و+ظ. ابن تغري بردي: النجوم، ٣٢١/٧-٣٢٢. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٨١. النويري: نهاية الأرب، ٤٨/٣١. ويضيف بيبرس الدوادار أنه تسلم بيروت وجبلة وما حولها من حصون. انظر: زبدة الفكرة، ٢١٥/٩.

[5] المقريزي: السلوك، ٧٤٧/١-٧٤٨. النويري: نهاية الأرب، ٤٩/٣١. تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٨١. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٨٧/٣.

رواية اليونيني بأن الذي راسل السلطان يدعوه لمهاجمة طرابلس هو بارتولوميو هذا. كما أبقى السلطان للأميرة لوسي أخت بوهيمند السابع صاحبة طرابلس على قريتين من قرى طرابلس.[1]

في الواقع يعد استيلاء السلطان قلاوون على طرابلس إنجازاً عظيماً في مشروع تصفية الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي، يضاف إلى تلك الإنجازات الرائعة التي حققها الظاهر بيبرس قبله، فلقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لدويلة صليبية في الشرق الإسلامي استمرت حوالي قرنين من الزمن، لذا فقد أحدث سقوطها في أيدي المسلمين دوياً هائلاً خفقت له قلوب المسلمين بعد أن أرسلت البشائر بذلك الفتح العظيم إلى جميع البلاد الإسلامية، فَسُرَّ الناس بذلك سروراً عظيماً، وتبارى الشعراء في وصفه.

---

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٣ و. النويري: نهاية الأرب، ٤٨/٣١.



قـــبرص
البحــر المتوســـط
صــــهيون
2
اللاذقيـــة
أفاميـــة
جبلـــة
المرقـــب
حماه
بانيـــاس
مرقيـــة
طرطوس
حصـن الأكــراد
حمص
طـــرابلس
أنفـــة
4
البـــترون
4
جبيـــل
4
1
بعلبـــك
3
بـــيروت
صـــيدا
دمشـق
صـور
عكا
صـــفد
عثليـــت
أعمال السلطان قلاوون التحريرية
في الساحل الشامي:
1- مسير الحملة المملوكية من دمشق لتحرير حصن المرقب سنة 684هـ.
2- مسير الأمير حسام الدين طرنطاي من حصن صهيون بعد تسلمه من الأمير سنقر الأشقر سنة 686هـ إلى اللاذقية لتحريرها.
3- حملة السلطان قلاوون لتحرير طرابلس سنة 688 هـ انطلاقاً من دمشق.
4- مسير القوات المملوكية لتسلم أنفة والبترون وحبيل بعد تحرير طرابلس.

٦- الاستعداد لفتح عكا:

بعد تحرير طرابلس، وبعض الحصون المحيطة بها، غدا موقف الصليبيين في بلاد الشام حرجاً للغاية، ولا سيما بعد أن أخفقت المساعي لإرسال حملة من أوروبا لتحسين الأوضاع، فالعرض الذي تقدم به أرغون، خان مغول فارس، للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين لم يلق رداً من البابوية،[١] شأنه شأن صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي توج في عكا ملكاً على القدس سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، فقد أرسل إلى الغرب الأوروبي مستنجداً بهم لإنقاذ ما تبقى للصليبيين من مراكز في بلاد الشام.[٢]

أما نداءات البابا المتكررة لإنقاذ ما تبقى من الأراضي الصليبية في بلاد الشام؛ فلم تلق أذناً صاغية من قبل ملوك أوربا، لأن أوربا كانت آنذاك غارقة في مشاكلها الداخلية، ومن استجاب للبابا كان من الرعاع والمتعطلين عن العمل من عامة أهالي إيطاليا، تم تجهيزهم وإرسالهم إلى عكا على ظهر سفن عائدة للبندقية، كما تم تسليح هذه السفن بشكل جيد من قبل البنادقة، وتولى قيادتها ابن دوق البندقية،[٣] وربما كان خوف البنادقة من ضياع عكا -مقر تجارتهم الرئيس- هو الذي دفعهم لتجهيز هذه الحملة وقيادتها.

في الواقع كانت هذه الحملة سبب ذهاب عكا من أيدي الصليبيين، فقد وصلت الحملة إلى عكا في وقت كانت فيه الهدنة بينها وبين السلطان قلاوون معقودة، ومُحافظاً عليها بشكل جيد بين الفريقين،[٤] وكانت هذه الحملة تضم أشخاصاً في غاية الرعونة، فما إن وطأت أقدامهم أرض عكا حتى عبّروا عن حماسهم الديني وهمجيتهم بارتكابهم جرائم فظيعة ضد المسلمين في عكا، ويروي هذه الحادثة عدد من المؤرخين، أحدهم مسلم نقلها عن والده، والآخر فارس من الداوية كان حاضراً آنذاك، فقد نقل ابن أيبك عن والده مباشرة تفاصيل هذه الحادثة فقال: " وَرَدَ فقيرٌ من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقرة، وهو مكان مبارك، فوجد فيه جماعة

---

[١] عن سفارات أراغون للبابوية، انظر: عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص١١٨ وما بعد.

[٢] ابن الفرات:تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٨١. المقريزي: السلوك، ١/٧٥٣-٧٥٤. زكار: فلسطين في العهد المملوكي، الموسوعة الفلسطينية، ٢/ ٥٥٣-٥٥٤. رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/ ٦٨٩.

[٣] الفارس الداوي: أعمل القبارصة، ص ١٣١.

[٤] انفرد الفارس الداوي دون غيره بكر هدنة توصل إليها هنري ملك قبرص بعد سقوط طرابلس مع المماليك باسم مملكة بيت المقدس — أي قبرص والأراضي الصليبية في الساحل الشامي- مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام، انظر، الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٣٠.

فقراء، فلما كان وقت الأذان، أذنوا خفية ولم يفتحوا للمسجد طاقات، فأنكر عليهم ذلك الفقير، فقالوا: إنها بلد كفر ونخشى الفرنج، فقال الفقير: الآن طاب الجهاد في سبيل الله، يا فقراء، أما قرأتم قوله تعالى: " وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ "،[1] ثم إن الفقير صبر إلى أذان الظهر، وفتح طاقات المسجد، وعلى علوه، وأعلن بالأذان، وكان قد ورد عكا أفرنج من داخل البحر غنم، ليس من أهلها، فلما سمعوا الأذان اجهار، لعب فيهم الشيطان، ووثبوا من فورهم، فقتلوا ذلك الفقير وطرطشوا دمه في حيطان المسجد مع ثلاثة فقراء أُخر، ثم خرجوا، وعادوا لا يلتقوا مسلماً في البلد إلا أوقعوا به القتل، فلما بلغ السلطان ذلك تجهز واهتم لأخذها بمعونة الله تعالى".[2]

وينقل هذه الحادثة أيضاً الفارس الداوي جيرارد أوف مونتريل الذي كان موجوداً في عكا آنذاك، فقال: " عند وصول هؤلاء الناس إلى عكا، كانت الهدنة قد عقدت ما بين الملك والسلطان مُحافظاً عليها بشكل جيد بين الفريقين، ووصل فقراء مسلمون إلى عكا يحملون بضائع لبيعها، كما اعتادوا أن يفعلوا، وحدث في أحد الأيام أن الصليبين الذين قدموا ليعملوا صالحاً، ولتسليح أنفسهم للتفريج عن مدينة عكا، تسببوا بدمارها؛ لأنهم اندفعوا في أحد الأيام خلال عكا، ووضعوا فقراء الفلاحين الذين جلبوا سلعاً ليبيعوها في عكا وضعوهم طعمة للسيف، وكان هؤلاء مسلمون من القرى حول عكا، وقتلوا أيضاً عدداً من الملتحين السريان الذين كانوا من أتباع الكنيسة الإغريقية، فقد قتلوهم بسبب لحاهم ظانين أنهم مسلمون".[3]

أذهل هذا الأمر أهل عكا، وخشوا عاقبة ما فعله الصليبيون الجدد، فأرسلوا إلى السلطان قلاوون يعتذرون عما حدث، وفي الواقع لم يكن السلطان بحاجة إلى اعتذارهم، بل وجد الفرصة سانحة والأحداث مواتية لاستكمال مشروعه في تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، لأنه حريصاً على ترقب عمل صليبي من شأنه أن يُخِلَّ بشروط الهدنة المعقودة مع عكا ليتسنى له مهاجمتها، يشاركه في ذلك الشعور جموع المسلمين المتعطشة للجهاد، والتي سارعت بإحضار قمصان الفلاحين الذين قتلوا وهي مضرجة بالدم، فثارت همة السلطان وأقسم على الانتقام. [4]

---

[1] سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧

[2] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٠١.

[3] الفارس الداوي:أعمال القبارصة، ص ١٣١.

[4] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣١.

أقدم الصليبيون على تقديم الاعتذارات، وقاموا بأخذ جماعة من المسلمين وألبسوهم زي الفرنج وشنقوهم وكتبوا إلى السلطان الملك المنصور بأن الذين اقترفوا الذنب هم جماعة من الغرب الفرنج وتم شنقهم حفظاً للهدنة.[١]

لم يُرْضِ هذا العمل السلطان قلاوون الذي خبر مكرهم وخداعهم، ورفض بشدة اعتذاراتهم "ولا سمعها منهم، وتوكل على ربه وآذن الأعداء بحربه"،[٢] ووكل الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالذهاب إلى الغابات القريبة من جبال عكار وبعلبك لقطع الأخشاب اللازمة لأدوات الحصار،[٣] وقال بأن هذه الآلات سوف تُرسل إلى مصر، إلا أن أهالي عكا علموا بخبر الحملة عن طريق أمير السلاح بدر الدين بكتاش الفخري؛ الذي قام بإخبار مقدم الداوية،[٤] ومهما يكن من الأمر، فإن السلطان المنصور قلاوون ما كاد ينهي تجهيزاته الحربية ويغادر القاهرة على رأس جيشه حتى وافته المنية مسموماً بظاهر القاهرة في مخيمه الذي أقامه بمسجد التبر،[٥] أول منزلة في الطريق إلى الشام من القاهرة على مقربة من المطرية، في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٠ تشرين الثاني ١٢٩١م،[٦] ليتولى السلطنة من بعده ابنه الأشرف خليل.

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٧٧. البرزالي: المقتفي، ٢/٢٠١.

[٢] ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص١٧٧.

[٣] المقريزي: السلوك، ١/ ٧٥٤. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٩٣. وقد ذكر ابن أيبك أن السلطان كلّف الأمير عز الدين الأفرم بهذه المهمة، الدرة الزكية، ص٣٠٠. أما الفارس الداوي فقد ذكر أن الأمير طقصو المنصوري هو المكلف من قبل السلطان بهذه المهمة. أعمال القبارصة، ص ١٣٢.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٢،

[٥] مسجد التبر خارج القاهرة قريباً من المطرية، عرف قديماً بمسجد البئر و مسجد الجميزة، وتسميه السنة مسجد التبن وهو خطأ، بناه أحد الأمراء في عهد كافور الإخشيدي،انظر، المقريزي، الخطط، ٣/٥٦٦.

[٦] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٧٨، المقريزي: السلوك، ١/٧٥٥، ابن تغري بردي: النجوم ٧/ ٣٢٥.

ثالثاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل"٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م".

١- تحرير عكا، ٦٩٠هـ/١٢٩١م:

لم تُغير وفاة السلطان قلاوون موقف المماليك وعزمهم على تحرير عكا وطرد بقايا الصليبيين، والأثر الوحيد الذي أحدثته هذه الوفاة، هو تأخير الحملة بضعة أشهر فقط، لأن الأشرف خليل بن قلاوون الذي كُلّف من قبل والده قبيل وفاته بمتابعة تنفيذ المهمة بالاستيلاء على عكا، وأن ينتقم لدماء المسلمين، قد انشغل في بداية حكمه في ترتيب أمور السلطنة لكي يستتب الحكم له، لذا قام باعتقال الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ثم أمر بقتله، ويعود السبب في ذلك حسب ما جاء في المصادر الإسلامية إلى أنه لم يكن على وفاق معه؛ وكان يخشى غدره، أما الفارس الداوي فقد ذكر صراحةً أن طرنطاي دس السم للسلطان قلاوون، وأن الأشرف أقدم على قتله تنفيذاً لأوامر أبيه قبيل وفاته؛ لأنه كان يعلم أن طرنطاي دسَّ له السم،[١] وفوض نيابة السلطنة للأمير بيدرا المنصوري، وأجرى بعض الترتيبات الإدارية والعسكرية، ثم شرع في تجهيز نفسه للمسير إلى عكا، والملاحظ أن الجيش المملوكي لم يعد إلى ثكناته في القاهرة، وإنما بقي في معسكره خارج القاهرة، ومن هناك تابع المسير نحو عكا.[٢]

عندما سمع صليبيو عكا بوفاة المنصور قلاوون فرحوا كثيراً في البداية ، واعتقدوا بأنهم قد أُنقذوا، ولكن السلطان الأشرف خليل فاجأهم بإرسال رسالة إلى مقدم الداوية، ورد نصها عند الفارس الداوي الذي قام بترجمتها من العربية إلى الفرنسية، ومضمونها: أن السلطان قاصد عكا بجيشه هذا، وعلى أهل عكا ألا يرسلوا أي رسل أو هدايا؛ لأن السلطان لن يتراجع عن موقفه،[٣] وقد اطلع معظمهم قادة صليبيي عكا على فحوى هذه الرسالة، وهي بادرة جديدة من نوعها أن يقوم السلطان بإخبار الصليبيين عن نواياه العسكرية تجاههم، وربما كان بسبب ضخامة الحملة، وعلمه بعدم استطاعة الصليبيين التصدي لها، وأن الاستيلاء على عكا هو مسألة وقت ليس غير.

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٣.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ٣١/١٨٠-١٨٥. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٩٩-١٠٠. المقريزي: السلوك، ١/٧٦٣،٧٦٢،٧٥٧. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٣.

[٣] أعمال القبارصة، ص ١٣٥.

مع أن فحوى الرسالة كان واضحاً، حاول قادتهم التوسل إلى السلطان أو ثنيه عن عزمه بمهاجمة عكا، أو تأخيره على الأقل ليتسنى لهم الاستعداد لمواجهته، فأعدوا وفداً ليذهب إلى السلطان مع بعض الهدايا، وقد طلب هؤلاء من السلطان العفو معتذرين له عما جرى، والتمسوا منه وضع ما يراه من شروط جديدة لاستمرار الهدنة التي عقدوها مع والده السلطان قلاوون، فلم يقبل منهم ما اعتذروا به، ورد عليهم رداً صارماً وألقاهم في السجن.[1]

كان السلطان قد أصدر أوامره لنوابه في بلاد الشام باتخاذ الأهبة، وإعداد المجانيق وآلات الحصار، وتجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر والآلات إلى أسوار عكا، ودعا الأهالي إلى الاستنفار للمشاركة في الحملة العسكرية، وموافاته على أبواب عكا، فقد كانت الاستعدادات ضخمة جداً، ولاسيما المجانيق وآلات الحصار، التي تحدث عنها النويري وغيره من المؤرخين بإسهاب،[2] ومن المفيد – لرسم صورة واضحة- ذكر روايات أشخاص شاركوا في الحملة، فأبو الفداء كان أحد أمراء الحملة، وتحدث عن معاناته في جمع مواد الحصار، فذكر أنه توجه مع العسكر الحموي صحبة ابن عمه المظفر صاحب حماه إلى حصن الأكراد " وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مئة عجل، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسَّلم إليَّ منه عجلة واحدة؛ لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة...، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع مع غيرها".[3]

أما عن تجربة المؤرخ بيبرس الدوادار فذكر أنه كان آنذاك: " بالكرك، فلما بلغني أمر هذه الغزاة ووردت عليّ مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات، فجهزت من الزردخانات المانعة، والآلات النافعة، والرجال المجتهدين، والرماة، والحجارين، والغزاة، والنجارين، وتوجهت لملاقاة السلطان فوافيته وقد وصل غزة...".[4]

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارصة ص١٣٤. المقريزي: السلوك، ٣٦٢/١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١١٠/٨-١١٤. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٣٧-١٣٩.

[2] النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ١٩٥-١٩٨. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١١١/٨. المقريزي: السلوك، ٧٦٣/١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٢٢٦. البرزالي: المقتفي، ٢٢٣/٢-٢٢٤.

[3] المختصر، ٣٥٩/٢-٣٦٠.

[4] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٢٦/٩.

- **الوضع داخل عكا:**

وصف الوضع الداخلي لعكا رحالة ألماني وصفاً دقيقاً ومما قاله: " تقوم مدينة عكا المجيدة على شاطئ البحر، وقد بنيت بحجارة منحوتة مربعة، حجمها أكبر من المعتاد مع أبراج عالية وفائقة الحصانة والقوة، ولا يبعد كل برج عن البرج الآخر أكثر من مسافة رمية سهم، وذلك على طول محيط الأسوار كلها، ويقوم كل باب من أبواب المدينة بين برجين، والأسوار هناك عظيمة إلى حد يمكن لعربتين أن تمر إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، ومن جهة اليابسة المدينة محاطة بأسوار متميزة وبخندق عميق جداً، وهو مجهز بشكل موائم بغطاسين وعمال ومدافعين وبوسائط موائمة للحراسة،....ولقد قام في زاوية كل شارع برج فائق القوة، محاط بباب حديدي وبأسوار حديدية، وسكن جميع النبلاء في قلاع حصينة، وفي قصور على طول الطرف الخارجي للمدينة".[1]

وكان يسكن بالمدينة " ملك القدس وإخوانه، مع عدد كبير من نبلاء الأسرة، وأمراء الجليل، وأمراء أنطاكية، والقائد الرئيسي لملك فرنسا، ودوق قيسارية، وصاحب صور، وصاحب طبرية، وصاحب بيسان، وصاحب أرسوف، وصاحب فوس (Vaus)، ونبلاء تل الصافية،... وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر بالجمال والإبداع والاختراع "، وسكن هناك أيضاً من أجل قتال المسلمين: مقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية، ومقدم التيوتون، ومقدم رهبان طائفة القديس توماس أوف كانتر بري،[2] ومقدم فرسان طائفة القديس لعازر،[3] وكل واحد من هؤلاء كان مع فرسان مسلحين لقتال المسلمين، كلهم سكنوا مدينة عكا حيث كانت هناك مقر قياداتهم، ناهيك عن التجار الذين احتشدوا هناك من جميع أمم الأرض من بيازنة، وجنويين، ولومبارد، وغيرهم

---

[1] لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٩/ ٣٠٣.

[2] منظمة عسكرية دينية، تأسست في عكا أثناء الحملة الثالثة، وكانت تنظيماً انكليزياً خالصاً، كانت مهمتها تأمين طقوس دفن الموتى والدفاع عن الأرض المقدسة، ساهمت في الدفاع عن عكا، وبعد سقوطها نقلوا مركز نشاطهم إلى نيقوسيا في قبرص. انظر: إ.ج.كنغ: رهبان تحت السلاح، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٤/٢٥٤-٢٥٥.

[3] فرسان القديس لازاروس أو لعازر، منظمة عسكرية دينية تأسست في القدس، كان هذا تنظيم للعناية بالمجذوميين، نقله إلى فرنسا لويس التاسع، ومن هناك انتشر في كافة أنحاء فرنسا. انظر: انظر: إ.ج.كنغ: رهبان تحت السلاح، ٣٤/٢٥٠-٢٥١.

من الشعوب الأخرى الذين جلبوا إلى المدينة كل شيء كان موجوداً في العالم، ونُظر إليه على أنه رائع أو غريب.[١]

غير أن هذا الخليط لم يكن متجانساً، فكل واحد منهم شكل كومونة مستقلة، وكل واحد من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر الجهة التي يمثلها دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد جهودهم ضد الخطر المنتظر.[٢]

أما بالنسبة لتحصينات المدينة فقد كانت قوية، فهي محاطة بسورين مزدوجيين من جهاتها البرية – فالمدينة كانت قائمة على شبه جزيرة – بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية مع أكثر من اثني عشر برجاً على امتداد السورين الداخلي والخارجي.[٣]

أدرك المماليك منذ بداية حكمهم قوة عكا، وأنه بسبب منعتها يتعذر عليهم تحريرها بحصار حملة واحدة، يتعذر عليهم ذلك سواء من ناحية الإمكانات العسكرية؛ أو من ناحية الوقت، فعكا محصنة بشكل قوي، وتحريرها قد يستغرق معهم مدة طويلة، وهم في حالة حرب على جبهات عدة، ولا يمكن شغل الجيش مدة طويلة على جبهة واحدة، لذا فالحل الأفضل لهذه المشاكل هو: إنهاك المقاومة الصليبية بالتدريج عن طريق توجيه سلسلة من حملات الإغارة ضدها أثناء القيام بعمليات عسكرية على الساحل، وهذه الغارات غالباً ما كانت مدمرة تستهدف التحصينات الدفاعية أو تستهدف الإمدادات الغذائية (البساتين والمحاصيل...).

وجرى تنفيذ هذه الإستراتيجية بدقة ضد عكا، ففي سبيل إضعافها تعرضت لعدد من الغارات أيام حكم الظاهر بيبرس، كانت أول تلك الغارات سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، فقد نفّذ الأمير طيبرس الوزيري ثم الأمير بدر

---

(١) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٠٣–٣٠٥.

(٢) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٠٤. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٩، ٢٠١٠م، ٢/ ٣٨٤.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٩٧/٣.

الدين الأيدمري ثلاث غارات، ثم قام السلطان بنفسه بشن غارة مدمرة ضدها دمّر فيها أحد الأبراج الصليبية، وأحرق الأشجار المجاورة لها، وقتل وأسر عدداً منهم.[1]

تم كُرِّرَ الهجوم سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وكان جزءاً من تكتيك لتضليل الصليبين أثناء حصاره لقيسارية، فأرسل الأمير شهاب الدين القيمري بغارة إلى محيطها أسر خلالها بعض الصليبيين.[2]

ثم شَنَّ السلطان بيبرس بنفسه غارة عليها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦ قبيل تحرير صفد،[3] وفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م تعرضت عكا لأكثر من غارة، الأولى كانت في ٢ نيسان بقيادة السلطان بيبرس، قتل فيها أكثر من ٥٠٠ صليبي، وخرب الأراضي التي حولها، والثانية في ١٦ نيسان وكانت بقيادته أيضاً قتل فيها حوالي ٤٠٠ صليبي، ثم عاد إليها مرة ثالثة ودمر طاحون للاسبتارية، وأتلف البساتين والكروم التي كانت حولها، ثم عاد إلى صفد.[4]

ومن غير شك إن هذه الغارات أضعفت مملكة عكا كثيراً، وبعد التخلص من بقية المعاقل الكبيرة جاء دور عكا.

- **الحصار:**

وصل السلطان الأشرف خليل إلى عكا في ٢٧ جمادى الآخرة ٦٩٠هـ/٥نيسان ١٢٩١م، وقام بنصب خيام العسكر ملاصقة لبعضها، وعلى قول الفارس الداوي: "تغطى السهل أمام عكا كله بالخيام، ...وقد مكثوا ثمانية أيام في عكا دون عمل أي شيء سوى بعض المصادمات بين قواتنا وقواتهم، حيث قتل فيها عدد قليل من على الطرفين".[5]

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٥٧-١٦٢. أبو الفداء: المختصر، ٣٢٧/٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/ ٣٦٥. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٥٨/٩. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٥٠.

[2] المقريزي: السلوك، ٥٢٧/١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ٢٢٩.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٣. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٨٤-٣٨٥. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢/ ٣٣٧.

[4] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٦٧-٧٠. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٨١-٢٨٢.العيني: عقد الجمان، ٨/٢-٩.

[5] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٣٥-١٣٦. البرزالي: المقتفي، ٢٢٥/٢.

وتروي بعض المصادر أنه عندما فرض الأشرف خليل حصاره على مدينة عكا قام مقدم الداوية وعقد اجتماعاً خاصاً مع رهبانه " حول إيجاد طريقة يمكن بها إعادة السلام"، ولما قابل مقدم الداوية السلطان حول هذا الموضوع، وافق السلطان "وبات من الممكن إعادة العمل بالهدنة المخروقة شريطة أن يدفع كل إنسان في عكا بنساً بندقياً واحداً"، غير أن أهالي عكا رفضوا.[١]

ويبقى قبول هذه الرواية أمراً مستبعداً؛ لأنه من غير المنطقي أن يعود السلطان إلى القاهرة بعد أن بذل جهداً كبيراً استنفر لأجله معظم إمكانيات السلطنة المادية والعسكرية مقابل حفنة من المال، ناهيك عن السلطان وغيره كانوا على دراية تامة بالوضع الممزق الذي تعيشه القوات الصليبية داخل عكا، لذلك كان قد أرسل مسبقاً للصليبيين بعدم قبوله أي عذر، وأنه لن يستقبل أي رسل قادمة من عندهم-كما ورد من قبل-.

وعلى كل حال بدأت القوات بعمليات الهجوم بعد حصار استمر ثمانية أيام، جلبوا آلات الحصار ووضعوها، وبلغ وزن الحجارة التي رموها كل واحد منها قنطاراً،[٢] وكان من بين هذه المجانيق منجنيق يُطلق عليه اسم (غضبان) نصب أمام محلة الداوية، وكان اسم المنجنيق الذي تولى الرماية على محلة البيازنة (المنصوري) — وقد تحدث عنه أبو الفداء كما سلف -، بالإضافة إلى منجنيق آخر ضخم جداً تولى الرماية على محلة الإسبتارية، وخصص منجنيق رابع ضخم للرماية على البرج الملعون، وكان هذا البرج مملوكاً من قِبل الملك هنري الثاني.[٣]

بدأ الهجوم بالتزامن مع إجراءات عسكرية حكيمة؛ إذ توجه الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير على رأس قوة عسكرية إلى صور، أراد من وراء ذلك: مضايقة صور بشكل يمنعها من إرسال المساعدات إلى عكا

---

[١] لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٠٧-٣٠٨.

[٢] البرزالي: المقتفي، ٢٣٢/٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٥/٨. والقنطار هناك خلاف حاد حول وزنه، وقد اختلف مقداره من عصر إلى آخر، وقد تراوح مابين ٥ كغ حتى ٢٠١ كغ، أما القنطار الشرعي حسب الفقه الإسلامي فهو ١٢٢٠ أوقية، أي ٢٤٤ كغ. انظر: حميد السيد رمضان: الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، دار الملاح، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ٨٦-٨٨.

[٣] الفارس الداوي:أعمال القبارصة، ص١٣٥-١٣٦. ورد توزيع المجانيق بهذه الطريقة عند الفارس الداوي، لكن على الأرجح أن المنجنيق المنصوري هو الذي تولى الرماية على قطاع الداوية، لأن هذا المنجنيق كان مع العسكر الحموي الذي نصب خيامه أمام قطاع الداوية في الزاوية الشمالية الغربية عند شاطئ البحر. انظر خريطة حصار عكا.

المحاصرة، ومنع صليبيي عكا الفارين من التوجه إلى صور إذا ما حلت بهم الهزيمة، وهكذا تبقى صور ضعيفة ويسهل القضاء عليها بعد تحرير عكا.[1]

ولما كانت الأرض التي يقف عليها الجيش الإسلامي سهلية مكشوفة قاموا بعمل سواتر[2] وحواجز دفاعية ترابية وصناعية (مصنوعة من اللباد) لتأمين حماية الجند والمعدات الحربية من القذائف التي قد تطلق من المدينة.[3]

واتخذ السلطان مركز قيادته في الجزء الجنوبي من الأسوار قبالة برج المندوب البابولي، في حين كانت قيادة الصليبيين قد تركزت بالقرب من باب القديس أنطوان.[4]

ولتوضيح كيف تمت عملية الاقتحام، سيتم الحديث عن ثلاث مراحل، **المرحلة الأولى**: **هي محاولة التغلب على عائق الخنادق وطمها، من أجل أن يتمكن اللغامين[5] والحجارين والآلات قريبة المدى من الاقتراب إلى الأسوار.**

شرع المسلمون بمهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق، وقذفها بالحجارة الثقيلة وقدور النفط المشتعلة، في الوقت الذي كانت فيه عكا تتلقى رشقات كثيفة من السهام الفعالة من قبل الرماة الكامنين وراء الستائر الترابية والصناعية وحواجز دفاعية كبيرة، وكان لها أثر كبير في إضعاف الصليبيين، في وقت كانت فيه وحدات المجاهدين المكلفة بردم الخنادق تتقدم بين الفينة والأخرى لردم مواضع يمكن من خلالها الوصول إلى الأسوار مستخدمين

---

[1] البرزالي: المقتفي، ٢٣٣/٢. ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ٨/٨.

[2] الستائر من أهم المعدات الحربية، استخدمها المسلمون في حروبهم، وهي مصنوعة من الجلود واللباد والمبللة بالخل والشب والنطرون، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط، وكانت تستخدم لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب والسفن من قذائف النفط، ومنها ما يستخدم أيضاً في وقاية الجنود الذين يُستعان بهم في جر المنجنيقات وما شابهها، انظر، ابن واصل: مفرج الكروب ٣٠٣/٢ الحاشية، المقريزي:السلوك ١٠٢/١، ٧٦٤ الحواشي.

[3] المقريزي: السلوك ٧٦٤/١.

[4] رنسيمان: الحروب الصليبية، ٦٩٨/٣.

[5] عملية اللغم: أثناء الحصار كان يتم حفر أنفاق تحت الأرض توصل اللغامين والحجارين إلى تحت السور أو البرج المراد تهديمه، ثم يقوم الحجارين، وبطريقة ماهرة، بنزع بعض الأحجار الإستنادية التي يؤدي زوالها إلى تهديم السور أو البرج، ويوضع محلها أعمدة من الخشب، وبعد أن ينتهي الحجارين من مهمتهم توضع في الأنفاق براميل من الدهون والنقوط، تم يتم إشعالها بشكل يؤدي إلى احتراق أعمدة الخشب، ومن ثم انهيار البرج أو السور.

مخالي الخيل المعبأة بالتراب لإلقائها مع ما تيسر من الأخشاب مع مواد أخرى في تلك المواضع المنتخبة، وعبر هذه المواضع تمكنت الوحدات الهندسية الإسلامية من الوصول إلى الأسوار لنقبها وإحداث ثغرات يمكن من خلالها اقتحام المدينة عندما تحين ساعة ذلك.[١]

كانت رشقات السهام تأتي من قبل جنود يقفون خلف الحواجز الدفاعية والستائر الحاجبة، وفي كل ليلة تتقدم هذه الحواجز والستائر نحو الأمام إلى أن أصبحوا على حافة الخندق.[٢]

لم تكن هناك ساعة من النهار من دون قتال، فالجيش المملوكي كان مقسماً إلى ثلاث أو أربع فئات (مجموعات)، تتناوب في حصار عكا، فعندما تشعر مجموعة بالتعب كانت مجموعة أخرى تأخذ مكانها.[٣]

المرحلة الثانية: مرحلة لغم الأسوار والأبراج، ونقب الأسوار لكي يتسنى لهم اجتياح المدينة، وفي هذه المرحلة اشتد القتال على الأسوار من الشمال حتى الجنوب، وكان أقواه عند الزاوية الشمالية الشرقية (البرج الملعون):

في هذه المرحلة من مراحل القتال تمكن المسلمون من الوصول إلى حافة الخندق وإقامة السواتر التي أصبحت كالجدران أمام مجانيق الصليبين الذين قصفوها بآلاتهم المتوسطة دون أثر، وأحضر المسلمون بعد ذلك آلات تسمى الجمال السود (Carabohas)، وهي عبارة عن آلة صغيرة تعمل باليد، وهي اختراع تركي، مع درجة عالية من الرمايات، أوقعت أضراراً بالصليبيين أكثر من الآلات الكبيرة، ففي المكان الذي ترمي فيه الجمال السود لم يتجرأ أحد على الخروج إلى العراء، ووضع المسلمون أمام هذه الآلات حواجز قوية حمتها من رمايات الصليبيين، وأثناء ذلك كان المسلمون يقومون بعملية التلغيم، فقد قام الأمير سنجر الشجاعي بلغم البرج الملعون أو برج الملك، كما أنه قام بلغيم أحد الأسوار الذي عرف باسم سور الملك وضغطوا بشدة عليه، فقام الصليبيون وألقوا فيه النار وجعلوه يتهاوى كي لا يستفيد المسلمون منه، كما لغم المسلمون برجاً آخر.[٤]

---

[١] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٢٨/٩. المقريزي: السلوك، ٧٦٤/١.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٣٦.

[٣] الفارس الداوي: أعمال الفبارصة، ص١٣٧، لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٠٨/٣٩.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٧-١٣٨.

وفي المقابل؛ كانت المقاومة الصليبية شرسة جداً، إذ " أظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمخاطرة، فلم يغلقوا للمدينة باباً، ولا أسدلوا دونها حجاباً، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحاطت بها العساكر المحمدية، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة، وسهاماً كالبوارق البارقة، وضويقت أشد المضايقة، وهم مع ذلك يظهرون الجلد، ولا يغلقون أبواب البلد، ويهاجمون العسكر ليلاً ونهاراً، ويقاتلون قتالاً مدراراً".[1]

- **هجوم الداوية:**

في هذه المرحلة قرر الصليبيون القيام بعمل معاكس والانقضاض على القوات الإسلامية بغارات سريعة، فخرج في إحدى الليالي مقدم الداوية ورجاله مع فرسان آخرين وانطلقوا من محلة الداوية (التي امتدت من طرف البحر حتى باب القديس لعازر)، وهدفهم إحراق السواتر الخشبية للمنجنيق المنصوري، ومهاجمة العسكر الحموي القائم برأس الميمنة؛ حيث كان البحر عن يمينهم وعكا أمامهم، غير أن هذا الهجوم أخفق لأن النفط الذي تم قذفه لم يصب هدفه، وأثناء تحرك الصليبيين بين خيام المسلمين تعرقلت قوائم خيلهم بأطناب الخيم ووقعت، فقتلهم المسلمون، وعاد مقدم الداوية ورجاله إلى عكا يجرون أذيال الهزيمة، في وقت جمع فيه صاحب حماه عساكره حوله ووجه ضربة إلى الصليبيين على شاطئ البحر بزخات من النشاب فجرح بعضاً من رجالهم .[2]

أيضاً قام الصليبيون بمحاولة أخرى لمهاجمة المسلمين، فقرروا الخروج في أحد الليالي من باب القديس أنطون والانقضاض فجأة على المسلمين، إلا أن المسلمون قد علموا مسبقاً بخططهم وأناروا المنطقة بالمشاعل، حتى أصبح الليل وكأنه نهار، وزحفوا على الصليبيين بقوة وبشدة متناهية، ورموهم بالنشاب وكأن السماء تمطر نشاباً فأصابوهم بجروح، وعادوا إلى عكا خائبين.[3]

ومع إخفاق المحاولات الصليبية بالهجوم على المسلمين، توقفوا عن الهجوم واكتفوا بالدفاع والتحصن داخل الأسوار.

المرحلة الثالثة: مرحلة نقب الأسوار واجتياح المدينة، والاشتباك مع الصليبيين وجهاً لوجه داخل المدينة:

---

[1] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٢٧/٩. لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٠٨/٣٩.

[2] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٦٠.الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٧-١٣٨.

[3] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٣٩.

قام المسلمون بلغم البرج الجديد الذي يعرف باسم برج الملك بشكل مريع؛ إذ تهاوت واجهته كومة واحدة في الخندق، ولتمهيده من أجل المسير عليه قام المسلمون بصنع أكياس من قماش القنب وملؤوها بالرمل، وحملوها فوق الخيول، وجلبوها إلى المسلمين الذين كانوا وراء السواتر عند تلك النقطة وعند حلول الليل وضعوا هذه الأكياس فوق الحجارة، وجعلوها مثل الطريق، وفي اليوم التالي (الأربعاء) عند وقت صلاة العشاء وصلوا عبر هذا الطريق من الأكياس إلى البرج واستولى المسلمون على ما تبقى من البرج حيث كان لا يزال القبو سالماً، وعندما سقط هذا البرج دب الهلع في قلوب الصليبيين، وبدأوا بإرسال أولادهم ونسائهم إلى السفن في يوم الخميس، لكن البحر كان هائجاً، فنزلوا من السفن وعادوا إلى البيوت.[١]

ومع التخبط في قيادات الصليبيين، وانهيار معنوياتهم، قرر السلطان الأشرف اقتحام المدينة، وتم اختيار الوقت قبيل شروق شمس يوم الجمعة ١٧جمادى الآخرة ٦٩٠هـ/ ١٨ أيار١٢٩١م، وقبيل الفجر بدأت الطبول تقرع بأصوات عالية وبشدة متناهية، ومع قرع الطبول والكوسات، قام المسلمون بالحملة على عكا من جميع الجهات، وكان المكان الذي دخلوا فيه أولاً هو البرج الملعون الذي كانوا قد استدلوا عليه من قبل.[٢]

أما بالنسبة لعملية اقتحام عكا، فإن الفارس الداوي كان آنذاك في عكا، وقد تحدث عن عملية الاقتحام قائلاً: " وصل في المقدمة رجال يحملون ترسة كبيرة وطويلة، ووصل بعدهم رجال يرمون بالنفوط، ووصل بعدهم رجال يرمون بالمزاريق، ويرمون بسهام مُريَّشة، وكانت رماياتهم كثيفة حتى بدت كأنها مطر يتساقط من السماء، وسلك المسلمون طريقين، بسبب أنهم كانوا بين سوري المدينة، يعني أن نقول بين الأسوار الأولى والخنادق، التي عرفت باسم الخط الدفاعي الأول، وبين الأسوار الداخلية الكبيرة والخنادق الفعلية للمدينة، ودخل بعضهم من خلال البرج الكبير الذي عرف باسم البرج الملعون، وتحركوا باتجاه سان رومانو[٣] حيث كانت الآلات الكبيرة التابعة للبيازنة، وتابع الآخرون تقدمهم ماضين إلى باب القديس أنطون".[٤]

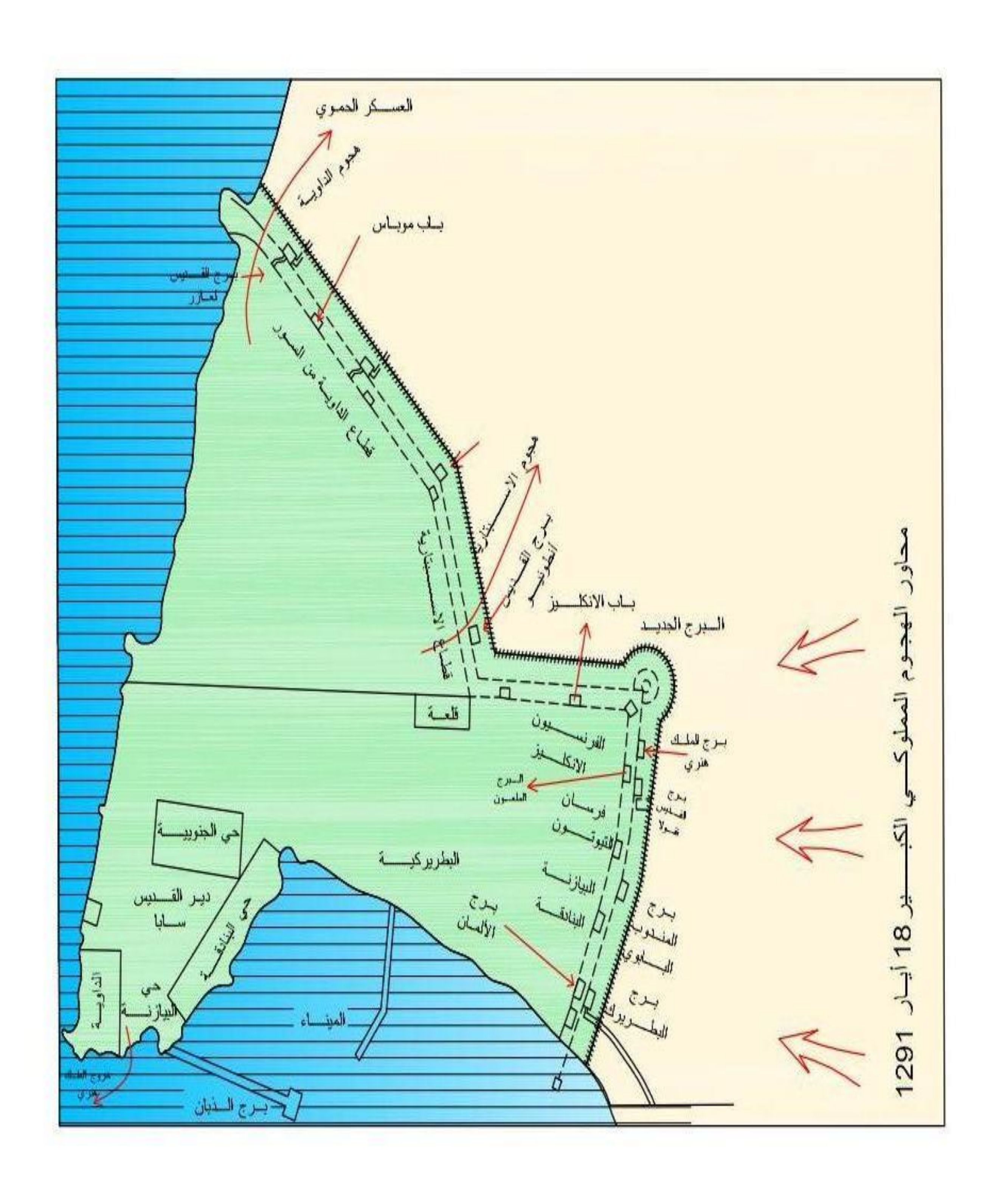
---

[١] الفارس الداوي: المصدر نفسه، ١٤٠-١٤٢

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٠٩، المقريزي: السلوك ٧٦٥/١،النويري: نهاية الأرب، ١٩٨/٣١.الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٤٢.

[٣] يرجح وقوعها في الزاوية مباشرة وراء البرج الملعون الذي كان كما يبدو في السور الداخلي.

[٤] وهذا يعني أنهم تابعوا الزحف بين السورين. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٤٣.


محاور الهجوم المملوكي الكبير 18 أيار 1291
العسكر الحموي
هجوم الداوية
باب موباس
برج القديس لعازر
قطاع الداوية من السور
هجوم الاسبتارية
برج القديس أنطونيو
باب الانكليز
البرج الجديد
قطاع الاسبتارية
قلعة
برج الملك هنري
الفرنسيون
الانكليز
البرج الملعون
برج القديس نقولا
فرسان التيوتون
حي الجنوية
البطريركية
البيازنة
البنادقة
برج الألمان
برج المندوب البابوي
برج البطريرك
دير القديس سابا
حي البنادقة
الداوية
حي البيازنة
الميناء
برج الذبان

ويُلاحظ أن السلطان الأشرف لم يركز هجومه على الأسوار الممتدة بين دفاعات الداوية شمالاً وحتى باب القديس أنطون، لأن هذه الأسوار كانت تتحصن في أبراجها قوات الداوية والإسبتارية، أقوى الفرق الصليبية، فبهذه العملية يكون الأشرف قد شل حركة هذه القوات بأنه قام بتثبيتها في مكانها مقابل القوات الإسلامية التي استمرت في حصارها ومناوشتها، وركز هجومه على قطاع محدود يمكنه من اقتحام المدينة دون أن يحدث هناك توحيد للقوى الصليبية في الدفاع.

وصل المسلمون إلى الداخل، وبدأ الاشتباك المباشر مع الداوية والإسبتارية على مقربة من باب القديس أنطون، إلا أن القوة الإسلامية كانت طاحنة، فبدا " الأمر وكأنهما رميّا- أي مقدمي الداوية والإسبتارية - نفسيهما ضد جدار من صخر"، وفي تلك الواقعة أصيب مقدم الداوية بجروح مات على إثرها.[1]

أنزل هذا الحدث بالناس الذعر والخوف، ودفعهم إلى الفرار من مراكزهم؛ فالمسلمون كانوا قد دخلوا من خلال البرج الملعون "وذهبوا مباشرة إلى سان رومانو، وأحرقوا منجنيق البيازنة الكبير، وذهبوا نازلين مباشرة نحو دير [الفرسان التيوتون] الألمان، واستولوا على دير القديس ليوناردوا، وجعلوا كل من تصدى لهم طعمة للسيف، وهاجم مسلمون آخرون برج النائب البابوي الذي كان على طرف البحر، من طرف البحر حتى قاعدة البرج، ثم وصلت أعداد كبيرة من الخيالة المسلمين ودخلت" بعد مقاومة عنيفة؛ فلما رأى هنري ملك قبرص هذه المأساة فرَّ مع مقدم الإسبتارية على ظهر غليونيهما، إلا أن مقدم الإسبتارية (متّى أوف كليرمونت) عاد إلى عكا وقاتل مع فرسانه حتى مات.[2]

أما أهالي عكا فقد انسحب قسم كبير منهم إلى قبرص حاملين ثرواتهم وأموالهم، وتحصن الباقي في الأبراج التي كانت بمثابة قلاع؛ وأشهرها مجمع الداوية الذي استمر مقاوماً لمدة عشرة أيام بعد سقوط المدينة حتى تم اجتياحه وقتل فرسانه.[3]

---

[1] الفارس الداوي: المصدر نفسه، ص ١٤٣-١٤٤.

[2] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٥٠.

[3] أبو الفداء: المختصر،٣٦٠/٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٤٧-١٥٢. لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣١٢/٣٩. البرزالي: المقتفي، ٢٣٢/٢-٢٣٣. المقريزي: السلوك، ٧٦٥/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ٦/٨-٨. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٩١.

يذكر بعض المؤرخين أن قَتِلَ هؤلاء كان انتقاماً للمسلمين الذين قُتلوا على يد الصليبيين في عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م،[١] بأمر ريتشارد، والذين قُدِّرَ عددهم بثلاثة آلاف مسلم.[٢]

هكذا قد تم الاستيلاء على عكا بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً،[٣] يُضاف إليها عشرة أيام مدة حصار حصن الداوية والحصون الداخلية،[٤] وقبل أن يغادرها الأشرف خليل إلى دمشق أمر بها فهُدمت إلى الأرض "ودُكَّت دكا".[٥] وربما كان باعثه على هذا العمل ألا تتكرر حادثة استعادة عكا كما حصل أيام صلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة، وكي يقطع أمل الصليبيين في العودة واستخدامها كرأس حربة فيما لو حاولوا إعادة وجودهم.

- **تتمة السيطرة على ما تبقى من معاقل للصليبيين والتطهير الشامل:**

صور، صيدا، بيروت، حيفا، جبيل، عثليت

نجحت الخطة التي وضعها السلطان الأشرف خليل ضد الصليبيين في صور لعزلها عن الصراع في عكا، ولمنع الصليبيين الفارين من عكا من الالتجاء إلى صور، فقد استفاد على ما يبدو من خطأ الناصر صلاح الدين رحمه الله عقب معركة حطين وسقوط القدس وعكا، وحال دون وقوع المسلمين بالفخ مرة ثانية،[٦] وكما توقع السلطان

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٦٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨/٨.

[٢] أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ٣٢/١/٣٤٥-٣٤٦.

[٣] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/١١٢. المقريزي: السلوك ١/٧٦٥.

[٤] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٢٢٨ .الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٥٠،

[٥] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٦٠، النويري: نهاية الأرب، ٣١/٢٠٠. المقريزي: السلوك ١/٧٦٥.

[٦] فصلاح الدين رحمه الله بعد أن حرر القدس و عكا وغيرهما من المدن سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، سمح للصليبيين باللجوء إلى صور، فتجمع بها أعداد كبيرة منهم، وتحصنوا بها، وبالتالي عجز عن السيطرة عليها، وشكل هؤلاء دعم للحملة الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد، وحمّل ابن الأثير صلاح الدين مسؤولية ما حدث للمسلمين من متاعب عقب ذلك، وعزا ذلك إلى إفراط صلاح الدين في التسامح مع خصومه الصليبيين .الكامل في التاريخ، ٩/ ١٨١، ١٨٧، ٢٠٠-٢٠١. وذكر سبط ابن الجوزي أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين بتسيير الصليبيين إلى صور وأنه كان من الواجب عرضهم على الإسلام، فإما أسلموا وإلا ضربت رقابهم، سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله، ت: ٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ٢٠١٣م، ٢١/٣٢٢.

فإن السفن المنهزمة من عكا توجهت إلى ميناء صور، لكن القوات الإسلامية تمكنت من الحيلولة دون دخول هذه السفن إلى صور، ونجحت قوات الأمير علم الدين سنجر الصوابي في مضايقة صور، فأدرك صاحبها (آدم أوف كافران Caffran) صعوبة موقفه عندما رأى السفن المحملة تغادر عكا، فقام ومعه باقي الفرسان والناس الأثرياء بمغادرة مدينة صور،[١] ولم يبق في المدينة إلا الفقراء والضعفاء الذين اختاروا عدم المقاومة، وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة، فأجابهم الأمير علم الدين وسمح لهم بالرحيل ودخل صور في اليوم التالي من السيطرة على عكا.[٢]

تابع السلطان تصفية المعاقل الصليبية المتبقية في بلاد الشام، وكانت مدينة صيدا العائدة للداوية المحطة الثانية بعد صور،[٣] أمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بالتوجه على رأس قوة عسكرية إلى صيدا، فتوجه إليها وحاصر القلعة القائمة على البحر، وضايق أهلها، لذا ذهب مقدم الداوية "ثيوبولد غودين"[٤] إلى قبرص لطلب المساعدة، بينما أخذ المسلمين في إقامة رصيف بين الشاطئ والقلعة للوصول إليها، ولما تأخرت المساعدة من قبرص بدأ الصليبيون بمغادرة المدينة في إحدى الليالي دون إصدار أي ضجة، وتركوها ليستولي عليها المسلمون بقيادة سنجر الشجاعي في ١٥ رجب/١٤ تموز من السنة ذاتها.[٥]

وعندما كان الأمير سنجر الشجاعي محاصراً لمدينة صيدا أرسل حكام بيروت رسالة إليه يسألونه عن نواياه نحوهم ويطلبون الأمان؛ فأخبرهم بأنهم في هدنة جيدة مع السلطان، وأنه سيتركهم بأمان، بالمقابل عليهم الاحتفال من أجل استيلاء السلطان على صيدا، وأن يخرجوا لمقابلته عندما يمر بهم في طريق العودة إلى دمشق،[٦] وهذا ما حدث " فلما وصل سنجر الشجاعي إلى بيروت تلقاه صاحبها وخيالته أحسن ملتقى ونزل في القلعة

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ١٤٩.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٣٦١/٢. البرزالي: المقتفي، ٢٣٢/٢-٢٣٣. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١١٣/٨. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٩٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/٨. المقريزي: السلوك، ٧٦٥/١.

[٣] وكان الداوية قد اشتروها من يوليان صاحب صيدا سنة ١٢٦٠م. انظر، الفارس الداوي: المصدر السابق، ص٢٦.

[٤] عند وفاة مقدم الداوية في عكا قام "ثيوبولد غودين" القائد الأعلى للداوية بالفرار إلى مدينة صيدا وتمركز في القلعة على البحر، وتم اختياره مقدماً للداوية من قبل الفرسان الرهبان الذين جاؤوا معه. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٥٢.

[٥] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٥٢-١٥٣. أبو الفداء: المختصر،٣٦١/٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/٨، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: ١٢١/٨.

[٦] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٥٣.

وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة ففعلوا، وظنوه شفقة عليهم، فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب"،[١] ثم جهز سنجر الشجاعي، بعض الأمراء إلى جبيل فخربوا سورها وقلعتها وأبقوا على أهلها، وكانوا جنوية، ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت مُحكمة البناء، أما أهل بيروت؛ فقد جهزهم إلى دمشق، ومنها سُيروا إلى مصر بأجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما حملوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال أماني باقٍ عليكم، وخيَّرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم".[٢]

واستمرت القوات الإسلامية بالسيطرة على المعاقل الصليبية التي أخذت تتهاوى بأيديهم الواحد تلو الآخر، فسقطت حيفا وجبيل أثناء دخول الشجاعي إلى بيروت،[٣] وعندما رأى سكان عثليت (قلعة الحجاج) خلوّ الساحل من الصليبيين، أدركوا تماماً عدم قدرتهم على الدفاع؛ فأحرقوا حواصلهم وهربوا في البحر، وكذلك فعل أهل طرطوس، وتم ذلك في مدة لم تتجاوز منتصف شعبان/ منتصف آب من السنة ذاتها.[٤]

وفي محرم سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م انطلقت البحرية المملوكية من مصر نحو جزيرة أرواد المقابلة لمدينة طرسوس، وكان قد تحصن فيها الصليبيون بعد تحرير الساحل الشامي، وأخذوا يعتدون على المترددين على الساحل، فتم تحريرها.[٥]

---

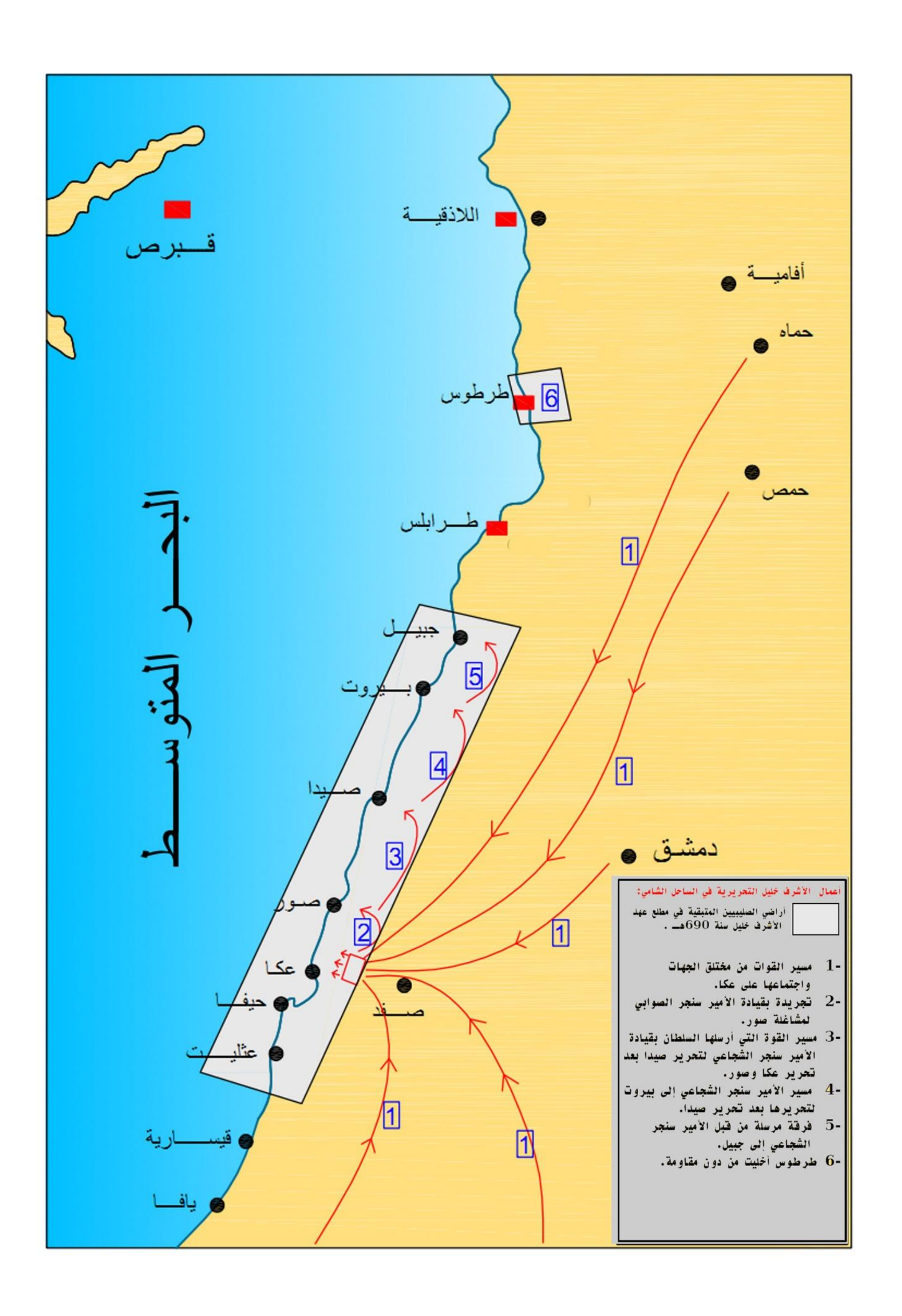
[١] صالح بن يحيى (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م) تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩م، ص٢٣. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: ١٢١/٨.

[٢] صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٣.

[٣] صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٣-٢٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠/٨.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠/٨. أبو الفداء: المختصر، ٣٦١/٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٣١/٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣١٢.

[٥] أبو الفداء: المختصر، ٣٨٧/٢. البرزالي: المقتفي، ٢٠٠/٣. النويري: نهاية الأرب، ١٩/٣٢. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٨٠.



البحر المتوسط
قبرص
اللاذقية
أفامية
حماه
طرطوس
حمص
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
صفد
عثليت
قيسارية
يافا
أعمال الأشرف خليل التحريرية في الساحل الشامي:
أراضي الصليبيين المتبقية في مطلع عهد الأشرف خليل سنة 690هـ .
1- مسير القوات من مختلق الجهات واجتماعها على عكا.
2- تجريدة بقيادة الأمير سنجر الصوابي لمشاغلة صور.
3- مسير القوة التي أرسلها السلطان بقيادة الأمير سنجر الشجاعي لتحرير صيدا بعد تحرير عكا وصور.
4- مسير الأمير سنجر الشجاعي إلى بيروت لتحريرها بعد تحرير صيدا.
5- فرقة مرسلة من قبل الأمير سنجر الشجاعي إلى جبيل.
6- طرطوس أخليت من دون مقاومة.

رابعاً – القرصنة الصليبية في الحوض مشرق البحر المتوسط في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي:

لم تنته الحروب الصليبية بتحرير عكا، والذي انتهى هو الاحتلال الصليبي للساحل الشامي لا غير، وإنما بقيت الحروب الصليبية مستمرة في المشرق؛ وفي المغرب أيضاً، ففي الأندلس كانت حرب الاسترداد الإسبانية على أشدها، وفي المشرق استمرت الحروب الصليبية مع المماليك ومن بعدهم العثمانيين، والذي ساعد على استمرارها الكيانات الصليبية التي أوجدتها ظروف الحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط (قبرص وإرمينية الصغرى).

شكلت قبرص – التي أصبحت بعد تحرير عكا "أقصى الشرق بالنسبة للبلدان المسيحية" –[١] أهم قواعد ومركز انطلاق العمليات العسكرية الصليبية ضد المسلمين في مشرق البحر المتوسط.

امتلكت جزيرة قبرص موقعاً مهماً في وسط الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فالمساحة من قبرص إلى جميع البلدان المحيطة بها ليست أكثر من سفر يوم واحد في البحر،[٢] وقد عدّها ابن خرداذبة إحدى أعظم جزائر بحر الروم.[٣]

في مطلع الحروب الصليبية لم يكن للجزيرة أهمية كبيرة أيام الحملتين الأولى والثانية، لأنهما كانتا حملتين بريتين، فضلاً عن أن الجزيرة كانت تابعة للبيزنطيين، ولكن مع الحملة الثالثة تبدل الوضع كلياً، فعندما انطلق ريتشارد قلب الأسد بأسطوله يريد عكا قام باحتلال الجزيرة قبل عكا،[٤] وبذلك انتهت السيادة البيزنطية على الجزيرة لتبدأ السيادة الصليبية، وفي ظل هذه السيادة بدأت الجزيرة مرحلة جديدة من تاريخها، غدت فيها قاعدة للصليبيين القادمين من الغرب، وللأساطيل الأوربية، ومركزاً مهما لتمويل الصليبيين في الشام، ومُنطلقاً لكثير من الغارات والحملات الصليبية.

---

[١] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٩٦/٣٩.

[٢] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٩٨/٣٩.

[٣] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١١٢.

[٤] تحدث أمبرويز في قصيدته (صليبية ريتشارد قلب الأسد) بالتفصيل عند احتلال قبرص من قبل ريتشارد، انظر الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ، ١/٣٢ /١١٥-١٥٦. أيضا
Hill(G): A History of Cyprus, 3vols, Cambridge.1940-1948.p.317-320
Norgate, (K): Richard tha Lion H eart, London, 1924.p.141-148

بعد مدة قام ريتشارد ببيع الجزيرة للداوية، ولما أدرك هؤلاء أن ليس لهم المقدرة على حكم الجزيرة، وأنها سوف تخرج من أيديهم، طالبوا ريتشارد بحل الصفقة، فقام ريتشارد ببيعها ثانية لغي لوزينان، وقد تم ذلك كله قبل رحيل ريتشارد عن عكا سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م.[١]

حكم غي لوزينان الجزيرة باسم ريتشارد، ولما خلفه أخوه عموري سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م، سعى إلى الاستقلال، فتوجه بنظره إلى الإمبراطور هنري السادس (إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة)، وفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م قام هنري السادس هذا بإرسال اثنين من رجاله لتقديم التاج لعموري لوزينان بوجود المندوب البابوي، وبذلك أصبح عموري ملكاً على قبرص.[٢]

شغلت قبرص دوراً مهماً في الحملات الصليبية الخامسة والسابعة، كنقطة تجمع قبيل الانطلاق نحو السواحل الإسلامية، لكن الوضع تغيّر تماماً بعد سقوط عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، أصبحت فيه قبرص حجر الدومينو بالنسبة للحروب الصليبية، ولم يعد دورها ثانوياً، فعندما سقطت عكا انتقل إلى قبرص الأمراء والنبلاء الصليبيون مع ثرواتهم واستقروا فيها،[٣] وبذلك انتقل مركز الثقل الصليبي إلى قبرص التي حملت – تحت حكم آل لوزينان– لواء الحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط أواخر العصور الوسطى، وملوكها هم الوحيدون الذين وضعوا الفكرة الصليبية موضع التنفيذ، وأصبحت هي واجهة أوروبا المقابلة للسلطنة المملوكية، ومن قبرص انطلق فرسان الإسبتارية إلى رودس فانتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨ م، واتخذوها مقرا لهم،[٤] وبالتالي بات التنسيق بين الجزيرتين قوياً جداً.

ولما أخفقت أوربا في تجريد حملة عسكرية ضد المماليك بعد سقوط عكا، لجأت البابوية إلى فكرة الحرب الاقتصادية كوسيلة لإضعاف السلطنة المملوكية التي احتكرت التجارة بين الشرق والغرب، وجنت من وراء ذلك

---

[١] ليونتوس ماكارياس: مرويات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص ١٧-١٨.

[٢] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص ٢٩٤.

[٣] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٩٦/٣٩

[٤] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٨٧/٣٩ استقر فرسان الدولة الإسبتارية – بعد رحيلهم من عكا – في قبرص في مدينة ليماسول. لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٩٣/٣٩.

مرابح خيالية، فأصدرت البابوية قرارات الحرمان الكنسي على الذين يمارسون التجارة مع المماليك، وبدأت سفنها تراقب السواحل لمراقبة تنفيذ هذه القرارات.[1]

وهناك نقطة مهمة، هي أن قبرص أصبحت مقر التجارة الأوربية في مشرق البحر المتوسط، فقد نقلت الجاليات الأوربية نشاطها من شاطئ بلاد الشام إلى قبرص، وبات على كل سفينة أوربية قادمة من الغرب أن تقف بالجزيرة لتقوم بعمليات التبادل التجاري هناك مع التجار المسلمين، لأن قرارات الحرمان منعت الصليبيين من التوجه إلى الشواطئ المملوكية للمتاجرة معها، وقد وصف مؤرخ قبرص ليونتيوس ماكارياس هذه العملية بشكل دقيق، فقال: "وكان هناك ثراء عظيم، وسادة أغنياء، كثيراً..... وكانت الثروات التي امتلكوها تتجاوز قدرتي على الوصف، لأن سفن التجار المسيحيين التي قدمت من الغرب لم تغامر في القيام بأعمالها في أي مكان آخر باستثناء قبرص، وعُملت تجارة سورية في قبرص، ولهذا كانت أوامر وقرارات تحريم البابا الأكثر قداسة، مع التهديد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي من أجل إمكانية ذهاب الأرباح إلى القبارصة المساكين،....ولأن سورية قريبة من فيماغوستا، اعتاد الناس على إرسال سفنهم لنقل بضائعهم إلى فيماغوستا،... وعندما كانت سفن البندقية وجنوى وفلورنسا وبيزا وقطلونيا وجميع الغرب تصل، كانوا يجدون التوابل هناك، فيحملون سفنهم بكل ما احتاجوه، ثم يأخذون طريقهم عائدين إلى الغرب"،[2] وعلى هذا فقد غدا الشعب القبرصي – على قول لودولف – أغنى شعوب العالم على الإطلاق.[3]

وقد علق أحد المؤرخين بأن الملوك القبارصة كانوا واعين بشكل جيد لأسباب الازدهار، وأنهم قد دُعموا بواسطة الحظر البابوي النشيط الذي فُرِضَ على التجارة المسيحية مع الموانئ السورية والمصرية، حيث استخدموا قوتهم البحرية التي جرى تطويرها لاعتقال الخارقين للحظر.[4]

بدأت الأوضاع تتحول وتسير على عكس مصالح قبرص مع أواخر ثلاثينيات القرن الرابع عشر، عندما أخذت طرق التجارة تؤثر الإسكندرية من جديد، إذ خُرق الحظر البابوي بواسطة نظام الإجازات، وذلك عندما بدأ البابا بمنح إجازات لبعض التجار الأوربيين لممارسة التجارة بشكل محدود مع المماليك، لكن مع ذلك استمر

---

[1] تناول الفصل الخامس الحديث عن هذه الإجراءات.

[2] ماكارياس: مرويات، ص ٥٦- ٥٧.

[3] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٢٩٥-٢٩٦.

[4] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٣٠٧

ميناء فيماغوستا يستحوذ القسم الأكبر من التجار لبعض العقود، ولاسيما بعد سقوط أياس بيد المماليك سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م.[١]

وفي سبيل حماية التفوق الاقتصادي القبرصي، والتخلص من المنافسة الاقتصادية المملوكية بعد إخفاق قرارات الحظر البابوية، قام آل لوزينان حكام قبرص بدور كبير في عمليات القرصنة التي انتهجتها القوات الصليبية آنذاك ضد الموانئ والسفن الإسلامية، وخاصة في عهد بطرس الأول الذي تدهورت في عهده تجارة فيماغوستا، ورأى ملكها أن الحل هو شن عمليات عسكرية على شواطئ آسيا الصغرى والشواطئ المملوكية، وكان أخطرها على الإطلاق هو هجومه على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م.

- **هجوم القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م:**

اعتلى عرش قبرص الملك بطرس الأول سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م بعد وفاة أبيه هيو الرابع،[٢] فاستهل عهده بسلسلة من الغارات الناجحة التي قادها بنفسه ضد التركمان في سواحل آسيا الصغرى الجنوبية، وانتهت باستيلائه على قلعة جورهيجوس وأضاليا، وفرض الطاعة والجزية على عدد من ملوك التركمان،[٣] دفعه هذا الانتصار لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الأكثر أهمية، وبدأ يعد العدة لهجوم كبير أخذ سمة الحملات الصليبية، إذ قام بجولة في أوربا، استمرت ثلاثة أعوام تقريبا (٧٦٣-٧٦٦هـ/١٣٦٢ – ١٣٦٥م)، زار فيها القوى الرئيسية هناك مثل البابوية، والبندقية، وجنوى، وفرنسا، وانكلترا، وألمانيا، بالإضافة إلى جماعة فرسان الإسبتارية الموجودين في رودس، حصل فيها على مجموعة كبيرة من الوعود مع بعض المساعدات، وتجمع لديه في رودس ١٥٦ سفينة.[٤]

---

[١] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٣٠٧.

[٢] ماكارياس: مرويات، ص ٥٦.

[٣] ماكارياس: مرويات، ص ٦٦ وما بعد، وللاستزادة انظر الفصل الثالث، فقرة إرمينية الصغرى بين المماليك والتركمان والقبارصة.

[٤] ماكارياس: مرويات، ص ٩٨. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م، ص٩٥.

في رودس جرى تحديد وجهة الحملة، وقبل ذلك كانت وجهتها مجهولة، واكتفى بطرس بالقول بأنها حملة ضد المسلمين، وفي مطلع شهر أكتوبر أثناء وجوده في رودس أعلن عن وجهة الحملة، ومَنَعَ أي سفينة من الإبحار نحو الشواطئ المملوكية حتى لا يعلم المماليك بخبر هذه الحملة.[١]

والسؤال هنا: لماذا اختار بطرس الأول الإسكندرية هدفاً لحملته دون غيرها؟

انفرد المؤرخ السكندري (محمد بن قاسم النويري) بتقديم جملة من الأسباب التي دفعت بطرس للهجوم على الإسكندرية، أول هذه الأسباب : الظلم الذي نزل بالمسيحيين سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٥م، عندما قام السلطان الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون بطردهم من دواوين الحكومة، وفرض عليهم لباساً خاصاً ليُعرفوا به، والسبب الثاني هو رفض السلطان لطلب تقدم به الملك بطرس الأول يطلب فيه السماح له بأن يتسلم التاج بمدينة صور، كعادة ملوك بيت المقدس قبل سقوط عكا، فرفض السلطان طلبه، والسبب الثالث: هو تعرض بعض البنادقة للقتل على يد "عوام المسلمين في الإسكندرية"، بالإضافة إلى عدد من الأسباب التي يذكرها النويري؛ والتي تتعلق بمعرفة بطرس الأول، من خلال بعض الأحداث، خلو الساحل المصري من وسائل الدفاع بشكل أطمعه في التوجه لضرب الإسكندرية.[٢]

هذه الأسباب التي قدمها النويري وعلى أهميتها فهي لا تشكل الدوافع والأسباب الرئيسية للحملة على الإسكندرية، فقد سلف الحديث عن انتعاش قبرص اقتصادياً بعد أن تجمع فيها الصليبيون عقب تحرير عكا، كما سلف الحديث عن محاولات البابوية لمنع التجارة مع المماليك، حيث قَدّمت لهم أراضي إرمينية الصغرى كبديل عن المماليك،[٣] لكن الأوربيين استمروا في تجارتهم مع المماليك، ولا سيما بعد أن سيطر المماليك على أياس سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م.

---

[١] ماكارياس: مرويات، ص ٩٨.

[٢] النويري (محمد بن قاسم، ت:٧٧٥هـ): الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ص٢٨-٣٨.

[٣] مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، ١٧/٣٨

كانت الإسكندرية هي المركز التجاري الرئيس للمماليك في البحر المتوسط، وهي أهم المراكز التي تنتهي إليها البضائع القادمة من الشرق في طريقها إلى أوربا، أما قبرص فقد اقتصر دورها التجاري كوسيط بين هذه المراكز والتجار الأوربيين الذين غالباً ما فضلوا الاتجاه نحو المراكز المملوكية مباشرة.

من غير شك شكلت الإسكندرية منافساً خطيراً لقبرص، وبالتالي يمكن أن يكون شل الحركة التجارية بالمدينة، وضرب اقتصاد السلطنة المملوكية، هو السبب الرئيس لهذه الحملة، ويفسر ذلك أن بطرس هذا عندما أخفقت حملته على الإسكندرية توجه نحو آسيا الصغرى في محاولة لانتزاع إياس من المماليك، كما قام بسلسلة من الغارات على الموانئ الشامية، وطبعاً أثار هجوم القبارصة على الإسكندرية غضب البنادقة والجنوية وغيرهم من الأمم التجارية الأوربية، وفيما بعد عمل هؤلاء جاهدين لعقد اتفاق بين القبارصة والمماليك لإزالة آثار الهجوم القبرصي ولكي تعود التجارة كما كانت.[1]

ويمكن تسجيل عامل آخر شجع على ضرب الإسكندرية، هو تخفيف الضغط المملوكي عن إرمينية الصغرى، فمن المعروف أن بطرس الأول أصبح له وجود قوي في سواحل آسيا الصغرى على مقربة من الأرمن، وامتلك هناك عددا من القلاع التي لم تكن بمأمن من هجمات المماليك وحلفائهم التركمان، فهجومه على الإسكندرية قد يشغل المماليك عما هو خارج مملكتهم.

جهّز بطرس الأول حملته وقد حاول جاهداً إخفاء خبرها، ولكن على قول المقريزي فإن خبر الحملة وصل إلى الإسكندرية قبل عدة أشهر، ولكن السلطنة المملوكية لم تهتم لأمرها،[2] وعندما أرسل نائب الإسكندرية للأمير يلبغا الخاصكي – وكان هو المسير لأمور المملكة –[3] يطلب منه إمدادات لتحصين المدينة، كان جواب الخاصكي إن "القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية".[4]

---

[1] ماكارياس: مرويات، ص ١٠١ وما بعد.

[2] المقريزي: السلوك، ١٠٥/٣.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٤/١١.

[4] النويري: الإلمام، ص٣٦.

انطلقت الحملة من رودس إلى إحدى جزر خلقيدونية، ومن هناك سارت باتجاه الإسكندرية،[١] فوصلت مشارفها ورآها أهل الإسكندرية يوم الخميس ٢١ محرم/ ٩ تشرين الأول، ولم يكن سكان الإسكندرية؛ ولا حتى حكومتها يتوقعون هجوماً صليبياً مفاجئاً، إذ لم يكن له ما يسوغه من مجريات في الأحداث السياسية، لذا ظن "أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة، ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جاري عادتهم كل سنة"،[٢] إلا أن السفن – وعلى غير العادة — لم تدخل الميناء، فأوجس الناس خيفة، وهنا أدرك جنغرا حقيقة الموقف، فسارع إلى إغلاق أبواب المدينة، كما بدأ بشحن القلاع بالرجال والرماة، واستدعى العربان المجاورين للدفاع عن المدينة.[٣]

في يوم الجمعة ٢٢ محرم/ ١٠ تشرين الأول نزل الصليبيون على الساحل، وبدأوا بهجومهم الكاسح، ولم يكن بالمدينة قوة كافية، فتولى الأهالي والعربان والمغاربة الموجودون هناك مع أهل الربط والخانقاوات الدفاع عن المدينة،[٤] ويُقَدِّرُ ماكارياس القوة التي خرجت للتصدي للقبارصة بعشرة ألاف مابين خيالة ورجالة،[٥] استبسلوا في الدفاع عن المدينة غير أنه كان يعوزهم التنظيم والتأهيل، فأخفقوا أمام شدة الهجوم القبرصي، وبعد هزيمتهم خارج الأسوار تمكن القبارصة من اجتياح المدينة بعد ظهر يوم الجمعة.[٦]

هرب الأهالي من المدينة، ومن بقي فيها جرى بحقهم مجزرة عظيمة،[٧] أما بطرس الأول فتجول في المدينة التي — على قول المؤرخ القبرصي ماكارياس– هي المدينة الأقوى بين جميع مدن المسلمين على ساحل البحر،[٨] وتجول جنوده في المدينة طولاً وعرضا ينهبون، ويقتلون، يأسرون، ويسلبون، بكل حقد وسادية مدة ستة أيام

---

[١] ماخارياس: مرويات، ص ٩٨. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص ١١٣.

[٢] النويري: الإلمام، ص٤٢.

[٣] المقريزي: السلوك، ٣/١٠٥. النويري: الإلمام، ص٤٢.

[٤] النويري: الإلمام، ص ٤٤–٤٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٥–١٠٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١/ ٢٩.

[٥] ماكارياس: مرويات، ص ٩٩

[٦] ماكارياس: مرويات، ص ٩٩، وتحدث النويري عن الخلاف بين المغاربة الذين طالبو بالتحصن في المدينة داخل الأسوار، وبين أهل الربط الذين كانوا على ربطهم، فنزلت بهم الهزيمة وتهدمت ربطهم وبيوتهم. الإلمام، ص ٤٥–٤٧.

[٧] النويري: الإلمام، ص٤٨–٥٨.

[٨] ماكارياس: مرويات، ص ٩٩. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص ١٥٤.

تقريبا، وفعلوا فيها ما يضيق به الوصف، فلم يفرقوا في أعمالهم الوحشية بين المسلمين وغيرهم، كما تعرضت المحلات التابعة للجاليات الأوربية للنهب من قبلهم.[١]

وصل الخبر إلى القاهرة في يوم السبت في ٢٣ محرم/ ١١ تشرين الأول، ولأول وهلة كذّب الأمير يلبغا الخاصكي الخبر، وظن أنه مكيدة، لكن عندما رأى اللاجئين قد وصلوا إلى القاهرة أمر الجيش بالإسراع إلى الإسكندرية،[٢] وبسبب فيضان النيل اتخذ الجيش الطريق البري عبر الصحراء، مما أخر وصولهم إلى الإسكندرية حتى يوم الخميس ٢٨ محرم / ١٦ تشرين الأول، في وقت كانت سفن الصليبيين قد امتلأت بالأسلاب والأسرى الذين بلغ تعدادهم خمسة ألاف أسير تقريبا، وقد تجهزت للمسير.[٣]

اتخذ قرار الجلاء عن المدينة على إثر مجلس عسكري عُقد بين القادة الصليبيين الذين أيدوا بأغلبية ساحقة الانسحاب، فالمكوث بالمدينة – على قول ماكارياس– ليس مفيداً على الإطلاق،[٤] لأنهم أدركوا استحالة الاحتفاظ بالمدينة، وكما يقول النويري، فإن بطرس الأول دخل الإسكندرية لصاً وخرج منها لصاً.[٥]

- **هجوم القبارصة على سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى:**

على الرغم من الضربة القاسية التي تلقتها الإسكندرية من القبارصة؛ إلا أن بطرس الأول أخفق في تحقيق أهدافه على المستويات كافة، فهو لم يتمكن من الاحتفاظ بالمدينة، ومعظم ما سلبه منها حرم القبارصة منه وأرسله على شكل هدايا لملوك أوربا،[٦] أما اقتصادياً فقد استمرت التجارة في الإسكندرية التي نالت من الاهتمام بعد الاجتياح أضعاف ما كان قبله.[٧]

---

[١] النويري: الإلمام، ص ٥٦. المقريزي: السلوك، ١٠٦/٣-١٠٧. ماكارياس: مرويات، ص ٩٩-١٠٠.

[٢] المقريزي: السلوك، ١٠٤/٣-١٠٥.

[٣] النويري: الإلمام، ص ٦٠. المقريزي: السلوك، ١٠٧/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٩/١١.

[٤] ماكارياس: مرويات، ص ١٠٠. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص ١٥٥-١٦٥.

[٥] النويري: الإلمام، ص٨٧.

[٦] النويري: الإلمام، ص ٩١.

[٧] النويري: الإلمام، ص ٢٠١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣٠/١١.

ولما أخفق بطرس الأول في ضرب أكبر الموانئ والمنافذ التجارية المملوكية، قرر التوجه إلى موانئ أصغر وأقل أهمية، بشكل يمكنه من تحقيق هدفه بدقة أكبر، فاختار لحملته التالية ميناء طرابلس على الساحل الشامي.

كان ميناء طرابلس إلى حدٍ ما أكبر الموانئ الشامية بعد ميناء بيروت، وكان هو فرضة تجارة حلب على المتوسط،[1] لذا تم اختياره كهدف لحملة سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، وقبل الحديث عن هذه الحملة لابد من الإشارة إلى حملة أخرى خرجت قبل سنة، شارك فيها الأسطول القبرصي إلى جانب أسطول رودس، بلغ عدد السفن التي خرجت حوالي ٢٣٠ سفينة، وسبب خروجها هو اعتقال تجار أوربيين من ميناء بيروت، غير أن الحملة تعرضت لعاصفة قوية ردت قسماً من السفن إلى قبرص، في حين تمكنت ١٤ سفينة من الوصول إلى طرابلس والبقاء فيها مدة ١٥ يوماً، ولما تأخر وصول باقي الأسطول عادت هذه السفن إلى قبرص.[2]

بعد هذه الحملة ظهرت بوادر للصلح بين الطرفين، لكن سرعان ما تبدلت الظروف عندما هاجم التركمان بأمر من المماليك قلعة جورهيجوس في آسيا الصغرى التابعة آنذاك لملك قبرص، كما حدثت اضطرابات في السلطنة المملوكية كان سببها تمرد الأمير يلبغا الخاصكي، تأخر على إثرها جواب المماليك للسفراء القبارصة الذين أرسلوا بشأن الصلح،[3] لذا سارع القبارصة والروادسة إلى جمع أسطول مكوّن من حوالي ١٥٠ سفينة للهجوم على طرابلس.[4]

يقول ابن كثير بأن بطرس الأول اغتر بما أصاب في الإسكندرية، "واعتقد أن كل بيضاء شحمة، وأن كل حمراء لحمة"،[5] لذا جهز حملته هذه وخرج من قبرص في صفر ٧٦٩هـ/ أيلول ١٣٦٧م، وعَلِمَ من خلال جواسيسه أن نائب طرابلس غير موجود فيها، وأن العسكر متفرقة، فتمكن من دخولها، وبدأت عساكره بعمليات

[1] هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٣٥، ٣٣٧.

[2] ماكارياس: مرويات، ص ١١٠-١١١. النويري: الإلمام، ص ١٦٩.

[3] ماكارياس: مرويات، ص ١١٢-١١٤، ١١٨-١١٩.

[4] قدر النويري عددها بـ ١٥٠ سفينة، في حين قدر غيره عددها بـ ١٣٠ سفينة. النويري: الإلمام، ص ١٧٠، المقريزي: السلوك، ٣/ ١٤٩. ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، تح: سهيل زكار، نشر ضمن كتاب (أربع كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية)، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٧م، ص ٤٢٤.

[5] ابن كثير : الاجتهاد في طلب الجهاد، ص ٤٢٤.

السلب والنهب على جاري عادتهم، لكنهم وقعوا بكمين نصبه لهم المسلمون في بساتين القصب الواقعة بين المدينة والساحل، فحلت بالقبارصة ضربة قاسية، وقُتِلَ منهم حوالي ألفين مقاتل.[١]

وانسحبت الحملة القبرصية من طرابلس إثر هذه الهزيمة متجهة شمالاً صوب طرطوس، وتمكنت من دخولها بعد أن هرب أهلها، فأقاموا بها يوماً وليلة، وهناك عثروا على مواد أولية لتجهيز السفن، مثل القطران، والمسامير، والأخشاب، ومجاديف، وحبال الجر، فأحرقوها ورموا المسامر في البحر، ثم ساروا إلى بانياس، وأحرقوا بعض بيوتها، ومنها إلى جبلة، لكن الريح أبعدتهم عنها، فاتجهوا شمالاً إلى اللاذقية، وبسبب حصانة مينائها ومتانة سلاسلها لم يتمكنوا من دخولها، وخسروا أمامها ثلاثة سفن، ومنها توجهوا إلى أياس.[٢]

وقعت إياس على الشاطئ الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وكانت الميناء الرئيس لمملكة إرمينية الصغرى، وهي آنذاك تحت السيطرة المملوكية بعد أن تنازل عنها الأرمن بموجب معاهدة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م،[٣] كان لهذا الميناء قلعتان، خارجية وداخلية، فتمكن القبارصة من الاستيلاء على القلعة الخارجية ومحاصرة الداخلية، في الوقت الذي صادف فيه وصول الأمير منجك السيفي في طريقه من طرسوس إلى طرابلس بعد أن رسم له بنيابة هذه الأخيرة، ولما وجد القبارصة محاصرين المدينة بدأ بمناوشتهم، وانزل بهم ضربات قاسية إلى أن وصلته القوات الحلبية وعلى رأسها الأمير منكلي بغا نائب حلب حيث تمكنوا من رد القبارصة وإعادتهم " خائبين خاسرين أعظم خيبة من خيبتهم في طرابلس".[٤]

---

[١] ابن كثير: الاجتهاد، ص ٤٢٤-٤٢٥. ماكارياس: مرويات، ص ١٢١-١٢٢. النويري: الإلمام، ص١٧٣ وما بعد. المقريزي: السلوك، ١٤٩/٣.

[٢] النويري: الإلمام، ص ١٨١-١٨٤، ١٩٨. ماكارياس: مرويات، ص ١٢٢-١٢٣.

[٣] زيتر سين: عصر سلاطين المماليك، ص ١٩٤. اليوسفي (موسى بن محمد، ت: ٧٥٩ هـ) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر: ترجمة أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٤٠٢-٤٠٣. الشجاعي (شمس الدين) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، تح: بربارة شيفر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٠. ولكن النويري ذكر أنه كان مناصفة بين الأرمن والمماليك، الإلمام، ص ١٨٦-١٨٧.

[٤] ابن كثير: الاجتهاد، ص ٤٢٦. وقد ألف ابن كثير هذه الرسالة بطلب من الأمير منجك السيفي عندما أصبح نائب دمشق، وسبب ذلك أن هذا الأمير عندما كان يناوش القبارصة عند أياس طلب المساعدة من المسلمين هناك فلم يجبه أحد، فأراد أن يكتب للناس في فضل الجهاد، ويرغبهم فيه. وعن حصار آياس انظر، ماكارياس: مرويات، ص ١٢٣. النويري: الإلمام، ص ١٩٢. المقريزي: السلوك، ص ١٥٠.

في سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م قُتل بطرس الأول على يد أمرائه، وخَلَفَه ابنه بطرس الثاني،[١] واستقبل هذا عهده بحملة هاجم فيها السواحل الشامية ابتداءً بصيدا، وبعد اشتباكه مع المسلمين هناك تركها واتجه شمالاً إلى بيروت، لكن ميناءها الضيق، والحراسة الشديدة لم تمكناه من دخولها، فاتجه شمالاً إلى اللاذقية مروراً بجبيل، والبترون، وطرطوس، وهو ينهب ويسلب ويحرق، ثم أبحر إلى أياس فلم يتمكن من دخولها، فتركها إلى أضاليا ومنها إلى قبرص.[٢]

- **الصلح بين القبارصة والمماليك:**

استمرت المفاوضات والسفارات تتردد بين الطرفين حوالي أربع سنوات دون التوصل لنتيجة، والذي قام بمهمة المفاوضات وبذل الجهود الكبيرة هم البنادقة والجنوية والقطلان، والسبب في ذلك أن تجارتهم تعطلت على إثر هذه الحملة، ولم يتم توقيع الصلح حتى أيام بطرس الثاني سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، حيث نص الصلح على إطلاق سراح أسرى الطرفين.[٣]

في الحقيقة لم تستمر العلاقات الودية بين الطرفين طويلاً، ففي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م وقعت جزيرة قبرص تحت سيطرة جنوى على إثر حرب حدثت بين الجنوية والبنادقة، وقف فيها القبارصة إلى جانب البنادقة، وبعد سنة تم توقيع اتفاقية بين الطرفين نصت على بقاء ميناء فيماجوستا تحت السيطرة الجنوية مقابل سحب قواتها من باقي أنحاء الجزيرة.[٤]

وكان هذا يعني ببساطة هيمنة جنوى على الحركة التجارية في قبرص، مما حدا بالأمم التجارية المنافسة لجنوى إلى ترك المتاجرة مع قبرص والتوجه الكلي نحو الموانئ المملوكية كما حدث مع البندقية التي أصدرت أوامرها لتجارها بترك المتاجرة مع قبرص والتوجه بدلاً عنها إلى بيروت.[٥]

أثَّرَ هذا سلباً على العلاقات بين قوى المتوسط، فَكَثُرَت الغارات والعمليات ضد السواحل المملوكية، فعلى سبيل المثال هاجمت في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م عشرة مراكب حربية مدينة طرابلس ولكن تم التصدي لها من قبل

---

[١] ماكارياس: مرويات، ص ١٦٥-١٦٨. النويري: الإلمام، ص ١٩٠-١٩١.

[٢] ماكارياس: مرويات، ١٧٠-١٧١.

[٣] النويري: الإلمام، ص٢٧٤-٢٧٥. ماكارياس: مرويات، ص ١٧٤-١٨٢. المقريزي: السلوك، ١٨٩/٣.

[٤] ماكارياس: مرويات، ص ١٩٠ وما بعد.

[5] Mas Latrie: Hist. de Chypre, 3 Vols, Paris, 1861. II. P 363 – 364.

نائبها يلبغا الناصري،[1] ثم تكرر الهجوم في جمادى الآخرة سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م عندما نازل الجنوية ميناء بيروت، وأيضاً تم التصدي لهم وأسر ستة عشر مركباً من مراكبهم فانسحبوا نحو صيدا، وكان أهلها قد خرجوا منها مع أموالهم، فنزل الجنوية إليها ونهبوا بعض الأمتعة من زيت وصابون وأحرقوا السوق ثم انسحبوا، وعادوا في شهر شعبان لمهاجمة ميناء بيروت، فقتلوا من أهلها خمسة عشر شخصاً ثم انسحبوا،[2] وفي سنة ٧٨٦هـ/ أغاروا على رشيد،[3] ثم أغاروا على طرابلس سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، وفي غارتهم هذه خسروا ثلاثة مراكب. [4]

لم يقتصر الأمر على الغارات، بل كانت سفنهم تعترض لسفن المسلمين في عرض البحر، ومنها ما حدث سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م عندما اعترض الجنوية لسفن كانت تحمل أخت السلطان برقوق وابن عمه، وأسروهم، فأصدر السلطان أوامره باعتقال كل التجار الفرنج في الموجودون في بلاده، هذا ما دفعهم إلى إطلاق سراح الأسرى ومن بينهم أخته. [5]

تكررت حالات القرصنة كثيراً، ومنها ما حدث سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م عندما استولى قراصنة الصليبيين على عدة مراكب تحمل الغلال إلى الشام،[6] وفي رمضان ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م استولى القبارصة على مراكب محملة بالقمح من دمياط إلى بلاد الشام التي عزّ فيها القمح بسبب غارات تيمور لنك. [7]

وفي سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م قام حاكم جنوى الفرنسي بوسيكولت (Boucicault) بالاشتراك مع جانوس ملك قبرص وفرسان الإسبتارية في رودس بحملة عسكرية استهدفت الموانئ المصرية والشامية انطلاقاً من جزيرة قبرص، فهاجم في المحرم/ آب طرابلس، إلا أن مناعة أسوارها ويقظة حاميتها وأهلها، وقدوم المساعدة من قبل الأمير شيخ المحمودي نائب دمشق، جعلهم يغادرونها إلى بيروت، وفي بيروت أحرق الجنوية بعض المواقع وقتلوا عدداً من أهلها، كما أسروا سفينة محملة ببضائع ثمينة قادمة من دمياط إلى بيروت، ومن هناك ساقوا إلى صيدا،

---

[1] المقريزي: السلوك، ٣/٣٣٥. ابن حجر: إنباء الغمر، ١/١٧٤. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ٢/٣٨٢.

[2] ابن حجر: إنباء الغمر، ١/٢٧٤. ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/١/٣٣٥.

[3] المقريزي: السلوك، ٣/٥١٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٩٥.

[4] المقريزي: السلوك، ٣/٥٦٢.

[5] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٩/ ٣٣، ٣٨. المقريزي: السلوك، ٣/ ٥٨١، ٥٨٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٧٨. ابن حجر: إنباء الغمر، ١/٣٥٢.

[6] المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٣. ابن حجر: إنباء الغمر، ١/٤٧٧.

[7] المقريزي: السلوك، ٣/١٠٥٩.

فتصدى لهم الأمير شيخ المحمودي، وفي شهر صفر هاجموا الإسكندرية، لكنهم لم يصيبوا أية نتائج،[1] أما السلطنة المملوكية فقد كانت عاجزة عن الرد في ظل الظروف التي كانت تمر بها، إذ سيطرت عليها الفوضى عشية قيام دولة المماليك الشراكسة، واجتياح تيمورلنك لبلاد الشام، بالإضافة إلى غياب سلطان قوي قادر على إحكام قبضته على البلاد، وقد أشار ماكارياس إلى ذلك صراحة عندما تحدث عن عمليات القرصنة، فقال: "وتحمل السلطان ذلك بصمت، لأن عدداً كبيراً من الأمراء لم يكونوا على وفاق معه". [2]

[1] المقريزي: السلوك ١١١٤/٣، ١١١٦. ابن حجر: إنباء الغمر، ٢/ ٢٥٨. وعن أعمال القرصنة التي تمت أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي انظر: السلوك، ٣ / ٤١٠، ٤٩٩، ٥١٥، ٥٣٣، ٥٦٢، ٥٨١، ٥٨٩، ٧٢٣، ٨١٣.

[2] ماكارياس: مرويات، ص ٣٧٥.

الفصل الثالث

النشاط السياسي والعسكري لمملكة إرمينية الصغرى في مشرق البحر المتوسط منذ منتصف القرن السابع الهجري حتى سقوطها بيد المماليك

٦٥٨-٧٧٦هـ/١٢٦٠-١٣٧٥م

أولاً: ظهور مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا وعلاقتها مع جيرانها.

ثانياً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس.

ثالثاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور قلاوون.

رابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الأشرف خليل.

خامساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور لاجين.

سادساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الناصر محمد.

سابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عصر أسرة الناصر محمد.

أولاً: ظهور مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا وعلاقتها مع جيرانها:

في نهاية القرن السادس ومطلع السابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شهد العالم في مشرق البحر المتوسط مولد مملكة – صليبية – جديدة قُدِّر لها أن تشغل دوراً مهماً في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى، هذه المملكة هي "مملكة إرمينية الصغرى"، وسميت بذلك للتمييز بينها وبين إرمينية القديمة المعروفة باسم إرمينية الكبرى، والتي تقع بين المرتفعات المركزية للهضبة الأناضولية غرباً، وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي لبحر قزوين من الشرق والجنوب الشرقي، أما من الشمال والشمال الغربي فيحدها البلاد الواقعة على سواحل البحر الأسود (جانيق، ولازستان)، وتتوزع حدودها الجنوبية على سلسلة جبال طوروس من الجنوب الغربي ، والسهل الشمالي الغربي لبلاد الجزيرة (البلاد الواقعة في حوض دجلة الأعلى والزاب الأعلى) من الجنوب الشرقي.[1]

أما إرمينية الصغرى فقد قامت في إقليم قيليقيا "كيليكيا"، أي الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، بين جبال الأمانوس شرقاً، وجبال طوروس في الشمال والشرق، أما من ناحية الجنوب فيحدها البحر المتوسط بساحله الممتد من مدينة طرسوس[2] إلى جنوب اسكندرونة من الجنوب الغربي، أما من الجنوب الشرقي فيحدها بغراس، وتبلغ مساحتها حوالي ٤٠٠٠٠ كم٢، بطول ٤٠٠ كم من الشرق إلى الغرب، وبعرض ١٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب، يتألف إقليم كيليكيا من جزئين، كيليكيا السهلية، وكيليكيا الجبلية، ومن أنهارها سيحون وجيحون، ومن أهم مدنه طرسوس، وأياس،[3] ... الخ.[4]

تبوأت كيليكيا مكانة مهمة على مر العصور بسبب موقعها الجغرافي، وبعد أن تمكن المسلمون من فتح بلاد الشام والجزيرة، والقضاء على الامبراطورية الفارسية، أصبحوا وجهاً لوجه مع الإمبراطورية

---

(١) الأرمن في دائرة المعارف الاسلامية، ص٣١، مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، دار نوبل، دمشق، (د. ت)، ص٦٨-٦٩. ومن أهم المصادر التي سوف يعتمد البحث عليها هي:

Recueil Historiens des Croisades Documents Armeni ns. Paris. 186-1906

وسيرمز له بـ R.H.C.Doc.Arm.

(٢) مدينة على ساحل البحر من ناحية الروم. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٤٩.

(٣) أياس وهو حصن على شاطئ البحر وهو فرضة سيس. ابن شداد: الأعلاق ١/٢/ ١٦٤.

(٤) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨١-٨٢. مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٢٣

البيزنطية كمنافس قوي للسيطرة على كيليكيا، ولم ينته القرن الأول الهجري إلا وكيليكيا تحت السيطرة الإسلامية، فأصبحت- فيما بعد- المنطقة الحدودية المتنازع عليها بين المسلمين والبيزنطيين، أو فيما عرف باسم الثغور،[١] وكانت هذه الثغور الفاصلة بين المسلمين والبيزنطيين تقسم إلى جزرية هي الشمالية الشرقية، وشامية هي الجنوبية الغربية، وكانت مدن كيليكيا مثل أذنة،[٢] والمصيصة،[٣] وطرسوس، وعين زربة،[٤] – أهم الثغور الشامية والتي توزعت على شكل خط طويل من القلاع يمتد بشكل مائل من ملطية على الفرات الأعلى حتى طرسوس على المتوسط، وكانت السيادة عليها تتبادل بين المسلمين والبيزنطيين تبعاً للتفوق العسكري.[٥]

استمرت السيادة الإسلامية على المنطقة حتى القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي، ففي هذا القرن خرجت كيليكيا من أيدي المسلمين لصالح الإمبراطورية البيزنطية، لأن التفكك الذي دب في جسم الخلافة العباسية آنذاك قابله نهضة قوية من الجانب البيزنطي ظهرت بشكل واضح عندما قام الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس (٣٤٨ – ٣٥٩هـ/ ٩٥٨ – ٩٦٩م) بشن حملات عسكرية على الثغور الإسلامية تمكن فيها من احتلال المصيصة، وطرسوس، ومرعش،[٦] وغيرها من مدن كيليكيا مُنهياً بذلك السيادة الإسلامية عليها، ومنها تقدم إلى أنطاكية فاحتلها، ثم وضع حلب بعد اجتياحها سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م تحت الحماية البيزنطية.[٧]

---

[١] الثغر هو كل موضع قريب من أرض العدو.

[٢] مدينة تقع على نهر جيحان إلى الغرب منه. ابن شداد: الأعلاق، ١٥١/٢/١.

[٣] المصيصة تشتمل على مدينتان بينهما نهر جيحان، المصيصة على غربه وعلى شرقه كفربيا، ولهذا كانت تسمى بغداد الصغيرة، ابن شداد: الأعلاق، ١٤٤/٢/١.

[٤] بلدة تقع بين سيس وتل حمدون شمال نهر جيحان، وجيحان بينه وبين تل حمدون، وهي في الجنوب بميلة إلى الغرب عن سيس، وتسمى ناروزا، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٥١.

[٥] فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م، ٣ أجزاء، ١٣٢/١وما بعدها. صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٠-٢١.

[٦] مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، الحموي: معجم البلدان، مادة مرسى.

[٧] ابن العديم (الصاحب كمال الدين بن عمر بن أحمد، ت:٦٦٠هـ): زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق-القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ١٣٠/١-١٣٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢/٧-٣. صابر دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم، ص ١٥٤ومابعد

Vasiliev: Histore of the Byzantine Empire. 2volm, Madison, 1952, Vol.1.P, 408-409.

١- مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا:

لم يكن الأرمن من شعوب المنطقة الأصليين، لكن وجودهم فيها قديماً، ويرجع إلى ما قبل الميلاد، إلى أيام الملك ديكران الثاني الكبير (٩٤-٥٥ ق.م)،[١] فقد تمكن هذا الملك الأرمني -الذي سماه شيشرون بملك آسيا العظيم - من بناء إمبراطورية إرمينية امتدت من شواطئ بحر قزوين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن القوقاز شمالاً إلى فلسطين جنوباً، وكانت كيليكيا أحد أجزائها الجنوبية الغربية،[٢] وبحكم خضوع كيليكيا للأرمن فقد سكنها بعض موظفي الدولة والتجار ورجال الجيش الأرمني واستوطنوها، ولقد تزايدت أعدادهم بشكل سمح لهم أن يعينوا أسقفاً لمدينة طرسوس وآخر لمدينة أنطاكية في القرن العاشر الميلادي،[٣] قبل حدوث الهجرات الكبرى.

فقدت إرمينية الكبرى استقلالها سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م لصالح الإمبراطورية البيزنطية،[٤] وبالتالي أصبح البيزنطيون والسلاجقة وجها لوجه، وباتت المواجهة بين الطرفين أمراً لابد منه، ونتج عن هذه المواجهة سقوط آني[٥] عاصمة إرمينية بيد ألب أرسلان سلطان السلاجقة سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤ م،[٦] وتوسّع السلاجقة في شرقي آسيا الصغرى بشكل أفضى إلى هجرات إرمينية ضخمة ازدادت وتيرتها عقب

---

[١] أحد ملوك الأسرة الأرداشيسية التي أسسها أرداشيس الأول الذي أعلن استقلال بلاده عن الحكم السلوقي وأسس دولة باسم إرمينية الكبرى، بقيت أسرته تحكمها من ١٨٩ق.م حتى ١م، وكان ديكران الثاني ثالث حكامها. انظر: مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٤٦-١٤٩.

[٢] مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٤٩-١٥٢.

[3] Sirarpie Der Neressian: The Armenians، Norwich، 1972.p.44.
الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، ص٥٥.

[٤] متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم ينشر بعد، ص١٠٦-١٠٨. فايز اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة إرمينية، دار الفكر، الاسكندرية، ١٩٨٧ م، ص٧.

[٥] عاصمة إرمينية الكبرى، تقع على الشاطئ الأيمن من نهر آخوريان، كانت قلعة حصينة وتم اختيارها عاصمة لإرمينية في عصر أسرة بجراط في أيام حاكمها آشوط الثالث (٣٤٨-٣٦٧هـ/٩٥٩-٩٧٧م)، أصبحت سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م مقراً لبطاركة الأرمن، ثم خضعت لسيطرة السلاجقة سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م. انظر: فايز اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة إرمينية، ص٨-٩.

[٦] متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص١٤٧-١٥٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩٨/٨.

موقعة ملاذكرد ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، المعركة التي تلقى فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة على يد السلاجقة، حيث أُسر فيها الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع.[١]

بهذه الهزيمة كسب السلاجقة بلاد الأناضول الغربية، وإرمينية، وكبادوكيا، وذهبت هذه الغارات بالحياة القومية والسياسية والفكرية ومظاهر الحضارة الإرمينية، وبدأت الهجرات الإرمينية تصل تباعاً إلى غرب الفرات تفادياً لاعتداءات السلاجقة، حيث وجدوا في كيليكيا المنيعة ملاذاً آمناً عند اخوانهم الأرمن الذين سبقوهم إليها قبل قرون عديدة،[٢] وبلغوا من الكثرة والقوة ما سمح لهم بإنشاء إمارة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م تحولت بعد قرن ونيف إلى مملكة.

في كيليكيا ظهرت عائلتان من الأرمن ظلتا تتنافسان للاستئثار بالسلطة هما أسرة الهيثوميين وأسرة الروبينيين.

أ- أسرة الروبينيين التي أسسها الأمير روبين الأول (٤٧٣ – ٤٨٩هـ/ ١٠٨٠ – ١٠٩٥م) في قلعة بارتزبرت وسيطر على بعض القلاع والتلال في الشمال الغربي من كيليكيا.

ب- أسرة الهيثوميين أو أسرة بابيرونيان التي أسسها أوشين الأول الذي نزح من إرمينية إلى كيليكيا حوالي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م حيث انتزع قلعة لامبرون من المسلمين في غرب كيليكيا وأقام بها إمارته.

وفي الحقيقة إن تاريخ إرمينية الصغرى الداخلي منذ بدايته حتى نهايته مرتبط بالصراع الداخلي بين هذين البيتين، كما أن وجود الأسرة الهيثومية في القسم الغربي من كيليكيا جعلهم أكثر ارتباطاً مع بيزنطة، في حين أن وجود آل روبين في القسم الشرقي جعلهم أكثر ارتباطاً مع القوى التي ظهرت هناك، أي الصليبيين ثم المغول.[٣]

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ١٩/٢٣١-٢٣٩. ابن القلانسي (حمزة بن أسد، ت: ٥٥٥هـ): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار إحسان، دمشق، ١٩٨٣م، ص١٦٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/١٠٩-١١٠. متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص١٨٦.

[٢] الأرمن في دائرة المعارف الاسلامية، ص٥٩. سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة إرمينية الصغرى، مقال منشور في الموسم الثقافي ١٩٦٧-١٩٦٨م للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص١٣٦ – ١٣٧. مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٢٣. أديب السيد: إرمينية في التاريخ العربي، ص٢١٣ – ٢١٤.

[٣] سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية، ص١٤٠ – ١٤١.رنسيمان: الحروب الصليبية، ١/١٩٧.


سلاجقة الروم
قيصرية
الأبلستين
(البستان)
ملطية
قونية
نهر سيحان
بهسنا
كينوك
ميساط
مرعش
نهر جيحان
سيس
رعبان
قلعة الروم
دلوك
أذنة
الصيصة
البيرة
طرسوس
عينتاب
أياس
النهر الأسود
الراوندان
مرسين
خليج اسكندرونة
تل باشر
كلس
جورهيجوس
سلوقية
بغراس
اعزاز
البحر المتوسط
أنطاكية
مملكة إرمينية
الصغرى

وفي عهد ليون الثاني (٥٨٢ – ٦١٦هـ/١١٨٦ – ١٢١٩م) ثامن حكام الأسرة الروبينية التي أسسها روبين تطورت الإمارة إلى مملكة عندما أرسل كل من البابا سليستان الثالث (٥٨٧ – ٥٩٥هـ/ ١١٩١ – ١١٩٨ م) والإمبراطور هنري السادس (٥٨٦ – ٥٩٤هـ/ ١١٩٠ – ١١٩٧م) مندوبين عنهما يحملان التاج الملكي حيث جرى تتويج ليون الثاني ملكاً في كاتدرائية القديسة صوفيا في مدينة طرسوس في ٦ يناير ١١٩٨م / ٢٤ صفر ٥٩٠هـ،[١] وتبع ذلك تحقيق الوحدة بين الإمارتين (إمارة الهيثوميين وإمارة الروبينيين)، ثم انتقل الحكم من الروبينيين إلى الهيثوميين، فقد كان ليون الثاني مؤسس الملكية الإرمينية آخر حكام أسرة الروبنيين، فبعد وفاته لم يترك خلفاً له إلا ابنته الصغيرة إيزابيلا بنت الخمس سنوات، إذ تم تزويجها من هيثوم الأول بن قسطنطين الوكيل الملكي للأرمن (بعد خلافات مع حكام أنطاكية)، وبزواجها من هيثوم انتقل الحكم من أسرة الروبينيين التي أسسها روبين الأول إلى أسرة الهيثوميين حكام لامبرون التي أسسها أوشين الأول، كان ذلك عام ١٢٢٦م. [٢]

٢- طبيعة العلاقات بين إرمينية الصغرى وجيرانها:[٣]

أ- مع الصليبيين:

شَكَّلَ قيام مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا أحد النتائج التي تمخضت عنها الحروب الصليبية، شأنها في ذلك شأن قيام مملكة صليبية أخرى في قبرص تحت حكم أسرة لوزينان الفرنسية، لكن سبق قيام هذه المملكة – التي نالت المباركة من قبل الغرب الأوروبي – مرحلة حافلة من العلاقات مع الصليبيين في الشرق.

فمع قدوم الحملة الصليبية الأولى وأثناء مرورها في الأناضول وجد الصليبيون في الأرمن حليفاً طبيعياً لهم ضد السلاجقة؛ وحتى ضد البيزنطيين، حيث قدَّم الأرمن الكثير من الخدمات للجيوش

---

[١] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦ / ٣٠٤. هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٢٨٧-٢٨٨.

[٢] مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٣١ – ٢٣٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٧١. المدور: الأرمن عبر التاريخ ص٢٣٥. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٢٠ – ٣٢٤.

[٣] لابد من الإشارة ولو بأسطر قليلة عن طبيعة علاقة هذه المملكة مع جيرانها وعن تحالفاتها ومصالحها في المنطقة، وليس الهدف هنا هو تتبع العلاقات بالتفصيل لأن ذلك يشكل خروجاً عن الموضوع، بالإضافة إلى أنه يحتاج إلى دراسة طويلة، وسنكتفي هنا بالإشارة المختصرة لتوضيح الصورة.

الصليبية المنهكة بعد رحلتها الطويلة في هضبة الأناضول ومرتفعات طوروس،[١] وتكفي الإشارة هنا إلى أن أنطاكية تم الاستيلاء عليها بمساعدة الأرمن.[٢]

لم تستمر طويلاً العلاقة الطيبة بين الأرمن والصليبيين؛ فسرعان ما اصطدم الحليفان ببعضهما عندما بدأ التوسع الصليبي على حساب الأرمن، ففي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م انتقلت ملكية مدينة الرها إلى الأمير الصليبي بلدوين دي بورج بعد مقتل حاكمها طوروس الأرمني،[٣] وفي سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م أُجبر تاتول الأرمني (Tatul) حاكم مرعش على تركها للأمير الصليبي جوسلين الأول كورتناي،[٤] كما قام بوهيمند حاكم أنطاكية باحتلال مدن طرسوس، وأذنة، والمصيصة، وعين زربة، وأذنة، وجعل نفسه سيداً على سائر تلك المناطق،[٥] ولذا فقد الأرمن الثقة بالصليبيين.

كَثُرت الاعتداءات الصليبية على جيرانهم الأرمن، حتى أنه بعد وفاة الملك الأرمني ليون الثاني سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م اجتاح جيش إنطاكية أراضي إرمينية الصغرى، وتحت قوة السلاح تزوجت إيزابيلا بنت ليون الثاني المتوفي؛ ووريثته الوحيدة، من فيليب الأنطاكي إبن أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وبموجب هذا الزواج أصبح فيليب هذا ملكاً على الأرمن في كيليكيا خلال ٦١٩-٦٢٢هـ/ ١٢٢٢-١٢٢٥م، تسلط فيها على الأرمن، وتمادى في تصرفاته الرعناء، وحاول فرض العادات اللاتينية عليهم، فثار عليه أمراء الأرمن واعتقلوه، ثم زوجوا إيزابيلا من هيثوم الأول بن الوكيل الملكي للأرمن، (وهو من الأسرة الهيثومية حكام لامبرون)، ومن غير شك أن هذا الإجراء عمق الخلاف بين الأرمن والصليبيين في أنطاكية، وبقيت الخلافات بينهم حتى قدوم لويس التاسع ملك فرنسا إلى بلاد الشام بعد فشل حملته في دمياط سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، حيث سعى لإزالة الخلافات بين الطرفين، وتكللت جهوده بالنجاح

---

[١] متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص٢٣٩.

[٢] وذلك بعد أن قام فيروز الأرمني حارس برج الأختين في الجنوب الغربي من أنطاكية بفتح البرج لبوهيمند سرا ليدخل منه الصليبيون ويسيطرون على أنطاكية عام ١٠٩٨م. ابن العديم: زبدة الحلب، ٣٤٨/١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٨٦/٨. وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ص ٣١٤. مؤلف مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ١٢٥/٦-١٣٠. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٤٩١/١٩.

[٣] متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص ٢٤٠-٢٤٢. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٢٦٤-٢٦٩، ٣٧٥.

[٤] متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص ٢٥٠.

[٥] وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٣٧٠.

عندما تزوج بوهيمند السادس حاكم أنطاكية ٦٤٩ – ٦٦٧هـ/ ١٢٥١ – ١٢٦٨م من سيبلا ابنة هيثوم الأول ملك إرمينية الصغرى سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤ م.[١]

ب– مع المغول:

اعتلى هيثوم الأول عرش مملكة إرمينية الصغرى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م بعد اضطرابات دامت سبع سنوات عقب وفاة ليون الثاني مؤسس الملكية الأرمنية، ولتجاوز العقبات والمخاطر المحيطة بهيثوم ولاسيما بعد أن ساءت العلاقة مع جيرانه صليبييّ أنطاكية ، بات عليه البحث عن حليف جديد، وهناك حقيقة يجب ذكرها هي: أن مملكة إرمينية الصغرى وخلال تاريخها الذي امتد قرابة مئتي عام كانت دائمة الحرص على التمسك بحليف خارجي يبسط عليها الحماية، لأنها كانت عاجزة عن الاستمرار بحياتها وسط أسد المغول، ونمر المماليك، وذئب الأتراك ،وأفعى قراصنة البحر.[٢]

وجد هيثوم الأول ضالته عند المغول، ورأى بهم قوة لا يمكن مجاراتها، ولا سبيل لمقاومتها بعد الهزيمة المنكرة التي أنزلوها بسلاجقة الروم في معركة كوساداغ بالقرب من أرزنجان سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣ م،[٣] عندئذ قرر هيثوم الأول التقرب إليهم بعد أن أصبح سلاجقة الروم خاضعين لهم، فأرسل في سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م سفارة إلى خان المغول كيوك خان (٦٣٩ – ٦٤٧هـ/ ١٢٤٦ – ١٢٤٨م) واختار لهذه المهمة أخوه سمباط، فأعلن هذا الأخير أمام الخان خضوع الأرمن للمغول، وكان قد حمل معه الجزية، فتم استقباله بشكل جيد، ورد وهو محمل بالهدايا مع إعفاء الأرمن من الجزية.[٤]

---

[١] كان من المقرر أن تتزوج ايزابيلا من ابن ملك المجر؛ لكن هذا لم يحضر بعد وفاة الملك ليون، سمباط: تاريخ سمباط، ص ٣٢٠–٣٢٦. ذيل تاريخ هرقل: تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم ينشر بعد، ٥٨/١٩٩٥. محمود سعيد عمران: المغول والأوربيون والصليبيون، دار المعرفة، الإسكندرية،٢٠٠٤م، ص٧٢.المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٣٥.

[٢] سانوتو: كتاب الأسرار، ٩٢/٣٨.

[٣] غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص ٤٠٥–٤٠٧. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٧، كوساداغ تعني الجبل الأمرد. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١–٢٥٢.

[٤] سمباط المؤرخ المشهور الذي وضع تاريخا لمملكة إرمينية الصغرى، مات عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، وعن هذه السفارة انظر بالتفصيل: غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٠٨–٤٠٩.

Hayton، La Flor des Estoires de La Terre D'orient، in (R.H.C.Doc.Arm.) vol.2.p.163.

توفي كيوك خان سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٨ م، واعتلى عرش المغول من بعده منكوخان، فقرر هيثوم الأول أن يقوم برحلة إلى البلاط المغولي لتقديم فروض الولاء والطاعة للخان الجديد والحصول على الحماية المغولية، وفعلاً خرج في سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٥٣م من بلاده باتجاه الشرق لزيارة منكوخان، وعندما وصل جرى استقباله بحفاوة وابتهاج.[١]

حقق الملك الأرمني في هذه الزيارة ما يصبوا إليه كل ملوك الغرب الأوروبي، حيث تقدم هيثوم الأول للخان المغولي منكوخان بسبعة مطالب هي:

- يعتنق الخان وشعبه المسيحية ليسود السلام بين المغول والمسيحيين.
- يرد المغول كل الأراضي التي فتحوها من البلاد المسيحية.
- مساهمة المغول في تحرير الأراضي المقدسة من المسلمين وردها إلى المسيحيين.
- مسير المغول إلى العراق لتدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية.
- حصول الأرمن على المساعدة المغولية فور طلبها.
- أن يرد المغول كل الأراضي التي سيطروا عليها وهي بالأصل للأرمن، أو الأراضي الأرمنية التي استولى عليها المسلمون أيضا.
- وأخيرا أن يكون لهيثوم الحق في الاحتفاظ بكل ما يغنمه من أراضي المسلمين دون أن يعارضه المغول في ذلك.[٢]

وحسب رواية المؤرخ الأرمني هايتون في كتابه زهرة تواريخ الشرق فإن منكوخان استجاب لكل طلبات هيثوم الأول،[٣] وطبعاً يبقى هذا الكلام مبالغة لأن منكو خان لم يعتنق المسيحية بل بقي على الديانة الشامانية، وكذلك شعبه.

---

(١) سمباط: تاريخ سمباط، ص٣٢٥-٣٢٦. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤١٤.

(2) Hayton: La flor. P.163 – 165

(3) Hayton: Ibid, P.167=

وبعد ذلك أصبح الأرمن أقوى حلفاء المغول في المنطقة، وسار خلفاء هيثوم على مسيره، وشارك الجيش الأرمني بكل العمليات التي قام بها الجيش المغولي ضد المسلمين منذ سقوط بغداد، وقد ترك هذا العمل أثراً سيئاً في قلوب المسلمين، بشكل جعل العمري يصف الأرمن بأنهم "أخبث عدو للاسلام".[١]

لقد ظهر التقارب المغولي الأرمني بشكل واضح خلال العمليات العسكرية التي نفذها الجيش المغولي بقيادة هولاكو في بلاد الشام والعراق؛ حيث كان العنصر الأرمني أو المشاركة الأرمنية بارزة واضحة منذ حصار المغول لبغداد،[٢] بل أكثر من ذلك، وحسب ما ذكر مؤرخو الأرمن، فإن الحملة المغولية على حلب تم إقرارها بعد لقاء ضم هولاكو وهيثوم الأول، أشار فيه هيثوم على هولاكو بالتوجه نحو حلب لأنها المفتاح الرئيسي لبلاد الشام.[٣]

تقدم هولاكو على رأس جيش كبير لحصار حلب يعاونه الأرمن،[٤] وبعد حصار دام سبعة أيام دخلها المغول والأرمن في ٩ صفر ٦٥٨هـ/ ٢٥ كانون الثاني ١٢٦٠ م، حيث ارتكبت مجازر رهيبة بحق أهالي حلب، وتم أسر ما يقرب من مئة ألف من النساء والصبيان،[٥] ومن حلب تقدم الجيش المغولي إلى

= وفي ثلاثينيات القرن الرابع عشر زار الرحالة الألماني لودولف بلاد الشام ومصر وتحدث عن هذه الزيارة، وقال إن هيثوم الأول طلب خمسة مطالب؛ هي: ١- أن يغدو الإمبراطور وشعبه كله مسيحيين، ٢- أن يكون هناك سلام دائم بين المغول والأرمن، ٣- أن يقوم بتدمير مساجد (محمد) جميعها، وأن يكرسه على (شرف الرب)، ٤- أن يساعدهم على استرداد الأرض المقدسة، ٥- أن يقوم بحصار بغداد وتدميرها وأن يزيل الخليفة من الوجود، ويقول لودولف إن الإمبراطور استجاب لكل هذه المطالب عن رغبة وطواعية، ونفذها كلها باستثناء البند الرابع لم ينفذه بسبب وفاته. انظر: لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٩ /٣٢٦-٣٢٧.

[١] التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨٢.

[٢] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٢٧/٣٦. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤١٧. لودولف: وصف الأرض المقدسة، ج٣٩ من الموسوعة، ص٣٢٧.

[3] Hayton: La Flor. P.170 – 171

سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣١/٣٦.

ليست المشورة الأرمنية السبب الرئيس لاجتياح المغول لبلاد الشام، وإنما اجتياح بلاد الشام كان ضمن الخطة المرسومة لحملة هولاكو من قبل أخيه الخان الأعظم منكو. انظر، رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢٣٤/١/٢، ٢٣٦-٢٣٧.

[٤] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٣١.

[٥] المقريزي: السلوك، ٤٢٢/١. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ١٥٧.

دمشق يرافقهم كل من هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس، فتمكنوا من دخولها، وفي دمشق أظهر الأرمن والصليبيون؛ وحتى المسيحيون المحليون، حقداً وكراهية بحق المسلمين، ونقلاً عن المؤرخ الصليبي الفارسي الداوي فان أمير أنطاكية، وملك الأرمن أظهرا كراهيتهما للمسلمين، إذ أمرا بتحويل بعض المساجد إلى إسطبلات للأكاديش والحمير، ورشا على جدرانها الخمور، ولوثوها بلحم الخنزير المملح والطازج "وحيثما كان قد أمر رجاله باقتراف عمل تدنيس واحد، عملوا عشرة"،[1] ناهيك عن مشاركتهم في معركة عين جالوت إلى جانب المغول.[2]

من خلال هذا العرض الموجز يتضح، وبشكل جلي، حجم المساهمة الأرمنية في الاجتياح المغولي لبلاد الشام والعراق، وقد ولّد هذا عند المسلمين احتقاناً كلّف الأرمن ثمناً باهظاً فيما بعد.

ج – مع المسلمين:

لم ينل وجود الأرمن في كيليكيا بشكل رسمي "كيان سياسي" إمارة أو مملكة، رضا المسلمين الذين كانوا يعدون هذه الأرض جزءاً من أملاكهم، ويؤكد ذلك الجزية التي كان يدفعها الأرمن للسلاجقة، فيذكر العمري أن طاعتهم كانت لملوك سلاجقة الروم، "وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاني (جمع شحنة) على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة (أي السلجوقية) ....، فطمع هذا اللعين (أي صاحب إرمينية الصغرى)........، واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيَّف مواريث بني سلجوق واستهلكها".[3] ويصر المؤرخون المسلمون على عدم الاعتراف بمملكة إرمينية، ويظهر إصرارهم هذا في استخدامهم لكلمة (متملك) بدلاً من (ملك) عندما يريدون التحدث عن صاحب إرمينية الصغرى، بمعنى أنه امتلك البلاد قهراً من أصحابها الشرعيين.[4]

---

[1] الفارس الداوي : أعمال القبارصة، ص ٤٣، وكان بوهيمند السادس قد تزوج في عام١٢٥٤م من سبيلا ابنة هيثوم الأول كما ورد سالفاً. وعن تسلط المسيحيين على المسلمين في دمشق آنذاك. انظر، المقريزي: السلوك، ٤٢٥/١.

[2] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٢٧/٣٦. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤١٧.

[3] التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨٠-٨١.

[4] يقول القلقشندي في ذلك: (وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم وثب رئيس الأرمن ... فتملكها من أيدي المسلمين) ، صبح الأعشى، وسيس هي أعظم مدن إرمينية الصغرى وأشهرها وهي العاصمة. صبح الأعشى، ٣٣/٨.

على الرغم من هذه النظرة إلا أن المصالح السياسية شغلت دورها في تحسين العلاقات خلال حقبة معينة، ففي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م توفي الأمير طوروس الأكبر بن ليون بن قسطنطين بن روبين، وكان قبل وفاته قد أبعد أخوه مليح بعد أن كشف خيانته، وقد التجأ الأخير إلى نور الدين في حلب ودخل في خدمته،[١] ولدى وفاة طوروس رغب أخوه مليح بالحكم لأنه أحق من ولي العهد (توماس بن روبين)، ومن أجل ذلك حصل على مساعدات من قبل نور الدين محمود، وتمكن بها من اغتصاب السلطة في كيليكيا، وبقي حاكماً عليها مدة خمس سنوات (٥٦٥-٥٧٠هـ/١١٧٠ - ١١٧٥م).[٢]

خلال هذه الحقبة كانت العلاقات جيدة بين الطرفين، إلا أن مقتل مليح سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م على يد أعيان الأرمن[٣] حطم التحالف الإسلامي الأرمني الذي شَكَّلَ انحرافاً عن المسار الطبيعي للعلاقة بشكل عام، وازدادت العلاقات سوءاً أيام حكم ليون الثاني (٥٨٢ – ٦١٦هـ/ ١١٨٦ – ١٢١٩م)، إذ أقدم هذا على مهاجمة جيرانه التركمان الذين استنجدوا بصلاح الدين، فلم يكن بوسع صلاح الدين إلا مهاجمة إرمينية الصغرى، وبث الغارات هنا وهناك بشكل أجبر ليون الثاني على طلب الصلح، فاستقر الصلح سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م ودخل فيه كل من أمراء الجزيرة وأربل وكيفا وميافارقين....[٤] وحتى في هذه المرة لم يكن الصلح سوى حلاً مؤقتاً، ومن بعده كثرت الاشتباكات بين الطرفين، فعلى سبيل المثال في سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م هاجمت قوات ركن الدين سليمان شاه الثاني إرمينية الصغرى وتمكن ليون الثاني من التصدي لهم،[٥] وفي سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م هاجم الظاهر غازي

---

[١] سمباط: تاريخ سمباط، ص٢٨٥.

ويقول ابن الأثير: بان مليح كان "ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها"، ووجد كل طرف ضالته بالآخر، فنور الدين عندما قيل له في معنى استخدامه قال: "أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري"، في حين كان مليح يتقوى بنور الدين على البيزنطيين ومعارضيه. انظر، الكامل في التاريخ، ١١٩/٩.

[٢] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٩.

[٣] سمباط، تاريخ سمباط، ٣٦/ ٢٨٩.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٩٨-١٠٠.

ابن شاهنشاه الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر، ت: ٦١٧هـ): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٦٨.

[٥] سمباط، تاريخ سمباط، ص٢٩٧، الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٦٤٢ – ٦٤٣.

صاحب حلب إرمينية الصغرى وأجبر ليون الثاني على عقد هدنة لمدة ثماني سنوات،[1] أعقب ذلك هجوم من قبل كيخسروا الأول سلطان سلاجقة الروم بمشاركة الظاهر غازي صاحب حلب على إرمينية الصغرى انتهى الهجوم بفتح قلاع إرمينية،[2] وقد يطول الحديث عنها، والقصد من الإشارة إلى بعضها هو التدليل على أن الطابع العدائي كان يسود العلاقات بين الطرفين، وقد ورثت السلطنة المملوكية هذا العداء، لكنها ملكت مجالاً أوسع من الحكومات الإسلامية التي سلفتها للتحرك ضد الأرمن، ولا سيما بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام، وهدوء الجبهة الشرقية بإسلام المغول، وفيما يلي سيتم الحديث بالتفصيل عن التحركات الأرمنية والمملوكية ضد بعضها.

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/١٧٠-١٧١.

[2] ابن وصل: مفرج الكروب، ٣/١٨٧.

ثانياً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس:

امتلأت قلوب المماليك غيظاً من مملكة إرمينية الصغرى بسبب ما بدر منها من مواقف عدائية تجاه سلطنة المماليك الناشئة، وأخذوا يتحينون الفرص لتأديب الأرمن، وقد سنحت الفرصة بعد سحق الجيوش المغولية وطردها إلى ما بعد الفرات، كما أن انشغال المغول بحروبهم الداخلية أعطى المماليك فرصة أخرى للتحرك بحرية ضد الصليبيين والأرمن، وبات الآن على الأرمن أن يستعدوا لضربات مملوكية مميتة.

يمكن تسجيل أو رصد أول عملية احتكاك مباشر بين المماليك والأرمن في سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م عندما قامت الجيوش الأرمنية مُدَعَمة بعساكر من أنطاكية بالهجوم على الفوعة وسرمين،[١] لكن نائب حلب علاء الدين الشهابي تصدى لهم، وأسر منهم جماعة أُرسلوا إلى مصر، وهناك تم توسيطهم،[٢] ويمكن أن تكون هذه الغارة محاولة للانتقام من المماليك الذين ضايقوا إمارة أنطاكية بكثرة غاراتهم عليها،[٣] ومدينة أنطاكية مهمة للأرمن لأنها تشكل عمقاً عسكرياً لها في بلاد الشام، كما أن سقوطها يجعل الأرمن منعزلين عن باقي الصليبيين في الساحل.

تكررت الغارة الأرمنية على أراضي المماليك، ففي صفر ٦٦١هـ/كانون الأول ١٢٦٢م قاد هيثوم ملك الأرمن بنفسه حملة عسكرية وصلت إلى الفوعة والعمق[٤] ومعرة مصرين[٥] وعدد من القرى في تلك المنطقة، وعندما وصل إلى سرمين اصطدم بقوة مملوكية كان قد اختبأ عناصرها في دار الدعوة الإسماعيلية، وتمكن أحد أفرادها من طعن هيثوم ورميه عن جواده " فانفل عزم أصحابه بعده وولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد".[٦]

---

[١] الفوعة: مدينة من أعمال حلب تقع غرب مدينة حلب، انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ٣/،١٠٧٤ وسرمين أيضا من أعمال حلب على منتصف الطريق بين المعرة وحلب. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ٢/ ٧١٠. وكانت الفوعة سابقاً تابعة لسرمين. انظر، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ٢/٢/٤٩.

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٩. المقريزي: السلوك، ١/٤٧٦.

[٣] أغار المماليك على أنطاكية سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١م وأحدثوا فيها خرابا، ثم كرروا الهجوم سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م. انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٣، ١٣٢.

[٤] العمق: سهل غرب حلب، انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٤١.

[٥] بليدة وكورة بنواحي حلب بينهما خمسة فراسخ، الحموي: معجم البلدان، مادة معرة.

[٦] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٩٤ – ٩٥، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١/٥٣١، ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/ ٣٧٨. أما سمباط فقال إن الملك الأرمني لم يصب بأي أذى، وإنما الإصابات تلقاها مرافقيه. تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٣٨-٣٣٩.

١- الحملة الإرمينية سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ م:

في سنة٦٦١هـ/١٢٦٣م قام هيثوم الأول بجولة دبلوماسية، زار خلالها أنطاكية ثم زار هولاكو، وفي طريق العودة من عند هولاكو عرج على سلاجقة الروم، وكان بصحبته وفد مغولي ضم قُضاة أرسلهم هولاكو لعقد صلح بين الأرمن وسلاجقة الروم، فنتيجة هذه الوساطة؛ وبعد اجتماع ضم الطرفين في مدينة هرقلة غرب الفرات اتفق الطرفان وتحالفا،[١] وشكلا قوة انضمت إليهم مجموعة من بني كلاب [٢] وصل تعدادها إلى ألف فارس،[٣] قرر الملك هيثوم الزحف بهم جميعاً على بلاد الشام.

وردت الأخبار للمماليك بأن الملك الأرمني جمع هذه القوة في هرقلة ثم نزل على قلعة سرفندكار،[٤] فأرسل السلطان إلى حماه وحمص بضرورة خروج عساكرهما إلى حلب لقتال الأرمن، وبالفعل خرجت العساكر وأغارت على قوات الأرمن التي وصلت عينتاب، فقتلوا منهم حوالي ثلاثين جندياً وأسروا أحد أمرائهم، وأخذوا لهم مئة جمل.[٥]

استمر هيثوم الأول في عناده ولم يرض بالهزيمة؛ فعمد إلى طلب المساعدة من المغول المقيمين في آسيا الصغرى، فأمدوه بسبعمئة فارس، وطلب مدد آخر من أنطاكية، فأمدوه بمئة وخمسين فارساً، اجتمعت القوة وقرر المسير بها لمحاربة المماليك، وعند وصوله على مقربة من حارم كثر تساقط الثلوج بشكل منعه من متابعة المسير، وكانت النتائج مخزية إذ مات مئة وعشرون فارساً أرمنياً وثلاثون مغولياً، وستة من خيالة أنطاكية، وجماعة من رجالتهم.[٦]

استمر هيثوم الأول في إعداد الجيوش سراً لمهاجمة المماليك، ففي جمادى الآخرة ٦٦٢هـ/ نيسان ١٢٦٤م تم إلقاء القبض على جاسوسين من المغول، قدموا معلومات ثمينة تقول بأن هيثوم الأول

---

[١] سمباط: تاريخ سمباط٣٦/٣٣٧-٣٣٨. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩١ – ١٩٢.

[٢] بنو كلاب من أعراب حلب، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ٢٣٧/٤.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٢.

[٤] سرفندكار قلعة حصينة بالقرب من جيحان من البر الجنوبي، وهي في الشرق من تل حمدون، كما أنها في الشرق والجنوب من عين زربة، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٥٧.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٢، النويري: نهاية الأرب، ٢٦٠/٣٠، العيني: عقد الجمان، ٣٨٤/١. المقريزي: السلوك، ٥١٠/١.

[٦] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٢ – ١٩٣، النويري: نهاية الأرب،٢٦٠/٣٠، سمباط: تاريخ سمباط، ٣٣٩.

عمد إلى خدعة حربية عندما "فصّل ألف قباء تتري وألف سراقوج[1] ألبسهما أصحابه ليرهب أنهم نجدة من التتار"[2] والهدف من هذه العملية هو تثبيط همة الجنود المماليك، عندما يوهمهم بأن هؤلاء هم المغول، فسارع السلطان للمبادرة بالهجوم على إرمينية الصغرى، إذ أرسل عساكراً من دمشق وحماه وحمص بقيادة الأمير حسام الدين العينتابي، فأغاروا على مرزبان، وقتلوا عدداً من الأرمن، وأسروا بعضهم، وتوالت الغارات المملوكية بشكل أجبرت الأرمن على التراجع، وتفرق جمع هيثوم الأول.[3]

انفرد المؤرخ الأرمني سمباط بذكر حملة مملوكية انطلقت إلى كيليكيا سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م بقيادة الأمير عز الدين أوغان المعروف بسم الموت، غير أن الحملة بعد أن وصلت إلى النهر الأسود أقامت هناك أربعة أيام ثم عادت بعد أن علم الأمير المملوكي من خلال جواسيسه ما هو عليه الجيش الأرمني من قوة واستعداد.[4]

٢- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م:

لم يُقدم السلطان الظاهر على أي عمل عسكري خارج حدود السلطنة قبل أن يرتب أمورها الداخلية، فحتى ذلك الوقت كانت معظم العمليات المملوكية هي تصدٍّ للغارات الإرمينية، أو القيام بغارات بسيطة لشغل الأرمن عن تقديم المساعدة لصليبيي بلاد الشام، وقُبيل هجومه على إرمينية الصغرى قام بسلسلة من العمليات العسكرية النوعية ضد الكيانات الصليبية أفقدتهم وأكسبته نقاطاً ومراكز حساسة منحته حرية التحرك في المنطقة، إذ حرر قيسارية وأرسوف في حملة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وفي السنة التالية حرر حلبا، وعرقا، والقليعات (هذه المناطق الثلاث الأخيرة تتحكم بالطريق بين حمص وطرابلس)، كما هاجم عثليت، وصور، وعكا، والشقيف والأهم من هذا كله أنه حرر صفد.[5]

---

[1] مفردها سراقوج وهي قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى الأعلى وهي تمثل الزي التتري المميز، انظر: ماير: الملابس المملوكية، تر: صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د. ت)، ص٥٦.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٦، المقريزي: السلوك، ٥١١/١.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٦، المقريزي: السلوك، ٥١١/١، النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٢٦١.

[4] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤١.

[5] راجع الفصل الثالث.

كان لتحرير صفد أهمية خاصة، فقد جعلها السلطان الظاهر مقر نيابة جديدة،[1] وكانت مهمتها متابعة أمر الصليبيين على الساحل، كما أنه بتحرير صفد ومن قبلها أرسوف، وقيسارية تم تأمين خطوط المواصلات بين مصر والشام، وأصبحت مسألة الإمدادات العسكرية سهلة، كما أنه بتحرير صفد تفرغت دمشق لمتابعة أمر المغول، أما حلب فقد كانت مهمتها الرئيسية هي مراقبة أنطاكية وأرمن كيليكيا، وهكذا؛ وأمام ازدياد الخطر الأرمني بات من الضروري القيام بعمل عسكري حاسم ضدهم، ولا سيما أن أبغاخان مغول فارس – الذي تسلم مهامه في رمضان ٦٦٣هـ/١٢٦٥م بعد وفاة والده هولاكو[2]- كان منهمكاً في حروبه ضد بركة خان حاكم القبيلة الذهبية،[3] وبالتالي فإنه لا يستطيع تقديم المساعدة لحلفائه الأرمن.

أراد السلطان اغتنام الفرصة، فما إن انتهى من أمر صفد وترتيب العساكر فيها، حتى سار إلى دمشق وأمر العساكر بعدم دخولها والبقاء على حالة الاستنفار من أجل المسير إلى كيليكيا،[4] فرتب على قيادة الحملة الملك المنصور صاحب حماه، وفي خدمته الأمير سيف الدين قلاوون، والأمير عز الدين أوغان المعروف باسم الموت، وسارت الحملة باتجاه كيليكيا في مطلع ذي القعدة ٦٦٣هـ/ آب ١٢٦٦م.[5]

قبل مسير الحملة؛ وفي أثناء محاصرة السلطان لصفد، كانت رسل هيثوم قد وصلت إلى السلطان الظاهر تقترح عليه توقيع معاهدة سلام بينهم، يقول ابن تغري بردي بأن السلطان لم يقبلهم ولا

---

[1] ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤٤. سهيل زكار: تاريخ صفد، دار التكوين، دمشق، ص٣. فلسطين في العصر المملوكي، ٢/ ٥٥٦.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ،٣/٢/٢.

[3] رشيد الدين: جامع التواريخ، ١٣/٢/٢ وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٤١٠/٢، ٤٣٤-٤٣٥. برتولد شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص٥٨. حسن الأمين: المغول بين الوثنية والنصرانية والاسلام، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢١٨.

[4] ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ٢٦٩.

[5] أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٩. ابن أيبك، الدرة الزكية، ص١١٨. المقريزي: السلوك، ٥٤٩/١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٤٣/٢. ابن المغيزل: مفرج الكروب، ص٦١. ويختلف المؤرخون في أي يوم سارت الحملة في الثالث من ذي القعدة، أم في الخامس منه.

سمع رسالتهم،[١] في حين أن ابن العبري يقول بأن السلطان هو الذي أرسل إلى هيثوم الأول يعرض عليه أن "يدخل في طاعته، ويحمل الجزية، ويُمَكّن الناس من مشترى الخيل، والبغال، والحنطة، والشعير، والحديد من بلده، وهم أيضاً يخرجونه إلى الشام ويتاجرون، ويبيعون، ويشترون"، لكن هيثوم رفض مطالبه خوفاً من المغول.[٢]

يمكن أن تكون رواية ابن العبري هي الأكثر قبولاً لعدة أسباب:

أولاً: فرضت إرمينية الصغرى كما هو معلوم حصاراً اقتصادياً على السلطنة المملوكية، وبات المماليك بحاجة ماسة إلى متنفس اقتصادي، لذلك سارع بيبرس بطلب فتح منافذ تجارية مع الأرمن، ولما رفضوا سيّر حملته ضدهم.

ثانياً: الجيش المملوكي كان لتوه قد خرج من معركة استنزفت جهداً كبيراً من قواته؛ وهي معركة تحرير صفد، وعدد من المدن والقلاع الأخرى؛ لذا فهو ليس مضطراً لخوض معركة جديدة إذا كان بإمكانه الحصول على مكاسب جيدة عن طريق المفاوضات، وخاصة أن بعض عساكره – ربما كرهاً للقتال– بدؤوا بالتسلل إلى دمشق بعد أن منعهم من الدخول إليها، ثم أخرجهم مكتفين بالحبال.[٣]

والرواية الأرمنية قريبة جداً من رواية ابن العبري، فقد ذكر سمباط أنه بعد تحقيق المماليك إنجازات ضخمة؛ أرسل السلطان بيبرس إلى هيثوم يعرض عليه الصلح، مقابل تسليم بعض القلاع والحصون الحدودية، لكن هيثوم رفض عرضه لسببين؛ الأول: هو خوفه من المغول، فمعظم هذه القلاع كان قد تسلمها منهم، والثاني: تجنب الوقوع تحت سيطرة السلطان لأنه (عبد بن عبد)، ومع ذلك يقول سمباط بأن الملك الأرمني استمر في إرسال الهدايا الثمينة والرسائل تودداً للسلطان، إلا أن السلطان بقي مصراً ورفض كل شيء دون القلاع الحدودية.[٤]

---

[١] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣٩/٧.

[٢] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٥، تاريخ الزمان، ص٣٢٤-٣٢٥.

[٣] المقريزي: السلوك، ٥٤٩/١. ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ٢٦٩.

[٤] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤٢-٣٤٣. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٢٧. ولا يذكر مطالب بيبرس، بل يقول أنها مطالب تافهة، ورد عليه هيثوم بألفاظ مهينة.

يُستنتج أن الشروط كانت تعجيزية، لذا رفضها ملك الأرمن، فسارت الحملة المملوكية باتجاه كيليكيا، ولما تحقق هيثوم من خبرها أسرع بالخروج لطلب النجدة من المغول المقيمين عند سلاجقة الروم، لكنهم رفضوا تقديم المساعدات ما لم يتلقوا الأوامر من أباقا خان.[١]

وصلت القوات المملوكية إلى الدربساك،[٢] وهي على السفح الشرقي لجبال الأمانوس،[٣] وشكلت الدربساك أحد الممرين الجنوبيين إلى إرمينية الصغرى، في حين شكلت بغراس الممر الثاني،[٤] ومن الدربساك دخلوا الدربند[٥] (الطريق) المؤدي إلى سيس عاصمة إرمينية الصغرى، وقد وجدوا سلسلة من التحصينات على شكل أبراج أقامها هيثوم الأول على رؤوس الجبال، تمكن المماليك من السيطرة عليها وهدمها وقتل بعض من كان بها، في حين هرب الباقي.[٦]

في ذلك الوقت كان الملك هيثوم الأول غائباً عند المغول يستجدي مساعدتهم،[٧] فتولى قيادة إرمينية الصغرى قسطنطين أخو هيثوم بالإضافة إلى ولدي هيثوم؛ طوروس وليون، وفي معركة دارت رحاها قرب سرفندكار في ٢٣ آب انكسر الأرمن وقُتل طوروس ابن هيثوم الأول، واعتُقل ابنه الآخر ليون، كما اعتقلوا باسيل ابن أخ هيثوم، وعلى اثرها اجتاح المماليك كيليكيا وعاثوا فيها قتلا وسلبا.[٨]

---

[١] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٥، تاريخ الزمان، ص٣٢٥.

[٢] تقع إلى الشمال الشرقي من بغراس ويمر فيها النهر الأسود. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٦٠.

[٣] أو جبال اللكام، انظر، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ٤١٩/٢/١.

[٤] بغراس تقع أيضاً على لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية خمسة فراسخ على يمين القاصد من أنطاكية إلى حلب، انظر، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ٤١١/٢/١.

[٥] الدربند لفظ فارسي جمعه دربندات ومعناه الطرق والمعابر الضيقة، والمقصود به هنا الطرق المؤدية إلى سيس، وقد ورد وصفه عند ابن أبي الفضائل بأن باب الدربند الذي بسيس يعرف بالدروب، النهج السديد، ٢٣١/٢.

[٦] ابن أيبك الدواداري: الدرة الزكية، ص١١٨، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٤٤/٢. ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص٢٧٠. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ٣٤٢/٢/١. أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢.

[٧] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٣/٣٦. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٢٨.

[٨] ابن عبد الظاهر في الروض الزاهر، ص٢٧٠. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٣/٣٦-٣٤٤. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص ٤٢٨-٤٢٩. أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٢٥، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق٢، ص٣٤٣، ويذكر أن الذي أسر مع ليونن هو ابن أخت هيثوم وليس ابن أخيه.

بعد تحطيم المماليك للجيش الأرمني تحركوا شرقاً وغرباً في إرمينية الصغرى وبحرية تامة، ومن تتبع تحركات الجيش المملوكي يمكن ملاحظة المهمة الاقتصادية التي كُلفت بها هذه الحملة، فبعد احتلال العاصمة سيس تحركت القوات المملوكية على محورين، حيث اتجهت فرقة لضرب القلاع الشرقية التي تقع على طرق المواصلات والتجارة مع المغول، فنزلت هذه الفرقة على تل حمدون،[1] ثم تابعوا المسير على حموص[2] وأحرقوها، ثم هاجموا قلعة العامودين،[3] فاستسلم جندها وبلغ عددهم حوالي ألفين ومئتي شخص من المغول والأرمن، وجماعة من الداوية، تم التخلص منهم، وأحرقت القلعة بما فيها من حواصل وذخائر، ثم عادوا إلى سيس ودخلوها، أما المحور الثاني فكانت وجهته الموانئ والمدن الساحلية، فقد توجه الأمير قلاوون إلى أياس وطرسوس، وفي طريقه ساق على المصيصة وأذنة، فقتل وأحرق وهدم قلعة الثنيات[4] التابعة للداوية والتي تقع على شاطئ البحر بين أياس والمصيصة، في هذا الوقت كان القائد العام للحملة الملك المنصور مقيماً في العاصمة سيس، وكان قد أرسل الأمير عز الدين أوغان في فرقة إلى بلاد سلاجقة الروم.[5]

عاد الملك الأرمني هيثوم الأول بعد أن نجح بجلب مساعدة مغولية، غير أنه وصل متأخراً، إذ وجد البلاد في حالة يُرثى لها، أما العساكر التي قدمت معه بدلاً من أن تساعده اشتغلت بنهب ما تركه المسلمون وراءهم.[6]

---

[1] تل حمدون قلعة على تل عال بالقرب من نهر جيحان إلى الجنوب منه، يقع على نقطة التقاء الطريق من مرعش بالطريق من إسكندرونة. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥١.

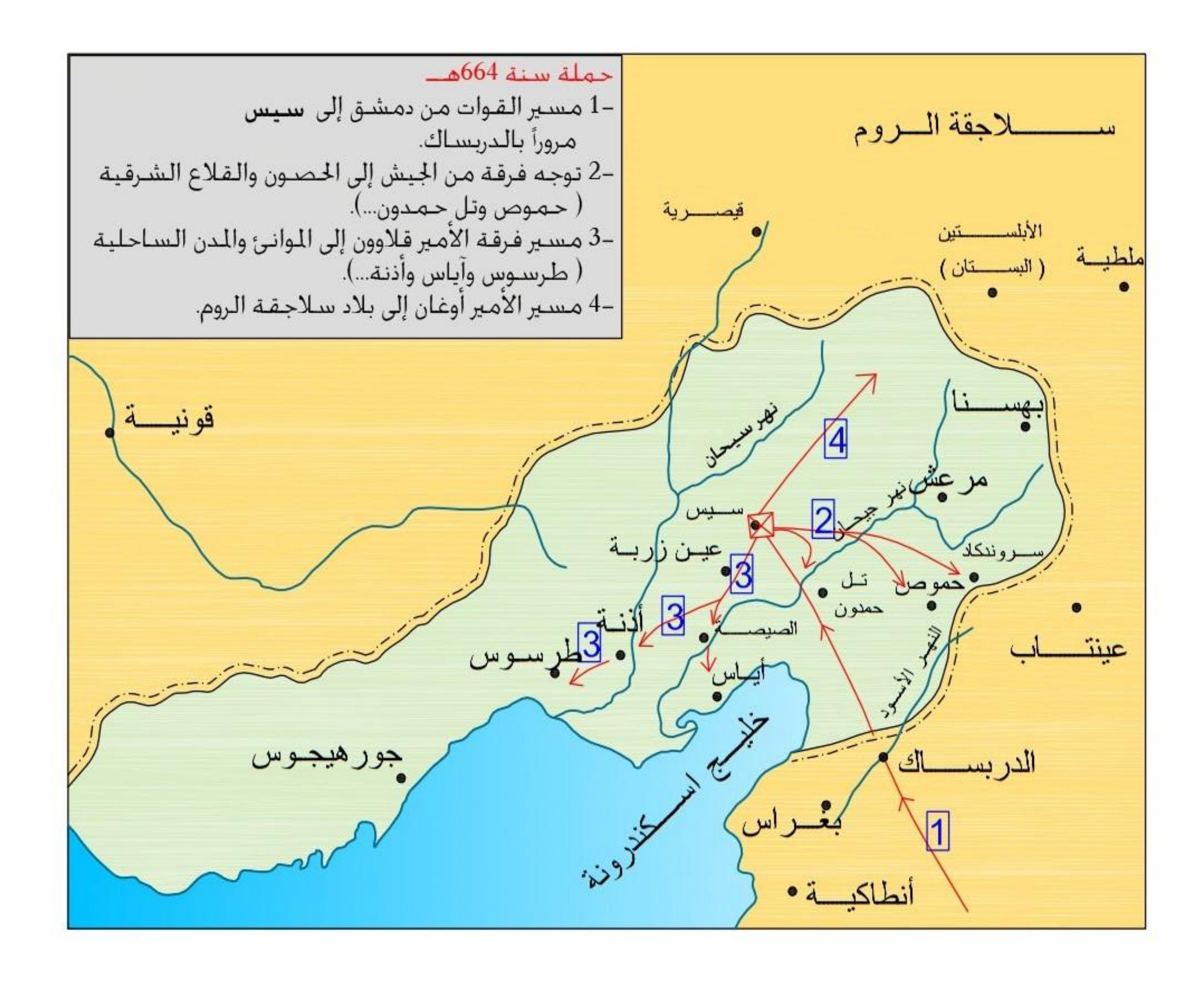
[2] حصن شرق تل حمدون القريب من نهر جيحان، أبو الفداء تقويم البلدان، ص٢٥١.

[3] قلعة حصينة شاهقة تقع على مقربة من نهر سيحان عند مخاضه العلوي: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٦٣.

[4] حصن على شاطئ البحر بين آياس والمصيصة، يُجمع به خشب الصنوبر. ابن شداد: الأعلاق، ١٦٥/٢/١.

[5] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٥ – ٢٨٦، وتاريخ الزمان، ص٣٢٥، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٩ – ٢٧١، ابن شداد، الأعلاق، ج١، ق٢، ٣٤٤ – ٣٤٧، المقريزي: السلوك، ٥٥١/١–٥٥٢، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١١٨، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص٦١، أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢، النويري، نهاية الأرب، ٢٩٠/٣٠–٢٩٢، سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٤/٣٦.

[6] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٢٥.


حملة سنة 664هـ
1- مسير القوات من دمشق إلى سيس مروراً بالدربساك.
2- توجه فرقة من الجيش إلى الحصون والقلاع الشرقية (حموص وتل حمدون...).
3- مسير فرقة الأمير قلاوون إلى الموانئ والمدن الساحلية (طرسوس وآياس وأذنة...).
4- مسير الأمير أوغان إلى بلاد سلاجقة الروم.
سلاجقة الروم
قيصرية
الأبلستين
(البستان)
ملطية
قونية
نهر سيحان
بهسنا
مرعش
نهر جيحان
سيس
عين زربة
سرونكاد
تل
حمدون
حموص
أذنة
الصيصة
طرسوس
أياس
النهر الأسود
عينتاب
خليج اسكندرونة
جورهيجوس
الدربساك
بغراس
أنطاكية
1
2
3
4

قبل الفراغ من الحديث عن هذه الحملة، تجب الإشارة إلى أهميتها في تحييد إرمينية الصغرى وإبعادها عن الصراع المملوكي الصليبي، ففي العام التالي توجه المماليك إلى أنطاكية وحرروها ولم يتدخل الأرمن.

لم يقتصر الأمر على ما تقدم ذكره بل توالت النكبات على مملكة إرمينية الصغرى وتعرضت لضربات مميتة يمكن إجمالها في ثلاث نقاط:

الأولى: هي سقوط أنطاكية كبرى الكيانات الصليبية في الساحل الشامي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م وسقوط عدد من القلاع والحصون المجاورة كان أشهرها حصن بغراس التابع للداوية، والذي يقع شمال شرق أنطاكية، وبذلك فقدت إرمينية إمكانية الاتصال مع صليبيي بلاد الشام، بعد أن أحاط بها المماليك من جهة الجنوب.

الثانية: هي قضية إطلاق سراح ليون بن هيثوم من سجون المماليك، وقد كلفهم هذا الأمر الكثير، فبعد إلحاح شديد من قبل هيثوم وافق السلطان الظاهر على إطلاق سراحه مقابل عدة مطالب، أولها كان إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر الذي كان في أسر المغول منذ سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عندما دخلوا حلب، كما طالبه بإعادة القلاع التي أخذها الأرمن من المسلمين وهي بهسنا،[1] والدربساك، وشيح الحديد،[2] ورعبان،[3] ومرزبان.[4]

تمكن هيثوم من استحضار سنقر الأشقر من سجون المغول إلى كيليكيا وكتب بذلك إلى السلطان، ولكنه غيّر رأيه بخصوص تسليم القلاع، فكتب له السلطان "إذا كنت قسوت على ولدك وولي

---

[1] مدينة حصينة بالقرب من مرعش وسميساط، وهي من أعمال حلب، سيطر عليها المغول بعد احتلالهم لحلب، ثم سيطر عليها الأرمن إلى أن حررها بيبرس سنة ٦٦٦هـ، وهي إلى الشمال والغرب من عينتاب. ابن شداد: الأعلاق ١/٢/١١٦-١١٨. الحموي: معجم البلدان، مادة بهسنا. أبو الفداء: تقويم البلدان، ٢٦٥.

[2] شيح الحديد قرية كبيرة لها كورة، وهي في طرف العمق من أعمال أنطاكية وهي اليوم من أعمال حلب مضافة إلى حارم، ابن العديم (كمال الدين ابن العديم ت: ٦٦٠هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ١/ ٤٧٤. البغدادي: مراصد الإطلاع، ٢/ ٨٢٤.

[3] مدينة في الثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة من العواصم، الحموي: معجم البلدان، مادة رعبان.

[4] أبو الفداء: المختصر، ٣٣٥/٢ . المقريزي: السلوك، ٥٦٨/١-٥٦٩. وزاد ابن عبدالظاهر على هذه المناطق "الزرب"، الروض الزاهر، ص٣٢٨. أما مؤرخو الأرمن، سمباط وغريغوري أوف أكانك فلم يأتيا على ذكر هذه الحصون، وجعلا إطلاق سراح سنقر الأشقر هو الشرط الوحيد لإطلاق سراح ليون بن هيثوم، تاريخ سمباط، ٣٤٥/٣٦. تاريخ أمة الرماة، ص٤٣٤-٤٣٥.

عهدك، أنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني، ونحن خلف كتابنا، ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر".[١]

أمام هذا، وتحت تأثير عاطفة الأبوة أذعن هيثوم الأول للأوامر، وتقرر الصلح على إطلاق سراح سنقر الأشقر وتسليم القلاع مقابل إطلاق سراح ليون ابن ملك الأرمن وابن أخيه وغلمانهما، وبعد إجراءات عديدة يطول شرحها نُفذ الاتفاق في شوال سنة ٦٦٦هـ/ حزيران ١٢٦٨ م، وسلمت القلاع باستثناء بهسنا.[٢]

فكما أن سقوط أنطاكية أدى إلى إحاطة المماليك بإرمينية الصغرى من جهة الجنوب الشرقي وقطع الاتصال براً مع الصليبيين؛ فإن تسليم هذه القلاع كان يعني أيضاً إحاطة المماليك لها من جهة الشرق وإعاقة الاتصال مع المغول، وبذلك اكتملت حلقة الحصار المملوكي لكيليكيا، وبضربة واحدة خسر هيثوم ما كسبه بضربات عديدة، وتحطمت معنوياته بشكل جعله يتنازل عن العرش لابنه ليون.[٣]

الثالثة: واكتملت المصائب على إرمينية الصغرى عندما تعرضت لزلزال سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٦٩م دمر عدداً من قلاعها وأهلك سكانها.[٤]

تنازل هيثوم الأول عن العرش لابنه ليون سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩ م، وبعد سنة توفي الملك هيثوم الأول، ونُصب ليون بشكل رسمي ملكاً على كيليكيا في كنيسة القديسة صوفيا بطرسوس، فقام هذا بزيارة إلى أبغا خان مغول فارس الذي استقبله وسلمه " أمراً يقضي بأن يحكم مكان أبيه"،[٥] وبسبب الوضع

---

[١] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٨.

[٢] البرزالي: المقتفي، ١٧٩/١. يذكر اليونيني أن بهسنا لم تُسلم بناءً على وعد كان قد قطعه سنقر الأشقر لهيثوم الأول بعد أن سأله هيثوم في ذلك، انظر، ذيل مرآة الزمان، ٣٨٤/٢-٣٨٦. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١١٩/٢/١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان الظاهر لم يسلم ليون لأبيه إلا بعد فراغه من أمر أنطاكية، وفي هذا حنكة سياسية، وذلك لردع هيثوم عن تقديم المساعدة لصليبي أنطاكية.

[٣] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٢٧ – ٣٢٨

[٤] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٨/٣٦.ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٢٧، ويقول إنه قتل حوالي ثمانية آلاف، أما في كتابه تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٦، فيقول إنه قتل حوالي مئة ألف من الناس غير الدواب، كما يجعل الزلزال في نيسان سنة ٦٧٠هـ. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٧.

[٥] غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص ٤٣٥، ٤٣٨. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٤٨/٣٦-٣٤٩.ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٤. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٢٧-٣٢٨.

السيئ لإرمينية الصغرى أراد أبغا مساعدة ليون، فقرر دعمه بعشرين ألف جل، على أن يأخذ ليون عدداً منهم معه ثم يتبعه أبغا بالباقي في زيارته المقررة لكيليكيا، غير أن هذا لم يقم بالزيارة، ولم يُرسل له بقية الجنود.[١]

أتاح انشغال المماليك بحروب عديدة على جبهات الصليبيين والمغول فرصة للملك ليون ليعيد بها إعمار بلاده، فأعاد بناء أياس حتى غدت مرة أخرى من أهم المراكز التجارية في الحوض الشرقي للمتوسط،[٢] وقد مر بها ماركوبولو في سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م فوجد فيها حركة تجارية نشطة، يقصدها تجار جنوى والبندقية وغيرهما، ويتم فيها تبادل سلع الشرق بسلع الغرب،[٣] ويمكن القول بأن هذا الغنى جعلها محط أنظار المماليك.

٣- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م:

كثر فساد أهل كينوك[٤] وتعديهم على التجار، ولم تنفع رسائل السلطان الظاهر لملك الأرمن بكف أذاهم، فلم يجد بُدّاً من إرسال قوة بقيادة الأمير حسام الدين العينتابي الذي وصلها في شهر محرم ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م، فسيطر عليها وقتل رجالها وخربها ثم أتم غارته على أطراف طرسوس.[٥]

لم تُجد نفعاً هذه الحملة؛ إذ إن الملك الأرمني قطع الجزية المقررة عليه، وخالف الشروط المتفق عليها: بأن لا يجدد بناء قلعة ولا حصن، وامتنع عن تزويد السلطان بالأخبار الصحيحة حسب الاتفاق المعقود بين الطرفين، وصار يُلبس الأرمن السراقوجات ليوهم بأنهم الجيش المغولي ويهاجم بها القوافل، فأرسل له السلطان يُعلمه بعزمه على غزو بلاده.[٦]

---

[١] سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/٣٤٩-٣٥٠.

[٢] هايد: تاريخ التجارة، ٢/٣١٠.

[٣] ماركوبولو: رحلة ماركوبولو، ١/٤٤.

[٤] تقع بين ملطية وسميساط ومرعش، وهي قلعة الحدث التي بناها سيف الدولة الحمداني، أما بلغة الارمن فهي كينوك، انظر، ابن شداد: الأعلاق، ١/٢/١٧٣. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤١٧.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤١٧. المقريزي: السلوك، ١/٦٠٨. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٣٣٥-٣٣٧.

[٦] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٢، النويري: نهاية الأرب، ٣٠/٣٣٧.

ربما تكون هذه الأسباب كفيلة لجعل سلطنة المماليك تُسيّر حملة ضد الأرمن في كيليكيا، ولكن هذه الحملة كانت قد خرجت لمهاجمة المغول في آسيا الصغرى، وقد تم الحديث سالفاً عن الدعوات التي أرسلها البرواناة وزير السلطان السلجوقي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م للسلطان الظاهر للقدوم إلى آسيا الصغرى لطرد المغول منها، وعندما خرج السلطان في السنة التالية؛ أي ٦٧٣هـ/١٢٧٥م، كانت قد تحسنت أحوال سلاجقة الروم، وخف التسلط المغولي عليهم،[١] فتدارك البرواناه أمره وكتب إلى السلطان يقول له: "اقصد هذه السنة سيس، وفي العام الآتي أملكك البلاد"،[٢] فلقي هذا الأمر قبولاً عند السلطان، ومن ثم سار إلى إرمينية الصغرى لمعاقبة الأرمن لأمور – ذُكرت آنفاً – أوجبت نقض الهدنة التي بينهم.

أما ابن العبري فقدم مسوغاً آخر، هو: قيام الأرمن باعتقال ثلاثين رجلاً من فقراء العرب كانوا قد قصدوا أطراف سورية لزيارة قبر الخليفة المأمون، فالتبس الأمر على الأرمن وظنوا أنهم جواسيس فاعتقلوهم، وأخفقت مساعي الوفود لفك أسرهم، كما أنه تم الفتك بخمسمئة فارس من الجيش المملوكي الذي حاول فك أسرهم، مما استدعى قدوم ثمانية آلاف من الجيش المملوكي لمهاجمة إرمينية الصغرى.[٣]

مهما كانت المسوغات والدوافع، أشرف الظاهر بيبرس شخصياً على إعداد الحملة وقادها بنفسه، حيث خرج في ٣ شعبان ٦٧٣هـ/ ٢ شباط ١٢٧٥م فوصل دمشق في ٢٩ شعبان / ٢٨ شباط، وبعد أن التحق به عسكر الشام غادرها إلى حماة في ٧ رمضان / ١٦ آذار حيث انضم إليه صاحبها الملك المنصور محمد.[٤]

ولكي يتجنب السلطان هجوماً مغولياً مفاجئاً جهز فرقة بقيادة عيسى بن مهنا أمير العرب، والأمير حسام الدين العينتابي، وأمرهما بالتوجه شرقا باتجاه البيرة ليشغلا المغول في تلك الجهة، وقد وصلا إلى رأس العين وحصلا على غنائم كبيرة بعد أن هرب المغول أمامهم.[٥]

---

[١] انظر الفصل الأول، معركة الأبلستين، المراسلات بين السلطان ومعين الدين البراواناة.

[٢] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٠٧، ابن أبيك: الدرة الزكية، ص١٧٧ – ١٧٨ .

[٣] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٣٣١.

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٣، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٠٦، ١٧٧، النويري: نهاية الأرب، ٣٣٧/٣٠-٣٣٨. أبو الفداء: المختصر، ٣٤٠/٢. البرزالي: المقتفي، ٣٢٥/١.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٣، ٤٣٦.

سار السلطان باتجاه الشمال، وحمل معه ثلاثين مركباً مفككة على ظهور البغال حيث تُجْمَع في كيليكيا ليعبر بها النهر الأسود ونهر جيحان ، وبعد أن مُهد الطريق من قبل الأميرين عز الدين الأفرم ومبارز الدين الطوري، وصلوا إلى النهر الأسود، وتم عبوره والتوجه إلى المصيصة الواقعة على نهر جيحان، فاستولى عليها الجيش المملوكي وفتك بأهلها، وغنم منها ما لا يحصى عدده من الجاموس والبقر والغنم.[1]

وفي ٢٩ رمضان / ٢١ آذار دخل السلطان سيس، حيث أمضى فيها عيد الفطر، وتم تخريب المدينة ونهبها، ودمر قصر "التكفور" ملك إرمينية ومناظره وبساتينه،[2] وفي أثناء ذلك سارت كتيبة إلى حدود سلاجقة الروم ثم عادت محملة بأسرى من المغول بينهم نساء وأطفال، وسيقت الغنائم إلى السلطان، كما تم إرسال الأميرين جمال الدين المحمدي وعز الدين الدمياطي إلى طرسوس وعادا بحوالي ثلاثمئة رأس من الخيول والبغال،[3] كما أرسل السلطان إلى الشاطئ قوة عسكرية بقيادة الأميرين مبارز الدين الطوري، وعز الدين كرجي فانتصرا على الأرمن في موضع لم يرد ذكره، ووجدوا مراكب، فدخلوها وأخذوا ما هو موجود فيها، وقتلوا من بها، كما وصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة البرزين، في حين وصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى أذنة، وكثر القتل في تلك المناطق، وإلى أياس سير السلطان جيشاً بقيادة الأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين أيتمش السعدي، فسارع أهلها إلى نقل بضائعهم إلى المراكب، إلا أن المماليك أحرقوا بعضها، وغرق حوالي ألفين من أهلها غير الذين قُتلوا في المذبحة.

---

[1] المقريزي: السلوك، ٦١٧/١. ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٤، العيني: عقد الجمان، ١٣١/٢-١٣٤، النويري: نهاية الأرب، ٣٣٨/٣٠

[2] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٥، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٤٣١. النويري: نهاية الأرب، ٣٣٩/٣٠. المقريزي: السلوك، ٦١٨/١.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٥ تضيف المصادر الأرمنية أن المماليك أحرقوا كاتدرائية القديسة صوفيا وكذلك البلاط الملكي في طرسوس، وسلبوا الخزينة الملكية وقتلوا ما يقارب من عشرين ألف نسمة وأسروا عشرة آلاف، انظر:

Hayton: La Flor. P.180 – 181.

عاد السلطان من سيس إلى المصيصة فأحرقها، وفي طريق عودته هاجم تل حمدون وقلعة النقيرة، ومن هناك عاد إلى أنطاكية مع باقي الأمراء وقد "غنموا ما لا يحصى كثره، وطرحت الغنائم بمرج أنطاكية فملأته طولاً وعرضاً".[1]

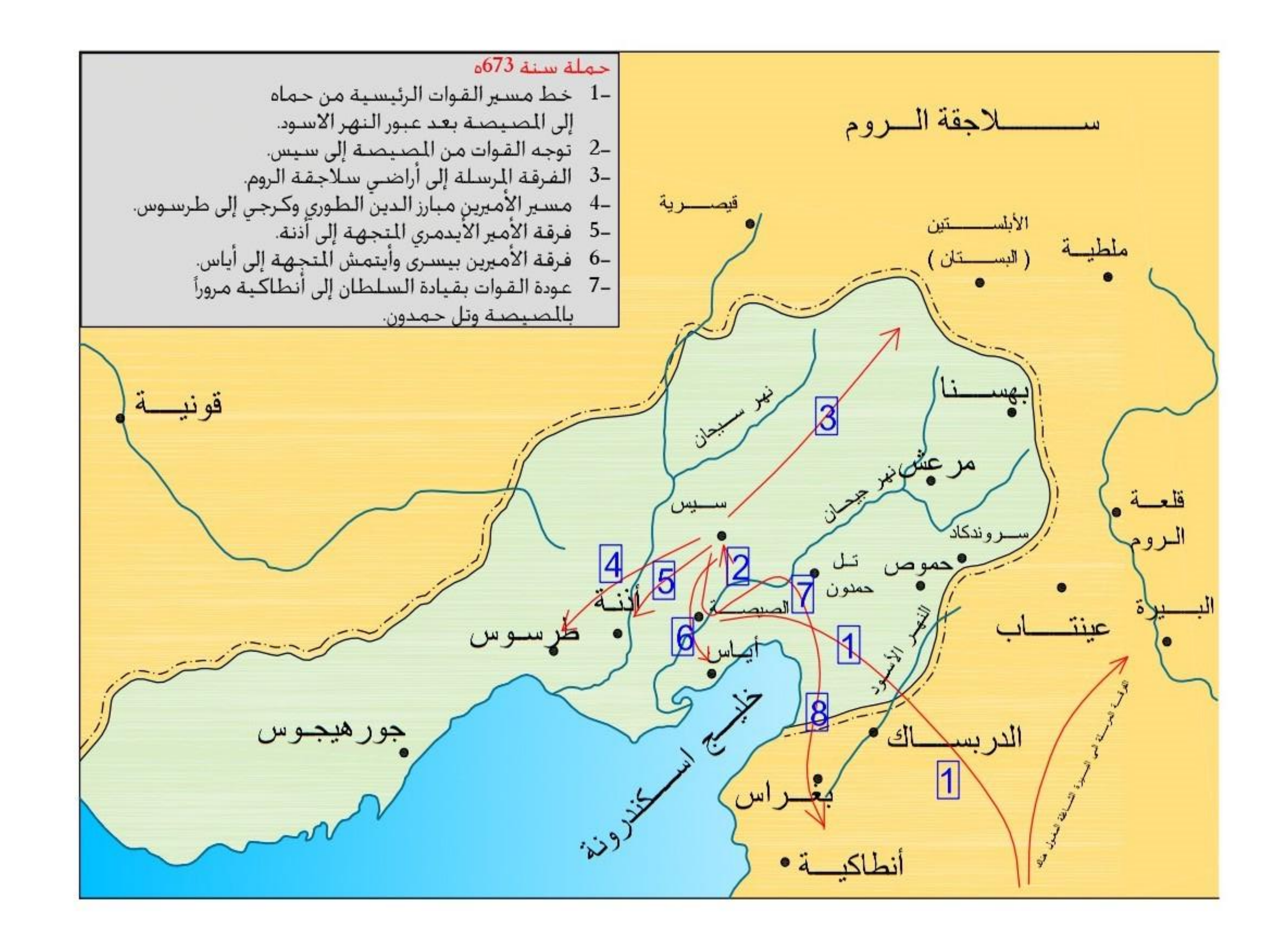
أما الملك ليون فقد لجأ إلى بعض القلاع التي كانت في مأمن من ضربات المماليك ومعه قوة صغيرة[2].

وصل الظاهر بيبرس دمشق في منتصف ذي الحجة ٦٧٣ هـ/١٢٧٥م ، وهكذا تكون الحملة قد استغرقت معه من خروجه حتى عودته قرابة ثلاثة أشهر، وهي حملة خاطفة وسريعة لكنها كانت مدمرة وأوضحت مدى عجز الأرمن والمغول في التصدي للمماليك.

---

[1] أفاضت المصادر في الحديث عن هذه الحملة، ومن أهمها: ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٤ – ٤٣٦، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٨٨/٣، النويري: نهاية الأرب، ٣٣٩/٣٠-٣٤٠. المقريزي: السلوك، ٦١٧/١-٦١٨، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص١٧٧، ابن أبي الفضل: النهج السديد، ٢/ ٢٢٦، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٣١ – ٢٣٢. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٠٦. البرزالي: المقتفي، ٣٢٥/١.

[2] ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص٨٠.



حملة سنة 673هـ
1- خط مسير القوات الرئيسية من حماه إلى المصيصة بعد عبور النهر الاسود.
2- توجه القوات من المصيصة إلى سيس.
3- الفرقة المرسلة إلى أراضي سلاجقة الروم.
4- مسير الأميرين مبارز الدين الطوري وكرجي إلى طرسوس.
5- فرقة الأمير الأيدمري المتجهة إلى أذنة.
6- فرقة الأميرين بيسرى وأيتمش المتجهة إلى أياس.
7- عودة القوات بقيادة السلطان إلى أنطاكية مروراً بالمصيصة وتل حمدون.
سلاجقة الروم
قيصرية
الأبلستين
(البستان)
ملطية
قونية
بهسنا
مرعش
نهر سيحان
نهر جيحان
سيس
سروندكاد
قلعة الروم
حموص
تل حمدون
أذنة
طرسوس
المصيصة
أياس
عينتاب
البيرة
النهر الأسود
الدربساك
بغراس
خليج اسكندرونة
جورهيجوس
أنطاكية
الفرقة المرسلة الى البيرة الشاغلة المغول هناك

٤- حملة الملك السعيد بركة خان على إرمينية الصغرى سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩ م:

توفي السلطان الظاهر بيبرس وخلفه في الحكم ابنه الملك السعيد بركة خان، وكان عهده الذي استمر سنتين وشهرين خلواً – إلى حدٍ ما – من إنجازات عسكرية، غير أنه سير في سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م حملة إلى قلعة الروم[١] وأخرى إلى سيس.[٢]

والسبب الرئيسي لهذه الحملة كما يذكر معظم المؤرخين هو محاولة السلطان التخلص من أمراء وقادة أبيه الذين كانوا نافذين جداً في شؤون الدولة، أما هو: فقد "مالت به الأهواء وتقلبت به الآراء، وقدم الأصاغر، وأقصى الأكابر، ... فكان يميل إلى أقرانه ومعاصري أسنانه، يسمع أقوالهم، ويبسط آمالهم ....، وحسنوا له إبعاد الأمراء الكبار، ....."،[٣] ونزولاً عند مشورتهم بدأ – أثناء وجوده في دمشق سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م – بتفريق العساكر للغارات، وكان "القصد بتفريقهم التمكن من التدبير عليهم"،[٤] والأمراء المعنيون بالأمر يعلمون بنوايا السلطان، لذا فقد ساروا "وفي نفوسهم من ذلك إحن".[٥]

فسيّر الأمير بدر الدين بيسرى إلى قلعة الروم في عشرة آلاف فارس يرافقه الأمير حسام الدين العينتابي على رأس عسكر الشام، وقبل البدء بالأعمال العسكرية حاولوا مفاوضة الجاثليق حاكم المدينة لتسليم القلعة مقابل الأمان غير أنه رفض التسليم، فاحتلوا المدينة، وظلوا فيها خمسة أيام ينهبون، ويحرقون ثم رحلوا عنها بعد أن عجزوا عن فتح القلعة.[٦]

---

[١] قلعة الروم قلعة صليبية أرمنية من أقوى القلاع التي بنيت في كونتيه الرها مطلع القرن ١٢م، وأصبحت فيما بعد تشكل أهم القلاع على الحدود الشرقية لمملكة إرمينية الصغرى، فهي تقع بالقرب من نهر الفرات على أنف جبل شديد الانحدار غربي الرها وشمال شرق عينتاب، كما تطل على مجرى نهر الفرات، في عام ١٢٩٢ استولى عليها الأشرف خليل وباتت تعرف باسم قلعة المسلمين، ظلت قائمة حتى عام ١٨٣٩م حيث قصفها ابراهيم باشا وهدم معظم منشآتها. انظر: الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ٩/ ٢٥٧.

[٢] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/١٠٨-١٠٩، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٦٦.

[٣] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ١٠٤.

[٤] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٩/١٠٩.النويري، نهاية الأرب، ٣٨٦/٣٠.

[٥] المقريزي: السلوك، ٦٥٠/١، النويري، نهاية الأرب، ٣٨٦/٣٠.

[٦] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٨ – ٣٣٩، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ٣٤٨/١، النويري: نهاية الأرب، ٣٨٥/٣٠، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٢٢٥، المقريزي: السلوك، ٦٥٢/١.

أردف السلطان القوة الموجودة مع بيسرى وحسام الدين العينتابي بفرقة على رأسها الأمير سيف الدين قلاوون، وأمرهم بالتوجه إلى سيس، فدخل الجميع أراضي إرمينية الصغرى وأقاموا فيها خمسة عشر يوماً، كسبوا فيها غنائم كثيرة، وقضوا عشرة أيام في عين زربة، فألحقوا بها وبأهلها أضراراً جسيمة، ثم عادوا.[1]

ولم تحقق هذه الحملة نتائج مهمة، وذلك أمر طبيعي، فهي لم ترسل بغرض الجهاد، كما أن القائمين على أمرها ساروا فيها على مضض، فاقتصرت آثارها على التدمير والتخريب ولم يفتحوا حصوناً ولا قلاعاً ولا مدناً.

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١ / ٢ / ص٣٤٨ – ٣٤٩ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٩، النويري: نهاية الأرب، ٣٨٥/٣٠. قرطاي الغري الخزنداري (ت بعد ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٩ م) : تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة المصرية، صيدا – بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ٤ / ٢٥٧.

ثالثاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور قلاوون:

١– معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م ودور الأرمن فيها:

تناول الفصل الأول الحديث بالتفصيل عن معركة حمص،[١] وقد كانت المشاركة الأرمنية فيها قوية، إذ بلغ تعداد الجيش المغولي فيها ثمانين ألفاً، منهم خمسون ألف مغولي والباقي أرمن وكُرُج وفرنج وروم (سلاحقة الروم).[٢]

كانت الفرقة الإرمينية تحت قيادة ملكهم ليون الثاني، وكان ليون هذا أحد قادة الميمنة المغولية التي كسرت الميسرة المملوكية،[٣] حتى أن بعض شهود المعركة يُرجع الفضل في كسرِ الميسرة المملوكية لليون الثاني ملك إرمينية،[٤] ولكن انتصاره لم يكتمل، إذ إنه بعد كسر الميمنة وملاحقتها إلى أبواب حمص عاد إلى ساحة المعركة ليجد نفسه منقطعاً ومعزولاً عن باقي الجيش المغولي الذي ولى الأدبار منهزماً، فكان عليه أن يجد طريقاً باتجاه الشمال إلى مملكته، وفي أثناء مسيره باتجاه الشمال وقع في كمين أعده له التركمان والأكراد بقيادة الأمير شجاع الدين السناني "فقتلهم وأسرهم عن آخرهم، بحيث لم يفلت منهم العشرين".[٥]

أعطى هذا الانتصار للمماليك فرصة طيبة للتحرك بحرية ضد الصليبيين والأرمن، لأنه أسكت الجبهة الشرقية وشغل المغول بإصلاح أحوالهم، إلا أن الصليبين تداركوا الموقف وسارعوا إلى عقد الاتفاقيات مع السلطان ولم يبق في الساحة إلا الأرمن، وقد امتلأت قلوب المماليك غيظاً عليهم، وتوافرت الظروف للانتقام منهم لدعمهم المغول، ولا سيما بعد أن تولى حكم مغول فارس في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٢م الخان أحمد تكودار، والذي أعلن إسلامه، وأرسل إلى السلطان قلاوون يعلمه برغبته في

---

[١] راجع الفصل الأول، معركة حمص ٦٨٠هـ.

[٢] المقريزي: السلوك، ٦٩٢/١، النويري: نهاية الأرب، ٣١/٣١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٢١٣.

[٣] دي كانسي: أخبار من سورية، ص ٢٥–٢٦. ابن العبري: تاريخ الزمان، ٣٤٢.

D'ohsson: Histoire des Mongols. P524.

[٤] دي كانسي: أخبار من سورية، ص ٢٧–٢٨.

[٥] المقريزي: السلوك، ٦٩٨/١.، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٢١/٧–٢٢٢. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٨.

ترك الخصومات القديمة مع المماليك،[1] وأعقب ذلك مشاكل داخلية عند المغول نتجت عن معارضة أرغون بن أبغا لعمه تكودار ومطالبته بالعرش.[2]

استغل المماليك الموقف الدولي؛ فرسم السلطان قلاوون في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م إلى نائب حلب شمس الدين قراسنقر بشن "الغارات إلى بلاد سيس نكاية في حق صاحبها ليفون، لما ارتكبه من العدوان على جامعها بالإحراق، وغير ذلك، فركب العسكر إليها ".[3]

وللغاية ذاتها جرد السلطان قلاوون عسكراً من مصر ودمشق للإغارة على إرمينية الصغرى في صفر ٦٨٢هـ/ أيار ١٢٨٣م فوصلوا إلى أياس، وهناك قتلوا جماعة من أهلها، ونهبوا، وخربوا، ثم غادروها وفي أثناء عودتهم اصطدموا بقوة من الجيش الأرمني على أبواب إسكندرونة، فانتصروا عليهم ولحقهم الجيش المملوكي إلى تل حمدون ونهر جيحان، ثم عادت العساكر المملوكية محملة بالغنائم.[4]

٢- الهدنة بين المماليك وإرمينية الصغرى سنة٦٨٤هـ/١٢٨٥م:

أمام الهزائم المتتالية أدرك الملك ليون الثاني عجزه على تحمل الهجوم أو العداء المملوكي بمفرده بعيداً عن المساعدة المغولية، والتي اتضح له أنها قد تكون مستحيلة في ظل الظروف التي كانت تمر بها الإيلخانية، ناهيك عن أن المملكة فقدت منذ سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م الغطاء أو الحماية الجزئية التي كانت توفرها لها إمارة أنطاكية الصليبية، ومن ناحية أخرى؛ اتضح أن السلطان قلاوون لن يتنازل أو يتراجع عن مشاريعه العسكرية التحريرية، لذا قرر الملك الأرمني أن يتفادى – ولو بشكل مؤقت – خطر المماليك، وأن يشتري ودهم ريثما تتعافى المملكة وحلفاؤها مما نزل بهم، وفعلاً تم التوصل – بعد وساطة مقدم

---

[1] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩/١٦٧.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/٢/٩٦. عباس اقبال: تاريخ المغول، ص٢٣٨-٢٤٢.

[3] وقد أحرق جامع حلب عندما دخلت القوات المغولية والأرمنية إليها في ٢٠ جمادى الآخرة ٦٧٩ هـ. انظر: المقريزي: السلوك،١/٦٨٢. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٠-٣١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٧٩/٩. النويري: نهاية الأرب، ٣٩/٣١. أما ابن أيبك فيقول إنهم أخذوا المنبر معهم إلى بلادهم، الدرة الزكية، ص٢٣٨. ولكن الذهبي يقول أنهم أحرقوه، تاريخ دول الإسلام، حوادث ٦٧١-٦٨٠، ص٥٠.

[4] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ١٧٩/٩-١٨٠.النويري: نهاية الأرب، ٣٩/٣١.المقريزي: السلوك، ٦١٧/١.ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٣٠ – ٣٢.

الداوية– إلى عقد هدنة بين الطرفين مدتها إحدى عشرة سنة تقريباً أولها يوم الخميس ٢ ربيع الآخر ٦٨٤هـ/٧ يونيو ١٢٨٥ م، نصت على أن تدفع مملكة إرمينية الصغرى للسلطنة المملوكية جزية سنوية مقدارها ألف ألف درهم من الفضة، كما تضمنت تسهيل حركة التجارة القادمة من مختلف الجهات إلى أراضي السلطنة المملوكية عن طريق أراضي إرمينية الصغرى، كما نصت على إطلاق سراح الأسرى من قبل الطرفين، وأن يعيد كل طرف من هرب إليه من الطرف الآخر، لكن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام، ونصت أيضاً على عدم السماح لهم ببناء قلاع جديدة، والتزام الحياد في الصراع المغولي المملوكي، وورد فيها أنه يحق للمماليك شراء الرقيق من كيليكيا، وعلى الملك ليون تأمين خمسين رأساً من الخيول والبغال وعشرة آلاف تطبيقة[١] حديد بمساميرها.[٢]

لقد كانت شروط الهدنة قاسية على الأرمن، ومربحة للمماليك، إذ حقق فيها السلطان بسهولة ما لا يمكن تحقيقه من خلال المعارك، وأهم بنودها تأمين الطرق التجارية، وضمان حيادية الأرمن في الحروب المملوكية – المغولية –الصليبية، ناهيك عن تأمين الحديد، والبغال، والخيول التي يحتاجها الجيش المملوكي في حروبه، بالإضافة إلى القطيعة السنوية، وقد علق ابن عبد الظاهر على هذه الهدنة بأنه "لو فتحت وعمرت سيس لما فضل عن كلفها هذا القدر".[٣]

انتهى حكم ليون الثاني بعقد هدنة مع المماليك، كما حدث من قبل مع والده هيثوم الأول، واعتلى العرش من بعده ابنه هيثوم الثاني (٦٨٨ – ٧٠١هـ/ ١٢٨٩ – ١٣٠٧ م) فاستقبل حكمه بسيطرة السلطان قلاوون على طرابلس، ولم يبق للصليبيين في المنطقة سوى عكا، فشعر الأرمن بالخطر، وازداد الخوف من أن يمتد نفوذ المماليك إلى الشمال، لذا أرسل الملك الجديد هيثوم الثاني وفداً إلى السلطان قلاوون وهو بطرابلس "يسألون مراحم السلطان، ويطلبون مراضيه"،[٤] فطالبهم بالاستمرار في تقديم القطيعة السنوية، كما طالب بتسليم بهسنا ومرعش.[٥]

---

[١] جمعها تطابيق، وهي لوح من الحديد أو النحاس، وهي حذو للخيل.

[٢] ورد نص الهدنة بالكامل عند ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٩٢ وما بعد.

[٣] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٩٣.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ١٦٣/٣١. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨١/٨.

[٥] النويري: نهاية الأرب، ٣١ /١٦٣، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨ /٨١.

ولقيت مطالب السلطان قلاوون قبولاً فيما يتعلق بالقطيعة، لكنهم اعتذروا عن تسليم مرعش وبهسنا متذرعين بخوفهم من المغول، وقدموا عوضهما مبلغاً كبيراً من المال؛ فقبل السلطان.[١]

وقعت كل من مرعش وبهسنا في شرقي كيليكيا، على طرق المواصلات والتجارة، وشكلتا مع عدد من القلاع، أهم الثغور بالنسبة لإرمينية الصغرى ، كما كانتا تتحكمان بطرق المواصلات القادمة من الشمال نحو بلاد الشام وبالعكس، وأيضاً بين المغول الايلخانيين والأرمن،[٢] لذا لم يكن المغول ولا الأرمن ليرضوا بسيطرة المماليك عليهما، لأن ذلك يعني ببساطة سيطرة المماليك على طرق المواصلات بين الإيلخانيين والأرمن، وحتى سلاجقة الروم، وبالتالي فقدان الممر الرئيسي الذي يربط الأرمن بحماتهم المغول، لذا فالرفض هو الجواب الطبيعي.

---

[١] مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ٥٣١/٢، النويري: نهاية الأرب، ١٦٣/٣١، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٩٩، المقريزي: السلوك، ٧٤٨/١.

[2] Stewart Angus: The Assassination of king Hetum II: The Conversion of The Likens and The Armenias، in JRAS, series 3,15,I, (April،2005) P.47

كان هناك عدد من الطرق التجارية تمر عبر كيليكيا، أولها طريق من بلاد الشام عابراً البلاد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي باتجاه القسطنطينية، ويتقاطع معه طريق آخر قادم من منتصف مجرى الفرات الأعلى عبر مرعش، وهناك طريق ثالث بدأ يعمل منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي و ينطلق من ميناء أياس باتجاه طرابزون على البحر الأسود أو باتجاه سيواس أو تبريز ومن هناك إلى آسيا الوسطى والصين. انظر:

Mutafian Claude: Le Royaume armenien de cilicie XIIe – XIVe Sie'cle. Paris، CNRS editions. 2001, P.119.

رابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الأشرف خليل:

تقلد الأشرف خليل الحُكم بعد والده في ذي القعدة ٦٨٩هـ/ تشرين الثاني ١٢٩٠م،[١] وفي مطلع عهده تمكن من تحرير عكا في ١٧ جمادى الآخرة / ١٨ مايو ١٢٩١م وبذلك فقدت إرمينية الصغرى حلفاءها في بلاد الشام، وأصبح الأرمن وجهاً لوجه مع المماليك، فبمجرد سقوط عكا وتوابعها أرسل الأشرف خليل إلى الملك هيثوم الثاني يخبره بفتح عكا وتوابعها، ومذكراً إياه بقوة المماليك، كما يخبره بضرورة الالتزام بدفع القطيعة المقررة عليه – إذ يبدو من الرسالة أن الأرمن توقفوا عن دفع القطيعة سنتين– والحضور لمقابلته، وإلا سيلقى المصير نفسه الذي لقيه أهل عكا.[٢]

١- فتح قلعة الروم سنة٦٩١هـ/ ١٢٩٢ م:

أدرك الملك الأرمني هيثوم الثاني مدى ازدياد الخطر المملوكي عليه بعد تخلصهم من صليبيي الشام، لذا أرسل إلى البابا نيقولا الرابع (٦٨٧ – ٦٩١هـ/ ١٢٨٨ – ١٢٩٢م) بعد سقوط عكا يطلب المساعدة، ويبدو أن البابا حاول إثارة الرأي العام بهذا الموضوع، وأوعز إلى الداوية والاسبتارية بمساعدة الأرمن،[٣] لكن دون جدوى.

وبالنسبة للمماليك؛ فبعد تنظيف الساحل الشامي من الصليبيين، وبعد الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة هذا الأمر، خطب الخليفة العباسي في القاهرة خطبة بليغة حث فيها على الجهاد وأمر بالنفير،[٤] ويبدو أن الخطبة أثرت بالسلطان مما جعله يقرر المسير إلى بلاد الشام استعداداً لمهاجمة قلعة الروم، فكتب إلى نائب حلب وإلى نائب دمشق بالاستعداد لحصارها.[٥]

---

[١] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/١٣٦. ابن أيبك: الدرة الزكية، ٣٠٣. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٩١.

[٢] ابن أيبك: الدرة الزكية، ٣٢٠ – ٣٢١. زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك في مصر والشام، ليدن، ١٩١٩م، ص٨.

[3] Luttrel، A.T.: " The Hospitallers Interventions in The Cilician Armenia: 1291 – 1375، in the Cilician kingdom of Armenia، edited by T.S.R Boase، Edinburgh & London، Scottish Academic Press. 1978. P 121.

[٤] ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، ليدن، ١٩٠٢م، ص ٦-١٤. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ١/١١٦. البرزالي: المقتفي، ٢/٢٧٣. النويري: نهاية الأرب، ٣١/٢٢٥.

[٥] العيني: عقد الجمان، ٣/١١٠-١١١.

والسؤال هنا لماذا اختار المماليك في هجومهم هذا قلعة الروم بالذات.؟

تأتي عملية الاستيلاء على قلعة الروم ضمن خطة المماليك في توسيع حدودهم شمالاً وحمايتها، وضمن هذا الإطار وجب عليهم السيطرة على قلعة الروم أكثر القلاع والثغور الإرمينية خطراً على الحدود الشمالية للسلطنة، فقد اتخذها المغول والأرمن قاعدة لشن هجماتهم على نيابة حلب ولقطع الطريق على المسلمين وعابري السبيل المترددين من تحتها،[1] حيث كان للمغول مجموعة من العسكر مستنفرين فيها،[2] ناهيك عن أنه لم يبق في أطراف المملكة شيء خارج عن يد السلطان سواها،[3] كما كانت مقراً لجاثليق الأرمن،[4] وعن المشاكل التي كانت تثيرها هذه القلعة لسلطنة المماليك يكفي بأن نذكر بما قاله عنها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي – الذي كان له النصيب الأوفر في تحريرها – قال: "كانت هذه القلعة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق، والغلة في الصدر، والخسوف الطارئ على طلعة البدر، لا تخلو من غل تضمره، في لين تظهره، وغدر تستره، في عذر توරده وتصدره، وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار، وموادعة التتار، وممالاتهم على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى في الزي والحال، يمدنوهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهم على عورات الأطراف، وهم يتقون بمسالمة الأيام، ويدّعون أن قلعتهم لم تزل من الحوادث في زمام ويغترون بها ....، وهو حصن صاعد،... لا يطأ إليه السالك إلا على المحاجر، ولا تنظره العيون حتى تبلغ القلوب الحناجر".[5]

سار السلطان خارجاً من مصر إلى الشام على رأس العسكر المصري في ٨ ربيع الآخر / ٢٨ آذار، فوصل إلى دمشق في ٦ جمادى الأولى، ثم غادرها في ١٦ جمادى الأولى باتجاه حلب بعد أن

---

[1] بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٣٠، زبدة الفكرة، ٢٣٥/٩. سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص٤٩.

[2] العيني: عقد الجمان: ١١٠/٣.

[3] بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٣٠، العيني: عقد الجمان، ١١١/٣.

[4] المقريزي: السلوك، ٧٧٨/١. أبو الفداء: المختصر، ٣٦٢/٢.

[5] ابن الجزري (محمد بن ابراهيم، ت: ٦٩٩ هـ) ، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تح:عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ١٠٦/١. النويري: نهاية الأرب، ٢٣٤/٣١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١/ ١٣٩ – ١٤٠.

اجتمعت عنده العساكر المصرية والشامية، فوصل حلب في ٢٨ جمادى الأولى، ومنها خرج باتجاه قلعة الروم في ٤ جمادى الآخرة فوصلها في يوم الثلاثاء ٨ جمادى الآخرة وفيها وقع الحصار على القلعة.[١]

تطلّب الاستيلاء على القلعة استعدادات ضخمة، لأنها "من أحصن القلاع وأعظمها في الارتفاع والامتناع، ولا يتوصل إليها إلا من طريق صعبة المرتقى كثيرة العقاب والصوى، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلاً لوعورة مسالكها وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات يجري من تحتها، ولا منزلة لمن ينازلها إلا في لحفها"،[٢] لذا فقد ضمت الحملة أكثر من أربعين منجنيقاً،[٣] ومجموعة من النقابين والزراقين والحجارين والجَرَخيّة[٤] والعُدد الوافرة وآلات الحرب،[٥] فنزلت عليها العساكر، "واكتظ الزحام، وتضايقت الخيام، وشرع في الحصار، ورمي بالحجار، والاهتمام بالنقوب، والاجتهاد بالأبدان والقلوب".[٦]

استمر الحصار ثلاثة وثلاثين يوماً،[٧] يذكر العيني أن القوات المملوكية في أول عشرين يوم لم تنل من القلعة شيئاً، ثم أجمعوا على نقب أسوار الحصن لكنهم أخفقوا أيضاً بسبب صلابة أحجارها،[٨]

---

(١) ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٢٣. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣٨٧/٢-٣٨٨. العيني: عقد الجمان، ١١٢/٣-١١٣. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٤١/٨. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ١٠١/١.

(٢) ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٢٣.

(٣) الجزري: تاريخ حوادث الزمان،١٠٩/١. أما النويري فذكر أن المجانيق كانت عشرين فقط، نهاية الأرب، ٢٢٦/٣١. في حين يحصيها ابن ابي الفضائل ب ٤٤ منجنيق، النهج السديد، ٢/ ٣٨٩. أما العيني فذكر أن عددها كان ٢٣منجنيق، عقد الجمان، ٣/ ١١٣.

(٤) الجرخ نوع من القوس الرامي الذي يرمي النفوط والسهم، والجمع جرخية، ويصنع من العظم. رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ١-٨ ترجمة محمد النعيمي، ٩-١٠ ترجمة جمال الخياط، وزارة الثقافة، العراق، ١٩٧٩-٢٠٠٠م، ١٧٤/٢. محمد نغش: الرسائل الحربية في عصر الدولة الأيوبية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد ٥٧، ص١٣٨.

(٥) البرزالي: المقتفي، ٢ /٢٧٦. بيبرس: الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٢٣٦.

(٦) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٢٣٦/٩.

(٧) البرزالي: المقتفي، ٢ /٢٧٦. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣٨٩/٢. المقريزي: السلوك، ٧٧٨/١.

(٨) العيني: عقد الجمان، ١١٣/٣.

وأخيراً تمكنوا من دخولها بعدما تحيل الأمير سنجر الشجاعي في عمل سلسلة علقها على أسوار الحصن، وطرفها في الأرض، فكان الجند يتمسكون بها ويصعدون فيها حتى تمكنوا من دخول القلعة.[١]

أما الأرمن فقد سارع هيثوم الثاني بطلب النجدات من حلفائه المغول، لكنهم لم يتمكنوا من إنقاذه؛ لأن القوات – على قول رشيد الدين – وصلت بعد فوات الأوان، أما بيبرس الدوادار فذكر أنها وصلت قبل فتح القلعة، لكنها اضطرت للعودة بعد أن أدركت أنه لا قِبَلَ لها بمواجهة الجيش المملوكي.[٢]

سقطت قلعة الروم يوم السبت ١١ رجب ٦٩١هـ/ ١٦ يونيو ١٢٩٢ م، وعلى قول معظم المؤرخين، فإن المماليك استباحوها؛ فقتلوا من بها من المقاتلة، وسبيت النساء، واقتادوا عدداً كبيراً من الأسرى، أما أبو الفداء فذكر– وكان مشاركاً في عملية الفتح – أن الأرمن طلبوا الأمان قُبيل فتح القلعة، فأُمنوا على أرواحهم فقط؛ وعلى أن يكونوا أسرى، ولم يأت على ذكر عمليات القتل.[٣]

بعد تحريرها أمر السلطان بتغيير اسمها لتصبح قلعة المسلمين، وكلّف الأمير الشجاعي نائب دمشق بعمارتها، وتحصين قلعتها، وترتيب ما يعود على مصلحتها،[٤] فأصبحت القلعة بعد ذلك مركزاً متقدماً لرصد تحركات المغول والأرمن وأيضا للتحرك ضدهم.

جدد فتح قلعة الروم الآمال عند المماليك بالتخلص من إرمينية الصغرى؛ لا بل حتى من المغول، وبدا ذلك واضحاً في رسائل الأشرف خليل، ومنها تلك التي أرسلها إلى قاضي قضاة دمشق يخبره بما فتح الله عليه، وأن باب الفرات فُتح "بكسر أقفال هذه القلعة ... وما يكون بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق ..."،[٥] أما المغول فقد تخوفوا من هذا الفتح، لذا أرسل كيخاتو

---

[١] النويري: نهاية الأرب، ٢٢٦/٣١، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ٢٣٦/٩. المقريزي: السلوك، ٧٧٨/١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ١٣٦/٨.

[٢] رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢ /١٧٨/٢ — ١٧٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٣٧/٩.

[٣] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٦٣.

[٤] ابن أبيك: الدرة الزكية، ص٣٢٣. البرزالي: المقتفي، ٢٨٢/٢. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٣٦/٩. أبو الفداء: المختصر، ٣٦٣/٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٦٦. المقريزي: السلوك، ٧٧٨/١.

[٥] النويري: نهاية الأرب، ٣١/ ٢٣١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/ ١٣٨.

خان مغول فارس إلى الأشرف خليل وفداً يحمل رسالة تهدد المماليك بأخذ حلب، فرد عليه الأشرف بأنه سيأخذ منه بغداد.[1]

٢- الهدنة بين الأرمن والمماليك سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م:

كان على السلطان أن يستثمر هذا الانتصار، ويغتنم الفرص بعد أن خسر الأرمن أقوى قلاعهم الشرقية، والتي تقع على طرق المواصلات بينهم وبين المغول، كما أنها تقع على الطريق الداخل إلى بلاد الشام، وبالتالي لا بد من الاستيلاء على باقي القلاع، ولاسيما بهسنا التي كانت لا تقل أهمية عن قلعة الروم، والتي ما برح المماليك يطالبون بها.

وواتته الفرصة عندما قَدِمَت الرسائل من نائب حلب تفيد بهجوم الأرمن على بعض التجار، وأخذ أموالهم وأسرهم، وأنه حينما تمت المطالبة بهم أنكر الأرمن وجودهم عندهم،[2] لذا خرج السلطان الأشرف من مصر إلى دمشق، فوصلها في ٩ جمادى الآخرة سنة ٦٩٢هـ/١٧ أيار١٢٩٣م، وأمر بتجهيز العساكر لغزو إرمينية الصغرى،[3] غير أن الملك الأرمني تدارك الموقف وأرسل رسله على عجل إلى دمشق "يسألون مراحم السلطان وعواطفه، ويبذلون له الرغائب"،[4] وقد قبل السلطان التراجع عن حملته مقابل تسليم الأرمن لقلاع: بهسنا، ومرعش، وتل حمدون، وبالفعل نزل الأرمن عند رغبة السلطان، وسلموه القلاع المذكورة، والتي تسلمها هو الأمير سيف الدين طوغان والي دمشق.[5]

رضي الأرمن بالتخلي عن بهسنا بعدما رفضوا ذلك من قبل؛ لأن الموقف تغير بعد سقوط قلعة الروم، وبات سقوط بهسنا أمراً وشيكاً، لذا دفعوا أذى المماليك عن أنفسهم، ووفروا على أنفسهم الأرواح

---

[1] المقريزي: السلوك، ٧٨٦/١.

[2] العيني: عقد الجمان، ٣/ ١٤٩.

[3] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٤٠، المقريزي: السلوك، ١/ ٧٨٤، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٥٧.

[4] النويري: نهاية الأرب، ٢٤٩/١.

[5] ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨/ ١٥٥-١٥٦.، النويري: نهاية الأرب، ٥٢٠/٣١.، المقريزي: السلوك، ١/ ٧٨٤، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ١/ ١٤٩ — ١٥٠.

والخراب، أما بالنسبة للمسلمين فإن فتح بهسنا كان له صدى كبير لأنها من "أحسن قلاعهم وأحصنها، وبها ضياع كثيرة تزرع، وهي في فم الدربند وباب حلب".[1]

❖ الأوضاع في سلطنة المماليك ومملكة إرمينية الصغرى:

اغتيل السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م،[2] ودخلت البلاد من بعده في فوضى سياسية – أُشير إليها سالفاً – ولكن هنا يمكن تسجيل النقاط التالية كمؤشر على التخبط الذي مرت به السلطنة:

فبعد صراع طويل تعددت أطرافه، تم تنصيب الناصر محمد بن قلاوون ابن التسع سنوات سلطاناً على البلاد في ١٦ محرم ٦٩٣ هـ/كانون الأول ١٢٩٣م،[3] إلا أن سلطنته لم تستمر أكثر من عام، فقد عُزل في ١١ محرم ٦٩٤ هـ/كانون الأول ١٢٩٤م،[4] واعتلى العرش مكانه الأمير زين الدين كتبغا المنصوري؛ الذي كان نائب السلطنة، واستمر في حكمه حتى عزله نائب السلطنة حسام الدين لاجين المنصوري وتسلطن مكانه في ١٧ محرم ٦٩٦هـ/ تشرين الثاني ١٢٩٦م، استمر في سلطنته حتى ربيع الآخر ٦٩٨هـ/ آذار ١٢٩٩م حيث قُتل، وأعيد مكانه الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً للمرة الثانية.[5]

أما في إرمينية الصغرى، فلم تكن الحال أفضل من سلطنة المماليك، بل كانت الصراعات السياسية على أشدها، ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

---

[1] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٥٧ – ٥٥٨. ابن خلدون: العبر، ٥/٧٨٢-٧٨٣.

[2] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٦٧. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص٣٤٥ ومابعد.

[3] النويري: نهاية الأرب، ٣١ / ٢٦٧. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٦٩. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص٩٨.

[4] النويري: نهاية الأرب ٣١/ ٢٨١. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ١٧٥. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٠١.

[5] النويري: نهاية الأرب، ٣١ / ٢٨٢، ٣١١ - ٣١٢، ٣٥٧، ٣٧٠، المقريزي: السلوك، ١ / ٨٠٦، ٨١٩ – ٨٢٠، ٨٦٥، ٨٧٢. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/١٧٨، ١٩٣- ١٩٤، ٢١٢. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٤، ١٠١، ١١٠.

كان الملك ليون الثاني قد توفي سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، وخلف أربعة أولاد هم: هيثوم الثاني، وطوروس، وسمباط، وقسطنطين، فآل الحكم إلى هيثوم الثاني، وعلى إثر سقوط قلعة الروم على يد الأشرف خليل عام ١٢٩٢م، تنازل هيثوم الثاني عن الحكم لأخيه طوروس؛ واعتزل في أحد الأديرة.

نتيجة لسوء الأوضاع؛ وبعد إلحاح من طوروس نفسه، وبقية الأمراء الأرمن؛ عاد هيثوم الثاني إلى الحكم، وبدأ يعمل بجد لإعادة تقوية المملكة، فتطلب الأمر القيام بزيارة لخان المغول، كما قام بزيارة إلى الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، وكان سبب الزيارة الأخيرة؛ هو أن ميخائيل باليولوجس الوصي على عرش الإمبراطورية تقدم للزواج من ريتا أخت هيثوم الثاني، فوجد هذا الأخير أن الفرصة مناسبة لتقوية العلاقات مع البيزنطيين، فقام بزيارتهم سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م.

أثناء غياب هيثوم الثاني في القسطنطينية، قام أخوه سمباط بالتمرد واعتلى عرش المملكة، وقام بقتل أخيه طوروس، ولما عاد هيثوم الثاني من القسطنطينية قبض عليه، وسمل إحدى عينيه وأودعه السجن.[١]

في أيام سمباط هذا أرسل المماليك حملة –سيتم الحديث عنها –، وعلى إثر إخفاق الملك سمباط في التصدي لها، وأثناء وجودها في إرمينية الصغرى، قام أخوه قسطنطين بعزله واعتلاء العرش مكانه، ثم دخل في مفاوضات مع المماليك لإجلاء قواتهم عن إرمينية الصغرى.[٢]

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٣٧-٢٣٩. سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص ١٦٨.

خامساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور لاجين.

١- الحملة على إرمينية الصغرى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨ م:

في عهد السلطان المنصور لاجين (٦٩٦ – ٦٩٨هـ/ ١٢٩٦ – ١٢٩٨م) خرجت حملة عسكرية إلى إرمينية الصغرى، وقد ضمت عدداً كبيراً من الأمراء، أشهرهم الأمير بدر الدين بكتاش المعروف بأمير سلاح؛ وكان هو مقدم الحملة، والأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة في دمشق، والأمير ألبكي الظاهري نائب صفد، والملك محمود صاحب حماه، وعندما وصلت الحملة إلى حلب أدركها الأمير سنجر الدواداري أحد مقدمي العساكر المصرية قادماً من مصر؛ فالتحق بها،[١] ووصلت الحملة إلى كيليكيا في رجب من ذلك العام بعد أن توقفت مرتين، في دمشق ثم في حلب.[٢]

أما عن سبب هذه الحملة، فذكر المقريزي أن اضطراب الأوضاع عند المغول الايلخانيين شجع السلطنة "على أخذ سيس ما دام الخلف بين المغول"،[٣] في حين يذكر بعض المؤرخين أن منكوتمر نائب السلطان لاجين – هو مصدر القلاقل والفتن، والذي كان السبب في قتل السلطان – قد حسّن للسلطان تجريد العساكر إلى سيس،[٤] سعياً منه للتخلص من الأمراء وإبعادهم عن القاهرة.[٥]

ويمكن تسجيل أمر آخر كان محفزاً للمماليك للقيام بعمل عسكري ضد إرمينية الصغرى، ألا وهو التحركات الدبلوماسية التي قام بها هيثوم الثاني مع المغول والبيزنطيين في محاولة لتقوية المملكة بالتحالف معهم، كما أنه كان قد أرسل إلى إدوارد ملك إنكلترا أكثر من مرة يُطلعه على أحوال المملكة السيئة ويطلب المساعدة،[٦] وبما أن هناك حالة من الفوضى السياسية تسيطر على الوضع في إرمينية الصغرى، وجد السلطان لاجين أن الوضع مناسب لتسديد الضربة لها.

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٢، وكان قد شارك في هذه الحملة، النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٣٣٧ – ٣٣٨. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ١/ ٢٠٢.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ٣١ / ٣٣٧ – ٣٣٨، المقريزي: السلوك، ١ /٨٣٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ١ /٨٣٧. العيني: عقد الجمان، ٣/ ٣٨٦.

[٤] بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٦. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٤٣٧.

[٥] تناول الفصل الثاني الحديث عن الخلافات بين الأمراء والسلطان لاجين بسبب نائبه المسيطر على الحكم، وكيف أدى ذلك إلى عزله وقتله.

[٦]هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٠٠.

انطلقت الحملة من حلب باتجاه الشمال الغربي، فلما نزلت العمق افترقت إلى فرقتين، إحداهما كانت بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش؛ وقد توجهت من بغراس – أحد الممرات الجبلية – إلى باب إسكندرونة حيث نازلوا تل حمدون، والثانية توجهت إلى نهر جيحان وكانت بقيادة الملك المظفر صاحب حماة، وكان دخولهم جميعاً إلى دربند سيس في يوم الخميس ٤ رجب ٦٩٧هـ/ ١٧ نيسان ١٢٩٨ م.[١]

داخل أراضي إرمينية الصغرى وقع القادة العسكريون في خلاف حول طبيعة الأعمال العسكرية التي سيجري تنفيذها في أراضي الأرمن، فكان هناك رأي يقول بحصار القلاع وفتحها، ويمثله الأمير بكتاش، في حين عارضه الأمير سنجر الدواداري وطالب بالإغارة فقط، وادعى لنفسه القيادة على الجيوش كلها.[٢]

نزل الأمير بكتاش أمام رغبة الدواداري ولم يشأ خلق منازعات وانشقاقات تُربك الحملة، وتنفيذاً لرغبة الدواداري قام الملك المظفر صاحب حماه والدواداري بالإغارة على مدينة سيس، وأغار الأمير بكتاش على عين زربة، ثم اجتمعت الطائفتان على أذنة، وبعد أن قتلوا من ظفروا به من الأرمن وأخذوا الغنائم عادوا عن طريق أذنة ثم المصيصة ثم بغراس إلى مرج أنطاكية ومن هناك إلى جسر الحديد بأرض الروج[٣] يريدون العودة إلى مصر،[٤] لكن هذا لم يحصل، لأن الأمير بكتاش كان قد كتب قبل ذلك إلى الأمير بلبان الطباخي نائب حلب يُخبره بأمر الدواداري، وكيف نازعه في التقدمة على العسكر، وفَرَضَ رأيه بالاقتصار على الغارات، وفي الرسالة طلب بكتاش من نائب حلب أن يُخبر السلطان بذلك، وفعلاً تم ذلك، ففي أثناء وجود العساكر بأرض الروج يريدون العودة إلى مصر جاء رد السلطان: " بالإنكار على الدواداري في تَقَدُمِهِ على الأمير بكتاش، وكونه اقتصر على الغارة، ... وأن التَقْدِمة على

---

[١] النويري: نهاية الأرب، ٣١ / ٣٣٨. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٢. المقريزي: السلوك، ١/ ٨٣٨.

Howorth: History of the Mangols، Part III، P. 430.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٣٣٩، المقريزي: السلوك، ١ / ٨٣٨ – ٨٣٩

Howorth: History of the Mangols، Part III، P. 431 - 432.

[٣] الروج قرية غرب حلب، بينها وبين معرة النعمان، ياقوت، معجم البلدان. مادة الروج.

[٤] أبو الفداء: المختصر، ٣٧٢/٢. المقريزي: السلوك، ١ /٨٣٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٦٩. النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٣٣٩ – ٣٤٠ (ويذكر عين زربة باسم ناورزه).

سائر العسكر للأمير بكتاش، وأن العساكر لا ترجع إلا بعد فتح تل حمدون – وعلى ما يبدو فإن الأرمن أعادوا احتلالها مع بهسنا –، وإن عادوا من غير فتحها فلا إقطاع لهم بالديار المصرية".[1]

وبذلك تقرر على الحملة العودة مرة أخرى إلى كيليكيا لتستأنف نشاطها وفق الخطة التي طرحها بكتاش مسبقاً، وهي منازلة القلاع وتحريرها، فعرجت من الروج إلى حلب حيث أقامت بها ثمانية أيام تزودت خلالها بما تحتاجه، ثم عادت الحملة في ٣ رمضان/ ٢٠ حزيران ودخلت كيليكيا مجدداً من ممر بغراس.[2]

تحدث أبو الفداء — وكان مشاركاً في الحملة — أنه نزل في ٩ رمضان على قلعة حموص مع بدر الدين بكتاش والمظفر صاحب حماه،[3] في حين جُردت فرقة إلى أياس لمحاصرتها بقيادة الأمير كجكن والأمير بهاء الدين قرا أرسلان، إلا أن الفرقة تعرضت لهزيمة على يد فرق من الأرمن كمنت لهما في البساتين، بالمقابل تسلم الأمير بكتاش تل حمدون في ٧ رمضان / ١٨ حزيران بعد أن وجدها خالية من أهلها الذين نزحوا إلى قلعة نجيمة[4] بينما كانت هناك قوات مرسلة من نائب حلب الطباخي إلى مرعش تمكنت من السيطرة عليها في ١٠ رمضان / ٢١ حزيران.[5]

وأثناء وجود الجيش في كيليكيا وصل كتاب آخر من السلطان لاجين، تضمن أنه علم بأمر تل حمدون التي أُخذت من دون قتال، وانتقل من بها إلى قلعة نجيمة، لذا أمرهم بمنازلة قلعة نجيمة إلى أن تُفتح، فعاد المماليك إلى قلعة نجيمة — وكانوا قد حاصروها قبل ذلك — وفرضوا عليها حصاراً عنيفاً دام

---

[1] المقريزي: السلوك، ١ /٨٣٩.

[2] النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٣٤٠. أبو الفداء: المختصر، ٣٧٢/٢.

[3] أبو الفداء: المختصر، ٣٧٢/٢-٣٧٣.

[4] تعرف أيضا باسم قلعة نجم أو نجمة، وهي إلى الجنوب من نهر جيحون بقدر مرحلة، وشرق سيس بقدر مرحلتين، وإلى الشرق من نجيمة يقع حصن حموص. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩-٢٥٠. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١/ ٢/ ص٤٧٣.

[5] النويري: نهاية الأرب، ٣١ / ٣٤٠، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، طبعة المجمع الثقافي، الإمارات، ط١، ٢٠٠٧م، (السنوات ٦٩٧-٧١١هـ)، تح: حمزة عباس، ١ / ١٣-١٤.المقريزي: السلوك، ٨٣٩/١. البرزالي: المقتفي، ٥٥٣/٢. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٠٦. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ٣٩١/١.

واحداً وأربعين يوماً إلى أن طلبت حاميتها الأمان والاستسلام فأمنت، وسقطت القلعة بيد المماليك في ذي القعدة ٦٩٧ هجري / آب ١٢٩٨م.[١]

كان هناك قسم من الجيش منازلاً لقلعة حموص، وعلى وصف أبي الفداء – الذي كان مشاركاً في حصارها مع العسكر الحموي – اجتمع فيها خلق كثير من الأرمن، ولما اشتد الحال عليهم، تقدم ملكهم قسطنطين– بعد أن عزل أخوه سمباط — بطلب الصلح، وقدَّم نفسه على أنه نائب السلطان في كيليكيا، فتقرر الصلح أن يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والأرمن، وأن يُسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد للمماليك،[٢] وبلغ عدد الحصون جنوب نهر جيحان حوالي أحد عشر حصناً، أهمها حموص، وتل حمدون، والنقير، وكويرا، وحجر شغلان، ومرعش، وسرفندكار، وعلق أبو الفداء أنها "حصون منيعة لا ترام" ،ويؤكد ابن الجزري بأنها "في غاية ما يكون من الشدة والحصانة"، وعلى خلاف ما ورد عند أبي الفداء وابن الجزري؛ ذكر بيبرس المنصوري وابن أبي الفضائل أنها " قُليعات لطيفة لا تفي ببعض ما كان مقرراً على صاحب سيس، فان الذي كان مقرراً عليه في كل سنة خمس مائة ألف درهم فضة حجراً، وعدة من البغال وتطابيق البغال، وغير ذلك مما كان يحمل من جهته، وكان تحت الذمة ويبذل الطاعة والخدمة، فلما فتحوا هذه الأماكن الحقيرة قطع ذلك المقرر".[٣]

سُلمت قيادة هذه الحصون إلى الأمير أسندمر الكرجي أحد أمراء دمشق، وعين نائباً عليها، واستمر فيها حتى مسير غازان باتجاه الشام سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠م، فتركها وعادت إلى الأرمن،[٤] وبالتالي فان الفائدة بالنسبة للمماليك من هذه الحملة لم تكن ذات قيمة.

---

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، طبعة الإمارات، ١/ ١٥، النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٣٤٠ — ٣٤١، المقريزي: السلوك، ١ /٨٣٩ — ٨٤١.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٣–٣٧٤، المقريزي: السلوك، ١/٨٤١.

[٣] أبو الفداء: المختصر،٢/ ٣٧٤، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ١ / ٣٩٢، ابن ابي الفضائل، النهج السديد، ٤٣٨/٢ — ٤٣٩. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٦.

[٤] المقريزي: السلوك، ١/ ٨٤١، ٨٨٦، أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٧٤. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٦.

سادساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الناصر محمد.

١- دور الأرمن في حملات غازان على بلاد الشام:

استقبل الناصر محمد بن قلاوون ولايته الثانية بهجوم كاسح قاده غازان خان مغول فارس على بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، كان من نتيجته انهزام المماليك في معركة وادي الخزندار – المتقدم ذكرها – على مقربة من سلمية بين حماة وحمص، وعلى إثرها دخل المغول دمشق واستباحوها.[١]

لقد كان للأرمن حضور قوي في هذا الهجوم، حتى أن المؤرخ الأرمني المجهول الذي أكمل تاريخ سمباط ذكر بأن غازان قَدِم إلى بلاد الشام واجتاحها بتأثير من هيثوم الثاني،[٢] الذي شارك في هذه الحملة بخمسة آلاف فارس كان هو على رأسها،[٣] وبعد رحيل غازان عن دمشق انطلق المغول والأرمن ينهبون ويخربون، فنهبوا الصالحية، وسبب نهبها على ما يقول العيني والمقريزي أن: صاحب سيس كان في قلبه حزازات من فعل المسلمين في بلاده....، ولما اتفق من نصرة غازان ما اتفق، حضر صاحب سيس أمام غازان، وسأله أن يُمكنه من الدخول من الباب الشرقي والخروج من باب الجابية، ويضع السيف بين البابين ويشتفي من المسلمين، ويقيم بألف ألف دينار، فوقف قفجق – أحد أمراء المماليك الذين فروا من حكم لاجين ولجأوا إلى غازان، وحسنوا له غزو بلاد الشام، فلما غزاها عينه نائباً عنه فيها–[٤] في طريقه، ولم يُمكنه من المدينة، فرسم له (أي غازان) بالصالحية، فتسلمها متملك سيس، وفعل فيها ما ذُكر سالفاً، فبلغ عدد من قتل وأسر منها تسعة آلاف وتسعمائة نفس.[٥]

أيضاً أتاحت حملة غازان للأرمن استعادة الحصون والقلاع التي حررها المماليك على إثر حملة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م، والتي تقع جنوب نهر جيحون وعددها أحد عشر حصناً.[٦]

---

[١] انظر الفصل الثاني، معركة وادي الخزندار.

[2] Le Connetable Sempad Chronique du Royaume de la petite Armenie. Ed.R.H.C. - Doc.Arm.I، Paris، 1869 – 1906،p.657.

[٣] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٩٠.

[٤] بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠٧، ١١٤.

[٥] المقريزي: السلوك، ١/ ٨٩٢. العيني: عقد الجمان، ٤/ ٤٨.

[٦] المقريزي: السلوك، ١/ ٩٠٢. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٨٣-٣٨٤.

Le Connetable Sempad: P.656 – 657

رحل غازان عن بلاد الشام في ٢٣ جمادى الأولى ٦٩٩هـ/ ١٤ شباط ١٣٠٠ م، وترك قسماً من الجيش بقيادة قطلوشاه وسرعان ما لحق به قطلوشاه، وبقي في بلاد الشام نائبه الأمير قبجق الذي خلع غازان وأعلن الطاعة للسلطان الناصر محمد، وعندما علم غازان بذلك غضب وقاد جيوشه عائداً إلى بلاد الشام حيث عبر نهر الفرات في شتاء ٧٠٠هـ/ ١٣٠١ م، وبعد غارات نفذها في نواحي حلب، اضطر إلى العودة بسبب سوء المناخ وكثرة الأمطار والثلوج، فكان رجوعه إلى بلاده في جمادى الآخرة من ذلك العام.[١]

شارك الأرمن في هذا الهجوم الذي طال شيزر، وأفاميه، وكفرطاب، وسرمين، والمعرة، وجبل السماق؛[٢] حيث كثر السلب والنهب، "ورخصت الأسرى من المسلمين، حتى بيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم، واشترى الأرمن منهم خلقا كثيرا، وسيروا في المركب إلى بلاد الفرنج".[٣]

على إثر انسحاب غازان قرر المماليك توجيه ضربة للأرمن، ولاسيما بعد أن منع ملكها الحمل — الضريبة السنوية التي كانت مفروضة عليهم —، وخرج عن طاعة المماليك بانتمائه لغازان ومشاركته في الهجوم على بلاد الشام،[٤] فرسم السلطان بخروج العسكر للغارة على إرمينية الصغرى، فخرج الأمير بكتاش أمير سلاح، والأمير أيبك الخزندار سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م على رأس جيش لمهاجمة إرمينية الصغرى، وأثناء مسيرهم انضم إليهم نائب حماه، فوصلوا إرمينية الصغرى في ٧ شوال وانتشروا فيها فأحرقوا المزروعات ونهبوا ما قدروا عليه، وأسروا عدداً من الأرمن، ثم عادوا؛ فوصلوا حلب في ١٩ شوال / ١٦ تموز ومنها ساروا إلى دمشق.[٥]

---

[١] انظر الفصل الأول، حملة غازان الثانية.

[2] Hayton، La flor. P198 - 199

ويذكر أن المشاركة الأرمنية كانت بقيادة الملك الأرمني هيثوم الثاني.

[٣] النويري: نهاية الأرب، ٣١ /٤١٥. المقريزي: السلوك، ١/٩٠٨-٩٠٩. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٣٠٦. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢.

[٤] المقريزي: السلوك، ١ / ٩٢٢. العيني: عقد الجمان، ٤/١٨٣.

[٥] المقريزي: السلوك، ٩٢٣/١، يذكر أن الحملة كانت في شهر شوال. أبو الفداء: المختصر، ٣٨٦/٢، يذكر أن الحملة كانت في شهر ذي القعدة. العيني: عقد الجمان، ٤ /١٨٣-١٨٤، ويذكر أن نائب حلب وحمص أيضا شاركا في الحملة. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢٣٩/١. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص١٢٠، ويذكر أن الحملة كانت في المحرم ٧٠٢هـ.

لقد كانت هذه الغارة سريعة ومدمرة، لم تستقر في كيليكيا أكثر من خمسة عشر يوما، وكان هذا أمراً طبيعياً، إذ أن مهمتها كانت الإغارة وتخريب الزرع فقط، مع عدم التوغل إلى الداخل إلا إذا كان هناك فرصة،[(١)] وذلك لأن خطر المغول كان لا يزال ماثلاً أمام المماليك.

حاول غازان للمرة الأخيرة غزو بلاد الشام سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، وحشد جيشاً قوياً من أجل ذلك، وللمرة الثالثة تكون المساهمة الإرمينية في غزو بلاد الشام واضحة جلية، فكان على قيادة الجيش المغولي قطلوشاه، وإلى جانبه ملك إرمينية الصغرى،[(٢)] وفي هذه المرة كان النصر حليف المماليك، إذ نزلت هزيمة نكراء بالجيش المغولي في معركة شقحب (مرج الصفر) في رمضان من ذلك العام.[(٣)]

وكانت هذه الحملة الثالثة التي أرسلها غازان آخر الحملات المغولية الكبرى التي قام بها مغول فارس على بلاد الشام، فبعدها خفت حدة العداء بين مغول فارس والمماليك.

ففي شوال ٧٠٣هـ/ أيار ١٣٠٤م مات غازان وخلفه خدابندا (خربندا) الذي شهد عهده هدوءاً نسبياً على جبهة المماليك، ثم خلفه ابنه أبوسعيد سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م الذي سار على سياسة مصادقة المماليك إذ عقد معهم صلحاً سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م شكل نقطة تحول كبرى في تاريخ العلاقات المغولية – المملوكية، وبعد وفاة أبوسعيد عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، دخلت دولة مغول فارس في مشاكل داخلية وصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة مما عطَّل الجبهة الغربية لهم بشكل كامل.

٢- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤ م:

تخلص المماليك من الخطر المغولي بعد معركة شقحب (مرج الصفر)، وأصبح الطريق إلى كيليكيا مفتوحاً أمامهم، فسيروا هذه الحملة بسبب هو ما أظهره الأرمن في حملات غازان من عمليات تخريب وقتل وسبي ونهب، ناهيك عن رغبة المماليك في استعادة قلاعهم التي فقدوها لصالح الأرمن بعد

---

(١) العيني: عقد الجمان، ٤ /١٨٣–١٨٤.

(2) Hayton، La flor. P200 – 201.

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٣٥، النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٢٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/ ٩٣٦ – ٩٣٧، أبو الفداء: المختصر ٢/ ٣٨٧، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٣٧.

هجوم غازان الأول، بالإضافة إلى أن ملك الأرمن –كما مر سابقا – أوقف إرسال الضريبة السنوية المترتبة عليه، ولهذه الأسباب أمر السلطان بإعداد حملة كبيرة لمهاجمة إرمينية الصغرى.

انطلقت هذه الحملة من مصر في ٢٠ رمضان ٧٠٣هـ/ ٢٦ نيسان ١٣٠٤ م[١]، وقبل دخولها إرمينية الصغرى افترقت إلى فرقتين، سارت إحداهما نحو قلعة الروم (قلعة المسلمين) وملطية[٢] بقيادة الأمير قفجق، والثانية بقيادة الأمير قراسنقر؛ ثم دخلوا الدربندات،[٣] فأغاروا ونهبوا وقتلوا وأسروا من ظفروا به، ثم اجتمعوا على تل حمدون وحاصروها، حتى استسلمت، وفتحت بالأمان في ١٣ ذي القعدة من ذلك العام / ١٧ حزيران،[٤] وانتهت الحملة بانتصار هائل، فقد جُدِدت الاتفاقية التي وُقِعّت سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، والتي نصت على أن يكون للمماليك الأراضي التي تقع جنوب نهر جيحان إلى حلب، وللأرمن ما يقع شماله، وبالتالي فان ذلك كان يعني أن القلاع الأحد عشر التي فقدها المماليك على إثر هجوم غازان سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م عادت لهم، كما طالب المماليك الأرمن بأن "يعجلوا بحمل سنتين" من القطيعة التي كانت مقررة عليهم، ثم عاد الجنود وهم "سالمين غانمين".[٥]

---

[١] ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣/ ٥٩٧ – ٥٩٨، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص١١٠، المقريزي: السلوك، ١/ ٩٤٩.

[٢] ملطية: مدينة شمالي حلب، أعالي نهر الفرات، الحموي: معجم البلدان. مادة ملطية.

[٣] الدربند كما ذكر سابقاً لفظ فارسي معناه الطرق والمعابر الضيقة، وتطلق الدربند على المضايق والطرقات والمعابر الواقعة شمال البيرة والنهر الأزرق، الحموي: معجم البلدان، مادة باب الأبواب.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٧٥، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص١١١، ابن أبي الفضائل: النهج السديد ٣/ ٥٩٩، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، طبعة الإمارات، ٢ /٧٦٨. البرزالي: المقتفي، ٣/٢٥٩.

[٥] ابن حبيب: تذكرة البنية، ١ /٢٥٧. المقريزي: السلوك، ١/ ٩٤٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤/ ٢٨-٢٩. العيني: عقد الجمان، ٤/ ٣٠٠-٣٠٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٣/٥٩٩. البرزالي: المقتفي، ٣/٢٥٩. أبو الفداء: المختصر،٢/٣٩١. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص١١١، ويذكر أن الاتفاق طالب الأرمن بحمل جميع ما هو عندهم متأخر من الضرائب عن تلك السنين المقدمة أي منذ قدوم غازان، وليس لسنتين فقط كما يذكر ابن أبي الفضائل.

على إثر هذه الهزيمة تنازل هيثوم الثاني عن الحكم سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م لابن أخيه ليون الرابع، لكنه بقي يقوم بدور المرشد للملك الجديد الذي كان عمره ١٦ سنة،[١] واستقبل هذا الأخير حكمه بأن " أَخَّر حمل المال المقرر عليه، وقطع القطيعة، فاقتضى الحال مقابلته بما يغض طرفه ويرغم أنفه"،[٢] فما كان من نائب حلب الأمير قراسنقر المنصوري إلا أن جرد عسكراً من حلب في ذي الحجة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م بقيادة الأمير سيف الدين قشتمر وساعده عدد من أمراء حلب، فشنوا الغارة على الأرمن،[٣] لذا سلبوا مدينة طرسوس، وجعلوا المملكة في حالة لم تشهدها من قبل،[٤] فاستنجد الأرمن بقوات مغولية كانت متواجدة على أطراف بلاد سلاجقة الروم مقابل الأموال، وبلغ تعداد القوات المغولية حوالي ستة آلاف، كمنوا للمماليك وفاجؤوهم قرب أياس، فتمكن المغول والأرمن منهم، فقتلوا وأسروا غالبهم، وسَلِمَ من اختفى في الجبال "ولم يصل إلى حلب منهم إلا القليل عرايا بغير خيل".[٥]

---

[١] انتهت حياة هؤلاء الإثنين قتلاً على يد برلغي أحد أمراء المغول الذي كان مكلفاً بحمل القطيعة التي كان يقدمها الأرمن لمغول فارس، ففي سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م حضر إليه برلغوا، وكان مسلماً حسناً، وأراد أن يبني مسجدا في سيس، مما أغضب هيثوم، وحمله ذلك على أن يكتب لخربندا إيلخان مغول فارس بأن برلغي هذا متواطئ مع المماليك، الأمر الذي جعل خربندا يستدعي برلغي فوراً، وعندما علم برلغي بمكيدة هيثوم، دبر مقتله ومقتل ليون الرابع. انظر، المقريزي: السلوك، ٢/ ٣٨. أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٣٨٤-٣٩٤. أما بيبرس الدوادار يذكر أنه أراد أن يبني مدرسة لها مئذنة وليس مسجد، زبدة الفكرة، ٩/ ٣٦٤. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٤٠.

Hayton: La Flor. P.209.

[٢] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٥١. العيني: عقد الجمان، ٤ /٣٨١، المقريزي: السلوك، ٢ / ١٦.

[٣] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٩/ ٣٥١. التحفة الملوكية، ص١٧٧، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص١٣١، المقريزي: السلوك، ٢ /١٦. العيني: عقد الجمان، ٤/ ٣٨١. أبو الفداء: المختصر، ٣٩٢/٢.

Howorth: History of the Mangot's III P550

[4] Hayton: La Flor، P.205

ويقول بأن الملك هيثوم الثاني عندما سمع بأخبار هذا الهجوم ترك ديره الذي كان ملازمه ووقف إلى جانب الملك ليون الرابع الذي كان صغيراً.

[٥] أبو الفداء: المختصر، ٣٩٢/٢. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٦١٧/٣. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، طبعة الإمارات، ٢ /٨٤١. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،٩/ ٣٥١. التحفة الملوكية، ص١٧٧.

وعندما صلت أخبار الهزيمة إلى مسامع السلطان، رسم بخروج الأمير بكتاش الفخري، والأمير بيبرس الدوادار – المؤرخ –، والأمير آقوش الموصلي قتّال السبع، فخرجوا على رأس أربعة آلاف مقاتل في منتصف شهر شعبان ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٦م،[1] في هذه الأثناء، "استشعر صاحب سيس الخور، وتحقق وقوعه في الغرر، وأيقن أنه من السطوات الشريفة على خطر"،[2] وبات عليه أن يتدارك الموقف، فبادر بإرسال رسله إلى نائب حلب "يبذل الطاعة ويذكر الإنابة والقيام بما عليه من القطيعة ويسأل الصفح والإعفاء والمسامحة "،[3] واعتذر مما نزل بالمماليك، وأن هذا القتال لم يكن منه وإنما من المغول، كما وعده بإحضار الأمراء المأسورين، وعلى هذه المراسلات تقرر عودة الأمير بكتاش ومن معه من الأمراء من غزة إلى مصر، "إذ حصل الغنى عن العناء".[4]

وبالفعل التزم الملك الأرمني بما وعد، إذ وصلت رسله في صيف سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م تحمل "دراهم سلطانية ستمائة ألف درهم وقماش ونعال للخيل ومسامير وغيره تكملة أربعين حملا ومائتي وسبعين أسيرا من المسلمين".[5]

واعتلى عرش إرمينية الصغرى بعد مقتل ليون الرابع الملك أوشين الأول بن ليون الثالث (٧٠٨–٧٢٠هـ/ ١٣٠٨ – ١٣٢٠م)، وهو الأخ الرابع لهيثوم الثاني، توّج في كاتدرائية سانت صوفيا سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨ م،[6] وكان مدركاً لحجم الخطر المملوكي في ظل غياب المساعدة المغولية والأوروبية، لذا فقد التزم بدفع ما هو مترتب عليه للمماليك والتزم الطاعة في مطلع عهده، ففي سنة

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٥٢.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٥١، العيني: عقد الجمان، ٤ /٣٨٢.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/ ٣٥١

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩ /٣٥١، المقريزي: السلوك، ١٧/٢. النويري: نهاية الأرب، ٩٦/٣٢.

Howorth: History of the Mongols،Part، III، P.556..

(٥) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ٦٢٢/٣، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص١٤٦. البرزالي: المقتفي، ٣١٧/٣. النويري: نهاية الأرب، ١٢١/٣٢.

(٦) المدور، الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٤٠.

Le Conne'table Sempad، P.665.

٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م "وصلت رسل صاحب سيس بالقطيعة المقررة عليه، ووصل في جملة ذلك طشت وإبريق ذهب مرصع بالجوهر"،[١] وتكرر في المصادر ذكر وصول القطيعة سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م مع عدد من الهدايا وكتاب يتضمن التهنئة بعودة السلطان الناصر محمد إلى منصب السلطنة للمرة الثالثة.[٢]

لكن ما لبث هذا أن عاد إلى إتباع سياسة سلفه في التمسك بأهداب التحالف مع المغول، وبناء أحلام عريضة على المساعدة المغولية، فعندما شرع خربندا إيلخان مغول فارس بمهاجمة بلاد الشام سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م بادر الملك أوشين بالانخراط بصفوف الجيش المغولي، فقد "جهز الأخشاب والحواصل، وحمل البغال والمسامير والسلاسل" من أجل مساعدة خربندا في حصار مدينة الرحبة الذي بدأ في مستهل شهر رمضان من ذلك العام، كما "أحضر شيئا كثيرا من التقادم للملك خربندا من الأموال على البغال والأكاديش، ومائة ألف تطبيقة ثقال بمساميرها، وجملة عظيمة من الأغنام والأبقار، وقمح وشعير على ثلاثين ألف حمار، ....، وسبق عسكره بسبعة أيام، ثم حضر عسكره خمسة عشر مقدم، ...، وصحبة كل ملعون منهم خمسين ملعون من الأرمن تحت سنجق الصليب"[٣] لكن حصار الرحبة أخفق وعاد المغول إلى بلادهم في ٢٦ رمضان من تلك السنة.[٤]

٣- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠ م:

انحرف أوشين عن مساره كما اتضح، وأظهر عدم التزامه بالاتفاق الذي كان بينهم، فانخرط مع المغول في الهجوم على قلعة الرحبة، مما أثار سخط المماليك، لكن ردهم تأخر، مما أطمع أوشين بشكل جعله يمتنع عن إرسال القطيعة سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية في بلاده.[٥]

---

[١] النويري: نهاية الأرب، ٣٢ / ١٣٧. العيني: عقد الجمان، ٥/ ١٠.

[٢] المقريزي:: السلوك، ٢ / ٨٦، وكان السلطان الناصر قد عزل للمرة الثانية في سنة ٧٠٨ هـ ثم أعيد في شهر شوال سنة ٧٠٩ هـ. انظر: الملطي (عبد الباسط بن خليل بن شاهين، ت:٨٤٤هـ): نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، تح: محمد كمال الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨٦-٨٧.

[٣] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٢٥٣-٢٥٥.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ٣٢/ ٢٠٠. أبو الفداء: المختصر، ٤١٣/٢. البرزالي: المقتفي، ٨٣/٤-٨٤. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٤٥/٢. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٢٥٣-٢٥٥.

[5] Le Connetable Sempad، P.666 – 667.

كان عدم إرسال القطيعة السنوية أحد الأسباب التي ذكرها المؤرخون لإرسال هذه الحملة،[1] وذكر آخرون سبباً آخر لهذه الحملة، هو رفض الملك أوشين لطلب السلطان الناصر بإعادة القلاع التي حررها المسلمون أيام السلطان المنصور لاجين.[2]

في الحقيقة لم تكن هذه الأسباب هي الوحيدة التي دفعت المماليك لإرسال الحملة، فالمماليك كانوا قد عقدوا هدنة مع مغول فارس في ذلك العام، وعلى أرض الواقع كانت هذه الهدنة قد أنهت الصراع المغولي المملوكي، وبالتالي تفرغ المماليك كلياً للأرمن الذين لم يعودوا يتمتعون بالحماية المغولية كما كان من قبل.

خرجت العساكر من دمشق، والمقدم عليهم الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، كما جُرد عسكر الساحل، والعسكر الصفدي، والعساكر الحلبية، وأمراء الطبلخانات الذين بحماه، والمقدم على هؤلاء جميعا هو الأمير شهاب الدين قرطاي نائب طرابلس.[3]

دخلت الحملة أراضي إرمينية الصغرى في أواسط شهر ربيع الآخر سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م وأثناء اقتحامهم لنهر جيحان غرق عدد كبير من العسكر لأنه كان زائداً، وبعد أن قطعوا جيحان المذكور ساروا ونازلوا قلعة سيس، "وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور، وغنموا منها، وأتلفوا البلاد والزراعات، وساقوا المواشي، وكانت شيئاً كثيراً، وأقاموا ينهبون ويخربون، ثم عادوا وقطعوا نهر جيحان وكان قد انحط فلم ينضر أحد به، ووصلوا إلى بغراس في نهار السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر المذكور ثم ساروا إلى حلب "،[4] وزادت المصادر الأرمنية أنه بعد نهب العاصمة سيس، توجه المماليك إلى ميناء أياس، وهناك شن عليهم الجيش الأرمني هجوما أجبر المماليك على الانسحاب،[5] أما ابن حبيب فذكر أنه في هذا العام كان هناك أكثر من غارة على أراضي مملكة إرمينية الصغرى، الغارة

---

[1] المقريزي: السلوك، ٢/ ٢٠٣.

[2] النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٣٢٣.

[3] النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٣٢٢، أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤٣٤. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/ ١٠٦.

[4] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤٣٤–٤٣٥ النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٣٢٣، البرزالي، المقتفي، ٤ /٤٢٢. المقريزي: السلوك، ٢٠٨/٢.

[5] Le Conne'table Sempad. P.666 – 667.

الأولى كانت على سيس واستمرت سبعة عشر يوماً، وسببها أن الملك الأرمني رجع عن تسليم القلاع جنوب نهر جيحان، وبعد عودتهم إلى حلب من هذه الغارة، أعادوا الغارات "مرة بعد أخرى حسب المرسوم السلطاني حيث غدروا وفجروا وتمسكوا بعصا العصيان وكفروا".(١)

كان الملك أوشين مريضاً عند دخول العسكر المصري إلى بلاده، فتضاعف مرضه من جراء ذلك ومات، وخلفه ابنه ليون الخامس (٧٢٠ – ٧٤٣هـ/ ١٣٢٠ – ١٣٤٢ م)، وكان قاصرا، فتم تعيين وصياً عليه.(٢)

٤- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢ م:

استغل السلطان الناصر محمد صغر سن الملك الجديد، وقرر إرسال حملة إلى إرمينية الصغرى بحجة أن الأرمن طردوا "من كان بها من قبل السلطان" (أي عماله)،(٣) وشارك في الحملة بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية، مع غالب عسكر حماه وحلب، والمقدم على هذه العساكر إما نائب حلب أو نائب الكرك على خلاف بين المؤرخين.(٤)

نزلت الحملة على مدينة أياس، فملكوها، ثم ملكوا قلعتها بعد حصار وقتال عنيف، وغنموا منها غنائم كبيرة،(٥) وأقام العسكر في إرمينية الصغرى مدة وهم يهدمون الأبراج، فكان ذلك شاقاً لكثرة

---

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/ ١٠٦-١٠٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤٣٦. المدور الأرمن عبر التاريخ، ٢٤٠-٢٤١.

Howorth: History of Mongols، Part 3، p.602.

الوصي عليه هو أوشين بايلي، وهو على الأغلب خاله، ولكن بعض المصادر تذكر أنه شقيق خالته زوجة أبيه.

(٣) ذكر ابن إياس في حوادث سنة ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م أن العساكر عندما دخلت سيس أقاموا في تلك البلاد نائبا عن السلطان هناك، وفي حوادث سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م، يذكر أنه بعد عودة العساكر عاد الأرمن إلى قلعة أياس وطردوا من كان بها من قبل السلطان، وعندما علم السلطان بذلك عين لهم تجريدة ثقيلة. ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت: ٩٣٠هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م، ١/١/٤٥١ – ٤٥٢.

(٤) أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤٣٨. المقريزي: السلوك، ٢ / ٢٢٩. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/١٢٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/١/٤٥٢.

(٥) يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الوقعة فيما بين ٧٢١هـ أم ٧٢٢هـ، فقد ذكر كل من أبو الفداء، والنويري، وابن حبيب، ومؤرخ مجهول،أن فتح القلعة تم في ٢١ ربيع الآخر سنة ٧٢٢ هـ. انظر: المختصر، ٢/ ٤٣٩، نهاية=

تحصينها، وبعد أن انتهوا من أمر أياس تفرقوا في أراضي كيليكيا "فأغاروا وقتلوا من الأرمن طائفة كبيرة، وأسروا جماعة منهم، وشعثوا وخربوا".[1]

وما إن عادت العساكر الإسلامية إلى بلادها حتى رجع الأرمن إلى أياس، فما كان من نائب حلب الأمير ألطنبغا إلا أن قام بهجوم سريع عليهم، قتل فيه منهم "نحو ألفي رجل وأسر ثلاثمائة، وغنم مالاً جزيلاً وعاد ".[2]

٥- الهدنة بين سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م:

أمام الضربات المملوكية بادرت مملكة إرمينية الصغرى بطلب الصلح في محاولة لتهدئة الأحوال مع المماليك، ففي سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م وصلت بعثة من قبل ملك إرمينية الصغرى على رأسها قسطنطين بطريرك الأرمن يحمل الهدايا، فاعتذر للسلطان عما حدث، وسأله الصلح، فوافق السلطان، وتم التوصل إلى هدنة.[3]

مفردات الهدنة كما ذكرها النويري هي على الشكل التالي:

- يحمل الأرمن إلى الخزانة السلطانية في كل عام ضريبة قدرها ألف ومائتي ألف درهم (مليون ومئتي ألف درهم) وما جرت به العادة من البغال المساقة إلى الإسطبلات، والنعال الحديد، وغير ذلك من التقادم.

- طلب الأرمن أن يسمح لهم السلطان بعمارة ثغر أياس؛ الذي دمره المماليك في حملتهم الأخيرة، ويكون للسلطنة المملوكية نصف ما يتحصل من أرباح الميناء، إلا أن السلطان أصر على أن يبذلوا له ثمانمائة ألف درهم كل سنة إذا أرادوا عمارة الثغر ولم يقبل بالمناصفة.

=الأرب، ٣٣ /٣٩ . تذكرة النبيه، ٢/ ١٢٤-١٢٥. عصر سلاطين المماليك، ص١٧٢. وهؤلاء جميعاً أقرب إلى تاريخ المعركة من الفريق الثاني. أما المقريزي وابن أياس فقد ذكروا أن ذلك تم في ٢١ ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ. انظر: السلوك، ٢ /٢٢٩. بدائع الزهور، ١ / ٤٥٢ — ٤٥٣، ولكن المقريزي يعود ليذكر حدثاً مشابهاً ضمن أحداث سنة ٧٢٢ هـ في شهر جمادى الأولى بأن "العساكر نازلت أياس وأخذوها عنوة بعد حصار، وقتلوا أهلها وخربوها وعادوا على الأرمن فضموا وأسروا منهم كثيرا وتوجهوا عائدين "، السلوك، ٢/٢٣٧.

[1] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/ ١٢٤-١٢٥.

[2] المقريزي: السلوك، ٢ /٢٢٩.

[3] ابن أبيك: الدر الفاخر، ص٣٠٨. المقريزي: السلوك، ٢ /٢٤٦. النويري، نهاية الأرب، ٣٢ /٦٠.

- وعلى الرغم من توسط أبو سعيد إيلخان مغول فارس – وكان بينه وبين السلطان صلح عقد عام ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م – لهم عند السلطان، فان الصلح تقرر على وضع القطيعة المذكورة مع عدم السماح لهم بعمارة ثغر أياس،[١] إلا أن الشجاعي أكد أنه بعد الوساطة المغولية سمح لهم السلطان بعمارة ثغر أياس مقابل مئة ألف درهم كل سنة فوق القطيعة السنوية المتعارف عليها، وهذا ما أكده المقريزي.[٢]

- أما المصادر الأرمنية فقد ذكرت أن السلطان وافق على عقد هدنة مدتها خمس عشرة سنة شروعاً من ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣ م، وفي هذه الاتفاقية تعهد الأرمن بدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف فلورين[٣] بالإضافة إلى نصف الضرائب التي تُجمع من ميناء أياس.[٤]

وبناءً على هذه الاتفاقية تحسنت العلاقات مدة من الزمن، ففي أحداث سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٨م ذكر أبو الفداء بأن السلطان الناصر أرسل إلى ليون بن أوشين (ليون الخامس) " تشريفاً وسيفاً وفرساً بسرجه ولجامه ... فلبس صاحب سيس الخلعة وشد السيف وقبل الأرض وركب الفرس

---

[١] النويري: نهاية الأرب، ٣٢ /٦٠.

[٢] الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص٨، ١١. المقريزي: السلوك، ٢ /٢٤٦.
Howorth: History of The Mongols،Part 3، P.604..

[٣] فلورين، أو إفرنتي، أو فلوري: هو الدينار الذي تتعامل به فلورنسا، أما بالنسبة لسعر صرفه بالدرهم سيتم مقارنته بالدينار وسعر صرفه. الدينار حسب رواية ابن تغري في النجوم الزاهرة (٩/ ٧٩) هبط سعر صرفه سنة ٧٢٤ هـ من ٢٥ درهم إلى ٢٠ درهم، ويذكر المقريزي في السلوك (٢/ ٢٦١) أمراً مشابهاً في أحداث ٧٢٥ هـ، وذلك يعني أن سعر صرفه قبل ٧٢٤ هـ كان ٢٥ درهم، والمعاهدة وقعت سنة ٧٢٣ هـ. وزن الدينار المملوكي ٤,٢٥ جرام ذهب، ووزن الفلورين ٣,٤٥ جرام ذهب. انظر: حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣م، ص٥٠٧، وعليه يكون سعر صرف الفلورين بالدرهم: $\frac{25\times3.45}{4.25}=20.29$
و منه ٥٠,٠٠٠ فلورين(حسب الرواية الأرمنية) × ٢٠,٢٩ درهم (سعر الصرف آنذاك) = ١,٠١٤,٥٠٠ درهم، وعلى هذا فالرواية الأرمنية توافق إلى حدٍ كبير الرواية الإسلامية الواردة عند الشجاعي و المقريزي في أن الجزية هي: ١,١٠٠,٠٠٠ درهم. أضف إليها نصف دخل أياس.

[4] Le Conne'table Sempad، P. 668.

وقويت نفسه بذلك " ذلك بعد أن قام الملك ليون الخامس بقتل الوصي عليه بتهمة إثارة الفتنة مع المماليك، وإرسال رأسه إلى السلطان.[1]

٦- الحملة على إرمينية الصغرى والسيطرة على ميناء أياس سنة٧٣٧هـ/ ١٣٣٧ م:

لم تستمر الحال بين الطرفين على الهدوء والاستقرار، بل استجدت أمور عكرت صفو العلاقات، وحملت سلطنة المماليك على إرسال حملة مدمرة عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م اجتاحت أراضي إرمينية الصغرى.

تعددت الأسباب التي وردت عند المؤرخين عن سبب إرسال هذه الحملة،

- ورد عند الشجاعي أنه في سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م قام الأرمن بأسر مملوكين من مماليك نائب حلب؛ "فصدوا الواحد وقتلوا الآخر، وأخفوا أمرهم"، فبلغ الأمير ألطنبغا (نائب حلب) ذلك، فعرّف السلطان بما ينقض الاتفاقية التي بينهم من سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م، فأصدر السلطان أوامره لعسكر حلب، ولبعض أمراء التركمان الموالين له بشن الغارات على الأرمن، وتخريب بلادهم، وحرق زرعهم؛ فتم ذلك، وفي إحدى الغارات قُتل ابن عم الملك الأرمني، فرد هذا الأخير بأن قتل جماعة من المسلمين الأسرى عنده ونهب بعض التجار،[2] مما أوجب هذه الحملة.

- بينما ورد عند ابن الوردي وابن إياس سبب آخر لهذه الحملة، وهو أنه في سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م وردت الأخبار لنائب حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردوا المسلمين منها، فخرج عسكر حلب وحاصر مدينة سيس، وأحرق الضياع التي حولها، وأخربوا أذنة وطرسوس، وأسروا حوالي ٢٤٠ من الأرمن، فرد الأرمن بأن أسروا المسلمين الموجودين في قلعة أياس بأحد الفنادق، ثم

---

[1] أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٤٤٩.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.604.

[2] الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص٨ – ٩.

أحرقوا الفندق وهم فيه؛ فماتوا جميعاً، وكانوا نحو ألفين شخص ما بين رجال ونساء،[1] مما أوجب هذه الحملة.

- ناهيك عما ورد عند كل من المقريزي واليوسفي بأن "تكفور نقض الهدنة بقبضه على عدة مماليك وإرسالهم إلى مدينة أياس فلم يُعلم خبرهم، وقطع الحمل المقرر عليه"، وقد ربطا هذا السبب بجملة المشاكل التي وقعت في العراق بعد وفاة الإيلخان أبوسعيد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م، فاستغلوا الفرصة لضرب الأرمن. [2]

توفرت الأسباب والمسوغات لغزو مملكة إرمينية الصغرى، فتم إعداد الحملة، وكان أبرز مكوناتها: عسكر مصر بقيادة الأمير الحاج أرقطاي، وعسكر دمشق بقيادة الأمير قطلبغا الفخري، وعسكر طرابلس بقيادة الأمير بهادر عبد الله، وعسكر حماه بقيادة الأمير صارم الدين أزبك، وعسكر حلب بقيادة نائب حلب الأمير علاء الدين ألطنبغا،[3] وكان السلطان قد كتب أيضاً إلى ابن قرمان[4] أنه إذا عبر العسكر يُجرد من عنده عسكر للغارة على سيس، وقد كتب بذلك أيضاً إلى بعض أمراء التركمان الموالين له،[5] وكان المقدم على جميع العسكر هو الأمير علاء الدين ألطنبغا نائب حلب.[6]

---

[1] ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: احمد البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ٢/ ٤٣٩ .ابن إياس: بدائع الزهور، ١/١ /٤٧٠ – ٤٧١.

[2] المقريزي: السلوك، ٢ /٤١٨. اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٣٦.

[3] ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢ /٤٤٥. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٣٧٨/٢.الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص٤، ٩. المقريزي: السلوك، ٢ /٤٢٨.

[4] هو بدر الدين محمود بن قرمان حاكم الدولة القرمانية في آسيا الصغرى. ابن بطوطة (أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٨٥م، ١٨٧/١.

[5] الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ٩.

[6] المقريزي: السلوك،٢ /٤٢٨. ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢ / ٤٤٥.

اجتمعت العساكر في حلب، وبعد عيد الفطر سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م سارت باتجاه أراضي إرمينية الصغرى، إلى أن نزلوا باب إسكندرونة[١] وهو أول بلاد إرمينية الصغرى وآخر أعمال المسلمين، فوجدوا أن آلات الحصار من مجانيق وزحافات وجسور الحديد والمراكب اللازمة لعبور نهر جيحان كلها جُهزت من قبل الأمير مغلطاي العزي الذي سيره نائب حلب إلى هناك قبل قدوم العسكر بشهرين.[٢]

في هذه الأوقات – وكما ذُكر من قبل رسم السلطان للأمراء التركمان بالغارة على سيس – كان التركمان قد أغاروا على إرمينية الصغرى "فتركوها أوحش من بطن حمار"،[٣] فسارع ملك إرمينية ليون الخامس بإرسال رسله لنائب حلب يطلب منه أن يرفع الغارة عن بلاده؛ وجميع ما يرسم به نائب حلب يُحضره الملك ليون، غير أن نائب حلب طرد رسله، فقام ليون وأركبهم البحر إلى مصر، ونزلوا دمياط في طريقهم إلى السلطان، لكنه لم يأذن لهم، لأنهم لم يدخلوا البيوت من أبوابها، فالمتعارف عليه هو أنه عليهم إخبار نائب دمشق قبل قدومهم ويكون مجيئهم عن طريقه، فعادوا إلى إرمينية ومن هناك قدموا إلى نائب دمشق يحملون الهدايا وكان آنذاك الأمير تنكز.[٤]

في هذا الوقت أرسل الأمير تنكز رسالتين: الأولى إلى السلطان يُعرفه بأمر الرسل، وأن الأرمن مستعدون لتسليم جميع القلاع التي وراء نهر جيحان للسلطان، ومستعدون لدفع الخراج، وأنه كتب لنائب حلب بوقف الغارة حتى مجيء مرسوم السلطان، أما الرسالة الثانية فكانت لنائب حلب يطلب فيها منه إبطال الغارة ورد آلات الحصار إلى بغراس.[٥]

---

[١] مدينة على المتوسط قريبة من أنطاكية تشكل (دربند) سيس، أي مدخل سيس، من جهة حلب تبعد عن بغراس ١٢ ميل. أبو الفداء: تقديم البلدان، ص٢٥٤ – ٢٥٥.

[٢] اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٩٥ – ٣٩٦.

[٣] المقريزي: السلوك،٢ /٤٢٨.

[٤] اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٩٧. المقريزي: السلوك،٢ /٤٢٨.

[٥] المقريزي: السلوك، ٢ /٤٢٩. اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٣٩٧ – ٣٩٨. الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص٩. ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٤٤٥.

- **حصار أياس:**

رد الأمير ألطنبغا الآلات إلى بغراس، وسار بعسكره إلى مدينة أياس فوصلها في ١٢ شوال، وهنا بادر العسكر بالزحف على المدينة معارضين أوامره، وكانت المدينة محصنة، فهلك منهم عدد، ولذا اضطر الأمير لأن يعمل لهم زحافتين وستارتين، فبدأ الزحف على المدينة، "وكان يوماً شهده الله والملائكة، واتصل القتال، وما تضاحى النهار حتى وصلت الخيول والرجال بالزحافات والستاير قريب السور، ولكن بعدما قتل مماليك وجند وغلمان كثير".[1]

وبعد عدة مراسلات استقر الحال على أن يقوم ملك إرمينية الصغرى بتسليم أياس وغيرها من القلاع،[2] وأن يترك المماليك الغارة، ورد جميع ما أُخذ من سيس، فنادوا بالعسكر من أخذ شيئا من الكسب رده، فحضرت ناس كثير وبقيت جماعة أخفوا ما عندهم، فبدأت عمليات التفتيش على خيم العسكر لرد الأسرى وغيره من الكسب.[3]

وفعلاً بدأت عمليات تسلم القلاع وكان المكلف بها الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، ثم رحل العسكر عن أياس بعدما أقاموا عليها اثنين وسبعين يوماً.[4]

لقد كانت هذه الحملة ضربة مميتة لمملكة إرمينية الصغرى، تُرك فيها "ملك الأرمن جسداً بلا روح خائفا على ما بقي بيده "،[5] وأصبحت معظم إرمينية الصغرى في حالة تبعية فعلية للسلطان المملوكي، فعلى قول ملك إرمينية: إن هذه القلاع شكلت نصف أراضيه،[6] وقام السلطان بإقطاع أراضي سيس لنائب حلب، ونائب دمشق، وغيرهما من أمراء الشام "وأمّر فيها جماعة من التركمان والأجناد، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة، ... وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب، ورتب فيها

---

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٩٩.

(٢) هي سبع قلاع: أياس الجوانية، وأياس البرانية، والهارونية، وكواره، وحمصية، ونجيمة، وسرفندكار. انظر، زيتر سين: عصر سلاطين المماليك، ص١٩٤. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ٣/٩٤٠-٩٤١.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٠٢ – ٤٠٣. الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص١٠. المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٢٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٣٠. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ٣/٩٤٠. ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٤٤٥.

(٥) ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/ ٤٤٥.

(٦) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ٣/٩٤١.

عسكر "، وأنعم السلطان على ملك إرمينية – الذي أصبح كأحد عماله – بأن أعفاه من الخراج لثلاثة أعوام، وهادنه لعشر سنوات.[1]

بعد هذه الضربة أصبح سقوط إرمينية الصغرى بيد المماليك أمراً بديهياً في ظل غياب الدور المغولي والأوربي، وأصبحت المسألة مسألة وقت، وتجب الإشارة إلى أن أكثر ضربة أوجعت الأرمن هي عملية الاستيلاء على أياس وهدم برجها المذكور باسم الأطلس،[2] لأن ذلك يعني ضياع التجارة من أيدي الأرمن وانهيارهم اقتصادياً.

---

[1] المقريزي: السلوك، ٢ / ٤٣٠.

[2] تحدث الشجاعي وغيره عن عملية هدم برج أطس البحري، الذي كانت تتم فيه أضخم العمليات التجارية في إرمينية الصغرى. انظر، الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ١١-١٢. المقريزي: السلوك، ٢ / ٤٢٩-٤٣٠.

سابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عصر أسرة الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١- ٧٧٦هـ/ ١٣٤٠ - ١٣٧٥ م):

شكلت الحملة الأخيرة ضربة قوية لمملكة إرمينية الصغرى، بدأت تترنح من بعدها، إلى أن سقطت بشكل نهائي في يد المماليك سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م بفعل عوامل عدة، أهمها:

١ - الفوضى السياسية بعد مقتل ليون الخامس:

كان ثمن التاج الملكي؛ الذي مُنح لليون الثاني سنة٥٩٤هـ/ ١١٩٨م من قبل البابا والإمبراطور هنري السادس؛ والذي تأسست بموجبه مملكة إرمينية الصغرى، كان ثمنه إتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرمنية تحت السيادة البابوية، إلا أن الأساقفة الأرمن عارضوا فكرة الإتحاد هذه وقاوموها، في حين حاول ليون الثاني فرضها عليهم بالقوة وإقناعهم أن الإتحاد يمكن أن يكون شكلي، - لكن هذا لم يكن صحيحاً لأنه في أيام الملك هيثوم الأول تمت ترجمة قوانين أنطاكية إلى الأرمنية لكي تُستخدم في المملكة- وعليه فقد جرى تخزين الاضطرابات للمستقبل.

ففي نقاش دار سنة٦٦١هـ/ ١٢٦١م بين نائب البابا وممثلين عن الكنيسة الأرمنية؛ أنكر رجال الدين الأرمن سيادة البابا على الكنيسة الأرمنية، وفي المقابل كان الملوك الأرمن يقرون بهذه السيادة ومحافظين عليها، فكانوا يلبون مطالبها فيما يتعلق بالعقيدة والطقوس أملاً في الحصول على المساعدات، وخاصة في ظل غياب المساعدة المغولية.

وأفرز هذا التعارض في وجهات النظر بين رجال الدين، - ومن ورائهم عامة الشعب الذين يفكرون بمبدأ عقائدي وديني-، وبين الملوك - الذين يفكرون بمبدأ سياسي -، مشاكل ضخمة، فالبارونات الأرمن استثمروا مشاعر الشعب المعارضة للاتيين وتمكنوا من نسف سلطة التاج الملكي، وعليه فقد واجه الملوك (أوشين الأول ١٣٠٧-١٣٢٠م، وليون الخامس ١٣٢٠-١٣٤١م، وغي لوزينان ١٣٤٢-١٣٤٤م) القتل على التوالي عندما تصدوا لرجال الدين وحاولوا جعل الكنيسة الأرمنية أقرب لروما.[1]

[1] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٨٨وما بعد.

وانفجرت المشاكل بين التيارات المتعارضة بشكل علني وصاخب في أيام الملك ليون الخامس، ففي أيامه ظهر في إرمينية الصغرى راهب اسمه جان دي كوني، أسس نظام رهبنة قائم على التعاليم الكاثوليكية، وتم تحريف اللغة الأرمنية لتصبح قريبة من اللغة اللاتينية، وقدَّم ليون الخامس الدعم لهذا التيار، وفي المقابل تصدى له تيار معارض بقيادة بطريرك الأرمن آغوب الثاني، وكان للصراع بين التيارين آثاره السلبية على المجتمع والسياسة، فبعد أن عزل ليون الخامس البطريرك أغوب قام أتباعه باغتيال ليون الخامس في ربيع الأول ٧٤٢هـ/ شباط ١٣٤١م، وقد وقف الشعب إلى جانبهم.(١)

بوفاة ليون الخامس انتهى عصر حكم أسرة بابيرونيان الأرمنية، أو الأسرة الهيثومية؛ التي أسسها هيثوم الأول والتي كانت تحكم منذ سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، لينتقل الحكم إلى أسرة أجنبية – في نظر الأرمن – هي أسرة لوزينان الفرنسية، الأسرة الحاكمة في قبرص، فليون الخامس لم يترك وريثاً للحكم، بل كان ولي عهده ابن عمته واسمه غي لوزينان وهو ابن عموري لوزينان، أخو الملك القبرصي هيو الثاني (الأب فرنسي والأم أرمنية).(٢)

مع اعتلاء هذه الأسرة لسدة الحكم تعمقت الهوة التي بدأت تظهر في أواخر أيام ليون الخامس، بين التيار المحافظ والتيار المؤيد للتوجه الغربي، وذلك لأن الملك الجديد انتهج سياسة توجه غربي، أصبح معظم معاونوه فرنسيين، وتطورت الأمور إلى أنه حاول فرض التبعية لكنيسة روما، فواجه مقاومة قوية من قبل بارونات الأرمن المحافظين، وانتهت حياته قتلاً مع أخوه وعدد من أتباعه في رجب ٧٤٥ هـ/ نوفمبر ١٣٤٤م.(٣)

---

(1) Brocardus: Directorium Ad Passagium Faciendum P487 – 490.

المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٤١-٢٤٢.

(2) Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie. ED.R.H.C. – Doc. Arm، II، Paris 1869 – 1906، P.21

رينيه كروسيه: الحروب الصليبية: ترجمة أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٢.

(3) Dardel: Ibid، P.21.

رينيه كروسيه: الحروب الصليبية، ص١٣٠. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص ٢٤٢.

إذاً دبت الفوضى في مملكة إرمينية الصغرى، وستظهر مع كل عملية تنصيب أو خلع للملوك، مما شغلهم عن مواجهة العدو التقليدي المتمثل بالمماليك، فبعد موت الملك غي لوزينان هذا "المعروف بقسطنطين الأول سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م"، اغتصب العرش قسطنطين الثاني، وكان على حس سياسي كبير، فتخلى عن العلاقات غير المثمرة مع البابوية، وعمل على إرضاء الشعب بإقصاء الحاشية الفرنسية اللاتينية عن مراكز الدولة الحساسة، وبعد وفاته سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م خلفه قسطنطين الثالث (١٣٦٣-١٣٧٣م) وكان وصوله لسدة الحكم نتاج صراع بين الحزب الوطني صاحب التوجه الشرقي، والحزب المعارض له صاحب التوجه الغربي، وكان من أنصار الشرقيين، وبعد وفاته توج ليون السادس ملكاً على إرمينية الصغرى وهو من أسرة لوزينان الفرنسية، وفي عهده سقطت إرمينية الصغرى بيد المماليك واقتيد هو أسيراً إلى القاهرة لمدة سبع سنوات.[١]

٢ – الأزمة الاقتصادية:

أيضاً شغل الجانب الاقتصادي دوراً كبيراً في انهيار إرمينية الصغرى، فالمملكة بدأت تفقد أهميتها التجارية بفعل عوامل عدة أهمها:

أ- انعكس فرض الضرائب الباهظة عليها من قبل المماليك سلباً على وضع التجارة فيها؛ لأنها اضطرت إلى رفع الضرائب المستوجبة على البضائع المارة بها، مما جعل التجار يتوجهون إلى موانئ أخرى.[٢]

ب- انعدام الأمن على الطريق التجاري القادم لإرمينية الصغرى من أراضي المغول، وذلك بعد وفاة أبوسعيد خان مغول فارس سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م وما أعقبه من حروب داخلية وصراعات على السلطة.[٣]

ج- سيطرة المماليك على ميناء أياس الحيوي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م.

---

[١] المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٢-٢٤٤. هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٩٢ وما بعد.

[٢] هايد: تاريخ التجارة، ٢/٣٢٥-٣٢٦.

[٣] سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص١٨١. نقلاً عن:

. Dulaurier: Recherches sur la chronologie Armenienne، Tome P70

في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م تم توقيع هدنة بين الأرمن والمماليك بموجبها فُرض على الأرمن دفع جزية سنوية مقدارها مليون درهم، ثم تمت مضاعفة المبلغ إلى مليون ومئتي ألف درهم في هدنة سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م مع نصف إيرادات ميناء أياس.[١]

لمواجهة هذا الموقف اضطر ملوك إرمينية الصغرى إلى رفع الضرائب على التجار والأجانب، ناهيك عن أن غارات المماليك والتركمان تركت البلاد مدمرة ومنهكة اقتصادياً، فمدينة أياس– الميناء الرئيس في أرمينية الصغرى، ومصدر ثرائها – نُهبت سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م،[٢] وسنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م،[٣] وفي سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م هدمت الحملة المملوكية برجها التجاري الضخم (برج أطلس) أمام أعين الأرمن، ووُضِعَتْ فيها حامية مملوكية، وأصبحت بشكل نهائي تحت السيطرة المملوكية،[٤] وأخفقت كل المحاولات الأرمنية والقبرصية لاستعادتها، ففي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م حاول الأرمن استعادتها، فتصدى لهم أميرها حسام الدين الشيباني وردهم خاسرين،[٥] ثم حاول ملك قبرص بطرس الأول الاستيلاء عليها سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، لكن المماليك بقيادة الأمير منجك السيفي الذي كان في طريقه من طرسوس إلى طرابلس، والأمير منكلي بغا نائب حلب الذي قدم لفك الحصار عنها، تمكنوا من إنزال هزيمة ساحقة ببطرس الأول،[٦] ثم كرر المحاولة ابنه بطرس الثاني سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م لكن بدون جدوى.[٧]

---

[١] عن معاهدة ٦٨٤هـ انظر، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٩٢. وعن معاهدة ٧٢٣هـ انظر، النويري: نهاية الأرب، ٣٢/٦٠. الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ٨، ١١. وقد سلف الحديث عن هذه المعاهدتين في هذا الفصل.

[٢] انظر حملة ٦٦٤هـ.

[٣] انظر حملة ٦٧٣هـ.

[٤] انظر حملة ٧٣٧هـ.

[٥] ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٤٩٠-٤٩١. المقريزي: السلوك، ٢/٧٢٦.

[٦] ابن كثير: الاجتهاد، ص ٤٢٦.

[٧] ماكارياس: مرويات، ص ١٧٠-١٧١.

شكلت أياس على مر التاريخ الأرمني المورد الرئيسي لمملكتهم في كيليكيا وبسقوطها أصيبت المستوطنات التجارية في إرمينية في الصميم، لتفقد المملكة المورد الرئيسي للدخل القومي، إذ واصلت إرمينية الصغرى حياتها بعد سقوط أياس بمشقة حتى تم تدميرها.[١]

٣- إرمينية الصغرى بين المماليك، والتركمان، والقبارصة، وسقوطها بيد المماليك سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥ م:

توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١ م، وبوفاته بدأت مرحلة من الفوضى السياسية، كثر فيها تعيين وعزل السلاطين من سلالته، وامتازت بتسلط الأمراء على شؤون الحكم، فبعد وفاته اعتلى السلطنة ابنه المنصور أبو بكر، لكنه لم يستمر طويلا، فعُزل وعُين مكانه أخوه كجك سنة ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م، استمر هذا في الحكم خمسة أشهر لم يكن له من الأمر شيء، ثم جاء بعده أخوه أحمد، واستمر يحكم حوالي عام، حيث عُزل سنة ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢م، وجاء من بعده أخيه الملك الصالح إسماعيل الذي استمر في الحكم حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥م، ليحكم من بعده الملك الكامل شعبان.[٢]

على الرغم من كثرة تبدل السلاطين إلا أن سياسة السلطنة تجاه إرمينية الصغرى ظلت واحدة، ففي عهد الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون ٧٤٣ – ٧٤٦ هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م[٣] امتنع ملك إرمينية الصغرى غي لوزينان عن دفع الجزية قائلا "أنا لا أعطي جزية ولا هدية حتى تعاد إلينا البلاد المغصوبة "،[٤] فرد عليه المماليك بإرسال عساكر حلب، وحماه، وطرابلس سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م للإغارة على بلاده، حيث "أثروا في أهل سيس آثاراً قبيحة حتى أذعنوا لحمل الخراج ".[٥]

---

[١] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، تر: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥-١٩٩٤م ، ٣٢٨/٢.

[٢] المقريزي: السلوك، ٢/ ٥٥١، ٥٧١، ٥٩٣، ٥٩٤، ٦١٩.، ابن إياس: بدائع الزهور، ١/١/ ١٧٦ – ١٧٨، ١٨١-١٨٢.

[٣] ابن خليل: نزهة الأساطين، ص ٩٨.

[٤] ابن الوردي: تتمة المختصر، ٤٧٩/٢. المقريزي: السلوك، ٦٥٠/٢.

Dardel, Jen, Chroniqe Arme'nie. P22

[٥] المقريزي: السلوك، ٦٥٠/٢. ابن الوردي: تتمة المختصر، ٤٧٩/٢.

ولا بد من الوقوف هنا على ما ذكره المقريزي في هذه الحملة، عندما قال: إن هذه العساكر لما خرجت إلى سيس "لقيهم تركمان الطاعة"،[١] كما أن ابن الوردي أورد في حوادث سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م غارات التركمان على سيس عدة مرات.[٢]

والآن من هم تركمان (الطاعة)، وما هو دورهم في الصراع المملوكي- الأرمني.؟

على إثر انهيار دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بعد وفاة سلطانها علاء الدين الثالث سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م قام على أنقاضها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي عدد من الإمارات التركمانية، عُرف بعضها باسم مؤسسها مثل (أيدين، وقرمان)، وعُرف الآخر باسم أشهر مدنها أو باسم عاصمتها مثل (مغنيسيا، وفوكه)، واختلفت المصادر في تقدير عدد تلك الإمارات،[٣] وذلك عائد إلى كثرة الصراعات بين تلك الإمارات، وسقوط بعضها، وقيام الآخر، مع استمرار هجرة التركمان وتأسيس الإمارات.

بعض هذه الإمارات كانت تربطه بسلطنة المماليك علاقة طيبة، مثل إمارة بني قرمان،[٤] حيث جمعهم عدائهم المشترك لمملكة إرمينية الصغرى، وفي ذلك يقول العمري: "فأما ملوكنا فأجل ما لديهم منهم، جماعة بني قرمان، لقرب ديارهم وتواصل أخبارهم، ولنكايتهم في متملك سيس وأهل بلاد الأرمن، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب، فمكاتباتنا إلى بني قرمان لا

---

[١] المقريزي: السلوك، ٢/٦٥٠.

[٢] ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٤٧٧-٤٧٩.

[٣] أفضل مصدر يتحدث عن هذه الإمارات هو مسالك الأبصار للعمري، وفي المصدر نفسه يقدم العمري روايتين عن عدد هذه الإمارات، في الأولى يقول أن عددهم عشر إمارات، وفي الثانية يذكر أن عددهم ستة عشر إمارة. العمري (شهاب الدين أحمد، ت:٧٤٩هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣م، ٣/٢٨٧ وما بعد. كما قدم ابن بطوطة مادة جيدة عن هذه الإمارات، انظر رحلته، ١/ ١٨٠-٢٣٠.

[٤] تأسست هذه الإمارة في القرن السابع الهجري وعرفت باسم مؤسسها قرمان بن نوره صوفي، كانت تسيطر على سيواس وقونيه وقرمان وأرمناك...إلخ، انظر: القرماني (أحمد بن يوسف بن أحمد): أخبار الدول وآثار الأول، دار عالم الكتب، بيروت، (د. ت)، ص٢٩٢-٢٩٣.

تكاد تنقطع".[1] فغالبا ما كانوا يقومون بأعمال عسكرية مشتركة ضد الأرمن، وما قصده المقريزي بتركمان الطاعة؛ هم بني قرمان،[2] لأنه أهل هذه المملكة على موالاة لسلطانة المماليك، ويميلون إليها في جهاد الأرمن.[3]

على هذا تبدل سلاجقة الروم حلفاء المغول والأرمن بإمارات تركمانية تدين بالولاء والطاعة للمماليك، ويكنّون العداء لجيرانهم الأرمن، حتى أن المغول حلفاء الأرمن سابقاً تبدلت سياستهم بعد إسلامهم، بشكل جعل المؤرخ الايطالي الشهير مارينو سانوتو يعدهم آنذاك أعداء آخرين للأرمن مع المماليك وأتراك الأناضول وقراصنة البحر،[4] وبذلك تكون قد ضاقت الحلقة على الأرمن، وبدأت مملكتهم تسير بخطى سريعة نحو الانحلال والزوال؛ وقد حاولوا الاستنجاد أكثر من مرة بالغرب الأوروبي، لكن دون فائدة، حتى أن المساعدات القبرصية التي كانت تأتي من حين لآخر لم تغن أبداً عن السقوط بيد المماليك.

حاول غي لوزينان التمرد، لكنه سرعان ما أذعن للأوامر، ودفع الخراج كما ذكر من قبل، وبسبب الخلافات التي دبت في جسم المملكة قُتل غي لوزينان مع أخيه وعدد من أمرائه وفرسانه ٧٤٦هـ/ ١٣٤٤ م.[5]

وبعد خلافات حادة اعتلى عرش المملكة قسطنطين الثاني (٧٤٦ – ٧٦٥هـ/ ١٣٤٤ – ١٣٦٣م)، وشهد عصره تقدماً ملحوظاً للتركمان والمماليك على حساب أراضي إرمينية الصغرى، ففي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦م سيطر بني قرمان – بالحيلة – على قلعة كابان الأرمنية، وعندما حاول الجيش الأرمني استعادتها تعرض لهزيمة منكرة على يد بني دلغادر، ولكن بسبب الخلافات التي قامت بين

---

[1] التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٦١.

[2] انظر: ابن الوردي في تتمة المختصر أثناء حديثه عن غارة عام ٧٤٤ هـ التي سبق ذكرها، يقول: بأن التركمان اشتركوا في الغارة (فقتلوا ونهبوا وأسروا وشفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان) ، وفي هذا دليل على اشتراك بني قرمان في الغارة، ٤٧٧/٢.

[3] العمري: مسالك الأبصار، ٣/ ٣٩١.

[4] مارينو سانوتو: الأسرار، ٩٢/٣٨.

[5] Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p.21.

المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٢.

التركمان ونائب حلب حول إقامة نائب فيها من قبل السلطان تمكن الأرمن من استعادتها سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦ م.[١]

وفي سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م كُلّف نائب حلب الأمير بيدمر الخوارزمي من قبل السلطان الناصر حسن (٧٥٥ – ٧٦٢هـ/ ١٣٥٤ – ١٣٦١ م) بقيادة حملة إلى إرمينية الصغرى، وتمكن نائب حلب في هذه الحملة من فتح أذنة وطرسوس بالأمان، وفي طرسوس وجد عدد من أسرى المسلمين تم إطلاق سراحهم، كما تمت مصادرة أسلحة الأرمن وخيولهم، وتم الاستيلاء على المصيصة وقلعتها بالقوة، ومنها انطلقوا نحو عدة حصون، فتمكنوا من فتحها، وقبل عودتهم عينوا الأمير علاء الدين الشيباني نائباً للسلطنة في طرسوس، وأخيه الامير بهاء الدين داوود نائباً بأذنة، ثم "رجعت العساكر مرتدين منصورين سالمين غانمين".[٢]

أمام قوة المماليك، وازدياد خطر التركمان، أسرع الأرمن بطلب المساعدة القبرصية، وعلى عكس هيو الرابع ملك قبرص؛ الذي رفض التدخل في شؤون الأرمن وزج نفسه بصراعاتهم مع المماليك والأتراك، كان ابنه بطرس الأول لوزينان (١٣٥٩-١٣٦٩م) الذي خلف أبيه سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩ م، قد رحب بطلب المساعدة الأرمنية "لأنه كان عظيم الرغبة في امتلاك أرض في تركيا"،[٣] فأرسل سفناً حربية بقيادة روبرت لوزينان أحد أقربائه، فسلمه الأرمن قلعة جورهيجوس (أو كوريكوس Corycus) الأرمنية في صفر ٧٦١هـ/كانون الثاني ١٣٦٠م، وأصبحت تابعة لملوك قبرص، ووضعت بها حامية قبرصية.[٤]

لم يكتف بطرس الأول بقلعة جورهيجوس، بل أخذ بالتوسع على حساب الإمارات التركمانية، فعلى إثر سيطرته على جورهيجوس بدأ التركمان في إمارات (العلايا، والقرمان، ومنوقات) بتشكيل

---

[١] ابن الوردي: تتمة المختصر، ٤٨٧/٢. ويقول عن قلعة كابان (جابان) أنها من أمنع قلاع سيسى مما يلي الروم.

[٢] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/ ٢٣٠-٢٣١. وينكر أسماء القلاع التي تم تحريرها في هذه الغزوة وهي: (كلال، الجديدة، سنباط كلا، نمرون، دي ليفون). ابن خلدون: العبر، ٥/ ٩٧٠. المقريزي: السلوك، ٣/ ٥٠. ابن إياس، بدائع الزهور، ٢/ ١٧٧.

[٣] ماكارياس: مرويات، ص ٦٧-٦٨.

[٤] ماكارياس: مرويات، ص ٦٨.

تحالف لمهاجمة القبارصة، ولما علم بطرس الأول بذلك جمع أسطول مكون من ١١٩ سفينة وهاجمهم به، فتمكن من السيطرة على أضاليا، وفرض على أمراء العلايا ومنوقات جزية سنوية، ورفع علم قبرص على بلادهم، مقابل إعطائهم الأمان.[١]

وفي هذا المجال يمكن أيضاً النظر إلى الحملة القبرصية التي قام بها بطرس الأول على الإسكندرية في سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، على أنها هدفت إلى ضرب السلطنة المملوكية، ولشغلها عن مضايقة الأرمن، لكن الحملة فشلت في تحقيق أي من أهدافها التي انطلقت من أجلها سوى عمليات السرقة والقتل.[٢]

وللغاية نفسها – تخفيف الضغط عن الأرمن – قام القبارصة بعدة غارات على السواحل الشامية والتركية لضرب المماليك التركمان،[٣] كما قاموا بمهاجمة أياس سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، وسنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، ولكن بدون فائدة.[٤]

بهذا العمل يكون قد أصبح للقبارصة موطئ قدم في إرمينية الصغرى، وهذا سوف يزيد الأمور تعقيداً، لأن الأسرة الفرنسية (أسرة لوزينان وهي الأسرة نفسها الحاكمة في قبرص) كانت قد فقدت حكمها في إرمينية الصغرى بعد اغتيال غي لوزينان سنة٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م من قبل الأرمن، ومع قدوم أقربائهم حكام قبرص سوف تزداد قوتهم على حساب الحزب الأرمني الوطني المعارض لحكم أسرة أجنبية، وهذا ما حصل، فبعد وفاة قسطنطين الثاني عام ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م حدثت حروب داخلية دامية في إرمينية الصغرى بين مؤيدي أسرة لوزينان وبين الوطنيين من الأرمن الرافضين للحكم الأجنبي، وبعد عامين من الصراع نجح الوطنيون الأرمن، وتم تنصيب قسطنطين الثالث ملكا على إرمينية (٧٦٧ – ٧٧٤هـ/ ١٣٦٥ – ١٣٧٣م).[٥]

---

[١] ماكارياس: مرويات، ص ٦٩-٧٣.

[٢] سبق الحديث عن هذه الحملة في الفصل الثاني، فقرة هجوم القبارصة على الإسكندرية.

[٣] ماكارياس: مرويات، ص ٨٢، ٨٥، ١٠٣.

[٤] ماكارياس: مرويات، ص ١٢١-١٢٣.

Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p. 36.

[٥] مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٣. هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٢٩٣.

انتهت حياة الملك قسطنطين الثالث قتلاً سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣ م، وأعقب ذلك حالة من الفوضى السياسية التي عمت المملكة بين الحزبين المتنافسين، وانتهى الأمر بتولية ليون السادس عرش المملكة (٧٧٥ – ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ – ١٣٧٥ م) وهو من أسرة لوزنيان الفرنسية.[١]

اعتلى العرش في وقت كانت فيه المملكة تلفظ أنفاسها الأخيرة، فالخزينة خاوية، والدولة منقسمة على نفسها بين حزب معارض وآخر مؤيد، والجيش منهك من الضربات المملوكية والتركمانية، ناهيك عن أن معظم أراضي المملكة أصبحت بيد المماليك والتركمان، وجزيرة قبرص وقعت آنذاك تحت الاحتلال الجنوي وخرجت من دائرة الصراع، فعلى الرغم من امتلاك الحاكم الجديد شخصية قوية،[٢] غير أن جميع مؤهلاته لم تُغنِ عن سقوط إرمينية الصغرى عندما قرر المماليك غزوها وإخضاعها نهائياً لسلطتهم.

وفعلاً حدث ذلك في سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م عندما أرسل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ – ١٣٧٦م) نائبه في حلب للقيام بهذه المهمة،[٣] وبعد حصار استمر قرابة شهرين، طلب على إثره ليون السادس الأمان في شهر ذي القعدة من سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م وأرسل ليون هذا أسيراً إلى القاهرة "وصارت سيس مملكة مستقلة من ممالك الإسلام"،[٤] وعُين السلطان الأمير يعقوب شاه نائباً عنه في سيس.[٥] وبذلك أسدل الستار على الوجود الأرمني في كيليكيا، وازدادت الحدود المملوكية عُمقاً في آسيا الصغرى، وأصبحت الدولة المهيمنة على الحوض الشرقي للمتوسط.

---

[1] Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p. 41-44.

مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٣. هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٩٣.

[٢] مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٤٣.

[٣] يذكر المقريزي بأن فتح سيس تم على يد نائب حلب الأمير أشقتمر، ويضيف ابن إياس بأن نائب الشام بيدر الخوارزمي كان موجودا إلى جانب نائب حلب، السلوك: ٣/ ٢٣٧ – ٢٣٨ بدائع الزهور، ١/ ٢/ ١٣٩.

[٤] ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢/ ١٣٩. ابن خلدون: العبر، ٥/٩٩٠.

[٥] المقريزي السلوك، ج٣، ق١، ص٢٣٨. بقي ليون السادس أسيرا في القاهرة ولم يطلق سراحه إلا بعد سبع سنوات، فسافر إلى البلاطين الإنكليزي والفرنسي في محاولة لحشد حملة لاسترداد مملكته، لكن دون جدوى، ومات عام ١٣٩٣م، فانتقل لقبه إلى ملوك أسرة لوزينان في قبرص. انظر، هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٢٩٣-٢٩٤.

في الختام يمكن القول بأن وجود مملكة أرمينية الصغرى في المنطقة هي حالة طارئة، استدعت ظروف الحروب الصليبية، وغياب القوى المحلية – سواء البيزنطية أو الإسلامية– قيامها، فالشعب الأرمني كما سلف الحديث لم يكن من شعوب المنطقة، ومثله مثل الصليبيين، شعب غريب، ولكن لما ازداد عدد الأرمن في المنطقة، وغابت القوى الأخرى، أرادوا فرض واقع وشرعية، فنجحوا ظاهرياً لبعض الوقت، وشغلوا دوراً مهماً في الحروب الصليبية إلى جانب الصليبيين، لكنهم اصطدموا معهم فيما بعد، وحاول الأرمن التوسع على حساب حلفاءهم، فاجتاحوا أنطاكية، مع ذلك أخفقوا في حكمها.

ولما لاح خيال المغول سارعوا إلى التمسك بأذيالهم، والانضواء تحت جناحهم، وهذا ما يؤكد ضعفهم وحاجتهم المستمرة لغطاء شرعي يسوغ وجودهم وحكمهم لأرض غريبة، فحكموا كيليكيا كتابعين للمغول، بعد أن كانوا تابعين للغرب، واستمر الأمر على ذلك إلى أن زالت مسوغات وجودهم، فلما حُرر الساحل الشامي، وضعف المغولي وذهبت ريحهم، سارت أعمال التحرير المملوكية في كيليكيا بسرعة كبيرة، وبات زوال الحكم الأرمني أمراً حتمياً حتى تم ذلك.

في هذا السياق يمكن إجراء بعض الإسقاطات على الظروف الراهنة، وخاصة فيما يتعلق بالكيان الصهيوني، فاليهود غرباء في المنطقة، تم جمع شتاتهم من دول العالم – ولا سيما من أوربا الشرقية – وتوطينهم في فلسطين، وحكموا المنطقة كما فعل الصليبيون والأرمن، شرعية الواقع والقوة، وبما أن أسباب ومسوغات الوجود واحدة، فالمصير حتماً سيكون مماثل، ومهما بلغت إسرائيل من القوة والمنعة، فهي لا تمتلك مقومات البقاء، فمن قبلها اجتاح الأرمن مع المغول عواصم العالم الإسلامي كبغداد وحلب ودمشق أكثر من مرة، لكن لم يمنحها ذلك شرعية البقاء والاستمرار، وفي أول فرصة لاحت للمماليك استغلوها وتمكنوا من إنهاء وجودها.

الفصل الرابـع

زوال دولة المماليك الأولى وقيام الثانية والاجتياح التيموري لمشرق البحر المتوسط

٧٨٤-٨٠٨هـ/ ١٣٨٢-١٤٠٥م

أولاً: قيام دولـة المماليك الثانيـة.

ثانياً: اضطراب الأوضاع في بلاد الشام.

ثالثاً: الاجتياح التيموري لبلاد الشام واحتلال دمشق.

رابعاً: الاجتياح التيموري لآسيا الصغرى وهزيمـة الجيـوش العثمانيـة فـي معركة أنقرة.

توطئة:

اعتاد المؤرخون على تقسيم عصر السلطنة المملوكية إلى حقبتين، يطلق على الأولى منهما؛ والتي امتدت من ٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م، دولة المماليك الأولى، أو دولة المماليك البحرية، لأن سلاطينها كانوا من المماليك الذين اشتراهم بنو أيوب وأسكنوهم جزيرة الروضة في نهر النيل، أو دولة المماليك الأتراك، لأن معظم سلاطينها من الجنس التركي من بلاد القفجاق، ويطلق على الثانية؛ والتي امتدت من ٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م، دولة المماليك الثانية، أو دولة المماليك البرجية، لأن سلاطينها كانوا من المماليك الذين أسكنهم قلاوون أبراج القلعة على جبل المقطم أيام حكم المماليك البحرية، أو دولة المماليك الشراكسة "الجراكسة" لأن معظم سلاطينها من الجنس الشركسي.[1]

في سلطنة المماليك غالباً ما كان يتولى الحكم من له الغلبة من الأمراء، ومن هو الأول بين أقرانه، وكان امتلاك القوة، والعدد الأكبر من الأتباع والمماليك من المؤهلات الضرورية للحكم، فلم يكن هناك نظام ملكي أو وراثي واضح، إنما الدنيا لمن غلب، وفي حالة لم تتكرر، تمكن السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد من وضع قواعد وأسس لحكم وراثي استمر قرابة قرن، سيطرت فيه عائلة قلاوون على عرش السلطنة المملوكية، ولخدمة هذا المشروع لجأ السلطان المنصور قلاوون إلى استقدام عنصر جديد من المماليك من جنس الشركس[2] ليكونوا سنداً لعائلته في الحكم، ولكي يضمن ولاءهم؛ قام بعزلهم عن باقي المماليك وأسكنهم في أبراج القلعة فعرفوا بالمماليك البرجية،[3] وسرعان ما غدا السلاطين من أسرة قلاوون ألعوبة بيد هؤلاء المماليك الذين تمكنوا من إحكام قبضتهم على شؤون الحكم لأنهم كانوا مقربين إلى السلطان، وشكلوا بطانته والقوة التي يعتمد عليها، وقد استمر الأمر كذلك حتى تمكن البرجية

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١٣٢/٣. عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ١/١٠-١١. السيد الباز العريني: المماليك دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص ٥٥ – ٥٧،٦٣ – ٧٠ .

[2] الجراكسة أو الشراكسة، عنصر قوقازي الجنس موطنهم المرتفعات الجبلية من بلاد قبجاق بين البحر الأسود وبحر قزوين . القلقشندي: صبح الأعشى، ٤ /٤٥٩ . إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٨ .

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧ /٣٣٠. ابن إياس: بدائع الزهور، ٣٦٢/١/١. المقريزي: السلوك، ١/ ٧٥٥ – ٧٥٦، المواعظ والاعتبار، ١٣٢/٣.

من الإطاحة بأسيادهم واعتلاء عرش السلطنة فيما عرف بعد ذلك باسم دولة المماليك الثانية، أو دولة المماليك الشراكسة، أو البرجية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م).

وفي الحقيقة لا توجد تلك الفوارق والاختلافات الكبيرة بين الدولتين الأولى، والثانية كما توحي التسمية؛ فالنظام السياسي، والمالي، والعسكري، والإداري، كله لم يتغير فيه شيء، فالجيش هو نفسه، ونظم الإدارة استمرت على ما هي، وشكلت الدولة الثانية امتداداً لكل مظاهر الدولة الأولى، وإنما الذي اختلف فقط هو جنس الفئة المملوكية التي تربعت على عرش السلطنة، وحتى هذه الميزة التي عدها المؤرخون فارقاً، لم تكن سمة مطلقة، ففي الدولة الثانية التي سميت بالدولة الشركسية، نسبة إلى سلاطينها الشراكسة، اعتلى عرشها سلاطين من أصل رومي، كالسلطان خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م)،[1] والسلطان تمربغا (وُلي وعُزل سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧-١٤٦٨م)،[2] وإنما المؤرخين المحدثين درجوا على استخدام هذا المصطلح لتسهيل الدراسة، فتناولوا كل دولة على حدة، مع أن عصر المماليك لم يمتد طويلاً كالدولة العباسية أو الدولة العثمانية.

---

[1] ابن شاهين: نزهة الأساطين، ص١٤٠، ابن إياس: بدائع الزهور، ٣٧٨/٢.

[2] ابن شاهين: نزهة الأساطين، ص١٤٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٦٧/٢.

أولاً: قيام دولة المماليك الثانية (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/١٣٨٢ – ١٥١٧م):

تقدم القول: اعتلى السلطان المنصور قلاوون عرش السلطنة المملوكية سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، بعد عزله لسلامش ابن السلطان بيبرس، وعُرف عنه ولعه بشراء المماليك كما يقول ابن إياس،[١] فهو أول من أقدم على شراء المماليك الشراكسة حتى بلغ عددهم أواخر حكمه حوالي ٣٧٠٠ مملوك،[٢] وقد ساعده على ذلك توفر العنصر الشركسي في أسواق الرقيق، وانخفاض ثمنه، والسبب في ذلك هو الغزو المغولي للقوقاز، فقام بإسكانهم في أبراج القلعة معزولين عن باقي المماليك، وبالتالي ضمن ولاءهم وأن يكونوا كما قال: كالأسوار والحصون المانعة له ولأولاده وللمسلمين.[٣]

سار السلطان الأشرف خليل على سُنة أبيه في الإكثار من شراء المماليك حتى بلغ عدد ما اشتراه منهم في مدة حكمه القصيرة (١٢٨٩ – ١٢٩٣م) حوالي ستة آلاف مملوك،[٤] واهتم كل من السلطان قلاوون وابنه الأشرف بالمماليك البرجية، ومنذ أيام قلاوون بدأت ترقيتهم للمناصب المهمة، وتسليمهم المراكز الحساسة،[٥] حتى أصبح البرجية أو الشراكسة قوة لا يُستهان بها، ولهم ثقلهم في السلطنة، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في الاضطرابات التي أعقبت مقتل سيدهم الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، على يد بيدرا نائب السلطنة، إذ ثارت ثائرتهم ولم تهدأ إلا بعد أن قام أحدهم؛ وهو الأمير طغجي، بقتل بيدرا.[٦]

مع تطور الأحداث أصبح العنصر الشركسي مسهم على الساحة السياسية، فدخل أفراده في صراع وتنافس كتكتل حزبي – إن صح التعبير – مع الطوائف المملوكية الأخرى، حتى تم لهم السيطرة

---

[١] بدائع الزهور، ١/١/٣٦١.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣/١٣٢.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣/ ٦٥.

[٤] ابن إياس: بدائع الزهور،١/١/ ٣٧٨.

[٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣/١٣٢.

[٦] زيتر سين: عصر سلاطين المماليك، ص٢٦ – ٢٧ . ابن إياس: المصدر السابق،١/١/ ٣٧٥ – ٣٧٦. السيد الباز العريني: المماليك، ص٦٤ . حكيم عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١١-١٤.

على مقاليد الحكم على يد السلطان برقوق، وبتتبع سيرة برقوق تتوضح مراحل تأسيس الدولة المملوكية الثانية.

كان برقوق أحد عناصر الفرقة التي كان يُطلق عليها اسم "اليلبغاوية"، نسبة إلى الأمير يلبغا بن عبد الله العمري الخاصكي الناصري، الأمير المشهور، الذي كان في أيام الأشرف شعبان أتابك العسكر، وصاحب الأمر والنهي، والحل والعقد، وقد بلغ عدد مماليكه حوالي ثلاثة آلاف مملوك، أصبح عدد كبير منهم نواب ومقدمي ألوف،[1] وأما مملوكه برقوق فهو من أصول جركسية،[2] بيع في بلاد القرم لتاجر اسمه فخر الدين عثمان بن مسافر، كان قد ابتاعه للأمير يلبغا الناصري، وقام هذا الأخير بإعتاقه، ثم قربه منه، وعندما قُتل الأمير يلبغا سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٥م، نُفي برقوق مع من نُفي من المماليك اليلبغاوية إلى الكرك، ثم أُفرج عنه وتوجه إلى دمشق سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م لخدمة نائبها منجك اليوسفي، ثم قدم إلى القاهرة مع المماليك الذين طلبهم السلطان الأشرف شعبان، وهناك عمل في القصر السلطاني في خدمة ولدي السلطان: أمير علي، وأمير حاجي،[3] ويذكر الصيرفي الترقيات السريعة التي حققها برقوق بعد عودته إلى القاهرة، فقال:"انتقل من الجندية إلى الخاصكية[4] ثم إلى إمرة طبلخانة [5] ثم إلى تقدمة

---

[1] العسقلاني: (أحمد بن علي، ت: ٨٥٢ هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ٤/ ٤٣٨.

[2] الصيرفي(علي بن داود، ت: ٩٠٠هـ): والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٠م ، ٣٣/١. المقريزي: السلوك، ٤٧٦/٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ٣١٢/٢/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١١ /١٨٢، ٢٢٣.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ٣٣/١- ٣٤ . المقريزي: السلوك، ٤٧٦/٣-٤٧٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١١/ ٢٢٣-٢٢٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ٣١٨/٢/١-٣١٩. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١٣٢/٣-١٣٣.

[4] هي الفرقة التي تلازم السلطان في خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف، وهم من المقربين في المملكة والمتعينين للإمرة، ويجهزهم في المهمات الشريفة، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٥-١١٦.

[5] كلمة فارسية معناها الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق، وتطلق على طبول متعددة وزمارات تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، جرت العادة أن تدق كل ليلة في القلعة بعد صلاة المغرب كما أنها تكون مع السلطان في سفره، وللطبلخانة أمير يكون له من المماليك ما بين أربعين وثمانين مملوك. انظر، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ٤ /١٣.

الألوف، استقر أمير آخور[١] كبير، ومَلَكَ الإسطبل[٢] وباب السلسلة، ثم استقر في الإمرة الكبرى،[٣] حتى انفرد بتدبير المملكة، فحسنت سيرته وساعدته المقادير بذهاب من يعانده".[٤]

كان برقوق على رأس إحدى المؤامرات التي أطاحت بالأمير طشتمر العلائي الدوادار الذي كان يشغل منصب الأتابك[٥] والتي انتهت بتوليه برقوق لهذا المنصب سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧ م،[٦] "ولما استقر في الأتابكية[٧] أجمل المسيرة في الرعية بالسياسة، وشمل الناس منه أنواع الخيرات والفضائل"،[٨] بدا

---

(١) أمير آخور: المتحدث على إسطبل السلطان، والآخور معناها المعلف، فيكون معنى أمير آخور، أمير المعلف، لأنه المتولي لأمر الدواب. القلقشندي: صبح الأعشى،٥ /٤٣٣.

(٢) أي الإسطبل السلطاني الذي يضم الخيول والأسلحة وهو موجود داخل أسوار القلعة. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/٤٧٤-٤٧٥. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١٢٥-١٢٦.

(٣) لم يكن هذا اللقب منذ بداية استعماله يدل على وظيفة معينة، فكان يُطلق على كبار الأمراء، وفي سنة ٧٥٥هـ أُطلق على الأمير سيف الدين شيخو بصفته أمير العساكر، ومنذ ذلك الوقت صار يطلق على الأتابك على الرغم من وجود أمراء كبار إلى جانب الأتابك، وبعد سنة ٧٦٨هـ استخدم للدلالة على الرتبة الثانية بعد أتابك العسكر، هذا مع العلم أن لقب أمير كبيري لا يستلزم دائماً أن يكون صاحبه أمير كبير. انظر: ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٢. محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٤٩.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ١ /٣٥ — ٣٦ . المقريزي: السلوك، ٤٧٦/٣.

(٥) كان طشتمر هذا نائب الشام، فقدم إلى مصر سنة ٧٧٩هـ/ حيث أُسندت إليه أتابكية العسكر، في الوقت الذي كان فيه برقوق أمير آخور كبير ويسكن الإسطبل السلطاني، والأمير بركة الجوباني كان برتبة أمير مجلس، ولما أخذ طشتمر هذا في العمل حسب القواعد والقوانين؛ عظم ذلك على برقوق وبركة، فاتفقوا على عزله وإقامة برقوق مكانه في ذي الحجة سنة ٧٧٩هـ/. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/١٦٠-١٦٣. ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبد الباسط، ت: ٩٢٠هـ): نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا — بيروت، ٢٠٠٢م، ١٣٠/٢.

(٦) العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٦٩م، ١٥٥/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٣٥/٢. المقريزي: السلوك، ٣/٣٢٢-٣٢٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١ /١٦٢-١٦٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٢١٩-٢٢٠.

(٧) أي الأتابك: يتألف اللفظ من مقطعين أتا أو أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، استخدم أيام السلاجقة، كانوا يطلقونه على من يولونه الوصاية ورعاية سلطان أو أمير قاصر، وكثيراً ما تزوج هذا من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية، وفي العصر المملوكي أُطلق على قائد العسكر على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء. محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٤.

(٨) الصيرفي: نزهة النفوس،١/ ٣٥ .

وكأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد "ففي هذه السنة تزايد الرخاء بمصر"،[1] فاستبشر الناس خيراً بعهد الأتابك برقوق حتى قيل فيه:

إن برقوق لغصن كعبه في الناس أخضر [2]

في هذه المرحلة سيطر على الساحة السياسية كل من: الأمير برقوق، والأمير بركة الجوباني، فكانا أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير، وهما من الأمراء اليلبغاوية، شغل الأمير برقوق منصب الأتابك، وشغل الأمير بركة منصب أمير مجلس،[3] وكان بيدهما الحل والعقد، وبدأ التنافس بين الأميرين في شراء المماليك من جنسيهما " استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما"، كما أخذا "يبذلان الجاه لتابعهما، ويوفران الإقطاع لمن يُستخدم لهما، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدول إليهما وإلى أبوابهما"،[4] فانصرف الناس عن السلطان إلى برقوق وبركة اللذان" نصبا على الدنيا شبكة ".[5]

لم يكن هناك بُدٌّ من وقوع الصدام بين المتنافسين مادام كل واحد منهم يطمح للغاية نفسها؛ وهي السلطنة، وقد أشار المقريزي إلى ذلك معللاً وقوع التحاسد بين الطرفين بأن طبع الملوك "الانفراد بالمجد ومحبة الاستئثار بالملك"،[6] وبالفعل؛ فبعد تطورات يطول شرحها، اصطدم الأميران وأتباعهما في معارك طاحنة في أرجاء القاهرة سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م،انقسم فيها العسكر إلى فرقتين "فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة أتراك هم أصحاب الأمير بركة"[7] وبعد جولات من المعارك

---

(1) العسقلاني: إنباء الغمر، ١/١٥٥.

(2) العسقلاني: إنباء الغمر، ١/١٥٥.

(3) هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ومن عمله أيضاً أن يتولى أمر مجلس السلطان، أو الأمير في الترتيب وغيره. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/٤٢٨.

(4) ابن خلدون: العبر، ٥ /١٠٠١– ١٠٠٣ .

(5) ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/١٣٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٢٢٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١ /١٦٣.

(6) المقريزي: السلوك، ٣ /٣٨١. ذكر ابن إياس أن برقوق كان ينام مع بركة على مخدة واحدة، وهما أعظم من الأخوة والأشقة، فلما أقبلت عليهما الدنيا، أفتتن بينهما، ودخل بينهما التحاسد، وطمع كل واحد منهما بتدبير الملك على انفراد. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٢٥٦، ٢٦٠.

(7) المقريزي: المصدر نفسه، ٣ /٣٨٣.

كانت فيها الغلبة بشكل ظاهر لأتباع الأمير بركة الذين "كسروا أصحاب برقوق عشرين كسرة"،[1] أصبح موقف الأمير برقوق حرجاً، وأخفقت حيله عندما حاول إرضاء الأمير بركة بنيابة الشام،[2] فلم يجد بُداً من الاستماتة في القتال، فاستعان بالعوام والذعر، واستظهر بهم على بركة،[3] فقبض عليه ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية في ١٣ ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠ م،[4] وبذلك خلا الجو من المنافسين لطموح الأمير برقوق الذي استبد بتدبير شؤون المملكة، ولا سيما بعد أن أفنى مماليك بركة "نفياً وقتلاً، وقرب الجراكسة وأبعد الترك"،[5] وعدّ المؤرخون هذه الحادثة نهاية الدولة المملوكية الأولى (التركية)، وفي ذلك يقول ابن قاضي شهبة: "وانقرضت دولة الأتراك بأسرها، وتتبعوا فقتل بعضهم ونفي بعضهم وسجن بعضهم".[6]

وللتخلص من أي خطر قد يسببه الأمير بركة في المستقبل؛ أرسل الأمير برقوق إلى والي الإسكندرية الأمير صلاح بن عرام سراً يأمره بقتل بركة في السجن، وبعد أن نفذ الوالي المهمة تظاهر برقوق بغضبه من الوالي متهماً إياه بقتل بركة بدون إذن مسبق، فأحضره إلى القاهرة، وقُتل على يد مماليك بركة، وقد أقدم برقوق على هذه الحيلة ليمتص غضب أخوة بركة وأتباعه الذين تنمروا وأرادوا القيام على برقوق.[7]

---

[1] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢١١/١. ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبي بكر، ت: ٨٥١ هـ) : تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٧٧، ١/ ٢٤٢.

[2] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢١١/١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٢٤٢/١.

[3] العسقلاني: أنباء الغمر، ٢١١/١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١ / ٢٥ .

[4] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢١١/١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٢٥/١-٢٦. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٦٦/٢. المقريزي: السلوك، ٣٨١/٣-٣٨٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٢٥٧/٢/١-٢٦١.

[5] العسقلاني: أنباء الغمر، ٢٥٧/١.

[6] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٦. وقد علق المقريزي على هذه الحادثة بالطريقة نفسها إذ قال: (فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا، ونفوا وسجنوا... ولله عاقبة الأمور) السلوك، ٣/ ٣٨٥. وانظر أيضاً ابن شاهين: نيل الأمل، ١٦٦/٢.

[7] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢١٥/١.ابن قاضي شهبة: المصدر السابق،١/ ٣٢- ٣٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٦٩/٢. المقريزي: السلوك، ٣٩٦/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١ /٢٠٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٢٧٣/٢/١-٢٧٤.

وشكلت هذه الواقعة حدثاً مهماً في تاريخ السلطنة المملوكية، انفرد بعدها برقوق بتصريف أمورها، بعد أن غدا سيد الموقف بلا منازع، والسلطان إذ ذاك الصالح حاجي بن الملك الأشرف شعبان، "صغير لا يفهم الخطاب، ولا يرد الجواب"،[1] وعندما قلده الخليفة السلطنة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م بعد وفاة أخيه علي بن شعبان،[2] جعل الأمير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغر سنه، ويقول ابن خلدون إن ببيعة الصالح حاجي، ضُرب للأمير برقوق بها سهم، أي أصبح شريكاً بالسلطنة،[3] وعندما شعر برقوق بأن الرعية "آنست بحسن سياسته وجميل سيرته"[4] ولمس في نفس الأمراء الموافقة على سلطنته،[5] قام بجمع الخليفة مع القضاة وسائر الأمراء، وبدأت المسرحية كالعادة بأن تكلم برقوق بحاجة البلاد إلى إقامة سلطان كبير تجتمع عليه الكلمة ويقوم بأعباء الحروب والتدبير ونحو ذلك،[6] ولما لم يكن هناك من ينافس الأمير برقوق، اتفق الجميع على سلطنته "لما اجتمع فيه من الدين والمعرفة والشجاعة والتمكين"،[7] وفي يوم الأربعاء ١٩ رمضان ٧٨٤هـ تشرين الثاني/١٣٨٢م خُلع الملك الصالح وبويع برقوق سلطاناً ولُقب بالملك الظاهر.[8]

---

[1] الصيرفي: نزهة النفوس، ج١/ ٣٦.

[2] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢٣٢/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٧٥/٢. المقريزي: السلوك، ٤٣٩/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١ /٢٠٦-٢٠٧. ابن إياس: بدائع الزهور، ٢٨٥/٢/١.

[3] ابن خلدون: العبر، ١٠١١/٥.

[4] ابن خلدون:العبر، ٥/ ١٠١٥.

[5] الصيرفي: نزهة النفوس، ٣٦/١.

[6] المقريزي: السلوك، ٣/ ٤٧٥. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٩٥/٢.

[7] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٦.

[8] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٨٦/١. العسقلاني: إنباء الغمر،١/ ٣٠١. المقريزي: السلوك، ٤٧٥/٣، ٤٧٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ١٩٥/٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١ /٢٢١. ابن إياس: بدائع الزهور، ٣١٢/٢/١، ٣١٨. حكيم عبدالسيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص٣٧-٦٠.

ثانياً: اضطراب الأوضاع في بلاد الشام:

١- سلطنة برقوق الأولى والاضطرابات في بلاد الشام:

ببيعة برقوق سلطاناً على المماليك تنتهي دولة المماليك الأتراك وتبدأ دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، لكن هذا لم يعني نهاية المشاكل، بل على العكس، فقد عصفت بالبلاد سلسلة من الثورات والمؤامرات استنزفت قوى البلاد، وأيقظت الأحقاد، وأطاحت بالنهاية بسلطنة الظاهر برقوق مدة من الزمن، فلم ينعم برقوق في سلطنته الأولى (٧٨٤-٧٩١هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٩م) بشيء من الاستقرار وحلاوة الملك، بل تعرض لثورات ومحاولات انقلاب عديدة.

بدأ برقوق بإجراءات تهدف للتخلص من المماليك الترك، فنفى بعضهم، وصادر أملاك وإقطاعات آخرين، وقال عن المماليك الأشرفية[١]: "لا آمن منهم على شيء لأنهم خونة، وقد خانوا أستاذهم، وأعانوا على هلاكه بشيء حقير من المال... فلا بارك الله فيهم"،[٢] ونتيجة للإجراءات التي اتخذها برقوق بحقهم ساءت أحوالهم حتى أصبح بعضهم "ممن كان من أمراء الألوف أيام الأشرف وقد صار فقيراً يسأل الناس"[٣].

حنق المماليك الترك على الظاهر برقوق، وبات عليه الاستعداد لمواجهة انتقامهم، وكانت أول محاولة تمرد قامت ضده ثورة الأمير علاء الدين ألطنبغا نائب الأبلستين، إلا أنه لم يوفق في تمرده وفرّ إلى سيواس.[٤]

أخفقت ثورة نائب الأبلستين، لكنها فتحت الباب لحركات التمرد، ودللت على الرفض التركي للحكم الجركسي عندما صرح بذلك الأمير ألطنبغا وهو خارج من سيواس إلى بلاد المغول قائلاً: " لا أكون في دولة حاكمها جركسي".[٥]

---

[١] أي مماليك الأشرف شعبان.

[٢] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٥٠ . ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/٨٨.

[٣] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٥٠.

[٤] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٩٢، المقريزي: السلوك، ٣/ ٤٨١-٤٨٢، الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٥٣- ٥٤.

[٥] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١/ ٢٢٩.

حتى الخليفة العباسي المتوكل على الله لم يَرُقْ له الحكم الجركسي، فتحالف مع الترك سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م واتفقوا على اغتيال برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان، لكن السلطان كشف المؤامرة وعزل الخليفة وعين مكانه خليفة جديد وعاقب باقي المتآمرين.[١]

على أن أخطر المنافسين على الإطلاق كان هو نائب حلب الأمير يلبغا الناصري أحد أفراد الفرقة اليلبغاوية.

كان يلبغا الناصري من قبل أحد ثلاثة أشخاص سيطروا على شؤون السلطنة ومقدراتها، هو والأمير بركة والأمير برقوق، كان قد نفي إلى الشام على إثر مقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م ثم عاد إلى القاهرة، عين أمير طبلخانة، ثم رقي إلى أمير ومقدم ألف ورأس نوبة في الوقت الذي لم يتأمّر فيه برقوق على عشرة، وفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م أصبح كل من برقوق وبركة أمراء طبلخانة، ثم بدفعة واحدة أصبح برقوق أمير آخور كبير وسكن الإسطبل السلطاني، وبركة أمير مجلس، ثم نجح الأميرين الأخيرين بإبعاد يلبغا عن الساحة، حيث تم عزله عن إمرة السلاح، وسجنه، ثم إرساله سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م نائباً على طرابلس، ثم استدعاه برقوق – بعدما أصبح أتابك العسكر– على إثر ثورة إينال الجركسي اليوسفي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م وسلمه إمرة السلاح مكان إينال هذا، لكن في الفتنة التي وقعت بين بركة وبرقوق سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م وقف يلبغا الناصري إلى جانب بركة، لذا قام برقوق بإرساله إلى سجن الإسكندرية مع مَنْ اعتقله، وبقي في سجن الإسكندرية إلى أن اعتلى برقوق السلطنة؛ فأحضره إلى القاهرة، وقَبَّل يلبغا الأرض بين يديه تائباً؛ فعفا عنه برقوق، وأسند إليه نيابة حلب.[٢]

في سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م شعر برقوق بخطر يلبغا، ولا سيما بعد أن تباطأ في تنفيذ أوامر السلطان القاضية باعتقال سولي بن دلغادر التركماني أحد أعداء السلطنة عندما قدم إلى حلب طائعاً، بل قام بتهريبه، وادعى بأنه هرب ولما لحقه لم يدركه، مما أوغر قلب السلطان ضده، فاستدعاه إلى

---

[١] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٢٧٥، ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/١١٠.

[٢] انظر: العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٧١، ٢٧٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٢٤٩، ٢٦٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١/١٥٣، ١٥٥، ١٥٨–١٦٠، ١٦٢–١٦٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٩–١٨٠. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ١٢٤، ١٢٩–١٣٠، ١٣٥، ١٣٨–١٣٩، ١٦٦.

القاهرة، ومن هناك أرسله مكبلاً إلى سجن الإسكندرية،[1] ثم عفا عنه وأرسله مرة أخرى إلى حلب سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م،[2] وفي نيابته لحلب للمرة الثانية تمرد على السلطنة نائب ملطية الأمير تمربغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش، وانضم إليه صاحب سيواس، ونائب البيرة، إلا أن يلبغا لم ينضم لهذا التحالف، بل نفذ أوامر السلطان بالتحرك ضدهم لإخضاعهم، حيث هاجم ملطية فهرب منطاش، كما نازل سيواس، وعلى الرغم من استعانة أهلها بالأرمن والمغول إلا أن يلبغا كسرهم، وبادر صاحب سيواس إلى طلب الصلح وإعلان الطاعة، فكان له ذلك.[3]

٢- ثورة الأمير يلبغا الناصري نائب حلب وانعكاساتها على الأوضاع في بلاد الشام:

ورد عند المؤرخين إشارات إلى تحالف تم بين منطاش ويلبغا الناصري صاحب حلب،[4] ولا بد بأن شيئاً من هذا وصل إلى مسامع السلطان، ناهيك عن أن العلاقة بين السلطان برقوق ويلبغا لم تكن شفافة، ويشوبها الحذر والشك، ونعلم بأن يلبغا أُسر مرتين على يد برقوق، لذا عندما وقعت الفتنة بين الأمير سودون المظفري[5] أتابك العسكر آنذاك وبين يلبغا، كتب كل واحد إلى السلطان في الآخر، فأرسل السلطان إلى الناصري هدية جليلة وكتاباً يأمره فيه بالحضور إلى القاهرة، وقبل الناصري الهدية، لكنه اعتذر عن الحضور بحجة خوفه على حلب من التركمان ومن منطاش، وربما كان يشعر بنية السلطان تجاهه، أما السلطان فقد تظاهر بقبول العذر وأرسل مع الأمير تلكتمر المحمدي؛ دواداره الصغير بكتابين إلى حلب، واحد ظاهري لسودون ويلبغا يأمرهما فيه بالتصالح أمام الأمراء وكبار حلب، والآخر باطني كتب فيه لسودون بالقبض على يلبغا والفتك به.

---

[1] العسقلاني: إنباء الغمر، ٣٠٢/١، الصيرفي: نزهة النفوس، ١١٥/١، ١١٩. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٢٦/٢، ٢٢٩. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٣٥٩، ٣٦١.

[2] الصيرفي: نزهة النفوس، ١٥٨/١، ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ١٨١، ٢٢٢، ٢٢٣. العسقلاني: الدرر الكامنة، ٤/ ٤٤٠، ٤٤١. المقريزي: السلوك ٣/ ٥٦٧.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٣٢-٣٣٣، الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٥٨، المقريزي: السلوك، ٥٦٧/٣، ٥٧٤، ٥٧٦، ٥٧٩.

[4] العسقلاني: إنباء الغمر، ٣٦٤/١. ابن صصرى (محمد بن محمد بن صصرى): الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تح: وليم م. برينر، كالفورنيا، ١٩٦٣م، ص ٣-٤.

[5] الأمير سودون المظفري أتابك العسكر في حلب في ذلك الوقت، كان من قبل نائب حلب، فعندما تم تولية يلبغا نيابة حلب للمرة الثانية عُزل سودون وعين أتابكاً فيها، انظر: المقريزي، السلوك، ٣/ ٥٦٧.

وصل تلكتمر إلى حلب، وقبل وصوله علم يلبغا الناصري بما دُبر له، وفي الاجتماع المعقود لإقرار الصلح بين الطرفين؛ اغتنم الناصري الفرصة وبادر بقتل سودون المظفري وبعض مماليكه، ثم قصد قلعة حلب فأخذها بالقوة، وأطاعه جميع من بحلب من الأمراء والعسكر، وقبض على عدد من الأمراء الذين خشي أمرهم، وصار يستدعي التركمان والعربان، فولى وعزل وقطع ووصل، ثم قَدِمَ عليه منطاش وقدّم له الطاعة، ولما وصل الخبر إلى طرابلس ثار الأمراء الترك المنفيون بها على النائب أسندمر، فقتلوه وتسلم النيابة الأمير بزلار، وأعلن الطاعة ليلبغا الناصري، وقبض على من كان بها من الجركس، ثم دخل الأمير كشمبغا المنجكي نائب بعلبك في طاعة الناصري، وفي حماه تمرد حاجبها الأمير سيف الدين بيرم العزي على النائب سودون العثماني الذي فر هارباً، وتسلم مكانه الحاجب الذي أعلن الطاعة للناصري، ثم دخل كل من سولي بن دلغادر أمير التركمان، ونُعَير أمير عرب شمال الشام في طاعة الناصري.[1]

وبذلك خرجت بلاد الشام كلها تقريباً من يد برقوق إلى يد الناصري الذي أعلن أمام الرأي العام خضوعه للخليفة،[2] واتفق مع أتباعه على إعادة دولة الناصر محمد بن قلاوون بتعيين واحد من ذريته، كما أنه كان هناك عدد من الأمراء المماليك بالديار المصرية على اتصال واتفاق معهم.[3]

في القاهرة اضطربت الأوضاع بعد سماع هذه الأخبار، فقام السلطان ببعض الترتيبات، ثم شكل فرقة على رأسها الأمير أيتمش أتابك العسكر، والأمير جركس الخليلي أمير آخور وغيرهم من الأمراء، وأمرهم بالمسير إلى الشام، حيث خرجت العساكر من القاهرة في ١٤ ربيع الأول ٧٩١هـ/ آذار ١٣٨٩م،[4] ودخلت دمشق في ١١ ربيع الآخر/ نيسان ١٣٨٩م،[5] وهناك تقرر بعد الاجتماع بنائبها

---

[1] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/٣٦٤-٣٦٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٨٣- ١٨٧. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤. ابن الفرات: تاريخه، ٩/٥٠ - ٥٦. المقريزي: السلوك، ٣/ ٥٩٠ - ٥٩٧. ابن تغري بردي: النجوم، ١١/٢٥٦-٢٦٠. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ٢٦٨-٢٧١. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٣٦-١٠٣٧. ومنهم من يذكر بأن بيرم نائب حماه فر هارباً إلى دمشق من يلبغا الناصري الذي ملك حماه، ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٣٩٦/٢. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٤-٧.

[2] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٦٥.

[3] ابن الفرات: تاريخه، ٥٧/٩ . ٥٨. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٨٩.

[4] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٩١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/٢٦٧- ٢٦٨.ابن الفرات: تاريخه، ١/٥٨، ٦١. ابن تغري بردي: النجوم، ١١/ ٢٦٩. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٦-٧.

[5] الصيرفي: نزهة النفوس، ج١/ ١٩٢. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٧-٨.

الأمير حسام الدين طرنطاي إرسال وفد من العلماء إلى حلب لدعوة الناصري للصلح، ولما وصل الوفد إلى الناصري أحسن استقبالهم وأكرمهم ووعدهم بالجميل، ثم غافلهم وسار إلى دمشق وطوى خبره، في حين كان العسكر المصري هناك قد تشاغل "باللهو واللعب وشرب المنكرات، فلم يشعروا إلا والأخبار قد تواترت بأن يلبغا الناصري قد وصل إلى دمشق".[1]

اشتبك الفريقان في خان لاجين شمال دمشق، فقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، وكان النصر من نصيب الناصري، حيث فر العسكر المصري "لا يلوي أحد على أحد، كل يريد النجاة بنفسه ويسلك طريقاً".[2]

دخل الناصري دمشق في ١٢ ربيع الآخر ٧٩١هـ/١٣٨٩م؛ فاستولى عليها وعلى قلعتها من غير قتال ولا ضراب، ولما وصلت الأخبار إلى مصر بذلك "خارت قوى السلطان وأخذ أمره في الاضمحلال"،[3] ومن دمشق سار يلبغا الناصري يريد القاهرة بعد أن عيّن الأمير جنتمر نائباً عليها، واجتمع لديه نواب وأجناد بلاد الشام،[4] ولما اقترب من القاهرة أَمَرَ السلطان برقوق بإغلاق أبوابها، واتخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة الحصار،[5] لكن بشكل عام سيطر الخوف والذعر على القوات في القاهرة، وانتشرت الفوضى هناك، وقد تزامنت مع تردي الأوضاع الاقتصادية وانتشار مرض الطاعون

---

[1] ابن الفرات، تاريخه: ٦٣/٩. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٩-١٠. ابن تغري بردي: النجوم، ٢٦٢/١١-٢٦٤. المقريزي: السلوك، ج٥٩٨/٣، ويقول بأنه التقى بالوفد فيما بين قارة والنبك أثناء مسيره إلى دمشق.

[2] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٧٠. ابن الفرات: تاريخه، ١/ ٦٣. ابن تغري بردي: النجوم، ٢٦٤/١١-٢٦٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ٥٩٩. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢/ ٣٩٧. ابن خلدون: العبر، ١٠٣٨/٥.

[3] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٧٠- ٢٧١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٧٣/٢. أما الصيرفي فعلق على الحدث قائلاً بأن دولة السلطان بعد المعركة (أسفرت ومضت كأن لم تكن ساعة من الأيام)، نزهة النفوس، ١/ ١٩٧.

[4] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٠٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ٢٧٢. ابن خلدون: العبر، ١٠٣٩/٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٨.

[5] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٩٧، ٢٠٢.ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٧١. المقريزي: السلوك، ٦٠٨/٣ - ٦١٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٧١/١١-٢٧٤.

بشكل لم يتمكن فيه الناس من دفن موتاهم،[1] ويُجمل ابن تغري بردي أوضاع القاهرة آنذاك بقوله: "وصار الأمر فيها لمن غلب".[2]

التزم السلطان برقوق بالدفاع، ولم يقم بأي عمل هجومي، وربما كان من الأفضل لو نقل المعركة إلى خارج القاهرة.

على كل حال أقبلت طلائع الناصري في ٤ جمادى الآخرة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م "كأنها الموت الأحمر"،[3] وأول من اصطدم معهم قجماس ابن عم السلطان برقوق، فلم يُسفر هذا القتال عن نتائج مهمة، ولكن وَضَحَ تخاذل الناس عن الملك الظاهر برقوق، إذ بدأ بعض الأمراء بالهروب من عنده والانضمام إلى جانب يلبغا على الرغم من كثرة ما أنفقه السلطان عليهم من أموال،[4] ولما رأى السلطان أنه لا طائل من المقاومة آثر تجنيب القاهرة الخراب وسفك الدماء، لذا أرسل إلى يلبغا يعرض عليه الصلح والتنازل عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته، فكتب له الناصري أماناً، وحرص على الالتزام به، لذا فقد أوصى حامل هذا الأمان بأن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمراً،[5] وكان ذلك؛ ففي يوم الاثنين ٥ جمادى الآخرة دخل يلبغا الناصري وعَسْكَرَ في القاهرة، وفي يوم الثلاثاء أحضر الصالح حاجي بن الأشرف شعبان وعقد له السلطنة ولقب هذه المرة بالملك المنصور، وجعل الناصري أتابكه.[6]

كانت السلطة الفعلية آنذاك بيد الأمير يلبغا الناصري، ولم يكن للسلطان حاجي من السلطة إلا اسمها، وقد سيطرت مظاهر الفوضى على الوضع العام في القاهرة، فانتشرت المماليك، والترك، والذعر ينهبون ويسلبون "إلى أن ضاق بالناس الخناق من كثرة النهب، والخوف، وقلة الأمن، وشدة الأمور،

---

[1] عن أوضاع القاهرة آنذاك، انظر، ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٢٧٥/١. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٠٢. المقريزي: السلوك، ٦٠٨/٣ – ٦٠٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٧٣/١١.

[2] ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ١١/ ٢٧٣.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢٠٨/١.

[4] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٨٣ –٨٤. المقريزي: السلوك، ٦١٤/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٨١/١١–٢٨٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢/ ٤٠٠– ٤٠١. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٠/٥.

[5] ابن الفرات: تاريخه، ٨٧/٩. المقريزي: السلوك، ٦١٥/٣. العسقلاني: إنباء الغمر، ٣٦٨/١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٨٥/١١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢/ ٤٠٢. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٠/٥.

[6] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٧٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ٢٧٤.

واتفاق حوادث لم يقع مثلها بالديار المصرية"،[1] وهذا زاد في نقمة الناس على السلطة بشكل جعلهم يرددون عبارة "راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه".[2]

اعتُقل السلطان برقوق ونُفي إلى الكرك،[3] واعتُقل عدد كبير من أتباع الظاهر برقوق، ونودي بمن بقي من أتباعه بترك مصر والتوجه لخدمة نواب الشام، ومن تأخر حل ما له ودمه،[4] وذلك رغبة من يلبغا في إبعادهم عن حلبة الصراع في القاهرة، وسيُلاحظ أن هذا الأمر سوف يخدم الظاهر برقوق فيما بعد.

لم تستقم الأمور ليلبغا الناصري سوى أشهر قليلة، حتى بدأت الفتنة تشتعل بينه وبين الأمير منطاش في شهر شعبان من تلك السنة،[5] أما عن أسباب الفتنة، فقد ذكر ابن خلدون أن منطاش كان طاوياً جناحه على الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الإقطاع، ولم يجعلوا له اسماً من الوظائف حين اقتسموها، ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعته الأعداء، فاستوحش وأجمع على الثورة،[6] ففي شهر شعبان بدأت مظاهر التمرد عندما عزم الناصري ورأس نوبته ألطنبغا الجوباني على إبعاد منطاش إلى الشام، فتغيّب منطاش عن الخدمة وتمارض، ولما أرسل السلطان الأمير ألطنبغا الجوباني لعيادته، سارع منطاش بالقبض على الجوباني واعتقاله مع مماليكه،[7] ثم ركب مع مماليكه إلى الإسطبل السلطاني وصادر

---

[1] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٩٠.

[2] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٢٧.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٦٩. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ٢٧٥. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٢/٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٩-٢٠.

[4] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٢٤- ٦٢٥، ٦٣٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٠٧/٢/١.

[5] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٨١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٢٤-٢٥.

[6] ابن خلدون: العبر، ٥/ ١٠٤٢. وذكر العسقلاني أن خاطر منطاش تغيّر (بسبب أشياء سأل فيها، فلم يجبه الناصري إليها، وفهم من الناصري أنه يطلب السلطنة لنفسه) إنباء الغمر، ١/ ٣٧٢.

[7] ابن خلدون: العبر، ١٠٤٣/٥.ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٨١. العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١١/٢/١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٢٤.

الخيول الموجودة هناك، وحاول الدخول ليدهم الناصري على حين غفله، فغُلقت الأبواب في وجهه ولم يتمكن من الدخول.[1]

وبعد أن اجتمع لديه عدد من المماليك والفرسان أصبح هو المتحكم في شؤون القاهرة، بل نصّب والياً عليها هو الأمير ناصر الدين المعروف بابن يعلي بعد أن توارى والي القاهرة –الأمير حسين بن علي الكوراني– عن الأنظار، وقد نادى الوالي الجديد بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وإبطال المكوس والدعاء للأمير منطاش بالنصر.[2]

شعر الناصري بضعف موقفه، فطلب من الخليفة التوسط لعقد الصلح وإخماد الفتنة، فرفض منطاش التنازل، وخاطب الخليفة قائلاً: "أنا في طاعة السلطان.. لكن غريمي الناصري لأنه خان الوعود والأيمان، فإنه حلف لي أيمان متعددة بسيواس وبحلب والشام بأني أكون أنا وإياه شيئاً واحداً، ... وانفرد بالمملكة.. ولم يجعل لي من المال سوى مئة ألف درهم وأخذ هو ما لا يحصر من الأموال، وأخرج أحسن الإقطاعات وأضافها لنفسه وأعطاني أحقرها... والله ثم والله ما أكف عنه حتى أقتله أو يقتلني أو يقيم سلطاناً يتصرف في الأمور"،[3] وعاد القتال بين الطرفين سجالاً إلى أن هرب الناصري في ١٨ شعبان حيث استولى منطاش على الإسطبل السلطاني ودخل إلى الخليفة معلناً الطاعة والولاء له،[4] أما يلبغا الناصري فقد قُبض عليه وأرسل مع عدد من الأمراء إلى سجن الإسكندرية.[5]

بدا منطاش للوهلة الأولى أنه سيد الموقف في القاهرة، لكن هو الآخر لم تستتب الأمور له، وكانت نهايته على يد الظاهر برقوق.

---

[1] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٣٤ – ٢٣٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١١/٢/١. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٣/٥.

[2] ابن الفرات: تاريخه، ١١٧/٩–١١٨. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٢٨١/١ –٢٨٢. الصيرفي: نزهة النفوس: ١/ – ٢٣٧.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٣٧ – ٢٣٨.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٨٢– ٢٨٣. ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ١٢٣–١٢٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١٢/٢/١.

[5] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١٢/٢/١–٤١٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/ ٢٧٧.

بدأ منطاش بتعقب المماليك الجراكسة، ولا سيما الظاهرية منهم "فأبادهم قتلاً وحبساً"،[١] وبدأ يقرب أتباعه ويوليهم، ثم أرسل إلى نائب الكرك الأمير حسن الكجكني رسالة مع شخص من أهل الكرك اسمه الشهاب البريدي؛ فيها أمر بتصفية الظاهر برقوق المسجون هناك،[٢] إلا أن النائب ماطل في تنفيذ الأوامر، ولما علم أهل الكرك بالأمر قتلوا الشهاب البريدي وسحبوه إلى أمام السلطان برقوق وقالوا له: "دس برجلك على عدوك".[٣]

وسرعان ما تطورت الأمور لصالح برقوق، إذ أعلن أهل الكرك الطاعة له ومكنوه من الاستيلاء عليها وعلى حصنها في رمضان ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، ثم توافد عليه المماليك الجراكسة الموجودين في بلاد الشام ناهيك عن العربان من بني عقبة وغيرهم،[٤] ومن جهة ثانية فقد خرج عن طاعة منطاش في ذلك الشهر كل من نُعَير أمير العرب وبزلار نائب دمشق،[٥] وفي شهر شوال خرج الأمراء المنفيون في قوص عن الطاعة عندما سمعوا بخبر برقوق في الكرك، وقبضوا على الوالي هناك،[٦] ثم قدم الخبر بخروج نائب حلب كشمبغا الحموي عن طاعة منطاش بعد سماعه بالخبر ذاته.[٧]

تجمع لدى الظاهر برقوق قوة عزم على الخروج بها إلى دمشق، وبالفعل سار لمحاصرتها، ولما خرج نائبها الأمير جنتمر[٨] للتصدي له، اشتبكوا بمعركة في شقحب هُزم فيها جنتمر وفر هارباً إلى قلعة دمشق حيث تحصن بها.[٩]

---

[١] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٤، المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٥٠- ٦٥١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٧٧- ٢٧٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤١٣.

[٢] ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٧٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤١٣-٤١٤.

[٣] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٥٠- ٢٥١. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤١٤- ٤١٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٢٥. الشهاب البريدي شخص من أهل الكرك وكان مكروه عندهم لأمور عدة. المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٥٦. أما العلاقة بين نائب الكرك والسلطان المأسور عنده فكانت علاقة طيبة. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٤١٥، كما يذكر المؤرخون بأن الناصري لما شعر بقرب زوال ملكه أرسل إلى الكجكني بإطلاق سراح برقوق. انظر: ابن الفرات: تاريخه، ٩/١٤٠، المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٥٧.

[٤] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٥١. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٧.

[٥] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٥١. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٥.

[٦] المقريزي: السلوك، ١/ ٦٦٢. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٨-١٠٤٩. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤١٦.

[٧] المقريزي: السلوك، ١/ ٦٦٢. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٩-١٠٥٠. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤١٦.

[٨] لما خرج بزلار نائب دمشق عن طاعة منطاش تمكن الأمير جنتمر من القبض عليه واستلام النيابة بدلاً منه بعد أن وعده بها منطاش. انظر، المقريزي: السلوك، ٣/٦٥٥.

[٩] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٥، المقريزي، السلوك، ٣/ ٦٦٧. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٤٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٨٠. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص٢٦-٢٧.

نزل الظاهر برقوق في قبة يلبغا جنوبي دمشق ومعه قوة صغيرة لا تساعده على حصار دمشق، واتفق في هذا الوقف خروج كشمبغا نائب حلب على منطاش، فقام بإرسال تجريدة من مئتي مملوك لمساعدته،[1] وفي هذه الأثناء انتصر برقوق على نائب غزة ابن باكيش، واحتوى على جميع أثقاله، فقوي بذلك،[2] كما وصل إليه من صفد ابن عمه الأمير قجماس، والأمير إينال اليوسفي، بعد أن تمكن أحد مماليك الظاهر من إخراجهما من السجن، فقدما إليه ومعهما مجموعة من المماليك وهو نازل على قبة يلبغا "فكانوا له فرجاً عظيماً"[3] وعندما وصل نائب حلب بذاته إلى برقوق قويت أحواله "بعد أن كادت تتلاشى"،[4] وأكثر من ذلك فإن خروج الأمراء بقوص كما ذُكر من قبل وانضمام المماليك الظاهرية إليهم[5] أعطى فرصة قوية لبرقوق للتحرك اغتناماً لوقوع منطاش بين نارين.

٣- معركة شقحب ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م وسلطنة برقوق الثانية:

أَهَلَّت سنة ٧٩٢هـ/ أواخر سنة ١٣٨٩م وديار مصر وبلاد الشام من الفرات إلى أسوان كما يقول المقريزي: في غاية الاضطراب، وترقب الشر، فقد خرج منطاش من القاهرة على رأس العسكر المصري؛ ومعه السلطان والخليفة، يريد قتال برقوق، فوصل غزة في ٢ محرم ٧٩٢هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٣٨٩م، وعندما علم برقوق بخروجه فك الحصار عن دمشق، وتوجه جنوباً إلى وادي شقحب حيث التقى الجمعان في ١٤ محرم/ ٣ كانون الثاني ١٣٩٠م.[6]

في اللقاء الأول تعرضت قوات برقوق لهزيمة فر على إثرها كشمبغا نائب حلب عائداً إلى بلاده، كما عاد الأمير حسن الكجكني إلى الكرك، إلا أن الظاهر برقوق ظل يقاتل بشراسة إلى أن تمكن من هزيمة القلب، واعتقال الخليفة والسلطان، في حين أن منطاش ساق خلف المنهزمين من قوات برقوق

---

[1] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٢٩١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص٣٤.

[2] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٦١. العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٥. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٧/٥.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٦. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٦٣. ابن خلدون: العبر، ١٠٤٨/٥.ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١٧/٢/١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٣٣.

[4] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣٧٦. ابن خلدون: العبر، ١٠٥٠/٥. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٨٥/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤١٨/٢/١-٤١٩.

[5] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

[6] المقريزي: السلوك، ٣/ ٦٩٠، ٦٩٢ -٦٩٤. ابن خلدون: العبر، ١٠٥٢/٥-١٠٥٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٨٤/٢-٢٨٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٤٣، ٤٩.

ودخل دمشق ظاناً أنه حقق النصر،[1] وصار الأمراء من أتباع منطاش الذين ساقوا خلف المنهزمين من قوات برقوق يعودون إلى معسكرهم في شقحب ظناً أن العسكر هناك هو عسكر منطاش، فإذ يُفاجؤون بالملك الظاهر، "فينزل ويبوس الأرض ويطيع الظاهر، ومن لم يُطِعْ إما أن يقتل أو يقبض عليه"،[2] وهكذا أصبح الظاهر في اليوم الثاني وعنده جيش كثيف التقى به مع منطاش؛ الذي أقبل إليه بعدد كبير من عامة دمشق وعسكرها، وبعد قتال دام منذ شروق الشمس حتى غروبها يوم ١٦ محرم/٥ كانون الأول أُجبر منطاش في آخره على التراجع إلى دمشق والتحصن بها، أما الظاهر برقوق فقد ظل مقيماً هنا سبعة أيام،[3] إلى أن غلت الأسعار وقلت الأقوات، فقام بجمع أهل الحل والعقد وأشهدهم على المنصور حاجي أنه خلع نفسه، وبايع الجميع برقوق الذي شرع على الفور في تولية النواب، بعد هذه البيعة استقر الرأي على العودة إلى مصر، فوصلها في ١٤ صفر ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م حيث استقبل في القاهرة استقبال الأبطال.[4]

٤- سلطنة برقوق الثانية ٧٩٢-٨٠١هـ/ ١٣٩٠-١٣٩٩م وإرساء دعائم سلطنة المماليك الثانية:

بعد عودة السلطان الظاهر برقوق إلى القاهرة قام بمجموعة من الأعمال والترتيبات لإعادة الاستقرار إلى السلطنة، كما بات عليه التخلص من العناصر المعارضة له، فقام بحركة ذكية؛ إذ عمد إلى ضرب الأطراف المناوئة له ببعضها، فأخرج بعض الأمراء المسجونين في الإسكندرية، ومنهم الأمير يلبغا الناصري والأمير ألطنبغا الجوباني، فعفا عنهم، وعين الجوباني نائباً لدمشق، ثم عبأ قوة وقدّم عليها يلبغا

---

[1] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/٢٨٤. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٥٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٨٥.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٢٧-٤٢٨. ابن الفرات: تاريخه، ٩/١٨٦. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣١٩- ٣٢١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٤٩-٥٠.

[2] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ١٨٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،١١/٢٦٩. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٥٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٨٥.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٢٨. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٥٠.

[3] سبعة أيام على قول الصيرفي في نزهة النفوس، ١/ ٢٨٥، وعلى قول ابن الفرات تسعة أيام، تاريخه، ٩/ ١٨٧.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣٢٢ - ٣٢٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١/٣٧١. الصيرفي: نزهة النفوس: ١/ ٢٨٦. ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ١٨٧ - ١٨٨.المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٠٣- ٧٠٤. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٥٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٨٥-٢٨٨.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٢٨-٤٢٩.

الناصري وأمرهم بالمسير لقتال منطاش في دمشق،[1] وخاطبه قائلاً : "هو غريمك، اعرف كيف تقاتله".[2]

في ذلك الوقت كان هناك عدد من المماليك المنطاشية هربوا من الشام إلى مصر تاركين خدمة منطاش، بالإضافة إلى الأمير قطلوبغا الذي أُرسل من قبل منطاش لمحاصرة صفد فتركها وتوجه إلى السلطان طائعاً،[3] لذا عندما تقدم العسكر المصري إلى دمشق تركها منطاش هارباً إلى حمص بسبب قلة قواته، فدخلها الجوباني وعليه خلعة النيابة في جمادى الآخرة ٧٩٢هـ/نيسان ١٣٩٠م.[4]

كان منطاش قد أرسل جيشاً بقيادة أحد الأمراء واسمه تمان تمر الأشرفي لحصار حلب بعد توجه السلطان إلى مصر عقب معركة شقحب، فصمد نائبها كشمبغا الحموي مدة أربعة شهور ونصف أمام الحصار، وعندما سمع تمان الأشرفي بهروب منطاش من دمشق، ترك الحصار وهرب هو الآخر.[5]

اجتمع الطرفان في معركة قرب سلمية في شهر شعبان ٧٩٢هـ/ تموز ١٣٩٠م، لم تُسفر عن انتصار أو هزيمة أحد الأطراف، إلا أن الجوباني قُتل فيها وجُرح منطاش،[6] فرسم السلطان بنيابة دمشق ليلبغا الناصري،[7] في حين كان منطاش قد فر هارباً إلى حلب، ثم إلى عينتاب، ومنها إلى مرعش.[8]

---

[1] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٢٩٦ – ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣٣٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٣٥-٤٣٦. المقريزي: السلوك، ٣/٧١٠، ٧١٢.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٩.

[3] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٢٠٦، المقريزي: السلوك، ٣/ ٧١٢، الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٠٢. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٥٩.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣٣٦ -٣٣٧. المقريزي: السلوك، ٣/ ٧١٥. العسقلاني: إنباء الغمر، ١/٣٩٧. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٦٣ ٦٤.

[5] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٢١٤- ٢١٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/١٢-١٣. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٥٩-١٠٦١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٣٩. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣٤١. المقريزي: السلوك، ٣/ ٧١٧.

[6] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٢١٨- ٢١٩. ابن خلدون: العبر، ٥/١٠٥٨-١٠٦٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/٣٤٢- ٣٤٣. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٦٦.

[7] المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٢٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٩٥.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٤٠.

[8] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣١٤، ٣٢٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٢٩٦، ٣٠١.ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٤٤٠. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٣٦٨.

عاد منطاش مهاجماً حماه؛ ففر نائبها إلى طرابلس، ثم هاجم حمص حيث فر نائبها إلى دمشق، ومن هناك توجه إلى بعلبك، فقصده يلبغا الناصري ولكن من طريق مغاير للطريق الذي قدم فيه منطاش، لذا فقد أضله، ودخل منطاش دمشق في مطلع شهر رجب ٧٩٣هـ/١٣٩١م دون مقاومة تذكر، فمكث فيها إلى آخر الشهر، حيث تمكن الناصري من دخولها.[١]

لم تُعجب السلطان هذه الحركات، وقرر حسم الأمر بنفسه، فانطلق بنفسه على رأس جيش من القاهرة إلى دمشق فدخلها في ٢٢ رمضان، ومنها سار إلى حلب ماراً بحمص وحماه لتأكيد سلطته هناك.[٢]

صحيح أنه لم يتمكن من القبض على منطاش، لكنه تخلص من عدوٍ آخر لا يقل خطراً عنه، وهو يلبغا الناصري، فقبض عليه في حلب بعد أن بلغه بأن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة من الناصري، وأنهما اجتمعا في الحمام بدمشق ثلاث مرات، وكل ما وقع من منطاش كان بموافقة الناصري، وعندما قُبض على منطاش من قبل أحد الأمراء في ماردين؛ وهو الأمير سالم الدوكاري، وأراد تسليمه إلى السلطان، منعه من ذلك الناصري وكتب له: " خذ منطاش واهرب فإنه ما دام منطاش موجوداً نحن موجودين"، ولما تأكد السلطان من ذلك قام الناصري.[٣]

---

[١] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٢٨- ٣٣٠. ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٢٥٥، المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٤٢- ٧٤٣. ابن إياس: بدائع الزهور: ١، ق٢/٤٤٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٠٣/٢. ابن خلدون: العبر، ١٠٧١/٥- ١٠٧٢.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤/١٢-١٥. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٠٧/٢. المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٤٨- ٧٥٠. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ٩٣، ٩٩.

[٣] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٢٧١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٤٤٧ -٤٤٨. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣١١/٢. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٠١. المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٥٣ (يذكر اسم الأمير سالم الذكري)، وهذا أحد أمراء التركمان، قبض على منطاش عند ماردين، وأراد تسليمه، وأرسل للسلطان بذلك، لذلك أرسل السلطان نائب حلب قرادمرداش لتسلمه، وأعقبه بيلبغا الناصري، ثم عدل الدوكاري عن رأيه ورفض تسليمه بأمر من الناصري. ابن خلدون: العبر، ١٠٧٤/٥.

عاد السلطان برقوق إلى القاهرة ولم يتمكن من القبض على منطاش، الذي عاد للتحرك في بلاد الشام إذ هاجم سلمية سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م،[1] كما هاجم حماه،[2] وفي الأخير احتال عليه نائب حلب الأمير جلبان واعتقله، فقُتل، وحُمل رأسه، وطيف به في شوارع حلب، ثم جيء به إلى القاهرة حيث عُلق رأسه على باب القلعة ثم على باب زويلة.[3]

وبذلك يكون السلطان قد تخلص من أخطر مناوئيه في بلاد الشام ليستتب إلى حدٍ ما الحكم للمماليك الجراكسة.

[1] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٣٣٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣٩/١٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٣٠/٢. المقريزي: السلوك، ٧٨٣/٣. ابن خلدون: العبر، ١٠٧٧/٥.

[2] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٥٨. ابن تغري بردي: النجوم، ٤٠/١٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٣٠/٢. المقريزي: السلوك، ٧٨٣/٣.

[3] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٤٧٠- ٤٧١. ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٣٣٨- ٣٣٩. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٣٢/٢-٣٣٣. المقريزي: السلوك، ٧٨٥/٣-٧٨٦. ابن خلدون: العبر، ١٠٨٧/٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٣٩.

ثالثاً: الاجتياح التيموري لبلاد الشام واحتلال دمشق:

ترافق قيام دولة المماليك الثانية مع ظهور قوة جديدة في الشرق من المغول الجغطائيين بقيادة زعيمهم تيمورلنك.

قبل الحديث عن تيمورلنك؛ لا بد من توضيح معنى مصطلح المغول الجغطائيين، فجنكيز خان الذي أسس إحدى أكبر الإمبراطوريات في التاريخ قام قبيل وفاته بتقسيم إمبراطورية بين أربعة من أبنائه (باتو، وجغطاي، وتولوي، وأوكتاي)، فكانت بلاد ما وراء النهر مع المناطق الممتدة من جبال ألطاي حتى نهر جيحون من نصيب ابنه جغطاي، ويقال له كداي،[١] فعرفت البلاد نسبةً له ببلاد جغطاي وأهلها بالجغطائيين.[٢]

ظلت خانية جغطاي تابعة لخان المغول في العاصمة قراقورم حتى وصول الخان (دوا) Dauwa إلى حكمها حوالي ٦٩٠-٧٠٦هـ/١٢٨٩- ١٣٠٦م وهو الخان العاشر من سلسلة خانات جغطاي،[٣] ليبدأ في عهده نوع من الاستقلال عن التبعية لأبناء جنكيزخان، وتأكد الاستقلال بشكل أكبر في عهد ابنه كبك الذي استلم الحكم سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، فبنى عاصمة مستقلة، وسك نقوداً خاصة باسمه،[٤] ثم خلفه أخوه ترماشيرين ٧٢٧- ٧٣٤هـ/ ١٣٢٦- ١٣٣٤م، الذي اعتنق الإسلام وبدأ بنشره هناك،[٥] لكنه قتل على إثر ثورة قامت ضده بسبب اعتناقه الإسلام وتغيره لمبادئ الياسا.[٦]

---

[١] ابن خلدون: العبر، ٥/ ١١٢٠-١١٢١، ١١٢٨. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ١/١٦٤-١٦٥.

[٢] كلافيجو (السفير الإسباني): سفارة إلى تيمورلنك ١٤٠٣- ١٤٠٦، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ص ٢٣٢، ٢٣٥، كانت ممالك القراخطائيين من نصيب جغطاي، وكانت حدود مملكة تشمل ما يعرف اليوم بتركستان (سواء تركستان الغربية أو الشرقية أو تركستان الأفغانية) وكانت عاصمته مدينة قتاس. انظر، عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٣٧.

[٣] زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المترجمين، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٧٠.

[٤] بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٢٤.

[٥] ابن خلدون: العبر، ٥/ ١١٢٩. بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٢٦. أطلق هذا على نفسه اسم علاء الدين، وقد قابله الرحالة ابن بطوطة ووصف بأنه عظيم القدر كثير العساكر والجيوش، الرحلة، ١/ ٢٨٦، ٢٨٩.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ٣٨٩-٣٩٠.

وبالنسبة للمرحلة التي تلته فقد اكتنفها الغموض حتى قيام تيمورلنك الذي كان ظهوره سبب في ظهور عدد من المؤلفات التاريخية، لكنها لم تتناول الحقبة السالفة له.(١)

١- تيمورلنك:

هناك خلاف حاد وغموض حول الأصول التي انحدر منها تيمورلنك، ولكن اعتماداً على النقش الموجود على قبره يتبين بأن نسبه يلتقي بجنكيزخان عن طريق جده العاشر قراجا ابن عم جنكيزخان،(٢) وكان جنكيز خان عندما قسّم إمبراطوريته وأعطى لجغطاي حصته، وأسند إلى ابن عم جغطاي وهو " قراجا "- أحد أجداد تيمورلنك- أمور مملكة جغطاي وجيشه، وأوصى جنكيز خان ابنه جغطاي بالاعتماد على قراجا الذي أظهر كفاءة عالية بفضل رجاحة عقله وإدارته الحازمة،(٣) وبناءً على ذلك يكون قراجا الحاكم الفعلي لمملكة جغطاي آنذاك.

أما ابن عربشاه الذي عاصر تيمورلنك؛ فقد كتب ترجمة له وذكر بأنه من منشأ وضيع، فأبوه كان راعياً أو إسكافياً، وابنه تيمور لصاً، وقد أصيبت كتفه وقدمه في إحدى عمليات السطو فصار أعرجاً.(٤)

وبالنسبة لابن خلدون الذي قابل تيمورلنك في دمشق فإنه شكك في نسبه إلى جنكيز خان، فقال: "لا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم، ويقال أنه من غير نسبهم،... وما أدري أهو طينة من نسب جغطاي أو من أحلافهم وأتباعهم".(٥)

أما السفير الإسباني كلافيجو الذي زار كيش سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٣م فقد ذكر أن تيمورلنك بدويٌ من قبائل جغطاي الذين قدموا إلى المنطقة على إثر الاجتياح المغولي للمنطقة أيام جنكيزخان، أما

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٣١-٢٣٢.

(٢) أورد بلوشيه النص كاملاً في كتابه:

Bloch et (E): Introduction a l' histoire des Mongols. London، 1910، p 61.

(3) Bloch et: I bid. p. 62.

معتمداً في ذلك على ما كتبه المؤرخ الفارسي علي يزدي في كتابه ظفر نامه.

(٤) ابن عربشاه (أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي): عجائب المقدور في نوائب تيمور، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، ٥/ ١١٢٩.

والده فكان رجلاً من أسرة جيدة، ونبيلاً امتلك ثلاثمئة إلى أربعمئة خيّال، غير أنه ذكر بأن تيمورلنك في صباه كان لصاً، وقاطع طريق حتى أن يده وقدمه أصيبتا في إحدى جولات السرقة وصار بعدها أعرجاً.(١)

وهناك بعض المؤرخين المحدثين ممن يصر على نسب تيمورلنك التركي، وأنه من قبائل تركية قدمت مع جنكيزخان، أو من القبائل المغولية المتتركة، لذا يعدون وصوله إلى الحكم نهاية للحكم المغولي وبداية لمرحلة كان فيها الطابع التركي هو السائد.(٢)

مهما كان أصله مغولياً أم تركياً أم مغولياً متتركاً، ومهما اختلفت الروايات في نسبه، فالواقع التاريخي يثبت أنه كان يمثل امتداداً فعلياً للمغول وسلطانهم، وأن تاريخه يمثل جزءاً من التاريخ المغولي العام.

ولد تيمورلنك حوالي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م في مدينة كيش أو كش(٣) Kech جنوب سمرقند في إقليم ما وراء النهر.(٤)

كان في بداية حياته، وقد التف حوله مجموعة من الشباب، يقوم بعمليات الإغارة على القطعان والمواشي، فيسلب الأبقار والأغنام، ثم تطورت به الحال لأن أصبح قاطع طريق ويجبي من التجار الأتاوات والمكوس.(٥)

---

(١) كلافيجو: سفارة إلى تيمورلنك، ص٢٣١ -٢٣٤.

(2) Saunders: The Histroy of the mongol conquests. London. 1971. P 173.

مظهر شهاب: تيمورلنك، رسالة دكتوراه في جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨١م، ص ٩٥.

ويذكر بارتولد أن القبائل المغولية القاطنة في ما وراء النهر تتركت بدليل أنها نست لغتها الأصلية واستعاضت عنها باللغة التركية. بارتولد: تاريخ الترك، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) تقع على نهر كشكا داريا في إقليم ما وراء النهر، وقد اشتهرت سابقاً باسم شهر بزاب أو شهر سبزاي أي (المدينة الخضراء) لي سترانج: بلدان الخلافة، ص٥١٢ -٥١٣.

(٤) بارتولد: تاريخ الترك، ص ٢٣٥-٢٣٦. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٥٥٩. ينفرد ابن عربشاه بذكر اسم قرية "خواجه إيلغار" على أنها القرية التي ولد فيها تيمورلنك وهي من ضواحي مدينة كش. عجائب المقدور، ص ٩.

(٥) يذكر هذا الكلام السفير الإسباني كلافيجو نقلاً عن أهل مدينة كش. انظر: سفارة إلى تيمورلنك، ص٢٣٢.

أُصدر بحقه من قبل سلطان سمرقند أمراً بالإعدام، ثم عُفي عنه بعد وساطة أقربائه الذين كانوا يعملون في البلاط السمرقندي، ثم أصبح هو الآخر يعمل في البلاط.[1]

في سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م قُتل حاكم بلاد ما وراء النهر، وسادت الفوضى بشكل استدعى قدوم الأمير تغلقتيمور –وهو الحاكم للقسم الشرقي لخانية جغطاي– إلى بلاد ما وراء النهر لفرض السيطرة عليها، وأحدث قدومه اضطراباً شديداً بين أمراء ما وراء النهر، ففر قسم منهم إلى خراسان، أما تيمورلنك فقد تم استدعاؤه من قبل هذا الأمير، ولما أعجب به أعطاه حكم مملكة بلاد ما وراء النهر كلها، ثم نزعها منه وأعطاها لابنه إلياس خواجه، وجعل تيمورلنك مستشاراً له.[2]

ظل تيمورلنك مستشاراً لإلياس خواجه بن تغلقتيمور، غير أن الأخير أساء السيرة في سكان ما وراء النهر، واتبع سياسة الاضطهاد والتنكيل، فأعلن تيمورلنك الثورة ضده، وخاض صراعاً مريراً ضد الجغطائيين، بحيث لم تأت سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م إلا وتيمورلنك هو سيد بلاد ما وراء النهر[3].

وبعد سيطرته على ما وراء النهر بدأ تيمورلنك يسير بخطوات سريعة نحو تأسيس إمبراطورية شاسعة امتدت في أقصى اتساعها من نهر الفولغا في روسيا شمالاً حتى دمشق جنوباً، ومن أزمير غرباً حتى نهر الغانج في الهند شرقاً، فبعد أن ضم خوارزم إلى سلطانه، شرع في غزو فارس سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨١م حيث عبر نهر جيحون نحو هراة عاصمة الكرت وتمكن من السيطرة عليها، وحتى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م كان قد استولى على تبريز وشيراز وأصفهان وكرمان ودخل جورجيا وأرمينيا.[4]

---

[1] كلافيجو: سفارة إلى تيمورلنك، ص٢٣٣.

[2] تيمورلنك: مذكرات تيمور، ص٨-١١.

[3] تيمورلنك، مذكرات تيمور، ص ١١ وما بعد.

[4] البدليسي: شرفنامة، ٢/٦٠-٦٧.

Browne، Aliterary history of Persia، Vol. III، The tartar dominion، 1265-1502، Combridge university press، 1951، p 160، 190.

Howorth: History of the Mongols: part III، p. 661 – 662.

٢- اجتياح بلاد الشام:

لم تكن بلاد فارس وأذربيجان وجورجيا غاية تيمورلنك، وإنما كان يتطلع إلى أكثر من ذلك غرباً، بلاد الشام وآسيا الصغرى، فالوصول إلى المتوسط شكل عبر التاريخ حلم لكل الإمبراطوريات الشرقية.

في بلاد الشام كانت السلطنة المملوكية تمثل قوة خطيرة أو عقبة كبيرة أمام تيمورلنك، فجيوشها المدربة تمكنت قبل قرن ونصف تقريباً من إنزال ضربات موجعة ومميتة بالمغول، وردتهم على أعقابهم إلى ما بعد الفرات شرقاً، إلا أن سلطنة المماليك في هذه الآونة كانت تعاني من مشاكل داخلية نتيجة الصراع على السلطة ما بين المماليك الترك والمماليك الشراكسة، حتى تمكن السلطان برقوق من حسم الصراع لصالحه سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، ثم سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م -كما تبين آنفاً- وهو أمر استنزف الكثير من قوة السلطنة، نظراً لكثرة المعارك الداخلية التي دارت هناك.

لم تكن السلطات المملوكية أيام فرج بن برقوق الذي خلف والده سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م، تجهل خطر تيمورلنك، لكنها كانت تتجاهله، وعلى قول ابن تغري بردي: إنه لما وصلت الأخبار باقتراب تيمورلنك "لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور، ولا التفت إلى ذلك، بل كان جل قصد كل أحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها، ويدع الدنيا تنقلب ظهراً لبطن"،[١] وهذا على الرغم من وصول التحذيرات والتنبيهات المتتالية منذ عدة سنوات.

ففي تجريدة أُرسلت سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م إلى الفرات "لكشف أخبار تيمورلنك" علمت السلطات بأخبار تقدمه وأنه وصل إلى آمد،[٢] ناهيك عن تكرار عمليات القبض على شبكات تجسس تابعة لتيمورلنك في مصر والشام،[٣] مما كان يزيد في إيضاح نوايا تيمورلنك العدوانية، واقتصر رد الفعل المملوكي على إرسال السلطان برقوق بعض الأمراء لحفظ بلاد الشام من المغول بعد أن كثرت الإشاعات بقصد تيمورلنك بلاد الشام،[٤] ثم إنه في سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م دخلت العلاقات المملوكية التيمورية مرحلة جديدة بعد أن سيطر تيمورلنك على بغداد وأصبح على تماس مع الحدود المملوكية.

---

[١] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢١٧ - ٢١٨.

[٢] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ١٤. المقريزي: السلوك، ٥٦٥/٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٤٩/٢.

[٣] ابن الفرات: تاريخه، ٩ / ١٤. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٩. المقريزي: السلوك، ٣/ ٨٠٢.

[٤] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ١٤.

في بغداد كان الحكم لأحمد بن أويس أحد أفراد الأسرة الجلائرية،[1] وقد تمكن في سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م من الفرار أمام تيمورلنك إثر هجومه على تبريز،[2] فتوجه إلى بغداد، لكنه لم يصبح بمنأى عن خطر تيمورلنك الذي زحف باتجاه بغداد سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، فأرسل له ابن أويس يسأله في الكف عن بغداد ويجهز له ما اختار من الأموال، فتظاهر تيمورلنك بالقبول، ثم هاجم بغداد من الجهة الغربية، فما كان من ابن أويس إلا أن فر هارباً ولاذ بحمى السلطان برقوق في القاهرة.[3]

تشير المصادر إلى أن تيمورلنك أرسل وفداً إلى السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، ولما وصل هذا الوفد إلى الرحبة، أرسل نائبها إلى السلطان يسأله في شأن هذه السفارة، وتمكينها من الوصول إلى القاهرة، فجاءه الرد بعدم تمكين أعضاء الوفد من بلوغ غايتهم – الوصول إلى القاهرة –، وعدم السماح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يتسببوا في موتهم، وفعلاً فقد تم قتلهم، وكان عددهم حوالي أربعين رجلاً، باستثناء البغداديين وعددهم تسعة،[4] وبذلك يكون الظاهر برقوق قد صرح بالعداء لتيمورلنك، الذي استشاط غضباً وأرسل فيما بعد رسالة شديدة اللهجة تنكر على برقوق قتل السفراء.[5]

انسحب تيمورلنك من بغداد باتجاه الشمال سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م بعد أن علم بمقتل رسله، فأغار على الموصل، ورأس العين، والرها، وفي الرها لم يمكث سوى يومين سار بعدها إلى ماردين؛

---

[1] بعد وفاة الخان المغولي أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ تفككت الإيلخانية وتأسس على أنقاضها عدة دول كان من بينها الدولة الجلائرية التي ضمت العراق وأذربيجان وكانت عاصمتها تبريز، ومؤسسها هو شيخ حسن الكبير. انظر: ابن خلدون: العبر، ٥/ ١١٦٧ –١١٧٣. شعبان طرطور: الدولة الجلائرية، دار الهداية، ١٩٨٧م، ص٧ وما بعد. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٣٦١.

[2] العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٣١٢.

[3] ابن قاضي شهبة، تاريخه، ١/ ٤٧٢– ٤٧٣، ٥٠٤. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٦٣–٣٦٤، ٣٧٥. ابن خلدون: التعريف برحلته شرقاً وغرباً، تح: محمد بن تاويت الطنجي، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٣٦. المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٨٧– ٧٨٩، ٧٩٩– ٨٠١. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٦٤/٢/١. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٤٠.

[4] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٣٦٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٤٧٩. المقريزي: السلوك، ٧٩٧/٣.

[5] المقريزي: السلوك، ٣/ ٨٠٣– ٨٠٧. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٣٧٩– ٣٨١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٧– ٥٠٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٦٦/٢/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٣/٢.

فأباحها لجنوده الذين دخلوها "عنوة وقهراً، وملأوها فسقاً وكفراً"،[1] بعد أن أخفقت محاولات نائبها مجد الدين عيسى في مهادنة تيمورلنك، ثم هاجم آمد، وأعمل فيها الخراب والدمار،[2] وكان قبل ذلك قد التقت قوات مُجردة من نائب حلب مع قوات تيمورلنك على مقربة من الرها سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، فتمكن العسكر الحلبي منهم، وقتلوا مقتلة عظيمة، وأسروا منهم جماعة، وهرب الباقي.[3]

بالنسبة للظاهر برقوق فإنه أمر عساكره بالتأهب للخروج إلى الشام لقتال تيمورلنك،[4] وقرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش الذي سار في "أبهج زي وأفخر هيئة وأحسن ملبس"، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة،[5] وقد خرج الجيش في ربيع الآخر ٧٩٦هـ/ شباط ١٣٩٤م وكان برفقة السلطان برقوق أحمد بن أويس سلطان بغداد، وقد وصل الجيش إلى دمشق في ٢٢ جمادى الأولى.[6]

في ذلك الوقت انسحب تيمورلنك نحو الشرق بعد أن وصلته أخبار تفيد بهجوم طقتمش خان القفجاق على منطقة الأبواب الحدودية بين الدولتين،[7] وبذلك تأجل الصدام مع الجيش المملوكي – الذي وصل بلاد الشام – إلى وقت آخر تكون فيه الظروف أفضل.

أما بالنسبة لبرقوق الذي وصل دمشق في جمادى الأولى ٧٩٦هـ/آذار ١٣٩٤م فقد أرسل عساكره إلى الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لمواجهة أي هجوم مفاجئ يقوم به تيمورلنك،[8] وأثناء

---

[1] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ٦٨– ٧١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٣٩/٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٤، ٥١٣.

[2] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٧١– ٧٣.

[3] ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٣٧٠. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٢/٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٧. العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٤٧٣.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٢/٢.

[5] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٥٤– ٥٥. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٥١.

[6] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٠٩. ٥١٢. العسقلاني: إنباء الغمر، ١/ ٤٧٥. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٣/٢، ٣٤٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٤٦٧–٤٦٨. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٥١.

[7] ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٦٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٥/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٦٩/٢/١. عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٣٦، ٢١٩/٢– ٢٢٠.

[8] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٥٦. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٧/٢.

إقامته في الشام سار قُدماً في تشكيل تحالف أو جبهة موحدة ضد تيمورلنك من خلال سلسلة من التحالفات مع قوى المنطقة، إذ تبين للظاهر برقوق بوضوح مدى أطماع تيمورلنك في السلطنة المملوكية، وفي سبيل ذلك – أي تشكيل تحالف– بالغ في الاهتمام بأحمد بن أويس، وخصه بعناية كبيرة،[١] واصطحبه معه في الجيش الذاهب إلى الشام، وعندما وصل إلى دمشق؛ وبعد أن علم بمسير تيمورلنك إلى بلاده، كتب لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد، بعد أن جهزه وأنعم عليه بمبلغ "ذهب وفضة عين نقد خمسماية ألف درهم... وأخلع عليه خلعة أطلسين بشاش متمر وسيف سقط ذهب"،[٢] وبالتالي فقد حكم ابن أويس بغداد كنائب عن السلطان في القاهرة، وخطب فيها باسم الملك الظاهر.[٣]

هذا بالنسبة للجهة الشرقية، أما بالنسبة للعثمانيين في الشمال فقد أرسل السلطان بايزيد إلى برقوق أثناء وجوده في دمشق سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م سفارة تحمل الهدايا وتخبر برقوق بأن السلطان بايزيد تحت يديه مئتي ألف فارس بانتظار أوامر السلطان،[٤] كما وصل إلى السلطان في ٢٣ جمادى الأولى أثناء إقامته دمشق وفد من طقتمش خان القفجاق يعرض عليه "أن يكون هو وإياه يداً واحدة على الطاغي الباغي تمرلنك"،[٥] وفي السنة ذاتها أقدم القاضي برهان الدين حاكم سيواس على قتل أعضاء الوفد التيموري الذي جاءه يطلب منه إعلان الولاء لتيمورلنك، وأرسل إلى كل من السلطان برقوق والسلطان بايزيد يخبرهم بما فعله معلناً لهم الولاء والطاعة وطالباً منهم المساعدة.[٦]

---

[١] المقريزي: السلوك، ٣/ ٧٩٩. العسقلاني: إنباء الغمر، ٤٦٩/١.

[٢] المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٧/٢. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥١٥. ابن الفرات: تاريخه، ٩/ ٣٨٣. الصيرفي: نزهة النفوس: ١/ ٣٨٨–٣٨٩. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص ١٥٨–١٥٩.

[٣] العسقلاني: إنباء الغمر،١/ ٤٧٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٥٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٧/٢.

[٤] المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٧. ابن الفرات، المصدر السابق، ٩/ ٤٧٦. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٨/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٧١/٢/١.

[٥] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥١٢. المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٣. العسقلاني: إنباء الغمر،١/ ٤٧١.

[٦] ابن عربشاه: عجائب المقدور/ ٩٠ وما بعد. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٤٨/٢–٣٤٩. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٧١/٢/١.

لم تقتصر التحالفات على القوى الكبرى في المنطقة، بل إن الإمارات الحدودية الصغيرة سارعت للانضمام إلى الطرف الأقوى، فإمارة ماردين التي كان تيمور قد أخذها حيلة؛[1] لم تبق على ولائها له، بل سارعت للانضمام إلى حلف سلطنة المماليك عندما قام واليها مجد الدين عيسى بإرسال سفارة سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م إلى القاهرة يعلن فيها ولاءه للسلطان المملوكي الذي أجابه بالشكر، وكتب له تقليداً بنيابة ماردين.[2]

وبذلك فقد تشكلت جبهة قوية في وجه تيمورلنك، لكن هذه التحالفات ظلت شفوية ولم تترجم على أرض الواقع، ذلك أن تيمورلنك اغتنم الفرصة وسدد ضرباته في الوقت المناسب كما سيتبين.

ففي شهر شوال ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م توفي السلطان برقوق، وخلفه ابنه فرج الذي كان لا يزال في العاشرة من عمره،[3] كما أنه لم يتمتع بكفاءة أبيه ومقدرته، لذلك عمت البلاد حالة من الفوضى والفتن،[4] بالإضافة إلى أن السلطان العثماني الذي كان يُعد حليفاً للسلطنة المملوكية استغل هذه الظروف وقام بالاستيلاء على ملطية والأبلستين التابعتين للسلطان المملوكي،[5] وبذلك انتهى التحالف العثماني المملوكي.

بالنسبة لتيمورلنك فقد سُرَّ سروراً عظيماً عندما سمع بخبر وفاة السلطان برقوق،[6] فأوقف أعماله على الجبهة الشرقية ليتفرغ لأعمال جديدة على الجبهة الغربية، اغتناماً للفرصة حيث سيطرت مظاهر الفوضى على السلطنة وعلى السلطان الصغير، كما أن التحالفات التي شكلت فيما سلف رادعاً لتيمورلنك، لم تعد الآن موجودة، كل ذلك جعله يتجه بسرعة نحو الغرب سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م، وقد

---

[1] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٦٩ وما بعد.

[2] المقريزي: السلوك، ٣/ ٨٩٨. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣٩٣/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤٩٩/٢/١.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ٤٩٣، ٢/ ٥- ٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٣/٣-٢٤.

[4] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٠٧. يمكن قراءة أحداث سنة ٨٠١ وسنة ٨٠٢هـ عند المقريزي والعسقلاني وابن الفرات وغيرهم من المؤرخين لمعرفة حجم الفوضى والثورات التي قامت ضد السلطان الصغير وكان أخطرها على الإطلاق ثورة (تنم) نائب دمشق حيث أطاعه نائب صفد ونائب طرابلس.

[5] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٥٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ٩٧١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢٨/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٧٩/١٢.

[6] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٠٠- ١٠١.

أخفى السبب الحقيق، وادعى أن خلافاً مع ابنه ميران شاه الحاكم للأجزاء الغربية من الإمبراطورية استلزم حضوره.[١]

في هذا الوقت قامت ثورة ضد أحمد بن أويس في بغداد بعد أن أساء السيرة بين رعيته وأمرائه[٢]، ففر هارباً منها؛ مستنجداً بحاكم الموصل قرا يوسف التركماني، وعندما حاول الاثنان دخول بغداد أخفقا في ذلك، لأن أهالي بغداد كانوا قد استنجدوا بصاحب شيراز، وهو يومذاك أحد أمراء تيمورلنك،[٣] فسار الاثنان ومعهما سبعة آلاف فارس إلى حلب، وهناك طلبوا من نائبها الأمير دمرداش استضافتهما، وتحديد مكان ينزلان فيه، فخشي أن يقصدوا حلب بالقوة التي معهما، فطلب المساعدة من نائب حماة الأمير دقماق، ثم التحم الطرفان بمعركة في ٢٤ شوال انهزم فيها العسكر الشامي، وأُسر فيها نائب حماه ونائب البيرة، في حين فر دمرداش إلى حلب، ثم قام أحمد ابن أويس وقرا محمد بالالتجاء إلى السلطان العثماني الذي أجارهم.[٤]

بذلك تكون العراق قد أصبحت من أملاك تيمورلنك، الذي زحف باتجاه سيواس، وأثناء مسيره إليها أخذ أرزنجان، ثم أخذ سيواس في أواخر سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م بعد أن حاصرها وقتل من أهلها مقتلة عظيمة،[٥] ومن سيواس زحف باتجاه ملطية حيث وصلها في المحرم سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م؛

---

[١] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٠١ وما بعد.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٧٩/١٢. ابن إياس: بدائع الزهور،٥٨٩/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٢٠/٣.

[٣] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٠٠ – ١٠١.ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٨٩/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٢٠/٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٣/٣.

[٤] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٠١. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٦٠– ٦١. العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ١٠٨– ١٠٩. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٨٩/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٢٠/٣. البدليسي: شرفنامه، ٦٧/٢.

[٥] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧١. ابن حجي (أحمد بن حجي الحسباني): الذيل على تاريخ ابن كثير، تح: عمر الشامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م، ص ١٩١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٤٢. المقريزي: السلوك، ١٠٢٧/٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٦/٣. البدليسي: شرفنامه، ٦٧/٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢١٦/١٢.

"فأبادها ودك أطوادها"، ثم أخذ بهسنا،[1] ومن هناك سار بجنوده إلى قلعة الروم، ومنها إلى عينتاب فأعمل فيها الخراب والدمار، وبعد أن أقام بها أربعة أيام توجه إلى حلب.[2]

في حلب اجتمع بالإضافة إلى عسكرها كل من قوات دمشق، وطرابلس، وصفد، وغزة، وحماه مع نواب تلك البلاد، وكان وصولهم إليها في ربيع الأول،[3] وعلى الرغم من كثرة العساكر المجتمعة في حلب إلا أن الكلمة كانت متفرقة "والعزائم محلولة، لعدم وجود السلطان"،[4]وقبل أن يخوض تيمورلنك المعركة معهم حاول شق صفوفهم وخلق الفوضى بينهم، وذلك بأن أرسل إلى الأمير دمرداش نائب حلب يعده بالاستمرار في نيابته إن هو أمسك بنائب دمشق الأمير سودون، وقام هذا الرسول – لكي يضع دمرداش في موقع محرج – بمخاطبته أمام بقية الأمراء بأن تيمورلنك قدم إلى حلب بناءً على مكاتبة منه يقول له فيها "إن البلاد ليس بها أحد"، فحنق عليه دمرداش وقتله.[5]

كان جيش تيمورلنك يضم أخلاطاً من الشعوب،[6] قدّر ابن خلدون عدده بمليون مقاتل،[7] واستغرق مسيره من عينتاب إلى حلب على قول ابن عربشاه سبعة أيام، حيث ظهر أمامها في تاسع شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ/تشرين الأول ١٤٠٠م.[8]

---

[1] ابن عربشاه: عجائب المقدور،ص ١١٨. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٦/٣. ورد عند ابن عربشاه أن تيمورلنك أخذ ملطية بعد بهسنا، وفي الواقع بهسنا هي جنوب غرب ملطية، وحملة تيمورلنك قدمت من الشمال إلى الجنوب، وعليه فاحتلال ملطية الواقعة في طريقه أفضل له وأكثر واقعية من احتلال بهسنا ثم العودة إلى ملطية. (انظر الخريطة)

[2] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧١-٧٢. ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١١٨- ١١٩. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤ / ١٤٤- ١٤٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٩٣/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٢٨/٣-١٠٢٩.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٩٣/٢/١. دي ميجنانللي (تاجر ايطالي كان مقيم في القدس أيام الاجتياح التيموري): حياة تيمورلنك، تر:أحمد سليمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٩.

[4] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢١/١٢.

[5] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٩٦/٢/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٨/٣.المقريزي يذكر بأن هذا الكلام من تنميق تيمورلنك ليفرق بين العساكر، أما ابن عربشاه فإنه لا يتردد في جعل نائب حلب خائناً وموافقاً في الباطن لتيمورلنك. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٢، ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٢٢.

[6] يقول ابن عربشاه أن جيشه كان يضم: (رجال توران وأبطال إيران ونمور تركستان، وبيور بلخشان، وصقور الدشت والخطا، ونسور المغول، وكواسر الجتاد، وأفاعي خجند...) انظر، عجائب المقدور، ص ١١٧-١١٨. أيضاً الصيرفي: نزهة النفوس، ٧٤/٢-٧٥.

[7] ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٨٢.

[8] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٢٢. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٩٧/٢/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٨/٣.

في حلب تداول الأمراء الموجودون هناك إجراءات الدفاع والتصدي، فاختلفت الآراء بين الدفاع عن المدينة من الداخل؛ أم الخروج إلى خارج الأسوار لملاقاة القوات المغيرة، واستقر في النهاية رأي الأمير دمرداش نائب المدينة على القيام بهجوم عام يشارك فيه سكان حلب لرد القوات الغازية، وقد أجمع الأمراء على هذا الرأي، مع أنه –على قول ابن عربشاه– رأي غير صائب؛ وإنما قبلوا به لأن دمرداش كان صاحب البلد وعلى كلامه المعول والمعتمد.[١]

بشكل عام كانت الروح المعنوية ضعيفة، و"الأهواء مختلفة، والآراء مفلوتة، والعزائم محلولة، والأمر مدبر"،[٢] وقد بدأت المناوشات منذ اليوم الذي وصل فيه تيمورلنك، أي الخميس تاسع ربيع الأول، واستمرت أيضاً يوم الجمعة، خسرت فيها القوات المغيرة بعض الجنود،[٣] إلا أن المصاف الأكبر كان خارج المدينة يوم السبت ١١ربيع الأول/٣١ تشرين الأول، وقد استخدم تيمورلنك في هجومه على حلب الفيلة التي تقدمت قواته، وبلغ عددها حوالي ٢٨ فيل.[٤]

في بداية اللقاء ثبت العسكر المملوكي، ولكن ليس طويلاً، "فما كان غير ساعة وحتى دهمها خلق كأمواج البحر المتلاطم"،[٥] فانهارت المقاومة المملوكية، وفرت العساكر تريد المدينة، ويطاردهم العسكر التيموري "فمشى عليهم مشي الموس على الشعر"،[٦] والذي حدث أنه أثناء التراجع داس فرسان الجيش المملوكي على من كان أمامهم من المشاة، كما رموا السلاح واللباس تخفيفاً للوزن، وتزاحموا على أبواب المدينة أثناء الدخول حتى هلك خلق كثير على الأعتاب، وأمام هذه الفوضى لم تتمكن الحاميات من إغلاق أبواب المدينة، فدخلها العسكر التيموري و"أضرموا فيها النار وعاثوا بها فساداً: نهباً،

---

[١] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٢٠– ١٢١.

[٢] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢١/١٢.

[٣] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥١، ١٥٣. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص٢٠٩. ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٢٢.

[٤] السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ٢/ ٤٧. وقدأشار ابن عربشاه إلى استخدام الفيلة، عجائب المقدور،١٢٣.

[٥] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٤. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٢/١٢.

[٦] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٢٣. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٣.

وأسراً، وسفكاً،... وأسرفوا في قتل الأطفال، فلا يُرثى لبكاء صغير، ولا يستحيي من العهر في المساجد بمحضر الجم الغفير والعدد الكثير،... واستمروا على ذلك من ضحوة يوم السبت إلى يوم الثلاثاء".[1]

في الوقت الذي انصرف فيه قسم من قوات تيمورلنك للقيام بالسلب والنهب والقتل، كان هناك قسم آخر محاصراً للقلعة التي لجأ إليها الأمراء وجمع غفير من السكان، فبدؤوا بنقب أسوار القلعة وردم الخندق المحيط بها، ولما شعر الأمراء بعدم جدوى المقاومة طلبوا الأمان من تيمورلنك، فأجابهم إلى طلبهم، وكان أول من نزل إليه نائب حلب الأمير دمرداش، فأحسن استقباله وأرسل باقي الأمراء يستنزلهم من القلعة، فلما تكامل وجودهم عنده قيدهم ثم أشبعهم توبيخاً وتقريعاً،[2] وقد بدأ بمصادرة الأموال والأمتعة المكدسة بالقلعة وقد أثارت تعجبه قائلاً: "ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر".[3]

طالت إقامة تيمورلنك في حلب قرابة الشهر، اجتمع فيها مع عدد من العلماء، وناقشهم في قضايا متعددة؛ وخاصة قضية الإمام علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، وقد أظهر في المناقشة تعصبه وتشيعه للإمام علي رضي الله عنه،[4] ثم رحل عنها "وهي خاوية على عروشها، خالية من سكانها

وأنيسها وقد تعطلت من الأذان، وإقامة الصلوات، وأصبحت مظلمة بالحريق، موحشة قفراء مغبرة، لا يأويها إلا الرخم".[5]

---

[1] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٤، الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧٥ – ٧٦، ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٢٣- ١٢٤، ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص٢٠٩، العسقلاني: إنباء الغمر،٢/ ١٣٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٥٩٦-٥٩٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٨/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٣/١٢.

[2] المقريزي: السلوك، ١٠٣٣/٣-١٠٣٤. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٥٩٨-٥٩٩. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٩/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٤/١٢. دي ميجناللي: حياة تيمورلنك، ص١٢-١٣.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ١٣٥.

[4] لقد ذكر ابن عربشاه نقلاً عن ابن الشحنة هذه المناقشات بالتفصيل، عجائب المقدور،ص١٢٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٩/٣.

[5] عن مجازر المغول بحلب، انظر: المقريزي: السلوك، ١٠٣٣/٣- ١٠٣٤. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ١٥٥/٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٥٩٨-٥٩٩. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٨/٣. الصيرفي: نزهة النفوس، ٧٦/٢-٧٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٥/١٢.

وفي اليوم الذي سقطت فيه قلعة حلب (١٤ ربيع الأول)، تمكن مرزه شاه بن تيمورلنك من دخول حماه، وسوّاها "كمدينة حلب سوداء مغبرة خالية من الأنيس".[١]

خرج تيمورلنك من حلب إلى حماه، وكان قد فعل ابنه فيها ما فعل، ومن هناك سار إلى حمص، و"لم يتعرض لها بتهديد ولا تنكيد احتراماً لسيدي خالد بن الوليد"،[٢] وقبل رحيله عنها عيّن فيها أحد أبنائه، ونادى فيها بالأمان،[٣] ثم قصد بعلبك فوجدها خالية من أهلها الذين هربوا منها.[٤]

وفي دمشق اضطربت الأوضاع لدى سماع هذه الأخبار، وانتشر الذعر بين الأهالي، وحاول بعضهم الفرار؛ فمُنعوا، ونودي من سافر نُهب، واستقر الرأي على تحصين المدينة والدفاع عنها، ولا سيما بعد أن سُمع بأن السلطان خرج من القاهرة إلى دمشق، فصعد الناس على الأسوار استعداداً للقتال، وحمل القضاة السلاح تشجيعاً للأهالي،[٥] وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت مظاهر الفوضى في المدينة نتيجة انعدام وجود قيادة موحدة، فقد وجد في المدينة سلطتان أو قيادتان تتنازعان مصير البلد، كان نائب الغيبة أحد هاتين القيادتين، وقد نادى في المدينة بأنه لا يشهر أحد سلاحاً ولا يضرب بمقلاع ولا غيره لأن المدينة سوف تُسلم بالأمان، أما القيادة الثانية فمثلها نائب القلعة الذي نادى بالاستعداد للقتال لأن المدينة لن تُسلم، ومن كان محتاجاً لسلاح فليأخذ من القلعة.[٦]

---

[١] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٥ - ١٠٣٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦٠٠-٦٠١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٩/٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٥/١٢-٢٢٦.

[٢] ابن الشحنة (أبي الفضل محمد بن الشحنة): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٢٧٢. ابن شاهين: نيل الأمل، ٥١/٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٣/٢/١.

[٣] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٣٣.

[٤] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٣. المقريزي: السلوك، ١٠٣٨/٣.

[٥] ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ٢١٠ - ٢١١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ٥٩٩/٢/١. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٩/٣. المقريزي: السلوك، ١٠٣٤/٣-١٠٣٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٢٧/١٢.

[٦] ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص٢١٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢/ ٥٩٩.

أما بالنسبة للموقف في القاهرة:

اتسم موقف السلطنة بالقاهرة إزاء هذه الأحداث باللامبالاة، والعجز، وعدم إدراك حقيقة الموقف، فمع أن التحذيرات كانت تأتي تباعاً من بلاد الشام مُنذرة بالخطر التيموري، كان السلطان ورجاله قد تشاغلوا "بشرب الخمر وسماع الزمور"،[1] وأكثر من ذلك فإن إمكاناتهم السياسية كانت ضعيفة، فلم يغتنموا العرض الذي تقدم به السلطان العثماني بايزيد على إثر اجتياح تيمورلنك لسيواس؛ والذي يتضمن التحالف معهم ضد تيمورلنك، ورفضوه قائلين "يقاتل هو عن بلاده، ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا" بحجة أنه غدر بهم واحتل ملطية التابعة للسلطنة، والمصلحة تقتضي آنذاك – على قول ابن تغري بردي– الصلح مع العثمانيين، إلا أنه لم يكن هناك من اهتم للأمر، "فكان جل قصد كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها ويدع الدنيا تنقلب ظهراً لبطن"،[2] هذا أعطى تيمورلنك فرصة ذهبية لمواجهة أعدائه منفردين.

لم يكن الاستعداد المملوكي على قدر الخطر الداهم، فمثلاً في محرم ٨٠٣هـ/ آب ١٤٠٠م قُبيل وصول تيمورلنك إلى حلب، وبعد استيلائه على سيواس، وصل إلى القاهرة كتاب يقول: "أدركوا المسلمين وإلا هلكوا"، فاجتمع السلطان، والقضاة، والأمراء، وأعيان الدولة للتشاور في خطر تيمورلنك الذي وصل عينتاب في طريقه إلى حلب، فغلب على النقاش قضية جمع الأموال والنفقات اللازمة لمواجهة الخطر، والنتائج الفعلية التي تمخض عنها الاجتماع هي إرسال الأمير أسنبغا الحاجب بالديار المصرية إلى بلاد الشام لكشف الأخبار وتعبئة العساكر الشامية،[3] كما أرسلوا إلى نائب حلب أنه متى خشي من العدو يرسل إلى نائب دمشق بالحضور، ورُسم لنائب دمشق أنه متى طلبه نائب حلب يأتيه.[4]

---

[1] ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٦٠١.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢١٧ –٢١٨.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧٣. ابن تغري بردي: النجوم، ١٢/ ٢١٨. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٤٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/ ٥٩٣–٥٩٤. ابن شاهين: نيل الأمل، ٤٧/٣. المقريزي: السلوك، ١٠٢٨/٣– ١٠٢٩.

[4] ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص ١٩٢.

استمر الموقف المتخاذل على ما هو حتى بعد سقوط حلب وقلعتها، فعندما جاءهم الأمير أسنبغا – الذي توجه لكشف الأخبار– في ٤ ربيع الآخر يحمل خبر سقوط حلب وما جرى لها، كذبوه و"نسبوه إلى أغراض كثيرة".[١]

أما المشايخ والقضاة فقد كان موقفهم عكس ذلك تماماً، إذ طافوا في شوارع القاهرة يدعون الناس إلى الجهاد ضد تيمورلنك الذي "قتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والمساجد والجوامع وجعلها اصطبلات لدوابهم".[٢]

وبعد هذه المماطلة والتهرب سار جزء من الجيش المملوكي من مصر في ٨ ربيع الآخر ٨٠٣هـ/ تشرين الثاني ١٤٠٠م وعلى رأسه مقدم العسكر، ثم تبعه السلطان مع باقي الجيش في ١٠ ربيع الآخر،[٣] وفي غزة طرح الأمير تغري بردي – والد المؤرخ أبو المحاسن والنائب الجديد لدمشق بعد حبس النائب الأسبق الأمير سودون – خطة لمواجهة الخطر المغولي مفادها: أن يبقى السلطان والقسم الأكبر من عساكره في غزة، وأن يسير الأمير تغري بردي إلى دمشق لتحصينها وحض أهلها على القتال، وخاصة أن المدينة تمتاز بحصانتها، وفيها مؤن تكفي للحصار، ولدى قدوم تيمور إلى دمشق يصبح بين نارين، ناهيك عن أنه يجهل طبيعة الأرض، ولن يمكث طويلاً أمام قلة الإمدادات، لذا سيضطر للعودة ومن ثم تقوم قوات السلطان بملاحقته إلى الفرات، إلا أن الخطة رُفضت لعدم ثقتهم بالأمير تغري بردي،[٤] وعليه فقد سار الجيش كتلة واحدة حتى شارفت طلائعه مدينة دمشق في ٦ جمادى الأولى،

وفي يوم السبت الثامن منه وصل السلطان مع باقي العساكر إلى قبة يلبغا جنوب دمشق[٥]، أما تيمورلنك فقد نزل في يوم السبت ١٥ جمادى الأولى في قطنا "فملأت جيوشه الأرض".[٦]

---

[١] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٩.

[٢] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٥٩. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠١/٢/١.

[٣] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٧٩. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٣٧–١٠٣٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٢/٢/١–٦٠٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٥٠/٣.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/ ٢٣١ – ٢٣٢. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨١/٢.

[٥] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٤. يذكر المقريزي وغيره بأن السلطان وصل في ٦ جمادى الأولى إلى قلعة دمشق ثم خرج إلى قبة يلبغا في ٨ من هذا الشهر. انظر: السلوك، ج٣/ ١٠٤١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/ ٢٣٢. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨٢/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٦/٢/١.

[٦] المقريزي: السلوك، ج٣/ ١٠٤٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٣٤/١٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٦/٢/١.

تتداخل المعلومات عند معظم المؤرخين عن الاشتباكات التي حدثت بين الطرفين، إلا أن المؤرخ الدمشقي ابن قاضي شهبة الذي كان معاصراً لتلك الأحداث ومعايشاً لها، يورد معلومات مفصلة ومرتبة عن الأحداث، فيذكر أنه في العاشر من جمادى الأولى حدثت اشتباكات في مكان يدعى (جب)[1] بين بني الغزاوي وجماعة من المغول، انكسر على أثرها المغول؛ وقتل منهم جماعة،[2] ثم تكررت المناوشات في ١٨ جمادى الأولى وهزم فيها العسكر التيموري.[3]

لم تسفر المناوشات عن نتائج مهمة، سوى بعض الخسائر في مقدمة عسكر تيمورلنك، الذي سارع بنقل معسكره إلى الكسوة جنوب دمشق في ١٩ جمادى الآخرة،[4] وأصبح من هناك يراقب العسكر المصري المعسكر في قبة يلبغا.[5]

عاد تيمورلنك إلى دهائه الدبلوماسي، وأرسل إلى السلطان برسالة، يفتخر فيها بما لديه من قوات، وما هو عليه من علو الهمة والحزم، ويقترح إطلاق سراح أتلاميش،[6] وضرب السكة وإعلان الخطبة باسمه، ويكون ذلك سبباً في حسم الصراع، وقد هدد باجتياح دمشق إن لم تتم الإجابة لما طلب،[7] وقد انقسم الأمراء حيال هذا الأمر، فقد رأى فريق متابعة القتال، ظناً منهم أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن القتال[8]، في حين رأى فريق آخر أن المصلحة تكون بالاستجابة لمطلب تيمور

---

[1] يرد موقع هذه المعركة عند ابن حجي باسم (خبب)، ويورد الحدث أنه يوم الجمعة ٧ جمادى الأولى، الذيل على تاريخ ابن كثير،ص٢٣٠. وخبب هي إحدى قرى حوران تقع عند الأطراف الشمالية الغربية لمنطقة اللجاة.انظر، المعجم الجغرافي للقطر السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٢م، ٣/ ٢٠٩.

[2] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٥.

[3] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٥– ١٦٦، المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٧/٢/١. دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ١٨.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٦. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨٣/٢.

[5] ابن خلدون: التعريف برحلته، ص٣٦٧.

[6] أتلاميش أو أطلمش هو أحد قادة تيمورلنك المقربين منه، أسره قرا يوسف بن قرا محمد حاكم إمارة الشاة السوداء سنة ٧٩٨هـ وأرسله إلى الظاهر برقوق الذي سجنه بالقاهرة، انظر: ابن قاضي شهبة: تاريخه، ١/ ٥٧٤.

[7] شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه، ٢/ ٣١٥– ٣١٦، نقلاً عن ملاحق كتاب قيام دولة المماليك الثانية، الدكتور حكيم أمين عبد السيد، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٧٣ –١٧٤.

[8] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ١٣٧.

ووقف القتال،[1] في حين أدرك فريق آخر حقيقة الموقف، وأن الهزيمة باتت وشيكة، وبدأ بالفرار إلى مصر.[2]

رفض السلطان طلب تيمورلنك،[3] ووقعت معركة حاسمة يوم الأربعاء ١٩ جمادى الأولى قرب الكسوة، تقهقر فيها المماليك أمام العسكر التيموري، وتراجعوا إلى قبة يلبغا والمغول في إثرهم، حتى حال الليل بين الطرفين، وفي اليوم الثاني اصطفت العساكر التيمورية والمملوكية يفصل بينهم قبة يلبغا، ويقول ابن قاضي شهبة بأن الفريقين استمرا ذلك اليوم يرى بعضهم بعضاً ولا يقرب أحداً منهم الآخر، إلى أن أمسا المساء ودخل السلطان القلعة،[4] وفي هذه الليلة- ليلة الجمعة ٢١ جمادى الأولى- ترك السلطان دمشق، وفر هارباً إلى مصر، لتصبح دمشق "أُكلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها"، وقد أصبح أهالي دمشق يوم الجمعة والسلطان فرج ليس موجوداً، وسرعان ما أحاطت العساكر التيمورية بالبلد،[5] وقد أصبح أهالي دمشق يوم الجمعة "متحيرين قد عميت عليهم الأنباء"،[6] وقد ظنوا أن خروج السلطان فرج والعسكر المصري كان حيلة منهم للالتفاف إلى خلف العسكر التيموري، فقاتل العوام من أهالي دمشق ذلك اليوم وقتلوا جماعة من المغول.[7]

---

[1] وهو رأي الأمير تغري بردي. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/ ٢٣٥.

[2] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٤- ١٠٤٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/ ٢٣٥.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ١٣٧، المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٩/٢/١. إلا أن المؤرخ الفارسي علي يزدي يقول بأن السلطان وافق على العرض وطلب مهلة خمسة أيام لإطلاق سراح أتلاميش، لكن يزدي يقول بأن المماليك كانوا غير صادقين. انظر علي يزدي: ظفر نامه، ٢/ ٢٣٠، نقلاً عن ملاحق كتاب قيام دولة المماليك الثانية، حكيم السيد، ص١٧٥- ٢٣٠.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٦.أما الخطيب الجوهري الصيرفي،ذكر أن القتال وقع بين الطرفين ذلك اليوم واستمر إلى آخر النهار، انظر: نزهة النفوس، ٢/ ٨٤.وذكر كل من المقريزي وابن إياس أن المعارك كانت في ٨ و ١١ جمادى الأولى. السلوك،١٠٤٤/٣.بدائع الزهور، ٦٠٩/٢/١.دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك،ص ١٩-٢٠.

[5] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٦.

[6] ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٦٧.

[7] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٦. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص ٢٣١. ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٣٩، الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٨٨. وعلى قول المقريزي فقد قتلوا ألف رجل من قوات تيمورلنك وأسروا منهم وغنموا غنائم، السلوك: ٣/ ١٠٤٦. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٨٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦١٠/٢/١.

قدم المؤرخون تفسيرات متفاوتة لرحيل السلطان المفاجئ من دمشق، بعضهم جعل رحيل كبار الأمراء إلى مصر؛ بحيث لم يبق منهم أحد، سبباً في رحيل السلطان،[1] وبعضهم ذكر أن رحيل الأمراء إلى مصر أثار مخاوف السلطان لأنهم كانوا يعملون على خلعه وتنصيب الأمير لاجين الشركسي، لذلك لحق بهم ليفسد عليهم تآمرهم،[2] أما التفسير الذي قدمه ابن قاضي شهبة فهو الأقرب إلى الواقع حيث يقول أن "هروب السلطان والعساكر كان بسبب اختلاف الكلمة"، ويعود ليؤكد ذلك عندما يقول: هو أمر شاهدناه.[3]

بعد أن علم أهل دمشق بخبر السلطان، أدركوا أنه لا طاقة لهم بقتال تيمورلنك، لذا دخلوا معه في مفاوضات طلباً للأمان، والمؤرخون على خلاف فيمن طلب الأمان، فالبعض منهم ذكر أن أهالي دمشق هم الذين طلبوا الأمان،[4] ومنهم من ذكر بأن تيمورلنك هو الذي عرض الدخول في مفاوضات والصلح.[5]

انقسم الناس بين مؤيد ومعارض لفكرة طلب الأمان، ونتج عن ذلك تشاجر بين الناس على حد قول ابن خلدون،[6] وفي النهاية؛ بعد أن قابل قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي تيمورلنك، ووعده بالأمان لأهل دمشق، غلب رأي الصلح، ونودي في المدينة من خالف ذلك قُتل، وتشكل وفد ضم عدد من القضاة والمشايخ ساروا إلى تيمورلنك مصطحبين معهم التقدمة والهدايا، وقد تدلى هذا الوفد من على سور المدينة بعد أن رفض نائب القلعة فتح الأبواب لهم،[7] فاستقبلهم تيمور استقبالاً حسناً، وأطعمهم، وأخلع عليهم، ثم ردهم ومعهم أماناً إلى أهل دمشق نصه: "يعلموا السكان

---

[1] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٨٤.

[2] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٥. ابن شاهين: نيل الأمل، ٥٢/٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٩/٢/١.

[3] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٨.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٧، ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٤٠، ابن خلدون: التعرف برحلته، ص٣٦٧، ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص ٢٣١.

[5] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٦، العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ١٣٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٣٨/١٢.

[6] ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٦٧.

[7] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ٣٦٧. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٦. ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٦٧-٣٦٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٣٩/١٢-٢٤٠. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٠٩/٢/١.أما أعضاء الوفد فهم ثمانية ذكرهم ابن عربشاه بالاسم: عجائب المقدور، ص ١٤٠.

بدمشق أن الله تعالى بفضله العميم ملّكنا بلاد الشام لما يعلم في قلوبنا من الرحمة للرعية، فيعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم "،[1] وقرر على البلد مبلغ ألف ألف دينار.[2]

في يوم الأحد ٢٣ جمادى الأولى؛ وحسب الاتفاق، فُتح الباب الصغير ودخل العسكر التيموري، وقد عين تيمورلنك حاكماً لدمشق اسمه شاه ملك، كما عين القضاة والحجاب والوزراء والكتاب.[3]

٣- تيمورلنك في دمشق:

انطلت الحيلة على الفقهاء، ودخل تيمورلنك دمشق، ثم نادى في أهل دمشق بالأمان والاطمئنان، حتى أنه قام بإعدام بعض عساكره لأنهم قاموا بعمليات السلب، فاطمأن له الناس في البداية، وصلى أول جمعة في المسجد الأموي، وكان الخطيب آنذاك قاضي القضاة محي الدين محمود بن العز، وقبل دخول دمشق كان تيمورلنك نازلاً في القصر الأبلق، أما بعد دخوله إليها فقد نزل في بيت الأمير بتخاص السودوني.[4]

اشتغل في المرحلة الأولى من إقامته في مناظرة العلماء، وكان ترجمانه الفقيه عبد الجبار بن النعمان؛ أحد رجال حاشيته، وقد تعرض في المناقشة أكثر الشيء لموضوع الفتنة بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، قائلاً إن قَتْل الحسين "ظلم، وفُسق، ونكر، ومن استحله فهو واقع في الكفر، ولا شك أن ذلك الفعل الحرام كان بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليه فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليه فهم عُصاة وبُغاة وأشرار، وأن الحاضرين على مذهب الغابرين"،[5] وفي هذا تقريع شديد للعلماء الحاضرين.

---

[1] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٤٠/١٢-٢٤١. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦١١/٢/١. دي ميجناناللي: حياة تيمورلنك، ص ٢٣-٢٤، ٢٧.

[2] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٧. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧٦. ابن تغري بردي: النجوم، ٢٤١/١٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦١٢/٢/١.

[3] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٦٧- ١٦٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦١٢/٢/١. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٧.

[4] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٤٣. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨٨/٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٤٠/١٢. دي ميجناناللي: حياة تيمورلنك، ص ٢٤-٢٥.

[5] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٤٤- ١٤٥.

بعد ذلك انشغل في أمر القلعة؛ لأن نائبها المدعو "أزدار أو يزدار" كان قد رفض من قبل فكرة الصلح وطَلْبِ الأمان، لذا فقد حصّنَ القلعة واستعد للحصار، منتظراً قدوم مساعدة من مصر.(١)

بدأ حصار القلعة في ٦ جمادى الآخرة، وتمكنت القوات المغيرة في مساء أول يوم أن تصل إلى مشارف الخندق المحيط بالقلعة على الرغم من كثرة الرمي عليهم من القلعة، ومن كثرة القتلى، فكان إذا سقط الواحد منهم قتيلاً يدوس عليه الآخر ويتقدم.(٢)

أظهرت القلعة مقاومة شرسة، فلجأ تيمورلنك إلى استخدام العلماء وأهالي دمشق كورقة ضغط على نائب القلعة، إذ استدعى العلماء والقضاة، وادعى بأنه سمع بوجود طريق تحت الأرض يوصل إلى القلعة، وعندما نفى هؤلاء علمهم بذلك هددهم باجتياح المدينة قائلاً: "أنا ما أعرف إلا ثلاثة أيام إن لم تُبصروا طريقاً أعبر إلى القلعة أو ينزل نائب القلعة، وإلا عبرتُ حاصرتُ من داخل، وما أقدر أرد العسكر عما يفعلوا وتخرب البلد".(٣)

دفعت هذه التهديدات العلماء إلى السعي عند نائب القلعة لتغيير موقفه وتسليم المدينة، حيث تم إرسال اثنين من المشايخ تم سحبهم بالحبال إلى القلعة، فاجتمعوا به، لكنه لم يُجبهم إلى طلبهم، ولما عاد الوفد وسألهم تيمورلنك "إيش عملتم"؟ أخبروه بما وقع، فأمرهم بفتح باب الجابية وإخلاء ما حول الجامع من منازل لأنه سيحاصر القلعة من هناك؛ ومن تأخر وأصيب بحريمه أو ماله فلا يلومن إلا نفسه،(٤) ثم بدأ بنصب المجانيق عليها من كافة الجهات، وقد بلغ عددها مع ما شابهها من آلات الحصار -على قول ابن خلدون- حوالي ستون آلة،(٥) ثم بدأ بنقب الأسوار وصرف الماء عن القلعة،(٦) وقد عمد جنوده إلى إنشاء تلتين من أخشاب وتراب، واحدة من جهة الغرب وأخرى من جهة الشمال، وعليهما وُضعت آلات تضرب القلعة من هناك، فلما "أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيمانها

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٤١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧١.

(٢) ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧١. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨٨/٢

(٣) ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧١.

(٤) ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧١- ١٧٢.

(٥) ابن خلدون: التعريف برحلته، ص ٣٧٤. الصيرفي: نزهة النفوس، ٨٨/٢. لكنه لا يذكر العدد.

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ٩٨.

وعن شمائلها" وتهدم بناؤها،[1] أيقن أهل القلعة بعدم جدوى المقاومة، لذا طلبوا الأمان وسلموا القلعة في ٢١ رجب بعد حصار استمر ٤٣ يوماً.[2]

ولا بد من الحديث عما عانته دمشق خلال إقامة تيمورلنك فيها، بدايةً فالغرامة التي فرضها تيمورلنك على المدينة أول الأمر بلغ قيمتها ألف ألف (مليون) دينار مقابل الأمان،[3] ولما جُمع له المبلغ استقله، ولم يرض به، فأمر أن يُجبى له عشرة آلاف ألف (عشرة ملايين) دينار،[4] فعاد الجباة لجبي الأموال، إذ فرضوا على كل إنسان من أهل دمشق، ذكر وأنثى، حر وعبد، صغير وكبير، عشرة دراهم، وأخذوا من أموال الأوقاف، وجبوا أجرة مساكن دمشق كلها عن ثلاثة أشهر "فنزل بالناس من استخراج هذا بلاء عظيم".[5]

وعلى قول دي ميجنانللي فإن تيمورلنك كان على علم دقيق بممتلكات المدينة وأهلها، وميزانية التجار، وذلك من خلال عمليات الجرد التي قام بها أتباعه في الحوانيت وفي غيرها من الأماكن التي تتم فيها المعاملات التجارية، بحجة حماية ممتلكاتهم، وإعادتها إليهم إذا تعرضوا للسرقة،[6] وعندما جُمع له المبلغ قال: "هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف ألف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار"،[7] أي فرق العملة، ولما عجزوا عن الجمع، أمرهم برسم خطط دمشق وحاراتها وسككها، ولما

---

[1] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٤٧. ابن تغري بردي: النجوم، ١٢/٢٤٢-٢٤٣.

[2] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٤٧. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/٨٨. ابن خلدون: التعريف برحلته، ص٣٧٤. ابن قاضي شهبة، تاريخه، ٤/ ١٧٦. ابن تغري بردي: النجوم، ١٢/٢٤٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٣.

[3] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٧. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧٦. ابن تغري بردي: النجوم، ١٢/٢٤١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٢.

[4] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٢/ ١٧٦. ابن شاهين: نيل الأمل، ٣/٥٣. يقول المقريزي وغيره أنه طلب ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، وأشار إلى أن سعر الدينار عندهم يختلف، والمطلوب هو عشرة آلاف ألف دينار، السلوك، ٣/ ١٠٤٧ -١٠٤٨. ابن تغري بردي: النجوم، ١٢/٢٤١. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٢.

[5] ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٢-٦١٣. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢٤٢.

[6] دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٢٦.

[7] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧٦.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢٤٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٣. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤٩.

أتوه بخططها قسّم البلد بين أمرائه، ونزل كل أمير في قسمه لجمع ما تقرر عليه من المال، وقد تحدث المؤرخون عن الويلات التي نزلت بأهل دمشق أثناء جمع الأموال.[١]

شُلت الحياة في المدينة خلال مدة إقامة تيمولنك، وتعطلت المساجد من الصلوات والأذان، وبطلت الأسواق عن البيع والشراء، ومنذ أن هرب السلطان – على حد قول ابن قاضي شهبة–: "لم ير أحد خبز في فرن إلا إن كان بَيْتي، ولا يوجد القمح والشعير إلا بعزة، فإنهم لما تسلموا البلد ختموا على جميع الحواصل الذي به للغائبين (أي الذين تركوا منازلهم وهربوا من دمشق) والحاضرين، وهلك الفقراء، وغلبت الأغنياء، وبقي الإنسان لا يقدر يمشي من الموتى ولا يدفن أحدٌ أحداً ".[٢]

وبعد أن أنهى جُباة تيمورلنك جمع الأموال من سكان دمشق، أطلق العنان لعساكره بالنهب العام، والسبي الطام، فبدأت غارة الجند على المدينة يوم الأربعاء ٣٠ رجب كما يذكر ابن قاضي شهبة، بأيديهم السيوف المصلتة، فنهبوا ما بقي من المتاع، وسبوا النساء، وأسروا الرجال، واستمر هذا العمل ثلاثة أيام، الأربعاء والخميس والجمعة،[٣] ثم أُضرمت النيران في المدينة، فاحترق داخل البلد بأسره، وعلى قول ابن عربشاه إن النار استمرت نهاراً وليلة، أصبحت المدينة بعدها "حصيداً كأن لم تُغن بالأمس"،[٤] وقد اختصر التاجر الايطالي المأساة بقوله "إن القصة لا يمكن تصديقها إذا رويت، وهي أكثر إثارة للأسى إذا رؤيت ".[٥]

---

[١] ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٤–٦١٥. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٥٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢٤٤–٢٤٥. وقد تحدث دي ميجنانللي في مقاله حياة تيمورلنك عن عمليات الابتزاز هذه بالتفصيل، انظر، ص ٢٦–٣٢.

[٢] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧٤– ١٧٥، ١٧٦.

[٣] ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ١٧٧، المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٥١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢٤٥–٢٤٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٥. دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٣٣.

[٤] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٥٣. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير،ص٢٤٣. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٤/ ٧٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢٤٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦١٦–٦١٧. ابن شاهين: نيل الأمل، ٢/٥٧. أما المقريزي تذكر أن النار استمرت ثلاثة أيام، السلوك، ٣/ ١٠٥١. دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٣٣–٣٤.

[٥] دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٣٣.

في ٣ شعبان ٨٠٣/ ٢٠ آذار ١٤٠١م غادر تيمورلنك دمشق، ثم لحق به ما بقي من عساكره في اليوم التالي، ويذكر ابن حجي أن جنود تيمور عندما غادروا المدينة كانوا يمرون بالجمع ويأخذون ما شاؤوا من النساء دون أن يقدر أحد على صدهم لما حصل عندهم من الخوف والجُبن،[1] ولكثرة ما أخذوا من المدينة لم تستطع دوابهم حمله، لذا بدأوا يطرحون بعضه على الطرقات أثناء عودتهم، كما أخذ تيمورلنك من دمشق الحرفيين من أرباب الصنائع من نساجين وخياطين وحجارين ونجارين وأطباء وبياطرة... إلخ.[2]

في مسيره أثناء العودة اتجه شمالاً فوصل حمص، حيث سَلِمتْ منه للمرة الثانية إكراماً لخالد بن الوليد المدفون فيها، إلا أنه نهب قراها، ثم اتجه إلى حماة فتعرضت للنهب، ومنها اتجه شمالاً إلى الجبول التي تقع شرقي حلب، إذ لم يدخل حلب هذه المرة، بل اكتفى بأخذ ما استودعه بقلعتها، ومن هناك عبر الفرات إلى الرها ثم إلى ماردين ثم تابع المسير شرقاً إلى بلاده.[3]

ترك تيمورلنك دمشق -كما يقول المقريزي- بعد أن أضحت أطلالاً بالية، ورسوماً خالية، قد أقفرت من الساكن، وامتلأت أرضها بجثث القتلى، ولم يبقى دابة تدب إلا الأطفال لا يتجاوز عددهم عدة آلاف،[4] أما ابن عربشاه فقد أقسم قائلاً بأن تلك الأيام كانت علامة من علامات يوم القيامة.[5]

كان خط السير الطبيعي لتيمورلنك هو متابعة الزحف إلى مصر، وخاصة في ظل هكذا ظروف، وما يؤكد أن مشروعه هو متابعة السير باتجاه مصر؛ أنه كلّف ابن خلدون عندما قابله في دمشق بكتابة تاريخ المغرب، هذا أكبر دليل على نواياه التوسعية، لكنه لم يتابع — لحسن حظ السلطنة المملوكية — بسبب الخطر العثماني في آسيا الصغرى، فآثر التخلص من العثمانيين أولاً، ثم إن وفاته المفاجأة أوقفت المشاريع المغولية في المنطقة؛ وللأبد، والسؤال هنا: ما هو سبب اهتمام تيمورلنك في المغرب؟.

---

[1] ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص٢٤٤. دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٣٤، ٤١.

[2] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٥٤، ١٥٦. دي ميجنانللي: حياة تيمورلنك، ص ٣٤، ٤١.

[3] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٥٨- ١٥٩.

[4] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٥١.

[5] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٥٣.

في الحقيقة يمكن النظر إلى ذلك ضمن إطار العلاقات المغولية الاسبانية، فالسفير الاسباني إلى تيمورلنك (كلافيجو) تحدث عن عدد من السفارات الاسبانية التي سبقت سفارته إلى تيمورلنك،[1] ومن الممكن أن يكون قد حدث اتفاق اسباني مغولي، ولكن يبقى ذلك في إطار التوقع، وتبقى صيغة الاتفاق – إن حدث ذلك فعلاً – مجهولة تماماً.

---

[1] كلافيجو: سفارة إلى تيمورلنك، ص٢٩ وما بعد.

رابعاً: الاجتياح التيموري لآسيا الصغرى، وهزيمة الجيوش العثمانية في معركة أنقرة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م:

لم يُنه تيمورلنك أعماله في مشرق البحر المتوسط بهذا النصر على سلطنة المماليك، بل استأنف العمل من جديد هناك على جبهة آسيا الصغرى ضد السلطنة العثمانية.

لقد أحسن تيمورلنك استغلال الفرص، فما إن سمع بموت الظاهر برقوق وما تبعه من الفوضى التي سيطرت على الحكم المملوكي، وقيام السلطنة العثمانية باحتلال ملطية التابعة للمماليك، وما تبعه من حدوث جفاء في العلاقات،[1] حتى أدرك بأن الفرصة أصبحت مواتية لضرب خصميه، فاختار في البداية ضرب السلطنة المملوكية مستغلاً ضعف حاكمها واضطرابها، وبعد سنة فقط من فراغه من تخريب دمشق ورحيله عنها في شعبان ٨٠٣هـ/١٤٠١م ظهر أمام حصن أونيك[2] شرقي الأناضول في رمضان ٨٠٤هـ/ أيار ١٤٠٢م ليباشر أعماله ضد السلطنة العثمانية.

يذكر تيمورلنك في مذكراته أنه بعد فراغه من تدمير السلطنة المملوكية أراد أن يمنح السلطان العثماني فرصة للتفكير بمخاطر معاداته له، لذلك انسحب نحو الشرق ولم يهاجم السلطنة العثمانية مباشرة، ثم ذكر السبب الرئيس الذي استدعى قدومه، وهو قيام الأمير قرا يوسف- حاكم إمارة الشاة البيضاء والملتجئ عند السلطان بايزيد هرباً من تيمورلنك- بالإغارة على إحدى قوافل الحجاج الذاهبة إلى الحجاز، فالتجأ هؤلاء إلى تيمورلنك وطلبوا منه التدخل لحمياتهم والانتقام لما حل بهم، فكان لا بد من تأديب قرا يوسف وحاميه السلطان العثماني.[3]

---

[1] عندما اقترن خطر تيمورلنك أرسل بايزيد للمماليك يعرض عليهم اجتماع الكلمة ضد تيمورلنك، فلم يلتفت أحد لكلامه وقالت أمراء مصر: الآن صار صاحبنا، وعندما مات أستاذنا الظاهر برقوق استولى على ملطية من بلادنا، فليس هو لنا بصاحب، فليقاتل عن بلاده ونحن نقاتل عن بلادنا، وكتب له السلطان بهذا المعنى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/٢١٧-٢١٨.

[2] قلعة حصينة في كورة باسين من أرض أرزن الروم، عندها كانت الوقعة التي كسر فيها ركن الدين بن قلج أرسلان.الحموي: معجم البلدان، مادة أونيك.

[3] تيمورلنك: مذكرات تيمورلنك مدبر العالم، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٥٢ . ٥٣.

وَرَدَ عند بعض المؤرخين أن تيمورلنك أثناء وجوده في "قراباغ"[١] أرسل إلى السلطان بايزيد بأنه سيهاجم بلاده بسبب وجود أحمد بن أويس وقرا يوسف في ضيافته، لأنهما "مادة الفساد وبوار البلاد ودمار العباد...والرضى بالمعصية معصية، والإقرار على الكفر كفر،... فصاروا في الفساد وزيريه وهو الأمير، وفي العناد صغيرين وهو الكبير..."، وبالتالي يترتب على السلطان بايزيد إخراجهما وقتلهما، مع التهديد باجتياح البلاد عند مخالفة الأوامر.[٢]

كان رد السلطان العثماني على هذا التهديد بتقريع وتوبيخ لتيمورلنك، وأن انتصاراته السابقة حققها بسبب ضعف أعدائه؛ وأنه بانتظاره، ويوّضح ابن عربشاه أنه بهذا الرد الذي رده السلطان العثماني توفر المسوغ لتيمورلنك للهجوم على السلطنة العثمانية.[٣]

على كل حال هذه الأسباب والمسوغات لا يمكن أن تخفي الدوافع الطبيعية للأعمال التوسعية التي قام بها تيمورلنك شرقاً وغرباً، والتي تمثلت في رغبته بتأسيس إمبراطورية تابعة له، وهي فطرة جُبل عليها أي قائد عسكري امتلك القوة والإمكانيات.

قبيل الهجوم راسل تيمورلنك السلطان العثماني، وادعى أنه لا يريد محاربة السلطان، وعلى العثمانيون إعادة الأراضي التي كانت تابعة لمغول فارس في آسيا الصغرى قبيل وفاة أبو سعيد، فانخدع السلطان بكلماته، وفوجئ عندما سمع خبر اكتساح تيمورلنك قلعة "كماخ"[٤] الواقعة على المجرى الأعلى لنهر الفرات على مسافة يوم واحد من أرزنجان،[٥] وهي قلعة حصينة "من إحدى جهاتها نهر الفرات...، ومن الجهة الأخرى وادٍ متسع،... ومن الجهتين الأخريتين هضاب..."،[٦] فتم ردم الوادي وقصف المدينة

---

[١] مصيف فيما بين مدينة السلطانية وتبريز، ابن بطوطة: الرحلة، ٤٦/١.

[٢] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٦٤، ١٦٩. كذلك يجعل ابن حجر العسقلاني من وجود كل من قرا يوسف وأحمد بن أويس عند السلطان العثماني سبباً في هجوم تيمورلنك عليه. انظر، إنباء الغمر، ٢/ ٢٢٨.

[٣] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٦٣- ١٦٧، ١٧٠.

[٤] الصيرفي: نزهة النفوس، ١٥٠/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٥٩/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٩١/٣.

[٥] الحموي: معجم البلدان، مادة كماخ. أما ابن عربشاه فيقول أنها على مسافة نصف يوم من أرزنجان، عجائب المقدور، ص١٦٩.

[٦] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٦٧- ١٦٨.

بالمجانيق من هناك، ولما تيقن أهل المدينة عدم جدوى المقاومة طلبوا الأمان، وتم تسليمها في شوال ٨٠٤هـ/ أيار ١٤٠٢م، حيث دخلها العسكر التيموري واستباحها، ثم توجه إلى سيواس.[١]

١- معركة أنقرة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م:

كان السلطان بايزيد مقيماً بجيشه على حصار القسطنطينية أثناء دخول تيمورلنك الأراضي العثمانية، فاضطر إلى فك الحصار عنها والتوجه شرقاً لملاقاة تيمورلنك،[٢] إذ كانت خطته تقتضي التصدي لتيمورلنك في ضواحي سيواس ومنعه من التوغل في الأراضي العثمانية لحماية البلاد من ضرره، ولا سيما أنه كان قد حل موسم الحصاد وجني الفواكه،[٣] أما خطة تيمورلنك فكانت تعتمد على التوغل في الأراضي العثمانية وخلق الإرباك للجيوش العثمانية وإرهاقها، ولذلك-بعد الفراغ من أمر كماخ وسيواس- بدلاً من التوجه من كماخ إلى توقات[٤] في الشمال الغربي؛ حيث نزل الجيش العثماني قادماً من القسطنطينية، قام بالمسير نحو الجنوب الغربي حيث وصل إلى قيصرية، ومنها توجه إلى مدينة "قيرشهر" الواقعة جنوب شرقي أنقرة، وأثناء وجوده هناك وصلته أخبار تفيد بوجود الجيش العثماني في ضواحي أنقرة،[٥] ومعنى ذلك أن الجيش العثماني تراجع من توقات شرقاً إلى أنقرة غرباً في عملية تعقب وملاحقة للجيش التيموري.

قرر تيمورلنك خوض المعركة في أنقرة، ولكن قبل المسير إليها أرسل قوة استطلاعية تتألف من ألف فارس تمكنت من استدراج الجيش العثماني إلى خارج أنقرة مسافة بعيدة،[٦] فسار مسرعاً ببقية الجيش وتقدم نحو أنقرة، بينما تمكنت طلائعه من ردم بعض الآبار، ودس السم في بعضها الآخر، كما

---

[١] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ١٥٠. ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٦٨- ١٦٩.

[٢] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٠.

[٣] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٧٣-١٧٤.

[٤] توقات: بلدة بين قونية وسيواس، فيها قلعة حصينة. الحموي: معجم البدان، مادة توسكاس.

[٥] علي يزدي: ظفرنامه، ٢/ ٢٩٨.

[٦] علي يزدي: ظفرنامه، ٢/ ٢٩٩.


البحر الاسود
طرابزون
القسطنطينية
توقات
بورصة
معركة أنقرة
أنقرة
سيواس
كماخ
أرزنجان
حصن أونيك
تيمور لنك قادم من قراباغ
قيرشهر
قيصرية
ملطية
بهسنا
قلعة الروم
الرها
ماردين
الموصل
راس العين
تبريز
قونية
أذنة
عين تاب
أنطاليا
انطاكية
حلب
حماه
حمص
بغداد
قبرص
طرابلس
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
عكا
القدس
غزة
الاسكندرية
القاهرة
غارة تيمور لنك على بغداد و الموصل و الرها 796هـ
مسير تيمور لنك الى دمشق 802-803 هـ
مسير تيمور لنك الى أنقرة 804 هـ
مسير الجيش العثماني من القسطنطنية الى انقرة
انهزام سليمان بن بايزيد الى بورصة

قامت بتحويل مجرى النهر الصغير الذي كان يسقي مدينة أنقرة،[1] وعندما وصل أنقرة بلغ القوات العثمانية ذلك، فاضطرت للعودة مسرعة إلى أنقرة ثانيةً، واستغرقت مسيرة العودة ثمانية أيام.[2]

كان ذلك في شهر تموز من سنة ١٤٠٢م،/ أواخر ٨٠٤هـ والحر على أشده، فنال ذلك من العسكر العثماني حتى أصبحوا "كالموتى من التعب"،[3] وقد حالت القوات التيمورية بين العسكر العثماني والماء، في حين سار تيمورلنك إلى أنقرة متمهلاً متباطئاً إلى أن وصل أنقرة و"خيله ورجاله مستريحة موفرة ".[4]

يذكر ابن عربشاه أن المعركة وقعت على نحو ميل من مدينة أنقرة في سابع عشر ذي الحجة من سنة ٨٠٤هـ/ تموز ١٤٠٢م، وفي هذه المعركة تعرض العسكر العثماني لهزيمة منكرة لم يتعرض لمثلها من قبل، وأُسر السلطان بايزيد، وفر باقي الجيش متفرقاً في البلاد[5]

٢- أسباب الهزيمة:

استمر القتال يوماً كاملاً، كان التفوق في البداية للعسكر العثماني، إلا أن المعركة لم تُحسم كما بدأت، وانقلبت الموازين لصالح تيمورلنك، وكان من الطبيعي أن يتم ذلك لأسباب عديدة.

فالجيش العثماني كان يتألف من عناصر عديدة، هي في حقيقتها غير متجانسة، فقد ضم الجيش العثماني تركمان الإمارات الأناضولية مثل إمارة قرمان ومنتشا وصاروخا، بالإضافة إلى العناصر الأوروبية الواقعة تحت السيطرة العثمانية، وخاصة الصرب، بالإضافة إلى التتار المقيمين في آسيا

---

[1] علي يزدي: ظفرنامه، ٢/ ٣٠٠.

[2] تحدث المقريزي والعسقلاني وغيرهما عن عملية الالتفاف هذه بأنها مكيدة ظن بها بايزيد أن تيمورلنك خافه وهرب، انظر: السلوك، ٣/ ١٠٩١- ١٠٩٢. إنباء الغمر، ٢/ ٢٢٥، ٢٢٨. الصيرفي: نزهة النفوس، ١٥١/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٥٩/٢/١.

[3] العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٢٢٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ١٥٠/٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٥٩/٢/١. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٩٢.

[4] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٧٥.

[5] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٧٥ وما بعد. وعلي يزدي يذكر أيضاً أن المعركة في ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ، لكن بعض المؤرخين يجعلها في محرم ٨٠٥هـ. انظر: علي يزدي: ظفرنامه، ٢/ ٣١٤. المقريزي: السلوك، ١٠٩١/٣-١٠٩٢. العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٢٢٥ وما بعد. الصيرفي: نزهة النفوس، ١٥١/٢-١٥٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٥٩/٢/١-٦٦٠.

الصغرى،[1] وعدم تجانس هذه العناصر ظهر واضحاً في أرض المعركة عندما بدأت كتائب بالفرار وأخرى بالانضمام إلى العسكر التيموري.

فتيمورلنك عمد قبل بدء المعركة إلى الاتصال مع العناصر التترية الموجودة في الجيش العثماني قائلاً لهم: "إن حسبكم حسبي، ونسبكم متصل بنسبي،..." وأن أراضي ابن عثمان هي لأجدادهم، ووعدهم بإعادة القوس إلى باريها والدار إلى بانيها والمياه إلى مجاريها إذا تم النصر، وأمرهم أن يكونوا بالظاهر مع ابن عثمان، ولكن "إذا التقينا امتازوا، وإلى عساكرنا انحازوا".[2]

وفعلاً أثمرت مساعي تيمورلنك، فيصف القرماني أن التتر الذين انسحبوا من الجيش العثماني وانضموا إلى جانب تيمورلنك "كانوا هم صلب العسكر والأوفر والأكثر"،[3] ويقدر ابن عربشاه نسبتهم بحوالي ثلث عسكر ابن عثمان.[4]

وعندما انضم القسم الأعظم من الجيش العثماني إلى تيمورلنك، وباتت الهزيمة واضحة بدأت فرق من الجيش تلوذ بالفرار، حتى أن سليمان بن بايزيد عندما شاهد ذلك آثر الانسحاب من المعركة مع عساكره باتجاه مدينة بورصة تاركاً والده في ساحة المعركة بمفرده مع ما بقي من عساكر ومعظمهم من المشاة، وقُدر عدد القوات التي عادت مع سليمان بمئة ألف مقاتل.[5]

ويجب أن لا ننسى نقطة مهمة، وهي أن الجيش العثماني كان يعاني من التعب نتيجة مسيره، وتحركاته، وتعقباته للجيش التيموري الذي ضلل الجيش العثماني في مسيره المتعرج من كماخ إلى قيصرية ثم إلى قيرشهر ومن هناك إلى أنقرة بعد أن نجح في استدراج العثمانيين إلى خارج أنقرة، وبهذه التحركات فرض على عدوه زمان ومكان المعركة، وأجبره على خوض المعركة وهو في حالة من التعب والعطش، في وقت كان فيه الجيش التيموري على أُهبة الاستعداد، وفي غاية النشاط.

---

[1] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٠ -١٧١، وقد أشار ابن تغري بردي إلى ذلك عندما قال: (فجمع أبو يزيد بن عثمان عساكره من المسلمين والنصارى والتتر). انظر، النجوم الزاهرة، ١٢/٢٦٧.

[2] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص١٧٢- ١٧٣. القرماني: أخبار الدول، ص ٣٠٢.

[3] القرماني: أخبار الدول، ص٣٠٢، ابن عربشاه: عجائب المقدور،ص ١٧٦.

[4] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٦.

[5] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٦. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ١٥٢. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٢/٦٦٠. المقريزي: السلوك، ٣/١٠٩٢. القرماني: أخبار الدول، ص ٣٠٢.

٣- النتائج:

خسر العثمانيون المعركة، ووقع السلطان بايزيد في الأسر وبقي فيه إلى أن توفي في ٤ شعبان سنة ٨٠٥هـ، ودفن في بورصة،[١] بينما ذهب ابنه سليمان الذي هرب من المعركة إلى بورصة -العاصمة آنذاك- واحتاط على ما فيها من الخزائن والأموال والحريم، ونقلها إلى أدرنة على البر الأوروبي،[٢] وتفرقت باقي العساكر العثمانية في البلاد شذر مذر.[٣]

أما تيمورلنك فإنه أطلق قواته شرقاً وغرباً تعيث في الأرض دماراً وسرقة وقتل،[٤] كما سعى في الوقت ذاته إلى إحياء الإمارات التركمانية التي كان قد قضى عليها العثمانيون من قبل، وتفكيك الأناضول، فقام بإطلاق سراح محمد وعلي أبناء علاء الدين بن قرمان حاكم الإمارة القرمانية، الذين كانا محبوسين في بورصة من قِبَلْ السلطان بايزيد بعد أن قتل والدهم وقضى على إمارته سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، وخلع عليهما، وأعادهما إلى إمارتهما،[٥] ثم استقبل الأمير اسفنديار بن بايزيد من أسرة اسفنديار حكّام قسطموني[٦] شمالي آسيا الصغرى، وأقره مكانه نكاية ببني عثمان الذين كانوا على عداء معهم، وكذلك فعل مع حكام إمارات، أرزنجان، وكرميان، ومنتشا، وصاروخان،[٧] والهدف من هذه العملية هو إعادة الكيانات السالفة، ومنع العثمانيين من التفرد بحكم آسيا الصغرى، وإشغالهم بمحاربة هذه الدويلات بشكل يحول دون قيام دولة قوية إلى جانب دولته.

---

[١] القرماني: أخبار الدول، ص٣٠٣. ابن شاهين: نيل الأمل، ٩١/٣. العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٢٥٥. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٧٧/٢/١.

[٢] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٧. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٦٠/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٩٢/٣.

[٣] الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ١٥٢.

[٤] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٨٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ٦٦٠/٢/١. المقريزي: السلوك، ١٠٩٢/٣. الصيرفي: نزهة النفوس، ٢/ ١٥٢.

[٥] القرماني: أخبار الدول، ص ٣٠٠.

[٦] مدينة في آسيا الصغرى شرقي هرقلة ، تبعد عن أنقرة مسافة خمسة أيام، وهي إلى الجنوب الغربي منها. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٣٩٣.

[٧] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٨٢- ١٨٣. العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٢٦٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٦٨/١٢-٢٦٩.

وبعد إقامة استمرت حوالي سنة انسحب تيمولنك باتجاه الشرق تاركاً آسيا الصغرى جثة هامدة، لم يسلم من شره على قول القرماني لا الثلث ولا الربع.[١]

على أن أهم النتائج التي خلفها الاجتياح التيموري؛ وأخطرها، هو خلاص الإمبراطورية البيزنطية من الخطر المحيط بها، وتأجيل سقوط القسطنطينية مدة نصف قرن.

بعد معركة نيقوبولس التي انتصر به الجيش العثماني على جيوش أوروبا سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م، شدد السلطان بايزيد الحصار على القسطنطينية، ثم تداعت جيوش أوروبا لرفع الحصار عنها، وتمكنت من فك الحصار ولكن لعام واحد (فقط ١٣٩٩م)، ثم عاد الحصار عليها من جديد مما استدعى الإمبراطور مانويل للخروج في جولة امتدت ثلاث سنوات، جاب فيها قصور ملوك أوروبا يطلب منهم المساعدة، لكن مساعيه باءت بالإخفاق،[٢] واستمر الحصار العثماني للقسطنطينية إلى قبيل قدوم تيمورلنك إلى أراضي السلطنة العثمانية، وقد أوشكت على السقوط،[٣] إلا أن السلطان العثماني أُجبر على فك الحصار والتوجه شرقاً للتصدي لتيمورلنك، وحين نزلت الهزيمة بالجيش العثماني في أنقرة، زال الخطر الذي كان يهدد الإمبراطورية، وعاد الإمبراطور البيزنطي إلى عاصمته، لا بل إن سليمان بن بايزيد اضطر إلى عقد هدنة مع البيزنطيين في القسطنطينية،[٤] وطال بالتالي عمر الإمبراطورية خمسين سنة، لأن ورثة السلطان بايزيد دخلوا في صراع طويل على السلطنة استهلك قواها لعدة سنوات.

---

[١] القرماني: أخبار الدول، ص ٣٠٣.

[٢] نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ١٣١-١٣٢. مقدمة رحلة كلافيجو (سفارة إلى تيمورلنك)، ص٧-٨.

[٣] القرماني: أخبار الدول، ص ٣٠٢.

[٤] ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٧٨- ١٨٠.

الفصل الخامس

النشاط التجاري في مشرق البحر المتوسط
«القرنين الثالث عشر والرابع عشر"

أولاً: الطرق التجارية.

ثانياً: المحطات التجارية.

ثالثاً: السلع المتبادلة.

رابعاً: العلاقات التجارية بين المدن التجارية الأوروبية وسلطنة المماليك.

خامساً: قبرص وأرمينية الصغرى: التنافس التجاري مع المماليك.

سادساً: التجارة الكارمية.

توطئة:

في الحقبة التي عُنيت بها هذه الأطروحة غدا العامل الاقتصادي أهم العوامل المحركة لسياسة الدول وتوجهاتها، وتطبيقاً للقاعدة التي تقول بأنه من امتلك المال امتلك السلطة، بدأت القوى العالمية آنذاك تتنافس للسيطرة على مناطق النفوذ الاقتصادي، والتي شكل مشرق البحر المتوسط آنذاك أهمها على الإطلاق، وكانت السيطرة على نوعين؛ إما سيطرة مباشرة من خلال المعارك والحروب، أو سيطرة غير مباشرة عن طريق الامتيازات، وفي سبيل ذلك خاضت سلطنة المماليك وغيرها من القوى حروباً طاحنة، وفي سبيل ذلك أيضاً سعت الجمهوريات التجارية الأوربية؛ وعلى رأسها جنوى والبندقية، للحصول على أكبر قدر من الامتيازات التجارية.

يأتي هذا الفصل لدراسة الاقتصاد السياسي، أي أثر الاقتصاد في توجيه السياسة العالمية آنذاك، ولم يكن الهدف منه دراسة الاقتصاد بمعناه الكامل، لأن ذلك يتطلب دراسة واسعة ومستقلة، ويشكل ذلك خروجاً عن الهدف الرئيس للأطروحة الذي هو دراسة الحالة السياسية التي أفرزتها انتصارات المماليك ضد المغول والصليبيين في مشرق البحر المتوسط، وبما أن العامل الاقتصادي كان من أهم العوامل الفاعلة على الأرض، بات لزاماً توضيح أثره آنذاك.

أولاً: الطرق التجارية:

تنوعت الطُرق التجارية التي ربطت شرق آسيا بأوربا، وتبدلت بين آونة وأخرى حسب الظروف السياسية، غير أنه كانت هناك طرق شكلت شرايين الاتصال في العالم، وهي لا تزال تُستخدم حتى الوقت الحاضر، فعلى الرغم من توقفها لمدد من الزمن إلا أنها كانت تستعيد عافيتها دوماً، وما يهم هنا الطرق التي ربطت شرق آسيا بأوربا مروراً بالحوض الشرقي للمتوسط، وهي عديدة ومتنوعة، وسيتناول البحث فقط الطرق التي نُقلت عبرها بضائع شرق آسيا إلى الحوض الشرقي للمتوسط، أي إلى أسواق بلاد الشام ومصر وإرمينية الصغرى.

- **الطرق التجارية التي تربط بين أقصى الشرق ومشرق البحر المتوسط:**

تُقسم هذه الطرق إلى بحرية، وأخرى برية، فبالنسبة للطرق البحرية:

كانت السفن التي تخرج من موانئ شرق؛ وجنوب شرق آسيا تُبحر شرقاً باتجاه جنوب الجزيرة العربية، ومن هناك فإما أن تسلك طريق البحر الأحمر، أو أن تسلك طريق الخليج العربي.

طريق البحر الأحمر: يبدأ من ميناء عدن في اليمن؛ وبعد أن تعبر السفن مضيق باب المندب تتوجه إلى موانئ البحر الأحمر المصرية، وأهمها عيذاب؛[١] فقد كان أكثر الموانئ ازدحاماً بتجار الكارم وغيرهم من التجار، نظراً لاتساع حوضه، وقلة الشعاب المرجانية فيه، ومن هذا الميناء تُنقل البضائع إلى قوص على النيل، ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط في بحر النيل. [٢]

يقع إلى الشمال من عيذاب ميناء القصير،[٣] الذي تتجه إليه عدداً من المراكب؛ ولكن أقل

---

[١] عيذاب: بلدة تقع على ضفة البحر الأحمر من جهة مصر وهي مرسى للمراكب القادمة من عدن إلى الصعيد. انظر: الحموي: معجم البلدان، مادة عيذاب.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى، ٥٣٦/٣.

[٣] القصير: موضع قرب عيذاب فيه مرفأ سفن اليمن. انظر، الحموي: معجم البلدان، مادة قصير.

من عيذاب،[1] ومن هناك تنقل البضائع براً إلى موانئ النيل مثل: قوص[2] وأسوان،[3] وقِنا،[4] ومنها تُنقل البضائع عبر نهر النيل إلى القاهرة، ومن ثم إلى موانئ البحر المتوسط كالإسكندرية، ودمياط، ورشيد.

وأحياناً كانت السفن لا ترسو في موانئ البحر الأحمر المصرية، بل تستمر في سيرها شمالاً حتى ترسو في خليج السويس أقصى شمال البحر الأحمر، ومن السويس تتجه البضائع براً إما إلى القاهرة فموانئ البحر المتوسط عبر النيل، أو شمالاً إلى دمشق وحلب فموانئ بلاد الشام على المتوسط مثل بيروت، وطرابلس، وعكا، وغيرها...[5]

أما بالنسبة **لطريق الخليج العربي**: فكان هذا الطريق يشترك مع الطريق الأول حتى مدخل الخليج العربي، ثم يتجه شمالاً لكي تُفرغ السفن حمولتها إما على الشاطئ الفارسي، أو على الشاطئ العربي.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٥٣٦.

[2] قوص: مدينة كبيرة، قصبة صعيد مصر، أهلها أغنياء، وهي محط التجار القادمين من عدن، انظر، الحموي: معجم البلدان، مادة قوص.

[3] أسوان: مدينة كبيرة، وكورة آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه مشهورة بتمورها، انظر: الحموي: معجم البلدان، مادة أسوان.

[4] قنا: كسر القاف، والقصر، كلمة قبطية: مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد، وتنسب إليها كورة. الحموي: معجم البلدان، مادة قنا.

[5] وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٩١٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٥٣٧-٥٣٨. نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١١٨ - ١٢٤. هايد: تاريخ التجارة، ١/ ١٧٦. وما بعده. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوى والشرق الأدنى،٢/٢٩٨ - ٢٩٩.

أهم الموانئ الفارسية هي: هرمز،[1] وسيراف،[2] وقيس(كيش)،[3] أما الموانئ العربية فأهمها هي البصرة، والأبلة[4] على رأس الخليج عند مصب دجلة والفرات.

وكانت القوافل تبدأ مسيرها عبر الخليج باتجاه الشمال سالكة طُرق برية، أو نهرية عبر نهر دجلة، وكانت عندما تصل إلى بغداد تتفرع إلى فرعين، أحدهما يسير شمالاً، والأخر يسير غرباً.

بالنسبة للقوافل التي تتجه غرباً كانت تذهب إما إلى دمشق، ومن دمشق تُحمل سلعها إلى موانئ الساحل الشامي، ومن هناك تتولى السفن الأوروبية نقل بضائعها إلى أوروبا، أو تذهب جنوباً إلى مصر عبر غزة، وأحياناً إن القوافل المنطلقة من بغداد باتجاه الغرب كانت تسير إلى حلب، ومن حلب تتوزع في طرق متعددة، إما إلى الساحل الشامي، أو إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية.

أما بالنسبة للقوافل التي كانت تتجه شمالاً من بغداد فإنها ذهبت إلى ديار بكر وإرمينية، وهناك كانت تلتقي مع القوافل القادمة من الشرق براً لتتابع المسير معها نحو القسطنطينية فأوروبا.[5]

أما الطُرق البرية التي كانت تأتي من الهند عبر جبالها فكانت تلتقي مع الطرق القادمة من الصين على مقربة من بخارى، ومن هناك تتفرع إلى عدة طرق:

---

[1] هرمز: أهم مراكز التجارة الفارسية في العصور الوسطى، مدينة في البحر يصل إليها خور، هي على ضفة ذلك البحر، تقع في إقليم كرمان، وهي فرضة ذلك الإقليم، إليها ترفأ المراكب، ومنها تنقل أمتعة الهند إلى خراسان وسجستان وكرمان. انظر الحموي: معجم البلدان، مادة هرمز، ابن سعيد المغربي (علي بن موسى): كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل المغربي، المكتب التجاري، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ص ١٣٢.

[2] سيراف: مدينة جليلة على ساحل فارس، الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة تجارية غنية. انظر، الحموي: معجم البلدان، مادة سيراف، ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص ١٦٠.

[3] قيس أوكيش، جزيرة في بحر عمان، مرفأ مراكب الهند وبر فارس، فيها أسواق وخيرات، وفيها مغاص اللؤلؤ، انظر، الحموي: معجم البلدان، مادة قيس. ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص ١٣٢.

[4] الأبلة: تقع على رأس الخليج العربي عند مصب شط العربي، زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، انظر، الحموي، معجم البلدان، مادة الأبلة. ابن سعيد المغربي؛ الجغرافية، ص ١٥٩ + حاشية رقم ١٧٢، ص ٢٤٨.

[5] زكي: طرق التجارة الدولية، ص١١٧-١١٨. الكناني: العلاقات التجارية بين جنوى والشرق الأدنى، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

- من بخارى تتجه عبر بحر قزوين إلى أستراخان[١] حيث تُحمل البضائع من هناك في نهري الفولجا[٢] والدون إلى القرم شمالي البحر الأسود فالقسطنطينية.[٣]

-أو من بخارى إلى جنوب بحر قزوين إلى آسيا الصغرى حيث تسير محاذية جنوب البحر الأسود إلى القسطنطينية.

- أو من بخارى إلى إيران ومن هناك إلى العراق وديار بكر، ثم إلى دمشق وحلب فموانئ الساحل الشامي.[٤]

وترافق قيام دولة المماليك في مصر والشام مع ازدهار طريق البحر الأحمر والموانئ المصرية، واضمحلال ما عداه من طرق تجارية بين الشرق والغرب، فكما هو معروف في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م سقطت بغداد بيد المغول، وتبع ذلك امتداد نفوذهم إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى فضلاً عن فارس التي أصبحت مقراً لدولة هولاكو، وطبعاً تم ذلك بعد أن عانت المنطقة من حروب ضارية امتدت لعقود شُلت خلالها الطرق التجارية البرية القادمة من الهند والصين والمارة في هذه المنطقة، وقد أشار ماركوبولو- الذي قام برحلة إلى تلك المناطق أواخر القرن الثالث عشر الميلادي- إلى انعدام الأمن على ذلك الطريق، واعتداء اللصوص على القوافل التجارية،[٥] فضلاً عن عمليات القرصنة التي انتشرت في الخليج العربي آنذاك،[٦] مما دفع بالسفن التجارية للتوجه إلى البحر الأحمر.

نافست عدن السلطنة المملوكية، لأنها شكلت مدخل البحر الأحمر، واشتهرت على أنها أهم محطاته، لكنها بدأت تفقد رونقها نظراً للمعاملة السيئة التي كان يلقاها التجار هناك، فكانت السفن التجارية عندما تصل إلى عدن تتعرض لتفتيش دقيق، إذ يصعد إليها عمال ملك اليمن وينزعوا قلوعها، ودفتها، ومرساتها، كي لا تتمكن من السفر قبل دفع الضرائب، ثم يتعرض رجالها لتفتيش دقيق يشمل

---

[١] شمال بحر الخزر.

[٢]نهر الأثل أوالأتل، الفولغا: أعظم أنهار بلاد الترك، ينبع من أقصى الشمال والشرق، ويمر في بلغاريا، كما يمر من جنوب غربي مدينة سراي، ويصب في بحر الخزر من الناحية الشمالية الغربية. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٥٠.

[٣] سونيا، هاو: في طلب التوابل، تر: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص ٤٢.

[٤] زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٥٤ . ١٥٥. إبراهيم سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٠.

[٥] ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ١/ ٥٢، ٦٦، ٧٢، ٩٠.

[٦] سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م، ص١٣٤.

العمامة، والشعر والكمين، والسراويل، وتحت الإبط،... كذلك وجدت عجوز تفتش النساء، وإذا ما أراد التاجر الرحيل لا يُسمح له بذلك حتى يُنادى في شوارع عدن أن فلان سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به، وعندما تثبت براءة ذمته يُسمح له بالرحيل،[1] في المقابل عومل التجار من قبل المماليك معاملة طيبة، ولجأوا إليها لحل الكثير من المشاكل، ومنها ما حدث سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م عندما شكا بعض تجار الكارمية للناصر محمد سوء معاملة صاحب اليمن لهم، وهو آنذاك الملك المؤيد أحد حكام الدولة الرسولية، وإرهاقهم بالضرائب، فكتب له السلطان يهدده، ولما رفض الاستجابة، أراد إرسال حملة لتأديبه لولا تدخل الكارمية أنفسهم، ورجاؤهم بحل المشكلة سلمياً، عندئذ تم إرسال الخليفة العباسي، وتمكن من حلها سلمياً.[2]

وهذا يعني أن السلطنة المملوكية اغتنمت الفرصة، وقامت بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب.

---

[1] بامخرمة (أبو محمد عبد الله): تاريخ ثغر عدن، طبعة ليدن، ١/ ٥٨، ٦٧-٦٨.

[2] المقريزي: السلوك، ٢/ ٧، ٣٢ -٣٣، ٣٨.

ثانياً– المحطات التجارية:

أ – أهم المحطات والمراكز التجارية على البحر المتوسط:

- **الإسكندرية:**

السوق العالمية، والمركز الرئيس للتبادل التجاري بين منتجات الشرق والغرب، فهي تتمتع بموقع موائم للغاية لمواصلة تجارة واسعة، مما جعل الأغلبية العظمى من السفن الأوروبية تقصد الإسكندرية، فقد كان بها عدد كبير من الوكالات التجارية التي كان يتم بها تسجيل أكبر المعاملات التجارية.[1]

تحدث وليم الصوري عنها فقال: "تشتهر الإسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع أكثر من أي مدينة بحرية أخرى، ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللآلئ والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية فإنه يجلب إلى هنا"،[2] وقبيل عصر سلاطين المماليك زارها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي وقال أنها "بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم، .... وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها، ... ولتجار كل أمة فندقهم الخاص"، ثم أحصى ما يقرب ٥٠ جنسية للتجار الموجودين بها آنذاك،[3] ففي المدينة كان للبنادقة فندقان، كما كان لكل من النابوليين، والفرنسيين، والمرسيليين، والقطالونيين، والكريتيين، والقبارصة، والأتراك، والمغاربة، والتتار... إلخ، فندق واحد،[4] ناهيك عن الوكالات والأحياء والأفران.

كان للمدينة مرسيان أو ميناءان منفصلين عن بعضهما،[5] الميناء الجديد في ناحية الشرق مخصص لاستقبال السفن الغربية المسيحية، والميناء القديم من ناحية الغرب المعروف ببحر السلسلة، وكان مخصصاً لاستقبال السفن الإسلامية،[6] وذكر ابن بطوطة أنه لم ير في الدنيا مثل مراسي الإسكندرية،[7]

---

[1] النويري: الإلمام، ص ٥٥، ٥٦، ٥٧. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص٩١٥. هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٠٠.

[2] وليم الصوري: الأعمال المنجزة ، ص٩١٥.

[3] بنيامين (بنيامين بن بونة التطيلي الأندلسي): رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م، ص ١٧٨-١٧٩.

[4] النويري: الإلمام، ص ٥٥-٥٦. هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٠٤. ٣٠٥.

[5] النويري: الإلمام، ص ٣٠،٤١. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ٩١٥.

[6] النويري: الإلمام، ص ٣٠، ٩٨، ٢٦٤، ٢٦٨-٢٦٩. سانوتو: كتاب الأسرار، ٣٨/ ٢٢٧. هايد: تاريخ ٣/ ٣٠٥.

[7] ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ٩.

وأنشط تجارة كانت قائمة آنذاك هي تجارة التوابل، حتى إن باباً من أبواب الجمرك فيها سمي باب البهار، وشارعاً له الاسم نفسه،[1] وزبدة الكلام فيما قاله وليم الصوري عندما عدها "سوقاً عامة لهذين العالمين"،[2] أي أوروبا والشرق.

- **دمياط:**

كانت دمياط تشكل ثاني موانئ مصر بعد الإسكندرية، فهي ميناء نهري وبحري، غير أنه لا يمكن للسفن الدخول إلى دمياط مباشرة من فرع النيل، وذلك بسبب ردم مدخل النهر بالحجارة الكبيرة،[3] وإنما كان الدخول إليها يتم عن طريق بحيرة المنزلة المتصلة مع المتوسط، والمتصلة مع دمياط بقناة،[4] وخوفاً من الصليبيين الذين كثر تعديهم على دمياط؛ جرى نقل المدينة وإعادة بنائها في موضع بعيد عن البحر،[5] ومع ذلك فقد بقيت الإيرادات الجمركية كبيرة.[6]

شكلت دمياط مخرج تجارة مصر لموانئ الساحل الشامي، وكريت، وآسيا الصغرى، وقبرص،[7] وكان بالمدينة عدد كبير من اليونانيين، والجنويين، والبنادقة، والفرنسيين، فضلاً عن قنصلية لفرسان القديس يوحنا (الاسبتارية)، وقد اشتهرت بتجارة السكر والأسماك التي كانت تشحن إلى جميع أجزاء الدنيا على قول لودولف.[8]

إضافة إلى دمياط والإسكندرية كان هناك ميناء أبي قير المتصل بالنيل عن طريق قناة تصل إلى البحيرة القريبة منه، ويبعد عن الإسكندرية ثمانية أميال، وهو مرفأ للسفن السورية الواردة إلى الإسكندرية،

---

[1] النويري: الإلمام، ص٤٢.

[2] وليم الصوري، الأعمال المنجزة، ص٩١٦.

[3] تم ردم مدخل النيل بحجارة من قبل السلطان بيبرس سنة ٦٧٦هـ خوفاً من دخول الصليبيين بسفنهم غزاة إلى دمياط. المقريزي: السلوك، ١/ ٦٣٩.

[4] نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٣٢.

[5] لودولف فون سوفم: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٣٤.

[6] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٩١.

[7] زكي: طرق التجارة، ص ١٣٢. هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٠٠. ٣٠١.

[8] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٣٤. هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٠٠.

تخصص للسفن الصغيرة، أما الكبيرة فتتصل به من البحر عن طريق قوارب، وهذا الميناء هو أحد المراكز الرئيسية لصيد وتصدير الأسماك.[1]

- **الموانئ الشامية:**

كما هو معلوم، انتهت على السواحل الشامية الطرق التجارية القادمة من:

أ . الشرق الأقصى براً عبر إيران والعراق.

ب . الخليج العربي إلى بغداد ثم الشام.

ت . البحر الأحمر، بعد أن تأخذ القوافل طريقها براً عبر سيناء إلى بلاد الشام.

ث . الفرع المتجه جنوباً من آسيا الصغرى.

ج . الطرق القادمة من أوروبا بحراً وبراً.[2]

وعليه فقد ازدهرت التجارة في المدن والموانئ الشامية، واستقر فيها عدد كبير من التجار الأجانب الذين اعتادوا على تزويد بلادهم منذ أيام الحروب الصليبية بما تحتاجه من السلع من موانئ بلاد الشام، إلا أن الأسواق الشامية تراجع نشاطها، وشهدت بعض الركود على إثر قرارات الحرمان الكنسية التي كثُرت بعد تحرير عكا، والتي حرَّمت التعامل التجاري مع المماليك، لذلك؛ ولمدة من الزمن، كان تجار بيروت، وطرابلس، وغيرهم من أهل الشام يركبون البحر لبيع منتجاتهم في قبرص التي أصبحت المركز التجاري الرئيسي –كما سيتبين – للصليبيين.[3]

لم تكن قبرص وحدها ما يحوّل التجار الغربيين عن سوريا، بل وجدت أيضاً مملكة إرمينية الصغرى، والتي شكلت من حيث موقعها بداية لطريق تجاري جديد وآمن، وبالتالي؛ بما أن قبرص متاحة لكل الغربيين بلا تمييز، وطالما كانت إرمينية الصغرى مسيحية، وفارس باعتبارها صديقة وحليفة للغرب، فإن التجار الأوروبيين كثيراً ما ترددوا في التعامل مع سوريا تجارياً.

إلا أن الوضع تبدل كلياً في الربع الأخير من القرن الرابع عشر وعاد النشاط التجاري إلى بلاد الشام لأسبابٍ عدة، أهمها ثلاثة:

---

[1] النويري: الإلمام، ص ٣٤. زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٣١.

[2] هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٣٢ . ٣٣٣.

[3] ماكارياس: مرويات، ص ٥٦–٥٧.

الأول: احتلال مدينة فيماغوستا؛ المدينة الأشهر تجارياً في قبرص ومشرق البحر المتوسط، من قبل الجنوية سنة٧٧٥هـ/ ١٣٧٤، وبالتالي كل الأمم المنافسة لجنوى نأت بتجارتها عن قبرص، ولا سيما البندقية.

الثاني: سقوط مملكة إرمينية الصغرى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م بيد المماليك.

الثالث: تحركات وحروب تيمورلنك في آسيا التي جعلت الطرق القادمة عبر فارس وشمالها طرقاً غير صالحة للاستخدام بعد أن دمر تيمورلنك المحطات الرئيسية على هذا الطريق.

وبالتالي فكان لا بد من عودة النشاط التجاري إلى ساحل بلاد الشام ومراكزه التجارية، وكان أهمها على الإطلاق:

- **ميناء بيروت:**

كان ميناء بيروت بالنسبة للتجار أفضل الموانئ الشامية لأنه كان يتصل مباشرة مع أكبر سوقين في بلاد الشام؛ حلب ودمشق، ونظراً لهدوء المياه فيه كانت تلجأ إليه السفن في معظم أوقات السنة، وكان يستقر به بنادقة، وجنويون، وقطالونيون، وأرمن، وجورجيون، ولهم فيها فنادق وقياسر ووكالات ونواب وقناصل، لذلك فقد غدا هذا الميناء ولا سيما في أواخر القرن الرابع عشر أشهر المراكز التجارية الشامية.[1]

وتحدث لودولف أنه كان بإمكان الإنسان الذهاب من بيروت إلى أي بلد من البلدان عن طريق المتوسط،[2] وهذا ما يدل على حركة ونشاط كبيرين شهدهما الميناء؛ فكثرت وتنوع الأمم المترددة عليه، وهذا ما جعله – بالإضافة لميناء طرابلس– هدفاً لغارات القراصنة الأوربيين أواخر القرن الرابع عشر كما تبين في الفصل الثاني.

- **ميناء طرابلس:**

كان ميناء طرابلس يُشكل الميناء الثاني بعد بيروت من حيث النشاط التجاري، وقد كثر تردد الأوروبيين عليه حيث التقوا هناك بتجار من دمشق، وحلب، وحماه، وبعلبك، وامتد على طول الميناء

---

[1] زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٤٨. هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣٥ . ٣٣٧. محمد الأشقر: تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ٣٢٩.

[2] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٨٩.

عدد كبير من المخازن الواسعة المليئة بالبضائع، وشكّل هذا الميناء المخرج الرئيس لتجارة حلب، كما كان ميناء بيروت المخرج الرئيس لتجارة دمشق، وقد أقام به عدد من القناصل والمندوبون والوكلاء، ووُجِدَ فيه آنذاك مصارف وفروع مؤسسات أوروبية وقياسر وفنادق.[١]

بالإضافة إلى هذين الميناءين؛ وُجد هناك موانئ في صيدا وصور وعكا ويافا، إلا أنها أقل نشاطاً من طرابلس وبيروت.

- **ميناء آياس:**

كانت مدينة آياس أهم مدن إرمينية الصغرى، تقع على الساحل الشمالي الغربي لخليج الإسكندرونة، لها ميناءٌ واسعٌ شكَّل المدخل البحري والتجاري لها، ارتبطت آياس مع محيطها بعدد من الطرق الميسرة، فالقافلة التي كانت تخرج منها إلى شمال سورية كان عليها فقط أن تسير محاذية ساحل خليج آياس، وتجتاز ممر بيلان أحد ممرات جبال الأمانوس من الإسكندرونة إلى أنطاكية، من ناحية أخرى؛ ربطها نهر جيحان بإقليم الفرات العلوي، وهو نهر كان صالحاً للملاحة في معظم أجزائه، و ارتبطت بقبرص عن طريق البحر،[٢] أما الطريق الرئيس للتجارة فيها فهو ذالك الذي يربطها مع تبريز.[٣]

عندما زارها ماركوبولو سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م تحدث عنها عادّاً إياها المدخل الرئيس لبلاد الشرق عندما قال إن من يريد السفر إلى الشرق فعليه التوجه إلى ميناء آياس، كما تحدث عن "تجارة ضخمة" تدور فيها، إذ كَثُرَ ارتياد التجار لمينائها قادمين من البندقية، وجنوى، ومن أماكن أخرى كثيرة، وهم "يتجرون في التوابل وفي العقاقير المختلفة الأنواع، وفي منسوجات الحرير والصوف، وغير ذلك من السلع الثمينة".[٤]

ومع سقوط عكا وزوال الكيانات الصليبية من ساحل بلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر، ومع كثرة قرارات الحرمان الكنسية التي تحرم المتاجرة مع المماليك، انتقل النشاط التجاري الذي كان لبلاد الشام أيام الصليبيين إلى إرمينية الصغرى وقبرص، فسانوتو ذكر بأن التجار المسيحيين؛ خشيةً من قرارات

---

[١] هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٣٥ . ٣٣٧. زكي: طرق التجارة، ص ١٥١. الأشقر: تجارة التوابل، ص ٣٣٠.

[٢] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٠٩ . ٣١٠.

[3] Balducci Pagolotti, F.: La Pratica della mercatura. ed. A. Evans Cambridge. 1936, p.7, 13, 48, 50, 79.

[٤] ماركوبولو: رحلته، ١/ ٤٤.

الحرمان البابوية، بدأوا يذهبون إلى آياس للمتاجرة هناك،[1] حتى بلغ ما يجبيه الملك الأرمني من ضرائب جمركية من ميناء آياس لوحده حوالي ٣٠ ألف دينار شهرياً.[2]

وكان يوجد في إرمينية الصغرى إلى جانب ميناء آياس ميناء طرسوس، غير أن أهميته جاءت ثانوية بعد ميناء آياس، ولكن هذا لا يقلل من شأنه تجارياً، فالإدريسي يؤكد بأن المدينة ذات نشاط تجاري مهم، ويشكل حصن أولاش الموجود على البحر فرضتها.[3]

أما الإصطخري فقد أكد عالمية التجارة في هذه المدينة عندما قال: "ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان، إلى كرمان، وفارس، والجبال، وخوزستان، وسائر العراق، والحجاز، واليمن، والشام، ومصر إلا وبها لأهلها دار وأكثر".[4]

- **ميناء فيما جوستا:**

عقب تحرير عكا وخسارة الصليبيين لممتلكاتهم في بلاد الشام نزح كثير منهم إلى قبرص وأقاموا فيها، وحتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م عندما زارها لودولف كانوا لا يزالون مقيمين في الجزيرة، ويذكر هذا الرحالة بأن الأمراء والبارونات والنبلاء؛ وحتى الشعب القبرصي، هم الأغنى والأفضل في العالم، والسبب في ذلك؛ أن قبرص شكلت آنذاك أقصى الشرق بالنسبة للعالم المسيحي، وبالتالي بات على جميع السفن الصغيرة والكبيرة، وعلى جميع التجارات مهما كان نوعها، ومن أي بلد، بات عليها أن تأتي أولاً وقبل كل شيء إلى قبرص، ففي قبرص " يمكن سماع جميع اللغات المحكية في العالم، والتحدث بها، وكذلك تعليمها في مدارس خاصة".[5]

في قبرص كانت تتم عمليات التبادل التجاري بين المسلمين والأوربيين، فلقربها من السواحل الشامية كان تجار المسلمين ينقلون بضائعهم إليها، وكان على التجار الأوربيين حملها فقط والتوجه بها إلى

---

[1] سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٩٤.

[2] المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٣٠.

[3] الإدريسي (محمد بن محمد بن إدريس): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢/ ٦٤٧.

[4] الإصطخري (أبو اسحاق بن محمد، ت: ٣٤٦هـ): المسالك والممالك، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة، ص٤٧.

[5] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٢٩٥ -٢٩٦. ماكارياس: مرويات، ص ٥٦-٥٧.

أوربا،[1] وبالتالي فقد غدا ميناء فيماجوستا ميناء "لجميع البحر وللمملكة كلها، وهناك لا بد من تجمع التجار والحجاج، لأن المدينة مواجهة لتركيا، وعكا، وإرمينية الصغرى، وهذه أغنى المدن في قبرص، وسكانها أثرياء إلى أبعد الحدود، وتزدهر فيها تجارة التوابل والأحجار الكريمة والثياب المذهبة.."،[2] فلم يكن يضاهي هذا الميناء في النشاط والحركة آنذاك سوى الإسكندرية.

كذلك الأمر فقد كان لمدينتي ليماسول ونيقوسيا أهمية تجارية آنذاك.

ب – أهم المحطات والمراكز التجارية الداخلية:

- **القاهرة:**

زار لودولف القاهرة حوالي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وذكر أنها أكبر بسبع مرات من مدينة باريس،[3] وبيَّنَ أن هذه المدينة الشاسعة يقطنها عدد لا حصر له من السكان، ناهيك عن مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين،[4] وكان يوجد فيها أكثر من ٣٠٠٠٠ من مؤجري الدواب عملاً كثيراً، فالحركة بالمدينة لا تتوقف والمراكب تجوب النهر ذهاباً وإياباً.[5]

ونظراً لتوسط موقع القاهرة فقد شكلت مركزاً لتجميع السلع وتوزيعها شمالاً وجنوباً، فميناء بولاق التابع لها بقي الميناء الأهم على النيل، تصله السفن من المتوسط عبر دمياط ورشيد، ومن الجنوب تصله سلع الحبشة والنوبة، لا بل حتى سلع الهند كانت تصل إلى القاهرة إما براً من السويس، أو نهراً من عيذاب –كما سلفت الإشارة –، وكان في الميناء مخازن ومتاجر ووكالات،[6] أما ابن بطوطة –الذي زار المدينة سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م – فقد ذكر أن في القاهرة من السقائين ١٢ ألف، ومن المكاريين ٣٠ ألف، وفي النيل ٣٦ ألف مركب تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات.[7]

---

[1] ماكارياس: مرويات، ص ٥٦-٦٧.

[2] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٢٩٣ -٢٩٤.

[3] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣١١

[4] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٧٣.

[5] ابن بطوطة: رحلته، ١٩/١. هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٠٧.

[6] زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٢٩.

[7] ابن بطوطة، رحلته، ١/ ١٩.

أما عن تنظيمها التجاري فقد وجدت بها أسواق متخصصة، منها سوق للعطارين، وآخر للنحاسين، ووكالات لبيع السجاد، والذهب، والفضة، والحرير، والأحجار الكريمة، وكان لكل طائفة تجارية وكالة، وبالقاهرة تجار أثرياء لا يقل ما بيدهم . حسب قول السفير الفرنسي هناك . عن مليوني قطعة ذهبية.[١]

- **دمشق:**

مركز بلاد الشام الاقتصادي، ومستودع تجارة وسط آسيا إلى أوروبا، كان الغربيون الذين يزورون دمشق يبهرهم ثراء المدينة وتنظيمها وجمال المعروضات وأناقتها، ولتتوضح الصورة من المفيد ذكر مشاهدة لودولف الذي زار المدينة حوالي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠ م إذ وصفها بأنها: "غنية بجميع أنواع البضائع، وفيها وفرة عظيمة من الأطعمة والتوابل والأحجار الكريمة والحرير واللآلئ والأقمشة المذهبة والعطور من الهند ومن بلاد التتار ومن مصر ومن سورية ومن أماكن من البحر المتوسط،... وهي مسكونة بمختلف الصناع والتجار ومن الأكثر براعة من الحرفيين وأعظمهم جلالة،... وتجارهم الأكثر نبلاً...، وكل حرفة وتجارة مقيمة بشكل مستقيم في شارع خاص، ويقوم كل حرفي بتقديم عرض رائع لأعماله أمام واجهة بيته... ويعمل التجار مثلهم بتجارتهم، أما الحرفيون فيعملون هناك بشكل رائع وببراعة فائقة".[٢]

وكانت دمشق تتلقى القسم الأكبر من بضائعها عن طريق الخليج العربي وبغداد، أو الطريق البري القادم عبر فارس والعراق، ناهيك عن المنتجات المحلية التي اشتهر بها الدمشقيون، فعن جمال صناعتها كتب أحدهم: إنه لا يوجد في جهة من جهات العالم أحسن مما يُصنع في دمشق،[٣] وكانت معظم بضائعها تصرف عن طريق ميناء بيروت المتصل بها مباشرة ويبعد عنها مسيرة يومين فقط.[٤]

كان يقيم في دمشق عدد من قناصل الدول الأجنبية، ووجد إلى جانبهم جاليات من مختلف الأمم التجارية الأوروبية،[٥] وقد تمتعت دمشق بقسط كبير من الأمان، فالبضائع كانت تترك تقريباً بلا حراسة، ونادراً ما جرت عمليات سرقة في المدينة.[٦]

---

[١] زكي: طرق التجارة الدولية، حاشية ص ١٢٨ و ١٢٩.

[٢] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٨٢ -٣٨٣.

[٣] هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٣٤.

[٤] زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٤٨.

[٥] هايد: تاريخ التجارة، ٣/ ٣٣٨.

[٦] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٨٣.

- **حلب:**

كانت ثاني أسواق سورية بعد دمشق من حيث النشاط التجاري، امتلأت أسواقها بكميات كبيرة من سلع الهند حتى أُطلق عليها اسم "الهند الصغيرة".[١]

ساعدها موقعها المتوسط على ازدهار التجارة، فهي تعترض الطرق القادمة من فارس ومن تركيا، وتبعد عن الفرات عشرين فرسخاً، وتتصل بالبحر المتوسط بطريق سهل، فكان ميناء طرابلس يُعد مخرج بضاعة حلب.[٢]

---

[١] أشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٣٩٣.

[٢] زكي: طرق التجارة، ص ١٥٠. الأشقر: تجارة التوابل في مصر، ص ٣٣٠.

ثالثاً: السلع المتبادلة:

وكما هو معلوم إن فكرة التبادل التجاري نشأت وتطورت على أساس التخصص في الإنتاج، وعلى هذا؛ فالاختلاف الذي خُلقت عليه أقاليم العالم؛ من اختلاف في الصفات المناخية من برودة، وحرارة، ومطر، وجفاف، والصفات الجيولوجية، من تربة، وثروات باطنية،... الخ، أدى إلى انفراد هذا الإقليم أو ذاك بنوع من الإنتاج يفتقر إليه الآخر، فأي بلد؛ ومهما تنوعت ثرواته لا يمكنه أن يكفي نفسه بنفسه، فطبيعة التخصص في الإنتاج تفترض وجود فائض في مُنتج معين وحاجة إلى مُنتج آخر، وبالتالي فالتجارة وحدها تؤمن توفير الحاجيات.

عانت أوروبا في العصور الوسطى من تخلف في وسائل الإنتاج، لذا فقد كان اعتمادها الرئيسي على غلات الشرق، وفي الوقت ذاته وجد عندها بعض السلع التي افتقر إليها الشرق، وهنا سيتم الحديث عن المواد الرئيسية التي كانت تقوم عليها التجارة آنذاك، إذ لا يمكن تناول كل سلعة على حدة، لأن البضائع التي دخلت في مجال التبادل التجاري آنذاك بلغت المئات، وإنما سيقتصر الحديث عن السلع الرئيسية والمهمة.

١- التوابل:

شكلت التوابل إحدى السلع الأساسية في التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وهي أحد أهم مستلزمات الحياة اليومية في أوروبا، فنبلاء أوروبا استخدموها لإضافتها للطعام لكي تُكسبه نكهة خاصة، لكن هناك استعمال آخر جعلها ضرورة يومية وليست مادة كمالية، وهو استخدام التوابل في حفظ نكهة الطعام، لأن أوروبا كانت تجهل آنذاك طريقة التبريد باستخدام الثلج لحفظ الطعام من الفساد، ولذا فقد لجؤوا إلى الإكثار من التوابل – وخاصة الفلفل –كوسيلة للاحتفاظ بنكهة الطعام سليمة أطول مدة ممكنة، ومن هنا أتت أهمية التوابل في الحياة اليومية الأوروبية.[١]

- **الفلفل:**

وكان على ثلاثة أنواع؛ الفلفل الأسود؛ وهو الفلفل التجاري الأكثر شيوعاً واستعمالاً، والفلفل الأبيض، والفلفل الطويل، فالفلفل الأسود هو المجفف بالشمس دون أن يُنزع جلده، فبعد جنيه يُطرح

---

[١] سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٤٧. عاشور: بحوث ودراسات، ص ١٣٢. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٧٢.

على حصر، ويعرض على أشعة الشمس الحارقة فيأخذ اللون الأسود والمظهر المتجعد،[١] أما الفلفل الأبيض فهو نفسه بعد أن ينزع جلده، لكن هذا الأخير كان قليل الاستعمال في أوروبا.[٢]

وكانت أكثر مناطق إنتاجه هي ساحل الملبار شرقي الهند، وجزيرة سيلان أو ما كان يعرف باسم سرنديب، وكان يزرع وينتج أيضاً بشكل كبير على طول الساحل الغربي في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى كوشين، وكاليكوت.[٣]

وكانت كميات الفلفل المصدرة من هذه البلاد يصل معظمها إلى أوروبا عن طريق مصر والبندقية، فمصر شكلت الطريق الرئيس لعبور هذا المنتج، ثم تتولى البندقية نقل القسم الأكبر من هناك إلى أوروبا، ولأهمية الفلفل آنذاك فقد تمتع بقوة شرائية، إذ كانت الضرائب أو رسوم المرور —ولا سيما في أوربا– تحدد بالفضة والفلفل، وأحياناً بالفلفل وحده.[٤]

بالإضافة إلى الفوائد التي ذكرت من قبل للتوابل، وخاصة في حفظ رائحة الطعام من الفساد، استخدم الفلفل طبياً كعلاج لبعض الأمراض، فهو عند مزجه بورق الغار يفيد في حالات لذع الحشرات وغيرها، وعندما يمزج بالزيت يستخدم كمرهم له مفعول قوي، وإذا أضيف للنبيذ أفاد في النزلات الشعبية والتهاب الرئة وهو يستخدم كثيراً في تنشيط الجهاز الهضمي.[٥]

- **القرفة:**

اسم أطلق على اللحاء الداخلي المجفف لشجرة القرفة (C.Zeylanicum)، وهي شجرة صغيرة دائمة الخضرة، وعرفت أيضاً باسم (الدار صيني) أي خشب الصين،[٦] وكثر استخدامه مطحوناً

---

[١] بنياميين التطيلي: رحلته، ص ١٦٥. ابن بطوطة: رحلته، ٢/ ١١٢. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٢١. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٧٠.

[٢] بنياميين التطيلي: رحلته، ص ١٦٥. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٦٦. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٢١.

[٣] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦٤. ابن سعد المغربي: كتاب الجغرافية، ص ١٢٠، القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢٣٠. ماركوبولو: رحلاته، ٣/ ١٦. ابن بطوطة: رحلته، ٢/ ١١٢. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص٦٦.

[٤] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٧١، سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٢٢. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص٦٧.

[٥] سونياهاو: في طلب التوابل، ص ٢١–٢٢. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص٤١.

[٦] كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص٤١. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ٢٨٩/١. الزَّبيدي: تاج العروس، مادة قرف.

في حفظ الأطعمة، وفي إعداد النبيذ المعطر، ناهيك عن الاستخدامات الطبية التي كانت معروفة له عند العرب.[١]

وكان يُنتج بشكل رئيسي من الصين، بالإضافة إلى ساحل الملبار والهند بشكل عام، وسيلان[٢]، أما الطريق الرئيسية لتصديره إلى أوروبا فهي طريق البحر الأحمر والإسكندرية.[٣]

- **القرنفل:**

من التوابل شائعة الاستخدام، وهو بالأصل البرعم الزهري غير المتفتح لشجرة القرنفل، يُجمع قبل سقوط التويج ثم يجفف، استخدم كتابل في الطبخ وفي تركيب بعض الأدوية، كما استخدم في إعداد الأشربة العطرية.[٤]

وكثر إنتاجه في جزر جاوة والملوك (إندونيسيا)،[٥] وفي أيام الحروب الصليبية كانت عكا سوقه الرئيسية، وبعد ذلك أصبحت طرق تبريز والبحر الأحمر طرق تجارته الرئيسية،[٦] أما أسعاره فقد كانت ضعف إلى ثلاثة أضعاف ثمن الفلفل.[٧]

- **الزنجبيل:**

هو الجذر، أو الساق الترابي لنبات عشبي معمر واسع الانتشار في المناطق الاستوائية، كان من أشهر التوابل المستخدمة في العصور الوسطى، وكان يباع على شكلين إما أخضر وإما محفوظاً بعد معالجته بالسكر.[٨]

---

[١] الأشقر: تجارة التوابل، ص ٢٥٧. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٩٧.

[٢] ابن خرداذية: المسالك والممالك، ص ٧٠. ماركوبولو: رحلاته، ٢/ ١٠٧. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٩٨ ـ ٩٩. ابن بطوطة: رحلته، ٢/ ١١٨. بنيامين التطيلي: رحلته، ص ١٦٥.

[٣] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٩٧.

[٤] القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢٣١. كولن كلير: التوابل، ص ٤٥. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٠٥. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٢١.

[٥] ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية ٤/٨٠٧، ماركوبولو: رحلاته ج٢ / ١٠٧، ج٣ /٢١، ٣٥. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص٨٢. كولن كلير: التوابل، ص٤٥.

[٦] زكي: طرق التجارة الدولية، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

[٧] كولن كلير: التوابل، ص٤٦. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٠٦.

[٨] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٢٥. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص٢١.

كثُرت استخداماته في الطهي، وتحضير النبيذ، والتداوي وخاصة لعلاج القصبة الهوائية،[١] أما أشهر مناطق إنتاجه فكانت الهند والصين بشكل عام، وأحياناً في اليمن،[٢] وكان يتم تصديره إلى أوروبا عن طريق تبريز أو عن طريق الإسكندرية، إلا أن سانوتو ذكر أن الزنجبيل المحمول عن طريق المغول أفضل وأغلى ثمناً من ذلك المحمول عن طريق الإسكندرية، لأن المحمول عن طريق المغول إلى إرمينيية هو من منتجات الهند، والزنجبيل الهندي –كما يقول البغدادي– أقوى وأحد من اليمني.[٣]

٢- المستحضرات الطبية:

- **الكافور:**

مادة سائلة تستخرج من شجرة الكافور وتستخدم كعلاج يفيد في تقوية الأعصاب والقلب والكبد ويذهب الرطوبة،[٤] تحدث الجغرافيون العرب عن طرق استخراجه، فقالوا إن بسيلان شجر كافور؛ الشجرة تُظل مئة إنسان، يُنقب أعلى الشجرة فيسيل منها ماء الكافور ويملأ عدة جرار، ثم ينقب أسفل من ذلك في وسط الشجرة فينساب الكافور على شكل صمغ (لزج).[٥]

وكان الكافور يُنتج في سيلان وجزر الهند الشرقية والصين وسومطرة،[٦] ويتم نقله بالطرق التقليدية إلى أوروبا، أما أسعاره فمرتفعة مقارنة ببقية البضائع، وكان يُصدر إما كمادة خام أو مصفى ومنقى، وهو ضروري – كما ذُكر – للاستخدامات الطبية.[٧]

---

[١] ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية ٣٦٧/٢، هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٢٦.

[٢] ماركوبولو: رحلاته، ج٤، ص ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٧، ١٢٩، ١٩١، ج٣، ص٦٥، ٦٨. البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة، ت: ٦٢٩هـ): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشره وعلق عليه ده ساسي، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٦ هـ، ص١١. بنيامين التطيلي: رحلته، ص١٦٥.

[٣] سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٨. البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١١.

[٤] ابن الأثير الجزري (علي بن أبي الكرم ت ٨٧٢هـ): تحفة العجائب وطرفة الغرائب، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، برقم ط ١٣٤٤، ورقة ٤١٧ و ٤١٨ أ.

[٥] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦٥. القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢٣٢. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٤. المسعودي: مروج الذهب، ٢٠٤/١.

[٦] ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ٤٢/٤ . ٤٣. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦٥. المسعودي: مروج الذهب، ٢٠٤/١.

[٧] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٩٢، ٩٦.

- **الإهليلج:**

ثمرة ذات نواة، تشبه الخوخ، شكلت في العصور الوسطى أحد أهم السلع التجارية الطبية، تفيد في علاج أمراض المعدة والأمعاء والبصر، وله فائدة كبيرة في تسهيل العملية الهضمية.(١)

كثر إنتاجها في الهند ولا سيما ساحل الملبار، وكاليكوت، وأفغانستان، ويُذكر أن خراسان والسند كانتا تقدمانها كضرائب لبغداد، حصلت عليه وأوروبا من الأسواق التقليدية في عدن والإسكندرية.(٢)

- **الصبر :**

هو عُصارة ورق شجر نباتات الصبار بعد حزها، حيث يتم تجفيفه ومداولته في التجارة ، أكثر استخداماته الطبية كعقار مسهل ، أشهر مناطق إنتاجه البنغال، وجزيرة سقطرى، وحضرموت في اليمن، وعلى الرغم من إنتاجه في إيطاليا واليونان إلا أن ما كانت تنتجه سقطرى كان الأكثر شراءاً آنذاك في السوق الأوروبية.(٣)

- **البلسم:**

من العقاقير الطبية التي نالت شهرة عظيمة في تجارة العصور الوسطى، وهو نتاج شجرة البلسان التي توجد بشكل رئيسي في حدائق المطرية بالقرب من القاهرة.(٤)

أما طريقة استخراجه من الشجرة: ففي شهر آذار من كل عام كان يجري قطع الأغصان والفروع أو إحداث شقوق فيها، ومنها يجري البلسم ويتم جمعه في قوارير، وما ينتج من شجرة البلسان

---

(١) ابن الأثير الجزري: تحفة العجائب، ورقة ٤١٧أ. دوزي: تكملة المعاجم العربية، ١/١٥٣، ٢٠٨. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ١/٧٨.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٤٦ -١٤٧.

(٣) الزبيدي: تاج العروس، مادة صبر. السيرافي (أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي، توفي بعد ٣٣٠هـ): رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م، ص٨٧-٨٨. الادريسي: نزهة المشتاق، ١/ ٥١. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٦٠ -٦٢. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١/٢٣٨.

(٤) لودولف: وصف الأرض المقدسة، ص ٣٢٠ -٣٢١. ويتفق لودولف مع القزويني من أن زراعة البلسم وإنتاجه حكر على المسيحيين في مصر، ولا يعلمونها إلا لأولادهم. لودولف: المصدر المتقدم، الصفحة نفسها. القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢١٧. السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/٣٢٩. زكي: طرق التجارة الدولية، ص ٢٠٧-٢١٠.

كان وقفاً للسلطان، يتولى إهداء قسم منه للملوك والأمراء ورؤساء الدول وللشخصيات المهمة، ويذهب جزء منه للمشافي، وما تبقى يُباع لحساب السلطان بأسعار غالية.

وهناك نوع أقل جودة منه، فالأغصان التي قطعت يقوم العمال بجمعها وغليها بالماء فما بقي من البلسم يذوب مثل الدهن ويطوف على وجه الماء مثل الزيت، وهنا يجري جمعه بملعقة ووضعه في وعاء ثم تركه حتى يتماسك، وهذا المغلي يكتسب لوناً أحمر مائلاً للسواد، أما الطبيعي فلونه كلون النبيذ.[١]

أما عن استخداماته الطبية، فهي واسعة وعديدة،[٢] ناهيك عن استخدامه في الطقوس الدينية المسيحية كعنصر من عناصر التعميد مع الزيت المقدس.[٣]

وكان البلسم نادر الوجود، لذا كان غالي الثمن، وثمة إشارة إلى وجود زراعته في الجزيرة العربية وخاصة اليمن،[٤] ونجد وتهامة والمناطق المحيطة بمكة بالإضافة إلى فارس.[٥]

وكان هناك بالإضافة إلى هذه الأنواع، أنواع عديدة راج استخدامها في العصور الوسطى، فقد كانت القاهرة سوقاً لتجارة الأعشاب الطبية وصناعة الأدوية من الأعشاب الواردة من الشرق، ويباع من هذه الأعشاب ما لا يقل عن ٦٠٠ قنطار سنوياً، تبلغ قيمتها حوالي ٣٠٠٠ دينار، تضاعفت خمس مرات في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بعضها للاستهلاك المحلي والآخر للتصدير إلى أوروبا، وهذه الأعشاب هي التي طورت طب العصور الوسطى إلى الطب الحديث القائم على علم الكيمياء، فقيل "إن علم الكيمياء الحديث قد قضى على تجارة مصر وثرائها في الأعشاب والعقاقير الطبية".[٦]

---

[١] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٣٢٢.

[٢] عن فوائده الطبية انظر: الملك المظفر (يوسف بن عمر بن علي الرسولي، ت: ٦٩٤هـ): المعتمد في الأدوية المفردة، تح: مصطفى السقا، دار القلم، بيروت، (د.ت)، ص ٣٢-٣٣ ، هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٨٧ . ٨٨.

[٣] القزويني: عجائب المخلوقات، ص ٢١٧، وقد نقل ذلك عن ابن سينا.

[٤] سونيا هاو: في طلب التوابل، ص ١٧-١٨.

[٥] البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور، ص ١٠. مع أن القزويني يقول بأنها لا توجد إلا بمصر، وحصراً في مكان يسمى بعين شمس، عجائب المخلوقات، ص ٢١٧.

[٦] زكي: طرق التجارة، ص ٢٠١.

٣- المواد العطرية:

- **المسك:**

في شرق آسيا، ولا سيما في التبت، يكثر وجود حيوان يشبه الظبي الصغير ويسمى فأرة المسك، هذا الحيوان هو المنتج الأساسي لمادة المسك، والمسك هو فضل دمويّ يجتمع من جسمها إلى سرتها. [١]

أما عن طُرق جمعه فهناك طريقتان، الأولى وقد تحدث عنها الجاحظ قائلاً: "تصاد لنوافجها وسررها،[٢] فإذا اصطادها صائد عصب سرّتها بعصاب شديد، وسرّتها مدلاة، فيجتمع فيها دمها فإذا أحكم ذلك ذبحها، فإذا ماتت قوّر السرة التي كان عصبها له والفأرة حيّة، ثم دفنها في الشعير حتى يستحيل ذلك الدم المحتقن هناك، الجامد بعد موتها، مسكاً ذكياً، بعد أن كان ذلك الدّم لا يرام نتنا".[٣]

أما الطريقة الثانية فهي عملية التقاط هذه المادة بعد أن يفرزها فأر المسك في أوقات محددة من السنة، حيث يصبح في سرتها ورم، ويجتمع إليها دم غليظ أسود فيشتدّ وجعها حتّى تمسك عن الرّعي وورود المياه حتّى يسقط عنها بعد حك سرتها بالحجارة. [٤]

كثر وجود هذا الحيوان في الصين والتبت وأحياناً في سيلان وجزر جاوة،[٥] كان يصل إلى موانئ وأسواق البحر المتوسط - وخاصة عكا والإسكندرية - بواسطة مختلف الطرق التجارية، ومن بعدها يصدر إلى أوروبا التي قصرت استخدامه - إلى حدٍ كبير - على المجال الطبي نظراً لارتفاع سعره، أما العرب والفرس، فكانوا كبار هواة العطور وكانوا أكثر استخداماً له من الأوروبيين.[٦]

---

[١] الجاحظ (عمرو بن بحر، ت:٢٥٥هـ): الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ١٦٢/٥. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥٥/٢، ١٢٦-١٢٨. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٤١.

[٢] النوافج: جمع نافجة، وهي وعاء المسك. السرر: جمع سرة؛ وهي الوقبة في وسط البطن.

[٣] الجاحظ: الحيوان، ١٦٢/٥. السيرافي، رحلته، ص ٧٥-٧٦.

[٤] القلقشندي: صبح الأعشى، ٢/ ١٢٦. ماركوبولو: رحلته، ١٠٢/٢. السيرافي: رحلته، ص٧٥-٧٦. اليعقوبي (أحمد بن اسحاق، ت: ٢٩٢هـ): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ص ٢٠٩.

[٥] السيرافي: رحلته، ص٧٥. اليعقوبي: البلدان، ٢٠٩. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦٤. زكي: طرق التجارة، ص ٢٢٨.

[٦] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ١٤٢ -١٤٤.

- **العنبر:**

مادة صلبة تفوح منها رائحة زكية عند تسخينها أو حرقها، ولها تصنيف ممتاز في تجارة العطور، اختلفت الآراء في مصدر هذه المادة، بعض الروايات عدته منتجاً بحرياً؛ أي نبات ينمو في قاع البحر، وهو نوع من الإسفنج تنزعه الأمواج وتلقيه على الشواطئ، وبعض الروايات عدته منتج حيواني، وهذا الاختلاف يعود إلى تنوع أماكن وجودها، إذ توجد على شواطئ البحار بعد أن تقذفها الأمواج، وتوجد بين الصخور وتارة توجد في أجسام بعض الأسماك.[١]

تنوعت وتعددت أماكن وجوده أو إنتاجه، إلا إن معظم أماكن وجوده هي في المحيط الهندي وجزره، ولاسيما السواحل الجنوبية من الجزيرة العربية، ويعدد اليعقوبي ثمانية أنواع للعنبر.[٢]

يُحمل إلى أوروبا إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق الخليج العربي، أما التجار الأوروبيون فكانوا يحصلون عليه من أسواق الإسكندرية وبيروت والقسطنطينية وتبريز وفياماجوستا.[٣]

- **البخور:**

عصارة بيضاء تسيل من لحاء أنواع معينة من الأشجار بعد إحداث شقوق فيها، وتكون الأنواع الجيدة منه صافية وبيضاء نقية، أما الأنواع الرديئة فتكون مخلوطة بالتراب، أو بقشر الشجر، ويكون داكن اللون، وبشكل عام ما جاء عن طريق تبريز وبغداد جيد، وما جاء عن طريق الإسكندرية رديء، أما مناطق إنتاجه فهي الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، بالإضافة إلى جاوة، وسومطرة.[٤]

وهنا لا بد من الإشارة إلى أهمية البخور في أوروبا، وخاصة في الكنائس والأديرة، فإحراق البخور في هذه الأماكن يُعد أمراً ضرورياً في أوقات الصلاة وفي الاحتفالات الدينية، لأنه يُضفي على الجو نوع من الرهبة، وفي العصور الوسطى – عصور الإيمان – كانت الكنيسة تحتل المكانة العليا في المجتمع، وبالتالي فإن مطالب الكنيسة جاءت في المقام الأول من عناية المجتمع، ناهيك عن أن الكنيسة

---

[١] الجاحظ: الحيوان، ٥/١٩٤. اليعقوبي: البلدان، ٢١٠–٢١١. القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١١٧، الإدريسي: نزهة المشتاق، ١/ ٦٦. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٦٩

[٢] اليعقوبي: البلدان، ص ٢١٠–٢١١. الإدريسي: نزهة المشتاق، ١/ ٥٢، ٦٦، ٧٧. ماركوبولو: رحلاته، ٣/ ٧٦، ٧٨. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦١، ٧١.

[٣] هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٧١.

[٤] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ١١٧ . ١١٩.

آنذاك كانت تمتلك الثروات والأموال التي تمكنها من شراء مستلزماتها مهما ارتفعت أثمانها، وبالتالي فقد ازداد الطلب على البخور آنذاك.

- **خشب الصبر:**

خشب عطري، يُصدر رائحة زكية إذا تعرض للحرق، يُنتج بكثرة في الصين والهند، وجاوة، وسومطرة، والهند الصينية،[1] وكان الأوروبيون يحصلون عليه من أسواق القسطنطينية، ودمشق، وعكا، والإسكندرية، وفاماجوستا،[2] فهو من السلع الرائجة التجارة في العصور الوسطى.

وبالإضافة إلى خشب الصبر كان هناك خشب الصندل وخشب البقم، ولهذين النوعين الاستخدامات نفسها.[3]

وشكلت هذه السلع التي ورد ذكرها مادة التجارة آنذاك بالإضافة إلى السكر والقطن والأقمشة والحرير... الخ، وبالمقابل كانت أوروبا تصدر إلى الشرق مواد عديدة أهمها العسل والشمع والزبيب واللوز والجوز والبندق... إلخ.

---

[1] ماركوبولو: رحلاته، ٣/ ١٦، ١٩، ٢٠، ٢٥، حاشية ٧ ص ١٥٩. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٨٢. ٨٣.

[2] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩ / ٢٩٤. هايد: تاريخ التجارة، ٤/ ٨١. الأشقر: تجارة التوابل، ص٢٧٠.

[3] للاستزادة: انظر: هايد تاريخ التجارة، ج٤، ص ٨٥، ٨٧. زكي: طرق التجارة الدولية، ص ٢٣١.

رابعاً: العلاقات التجارية بين المدن التجارية الأوروبية وسلطنة المماليك:

قوبل تحرير عكا في أوروبا بذهول نتج عنه ردة فعل عنيفة من قبل البابا وقادة أوروبا تمثلت بإصدار مجموعة من القرارات والمراسيم التي تحرم التجارة مع سلطنة المماليك، ففي سنة تحرير عكا أصدر البابا نقولا الرابع مرسوماً يحرم توريد الأسلحة، والخيل، والحديد، والخشب، والمواد الغذائية،... وغيرها للبلاد الخاضعة لحكم المماليك، ومن خالف ذلك وقع عليه، أولاً: عقوبة الحرمان، وثانياً: الإعلان بأنهم ملعونون إلى الأبد ومجردون من حقوقهم الكنسية والمدنية، ومن أهليتهم لأن يوصوا أو يورثوا.[١]

وتكرر هذا التحريم على أيدي خلفائه عدة مرات، ولم يقتصر الأمر على البابوات بل حتى قادة أوروبا وأمرائها أصدروا قراراتٍ مشابهة، ففي سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م حرّمت حكومة جنوى كل عمليات المتاجرة مع أراضي السلطان، كما فعل ذلك جاكوب الثاني ملك أراغون وكتالونيا في سنة٧٠٢هـ/١٣٠٢م، في حين منعت بيزا في قانونين صدرا سنة ٧٠٢ و٧٢٢هـ/ ١٣٠٢ و١٣٢٢م بيع الأسلحة والمواد الحربية فقط، أما فيليب الجميل ملك فرنسا فقد اتخذ موقفاً أشد صرامة عندما منع أي عملية متاجرة مع مصر وسورية بقرار أعلنه سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م ، ثم تبعته في هذا الأمر البندقية.[٢]

والسبب في اتخاذ هذه القرارات، هو أن إمكانية إرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام بات أمراً مستحيلاً في ظل ظروف أوروبا التي كانت تعاني من الحروب الدينية والسياسية ما تعاني، ناهيك عن أنها كانت لا تمتلك نقطة ارتكاز في بلاد الشام، وإرمينية الصغرى بلد غير مناسب لأنها بعيدة كثيراً، بالإضافة إلى فتور شعوب وأمراء أوروبا، ومن جهة ثانية فإن السلطنة المملوكية كانت بحاجة مستمرة للعبيد البيض الذين شكلوا قوام الجيش المملوكي، وكان هؤلاء يتم جلب معظمهم عن طريق التجار الأوروبيين، فحرمان مصر منهم كان يوقع السلاطين في ضيق شديد، ويضطرهم إلى تعبئة جيوشهم من

---

[١] ماكارياس: مرويات، ص٥٦. مارينو سانوتو: الأسرار، ٣/ ١٧-١٨. نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ٣٠٧. هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ص٢٥٥.

Boase, T. S. R.: Kingdom and strongholds of the Crusaders, London, 1971. P. 215.

[٢] أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٣٨٧.

عناصر محلية أقل كفاءة، ناهيك عن أن مصر لا تنتج خشب ولا حديد، وهي مواد ضرورية لتسليح جيوشهم وتجهيز أساطيلهم، وكان حرمانهم من هذه المواد يعني إلى إضعاف القوة العسكرية في مصر.

ولضمان تطبيق هذه القرارات جُهزت العديد من السفن الحربية، وكُلفت بأن تجوب باستمرار الحوض الشرقي للمتوسط، وتهاجم في عرض البحر السفن المسيحية والمسلمة التي يشتبه بأنها تتاجر مع المماليك.[١]

والسؤال هنا:

هل تم تنفيذ هذه القرارات؟.

في الحقيقة ما من شك في أن هذه القرارات لاقت بعض النجاح وثنت بعض التجار عن التردد إلى موانئ مصر والشام، غير أن نداءات "الثروة القبيحة" كانت أشد من نداءات البابا وغيره، فاستمرت التجارة، بدليل أن مارينو سانوتو طلب في كتابه الذي رفعه للبابا أن تكون قرارات الحرمان أشد مما عليه، وطالب بملاحقة المخالفين وإنزال العقوبات بهم وبمن يستضيفهم.[٢]

١ – البندقية:

كانت البندقية تُعد أشهر الجمهوريات التجارية في العصور الوسطى، وتاريخها حافل بالنشاط التجاري مع مصر والشام، فيعود النشاط التجاري للبنادقة في مشرق البحر المتوسط إلى ما قبل القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، ففي أيام الخلافة الفاطمية شهدت العلاقات التجارية بين الطرفين نمواً وتطوراً كبيريين على الرغم من التهديدات البيزنطية والتي قضت بمنع البنادقة من تصدير بعض المواد الحربية لمصر.[٣]

إلا أن العلاقات التجارية استمرت بين الطرفين ولم تتأثر بمثل هذه القرارات، حتى في أيام الحروب الصليبية تمكنت البندقية من الحفاظ على علاقاتها مع الطرفين، ففي وقت واحد كانت سفنها تجوب موانئ الإسكندرية، وعكا، وصور، والقسطنطينية، وتحمل إلى مصر الرقيق والخشب والحديد،

---

[١] مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، ٣٨/ ١٨، ٧٦.

[٢] مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، ٣٨/ ١٧، ٥٩–٦٠.

[٣] آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر: عبد الهادي أبو ريدة، ٢/ ٤٢٩.

وتحمل من مصر التوابل والحرير... إلخ، على الرغم من أن الحروب بين المسلمين والصليبيين كانت على أشدها،[1] وقد تعجب ابن جبير من ذلك عندما زار بلاد الشام ومصر أواخر القرن الثالث عشر؛ إذ قال: "ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"،[2] كما أنه في رسالة صلاح الدين المرسلة إلى الخليفة في بغداد سنة ٥٧٠هـ/ ١١٨٢م إشارة واضحة إلى ازدواجية الموقف التجاري للمدن الإيطالية، وفي مقدمتها البندقية.[3]

وقبل قيام السلطنة المملوكية كان هناك عدد من الاتفاقيات التجارية التي نظمت العلاقة بين الأيوبيين والبندقية، كان أقدم ما وصلنا تلك الاتفاقية التي عقدها السفيرين مارينو داندولو (Marino Dandolo) وبطرس ميخائيل (Pietro Michiel) مع الملك العادل الأيوبي سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م، والتي منحت البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانئ المصرية، ونصت على معاملتهم كأبناء أمة صديقة، ومنحتهم فندقاً ثانياً في الإسكندرية، في المقابل تعهد البنادقة بعدم تقديم العون لأي مشروع صليبي،[4] وفي السنة ذاتها تمكن البنادقة من توقيع معاهدة تجارية مع حاكم حلب غياث الدين غازي بن صلاح الدين حصلت فيها على امتيازات واسعة.[5]

---

[1] Tompson. J. W.: Economic and Social History of the Middle Ajes. 2 Vols. Newyork. 1959. V.1, P.320-321.

[2] ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني، ت:٦١٤هـ): رحلة ابن جبير، دار الهلال، بيروت، (د. ت)، ص ٢٤٥.

[3] أبو شامة: الروضتين، الموسوعة الشاملة، ١٨/٢٣٣.

[4] Mas Latrie: Traite des Paixet de Commerce et documents diveres Concerceet les Selations des Chretians avec les Arebes de lafrique au mouen age, Paris, 1865.P. 70-72.

[5] Tafel, G. L. F. and Tomas, G. M. : Urkunder Zur alteren Handels – und Staatsges chichte der Republik Vending Mit besonderer Beruckichtiqung auf Byzanz Und die Levanto. 3 vols (1856-1857). V.2, P. 62-66.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٣.

وتكرر إرسال سفارات إلى حلب في أعوام ١٢٢٥ و ١٢٢٩ و ١٢٥٤م حيث عُقدت فيها معاهدات تجارية.[١]

أما المعاهدة الأهم على الإطلاق فهي التي عُقدت سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ بين البندقية والسلطان الملك العادل الثاني، لأنها شكلت الأساس أو النموذج الذي عقدت على غراره باقي المعاهدات بين الطرفين فيما بعد حتى أواخر الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وفيها تعهدت السلطات المصرية بمنح البنادقة الحماية في الموانئ والأراضي المصرية، وحددت أشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الأسواق المصرية، كما حددت حقوق وواجبات البنادقة.[٢]

وعلى إثر هذه المعاهدة انتظمت العلاقة التجارية وازدهرت بين الطرفين، وتم تجديدها سنة٦٤١هـ/ ١٢٤٤م، في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل مع إضافة بند جديد وهو حماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة.[٣]

وفي مطلع خمسينيات القرن الثالث عشر حدثت تحولات خطيرة في مشرق البحر المتوسط، كان **أولها** وصول المغول إلى المنطقة، وقد نتج عن عملياتهم العسكرية في شرق آسيا توقف كل الطرق التجارية القادمة عبر آسيا والخليج العربي والعراق، **وثانيها** هو تبدل الأوضاع السياسية في مصر بانتهاء حكم بني أيوب واعتلاء مماليكهم لسدة السلطنة، وقد ترافق ذلك مع ازدهار الطريق التجاري القادم عبر البحر الأحمر بسبب توقف الطرق الأخرى كما سلف القول، وكان هذا الطريق الأخير قد خضع بمعظمه لسلطنة المماليك، لذا فقد سارعت البندقية إلى إرسال سفارة إلى السلطان المعز أيبك سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م تمكنت من تجديد امتيازات سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، مع إضافة بعض المواد التي تتعلق بحماية التجار البنادقة وحماية بضائعهم في الأراضي والمياه المصرية، مع إعفاء من بعض الرسوم والضرائب،

---

[١] الحديث عن هذه المعاهدات هو خارج نطاق البحث، ولكن للاستزادة يمكن العودة إلى تاريخ التجارة لهايد حيث تحدث عنها بالتفصيل، ٢/ ٢٣ . ٢٥.

[٢] قام المؤرخ الفرنسي ماس لاتري بتحقيق ونشر هذه الوثيقة في كتابه:

Traite des Paixet de Commerce. p.72 - 75.

وقامت الدكتورة عفاف صبرة بترجمتها ونشرها في كتابها العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٦٩-٢٧٥.

[3] Traite des Paixet de Commerce , P. 76-77.

بالإضافة إلى مواد تتعلق بالمسائل القضائية بالنسبة للبنادقة المقيمين والمترددين على مصر، كما حددت حقوق البنادقة ونظمهم في فنادقهم.(١)

مع قيام السلطنة المملوكية ونشاط الحروب والمعارك من جديد بين الصليبيين والمسلمين لم تتعطل التجارة مع البنادقة، وقد لاحظ ذلك الأمير الإنكليزي إدوارد الذي قدم إلى عكا على رأس بقايا حملة صليبية سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، فقد ساءه أن البندقية تحتفظ بعلاقات تجارية قوية مع المماليك وتمدهم بالأخشاب والحديد،(٢) واستمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين زمن السلطان المنصور قلاوون إذ وقعت معه البندقية معاهدة سنة٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م خفض فيها الرسوم الجمركية عليهم، إضافة إلى منحهم الأمن والحماية على ممتلكاتهم وأرواحهم.(٣)

وأصيب النشاط التجاري للبندقية وغيرها من المدن التجارية الأوروبية بنكسة قوية في مشرق البحر المتوسط بعد تحرير عكا على يد الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١، بسبب قرارات الحرمان البابوية، ومن جهة ثانية فإن البندقية فقدت بسقوط عكا أهم مستعمراتها التجارية،(٤) وأُودع عدد كبير من تجارها في سجون القاهرة، وبعد مدة غير بعيدة وَقَعَتْ سفينة بندقية في أسر المماليك، عندما كانت تبحر قرب غزة، وفيها شحنة ذات قيمة كبيرة من معادن نفيسة، فنُقلت إلى القاهرة، وأُودع تجارها في السجون.(٥)

زادت هذه الإجراءات من حنق البنادقة، لذا قاموا بأسر بعض تجار المسلمين في عرض البحر، فرد الأشرف خليل باعتقال عدد من تجارها المقيمين في الإسكندرية وسجنهم،(٦) وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأحداث أن فتوراً ساد العلاقات التجارية والسياسية بين الطرفين، لكن هذا الفتور لم يستمر

---

(1) Mas Latrie: Traite des Paix . P. 77-80.

أيضاً قامت عفاف صبرة بترجمة هذه الوثيقة كاملة ونشرتها في كتاب العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٧٧- ٢٨٣.

(2) Powicke: king Henry III. V.2, P. 604-605.

زينب عبدالقوي: الانكليز والحروب الصليبية، ص٢١٣.

(3) Mas Latrie: Traite des Paix . P.81.

(٤) كانت عكا المركز الرئيسي للتجار البنادقة في بلاد الشام كما كانت طرابلس المركز الرئيس للجنوية.

(٥) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية: ص ٤٥.

(٦) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٤٤ . ٤٥.

طويلاً، إذ إن تعطل التجارة كان يعني بالنسبة للبنادقة انهيار أسباب ومسوغات عظمتها، لا بل حتى وجودها، لذا قامت البندقية سنة٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م بتجاهل كل قرارات الحرمان البابوية وأرسلت سفارة إلى السلطان الأشرف خليل تحمل هدايا وتحف فاخرة، وطلبت منه الإفراج عن المعتقلين البنادقة مقابل ٧٠ ألف درهم كتعويض لما لحق التجار المسلمين الذين تم اعتقالهم في عرض البحر، فوافق السلطان، وأطلق سراح البنادقة وأصدر السلطان "أمان شريف" منح فيه البنادقة، والبيازنة، والجنوية وغيرهم حرية المتاجرة مع مصر والشام "والتردد إلى الثغور الإسلامية آمنين مطمئنين".[١]

وفي سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م قدمت إلى مصر سفارة من البندقية نجحت في توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون جُددت فيها الامتيازات القديمة التي كانت ممنوحة للبنادقة، إضافة إليها حصلت على إعفاء من نصف الرسوم الجمركية، مع التعهد بحماية التجار البنادقة وممتلكاتهم، كما حصلت على استقلال قضائي في مصر وحرية في ممارسة طقوسهم وعباداتهم، وفي المقابل تعهد البنادقة باستمرار جلب المواد الحربية المحرمة من قبل البابوية وعلى رأسها الخشب والحديد والقار....، شريطة أن يسمح السلطان بتصدير مواد مصرية معفاة من الرسوم الجمركية تعادل بقيمتها المواد المحرمة المجلوبة.[٢]

أعطت هذه المعاهدة العلاقات التجارية بين الطرفين مزيداً من الاستقرار والازدهار، وسعياً من البنادقة لتثبيت أقدامهم في سورية وإقامة مراكز عوضاً عن تلك التي فقدوها في عكا قدمت سفارة بندقية إلى صفد سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م لعقد معاهدة تجارية، واختار البنادقة صفد بالذات لأنها كانت آنذاك أهم النيابات المملوكية على الساحل، واحتلت مكاناً استراتيجياً في وسط بلاد الشام، واتسعت بحيث أصبحت تشمل المنطقة من البحر المتوسط غرباً، وحوض نهر الزهراني شمالاً، ومن الشرق فقد امتدت من طرف مرجعيون حتى نهر الحاصباني ثم مجرى نهر الأردن حتى جسر الصنبرة، في حين شكل طرف مرج ابن عامر الشمالي حدودها الجنوبية، وكان يتبع لها جنين، وعكا، والناصرة، وصور، وطبرية، وهونين، وتبنين، وعثليت، والجون، ومرجعيون، والشقيف، [٣] وكان لها نشاط اقتصادي قوي.

---

[١] ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٤٥.

[2] Mas Latrie: Traite des Paixet. P.82-83.

[٣] العمري: التعريف بالمصطلح، ص ٢٣٦-٢٣٧. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٥٦-١٦٠. ابن شيخ الربوة: شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٩٢-٢١٤. سهيل زكار: فلسطين في العصر المملوكي، ص ٥٥٦-٥٥٧.

المهم أن والي صفد رحب بالبنادقة، وعلى ضوء التعليمات التي أتته من السلطان الناصر محمد بن قلاوون فإنه أعلمهم بإمكانية المتاجرة في المنطقة مع ضمان الحماية لهم ولممتلكاتهم.[١]

وعلى هذا فإن النشاط التجاري للبنادقة في الحوض الشرقي للمتوسط قد استعاد عافيته مجدداً، على الرغم من الحظر البابوي الجديد الذي فرضه البابا حنا الثاني والعشرين على البنادقة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م،[٢] إلا أن تجارتهم استمرت، وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٤م أصدر البابا كليمنت السادس مرسوماً سمح فيه للبنادقة بالمتاجرة مع سلطنة المماليك لمدة خمس سنوات "شفقة على البندقية التي تعتمد على التجارة البحرية وحدها للحصول على قوتها اليومي"، وعلى أثر هذا المرسوم سارع البنادقة بإرسال سفارتين إلى المماليك في سنتي ٧٤٣ و٧٤٤هـ/ ١٣٤٤ و ١٣٤٥م لاستئناف النشاط التجاري المعهود، وحملت السفارة الأولى مرسوماً من السلطان الصالح إسماعيل يتعهد فيه "بحماية الرعايا البنادقة المقيمين في الأراضي المصرية أو المترددين عليها، ومعاملتهم أطيب معاملة"، وانطوى المرسوم على مجموعة من التدابير والإجراءات الاحتياطية، ونجحت السفارة الثانية بأن حملت خطاباً جدد فيه السلطان التزاماته السالفة.[٣]

وبذلك عادت العلاقات التجارية إلى سالف عهدها، واستمر إرسال السفراء والقناصل من قبل البنادقة، وجُددت الاتفاقيات، ومنح البنادقة امتيازات جديدة في سنتي٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م،[٤] و٧٦٣هـ/ ١٣٦١م،[٥] واستمرت التجارة على أفضل حال حتى سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، ففي هذه السنة هاجم القبارصة مدينة الإسكندرية واستباحوها، وقد سلف الحديث عن ذلك، وقد تورطت البندقية بأن شاركت بهذه الحملة على جاري عادتها بالعمل المزدوج.[٦]

---

[١] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٧١، أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٣٩٣.

[٢] أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٣٩٣.

[3] Hodgson, F. G.: Venice in the Thirteenth and Fourteenth Centuries, London, 1972, P. 380-382.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٦٦ . ٢٧٧.

[4] Mas Latrie: Traite des Paixet. P.88-92.

[٥] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٨٠.

[٦] النويري: الإلمام ص ٣٥، وفي صفحة ٧٢ ذكر أن البندقية شاركت ب ١٤ غراب. في حين تحدث المقريزي عن مشاركة البندقية بـ ٢٤ سفينة، السلوك، ٣/ ١٠٧. لكن مؤرخ الحملة القبرصي ماكارياس لا يأتي على ذكر هذا العدد الضخم.

وعلى إثر ذلك أُصيبت التجارة بالصميم، وتعطلت مع سلطنة المماليك، ولاسيما عندما أصدر السلطان أوامره سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م "بالقبض على جميع من بديار مصر والشام من الفرنج"،[١] ناهيك عن أن والي ثغر الإسكندرية الأمير جنغرا عندما خرج من الإسكندرية على إثر الاجتياح القبرصي كان قد اعتقل نحو خمسين تاجراً أوروبياً وساقهم معه إلى دمنهور،[٢] كما تم القبض على جميع التجار الموجودين في بلاد الشام.[٣]

أكثر من ذلك؛ تعرضت مستودعات البنادقة وفنادقهم وبضائعهم في الإسكندرية للنهب من قبل القبارصة أنفسهم،[٤] ويذكر المؤرخ القبرصي ماكارياس أن أهل البندقية عندما سمعوا بخبر الهجوم على الإسكندرية — لم تكن وجهة الحملة معلومة، وقد اكتفى قبرص أثناء وجوده في البندقية بالقول أن الحملة إلى سورية — "غضبوا بمرارة لأن مرابحهم الكثيرة من التجارة هناك، وفي سورية"، وعلى الفور قاموا بإرسال وفد إلى السلطان المملوكي ليوضحوا له أن الهجوم الذي تم لم يكن برغبتهم، وهم لا يعرفون شيئاً عنه، وهم راغبون بأن يسود السلام مع المماليك، لكن السلطان رفض ذلك. [٥]

وبناءً عليه فقد توقفت الحركة التجارية في الأعوام الخمسة التالية لاجتياح الإسكندرية، وكثرت عمليات الاعتقال بحق التجار الأوربيين، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م اعتقلت السلطات المملوكية في بيروت حوالي ٧٠ تاجراً بندقياً،[٦] وفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م اعتقل نائب الإسكندرية ١٥٠ من الفرنج كانوا قد وصلوا إلى الميناء على مراكب تحمل البضائع،[٧] وخلال هذه المدة بُذلت جهود حثيثة من قبل البنادقة والجنوية والقطلان للتوصل إلى تسوية بين قبرص والسلطنة المملوكية، ولولا جهودهم في ذلك لما تمكن الطرفان من التوصل إلى التسوية التي عُقدت سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بين المماليك من جهة،

---

[١] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٧.

[٢] النويري: الإلمام، ص ٥٠-٥١. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٤ - ١٠٦. ابن شاهين: نيل الأمل، ١/٣٧٤.

[٣] ابن شاهين: نيل الأمل، ١/ ٣٧٥.

[٤] النويري: الإلمام، ص٥٥-٥٦.

[٥] ماكارياس: مرويات، ص ١٠١-١٠٢.

[٦] ماكارياس: مرويات، ص ١٠٨

[٧] المقريزي: السلوك، ٣/ ١٥٦.

والقبارصة والبنادقة والجنوية وروودس من جهة ثانية،[1] وأعقب هذا الصلح مرسوم صدر من البابا متضمناً إلغاء المراسيم السالفة المتعلقة بتحريم المتاجرة مع مصر،[2] فكان أن سارعت البندقية إلى إرسال وفد إلى القاهرة تمكن من الحصول على امتياز جديد من السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، ذكر فيها السلطان بأن طلبات السفير البندقي كلها مُجابة.[3]

بناءً عليه عادت العلاقات التجارية إلى سالف عهدها، وازدهرت التجارة بين الطرفين حتى مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دون أن يعكر صفوها أحد حتى الاجتياح التيموري، فمع هذا الجديد حدثت تحولات جذرية في المنطقة عطلت التجارة مدة من الزمن، لأن التجار الايطاليين تركوا متاجرهم وهربوا إلى بلادهم، ومن أشهرهم التاجر الإيطالي دي ميجنانللي الذي كان مقيماً آنذاك في القدس وهرب مع من هرب من التجار، ثم كتب رسالة مختصرة عن حياة تيمورلنك وهجومه على بلاد الشام.

٢ – جنوى:

النشاط التجاري الجنوي في مشرق البحر المتوسط قديم جداً، وأقدم الإشارات إليه وردت في الوثائق التي تعود إلى أيام الدولة الفاطمية، حيث كان للجنوية فنادق ونُزُل خاصة في موانئ مصر والشام، ولكن مع قيام الحروب الصليبية تعززت التجارة الجنوية في بلاد الشام، لأن المساعدة الجنوية للصليبيين كانت حاضرة في كل مرحلة من مراحل الحملة الصليبية الأولى التي انتهت بإقامة أربع دويلات، والسيطرة الكاملة على ساحل بلاد الشام،[4] لذلك كوفئ الجنوية بمنحهم امتيازات تجارية واسعة في الساحل الشامي.[5]

---

[1] النويري: الإلمام، ص ٢٧٤–٢٧٥. ماكارياس: مرويات، ص ١٧٤–١٨٢.المقريزي: السلوك، ٣/ ١٨٩–١٩١.

[2] Hill.G.: History of Cyprus, VII, p. 376.

[3] Mas Latrie: Traite des Paixet. P. 93-94.

[4] عن المساهمة الجنوية في الحملة الصليبية الأولى، انظر: جاك دي فتري: تاريخ القدس، الموسوعة الشاملة، ٣٤/ ١٣٣، ١٣٤، ١٥٠. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٣٠٢، ٣٩٨، ٤٢١–٤٢٢، ٤٩٣–٤٩٤، ٤٩٧، ٥١٢–٥١٣، ٥٣٠–٥٣٣. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٦٠–٢٦٨.

[5] عن هذه الامتيازات انظر، وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٤٩٤، ٤٩٧، ٥١٢، ٥١٣.

من خلال الامتيازات التي حصل عليها الجنوية من الصليبيين أصبح وجودهم كقوة تجارية في مشرق البحر المتوسط أمراً واضحاً للعيان، وعلى الرغم من حالة الحرب القائمة مع المسلمين إلا أن العلاقات التجارية كانت مستمرة آنذاك، وخير مثال عليها الاتفاقية التجارية التي تم عقدها بين الجنوية وصلاح الدين سنة٥٧٣هـ/ ١١٧٧م والتي شكلت قاعدة للعلاقات التجارية مع مصر لسنوات عديدة.[١]

بقيت الأمور على منوالها حتى منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث أصيبت التجارة الجنوية بنكسة قوية على إثر حرب دارت بينهم وبين البنادقة، بعد خلاف دب بينهم من أجل السيطرة على دير القديس سابا الذي يقع على مرتفع مطل على ميناء عكا، استمرت المعارك على مرحلتين في سنتي ٦٥٤ و ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦ و ١٢٥٨م، واتسعت فيها دائرة الصراع وانقسم الصليبيون على أنفسهم، وانتهت الحرب بسيطرة البنادقة على عكا وطرد الجنوية من أحيائهم هناك إلى صور.[٢] ومنذ ذلك الوقت والتجارة الجنوية في بلاد الشام ضعيفة حتى نهاية الحروب الصليبية.

وكان لهذا الصراع نتائج سيئة ليس فقط على مستقبل التجارة في مشرق البحر المتوسط فقط، بل على مستقبل الوجود الصليبي أيضاً في بلاد الشام، ذلك أن هذه المعركة أحدثت ردة فعل عند الجنوية ودفعتهم للقيام بسلسلة من التحالفات ضد البنادقة ولتعويض خسارتهم في عكا، منها تحالف الجنوية مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وتقديم المساعدة له لاستعادة حكم القسطنطينية من اللاتين، مقابل امتيازات تجارية واسعة في أرجاء الإمبراطورية، وفعلاً تم ذلك سنة٦٦٠هـ/ ١٢٦١م حيث انتهى الحكم اللاتيني ورجع الحكم البيزنطي للمدينة، وبموجب معاهدة (نيمفيوم) بين البيزنطيين والجنوية؛ أصبح الجنويين هم سادة التجارة في الأرخبيل، والبوسفور، والبحر الأسود، مُنهين بذلك التفوق التجاري البندقي في تلك المناطق والذي استمر قرابة ستين سنة في عهد الأباطرة اللاتين.[٣]

وتعرض الجنوية لنكسة تجارية ثانية بعد تحرير أنطاكية من قبل السلطان بيبرس سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م، حيث كان لهم في أنطاكية امتيازات واسعة، منها كنيسة، وسوق، وبئر، وثلاثين بيتاً، وفرن،

---

[١] الكناني: العلاقات بين جنوى والمشرق الأدنى الإسلامي، ٢/ ١٤٩ – ١٥٠.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٢٨-٤١.

[٣] هايد: تاريخ التجارة، ١٣/٢ وما بعد.

ومستودع ضخم، وإعفاء من المكوس والضرائب في المدينة وتوابعها، ومحاكم خاصة، ثم حصلوا على ثلث دخل ميناء أنطاكية (السويدية)،[1] ومع ذلك استمر النشاط التجاري للجنوية، وحاولوا تعويض خسارتهم بعقد معاهدات تجارية مع المماليك، ففي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م أرسلوا سفارة إلى السلطان الظاهر بيبرس انتهت بتوقيع صلح "وموادعة بعدة فصول".[2]

وتكررت السفارة بعد عشرة أعوام أيام سلطنة المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م،[3] إلا أن العلاقات التجارية بين الطرفين بدأت بالتدهور بعد سنتين عند قيام المماليك سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م بالاستيلاء على سفينة جنوية محملة بالسلع والمتاجر في ميناء الإسكندرية لأسباب مجهولة، ولم يرض السلطان قلاوون إطلاقها إلا بعد دفع فدية كبيرة،[4] إلا أن الطامة الكبرى بالنسبة للجنوية كانت في تحرير طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م.

شكلت مدينة طرابلس أحد أكبر المراكز التجارية لجمهورية جنوى في مشرق البحر المتوسط وخاصة بعد سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٨٧م؛ ففي هذه السنة توفي بوهيمند السابع حاكم طرابلس ولم يكن له وريث يخلفه، وبعد تطورات عديدة توصل أهل طرابلس بالاتفاق مع جمهورية جنوى إلى تشكيل قومونة جنوية لحكم طرابلس، وبالتالي كان أن سيطرت جنوى على كل مقدرات طرابلس التجارية، دفع هذا بعض الأطراف المنافسة لجنوى لإرسال وفد إلى السلطان قلاوون يحذره من خطر الجنوية في طرابلس، وشجعوه على تحرير طرابلس، وفعلاً انتهز السلطان قلاوون أقرب فرصة وقام بتحرير المدينة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م.[5]

كان تحرير المدينة كارثة بحق تجارة جنوى في مشرق المتوسط، وربما هذا ما يفسر نشاط القرصنة الجنوية ضد السواحل المملوكية بزعامة آل زكاريا حكام قومونة طرابلس المحررة،[6] لكن أعمال القرصنة لم

---

[1] وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ص ٤٩٤.

[2] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٧/٤٤.

[3] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٨/ ٢٢، المقريزي: السلوك، ١/ ٧٢٩. ويشير الكناني إلى معاهدة تجارية بين الطرفين تم عقدها عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م إلا أن نصها لم يتم العثور عليه في المصادر المعاصرة. انظر: العلاقات بين جنوى والشرق الأدنى الإسلامي، ٢/ ٣٦٠.

[4] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٦٨.

[5] تقدم الحديث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني.

[6] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٦٥.

تكن لتعوض خسارة جنوى، ولم يكن هناك بدٌّ من إعادة العلاقات مع المماليك، وتأمين البديل عن طرابلس، لذا أرسلت جنوى إلى السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م سفارة قدمت اعتذارها، وتبرأت من أعمال القرصنة التي قام بها آل زكاريا، وردت ما قد سلبوه من قبل، وبعد إلحاح من السفارة وتردد من قِبل السلطان قلاوون، وافق الأخير على عقد هدنة معهم "لأجل عمارة الثغور، ولأن هذا الجنس . الجنوية . يجلبون الأموال، ويحصل للديوان منهم الجُمَل الكثيرة"،[١] وقد أورد ابن عبد الظاهر بنود المعاهدة بالتفصيل، وفي الحقيقة بهذه المعاهدة أصبحت بلاد السلطنة المملوكية كلها مفتوحة أمام التجارة الجنوية مع كل الضمانات اللازمة لحمايتهم وبضائعهم، مع تخفيضات ضريبية على بعض البضائع وإعفاءات جمركية، وبذلك استعادت التجارة الجنوية عافيتها في مشرق البحر المتوسط.

لم يكن تحرير عكا يعني الكثير بالنسبة للتجارة الجنوية إذا ما قارنا ذلك بالنسبة لتجارة البندقية، فالجنويون لم يكن لهم نشاط تجاري قوي في عكا، والضربة كانت قد وجهت لهم على إثر تحرير طرابلس قبل عامين من تحرير عكا، وعوضوا خسارتهم تلك بمعاهدة سالفة الذكر مع السلطان قلاوون، والتي على أثرها . على حد قول أحد المؤرخين – تربع الجنوية على عرش التجارة الشرقية،[٢] ثم جاء لهم "الأمان الشريف" الذي أصدره الأشرف خليل والذي شمل البنادقة، والجنوية، والبيازنة،[٣] ليعطي الجنوية المزيد من حرية التحرك في مصر والشام.

لكن في الوقت ذاته لم يكن بمقدور الجنوية مقاومة القرارات البابوية والحراسة المشددة التي فرضتها على التجارة مع سلطنة المماليك في مشرق البحر المتوسط، لذا لجأت إلى تهريب السلع والمتاجر إلى الديار المصرية وبخاصة الخشب والحديد والقار،[٤] ونتيجة لذلك فقد تكررت الشكاوى من قبل البابا يوحنا الثاني والعشرين ضد الجنوية الذين استمروا بالتجارة مع المسلمين وتزويدهم بالعبيد والعتاد الحربي.[٥]

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٦٥ – ١٦٨.

[2] Byrne, R. H.: Commercial Contractes of the Genoesews in the Syrian Trade of the 12th Century. Vol. xxxl. 1916 – 1927. p128.

[٣] ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٤٥.

[٤] عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص٢٢١.

[٥] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٦٧.

وتخلل العلاقات التجارية بين المماليك والجنويين بعض المشاكل، وكان أبرزها قيام صاحب جزيرة خيوس[1] الجنوي باعتقال رسل السلطان الناصر محمد الموجهين إلى الملك طقطاي خان مغول القفجاق، ومن معهم من رسل طقطاي، وبلغ عددهم ستين رجلاً، طلب فداءَهم ستين ألف دينار، وكالعادة كتب السلطان إلى الإسكندرية ودمياط بالحوطة على تجار الفرنج واعتقالهم، فكان بين المعتقلين أحد تجار الجنوية، وقد تعهد بإحضار الرسل وما معهم، فمُكن من السفر لذلك.[2]

وعقب اجتياح القبارصة للإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، والذي شارك فيه الجنوية "بغرابين"،[3] توقفت التجارة بشكل كامل تقريباً، ولا بد أن يد الاعتقال والمصادرة طالت التجار الجنويين كما طالت زملاءهم من التجار والقناصل الفرنج التي قامت بها السلطات المملوكية كما ذكر من قبل عقب الهجوم القبرصي، وعلى غرار البندقية؛ بذلت جنوى جهوداً حثيثة لعقد الصلح مع المماليك، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م أرسلت سفارة تطلب تمكين تجارهم من المتاجرة في الإسكندرية على عادتهم، وعلى قول المقريزي فإنهم أجيبوا إلى ذلك،[4] وفي الحقيقة العلاقات والنشاط التجاري لم يستقرا إلا بعد عقد الصلح سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧١م.

لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، فبعد احتلال الجنوية لمدينة فيماجوستا سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، أشهر المدن التجارية في قبرص، بدأت بعض الأمم التجارية؛ وفي مقدمتها البندقية، بالتخلي عن تجارتها في قبرص والذهاب إلى الموانئ المملوكية، فردت جنوى بسلسلة من عمليات القرصنة ضد السواحل المملوكية، فعلى سبيل المثال هاجمت في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م عشرة مراكب جنوية مدينة طرابلس،[5] وفي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٣م أغار الجنوية على مدينة صيدا واستولوا على بعض المراكب في مينائها، ثم أغاروا على ميناء بيروت في العام نفسه وصادروا سفينتين للبنادقة،[6] وأيضاً قاموا في شعبان ٧٩٠هـ/ تموز ١٣٨٨م بالاستيلاء على سفينة قادمة من بلاد الشام إلى مصر وعلى ظهرها أقارب

---

[1] أحد جزر الأرخبيل اليوناني، اسمها خيوس وعرفت بالمصطكي نظراً لشهرتها بذلك الصمغ الذي يجلب منها.

[2] المقريزي: السلوك، ٢/ ١٠١ . ١٠٢.

[3] غرابين على قول المقريزي: السلوك، ٣/ ١٠٧. وعلى قول ماكارياس ثلاث سفن، ص٩٦.

[4] المقريزي: السلوك، ١٤١/٣.

[5] المقريزي: السلوك، ٣٣٥/٣. ابن حجر: إنباء الغمر، ١٧٤/١. ابن قاضي شهبة: تاريخه، ٣٨٢/٢.

[6] صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣١ . ٣٢.

السلطان برقوق، مما حدا به إلى اعتقال كل تجار الفرنج في البلاد الساحلية،[1] وأمر بمنع الجنوية من دخول بلاد المسلمين، فسارعت جنوى بإرسال سفارة لتسوية الوضع حيث تم في ذي الحجة من السنة نفسها إعادة من أسر على ظهر هذه السفينة ومعهم كل أمتعتهم "ما نقص من مركبهم شيء يساوي الدرهم الفرد ولا الفلس الواحد".[2]

وفي سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م قام بوسيكو حاكم جنوى بحملة عسكرية استهدفت الموانئ المصرية والشامية انطلاقاً من جزيرة قبرص، فهاجم في المحرم/ آب طرابلس، إلا أن مناعة أسوارها ويقظة حاميتها وأهلها، وقدوم المساعدة من قبل الأمير شيخ المحمودي نائب دمشق، جعلهم يغادرونها إلى بيروت، وفي بيروت أحرق الجنوية بعض المواقع وقتلوا عدداً من أهلها، كما أسروا سفينة محملة ببضائع ثمينة قادمة من دمياط إلى بيروت، ومن هناك ساقوا إلى صيدا، فتصدى لهم الأمير شيخ المحمودي، وفي شهر صفر هاجموا الإسكندرية، لكنهم لم يصيبوا أية نتائج.[3]

٣- النشاط التجاري لبيزا وباقي المدن الأوروبية مع سلطنة المماليك:

شكلت المتاجرة مع بلاد الشام ومصر حرفة قديمة لتجار مدينة بيزا، وأقدم ما حُرر عن نشاطها التجاري هناك؛ سفارة بيزية قدمت سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إلى الدولة الفاطمية في القاهرة لتسوية العلاقات التجارية بين الطرفين،[4] وقد سجل أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر نشاط تجاري حافل للبيازنة في حلب.[5]

---

[1] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٩/ ٣٣، ٣٨. المقريزي: السلوك، ٣/ ٥٨١، ٥٨٥. الصيرفي: نزهة النفوس، ١/ ١٧٨. ابن حجر: إنباء الغمر، ٣٥٢/١.

[2] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٣٨/٩، الصيرفي: نزهة النفوس ١٧٤/١، ١٧٨. المقريزي: السلوك ٥٨١/٣، ٥٨٥-٥٨٩.

[3] المقريزي: السلوك ١١١٤/٣، ١١١٦. ابن حجر: إنباء الغمر، ٢/ ٢٥٨. وعن أعمال القرصنة التي تمت أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي انظر: السلوك، ٣ / ٤١٠، ٤٩٩، ٥١٥، ٥٣٣، ٥٦٢، ٥٨١، ٥٨٩، ٧٢٣، ٨١٣.

[4] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٤٢ . ٤٣.

[5] Beazley, C.R: The dawn of Modern Geography. 3vols, Oxford, 1901 – 1906. vol II. p.445.

تقل الإشارات الواردة في المصادر عن العلاقات التجارية بين سلطنة المماليك وبيزا، إلا أن هذا لا يعني انعدام النشاط التجاري للبيازنة مع السلطنة، فاللوائح التنظيمية لإدارة التجارة في هذه المدينة تبين وجود أوامر صادرة بين سنتي٧٠٥ و٧٢٢هـ/ ١٣٠٥ و١٣٢٢م تحذر من توريد الأدوات الحربية إلى مصر، أي أن التجارة مع السلطنة المملوكية كانت قائمة على المواد غير الحربية، وتشير أيضاً إلى وجود قنصلية للبيازنة في الإسكندرية سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، وفي القوائم ترد غرامة مفروضة على فرن للبيازنة في الإسكندرية،[١] وفي هذا إشارة واضحة لوجود جالية ضخمة تمارس نشاطها التجاري مثل باقي الجاليات، وفي مطلع العصر المملوكي الثاني قدمت سفارة بيزية إلى السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٥م، لتتفاوض مع السلطان وتناقشه في الأضرار التي لحقت بالتجار البيازنة في بلاده، وأسباب الضرر مجهولة، إلا أن في ذلك إشارة جديدة تؤكد أن النشاط البيزاوي ظل قائماً حتى نهاية القرن الرابع عشر ميلادي.[٢]

أما بالنسبة للمدن التجارية الإسبانية، والتي كانت تتوزع آنذاك بين مملكتين هما: مملكة أراغون ومملكة قشتالة، فقد كانت برشلونة أهم المراكز التجارية الإسبانية، وقد كانت منفذ مملكة أراغون على البحر المتوسط، وكان ميناء برشلونة يستقبل على الدوام سفناً مصرية وسورية، لكن الشيء الجديد الذي بدأ يظهر في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي هو الحركة العكسية، أي حركة انطلاق تجار برشلونة يجوبون المتوسط دون مساعدة أجنبية.[٣]

لقد كانت العلاقات المصرية الأراغونية علاقات طيبة وصلت ذروتها أيام الملك ألفونسو الثالث، الذي أرسل بعثة إلى القاهرة بالاتفاق مع أخيه جاك ملك صقلية، وكانت البعثة مكلفة بعقد معاهدة تحالف دفاعي وهجومي مع السلطان قلاوون، وقد أبرمت المعاهدة في ١٣ربيع الآخر٦٨٩هـ/ ٢٣ نيسان ١٢٩٠م، واشتملت المعاهدة على بنود تنظم العلاقات السياسية والتجارية بين الطرفين،[٤] ثم أعقب توقيع هذه المعاهدة معاهدة ثانية بين خايم الثاني والأشرف خليل سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م، تم فيها تجديد التحالف بين الطرفين، وقد تكرر إرسال السفارات من أراغون إلى مصر، منها عل سبيل المثال

---

[١] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٦٨.

[2] Amari, M.: Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino ;1863. P.315-316.

المقريزي: السلوك, ٥٤٦/٣.

[٣] هايد: تاريخ التجارة، ١/ ٣٣٢.

[٤] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ١٥٦ وما بعد.

سفارة إلى الناصر محمد سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م وقد رافق السفارة تُجار وسفن محملة بالبضائع، ثم سفارات أخرى على التوالي في سنوات ٧٠٥ و٧١٤و ٧١٨هـ/ ١٣٠٥ و١٣١٤ و١٣١٨م، وكانت هذه الأخيرة تضم تجار من جنسيات مختلفة، ثم سفارة سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م اشترك فيها سفير فرنسي، وسفارة سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م.(١)

وكان من المراكز التجارية الإسبانية المهمة أيضاً قطالونيا، التي ارتبطت بعلاقات تجارية مع مصر وسورية، وكان سوقها من أشهر أسواق أوروبا على الإطلاق.(٢)

وكان لمدينة مرسيليا الفرنسية تجارة رائجة مع مصر، فمن خلال قوانين بلدية مرسيليا العائدة إلى القرن الثالث عشر الميلادي يتضح أن تجارتها مع سلطنة المماليك كانت في أوج نشاطها آنذاك، كما كان لها جالية وقناصل مقيمين في مصر.(٣)

وأخيراً لكي نتصور حجم التجارة الدولية التي كان يتم تبادلها في الأراضي المصرية نُذّكر بشهادة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي قدم إلى الإسكندرية ورأى تجاراً من خمسين دولة أو مدينة في سوقها.(٤)

(١) محمد محمود النشار: علاقة مملكتي قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك، دار عين، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٠٣، ٢٠٦-٢١٢.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ١٣٨.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٧٣.

(٤) بنيامين التطيلي: رحلته، ص١٧٩.

خامساً: قبرص وأرمينية الصغرى، التنافس التجاري مع سلطنة المماليك:

بعد تحرير عكا، والضغط الذي مارسته البابوية على الأمم التجارية لمنع مزاولة التجارة مع سلطنة المماليك، أصبحت المنطقتان اللتان بقيتا في أيدي المسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهما قبرص وإرمينية الصغرى، مركزين مهمين للتجارة الدولية، والتجار الأوربيون الذين اعتادوا على شراء بضائعهم من شواطئ مصر والشام أصبح بإمكانهم شراؤها من قبرص وإرمينية الصغرى.

آ- قبرص:

لا يمكن الحديث عن نشاط تجاري مميز لقبرص قبل تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، ذلك أن المدن التجارية الأوروبية كانت تمارس نشاطها بشكل مباشر مع المدن الصليبية على الساحل الشامي، أما بعد تحرير عكا بدأت كل من قبرص، وإلى حدٍ ما أرمينية الصغرى، ترثان الرخاء الاقتصادي الذي نعمت به الكيانات الصليبية من قبل، فبعد تحرير عكا نزح معظم الصليبيين كما هو معلوم إلى قبرص مع أموالهم وثرواتهم، وأصدرت البابوية –كما سلفت الإشارة – قرارات تحظر بها التعامل التجاري مع المسلمين، وإن لم يكن تم العمل بها بشكل دقيق، إلا أنها أثَّرَت على التجارة، فقد التزم بعض التجار بدافع الإيمان بهذه القرارات وابتعدوا عن السواحل المحرمة، في حين أن بعضهم الآخر خاف من العقوبات التي كانت تهددهم، ناهيك عن المراقبة التي قامت بها سفن قبرص والبابوية بشكل جعل قسماً كبيراً يتجنب الوقوع في الأسر، لذلك فإن معظم سفن التجار المسيحيين التي كانت تأتي من الغرب لم تغامر بالذهاب إلى أي مكان آخر باستثناء قبرص التي كانت تصلها البضائع من مصر والشام عن طريق البحر،[١] من ناحية ثانية استغل ملوك قبرص من آل لوزينان هذا الوضع، واستخدموا قوتهم البحرية لاعتقال الخارقين لقرارات الحظر البابوية،[٢] وبالتالي لم يعد هناك أمامهم إلا قبرص التي غدت على حد تعبير الرحالة الألماني لودولف: "أقصى الشرق بالنسبة للبلدان المسيحية".[٣]

أمام الوضع الجديد بدأت القوى التجارية تتسابق لتوطيد أقدامها في قبرص، وكان في مقدمتها البندقية؛ التي توصلت إلى عقد معاهدة سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م مع عموري أخ هنري الثامن ملك

---

[١] ماكارياس: مرويات، ص ٥٦-٥٧.

[٢] هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٣٠٧.

[٣] لودولف: وصف الأرض المقدسة، ٣٩/ ٢٩٦.

قبرص، والوصي على العرش آنذاك، حصل فيها البنادقة على امتيازات تجارية واسعة، أهمها: إلغاء الرسوم الجمركية على بضائع البندقية، ومنح البنادقة حق تشييد المنازل في فيماجوستا، ونيقوسيا، وليماسول، كما منحتهم في كل من هذه المدن الثلاث كنيسة ومقر للممثل البندقي ومساعديه، ومنح البنادقة حقوقاً قضائية واسعة، ناهيك عن تعهد الحكومة القبرصية بحماية ممتلكات البنادقة في حال تحطم سفنها أو غرقها أو وفاة المالك.[١]

وشكلت هذه المعاهدة نموذجاً أو أساساً تم تكراره في كل المعاهدات التي تم توقيعها بين الطرفين حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، ومن خلال هذه الامتيازات تمكنت البندقية من القيام بتجارة مزدهرة في قبرص.

وتم توقيع معاهدة ثانية بين الطرفين سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م اشتملت على البنود ذاتها مع تعديل شكلي في مضمون المعاهدة،[٢] وبعد اعتلاء بطرس الأول لعرش قبرص (١٣٥٩ . ١٣٦٩م) تم إرسال سفارة من البندقية لتهنئته ولتجديد ما للبنادقة من امتيازات هناك، وفعلاً تم توقيع معاهدة اشتملت على البنود التي تم ذكرها في معاهدة سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م مع تعديل جوهري؛ هو تعهد من قبل البنادقة بعدم نقل البضائع المهربة، وبعدم نقل أشخاص غير بنادقة أو لا يحملون تصريحاً خاصاً بالسفر من الحكومة القبرصية، ولمندوب الملك الحق في تفتيش السفن للتأكد من ذلك، مع تعهد قبرصي بدفع التعويضات عن الأضرار التي قد يلحقها القبارصة بالجالية البندقية في الجزيرة.[٣]

شكلت حملة بطرس الأول على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م ضربة قاسية للتجارة الأوربية في أراضي السلطنة المملوكية، وقد أثارت هذه الحملة غضب البنادقة،[٤] مما حدا بالبندقية إلى إصدار مرسوم بمنع توريد الأسلحة والخيول إلى قبرص،[٥] لكن التجارة عادت إلى حالتها الماضية بعد أن

---

(1) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. p. 102-106.

هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص ٢٩٨.

(2) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. p. 142 – 144.

هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص ٣٠٨.

(3) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. p. 228 – 232.

(٤) ماكارياس: مرويات، ص١٠١.

(5) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. p. 285.

وقع بطرس الثاني خليفة بطرس الأول معاهدة صلح مع مصر سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، ثم تعرضت مصالح البنادقة في قبرص لنكسة قوية على إثر النزاع الجنوي البندقي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، وقيام الجنوية – كما سيتوضح لاحقاً – باحتلال الجزيرة، حيث أصدرت البندقية تعليماتها سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م لتجارها بمغادرة الجزيرة في الحال،[1] وظل الأمر على ماهو حتى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م حيث صدرت قرارات بعودة القنصل والتجار إلى الجزيرة وأخذت أساطيل البندقية بالرسو في الموانئ القبرصية،[2] وظلت التجارة بين الطرفين تسير على ما يرام حتى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر.

أما جنوى فقد كان لها نشاط تجاري قديم في قبرص تم تنظيمه بموجب معاهدة عقدت بين الطرفين سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، اشتملت على إعفاءات من الرسوم والضرائب، واستقلالاً قضائياً، والحق في بناء مكاتب ومنازل في فيماجوستا وليماسول مع تعهد قبرصي بحماية التجار الجنوية وممتلكاتهم وبضائعهم، وفي المقابل تقدم جنوى المساعدات لقبرص عند الضرورة.[3]

شَكَّلت هذه المعاهدة الأساس التي بنيت عليه باقي المعاهدات، ففي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م تم تجديدها مع زيادة بند ينص على إعطاء الجنوية إمكانية إقامة جاليات وامتلاك أفران وبيوتاً في كل من نيقوسيا، وبافوس، وفيماجوستا.[4]

أُصيب النشاط التجاري الجنوي في قبرص بركود فيما بين ٦٩٢-٧٣٠هـ/١٢٩٢ – ١٣٢٩م، بسبب توتر العلاقات مع الحكومة القبرصية،[5] وعلى إثر اتفاقية ٧٣٠هـ/١٣٢٩م التي جددت فيها معاهدة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م تحسنت العلاقات، واستعادت التجارة عافيتها، وتعهدت الحكومة القبرصية بتعويض الجنوية عما لحقهم من أضرار خلال مدة الانقطاع، ودفع ما أخذه الملكان القبرصيان، عموري وهنري الثاني، من ديون من الجنوية،[6] وعلى أثر ذلك استؤنف النشاط الجنوي في جزيرة قبرص، وقام

(1 Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P.363 – 364.

(2) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P. 365.

(3) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P. 39.

هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص ٢٩٧.

(4) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P. 51 – 56.

(٥) هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٤٣ . ٢٤٤.

(6) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P. 150 – 158.

الطرفان بتجديد المعاهدة في سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م مع وعد من الملك القبرصي آنذاك (هيو الرابع) بإعادة النظر في المشاكل التي يعاني منها الجنويون في مملكته.[١]

في سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م وقع خلاف بين مقدم الجنوية في فيماجوستا وأمير البحر القبرصي، وتطورت المشاكل إلى أن أصدرت جنوى أمراً لتجارها بمغادرة قبرص، وفي هذا الوقت كان بطرس الأول يجول في أوربا للترويج لحملته، وحرصاً على إنجاح حملته سارع إلى جنوى لتسوية الأمر، وعقد معها معاهدة قدَّمَ فيها تنازلات عديدة، ومنحها امتيازات واسعة في قبرص.[٢]

ـ احتلال الجنوية لقبرص:

في سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م؛ وأثناء الاحتفال بتتويج الملك بطرس الثاني، وقع خلاف بين البنادقة والجنوية، تحول إلى اقتتال وقف فيه القبارصة إلى جانب البنادقة، فسلبوا محلات الجنوية ومستودعاتهم، وقتلوا أعداداً منهم، مما دفع حكومة جنوى إلى إرسال أساطيلها لاحتلال قبرص، فأعملوا السلب والنهب بشواطئ الجزيرة، حتى إنهم احتلوا العاصمة نيقوسيا، واحتلوا قسماً كبيراً من الجزيرة، وطال الأمر الملك نفسه وأمه اللذين وقعا في أسر الجنوية، وبعد حرب طالت أكثر من عام توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، تُلزم ملك قبرص بدفع مبالغ باهظة كتعويض لجنوى، وأرسل أحد أعمامه واثنان من أبناء عمومته وعدد من رجال البلاط أسرى إلى جنوى كرهينة، أما الضمان الحقيقي لوفاء الديون فكان مدينة فيماجوستا التي وضعت تحت سيطرة الجنوية حتى يتم وفاء الديون، غادر بموجبها الجنوية قبرص، وفي سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م وقَّع ملك قبرص جيمس الأول الذي كان رهينة في جنوى اتفاقية زيدت فيها الغرامة المالية، وتنازل فيها عن فيماجوستا التي أصبحت ملك لجنوى بعد أن كانت مرهونة حتى تسديد الديون، وأخفقت محاولات استرداد فيماجوستا التي بقيت في يد الجنوية حتى سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م.[٣]

---

(1) Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P .166 – 168 – 170 , 174 – 179 .

(٢) ماكارياس: مرويات، ص ٨٣-٨٥، ٨٧-٩١.

Mas Latrie: Hist. de Chypre. II. P . 248 – 250.

(٣) ماخارياس: مرويات، ص ١٨٩ – ٣٢٦، ٣٥٩، ٣٦٤-٣٦٥، ٣٧٢، ٣٧٤-٣٧٥. هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص٣١٢-٣١٥.

كان بقاء فيماجوستا بيد الجنوية قرابة قرن يعني بكل بساطة سيطرة الجنوية على معظم مقدرات الجزيرة التجارية حتى منتصف القرن الخامس عشر.

أما بالنسبة للبيزيين، فإنهم كانوا قد حصلوا بعد سقوط عكا على امتياز يكفل لهم رسماً منخفضاً قدره ٢% على الاستيراد والتصدير، يخفض بمقدار النصف للتجارة المارة بالجزيرة، ومن خلال وثائق عديدة تبين وجود البيازنة مقيمة بمناطق مختلفة من الجزيرة ويمارسون التجارة وكانت ليماسول مقرهم المفضل ولهم فيها دار عامة "تشبه القنصلية".[١]

ب – إرمينية الصغرى:

شغلت إرمينية الصغرى دوراً اقتصادياً مهماً في مشرق البحر المتوسط لم يقل شأناً عن دورها السياسي في المنطقة، وذلك عائد إلى موقعها الاستراتيجي في الزاوية الشمالية الشرقية للمتوسط، ولقد ازدادت أهميتها بعد فقدان أوربا لموانئها على الساحل الشامي في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ غدت إرمينية الصغرى الكيان المسيحي الوحيد في المنطقة، فكان من الطبيعي توجه التجار الأوربيين نحوه، وقد طرحه سانوتو وغيره كبديل للتجار الأوربيين عن الإسكندرية وغيرها من موانئ المماليك.[٢]

ليس هذا هو السبب الوحيد الذي جعل التجار الأوربيين يقصدون مراكز إرمينية الصغرى التجارية، ولكن هناك سبب مهم هو أنه في إرمينية الصغرى بدأت وانتهت عِدَةٌ من الطرق التجارية النشطة، فماركوبولوا الذي اتخذها نقطة بداية لرحلته إلى المغول تحدث قائلاً: "والعادة أن من يبتغون السفر إلى داخلية بلاد المشرق يقصدون ابتداءً إلى ثغر آياس"،[٣] ونظراً لأهمية الطريق التجاري المتجه من آياس إلى تبريز قام التاجر الايطالي بيلوتي بوصفه بدقة، مع ذكر الرسوم الجمركية المفروضة فيه، وذلك خدمة للتجار الإيطاليين،[٤] كما أدى انخفاض الرسوم الجمركية المفروضة في ميناء آياس إلى تدفق التجار الأوربيين نحوه،[٥] ناهيك عن العلاقات الجيدة التي ربطت بين المغول والأرمن بشكل جعل من الطبيعي

---

[١] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٢٣١.

[٢] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٨.

[٣] ماركوبولو: رحلته، ٤٤/١.

[4] Balducci Pagolotti, F.: La Pratica della mercatura p.7, 13, 48, 50, 79.

[5] Grousset: L,empire, du. Levant. P. 414.

أن تتجه القوافل التجارية المغولية إلى أراضي حلفائهم الأرمن للمتاجرة هناك، ولهذا كثرت المحاولات المملوكية الهادفة للسيطرة على قلاع إرمينية الشرقية، لكي تتحول الطرق التجارية المارة في إرمينية الصغرى إلى بلادهم.[١]

ولم تقتصر التجارة في إرمينية الصغرى على التجار الأوربيين والمغول، بل شمل حتى التجار المسلمين الذين ترددوا عليها، وفي هذا السياق يكفي بأن نشير إلى رواية اليوسفي الذي شارك في حملة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٨م واستضاف في بيته أحد التجار المسلمين الذين كانوا مأسورين عند الأرمن، والذي أخبره أنه من أهالي حلب ويتردد كثيراً في تجارته على سيس وآياس وغيرها من مدن إرمينية الصغرى، وقد وقع بأسر الأرمن نتيجة توتر العلاقات مع المماليك سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م. [٢]

لذلك فقد ازدهرت التجارة في مملكة إرمينية الصغرى، بشكل دفع ماركوبولو للقول بأنه توفرت فيها كل مقومات الحياة،[٣] وعندما تحدث المقريزي عن ميناء آياس قال: إنه "ميناء للتجار الأوربيين والمسلمين على السواء يُقصد من سائر الجزائر والمدن"، وذكر أن ما يجبيه الملك الأرمني من ضرائب ورسوم جمركية فقط من برج أطلس التجاري التابع لآياس كان يبلغ ثلاثين ألف دينار شهرياً. [٤]

أما عن النشاط التجاري للأمم التجارية في مملكة إرمينية الصغرى، فنبدأ بـ:

١ – البندقية:

النشاط التجاري للبندقية في إرمينية الصغرى قديم جداً، فثمة امتياز ممنوح للبنادقة في هذا الإقليم منذ سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م من قبل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنيون (AlexisComenone)،[٥] وفي الحقيقة إن الحديث عن النشاط التجاري للبنادقة في أرمينية الصغرى منذ أن كانت إمارة إلى أن أصبحت تابعة للمماليك يختصر في الحديث عن المعاهدة التي وقعها

---

[١] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٢٥.

[٢] اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٤٠٨-٤٠٩.

[٣] ماركوبرلو: رحلته، ١/ ٤٤.

[٤] المقريزي: السلوك، ٢/ ٢/ ٤٢٩-٤٣٠، ٤٣٥. الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ١١.

[5] Balducci Pagolotti, F.: L,amenie Cosmopolite, P.184

فايز اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، مقال منشور في الندوة الدولية عن الاقتصاد بين العرب والأرمن، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٥٠.

البنادقة مع ليون الأول سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠١، لأن هذه المعاهدة هي الأساس الذي سارت عليه البندقية في نشاطها التجاري في إرمينية الصغرى، فبموجب هذه المعاهدة مُنحت البندقية كنيسة ووكالة وأرض لبناء دار عامة في المصيصة، ولهم كامل الحرية في التنقل داخل إرمينية الصغرى، لا بل حتى خارجها إلى البلدان المجاورة "بشرط أن تكون إرمينية على علاقة سلمية معهم"، ولا يدفع البنادقة أي ضرائب على مرورهم، باستثناء البنادقة المقيمين في سورية إذا ما مروا في الأبواب الكيليكية، وسوى ذلك فلا يدفعون أية ضرائب جمركية أو رسوم إلا إذا حملوا ذهباً أو فضة بهدف تحويلها إلى نقود فإنهم يدفعون ضريبة جمركية عليها، ونصت المعاهدة أنه إذا توفي أحد من البنادقة في أرمينية الصغرى ولم يكن له وريث تودع ثروته عند كبير أساقفة أرمينية حتى يبت بأمرها دوج البندقية أو قنصل البنادقة في عكا.[١]

على هذا الأساس سارت العلاقات البندقية الإرمينية في كيليكية، فقد جددت هذه المعاهدة في أعوام ١٢٤٥ و ١٢٦١ و ١٢٧١ و ١٣٠٧ و ١٣٢١ و ١٣٣٣م.[٢]

٢ – جنوى:

كانت الامتيازات التي حصلت عليها جنوى في إرمينية الصغرى أوسع مما حصل عليه البنادقة، فقبل أن يحصل البنادقة على امتيازهم متقدم الذكر حصل الجنوية في السنة نفسها (٥٩٩هـ/ ١٢٠١م) على امتياز أعفى تجارها من الرسوم الجمركية والمكوس وسائر الضرائب، ومنحهم عقارات وأراضي لبناء المخازن في العاصمة سيس وفي طرسوس والمصيصة، ولهم الحق في تشييد الكنائس وممارسة طقوسهم الدينية، ناهيك عن صلاحيات قضائية واسعة، وفي سنة٦١٢هـ/ ١٢١٥م وَقَّعَتْ جنوى معاهدة جديدة زادت من العقارات التي يمتلكها الجنوية في طرسوس، و نصت على منحهم فرن وحمام وحديقة، بالمقابل فرضت عليهم بعض القيود في حرية التنقل وممارسة التجارة، وفي بعض الإعفاءات الجمركية والضرائب، وذلك لأن البلاد كانت مقسمة بين بارونات وأمراء رفض بعضهم منح مثل هذه الامتيازات للجنوية.[٣]

---

(1) Saint-Martin: Notices et Extraits. Des Manuccrits. T. xi. P. 19-20.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ١٦ وما بعد. إسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص ١٥٦.

(٢) إسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص ١٥٧.

(3) Grousset: Levant. P. 414. Balducci Pagolotti, F.: L,amenie Cosmopolite, P.185. R. H. C. Doc. Arm., T. I. P.745-746.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ١٧ – ١٨. اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص ١٥٢-١٥٣.

ومع السقوط المتتالي للكيانات الصليبية في بلاد الشام سعت جنوى إلى تعزيز تجارتها في إرمينية الصغرى، فأصبح لهم قنصل في آياس، مع استقلال قضائي وإداري، وتم تنظيم العلاقات بمعاهدة جديدة وقعت سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م مع الملك ليون الثالث الذي توفي بعد سنة، فمنحهم خليفته هيثوم الثاني سوقاً، وخفض رسوم الخروج على البضائع المعاد تصديرها من إرمينية إلى الإقليم التركي.[١]

وبالنسبة لباقي الأمم التجارية:

– البيازنة حصلوا على امتيازات أقل من الجنوية والبنادقة، فهم لم يتمتعوا بعفو كامل من الضرائب والرسوم، بل كانوا يدفعون رسماً قدره ٢٪ على السلع الداخلة والخارجة، كما كان لهم قنصل يمثلهم.[٢]

– بالنسبة للصقليين كان لهم نشاط تجاري في إرمينية الصغرى، وعلى الرغم من أن الملك ليون الخامس قد صاهرهم، إلا أنه في الامتياز الممنوح لهم سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م لم يعفهم من الرسوم كما كان للبنادقة والجنوية، بل فرض عليهم رسوم بين ١ و ٢٪ على السلع حسب أنواعها.[٣]

– تمثل النشاط الفلورنسي بالبيت التجاري (بيت باردي) ومنافسه (بيت بيرونزي)، وقد حصل الأخير على امتياز سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٣٥م أعفاه من الرسوم على الدخول الخروج.[٤]

٣– التنافس التجاري بين سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى:

قُدمت فيما سلف صورة واضحة عن حجم النشاط التجاري الذي شهدته مملكة إرمينية الصغرى، وفي سبيل الحفاظ على النشاط التجاري قام ملوكها بمنح الامتيازات التجارية، وخفض الرسوم الجمركية، وفتحوا إرمينية الصغرى على مصراعيها أمام التجارة العالمية.

---

[1] R. H. C., Doc. Arm. T. I. P. 745-762.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٢١ – ٣٢٢. اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص ١٥٤–١٥٥.

[٢] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٢٣. اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص ١٥٩.

[٣] ورد نص الامتياز كاملاً في مجموعة مؤرخي الحروب الصلبية، المؤرخون الأرمن، الجزء الأول.
R. H. C. Doc. Arm. T. I. P. 758-762.

هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٢٢. إسكندر: تجارة إرمينية الصغرى، ص ١٦٠ – ١٦٢.

[٤] هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٢٢.

ولما كانت إرمينية الصغرى بنشأتها وطبيعتها صليبية معادية للمسلمين ومنافسة لهم،[١] فإن ذلك لم يقتصر على المجال السياسي والعسكري، بل تعداه إلى حرب اقتصادية قام بها كل طرف ضد الآخر.

ففي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م أصدر الملك الأرمني هيثوم الأول أوامره إلى تجار إرمينية بمنع الاتجار مع المماليك، وعدم تزويد سفنهم بما يلزم من حاجيات وبضائع، وبعدم تصدير المواد اللازمة لتصنيع السفن، حتى إن الحظر شمل المواد الغذائية من قمح وزيت.[٢]

بل تطور الحال بأن قام هذا الملك بقطع الطرق التجارية المارة من أراضيه إلى أراضي السلطنة المملوكية، وأقدم سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م على اعتقال بعض التجار القاصدين أراضي السلطنة المملوكية، وأرسل إلى أبغا خان المغول بأمرهم، فطلب منه هذا الأخير الحوطة عليهم وإرسالهم إليه، فأرسل له السلطان الظاهر بيبرس عن طريق نائبه في حلب يتهدده بأنه إذا تعرض لهؤلاء التجار بشيء يساوي درهماً واحداً سيأخذ عوضه مراراً، فأطلق سراحهم.[٣]

وتكررت هذه المضايقات أكثر من مرة، ففي سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م "كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد"، كما عمد الأرمن هناك إلى لبس زي المغول، وإخافة القوافل التجارية القادمة إلى أراضي السلطنة المملوكية، والإدعاء أنهم عساكر المغول، مما استدعى إرسال حملة لتأديبهم. [٤]

قامت سلطنة المماليك فيما بعد بغارات وحملات كثيرة على مملكة إرمينية الصغرى لأسباب اقتصادية، استهدفت فك الحصار الاقتصادي الذي فرضته إرمينية الصغرى على المماليك، وتدمير مالية إرمينية من خلال تدمير المنشآت الاقتصادية، وفرض غرامات مالية كبيرة، وأبلغ مثال على ذلك حملة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، فقبيل هذه الحملة أرسل الظاهر بيبرس إلى هيثوم الأول يطلب منه فتح الطرق التجارية بين البلدين، والسماح بتبادل البضائع،[٥] ولما رفض هيثوم هذه المطالب سير له الظاهر بيبرس

---

[١] نذّكر هنا بقول ابن كثير: «كانوا أضر شيء على المسلمين زمن التتار" البداية والنهاية، ١٣/ ٢٤٧.

[2] Mas Latrie: Hist. de Lile de Chypre, I p.412.

[٣] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٨١/٧

[٤] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤١٧، ٤٣٢.

[٥] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤، تاريخ الزمان، ص ٣٢٤-٣٢٥.

حملة دمرت القلاع الإرمينية الشرقية القائمة على الطرق التجارية، كما دمرت الموانئ على المتوسط،[1] ولما أخفقت هذه الحملة بتحقيق أهدافها الاقتصادية بفتح المعابر التجارية، أرسل السلطان بعد سنتين حملة تمكنت من تحرير أنطاكية والسيطرة على ميناء السويدية، كما حررت بغراس الواقعة على أحد الطرق المؤدية إلى إرمينية الصغرى. [2]

وعلى الرغم من ذلك استمر إرسال الحملات المملوكية على إرمينية الصغرى، والهدف منها على قول مارينو سانوتو هو تحويل طرق التجارة التي كانت تمر عبر إرمينية الصغرى،[3] ولما أخفق المماليك في ذلك مؤقتاً قبلوا بجزية سنوية، ففي سنة٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م توصلوا إلى عقد معاهدة فرض فيها المماليك على الأرمن ضريبة سنوية مقدارها مليون درهم، كما نصت المعاهدة على إطلاق سراح جميع التجار على اختلاف جنسياتهم مع أموالهم وبغالهم وبضائعهم ومماليكهم، كما نصت على حرية المرور والعبور للتجار في أراضي إرمينية الصغرى، وتقديم خمسين رأس من الخيل الجياد والبغال سنوياً، بالإضافة إلى عشرة ألاف تطبيقة من التطابيق الحديد بمساميرها، وهذه التطابيق ضرورية للخيول التي يعتمد عليها الجيش المملوكي، ويتراوح سر الواحدة بين ٦٠و ٧٠ درهم.[4]

ويتضح الهدف الاقتصادي للحملات المملوكية في تعليق ابن عبد الظاهر على هذه المعاهدة عندما قال: "وانتفعت خزائن الأموال بهذه الجملة العظيمة التي تحمل في كل سنة، ولو فتحت وعمرت سيس لما فضل عن كلفها هذا القدر"[5].

وفي سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م تم توقيع معاهدة أخرى زيدت فيها هذه الضريبة إلى مليون ومئتي ألف درهم مع التنازل عن نصف إيرادات جمرك آياس.[6]

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٦٩-٢٧١. أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٢٩٠-٢٩٢. سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٤٤.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٠٨-٣٠٩، ٣٢٥-٣٢٦.. أبو الفداء: المختصر، ٣٣٣/٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٠/ ٣٠٧.

[3] الأسرار، ٣٨/ ٢٥.

[4] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٩٣ . ١٠٣.

[5] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٩٣.

[6] النويري: نهاية الأرب، ٣٢/ ٦٠. الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ٨، ١١، المقريزي: السلوك، ٢/ ٢٤٦.

ولسد مطالب السلاطين المماليك لجأ الأرمن إلى رفع الضرائب على التجارة القائمة بأراضيها مما انعكست سلباً على النشاط التجاري هناك.[(١)]

من ناحية ثانية يُلاحظ أن المماليك في معظم حملاتهم استهدفوا آياس، الميناء التجاري المهم والمنافس للإسكندرية، فنهبت آياس في سنة ٦٦٤هـ /١٢٦٦م[(٢)] وسنة ٦٧٣هـ /١٢٧٥م[(٣)] من قبل المماليك، ودمرت سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م، ولم يُسمح لهم بعمارتها حتى أرسل الأرمن وفداً في السنة التالية يطلب السماح لهم بعمارة آياس مقابل ١٠٠ ألف درهم سنوياً، فسُمح لهم بعمارتها.[(٤)]

وفي حملة سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م التي جعل بها المماليك أرمينية الصغرى "أوحش من بطن حمار"،[(٥)] دمرت آياس كلياً مع برجها التجاري الشهير المعروف ببرج أطلس، وسُلمت للمماليك بشكل نهائي مع سبعة قلاع،[(٦)] وباستيلاء المماليك عليها انتهى عصر التجارة الأرمنية، وأصيبت المستوطنات التجارية الأرمينية الأخرى بالصميم، وواصلت حياتها بمشقة حتى تم دمار المملكة كلياً، واندثرت دون أن تترك أثراً لها.

وبالمناسبة فقد تكررت المحاولات القبرصية للسيطرة على آياس نظراً لأهميتها التجارية، فقد توجه بطرس الأول إليها بحملة سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، لكنه أخفق في السيطرة عليها،[(٧)] ولما خلفه ابنه بطرس الثاني كرر المحاولة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، وعاد بالنتيجة ذاتها.[(٨)]

---

(١) هايد: تاريخ التجارة، ٢/ ٣٢٦.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٦٩-٢٧١. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١/٢/٣٤٤-٣٤٧. أبو الفداء: المختصر، ٢/٣٣٣. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ١١٨.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٤-٤٣٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣/ ٨٨. المقريزي: السلوك، ١/ ٦١٧-٦١٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ٢ / ٢٣٧، ٢٤٦. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢/ ١٢٤-١٢٥. أبو الفداء: المختصر، ٤٣٩/٢. النويري: نهاية الأرب، ٣٣/ ٣٩، ٦٠.

(٥) المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٠٩.

(٦) المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠، الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص ١١٤. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ٣/ ٩٤٠-٩٤١. ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/ ٤٤٥.

(٧) ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص٤٢٦. ماكارياس: مرويات، ص ١٢٣. النويري: الإلمام، ص١٩٢. المقريزي: السلوك، ٣/ ١٥٠.

(٨) ماكارياس: مرويات، ص ١٧٠-١٧١.

سادساً: تجارة الكارم:

صحيح أن تجارة الكارم والحديث عنها يشكل خروجاً – من بعض الجوانب –عن نطاق البحث، ولكن لا بد من التطرق إليها بشيء يسير لكي تتكامل جوانب البحث.

بداية، وقبل كل شيء يجب التعرض لمصطلح "الكارم" الذي أثار جدلاً بين المؤرخين، فالمصطلح –كما هو معلوم – استخدم للدلالة على طائفة من التجار، عملت بشكل رئيسي بتجارة التوابل والبهار الواردة إلى مصر من الهند عبر ثغور اليمن والبحر الأحمر، وشكلوا أكبر قوة مالية في سلطنة المماليك بعد قوة الحكومة.

يقول بعضهم أن هذا الاسم مشتق من الكانم، وهو اسم منطقة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، كان معظم التجار الذين اشتغلوا بتجارة البهار يعودون بأصلهم إلى هذه المنطقة فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أُطلق الاسم على جميع من مارس تلك التجارة في مصر.[١]

تأتي أهمية هذا القول على ضوء ما جاء عند الملاح أحمد بن ماجد أن طريق التجار القديم لاستجلاب الفلفل هو بلاد الكانم (أي السودان الغربي).[٢]

أما المستشرق (ليتمان) فيرى أن تسميتهم عائدة إلى سلعة تاجروا بها اسمها (Kuararima)، وهي لفظة أمهرية تفيد معنى نوع من التوابل التي حملوها معهم من أثيوبيا، ثم صحفت الكلمة وأصبحت كارم.[٣]

يقدم مؤرخ مصري رؤية جديدة جديرة بالذكر، فيقول: أن الكارمية نشأت أولاً في المحيط الهندي، وإذا قسم الاسم إلى لفظين وجدناه يتكون من (كار) و (يم) أي (كاريم)، و (كار) تعني الحرفة أو العمل أو التجارة.. إلخ. و(يم) تعني المحيط، أو البحر، أو النهر الكبير، وبالتالي فهي تعني حرفة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ج٥، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١. دوزي: تكملة المعاجم العربية، ٧٢/٩. مصطفى زيادة: كتاب السلوك، ١/ ٨٩٩، الحاشية رقم ٢.

(٢) صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصرفي العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، ١٩٥٤، عدد٢، ص ٧.

(٣) لبيب: التجارة الكارمية، ص ٦.

العمل في البحر أو حرفة التجارة في البحر، ومع كثرة التداول سقطت الياء وحولت إلى كسرة فأصبحت (كارم)، وخاصة أن لفظي (كار) و (يم) حتى اليوم يُستخدمان بالمعنى الذي ذُكر آنفاً.[1]

ويقدم جواتيباين تفسير قريب منه، فذكر أنه في لغة (التامل) المنتشرة في جنوب الهند توجد كلمة (كاريام) وتعني الأعمال أو الأشغال، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقي هي في الأصل أعمال تجارية، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أُطلق على مُلاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد.[2]

وردت لفظة كارم لأول مرة في وثائق الجنيزة العائدة إلى أيام الدولة الفاطمية،[3] وفي العصر المملوكي وصلت التجارة الكارمية إلى ذروة نشاطها وازدهارها، نتيجة تعطل طرق التجارة المارة عبر أواسط وشمال آسيا على إثر الحروب التي شنها المغول هناك، وازدهار الطريق التجاري عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر، وقد انفرد هذا الطريق الأخير بالحجم الأكبر من التجارة الدولية حتى أوائل القرن السادس عشر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

ظهر الاهتمام المملوكي واضحاً بالتجارة الكارمية وتجارها، والسبب في ذلك هو ما قدمته التجارة الكارمية من دعم لاقتصاد سلطنة المماليك، فالتجارة الكارمية كانت تحمل حاجيات يومية لا يمكن الاستغناء عنها من توابل وعقاقير وعطور،... الخ.

كان طريقها الرئيس يمر بمصر، فكانت الخزائن السلطانية تنتفع بما تجبيه من ضرائب من تلك التجارة، ويمكن أن نقدر الفائدة التي تعود على سلطنة المماليك من هذه التجارة إذا علمنا بأن البضائع عندما كانت تخرج من الإسكندرية يكون قد بلغ ثمنها ما يقرب من أربعة أمثال ثمنها الأصلي،[4] أما سانوتو فيجعل ثلث دخل الخزينة السلطانية من تجارة التوابل العابرة المحيط الهندي والبحر الأحمر.[5]

---

[1] الشاطر بصيلي عبد الجليل: الكارمية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث عشر، ١٩٧٦م، ص ٢٢٠.

[2] جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تر: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م، ص ٢٨٩–٢٩٠.

[3] جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٨١–٢٨٣، ٢٨٧.

[4] ليلى عبد الجواد: مصر على مفرق الطرق، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٧، ١٨.

[5] سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٦.

ولأهمية تجارة الكارم تحول المماليك من وسطاء إلى تجار احتكروا هذه التجارة في أواخر القرن الخامس عشر.[١]

ولا يفوتنا الحديث عن أن هذه التجارة كانت مصدر رزق لعدد كبير من المصريين الذين كانوا يشتغلون كوسيط في المبادلات التجارية أو نقل البضائع واستخدام دوابهم، أو تقديم خدمات لتجار الكارم، كالفنادق والأطعمة والمشروبات، فساعد ذلك على نشاط الحركة والحياة في مدن القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد.[٢]

وقد بلغ ثراء تجار الكارم أنهم في بعض الحالات قدموا مساعدات مالية للسلطنة نفسها، فعلى سبيل المثال: في سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م عندما ازداد خطر غازان واقترب من بلاد الشام طلب السلطان محمد بن قلاوون المساعدات المالية من الكارمية لتغطية النفقات،[٣] وفي حالة مماثلة أيام السلطان الملك الصالح بن الناصر محمد عندما هاجم قراجا بن دلغادر حلب سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، واحتاج السلطان إلى أموال لتجهيز الجيش، استدان من تجار الكارم.[٤]

وأخيراً لتقديم صورة واضحة عن أهمية تجار الكارم ودورهم النشيط، لا بد من الإشارة إلى ما جاء في أحد المراسيم لأحد ولاة الصعيد، إذ جاء: "…. وأكرم قدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك أنك أول ما قدمناه لهم من المكارم، فهم سمار كل نادي، ورفاق كل ملاح وحادي، ولا بد أن يتحدث السمار، وتتداول بينهم الأسمار، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم، ومننا حلية أعناقهم، ومنحنا سبباً لاستجلاب رفاقهم، فهم من مواد الإرفاق وجواد ما يحمل من طرق الآفاق".[٥]

---

[١] أحمد حطيط: الكارمية وتجارة الكارم، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد ٥٤، عام ١٩٨٨م، ص ١٧٨. لبيب: التجارة الكارمية، ص ٤٤ – ٤٧.

[٢] الأشقر: تجارة التوابل، ص ٦٣ – ٦٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ١/ ٨٩٩.

[٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ٢٧١.

[٥] القلقشندي: صبح الأعشى، ١١/ ٤٣٠.

ومما سلف يتضح أن منطقة مشرق البحر المتوسط شكلت في العصر المملوكي المنطقة الاقتصادية الأهم على مستوى العالم، بدليل أن معظم الأمم أرسلت تجارها إلى هناك للقيام بنشاطهم التجاري، وتمثلت القوى التجارية في المنطقة بالمماليك والقبارصة بالدرجة الأولى، ومن بعدهم الأرمن والصليبيين، وكان التنافس بين هؤلاء على أشده في سبيل نيل المرابح واحتكار التجارة، فمعظم الصراعات والحروب بات سببها اقتصادي أكثر من غيره، وكنا قد رأينا كثافة الغارات على الشواطئ المملوكية في القرن الرابع عشر الميلادي، لتعطيل اقتصاد سلطنة المماليك الذي ارتكز بشكل رئيس على النشاط التجاري الدولي القائم على أراضيها، إذ أن موقعها الجغرافي جعلها تعترض الطرق التجارية الرئيسية في العالم، فسيطرت عليها، وجنت منها أرباحاً هائلة كانت أساساً لقوتها العسكرية، ولما أخفقت أوروبا في القضاء على السلطنة والتصدي لها عسكرياً، جندت قواها لقطع سبل التجارة عليها كمقدمة للانهيار الاقتصادي الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى انهيار عسكري، ولا بد من التذكير ضمن هذا السياق بخطط أوروبا آنذاك لفرض الحصار الاقتصادي، ومنها ما وضعه مارينو سانوتو البندقي في كتابه "الأسرار"، إذ تضمن الكتاب بعض الإجراءات المتوجب القيام بها لاستعادة الأرض المقدسة، فخصص مطلع الكتاب والقسم الأول منه لبحث طرق إضعاف السلطنة وتدميرها اقتصادياً عن طريق قطع العلاقات التجارية معها، وما يترتب على ذلك من أضرار جسيمة سوف تنزل بالمماليك إذا ما توقف التعامل البحري معهم.

فيوضح أن "القسط الأكبر من العظمة والهيبة، والمداخيل التي ينعم بها السلطان والشعوب الخاضعة له"[1] كانت تأتي من مرور الطرق التجارية عبر أراضيه، وبالتالي على الغرب الأوروبي "منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان"[2] حتى يتم القضاء على هذه الهيبة والعظمة، ويقدم سانوتو البديل عن الطرق المارة بسلطنة المماليك، الطرق المارة بأراضي التتار وكيليكيا.[3]

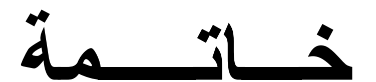
أدرك المماليك هذا الأمر، وعلموا جيداً أن التجارة أساس قوتهم الاقتصادية والرخاء الذي كانوا ينعمون به، لذلك نالت التجارة والتجار أهمية خاصة في سياستهم، وصدر عن سلاطينها قرارات ومراسيم عدة تؤكد رعاية الدولة وحمايتها للتجار وللتجارة القائمة على أراضيها، وتوصي عمالها بحسن معاملتهم.

---

[1] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٥.

[2] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٧.

[3] مارينو سانوتو: الأسرار، ٣٨/ ٦٨.


خاتمة

إن دراسة التاريخ بشكل أكاديمي تعني ببساطة استخلاص العبر والنتائج، والنأي بجانبها عن الأسلوب القصصي، فالتاريخ ذاكرة الأمم، ومستودع تجاربها، وكل من حوى التاريخ في صدره فقد "أضاف أعماراً إلى عمره"، وعندما يتم تناول عصر من أحفل عصور التاريخ، وأكثرها زخماً بالأحداث كعصر الحروب الصليبية، وعصر المماليك، فإن المرء يقف أمام عصر أشبه ما يكون بالعصر الحالي، فالساحل الشامي في معظمه محتل حالياً، والقوى في المنطقة متعددة؛ ومفككة، والتدخلات الخارجية كثيرة، وبالتالي لا بدَّ من الاستفادة من ذلك العصر إذا ما أرادت هذه الأمة الخلاص مما تعيشه اليوم، نظراً لوحدة العلة بين العصريين، فالأهداف والأحداث هي ذاتها وإن جاءت بلبوس جديد يُخفي تحته الجسد والفكر القديمين بكل تفاصيلهما.

ففي الحقبة التي تناولتها هذه الأطروحة كان المماليك هم القوة الفاعلة في مشرق البحر المتوسط، وصحيح أن القاهرة كانت حاضرتهم، ومركز قوتهم، إلا أن بلاد الشام كانت تشكل نقطة التجمع، والانطلاق، والمواجهة، لمعظم الأعمال العسكرية التي قاموا بها سواء ضد الصليبيين، أم المغول، أم الأرمن، واعتماداً على هذين المِصْرَينِ تمكن المماليك من إزالة الوجود الصليبي في الساحل الشامي، والتصدي للمغول، ثم السيطرة على الحوض الشرقي للمتوسط بعد إزالة الوجود الأرمني من كيليكيا في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقبل ذلك كانت القوى المفككة زمن بني أيوب عاجزة عن حماية نفسها، فضلاً عن تحرير المناطق المحتلة.

لهذا كله لا يمكن لأي قوة في مصر أن تستغني عن بلاد الشام في أي عمل عسكري، والأمر ذاته بالنسبة للطرف الآخر؛ فلا يمكن لبلاد الشام أن تستغني عن الظهير الشعبي، والعسكري، والاستراتيجي الذي توفره مصر، وفي الواقع هذه الحالة لم تكن طارئة على العصر المملوكي، وإنما منذ أقدم عصور التاريخ أدركت القوى في المنطقة أهمية ذلك، وسعت للسيطرة على مشرق البحر المتوسط لتحقيق تلك الفائدة، كما أن السيطرة على بلاد الشام ومصر تعني السيطرة

على المدخل الرئيسي لقارة آسيا كلها، وامتلاك أهم الأسواق التجارية العالمية، ففي هذه المنطقة تبدأ وتنتهي أهم الطرق التجارية العالمية.

وأدرك المماليك مثل غيرهم أهمية هذه النقطة وسعوا إلى السيطرة عليها، وفي سبيل ذلك جَرَّدوا حملات عسكرية ضخمة ضد الصليبيين في الساحل الشامي، وضد إرمينية الصغرى، وسعوا جاهدين لإبعاد نفوذ المغول عن المنطقة.

ففي حقبة من حقب التاريخ المريرة تعرض مشرق البحر المتوسط لهجوم شرس تعددت أطرافه، وتنوعت أشكاله، كان أوله الهجوم الأوربي من ناحية الغرب أو فيما عرف باسم الحروب الصليبية، وبعد قرن ونصف تقريباً تعرض لهجوم أعنف من ناحية الشرق على أيدي قبائل المغول المتوحشة القادمة من صحراء منغوليا في بلاد ما وراء النهر، ثم كررت هذه القبائل الهجوم مرة أخرى في مطلع القرن التاسع الهجري تحت قيادة تيمورلنك.

وأدى الهجوم الأول (الاحتلال الصليبي) إلى صحوة المسلمين التي تتوجت بوحدة بلاد الشام ومصر أيام نور الدين محمود، ومن ثم تدمير المؤسسة الصليبية في معركة حطين أيام صلاح الدين، إلا أن وفاة صلاح الدين المبكرة، وتمزيق مملكته بين أخيه العادل وأبنائه، أعاد المنطقة إلى ما كانت عليه من الضعف الذي أطمع بها الصليبيون سالفاً.

بينما أحدث الهجوم الثاني الذي قام به المغول في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تحولات مهمة في توزيع القوى في مشرق البحر المتوسط، واتضحت ملامح نظام عالمي جديد، غدت فيه السلطنة المملوكية هي القوة الأساسية، في وقت بدأت القوى الأخرى تتفكك؛ ففي آسيا الصغرى بدأت الإمارات التركمانية ترث دولة السلاجقة، وفي الشرق تقسمت إمبراطورية المغول إلى عدة دول كان أهمها ايلخانية فارس التي شكلت العدو الرئيسي للمماليك، وفي الساحل بدأ الوجود الصليبي بالانهيار بفعل الضربات المملوكية في ظل غياب الإمداد الأوربي.

وإذا ما تمت الموازنة بين الهجوم المغولي الأول بقيادة هولاكو، والهجوم الثاني بقيادة تيمورلنك يتبين أن القوة المدربة والمجهزة جيداً، الموصوفة بالشجاعة والإيمان والصبر والإصرار، والمدعومة بظهير شعبي في ظل قيادة حكيمة وصادقة (وكلها صفات تحلى بها الجيش المملوكي)، لا يمكن لأي قوة خارجية -مهما بلغت - أن تنتصر عليها في أرضها.

فالمغول من اتحادهم في منغوليا حتى وصولهم إلى فلسطين لم يتعرضوا لهزيمة تثنيهم عن مشروعهم، وكل من حاول الصمود أمامهم كان مصيره الهلاك مع شعبه، والسبب في ذلك عدم وجود قوة محترفة موحدة تتمتع بمقومات الصمود أمام المغول.

وقد أدرك قطز ذلك جيداً، فأقدم على عزل علي بن أيبك، وتَسَلَّمَ زمام السلطنة، وسار قُدماً في توحيد القوى المتناثرة تحت لوائه، ونجح في ذلك، كما حصل على الظهير الشعبي الذي تمثل بمباركة رجال الدين، وعلى رأسهم العز بن عبد السلام.

على النقيض تماماً ما حدث بعد قرن ونصف عندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام؛ ففي ظل غياب سلاطين أقوياء مثل قطز، وبيبرس، وقلاوون، ساد الاختلاف والتنازع بين الأمراء، وعجز السلطان فرج بن برقوق - نظراً لصغر سنه وانعدام الخبرة والحنكة - في اتخاذ قرار حازم للتصدي لتيمورلنك، أما الأمراء حوله فكان "قصد كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر، وإبعاد غيره عنها ودع الدنيا تنقلب ظهراً لبطن"،[1] وفي ظل غياب القاعدة الشعبية كان من الطبيعي أن تنزل بهم الهزيمة، فاحتل تيمورلنك دمشق، ولولا الخطر العثماني لتابع مسيره إلى مصر.

واختلفت النتائج كلياً في الحالتين، ففي الحالة الأولى اكتسب المماليك شرعية الواقع، وتم الاعتراف بحكمهم على الرغم من أصلهم غير الحر، كما نتج عنه امتداد الحكم المملوكي إلى كامل بلاد الشام بفعل المطاردة لفلول المغول، وأصبح المماليك هم القوة الرئيسية في المنطقة، وكانوا في

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢١٧ -٢١٨.

حالة حرب مع بقية القوى، لذلك فإن تتبع تحركاتهم يعني رصداً لكل التحركات في المنطقة، وهذا ما تم في ثنايا الأطروحة التي انتهت إلى أنهم كانوا على حسٍّ سياسي وعسكري كبير، وهذا أمر طبيعي فقد تم شرائهم أطفالاً صغاراً، وتم إنشاؤهم تنشأة عسكرية منذ نعومة أظفارهم في مدارس عسكرية متخصصة معزولين بشكل شبه كامل عن المجتمع المحيط بهم، وقد انعكس ذلك بشكل واضح على أدائهم في ميدان المعركة.

وكان الواقع السياسي والعسكري في مشرق البحر المتوسط شائكاً ومتعدد الأطراف، وهو على الشكل الآتي: الصليبيون يسيطرون على الساحل الشامي من أنطاكية حتى يافا، وهم على اتصال مباشر مع أوربا عن طريق البحر المتوسط الواقع تحت سيطرة أساطيل الجمهوريات الإيطالية، غير أنه في الحقبة التي تلت ظهور المماليك ضعفت قوة الصليبيين في الساحل الشامي نتيجة توقف الإمدادات الأوربية، أما في العراق وإيران وبلاد سلاجقة الروم فقد تأسست إيلخانية فارس التي استقلت عن الإمبراطورية المغولية، وقد امتلكت هذه الدولة إمكانيات قوية، وكانت تسعى باستمرار للسيطرة على بلاد الشام، أما في كيليكيا فقد كانت هناك مملكة إرمينية الصغرى الخاضعة لهذه الإيلخانية، وكانت تدفع لها الجزية، وجيشها شارك الجيش المغولي على الدوام في عملياته في بلاد الشام.

وكانت كل هذه القوى تحاول التغلب على سلطنة المماليك التي سيطرت على مصر والمناطق الداخلية من بلاد الشام، وفي سبيل ذلك كثرت السفارات بين الصليبيين والمغول للقيام بعمل عسكري مشترك ضد المماليك بعد أن أخفقت كل المحاولات الفردية، وقد حاول المماليك جاهدين منع الطرفين من الاتفاق، وذلك من خلال عقد المعاهدات مع الصليبيين عندما كانوا يشعرون بخطر المغول، ناهيك عن الاتفاقيات التي عقدوها مع مغول القفجاق المسلمين، لشن الحروب ضد مغول فارس وإشغالهم عن المماليك ريثما يُنهون الاحتلال الصليبي، كما أن واقع الصليبين الضعيف أعطى المماليك حرية التحرك ضد المغول والأرمن.

وعند مواجهة المغول التزم المماليك بسياسة الدفاع إلى أبعد الحدود، فهم لم يمتلكوا قوة لمهاجمة المغول في العراق وإيران، لكنهم كانوا قادرين على التصدي للمحاولات المغولية المتكررة للسيطرة على بلاد الشام، كما أن استراتيجية المماليك أعطت تحرير بلاد الشام وكيليكيا الأولوية على تحرير العراق، فأي عمل عسكري ضد المغول في الشرق ستكون له نهاية سلبية ما دام الصليبيون والأرمن قائمون خلف المماليك، وهذا ما جعل المماليك يلتزمون بمبدأ الدفاع ضد المغول، وقد نجحوا في ذلك، فتصدوا لجميع المحاولات المتكررة من أيام هولاكو حتى غازان – وإن حقق الأخير نجاحاً جزئياً – لاحتلال بلاد الشام والوصول إلى مصر.

وفي حملة هولاكو وُضِعَتْ تحت تصرفه إمكانيات عظيمة، ونالت هذه الحملة عناية خاصة من الخان الأعظم، وقاد هولاكو الحملة باسم الإمبراطورية المغولية، ولما أخفق المغول في عين جالوت انحسر ملكهم إلى شرق الفرات، وتفككت بعدها الإمبراطورية، ونشأت إيلخانية فارس التي تولت محاربة المماليك، غير أن ما لديها من إمكانيات كان أقل بكثير من إمكانيات الإمبراطورية المغولية ككل، كما أن دخولها في حروب ومعارك مع بقية أجزاء الإمبراطورية المغولية في الشمال والشرق، جعلها أقل خطورة على المماليك.

أخذ المماليك في المقابل زمام المبادرة في الحرب مع الصليبيين والأرمن، وشنوا العديد من الحملات لتحرير الساحل الشامي مستغلين ضعف الصليبيين وتنافسهم، في ظل غياب المساعدة الأوربية، ولتحرير بلاد الشام اتبع المماليك خطط عسكرية محكمة، لا تقل أهميتها في تحقيق النصر عن المقدرة العسكرية في ميدان المعركة، اقتضت هذه الخطة تفتيت الامتداد الصليبي على الساحل الشامي، وتقسيمه إلى كيانات تفصل بينها الأراضي الإسلامية المحررة بشكل يحول دون اتصال هذه الكيانات مع بعضها، فبدأوا بتحرير جنوب فلسطين لتأمين المواصلات بين مصر والشام، وتمت الإشارة من قبل إلى أن قطز سار قبيل معركة عين جالوت إلى عكا، واستأذن حكامها في استخدام أراضيهم، وحذرهم من الغدر به، وعندما فرغ المماليك من أمر المغول واتجهوا نحو

الصليبيين تطلب الأمر تحرير جنوب فلسطين بعد القضاء على الأيوبي المغيث عمر في الكرك، فكانت الحملتان الأولى والثانية كفيلتين بتحرير قيسارية، وأرسوف، وصفد، ثم جُعِلَتْ صفد نيابة، وكلفت بتولي أمر الصليبيين في الساحل، لتتفرغ دمشق للجبهة الشرقية (المغول)، وحلب للجبهة الشمالية (إرمينية الصغرى، وأنطاكية).

في الحملة الثالثة انتقل ميدان النشاط العسكري إلى شمال بلاد الشام حيث تم تحرير أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، وبتحريرها عُزلت إرمينية الصغرى عن الصليبيين في بلاد الشام، وتم الاستيلاء على ميناء السويدية النشيط بعدما أخفقوا قبل عام في الاستيلاء على ميناء آياس الأرمني.

قلصت هاتان الحملتان الوجود الصليبي من الشمال والجنوب، وأصبحت مهمة العمل العسكري المقبل توجيه ضربة للصليبيين في الوسط تقسمهم إلى قسمين شمالي وجنوبي، فوقع الاختيار على طرابلس التي سَيَّرَ إليها بيبرس حملة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م تمكنت من تحرير القلاع الشرقية التي كانت تشكل حاجزاً لحماية طرابلس، غير أن قدر الله حال بينه وبين ما أراده؛ فوافته المنية قبل تحريرها، فقام بالمهمة خليفته المنصور قلاوون فحرر طرابلس، وبعد تحريرها لم يبقَ للصليبيين في الساحل غير عكا التي تولى الأشرف خليل في السنة الأولى من حكمه تحريرها مع بقية المعاقل التي تهاوت بمجرد تحرير عكا.

ومن العوامل التي ساعدت المماليك على تحقيق النصر ضد الصليبيين مبدأ المفاجأة في مهاجمة العدو، كي لا يسمحوا له باتخاذ الاستعدادات اللازمة، فضلاً عن عامل آخر وهو الغارة، فقد امتازت العمليات المملوكية في الساحل الشامي بكثرة الغارات التي هدفوا من ورائها إلى عدة أمور، أولها: جمع معلومات عن المنطقة التي شكلت هدفاً للحملة الكبرى، فالمماليك لم يعرفوا المنطقة من قبل، ولم يمتلكوا أدنى معلومات عنها، ومن خلال الغارات كانوا يتزودون بالمعلومات المهمة، وثانيها: تضليل العدو عن الوجهة الحقيقية للمعركة والمنطقة المراد تحريرها كما حدث في

صفد وأنطاكية، وثالثها: إضعاف المناطق الحصينة كعكا وطرابلس من خلال تشعيث الأراضي الزراعية المحيطة بها، وقطع الإمدادات عنها، والفتك بحامياتها.

واختلفت الإستراتيجية مرة أخرى مع الأرمن عما مارسه المماليك تجاه المغول والصليبيين؛ لأن عوامل الوجود والاستمرار الأرمني تختلف عن غيرها، فالأرمن كالصليبيين، شعب غريب عن المنطقة، هاجروا إليها مع أسرهم، ودوابهم، وممتلكاتهم، واستوطنوها، ثم حاولوا فرض أنفسهم في الأرض الجديدة، وساعدتهم الظروف الدولية على إنشاء إمارة تم تطويرها إلى مملكة، ولولا الظروف الدولية والمصالح في المنطقة لما تمكن الأرمن من الصمود طويلاً أمام المماليك، فعلى أرض الواقع لم يمتلك الأرمن قوة عسكرية تستطيع الاحتفاظ بمملكتهم، وفي تاريخ الصراع الطويل مع المماليك لم يثبت الجيش الأرمني أمام الجيش المملوكي، ولم يحقق النصر، ولو لمرة واحدة؛ حتى على أرضه، لأنه أشبه ما يكون بجيش سلطوي مهمته حماية السلطة من الانقلابات والتمردات، وإنما اعتمدت إرمينية الصغرى في بقائها بشكل رئيسي على:

أولاً: الحماية المغولية، فبمجرد قدوم المغول إلى المنطقة سارع الأرمن إلى إعلان التبعية لهم والانضواء تحت جناحهم، وأصبح الجيش الأرمني يرافق الجيش المغولي في معظم عملياته كقوة رديفة، وكان الأرمن باستمرار يدفعون الجزية لسادتهم المغول، كما أنه يتوجب على الملك الأرمني لكي يصبح حاكماً شرعياً الحصول على الموافقة المغولية، ناهيك عن أن المغول كانت لديهم ميول نحو المسيحيين، ومتعاطفين معهم على حد قول المؤرخين الأرمن، وبالتالي فانتشار الجيش المغولي على الحدود الشرقية لمملكة إرمينية الصغرى أمَّنَ لها الحماية الكاملة.

ثانياً: الموقع الاستراتيجي المهم، فقد حرصت أوربا والمغول على بقاء المنطقة بأيدي حلفائهم الأرمن، وفي سبيل ذلك تدخل المغول والقبارصة أكثر من مرة للدفاع عن المملكة ضد الخطر الأرمني.

ثالثاً: الثراء الاقتصادي الذي جناه الأرمن من التجارة النشطة التي شهدتها المملكة نتيجة مرور طرق تجارية مهمة ضمن أراضيها، يضاف إلى ذلك ميناء آياس الحيوي الذي بلغت ضرائبه الجمركية حوالي ٣٠ ألف دينار شهرياً،[١] هذا الثراء الاقتصادي مكن الأرمن من دفع الخطر المملوكي غير مرة عن طريق دفع الجزية التي وصلت حداً جعل أحد المؤرخين المعاصرين يعقب عليها قائلاً : "ولو فتحت وعمرت سيس لما فضل عن كلفها هذا القدر".[٢]

في ظل هذه العوامل؛ وفي ظل المباركة الصليبية، والبابوية، والبيزنطية، والتفكك والضعف الذي حلّ بالمسلمين زمن بني أيوب بعد صلاح الدين، عاشت مملكة إرمينية الصغرى أزهى أيامها.

فأدرك المماليك هذا الوضع جيداً، وعملوا على إزالة عوامل البقاء والوجود الأرمني، لذلك بنيت الإستراتيجية المملوكية ضد الأرمن على أساس حرمانهم من الحماية المغولية، و تدمير البنية الاقتصادية لمملكة إرمينية، هذا ما بدا بشكل واضح سواء في الحملات المملوكية المجردة ضد إرمينية الصغرى، أو حتى في المعاهدات التي عقدوها معهم، فالحملات استهدفت تدمير الموانئ والمدن الساحلية مثل آياس، والمصيصة، وطرسوس، وأذنة، كما استهدفت القلاع الشرقية الواقعة على طرق التجارة والطرق التي وصلت الأرمن بحماتهم المغول، ولا سيما تل حمدون، وحموص، وقلعة العامودين، ومرعش، وسرفندكار، لكنها لم تحاول الاحتفاظ بهذه القلاع، فكثيراً ما نقرأ تحرير القلعة الواحدة عدة مرات، وذلك خوفاً من المغول الذين حشدوا جيوشاً قوية هناك.

وما عجز عنه المماليك في العمليات العسكرية حاولوا كسبه في المعاهدات، فقد فرضوا ضرائب باهظة على الأرمن، وقد أثّر ذلك سلباً في التجارة عندما حاولوا تعويض خسارتهم بزيادة

---

[١] المقريزي: السلوك، ٢/ ٤٣٠.

[٢] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٩٣.

الضرائب على التجار، مما دفع بعض التجار إلى التخلي عن المتاجرة في أسواق إرمينية، كما نصت المعاهدات مراراً على تسليم القلاع الشرقية التي شكلت نقاط التماس مع المغول.

وفي الحقيقة لم تسقط إرمينية الصغرى قبل التخلص من الحماية المغولية والصليبية، وتدمير بنيتها الاقتصادية، وقد تم ذلك على مراحل؛ فبعد أن فرغ المماليك من أمر الصليبيين ازدادت حملاتهم المرسلة إلى كيليكيا عدداً وعنفاً، ثم بدأت أحوال إرمينية الصغرى تتدهور في ظل غياب الحماية المغولية؛ لأن إيلخانية فارس كانت قد وقعت معاهدة صلح مع المماليك سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م انتهت بموجبها الحرب بين الطرفين، مما أعطى المماليك حرية التحرك، وسارعوا على الفور بعد توقيع الصلح مع المغول إلى إرسال حملة مدمرة إلى إرمينية الصغرى، كما أن وفاة السلطان المغولي أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م جعلت ايلخانية فارس تنهار وتتفكك بعده إلى عدة دويلات، فاستغل المماليك ذلك وسارعوا لاحتلال ميناء آياس سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وكان احتلال ميناء آياس يعني آنذاك أن إرمينية الصغرى فقدت أسباب الثراء، وبقيت على حد قول أحد المؤرخين جسداً بلا روح، كما أن القلاع الشرقية تم تسليمها بموجب معاهدتي ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، و٧٠٣هـ/١٣٠٤م، وبفعل هذه الضربات بدأت مملكة الأرمن تترنح، ولم يحتمل أمر إزالتها عندما قرر المماليك ذلك سوى إرسال حملة صغيرة مع نائب حلب سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م، حيث تمكنت هذه الحملة من اعتقال ملك الأرمن، وجعل إرمينية الصغرى نيابة تابعة للسلطنة المملوكية.

بالقضاء على إرمينية الصغرى أصبح مشرق البحر المتوسط تحت السيطرة المملوكية، ولم يتبق خارج سيطرتها سوى جزيرة قبرص؛ فلم يتمكن المماليك من ضمها إلى سلطنتهم حتى القرن الخامس عشر الميلادي، والسبب في ذلك أن قبرص غدت بعد تحرير عكا مركزاً تجمعت فيه القوى الصليبية، وازداد الاهتمام الأوربي بها؛ لأنها الموقع الصليبي الأكثر تقدماً نحو الشرق، يُضاف إلى ذلك أن الجيش المملوكي كان جيشاً برياً، ولم تكن عنده تلك المقدرة على ركوب البحر، ولذلك

تلقت الموانئ الشامية والمصرية العديد من غارات القراصنة القبارصة، وكان أشدها اجتياح الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، ثم طرابلس، وبيروت، وآياس.

في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تعرض مشرق البحر المتوسط لهجوم مغولي أكثر عنفاً من سابقه، فقد اجتاح تيمورلنك بلاد الشام وآسيا الصغرى، وقد تزامن ذلك مع حدوث تطورات مهمة في سلطنة المماليك تمثلت بوصول المماليك الجراكسة إلى سدة الحكم في مصر، وتزامن ذلك أيضاً مع سيطرة العثمانيين على معظم البلقان والأناضول بعد القضاء على الإمارات التركمانية هناك، والانتصار على جيوش أوربا في معركة نيقوبولس سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م.

بالنسبة للمتغيرات في مصر فقد كثر في أسواق الرقيق العنصر الشركسي نتيجة الأعمال العسكرية لإيلخانية فارس في القوقاز، وقد أكثر السلطان قلاوون وأسرته من شراء هذا العنصر، وعزلوهم عن بقية المماليك، وقربوهم منهم بشكل انتهى إلى وراثة هذا العنصر لحكم السلطنة بعد أسرة قلاوون، غير أن ذلك لم يتم إلا بعد معارك طاحنة، تحزب على إثرها المماليك إلى عدة أحزاب متناحرة، ونتج عن ذلك إهمال شؤون البلاد، كما أن بلاد الشام خرجت غير مرة عن التبعية لمصر، ومع هذه السلطنة ساءت أحوال البلاد بشكل جعل ابن شاهين يصف دولة المماليك الجراكسة بأنها " أسوأ دولة، وعلى يدها كان زوال محاسن مملكة مصر، وقواعد سلطنتها، تغيرت الأحوال، وظهرت الأهوال، وبالله المستعان".[١]

في المقابل نجح تيمورلنك الذي ظهر في أواسط آسيا، في جمع شتات المغول تحت حكمه، إذ أعاد لإمبراطورية جنكيز خان وحدتها، فبعد إكمال سيطرته على أواسط آسيا، شرع في غزو بلاد فارس حيث قضى على الدولة الإيلخانية سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م، وتمكن قبل ذلك من هزيمة

---

[١] نيل الأمل، ٢/١٦٦.

القبيلة الذهبية سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، ولما أكمل سيطرته على الهند سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م توجه بجيشه نحو الغرب حيث السلطنة العثمانية، وسلطنة المماليك.

وتمكن تيمورلنك من الانتصار على عدويه في مشرق المتوسط بسهولة، وساعده على ذلك سوء سياسة فرج بن برقوق، وعجزه عن جمع القوى المملوكية على قرار واحد في التصدي للمغول، ناهيك عن عدم الاستعداد للحرب بشكل جيد، وعدم توفر الخبرة لديه، لذلك فرت جموع المماليك قبل اللقاء مع المغول في دمشق، يُضاف إلى ذلك افتقاره إلى الدبلوماسية الجيدة لاستغلال فرصة المفاوضات مع تيمورلنك، والعرض الذي تقدم به السلطان العثماني للتحالف معاً ضد المغول، ناهيك عن أن سوء سياسة السلطان العثماني (الذي سيطر على ملطية المملوكية بعد وفاة برقوق) حالت دون اجتماع الطرفين، وقد أحسن تيمورلنك استغلال الموقف وواجه عدويه على انفراد وهزمهما سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠-١٤٠١م، و٨٠٤هـ/١٤٠٢م.

صحيح أن مصر قاعدة الحكم المملوكي لم تتعرض لهجوم مغولي مباشر، إلا أن الضربة كانت قاسية لهم، أفقدتهم الظهير الشعبي في بلاد الشام بعد أن تخاذلوا في الدفاع عن هذه البلاد، وحرمتهم من الموارد الاقتصادية التي دمرها الهجوم المغولي بشكل بدأ معه مسلسل الانهيار الاقتصادي الذي توج بالكشوف الجغرافية، وإحاطة الأوربيين للمسلمين من الجنوب بعد الوصول إلى الهند بعد قرن تقريباً.

ومن نتائج تحركات تيمورلنك أن الطرق التجارية في آسيا تعطلت مرة أخرى، وغدا طريق البحر الأحمر الطريق الرئيسي للتجارة الدولية، ولتعويض الخسارة الاقتصادية في بلاد الشام قام المماليك بإحكام قبضتهم على هذا الطريق، واحتكار التجارة فيه، وهذا شكل حافزاً للأوربيين، ودفعهم للمضي قدماً بالكشوف الجغرافية.

أما في آسيا الصغرى فقد غيرت معركة أنقرة توزيع القوى هناك؛ إذ عمد تيمورلنك إلى إعادة إحياء الإمارات التركمانية التي كان العثمانيون قد انتهوا مؤخراً من إخضاعها وتوحيد البلاد تحت سيطرتهم، وبهذا العمل (إحياء الإمارات التركمانية) زال الأساس أو البعد الإقليمي المتماسك الذي استند إليه العثمانيون لتدعيم فتوحاتهم في أوربا الشرقية، كما أن معركة أنقرة أضعفت القوة العثمانية مدة من الزمن، وأخّرت فتح القسطنطينية نصف قرن، فقبيل معركة أنقرة كانت الجيوش الأوربية قد نالت هزيمة ساحقة على يد العثمانيين في معركة نيقوبولس سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٦م، وبات فتح القسطنطينية في ظل الحصار العثماني قاب قوسين أو أدنى، غير أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح بعد هزيمتهم في أنقرة، وتأجل فتح القسطنطينية حتى استعاد العثمانيون عافيتهم، وفي الحقيقة لولا تدمير الجيوش الأوربية في نيقوبولس قبيل هجوم تيمورلنك لكان من المحتمل اجتماع الجيوش المغولية والأوربية ضد العثمانيين، وذهاب ريحهم إلى الأبد.

لم يكن العامل الاقتصادي أقل أهمية من العامل العسكري، وتبرهن أنه من امتلك الاقتصاد امتلك القوة، وفي سبيل ذلك شهدت المنطقة منافسة اقتصادية كبيرة بين القوى العالمية، وسعى كل طرف من خلال منح الامتيازات وتشجيع التجار إلى امتلاك أكبر الأسواق في المنطقة.

فالحروب الصليبية أوجدت حالة جديدة في تاريخ المنطقة؛ إذ شهدت المنطقة آنذاك هجرة قوية من الغرب إلى الشرق، وكان الصليبيون في شرق المتوسط على اتصال دائم ببلادهم للتزود بالإمدادات البشرية والعسكرية، لذلك بدأت حركة ملاحية كبيرة في البحر المتوسط سيطرت عليها الأساطيل الإيطالية، ولا سيما أساطيل البندقية وجنوى وبيزا، فهذه المدن كانت قد ساعدت الصليبيين على احتلال المنطقة الساحلية من بلاد الشام، ونقل الإمدادات لهم من أوربا، ومقابل ذلك حصلوا على امتيازات في المدن الساحلية تطورت هذه الامتيازات إلى أن أصبحت أملاكاً خاصة، وقامت بنشاط تجاري غير مسبوق في المتوسط، وعاد عليها هذا النشاط بثروات هائلة،

كما تطورت قوتها العسكرية إلى أن سيطرت على المتوسط، ودخلت في حروب طاحنة مع بعضها البعض، وأصبحت من قوى المتوسط الرئيسية.

لم يقتصر هذا الثراء على الجمهوريات التجارية الأوربية، بل تعداها إلى سلطنة المماليك التي سيطرت على أهم طريق تجاري في ذلك الوقت، وهو طريق البحر الأحمر بعد أن تعطلت الطرق الآسيوية بسبب حروب المغول المستمرة، ومع تحرير ساحل بلاد الشام أصبحت بضائع هذا الطريق تصرف إلى حدٍّ ما عن طريق الموانئ المملوكية، وغدا الثراء الاقتصادي أهم عوامل قوة السلطنة المملوكية، وسعياً في سبيل إضعافها، عمدت أوربا إلى محاربتها اقتصادياً بعد أن أخفقت في المواجهة العسكرية، فصدرت قرارات الحرمان البابوية التي تحرم المتاجرة مع المماليك، وبدأت سفنها وسفن قبرص تعمل على تطبيق هذه القرارات بالقوة، ولما أخفقت مرة ثانية، شنت سلسلة من الغارات على الموانئ المملوكية النشطة مثل طرابلس وبيروت والإسكندرية، وكانت جزيرة قبرص بحكم موقعها الجغرافي، وبحكم التنافس الاقتصادي القائم مع السلطنة المملوكية، مقراً لعمليات القرصنة هذه ومنطلقاً لها.

أما الجمهوريات التجارية فلم تكن القضية الصليبية تعنيها بقدر تجارتها، لذلك فقد ارتبطت مع السلطنة المملوكية بسلسلة من المعاهدات ضاربة بذلك عرض الحائط بالحرمان الكنسي، ومن ناحية أخرى فالمتاجرة مع الإيطاليين كانت تعني الشيء الكثير للمماليك، فالثراء الفاحش لسلطنة المماليك كان قائماً على التجارة، يضاف إلى ذلك أنها كانت بحاجة ماسة إلى الرقيق الأبيض الذي شكل عماد الجيش المملوكي، ناهيك عن فقرها بالمواد الحربية كالخشب والحديد والقار، وهذا الثراء صُرِفَ معظمه لرفع مستوى الجيش وتسليحه، وهذا ما يفسر سخاء سلطنة المماليك بالامتيازات الممنوحة للتجار الأوربيين الذين وفروا للسلطنة ما تحتاجه.

جريدة المصادر والمراجع

المصادر العربية:

١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد، ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

٣- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت: ٩٣٠هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م.

٤- ابن أيبك الدواداري (عبد الله بن أيبك، ت: بعد ٧٣٦هـ).

- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، وهو الجزء التاسع من الدرة الزكية، تح: هانس رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٦٠م

- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، وهو الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٨٧١م.

٥- ابن بطوطة (أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٨م.

٦- ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف، ت: ٧٨٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة.

٧- ابن الجزري (محمد بن ابراهيم، ت: ٦٩٩ هـ) ، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تح:عمر عبد السلام تدمري،

المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٨- ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني، ت:٦١٤هـ): رحلة ابن جبير، دار الهلال، بيروت، (د.ت).

٩- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن، ت٧٧٩هـ): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م.

١٠- ابن حجي (أحمد بن حجي الحسباني): الذيل على تاريخ ابن كثير، تح: عمر الشامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م.

١١- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبدالله بن عبدالله، ت: حدود سنة ٣٠٠هـ): المسالك والممالك، طبعة مصورة عن طبعة ليدن، مكتبة الثقافة االدينية، القاهرة، (د. ت).

١٢- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد، ت: ٨٠٨ هـ).

- التعريف برحلته شرقاً وغرباً، تح: محمد بن تاويت الطنجي، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٦١م.

١٣- ابن سعيد المغربي (علي بن موسى): كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل المغربي، المكتب التجاري، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

١٤- ابن شاهنشاه الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر، ت: ٦١٧هـ): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٧م.

١٥- ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبد الباسط، ت: ٩٢٠هـ).

- نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا — بيروت، ٢٠٠٢م.

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بولس راويس، طبعة مصورة عن طبعة باريس، ١٨٩٤م، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٨-١٩٨٩م.

١٦- ابن الشحنة (أبي الفضل محمد بن الشحنة): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤م.

١٧- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن شداد، ت: ٦٨٤هـ): تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، ١٩٨٣م.

١٨- ابن شيخ الربوة: شيخ الربوة (محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى.

١٩- ابن صصرى (محمد بن محمد بن صصرى): الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تح: وليم م. برينر، كالفورنيا، ١٩٦٣م.

٢٠- ابن طولون (محمد بن طولون الدمشقي، ت٨٥٣هـ: إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٤م.

٢١- ابن عبد الظاهر (محي الدين، ت٦٩٢هـ).

- الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، ليدن، ١٩٠٢م.

- تشريف الأيام في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، وزارة الارشاد والثقافة، القاهرة، ١٩٦١م.

- الروض في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م.

٢٢- ابن العبري (غريغوريوس الملطي، ت:١٢٦٨م).

- تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت.

- تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٩٢م.

٢٣- ابن العديم (الصاحب كمال الدين بن عمر بن أحمد، ت:٦٦٠هـ).

- زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق-القاهرة، ط١، ١٩٩٧.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر.

٢٤- ابن عربشاه (أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي): عجائب المقدور في نوائب تيمور، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٥م.

٢٥- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت: ٨٠٧هـ): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، بيروت، (د. ت).

٢٦- ابن الفوطي: (كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي، ت: ٧٢٣هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٧- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبي بكر، ت: ٨٥١ هـ) : تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٧٧.

٢٨- ابن القلانسي (حمزة بن أسد، ت: ٥٥٥هـ): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار إحسان، دمشق، ١٩٨٣م.

٢٩- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: ٧٧٤هـ).

- الاجتهاد في طلب الجهاد، تح: سهيل زكار، نشر ضمن كتاب (أربع كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية)، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٧م.

- البداية والنهاية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م.

٣٠-ابن المغيزل (نور الدين علي بن عبد الرحيم، ت ٦٩٦هـ): ذيل مفرج الكروب، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٣١- ابن واصل الحموي (جمال الدين محمد بن سالم، ت: ٦٩٧هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، تح: جمال الدين الشيال، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ج ٥، تح: محمد حسنين ربيع وسعيد عاشور، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م، ج ٦، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، ٢٠٠٤م.

٣٢- ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: احمد البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

٣٣- أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل، ت٧٣٢هـ).

- المختصر في أخبار البشر، تح: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م،

٣٤- أبو شامة (محمد بن عبد الرحمن المقدسي، ت٦٦٥هـ): الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، الجزء ٢٠ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٣٥- الإدريسي (محمد بن محمد بن إدريس): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٣٦- الأزهري الهروي (محمد بن أحمد، ت٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تح: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٧- الإصطخري (أبو اسحاق بن محمد، ت: ٣٤٦هـ): المسالك والممالك، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة.

٣٨- أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٢ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٣٩- بامخرمة (أبو محمد عبد الله): تاريخ ثغر عدن، طبعة ليدن.

٤٠- البدليسي(شرف خان): شرفنامه، تر: محمد علي عوني، القاهرة، ١٩٦٢م.

٤١- البرزالي (القاسم بن محمد ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٨م): المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا — بيروت، د.ت.

٤٢- البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق، ت: ٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

٤٣- البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة، ت: ٦٢٩هـ): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشره وعلق عليه ده ساسي، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٦ هـ.

٤٤- بنياميين (بنيامين بن بونة التطيلي الأندلسي): رحلة بنياميين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م.

٤٥- بيبرس الدوادار (بيبرس بن عبدالله المنصوري الدوادار، ت ٧٢٥هـ).

- التحفة الملوكية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

- مختار الأخبار، تح: عبدالحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

٤٦- تيمورلنك: مذكرات تيمورلنك مدبر العالم، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٥م.

٤٧- الجاحظ (عمرو بن بحر، ت:٢٥٥هـ): الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٤٨- جاك دي فتري (أسقف عكا وبطريرك القدس والنائب البابوي في فرنسا وألمانيا): تاريخ القدس، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٤ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٤٩- جوانفيل (جين): حياة القديس لويس، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٦ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٥٠- الحموي (ياقوت بن عبدالله الحموي، ت: ٦٢١هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٥١- الخزرجي: (علي بن الحسن الخزرجي): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بيسوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

٥٢- دي كانسي: أخباراً من سورية، تر: سهيل زكار، رسالة منشورة ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم ينشر بعد.

٥٣- دي ميجنانللي (تاجر ايطالي كان مقيم في القدس أيام الاجتياح التيموري): حياة تيمورلنك، تر:أحمد سليمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

٥٤- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، ت: ٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٩م، حوادث ٦٧١-٦٨٠.

٥٥- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت: ٦٦٦هـ): مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت – صيدا، ١٩٩٩م.

٥٦- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٥٧- رشيد الدين: (فضل الله الهمذاني): جامع التواريخ.

- أسرة هولاكو تر: محمد صادق نشأة وفؤاد الصياد ومحمد هنداوي، وزارة الثقافة، القاهرة، (د.ت).

- تاريخ غازان تر: فؤاد الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٥٨- الزبيدي (محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ت: ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٥٩- سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله، ت: ٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ٢٠١٣م.

٦٠- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

٦١- سمباط (المؤرخ الأرمني): تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٦ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٦٢- السيرافي (أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي، توفي بعد ٣٣٠هـ): رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م.

٦٣- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن، ت٩١١): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،

المطبعة السلفية، د.ت.

٦٤- شافع بن علي: حسن المناقب السرية، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.

٦٥- الشجاعي (شمس الدين) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، تح: بربارة شيفر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧٨م.

٦٦- صالح بن يحيى (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م): تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩م.

٦٧- الصفدي (خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٦٨- الصيرفي(علي بن داود، ت: ٩٠٠هـ): والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٠م .

٦٩- العثماني (محمد بن عبد الرحمن الحسيني، ت: ٧٨٠هـ): تاريخ صفد، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٩م.

٧٠- العسقلاني: (أحمد بن علي، ت: ٨٥٢ هـ):

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

- إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧١- العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله، ت: ٧٤٩هـ).

- التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي،

٢٠٠٣م.

٧٢- العيني (بدر الدين محمود، ت: ٨٥٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، ط ٢٠١٠م.

٧٣- غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم يُنشر بعد.

٧٤- غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.

٧٥- الفارس الداوي الصوري (جيرارد أوف مونتريل): أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٨م.

٧٦- قرطاي العزي الخزنداري (ت بعد ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٩ م) : تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة المصرية، صيدا – بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٧٧- القرماني (أحمد بن يوسف بن أحمد): أخبار الدول وآثار الأول، دار عالم الكتب، بيروت، (د. ت).

٧٨- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ت: ٦٨٢هـ).

- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٧٩- القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندى، ت: ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٠- كلافيجو (السفير الإسباني): سفارة إلى تيمورلنك ١٤٠٣- ١٤٠٦، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين، دمشق.

٨١- لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٩ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٨٢- ليونتوس ماكارياس: مرويات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

٨٣- مارينو سانوتو: الأسرار، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٨من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٨٤- متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

٨٥- مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،نشره بلوشيه في

PATROLOGIA ORIENTALIS، T.XII.

٨٦- المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، (د. ت).

٨٧- المقريزي (أحمد بن علي، ت: ٨٤٥هـ).

- البيان والإعراب عمن في أرض مصر من الأعراب، وقد نشره رمضان البدر وأحمد قاسم ضمن مجموعة باسم رسائل المقريزي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

٨٨- الملطي (عبد الباسط بن خليل بن شاهين، ت:٨٤٤هـ): نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، تح: محمد كمال الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.

٨٩- الملك المظفر (يوسف بن عمر الرسولي، ت: ٦٩٤): المعتمد في الأدوية المفردة، تح: مصطفى السقا، دار القلم، بيروت، (د.ت).

٩٠- مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد، تر: سهيل زكار، منشور ضمن كتاب تاريخ صفد.

٩١- مؤلف مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، تر: سهيل زكار، الجزء ٦ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٩٢- ناصر خسرو (أبو معين الدين القبادياني، ت: ٤٨١هـ): سفر نامه، تر: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.

٩٣- النسوي (محمد بن أحمد): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تح: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.

٩٤- النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت: ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، مجموعة من المحققين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٩٥- النويري (محمد بن قاسم، ت:٧٧٥هـ): الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق.

٩٦- هرقل: تتمة تاريخ هرقل لتاريخ وليم الصوري، تر: سهيل زكار، الجزء ٥٨ من الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم يُنشر بعد.

٩٧- وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار نوبليس، ط١،

١٩٩٠م.

٩٨- وليم مارسدن: رحلات ماركوبولو، تر: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٤.

٩٩- اليافعي (عبد الله بن أسعد اليمني المكي، ت:٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.

١٠٠-اليعقوبي (أحمد بن اسحاق، ت: ٢٩٢هـ): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤٢٢هـ

١٠١-اليوسفي (موسى بن محمد، ت: ٧٥٩ هـ): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر: ترجمة أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.

١٠٢-اليونيني (موسى بن محمد اليونيني، ت: ٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان، طبعة حيدر أباد، الهند، ١٩٥٤م. والسنوات ٦٩٧-٧١١هـ تح: حمزة عباس، طبعة المجمع الثقافي، الإمارات، ٢٠٠٧م.

ب- المراجع العربية والمعربة:

١- إ.ج.كنغ: رهبان تحت السلاح، تر: سهيل زكار، الجزء ٣٤ من الموسوعة الشاملة، دار الفكر، دمشق.

٢- إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر المماليك، دار المعارف، ١٩٨٣م.

٣- إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م.

٤- أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، ١٩٧٢م.

٥- أحمد حطيط: الكارمية وتجارة الكارم، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد ٥٤، عام ١٩٨٨م.

٦- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

٧- بارتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار إحسان، دمشق،١٩٨٢م.

٨- بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

٩- جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تر: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.

١٠- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١١- حسن الأمين: المغول بين الوثنية والنصرانية والاسلام، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٣م.

١٢- حكيم عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٣- حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣م.

١٤- حميد السيد رمضان: الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، دار الملاح، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٥- حياة ناصر الحجي: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حولية مجلة كلية الآداب بالكويت، الحولية الثانية، ١٩٨١م.

١٦- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.

١٧- رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ١-٨ ترجمة محمد النعيمي، ٩-١٠ ترجمة جمال الخياط، وزارة الثقافة، العراق، ١٩٧٩-٢٠٠٠م.

١٨- رينيه غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م.

١٩- رينيه كروسيه: الحروب الصليبية: ترجمة أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٠- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المترجمين، دار الرائد، بيروت، ١٩٨٠م.

٢١- زيتر سين: تاريخ سلاطين المماليك في مصر والشام، ليدن، ١٩١٩م.

٢٢- زينب عبد القوي: الانجليز والحروب الصليبية، دار عين، مصر، ١٩٩٦م.

٢٣- ستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٨م،.

٢٤- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٩، ٢٠١٠.

٢٥- سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م.

٢٦- سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة إرمينية الصغرى، مقال منشور في الموسم الثقافي ١٩٦٧-١٩٦٨م للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة.

٢٧- سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٨- سونيا، هاو: في طلب التوابل، تر: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.

٢٩- السيد الباز العريني: المماليك دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

٣٠- الشاطر بصيلي عبد الجليل: الكارمية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث عشر، ١٩٧٦م.

٣١- شعبان طرطور: الدولة الجلائرية، دار الهداية، ١٩٨٧م.

٣٢- صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٩٨٤.

٣٣- صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصرفي العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، ١٩٥٤.

٣٤- عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، ١٩٩٧م.

٣٥- عباس إقبال: تاريخ المغول من حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م.

٣٦- عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٣٦.

٣٧- عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، القاهرة، (د. ت).

٣٨- عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٣٩- عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤.

٤٠- عفاف صبرة :العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة، القاهرة، ١٩٨٣م.

٤١- علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م.

٤٢- فايز اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة إرمينية، دار الفكر، الاسكندرية، ١٩٨٧ م.

٤٣- فايز اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، مقال منشور في الندوة الدولية عن الاقتصاد بين العرب والأرمن، القاهرة، ٢٠١٠م.

٤٤- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٥- فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، جامعة قطر، ١٩٨٧م.

٤٦- فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

٤٧- فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، تر: محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢م.

٤٨- قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م

٤٩- قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٩م.

٥٠- كريستوفر ماريشال: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية (المائة الثانية)، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

٥١- كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٥٢- ليلى عبد الجواد: مصر على مفرق الطرق، القاهرة، ١٩٨٧م.

٥٣- ماير: الملابس المملوكية، تر: صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د. ت).

٥٤- محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ١٩٩٠م.

٥٥- محمد الأشقر: تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٥٦- محمد قنديل البقلي: التعرف بصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

٥٧- محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣م.

٥٨- محمد محمد شراب:معجم بلدان فلسطين، دار المأمون، دمشق، ١٩٨٧م.

٥٩- محمد محمود النشار: علاقة مملكتي قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك، دار عين، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

٦٠- محمد نغش: الرسائل الحربية في عصر الدولة الأيوبية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد ٥٧.

٦١- محمود سعيد عمران: المغول والأوربيون والصليبيون، دار المعرفة، الإسكندرية،٢٠٠٤م.

٦٢- مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، دار نوبل، دمشق، (د.ت).

٦٣- مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.

٦٤- مظهر شهاب: تيمورلنك، رسالة دكتوراه في جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨١م.

٦٥- المعجم الجغرافي للقطر السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٢م.

٦٦- الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

٦٧- نادية مصطفى وآخرون: العلاقات الدولية في العصر المملوكي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٦٨- نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

٦٩- نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة (١٢٧٤-١٥٨٠م)، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

٧٠- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، تر: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥-١٩٩٤م.

٧١- هيوج كندي: القلاع الصليبية، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد.

ج- المراجع الأجنبية:

(الإنكليزية)

1- Balducci Pagolotti, F.: La Pratica della mercatura. ed. A. Evans Cambridge. 1936.

2- Beazley, C.R: The dawn of Modern Geography. 3vols, Oxford, 1901 – 1906.

3- Bloch et (E): Introduction a l' histoire des Mongols. London، 1910.

4- Boase, T. S. R.: Kingdom and strongholds of the Crusaders, London, 1971.

5- Powicke, F.M: king Henry III and The Lord Edward vol II, Oxford, 1977.

6- Boyle، John Andrew: The LL Khans of Persia and the Christian West History Today, XXXIII. 1973.

7- Browne، Aliterary history of Persia، Vol. III، The tartar dominion، 1265- 1502، Cambridge university press، 1951.

8- Byrne, R. H.: Commercial Contracts of the Genoesews in the Syrian Trade of the 12th Century. Vol. xxxl. 1916 –

1927.

9- Cambridge: Medival History، Vols. IV.

10- Hill(G): A History of Cyprus, 3vols, Cambridge.1940-1948

11- Hodgson, F. G.: Venice in the Thirteenth and Fourteenth Centuries, London, 1972.

12- Howorth, H.H:A History of the Mongols(From The 9th Century. London 1880-1888).

13- kings the knights hospitallers in Holly Land، London، 1931.

14- Land Pooles(s):A History Of Egypt in the Middle Ages، London، 1925.

15- Luttrel، A.T. " The Hospitallers Interventions in The Cilician Armenia: 1291 – 1375، in the Cilician kingdom of Armenia، edited by T.S.R Boase، Edinburgh & London، Scottish Academic Press. 1978.

16- Mirce Eliade: Shamanism, Archaic Techniques of Ecstasy, Translated from the French by Willard. R. Trask,

Londom, 1951.

17- Norgate, (K): Richard tha Lion H eart, London, 1924.

18- Saunders: The Histroy of the mongol conquests. London. 1971.

19- Sirarpie Der Neressian: The Armenians، Norwich، 1972

20- Stewart Angus: The Assassination of king Hetum II: The Conversion of The Likens and The Armenias، in JRAS، series 3،15،I،(April،2005).

21- Throop، p. A.: Criticism of the Crusade A study of public opinion and Crusade propaganda، Philadelphia، 1975.

22- Tompson. J. W.: Economic and Social History of the Middle Ajes. 2 Vols. Newyork. 1959.

23- Tyerman G: England and the Crusades 1095 – 1588 Chicago، 1988.

24- Vasiliev: Histore of the Byzantine Empire. 2volm، Madison، 1952.

(الفرنسية):

1- Amari, M.: Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino ;1863.

2- Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie. ED.R.H.C. – Doc. Arm، II، Paris 1869 – 1906.

3- Hayton، La Flor des Estoires de La Terre D'orient، in (R.H.C.Doc.Arm.).

4- Le Connetable Sempad Chronique du Royaume de la petite Armenie. Ed.R.H.C. - Doc.Arm.I، Paris، 1869 – 1906.

.

5- Mas Latrie: Traite des Paixet de Commerce et documents diveres Concerceet les Selations des Chretians avec les Arebes de lafrique au mouen age, Paris, 1865.

-Hist. de chypre, 3 Vols, Paris, 1861.

6- Mutafian Claude، Le Royaume armenien de cilicie XIIe – XIVe Sie'cle. Paris، CNRS editions. 2001.

7- Recueil Historiens des Croisades Documents Armeni ns. Paris. 186-1906.

8- Tafel, G. L. F. and Tomas, G. M. : Urkunder Zur alteren Handels – und Staatsges chichte der Republik Vending Mit besonderer Beruckichtiqung auf Byzanz Und die Levanto. 3 vols (1856-1857).

Abstract

The Eastern Part of the Mediterranean Sea Basin was of great importance in the events of the late Middle Ages. This part encompassed the coasts of Egypt, The Levant and the eastern part of the southern coasts of Minor Asia. At that time, a lot of events happened in this area after the coming of the Crusaders. The paper tackles this part of the world ranging in time from AynJaloutbattle to Taymourlank invasion (658-808 H / 1260-1405 A.D.). What distinguished this era is the many forces and events which occurred in this area. The crises of those events was when Al-Magoul invaded the area and when the Mamlouk succeeded in confronting them in AynJalout battle (658 H / 1260 A.D.).The distribution of forces in the area has changed due to this battle and the Mamlouk became the principal and dominant force in the Eastern part of the Mediterranean Sea after their success in facing the recurrent attempts of Al-Magoul to occupy the region and also after their success in freeing The Levant and Minor Asia's coasts from the Crusaders and the Armani. Due to these reasons, it is necessary to study the development of this era in a separate paper since previous papers dealt witheach force in the region by its own. This paper, however, deals with an entire area, with its intermingling and interacting events. It is a critical

and a complicated piece of work because there are numerous fighting forces. Add to it the fact that a lot of events such as occupation, liberation and the upcoming of new forces took place.

This paper is divided into five chapters. Each chapter touches upon the relationship of the Mamlouk – as they are the dominant force – with other forces. First, I introduced the resources and references, then I provided a background to the region and the distribution of forces. The first chapter talks about the relationships between Al-Magoul and the Mamlouk and their fighting against each other from AynJalout battle (658 H / 1260 A.D.) until signing apeace treaty in 723 H / 1323 A.D. This chapter was divided into units according to the reign years of the Mamlouk kings who confronted Al-Magoul. This chapter also touches upon the coalition attempts between Al-Magoul and Europe against the Mamlouk.

The second chapter talks about the military operations of the Mamlouk against the Crusaders in the coast of The Levant, which ended after thirty yearsin liberating the coast and dismissing the Crusaders in 690 H / 1291 A.D. This chapter also talks about the European piracy of the Mamlouk

coasts and the most prominent of which is the Cyprus invasion of Alexandria in 767 H / 1375 A.D.

The third chapter talks about the relationship of the Mamlouk with the third part, namely Minor Armenia Kingdom in Kilikiaregion. It also talks about the establishment of this kingdom and its role in the events of the Mediterranean Seaeastern part at that time and its relations with its neighbors. After that, the researcher talks in details about the Mamlouk assaults against this kingdom until it was eliminated.

The fourth chapter was dedicated to talk about the international changes in the region in the late eighth and the beginning of the ninth century of Hijra (the late fourteenth century and the beginning of the fifteenth century A.D.). The most important change was the establishment of the MamloukState and the accompanying disturbances, especially in The Levant. One of these changes also was Taymourlank invasion to Minor Asia and its results, which caused a lot of changes in the Middle East.

This paper does not tackle the political aspects only because it touches upon the economic aspects as well – but not economy in the broad sense of the word – as this is a wide domain and needs separate studies. This paper tackles the political economy,

i.e. the effect of economy on the international policy. So, chapter five views the most important trade centers and routes, exchanging goods and the international trade forces and their relationships with the political and military forces.

In the Conclusion, the results which the researcher came up with were viewed and the appendixes, resources and references which the researcher used were listed at the end of this paper.

Damascus University

Faculty of Arts and Humanities

History Department



East of the Mediterranean Sea in Mamlouks Ages

"A Historical and Economic Study of the History of the Area from Ayn Jalout Battle to Taymour Invasion"

658 – 808 H / 1260 – 1405 A.D.

A Dissertation Submittedin Accordance with the Requirements for the PhD Degree in the History of the Arabs and Muslims

Prepared by:

Anas Abdullah Al-Muhammad

Supervised by:

Prof. Dr. Suhail Zakkar

2014